سلسلة التراث التربوي الإسلامي

(٢)

# نُصُوصٌ مِنَ التُّرَاثِ التَّرْبَوِيِّ الإِسْلَامِيّ



الدُّكْتُور

فَتْحِي حَسَن مَلْكَاوِي

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المَعْهَدُ العَالَمِيُّ للفِكْرِ الإِسْلَامِيّ

# نُصُوصٌ مِنَ
# التُّراثِ التَّرْبَوِيِّ الإِسْلامِيِّ

# نُصُوصٌ مِنَ
# التُّراثِ التَّرْبَوِيِّ الإِسْلامِيِّ

الدكتور
فتحي حسن ملكاوي

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي




© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

**نصوص من التراث التربوي الإسلامي**

تأليف: فتحي حسن ملكاوي

**موضوع الكتاب:** ١- نصوص تراثية ٢- التراث الإسلامي
٣- التراث التربوي الإسلامي ٤- كتب التراث التربوي الإسلامي
٥- علماء التراث التربوي الإسلامي ٦- البحث العلمي في التراث

**ردمك (ISBN):** ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٨٠٤-٣

**المملكة الأردنية الهاشمية**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٧/١٢/٦٣٣٧)

ردمك (ISBN): 978-9923-708-00-2

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

**المعهد العالمي للفكر الإسلامي**

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

**مكتب الأردن - عمان**

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

**النشر والتوزيع**

مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: ٩٦٢٧٩٧٠٠٠٧٠٩+ - فاكس: ٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧+
Email: gm@hncjo.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها


بسم الله الرحمن الرحيم

# المحتويات


**المقدمـــــــــــة** ..... ٩

**الفـــــصل الأول**: رسالة "المسترشدين" للمحاسبى ٢٩

**الفـــصل الثـــاني**: رسالة "المعلمين" للجاحظ ٥٣

**الفـــصل الثالـــث**: كتاب "آداب المعلمين" لابن سحنون ٦٩

**الفـــصل الرابـــع**: رسائل "إخوان الصفا وخلان الوفا" ٨٣

**الفـــصل الخـــامس**: كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم" لابن الجزار ١٠٩

**الفـــصل الـــسادس**: كتاب "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" لأبي الحسن القابسى ١٣٣

**الفـــصل الـــسابع**: كتاب "تهذيب الأخلاق" لمسكويه ١٦٩

**الفـــصل الثـــامن**: كتاب "السياسة" لابن سينا ٢٠٥

**الفـــصل التاســـع**: رسالتا "مراتب العلوم" و"مداواة النفوس" لابن حزم ٢١٧

**الفـــصل العـــاشر**: كتاب "منهاج المتعلم" للغزالي ٢٥٥

**الفصل الحادي عشر**: كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجى ٢٩٣

**الفصل الثاني عشر**: كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة ٣١٥

**الفصل الثالث عشر**: كتاب "قناطر الخيرات" لأبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى ٣٤١

**الفصل الرابع عشر**: كتاب "تحفة المودود بأحكام المولود" لابن قيم الجوزية ٣٧١

**الفصل الخامس عشر**: كتاب "مقدمة ابن خلدون" لعبد الرحمن بن خلدون ٤٠٧

**الفصل السادس عشر**: كتاب "منية المريد في أدب المفيد والمستفيد" للعاملي ٤٤٩

**الفصل السابع عشر**: كتاب "تحرير المقال في أدب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال" لابن حجر الهيتمى ٤٩٩
**الفصل الثامن عشر**: كتاب "الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد" للغزِّي ٥١٩
**الفصل التاسع عشر**: كتاب "آداب العلماء والمعلمين" للمنصور بالله الحسين ٥٦٩
**الفصل العشرون**: كتاب "أدب الطلب ومنتهى الأرب" للشوكاني ٦٠٣
**الخاتمة** ..... ٦٥٧
**المراجع** ..... ٦٥٩
**الكشاف** ..... ٦٦٣

# المقدمة

يـحتوي هذا الكتاب على عشرين نصَّاً من نصوص التراث التربوي الإسلامي اخترناها من بين أكثر من مائة نصٍّ استطعنا الاطلاع عليها. بعض هذه النصوص كاملة كما جاءت في مصدرها التراثي، وبعضها الآخر مختارات من النصوص الأصلية التي تمتد أحياناً إلى مئات الصفحات فيصعب تضمينها كاملة لطولها، ولحرصنا على أن تأتي هذه النصوص المختارة في مجلد واحد. وفي حالة الاختيار من نص معين حرصنا على أن تكون المادة المختارة ممثلة للنص الكامل، من حيث الموضوعات الرئيسية فيه.[1]

ونظراً لأَنَّ التراث التربوي الإسلامي يتَّصف بقدر كبير من التنوُّع والتعدُّد في مُصنَّفاته، ومدارسِه، وموضوعاته، فإنَّ من المفيد أن تراعي عملية إعداد كتاب في نصوص هذا التراث حضورَ هذا التنوُّع والتعدُّد، والكشفَ عن تجلياته في مصنَّفات التراث، وما يمثّله من تنوّع في تخصّصات المصنِّفين واهتماماتهم، ومدارسهم الفكرية، والظروف التي سادت العالم الإسلامي في الزمن الذي كتبت فيه المادة، وغير ذلك. ورغبة في تمثيل هذا التنوُّع والتعدُّد بالقدر الذي يتَّسع له كتاب من مجلد واحد جاءت هذه المادة لتغطي مختارات من عشرين نصاً من نصوص التراث، كتبها عشرون عالماً من علماء التراث. وقد تضمن الكتاب بالإضافة إلى كلِّ نص من النصوص المختارة تعريفاً موجزاً بالكتاب والمؤلِّف.

وقد شعرنا بالحاجة إلى كتاب من هذا النوع، نتيجةً لما كان يصلنا من الشكوى عن المعاناة التي يلاقيها الباحثون في الوصول إلى النصوص الأصلية للتراث التربوي

---

(١) أثناء عملنا في البحث التربوي والتدريس الجامعي مدَّةً لا تقل عن أربعين عاماً، حرصنا على التعرف إلى نصوص التراث التربوي الإسلامي في مصادرها المختلفة، فكانت حصيلة هذه المصادر التي اطلعنا عليها (١٠٨) مصادر. أثبتنا قائمة ببليوغرافية مشروحة بها في ملحق الكتاب الأول من هذه السلسلة "التُّراثُ التَّرْبَوِيُّ الإسْلَامِيّ: حالةُ البحث فيه، ولمحاتٌ من تطوُّره، وقطوفٌ من نُصوصِه ومَدَارِسِه".

الإسلامي، عندما يرغب أحدهم في اختيار بحث في أحد موضوعات التراث، ويكتفي بما يتيسر له الوصول إليه، فتَفوتُه ملاحظة التنوُّع في مادة التراث من حيث الموضوع والمنهج واللغة وغير ذلك. ويؤْثِر بعض الباحثين اللجوء إلى المراجع الوسيطة التي يعتمدون فيها على من سبقهم بإجراء مثل هذه الدراسات. ومن ثَمَّ تفوتهُم كذلك فرصة قراءة النصوص الأصلية واكتشاف ما قد يكون فيها من خصوصيات الفكر واللغة والمنهج.

وهذا الكتابُ هو الثاني في سلسلة كتب التراث التربوي الإسلامي، سبقه الكتاب الأول بعنوان: "**التُّراثُ التَّرْبَوِيُّ الإِسْلَامِيّ: حالةُ البحث فيه، ولمحاتٌ من تطوُّره، وقطوفٌ من نُصوصِه ومَدَارِسِه**"، الذي تولى مهمة مسح الكتابات التي كتبت عن التراث التربوي الإسلامي، وهي كتابات كثيرة جداً، ليس من السهل الإحاطة بها، ولكنَّ من المفيد تصنيفها في عدد من الفئات المناسبة، والنظر الإجمالي في مواد كل فئة. فمن حيث الجهات التي أنتجت هذه الكتابات يمكن ملاحظة أنَّ بعضَها مشروعاتٌ بحثية كبيرة قامت بها مؤسسات للبحث والنشر، ومنها بحوث مفردة أجراها باحثون وأساتذة جامعات، ومنها أطروحات جامعية قدمَّها طلبة دراسات جامعية عليا. ومن حيث موضوعات هذه الكتابات، فقد وجدنا أنَّ بعضها اقتصر على تحقيق بعض نصوص التراث، أو دراسة بعض هذه النصوص وتحليلها، أو دراسة عَلَمٍ من أعلام التراث، أو موضوع من موضوعاته، أو المنهج المستخدم في عرضه، وغير ذلك.

وسوف يلي هذا الكتاب الثاني كتاب ثالث بعنوان: "**مشروعات بحثية في التراث التربوي الإسلامي**"، يتولى إجراء قدر من التحليل لنصوص التراث عن طريق اختيار عدد من الموضوعات التربوية الأساسية والكشف عن الطريقة التي حُضِّرت فيها هذه الموضوعات، في مجمل كتب التراث الإسلامي. وقد صيغت مادة الكتاب الثالث لتكون عناوين لمشروعات بحثية مقترحة، يفتح بها الكتاب باب المشروع بصورة تسمح للباحث أن يطلع على خريطة عناصره، لِيُعينَه ذلك على استكمال المشروع بقدر من العمق والشمول، أو اختيار عنصر واحد من عناصر تلك الخريطة،

لإجراء بحث متعمق في موضوع ذلك العنصر.

ويستطيع القارئ لهذه السلسلة أو لأيّ كتاب فيها أنْ يستنتج أنَّ الجمهور المستهدف بالدرجة الأولى هو جمهور الباحثين الراغبين في استيعاب التراث والتَّمكُّن منه، ووضعه موضع الاستفادة. والأمل أنْ ترسم هذه السلسلة من الكتب خريطة إجمالية للتراث التربوي الإسلامي؛ خريطةً تبين المعالم العامة في عناصر هذا التراث، وامتداده في الزمان والمكان، وتنوُّعه في الموضوع والمذهب والمنهج، وتعبيره عن الخبرة التي تحققت لمؤلفيه. والأهم من ذلك أن يتمكن القارئ المعاصر للتراث أو الباحث فيه من تحديد ما يأخذ منه وما يَدَع.

وقد اكتفينا في هذا الكتاب بنصوص التراث التربوي الإسلامي نفسها. لتتحدث النصوص عن نفسها، وليتذوق القارئ لغة التراث وأساليب عرضه للموضوعات التعليمية، تاركين أمر التحليل والدراسة للكتاب الثالث الذي أشرنا إليه وللمبادرات والاجتهادات التي يمكن أن يقوم بها الباحثون.

ومن الإنصاف أنْ نذكر أنَّ كثيراً من البحوث والدراسات ودور النشر تولَّت تحقيق ونشر نصوصٍ من التراث التربوي الإسلامي، وقد تَـمَّ ذلك بصُوَرٍ مختلفة، منها نشر نص واحد من نصوص التراث التربوي مع دراسة موجزة للنص في كتاب مستقل، أو ضمن سلسلة من الكتب.[1] وفي بعض الأحيان كان النشر في الكتاب الواحد لنصَّيْن كاملين مع الدراسة،[2] أو لخمسة نصوص

(١) وفي هذا النوع أمثلة كثيرة، نذكر منها ما فعله عبد الأمير شمس الدين الذي نشر عدداً من نصوص التراث مع دراسة موجزة عن كل نص، ضمن موسوعته المسماة: موسوعة التربية والتعليم الإسلامية، ومن ضمنها نصوص ابن طفيل، وابن خلدون، وابن الأزرق، وابن جماعة، والسمعاني، وابن سينا، والعاملي، إلخ.

(٢) كما فعل الأهواني في كتابه الذي نشر فيه كتاب ابن سحنون، ورسالة القابسي. انظر:

- الأهواني، أحمد فؤاد. **التربية في الإسلام** (ملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي، وآداب المعلمين لابن سحنون)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م، (٣٨٠ صفحة). وهو في الأصل أطروحة الدكتوراه للمؤلف في جامعة القاهرة.

كاملة.[١] وقد وجدنا مَنْ نَشَرَ مقتطفات قصيرة من نصوص عدد كبير من مصادر التراث الإسلامي في التاريخ والأدب والتصوف والفقه والحديث والفلسفة، وجاءت هذه المقتطفات موزعة تحت عناوين أبواب رئيسية مثل: التعليم، المعلم، والمتعلم، والمناهج التعليمية، والهياكل (المؤسسات) التعليمية وأنواع التربية: العقلية والأخلاقية واللسانية...[٢]

وأسهم كاتب هذه السطور كذلك في نشر مختارات مطولة من ثمانية نصوص في التراث التربوي الإسلامي نشرتها جامعة برغهام يونع في ولاية يوتا الأمريكية مع ترجمتها إلى الإنجليزية.[٣]

ومن الملاحظ أنَّ بعض نصوص التراث نالت عناية أكبر مما نالته غيرُها، فنصوص التراث التربوي التي كتبها ابن سحنون، والقابسي، والزرنوجي، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن خلدون، وابن جماعة، نجدها محقَّقَة ومنشورَة مرات كثيرة.

أمَّا كتابنا هذا فإنَّنا نشير في هذه المقدمة إلى عدد من المسائل التي ربَّما تضع الكتاب في مكان مناسب في موضوع التراث ونصوص التراث. ومن هذه المسائل ما يأتي:

---

(١) كما فعل هشام نشابة في كتابه الذي ضم خمس مخطوطات في التراث التربوي الإسلامي: للغزالي، وابن جماعة، وابن حجر الهيتمي، وزكريا الأنصاري، وابن سينا. انظر:

- نشابة، هشام (جمع وتحقيق وتقديم). **التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

(٢) انظر في ذلك:

- النجار، إبراهيم. والزريبي، البشير. **الفكر التربوي عند العرب**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م، (٨١٥ صفحة)، وقد تضمن الكتاب مقتطفات تفاوت حجمها ما بين فقرة واحدة وثلاث صفحات.

(٣) وكانت النصوص المختارة من كتب ابن سحنون، وإخوان الصفا، والقابسي، ومسكويه، والغزالي، والزرنوجي، وابن جماعة، وابن خلدون. انظر:

- Malkawi, Fathi and Cook, Bradley. *Classical Foundations of Islamic Educational Thought*, Provo, Utah: Brigham Young University Press, 2010, (612 pages)

## أولاً: تاريخ التراث التربوي ومؤسساته ومؤلفاته

التراث البشري المكتوب قديمٌ قِدم التاريخ البشري المدوَّن، فمادة التعليم في المؤسسات التعليمية القديمة هي جزء من هذا التراث، سواءً أكان تعليماً دينياً أم فلسفياً أم حِرَفِياً. فالعلماء والربانيون وحواريو الرسل وتلاميذُهم كانوا يجتهدون في تعليم الناس هداية الوحي والنبوَّات، ويكتبون لهم المتون والشروح ليدرسوها ويتعلَّموها.

وقد عُرفت الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين قبل الميلاد بحوالي خمسة آلاف سنة. ويشير المؤرخون أنَّ حمورابي جاء بعد نَبِـيِّ الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأربعمائة عام، ولذلك يُظهرون بعض التشابه بين مواد شريعة حمورابي، التي تعود إلى العام ١٧٩٠ قبل الميلاد، وصحف إبراهيم التي نجد بعض نصوصها في التوراة.

وعَرفت اليونان القديمة أنواعاً من المؤسسات التعليمية التي كانت تُعلِّم ما يُطلق عليه اليومَ مصطلحُ التراث الفلسفي. فمن أشهر نصوص التراث الفلسفي اليوناني ما كان يجري تعليمُه في محاورات أفلاطون في مبنى خاص أطلق عليه أكاديمي Academy، وقد بُني خارج أثنيا حوالي عام ٣٨٧ قبل الميلاد. ومنه ما كان يلقيه أرسطو الذي بنى الأكاديمية الجديدة التي عرفت باسم ليسيوم أو اللوقيون Lyceum حوالي عام ٣٣٥ قبل الميلاد. ومنه مكتبة الاسكندرية في مصر التي بناها خلفاء الاسكندر عام ٣٣٠ قبل الميلاد، واحتوت على سبعمائة ألف مجلد من الكتب. وكانت مكاناً يلتقي فيه طلبة العلم والمفكرون من آسيا وأفريقيا وأوروبا، لدراسة العلوم التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ولا سيما الفلسفة واللغة والرياضيات. وتعد أقدم مكتبة حكومية عامة في العالم القديم، لكن المعابد الفرعونية كان فيها مكتبات خاصة بالكهنة.

ومن المعروف أنَّ أماكن التعليم ومواد التعليم في معظم العصور القديمة والوسيطة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين وأماكن العبادة الدينية. وحتى بعد مجيء الإسلام ونزول الأمر بالقراءة في أوَّل نصٍّ من نصوص الوحي، كان من الطبيعي أن تكون القراءة والكتابة والتعليم شأناً متصلاً بالدين، وكان المسجد أوَّلَ بناء بُني في المدينة المنورة، بصفته المؤسسة المركزية للعبادة والشؤون العامة للمجتمع، ومنها التعليم.

ومع ذلك فإنَّ من المتوقع كذلك أن تُـخصَّص بعضُ الأماكن لتعليم الصبيان، فقد كتب المستشرق الألماني جولد تسهير مقالاً مهماً في دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأوَّليِّ عند المسلمين، حاول فيه أن يثبت أن كُتّاب تعليم القرآن ومبادئ الإسلام قد أنشيء في عهد مبكر، وأنه يرجع إلى صدر الإسلام، واستند في ذلك إلى بعض الأدلة التي تشهد بوجود الكُتَّاب والمعلمين الذين كانوا يُعلِّمون فيها. ومن ذلك أنَّ أمَّ سُليم والدة أنس بن مالك خادم النبي ﷺ، وفي بعض المصادر أم سلمة -إحدى زوجات النبي ﷺ- طلبت من معلِّم الكتَّاب أن يُرسل إليها بعض التلاميذ لمساعدتها في نَدْف الصوف؛ وأنَّ عمرو بن ميمون الأوْدِيّ كان يعلِّمُ الصيغة التي تقي الإنسان شرَّ العين، وقد أخذها من سعد بن أبي وقاص الذي كان يعلمها أولادَه ويكتبُها لهم، مثلما يفعل المدرس مع تلاميذه؛ وأنَّ أبا هريرة وابن عمر وأبا أسيد مروا بكُتَّاب ولفتوا انتباه الأطفال، وأنَّ الألواح التعليمية التي يستعملها الأطفال في التدرُّب على الكتابة كانت مستعملة في وقت مُبكِّر جداً، فقد روي أنَّ الصحابية أمَّ الدرداء كتبت بعض عبارات الحكمة على اللوح، وكان ذلك درساً في القراءة لطفل كانت تعلِّمُه.[1]

## ثانياً: معنى التراث

ورد في لسان العرب لابن منظور: ابن الأعرابي: الوِرْثُ والوَرث والإرث، والوِراث، والإراث، والتراث واحد. وقال ابن الجوهري: الميراث أصله مِوْراث، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها، والتراث أصل التاء فيه واو. ابن سيده: والوِرث والإرث، والتراث والميراث: ما وُرِث؛ وقيل: الوِرث والميراث في المال، والإرث في الحسب.[2]

---

(1) Goldziher, Ignaz. *Encyclopedia of Religion and Ethics*, Edited by James Hastings and John a. Selbie, Edinburgh: Charles Scribner's Sons, I912, v. 5, p. 199, see the the English text at the link:

- https://archive.org/stream/encyclopaediaofr05hastuoft/encyclopaediaofr05hastuoft-djvu.txt

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، (د. ت.)، مادة (ورث)، ج٢، ص١٩٩-٢٠١.

وردت الألفاظ المشتقة من الفعل الثلاثي (وَرِثَ) في القرآن الكريم في خمسة وثلاثين موقعاً، بصيغة الفعل والاسم، المفرد والجمع.[1] فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وله ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقد ﴿وَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقد دعا زكريا ربَّه أن يهبَه ولياً يَرِثُهُ ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]. ومن طبع الناس في هذه الدنيا أنَّهم يأكلون ﴿ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، والأرض ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وحين عاقب المسلمون بني قريظة على نقضهم العهد في غزوة الخندق، قال الله للمسلمين: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، والآيات كثيرة في توزيع مال الميت على ورثته، وهي تفصِّل النِّسَبَ التي يحصل عليها كلُّ وارث.

وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ بعث ابن مربع الأنصاري إلى أهل عرفة، وقد كان المسلمون وُقُوفاً فِي مَكَانٍ تُبَاعِدُهُ مِنْ الْمَوْقِفِ فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيْكُمْ، يَقُولُ: كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ، فَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ.[2] وإرث إبراهيم ليس مالاً، ولكنَّه دينٌ وعلم وهداية.

وعنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "... وإِنَّ الْعُلَمَاءَ هم وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ."[3]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ، كان يدعو فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِسَمْعِي

---

(١) عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، بحاشية المصحف الشريف، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠م، مادة (ورث)، ص٩١٦-٩١٧.

(٢) القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دمشق: دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م، أبواب: المناسك، باب: الموقف بعرفة، ج١، ص٢١٥، حديث رقم: (٢٢٩).

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٠، حديث رقم: (٢٢٣).

وَبَصَرِي وَاجْعَلْهُمَا الوَارِثَ مِنِّي؛[1] أي أبقهما معي صحيحين سليمين حتىٰ أموت.

## ثالثاً: تمثُّلات التربية والتعليم في التراث الإسلامي

إنَّ معظم مادة التراث الإسلامي هي مادة تعليمية، وكان دافعُ التدوينِ هو الخوف من ذهاب العلم بذهاب العلماء الثقات، فكان المطلوب هو تدوين الحديث وإفشاؤه والجلوس لتعليمه وتعلُّمه، وقد روىٰ البخاري في صحيحه في باب كيف يُقبَضُ العلم ما نصُّه: و"كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ أبي بكر بن حزم عامله علىٰ المدينة: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكْتُبْه، فإنِّي خِفْتُ دروس العلم وذهابَ العلماء، ولا تقبلْ إلا حديث النبي ﷺ، ولْتَفْشُوا العلم، ولتجلسوا حتىٰ يعلم من لا يعلم، فإنَّ العلمَ لا يَهْلِكُ حتىٰ يكونَ سراً."[2]

وتَعُدُّ معظم المصادر التاريخية كتابَ "الموطأ" للإمام مالك بن أنس (توفي ١٧٩هـ)، أوَّل تدوين في الفقه، ذلك أنَّ منهجه أنْ يبدأ بالأحاديث الواردة في المسألة الفقهية الواحدة، ثم يذكر عملَ أهل المدينة وآراء الصحابة والتابعين، ثم يُوازن بين تلك الأدلة، ويرجِّح الحكم الذي يستنبطه منها، لذلك فإنَّ الموطأ هو مزيج من حديث وتفسير وفقه وتاريخ؛ لأنَّ العلوم لم تكن قد تحددت معالمها بعد، ولارتباط هذه العلوم بعضها ببعض، وتداخلها، بحيث احتاجت هذه العلوم إلىٰ وقت طويل تطورت فيه حتىٰ انفصل بعضها عن بعض، واتخذت معالمها المحددة التي هي عليها اليوم.[3]

---

(١) النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم. **المستدرك علىٰ الصحيحين**، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، كتاب: الدعاء والتهليل والتسبيح والذكر، ج١، ص٧٠٩، حديث رقم: (١٩٣٣).

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب: العلم، باب: كَيْفَ يُقْبَضُ العِلْمُ، ص٤٥، قبل الحديث رقم ١٠٠.

(٣) من مقدمة محمد كامل حسين لكتاب "الموطأ". انظر:

- الأصبحي، مالك بن أنس. **الموطأ**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م، ص ك.

وعندما أخذت عمليات التدوين تتوالى في القرن الثالث والرابع الهجريين، أصبحت الكتب التي يتم تأليفها في الفقه والتفسير والعقائد وغيرها، هي مادة التعليم، تُدرَّس وتُستنسخ وتُحفظ.

ولا تزال كتبُ التراث مادةً أساسية في مناهج التعليم في مؤسسات التعليم الديني في مختلف أنحاء العالم.

وقد تنوَّعت موضوعات كتب التراث التي كانت علماً للتعلُّم والتعليم، وكانت تتضمَّن أحكاماً وممارسات عن التربية والتعليم، فمنها كتب في الحديث، والفقه، والتفسير، والأدب، والتاريخ، والرحلات، والتصوف، وغيرها. ولم يكن التعليم علماً متخصصاً، وإنَّما كان ممارسة لتعليم تلك الموضوعات. ولذلك كان في معظم الكتب المشار إليها نبذٌ وفصولٌ عن التعليم والتربية والتأديب والتنشئة. ومع ذلك فقد بدأ بعض العلماء يكتبون كتباً متخصصة في موضوعات التعليم، وممن اشتهرت كتاباتهم في هذا المجال: المحاسبي، وابن سحنون، والقابسي، وابن سينا، والماوردي، والغزالي، والزرنوجي، وابن جماعة، والعلموي وغيرهم. ومع أنَّ كثيراً مـمَّا كُتب عن التراث التربوي في العصور الأخيرة تركَّز على ذكر أمثال هذه الكتب، فإنّه يندر أن نراجع كتاباً من كتب الحديث، أو الفقه، أو التاريخ، أو الأدب، أو التصوف، أو الفلسفة، أو الرحلات، أو كتب السير، والطبقات، دون أن نجد فيها نبذاً أو فصولاً أو مسائل عن التعليم، إما في صورة أحكام فقهية لما ينبغي أن يكون عليه حال التعليم والمعلم والمتعلم، أو في صورة وصف لما كان عليه حال التعليم في زمان المؤلف، مما رآه، أو سمعه، أو قرأه.

## رابعاً: موضوعات التراث التربوي

تتنوَّع الموضوعات التربوية التي تتضمَّنُها كتب التراث الإسلامي، وذلك تبعاً لما نسميه مدارس التراث التربوي الإسلامي: الحديثية، والفقهية، والصوفية، والتاريخية، والفلسفية، والأدبية، والطبيّة...

- فكتب المدرسة الحديثية كانت تبدأ بما ورد من آيات قرآنية وأحاديث نبوية عن فضل العلم والعلماء، وهو موضوع تشترك فيها معظم كتب التراث من المدارس الأخرى.

- وكتب الفقه ركزت على الأحكام الشرعية التي تحدد ما يجوز وما لا يجوز من ممارسات المعلمين والمتعلمين، نظراً لأَنَّ العلم في التاريخ الإسلامي كان يغلب عليه الفقه، الذي هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. ويشمل ذلك الأجرةَ على التعليم، وحكمَ تعليم الإناث، والجمعَ بين الذكور والإناث في التعليم، واستخدامَ أساليب التأديب بالترغيب والترهيب.

- وكتب الفلسفة تضمنت الحديث عن تصنيف العلوم وطبيعة النفس الإنسانية.

- وكتب التاريخ والرحلات تحدثت عما شاهده المؤرخ أو قرأه عن أماكن التعليم وعددها ومواصفاتها، وشخصيات علمائها، وأوقافها.

- وكتب التصوف تحدثت عن ترغيب الـمُريد في الزهد في الدنيا، والتخويف من الاغترار بها، والطمع في الآخرة، ووصف أحوال الزهاد وتجلياتهم، وأهمية الشيخ في حياة المريد، وأدب المريد مع شيخه، وأمثال ذلك.

- وكتب السير والطبقات تحدثت عن شخصيات العلماء ونبذ من حياتهم، وأقوالهم، ومشايخهم وتلاميذهم، ومصنفاتهم.

- وبعض الكتب ولا سيما المتخصصة في التعليم احتوت على فضل العلم والتعليم والتعلُّم، ووصف موضوعات التعليم، وطرق التعليم، وأماكن التعليم، وآداب العالم والمتعلم، وبعض أساليب التعليم وأدواته ووسائله، من استخدام الورق والأقلام والألواح، وعمليات نسخ الكتب وكيفية تجليدها وتنظيمها وحفظها وإعارتها، وغير ذلك، مما يجري في مؤسسات التعليم.

- وثمة كتبٌ احتوت على فصل أو باب يتحدث عن أماكن التعليم من كتاتيب ومدارس وزوايا ومكتبات، وما يكون في هذه الأماكن من حمامات ومساكن، ومرافق أخرى.

- ويأخذ موضوع الوقف على التعليم حيزاً مهماً في كثير من الكتب، لا سيما وأن معظم أماكن التعليم كانت تُبنَى من خلال الأوقاف التي يحبسها عليها بعض

الأمراء والأغنياء، للإنفاق على التعليم والمتعلمين، ويتضمن الحديث عن هذا الموضوع غالباً كيفية إدارة الوقف وشروطه.

- ومناهج التعليم موضوع مبثوث في كثير من كتب التراث التربوي الإسلامي، والحديث عنها اشتمل على حفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة، والحساب، وأحكام الصلاة والآداب العامة. وبعض الكتب التي تحدثت عن التعليم المتخصص، ذكرت رواية الحديث، وتعليم أصول الفقه، وعلم الكلام، والمنطق. وثمة كتب تحدثت عن تعليم الطب في البيمارستانات، والفلك في المراصد وغيرها من العلوم الأخرى.

## خامساً: التراث التربوي الإسلامي: مطبوع ومخطوط وضائع

من الجدير بالذكر أنَّ معظم ما كُتب عن التراث التربوي الإسلامي كان حديثاً عن كتب وصلتنا، وحُقِّقتْ وطُبعت. وبعض المشاريع الدراسية الكبيرة التي أشرفت عليها مؤسسات علمية شملت دراسة عشرات كتب التراث ومئات العلماء. وهو أمرٌ محمودٌ بكل تأكيد. لكن هذه الكتب المطبوعة هي قليل من كثير لم يُطبع بعد. ولعل من الواجب أن نذكِّر أن آلافاً من كتب التراث لا تزال مخطوطة وموزعة على كثير من المكتبات في العالم، وهذه المخطوطات تُذكِّر بغَنَى التراث الإسلامي في سائر ميادين المعرفة. وحتى هذا المعروف من المخطوطات ربما يكون قليلاً بالنسبة لما ضاع وفُقد واختفى، نتيجة لإهمال الأجيال المتلاحقة، فقد ورد في القصص المؤلمة أن من مجلدات التراث كان يستعمل جزءاً من مباني البيوت، ومنها ما كان يستعمل وقوداً للتدفئة. كلُّ ذلك غير الذي حُرق وأُتلف نتيجة الفتن المذهبية والسياسية والحروب التي تعرضت لها ديار الإسلام. فقد عرف التاريخ أمثلة متعددة من حرق الكتب وإتلافها، ومن ذلك ما يروى عن ابن حزم الظاهري الأندلسي الذي كان حادَّ اللسان في التعرض لفقهاء عصره، فألَّبوا عليه أمير إشبيلية، المعتضد بن عباد، فأمر بهدم داره ومصادرة أمواله وحرق كتبه. ومثل ذلك حصل مع ابن رشد الذي أمر المنصور بن أبي عامر بحرق كتبه في الفلسفة في مهرجان مشهود. فضلاً عما حصل في بغداد عند اقتحام هولاكو لها.

إنَّ التذكير بهذه القضية ربَّما يَلفت الانتباهَ إلى ضرورة الاهتمام بالكتب المخطوطة وحصر أعدادها وأماكن وجودها، وتيسير الوصول إليها، وخدمتها بصور الحفظ والتحقيق والطبع والنشر.[1]

## سادساً: القراءة التحليلية النقدية للتراث التربوي الإسلامي

مصطلح التراث في سياق هذا الكتاب هو نتيجة اجتهاد العلماء في فهم النصوص وتنزيلها على الواقع. وهو اجتهاد بشري يقع عليه الصواب والخطأ؛ ذلك أنَّ الاجتهاد في استيعاب الهدي الإلهي والنبوي في مجالات التعليم، تفاوَتَ من مجتهد إلى آخر، ومن زمان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن مدرسة منهجية إلى أخرى، فالمجتهد قد يكون فقيهاً، أو محدثاً، أو متكلماً، أو مؤرخاً، أو صوفياً، أو فيلسوفاً... إلخ. لذلك لا عجب أن نجد اختلافاً في الاجتهاد.

لكنَّ المعْنِيَّ بقراءة التراث اليوم هو نحن، ونحن نقرأه اليوم في ظروف مختلفة من الزمان والمكان والإنسان. ويحسن أن نأخذ بالحسبان في هذه القراءة عدداً من القواعد المنهجية التي نُنْصِفُ بها تراثَنا وعلماءَنا الذين كتبوه، ونُنْصفُ به أنفسنا في الوقت نفسه. ومن هذه القواعد:

- الاختلافُ في توجُّهات التراث وأحكامِه، واقعٌ في معظمه ضمن الدائرة الإسلامية العامة، التي تتَّسع لقدر من الاختلاف، والتنوُّع في زوايا النظر، والتوجُّه المنهجي والنفسي للمجتهد.

---

(١) تقدير عدد المخطوطات العربية في مكتبات العالم مسألة كثر فيها الجدل وتراوحت التقديرات ما بين مليون ونصف وخمسة ملايين مخطوطة. وقد نشرت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن عملاً ضخماً حول فهارس المخطوطات التي عرفت حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين في معظم أنحاء العالم، فقدر عدد المخطوطات بحوالي ثلاثة ملايين. انظر في ذلك:

- Roper, Geoffrey (Editor). *World Survery of Islamic Manuscripts,* London: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation, 1992, from the forward of the book written by the Chairman of the foundation, p. VII.

- التراث تعبير عن الحالة المعرفية والاجتماعية والسياسية التي سادت العصر الذي كتبت فيه مادته، وقد تكون مادة التراث التربوي والممارسة التربوية متابعة وتقليداً لما ساد في ذلك العصر، أو ما سادَ العصرَ السابق عليه.
- نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومقاصدهما هما المعيار الذي تحاكم إليه نصوص التراث وممارساته. ومن الممكن أن نجد في التراث بعض الممارسات التي تتناقض مع مقاصد الإسلام وتوجيهاته التربوية.
- نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومقاصدهما هما المصدر الذي يمكن أن نستمد منه أيَّ اجتهاد جديد في الممارسات التربوية والتعليمية المعاصرة.
- خبرة التراث التربوي الإسلامي، والخبرة البشرية المعاصرة، تفيدان في استلهام الحكمة الثاوية في نصوص القرآن والسنة وتنزيلها على الواقع.
- القراءة التحليلية الناقدة للتراث التربوي الإسلامي هي التي تمكننا من استيعابه والتمييز ضمن عناصره بين الأفكار الحيَّة التي يلزم تجديدها، والأفكار الميِّتة التي يلزم دفنها، والأفكار المميتة التي يلزم الوقاية منها.

## سابعاً: معايير اختيار نصوص التراث

مادة التراث التربوي الإسلامي كبيرة الحجم، ممتدّة في الزمان والمكان، وهي نتاج مدارس فكرية تُعبِّر عن تنوّعٍ واسع في المذاهب والفِرَق والتخصصات العلمية. وتتوزع نصوصها في كتب متخصصة في مسائل التعليم وأمكنته ومستوياته، من جهة، وفي كتب غير متخصصة في التعليم، لكنها تشتمل -بالإضافة إلى مادة التخصص في الفقه أو الحديث أو الأدب أو التاريخ أو الفلسفة...- على بعض مسائل التعليم وأحكامه وتوجيهاته، من جهة أخرى.

فالإحاطة بمادة هذا التراث في كتابٍ واحدٍ أمرٌ صعبٌ مهما كان حجم هذا الكتاب. ولا سيّما إذا أردنا أن نضمِّن الكتابَ نصوصاً من التراث. فلا بد من الاختيار، ومن ثم تحديد معايير لهذا الاختيار.

وقد اعتمدنا في الاختيار عدداً من المعايير، منها:

- التراث التربوي الإسلامي هو المادة المكتوبة في تنشئة الأفراد وتربيتهم وتعليمهم وتأديبهم من مرحلة الطفولة إلى مراحل التخصص العالية، من أبناء العامة والخاصة.
- المدى الزمني للتراث المقصود في هذا الكتاب يمتد من عصر التدوين في مطلع القرن الثاني الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري. حيث كانت الممارسات التعليمية في معظمها تتم باجتهاد داخل الدائرة الحضارية الإسلامية، وربَّما أصبحت الممارسات والكتابات التعليمية بعد ذلك تتأثر بنتائج الصدمة مع الغرب.
- الحرص على اختيار النصوص بحيث تكون ممثلة للمذاهب الفقهية السنية الأربعة، ومذاهب الإثنى عشرية والزيدية والإباضية والظاهرية، ومثال على الفقه اللامذهبي، إضافة إلى المدارس والتوجهات الفكرية والعلمية: الحديثية، والفقهية، والفلسفية، والتاريخية، والأدبية، والطبية. وحتى يتحقق هذا التمثيل وصل عدد النصوص المختارة إلى عشرين نصاً، لعشرين عالِماً.
- حتى تأتي جميع نصوص التراث المختارة ضمن كتاب واحد، لزم أن نجتزئ من كلِّ نصٍّ ما يكفي للتعبير عن مضمونه إن كان كبير الحجم، ونُثبت النص كاملاً أو معظمه إذا كان حجمه يقل عن عشرين صفحة. وقد جاءت المادة المختارة بصورة تسمح بالمقارنة بين النصوص لبيان أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها.
- إضافة إلى النصوص المختارة وضعنا ترجمة موجزة لصاحب النص، تبيّن نبذة عن حياته العلمية، ومصنفاته، والحالة العامة للحقبة التي عاش فيها. وتعريفاً موجزاً بالكتاب الذي أُخذ منه النص، من حيث حجم الكتاب ومحتواه ومنهجيته.

ومن المناسب أن نلفت الانتباه إلى أنَّ المراجع التي تضمَّنَتْ هذه النصوص متعددة، وفي معظم الأحيان وجدنا المحقق قد تصرّف بالنص فرجّح بعض الألفاظ، ووضع عناوين لأبواب وفصول وتقسيمات فرعية أخرى، بطريقة مختلفة عما فعله محقق آخر. وقد لجأنا في بعض الأحيان إلى صور لنُسَخٍ مخطوطة للتأكد من عبارة

معينة، وقد تبيَّن لنا أنَّ معظم العناوين الفرعية هي من عمل المحققين، وليست هي من المؤلف الأصلي، ووجدنا اختلافات في شكل بعض الكلمات وتصحيفاً في بعضها الآخر، ولم تخل هذه النصوص المطبوعة من أخطاء طباعية، فاجتهدنا في مثل هذه الحالات إلى شيء من الاختيار والترجيح، وإضافة بعض الهوامش لبيان دلالة بعض الكلمات غير المألوفة، مع المحافظة قدر الإمكان على المرجع الذي أخذنا النص منه.

## ثامناً: مراجع أخرى في التراث التربوي الإسلامي

ولا ندعي أنَّ مادة هذا الكتاب والنصوص المختارة فيه كافية للنظر في أيّ موضوع من هذه الموضوعات البحثية؛ إذ لا غنى عن العودة إلى المراجع الأخرى التي سنجد فيها نُبذاً متفرقة عن قضايا ومسائل تتصل بالتعليم. ومن هذه المراجع على سبيل المثال:

- كتب التاريخ والرجال والسير، مثل: تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والمواعظ والاعتبار أو الخطط المقريزية، وكتاب العبر ومقدمته لابن خلدون، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، وغيرها.
- كتب الأدب التي نجد فيها نُبذاً، وأحياناً فصولاً عن مسائل التعليم تختص بالتعليم والمعلمين والمتعلمين، ومنها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، وغيرها.
- كتب الطبقات، مثل: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السُّلَمِي، وطبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، ولسان العرب لابن منظور، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خِلِّكان، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصَيْبِعَة، وغيرها.

- كتب الرحلات، مثل: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" للبِيروني، و"تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" لابن جبير، و"صورة الأرض" لابن حوقل، و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي، و"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي، و"تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة، وغيرها.

ومع أنَّ النُّـبَذَ المتفرقة عن مسائل التعليم لم تعرض في هذه الكتب وأمثالها، ضمن حديث متخصص عن التعليم والتربية، وإنَّـما جاءت في سياق كتابة المؤرخ لرواياته، أو الرحالة عن مشاهداته، أو المترجم عن إسهامات شخصياته،... إلخ، لكنَّ هذه النبَذ ربَّـما تكون ذات قيمة كبيرة، في البحث المتخصص في مسألة من مسائل التراث التعليمي.

## تاسعاً: طريقة الاستفادة من الكتاب

عندما يكتب المؤلف كتاباً، فإنَّه يُفكِّر في عدد من الأمور منها: تصنيف الكتاب بين الكتب، ونوعية الجمهور المستهدف به، وطريقة الاستفادة منه.

لقد أردنا أن يتيح الكتاب للباحثين بصورة عامة، ولطلبة الدراسات الجامعية العليا بصورة خاصة مادةً كافية في التراث التربوي الإسلامي للاطلاع عليها في مكان واحد، لا سيما الطلبة الذين يدرسون مادةً في التراث التربوي الإسلامي، أو الفكر التربوي الإسلامي، أو تاريخ التعليم الإسلامي... إلخ، أو موضوعاً في التراث التربوي الإسلامي، بوصفه جزءاً من مادة تعليمية أخرى.

والمادة الكلية التي اشتمل عليها الكتاب تتكون من أربعة أقسام:

**القسم الأول**: تعريف موجز بعشرين عَلَماً من أعلام التراث التربوي الإسلامي من مختلف المذاهب والحقب الزمنية، والتوجهات الفكرية؛

**وثانيها**: تعريف موجز بعشرين مُصَنَّفاً من مصنفات هذا التراث من مختلف المذاهب والأزمنة والتوجهات؛

**وثالثها**: مختارات من مادة التراث التربوي التي تضمنتها هذه المصنفات كما عبر عنها كُتّابها مباشرة مع التوثيق الببليوغرافي الكامل لكل فقرة من فقرات كل نص من نصوص التراث التي تم تضمينها في هذا الكتاب.

**ورابعها**: كشاف الكلمات المفتاحية الذي نجده في آخر الكتاب، وقد اجتهدنا أن تكون هذه الكلمات المفتاحة شاملة للمفردات، والمصطلحات، والمفاهيم، وأسماء الأعلام، وأسماء الكتب... التي يتوقع أن تكون موضوعات للكشف عن مكان حضورها في النصوص المختارة في هذا الكتاب. وعندها سيجد الباحث مكان وجودها في الكتب الأصلية لهذه النصوص. وكم نتمنّى أن نجد مثل هذا الكشاف في أيِّ كتاب مطبوع.

ومن ثَمّ، فإنَّ هذا الكتاب يمكن أن يصنف ضمن فئة الكتب المرجعية التي يستعين بها القارئ للبحث عن موضوع محدد في حقل التراث التربوي الإسلامي. وسوف يجد هذا القارئُ الباحثُ ما يشير إلى ذلك الموضوع في موقعه من كتاب التراث. وقد يختار القارئ أن يطَّلع على نصِّ كتاب واحد لمعرفة محتوياته، أو مضامين عدد من النصوص في مدرسة تربوية معينة، أو أن يقارنَ بين محتويات كتابين أو أكثر، أو مدرستين من المدارس الفكرية أو أكثر، لكن الأفضل أن يرجع الباحث إلى المراجع الأصلية للتراث التي أُخذت منها هذه المختارات.

والكتاب مثلَهَ مَثَل أيِّ كتاب آخر، يمكن أن يفيد منه أي قارئ يوَدُّ أن يكوِّن فكرةً شاملةً عن موضوع التراث التربوي الإسلامي، من باب الثقافة التربوية أو التاريخية.

وهكذا فإنَّ الجهد الذي بُذل في إعداد الكتاب سوف يقع في مجال تيسير الوصول إلى التراث.

والقارئ الذي يبحث عن موضوع من موضوعات التراث ربَّما يجد هذا الموضوع ضمن عناوين الكتب في قائمة محتويات الكتاب، أو يجده في أماكنه عن طريق النظر في كشاف الكتاب التي يضم الكلمات المفتاحية وأماكن وجودها في نص

الكتاب. وسوف يسهل عليه الإحالة إلى المرجع الأصلي الذي أُخذ منه النص.

ولعلَّ من أهم طرق الاستفادة من الكتاب أنَّ مادَّته تفتح ميداناً للبحث والدراسة، لا سيما لطلبة الدراسات الجامعية العليا، فتكون هذه المادة أساساً لتقصّي موضوعٍ محددٍ من الموضوعات الكثيرة التي اشتملت عليها هذه النصوص.

إنَّنا نأمُل أن تخدم نصوص التراث التربوي الإسلامي القارئ والباحث، عندما يهدف إلى تتبع أي موضوع من الموضوعات البحثية عبر القرون العشرة التي غطتها هذه النصوص، وعبر تنوع المدارس التي مثلتها هذه النصوص الحديثية والفقهية والصوفية والتاريخية والفلسفة والأدبية والطبية، وعبر تنوع طرق معالجة الموضوع، وعبر الألفاظ والمصطلحات ذات العلاقة بموضوع البحث.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجزي من أسهم في إعداده خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين

# (١)
# رِسَالةُ "المُسْتَرْشِدِين"
## أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٣٤هـ)

**العقل والعلم والعمل**

اعْلم أنَّه ما تزيَّن أحدٌ بزينةٍ كالعقل، ولا لبسَ ثوباً أجملَ من العلم؛ لأنَّه ما عُرف الله إلا بالعقل، ولا أُطيع إلا بالعلم، واعلم أنَّ أهلَ المعرفة بالله بنوا أصولَ الأحوال على شاهدِ العلمِ، وتفقَّهوا في الفروع، ألا ترى لقول النبيِّ ﷺ: «من عمل بما علم؛ ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم»، وعلامةُ ذلك فهمُ تزايد العلم بالإشفاق، ومزيد العلم بالاقتداء، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً، والأصل الذي بنوا به في طريقهم التزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق، وتقديم العلم على حظوظ النفوس، والاستغناء بالله عن جميع خلقِه، فاطلب آثار من زاده العلمُ خشيةً، والعملُ بصيرةً، والعقلُ معرفةً، فإنَّ حجبَك عن منهاجهم فقْدُ الأدب، فارجع بالذمِّ على نفسك، ولن يخفى على أهل العلم صفة المخلصين." (ص٩٧)

الفصل الأول:

# رسالة "المسترشدين" للمحاسبي

## أولاً: التعريف بـ"المحاسبي"

هو أبو عبد الله الحارثُ بن أسد المحاسبي البصري، أحدُ أعلام التصوُّف في القرن الثالث الهجري، عُرف بالمحاسبي لكثرة محاسبَتِه نفسَه. كان ناسكاً عابداً، وصوفياً زاهداً، وفقيهاً أصولياً، ومحدثاً ومتكلماً. وُلد في البصرة في حدود (١٦٥هـ)، وتوفي ببغداد سنة (٢٣٤ هـ).

تَتَلْمَذَ في اللغة على أبي عبيد القاسم بن سلام، وفي الحديث على يزيد بن هارون، وعاصر الشافعي، وأحمد بن حنبل، وكان متأثراً في كتابته بأسلوب الجاحظ وسهل بن هارون، ولذلك تميزت كتاباته بإشراقة البيان، وحلاوة الأسلوب، ولكن أسلوبه لم يَـخْلُ من آثار علم الكلام، ورمزيات التصوف. وقد علت مكانة المحاسبي، ولفت انتباه طلبة العلم إليه، حتى قيل: إنَّه كان أستاذاً لأكثرِ البغداديين في عصره. ولعلَّ أشهر من روى عنه: الجنيد، وابن مسروق، وأحمد بن القاسم، وأحمد بن الحسن الصوفي، وأبو علي بن خيران الفقيه.

عاش المحاسبي في عصر كَثُرت فيه المنازعات الفكرية والمذهبية، ولا سيما بين المعتزلة وغيرهم، واختلطت الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الفارسية، واليونانية، والهندية. وامتاز عصره كذلك بضعف السلطة المركزية وقيام الثورات الداخلية، والتنافس في النفوذ بين العرب والفرس والترك. وكان الصراع على أُشُدِّه بين مدرسة أهل الحديث بقيادة الإمام أحمد بن حنبل، التي اشتهرت بالاعتماد على النصوص المروية والحدِّ من التأويل، ومدرسة المعتزلة التي اعتمدت على العقل وأعلت من شأنه. وبحكم ظروف البيئة، اختط المحاسبي منهجاً يجمع بين فضائل المدرستين، ويتجنب التطرف في أيٍّ منهما، واختار تربية النفس الإنسانية موضوعاً عَمَلياً مركزياً لمعظم اهتماماته وكتاباته.

ونَقَل السُّبْكِي عمَّن أرَّخَ للمحاسبي أنَّ له كتباً كثيرة في الزهد وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة، وأنها كثيرة الفوائد جمة المنافع، وأنها تبلغ مائتي مصنّف.[1] وقد فُقد جزء كبير منها لا سيما ما كتبه ضمن علم الكلام التي حذر منها معاصروه فلم تنل الاهتمام فيما بعد، وعُرف من كتبه عدد كبير مما يقع في علم السلوك والتصوف التي نالت الاهتمام من كبارِ علماء الصوفية فيما بعد، فكانت أساساً لما كُتب بعدها.

أسَّس الحارث المحاسبي في كتاباته المختلفة ولا سيّما رسالة المسترشدين للمدرسة الصوفية في الفكر التربوي، وعنه أخذ من جاء بعده من علماء هذه المدرسة، لا سيما أبو طالب المكي في قوت القلوب، وأبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال، وابن القيم في الفوائد. وامتاز أسلوبه في التأليف بمنهج التساؤل، فهو يتخيل من يطرح عليه السؤال من أسئلة الواقع الاجتماعي الذي كان سائداً، ليتولى الإجابة عنه في ضوء ما تشتد الحاجة إليه. ورغم أنَّه يعد محدِّثاً، إلا أنَّه لم يقتصر على رواية النصوص، وإنَّما كان يلجأ إلى طرق الاستدلال المتعدِّدة.

## ثانياً: التعريف برسالة "المسترشدين"[2]

رسالة المسترشدين كتاب صغير الحجم، يقع مجرداً من الشرح والتحقيق، في حوالي خمسة آلاف كلمة (١٨ صفحة). وليس في الرسالة مقدمة تبين هدف المؤلف من إعداد الرسالة، وليس فيها تقسيم لأبواب أو فصول أو مباحث، بل هي كتلة واحدة تبدأ بالحمد والشهادتين وتختم بعبارة: وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل. أما جسم الرسالة فهو جُملٌ قصيرةٌ متتالية من النصائح والمواعظ الموجهة إلى القارئ المسترشد، بصيغة: اعلم أنّ، وافعل: ابذل النصيحة لله وللمؤمنين، ولا تفعل: لا

---

(١) السُّبْكِيّ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي. **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي، القاهرة: دار أحياء الكتب العربية للبابي الحلبي، (د. ت.)، ج٢، ص ٢٧٦.

(٢) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **رسالة المسترشدين**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب والقاهرة: مكتب المطبوعات الإسلامية ودار السلام، ط٥، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

تخالط إلا عاقلاً تقياً، وبعد كل عبارة يستشهد بآية من القرآن الكريم، أو حديث نبوي، أو بآثار مروية عن الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم.

ويُكثر المؤلِّف في رسالته من تزكية العقل والعلم، ويُرشد إلى ضرورة البحث عمن يتَّصف بهما، والحرص على صحبته فهؤلاء هم الكنز المأمون... والثقات من الأخلاء، إن افتقرت أغنوك، وإن دعوْا الرب لم ينسوك. ورأى أنَّ صلاح القلب هو المعوّل عليه في نجاة الإنسان، وأن فساد القلب فساد الدين، وأصل فساد القلب ترك المحاسبة للنفس، والسبيل إلى تجنب الفضول الذي يسبب مرض القلب، هو لزوم منهاج الأئمة المتقين، والنظر في آداب المسترشدين.

وتُصنَّف رسالة المسترشدين ضمن التراث التربوي الصوفي الذي يهدف إلى تربية النفس ومحاسبتها، وبيان الأمراض التي تدخل عليه وسبل تجنبها وعلاجها. ولذلك لم ينشغل المؤلف بالجوانب الفقهية الخاصة بآداب طالب العلم مع المعلم أو علاقة المعلم بتلاميذه، وكتب التعليم ومؤسساته وغير ذلك ممّا انشغلت به معظم كتب التراث الأخرى، بل كان تركيزه على تربية النفس الإنسانية وتزكية القلوب، وتوثيق العلاقة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والحث على الزهد في الدنيا وابتغاء أجر الآخرة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ رسالة المسترشدين ليست النَّصَّ الوحيد للمحاسبي في مجال التزكية والتعليم، فعددٌ من كُتُبِه الأخرى تأخذ أهمية كبيرة مماثلة في التراث التربوي، لا سيما كتب: "الرعاية لحقوق الله"، و"المسائل في أعمال القلوب والجوارح"، و"المكاسب والورع"، و"ماهية العقل"، و"فهم القرآن".

واختار المحاسبي لفظَ المسترشد الذي يبتغي طلبَ العلم من المرشد، وهو الاصطلاح المناسب للتوجه الصوفي الذي يقوم على علاقة المريد بالشيخ، أو المسترشد بالمرشد. ولم يكن همُّ المؤلف الحديث عن آداب المرشد، وإنّما تضمنت إرشادات المحاسبي أموراً تختص بعلاقة المسترشد مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأموراً تختص بنفسه وقلبه، وبعلاقته بفئات الناس، وأموراً تختص بمجالس العلماء والحكماء. لكنَّ هذه الأمور ليست منظمة بحيث تجتمع عناصرها في مكان واحد، بل تجد كلاً منها موزعاً

على أنحاء الرسالة.

ونلاحظ أنَّ كتب التراث التربوي اللاحقة استعملت مصطلحات موازية لمصطلح المسترشد مثل المستفيد، والمستفتي والمستملي، وغيرها، إضافة إلى التلميذ والمتعلم، والطالب، وذلك وفق محور التركيز الذي يختاره المؤلف لكتابه، لتحصيل الفائدة من المفيد، أو تعلم الإفتاء من المفتي، أو طلب الإملاء من الـمُمْلِي.

## ثالثاً: مختارات من رسالة "المسترشدين"

الحمد لله الأول القديم، الواحد الجليل الذي ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ، أحمَدُه حمداً يوافي نِعمه ويبلغ مدى نَعمائه، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عالمٍ بربوبيته، عارفٍ بوحدانيته.

وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، اصْطَفاهُ لِوَحْيِه، وختم به أنَّبياءه، وجعله حجةً على جميع خلقه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اجْتَبَىٰ من عباده المؤمنين ذوي الألباب العالمين به وبأمره، فوصفهم بالوفاء والأخلاق الفاضلة والخوف والخشية فقال عز وعلا: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢١].

فمن شرح الله صدرَه ووصل التصديقُ إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة. وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه عبادَه فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال رسولُ الله ﷺ: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عُضوا عليها بالنواجذ.

واعلم أنَّ فريضةَ كتابِ الله العمل بحكمه، من الأمر والنهي والخوف والرجاء لوعده ووعيده، والإيمان بمتشابهه والاعتبار بقصصه وأمثاله. فإذا أتيت بذلك فقد

خرجتَ من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن عذاب الشك إلى روح اليقين، قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].(١)

وإنَّما يميِّز ذلك ويرغب فيه أهلُ العقل عن الله، الذين عملوا في أحكام الظاهر، وتنزهوا عن الشبه، قال رسولُ الله ﷺ: الحلالُ بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، وبين ذلك أمور مشتبهات تركُها خيْرٌ من أخذها.

فافحص عن النيَّة، واعرف الإرادةَ، فإنَّ المجازاة بالنية، قال رسولُ الله ﷺ: إنَّما الأعمالُ بالنيّات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى. والزم تقوى الله فإنَّ المسلمَ من سلِمَ الناسُ من يدِه ولسانِه، والمؤمنَ من أمِن الناسُ بوائقَه. قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَّقِ الله بطاعته، وأطِع الله بتقواه، وكُفَّ يدك عن دماء المسلمين، وبطنك عن أموالهم، ولسانك عن أعراضهم، وحاسب نفسَك في كلِّ خطرة، وراقب الله في كل نَفَسٍ. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنُوا، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبرِ يوم لا تخفى منكم خافية، وخفِ الله في دينك، وارْجُهُ في جميع أمورك، واصبر على ما أصابك. قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تَخَفْ إلا ذنبَك، ولا ترْجُ إلا ربَّك، ولا يستحيي الذي لا يعلم أن يسألَ حتى يعلمَ، ولا يستحيي من يسأل عمَّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم.

واعلم أنَّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأسِ من الجسد، فإذا قُطع الرأس، ذهب الجسدُ، فإذا سمعتَ كلمةً تُغضبك في عرضك فاعفُ واصفح، فإنَّ ذلك من عزم الأمور. قال عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقاه لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وراع همَّك، واشتغل بإصلاحِ نفسِك عن عيبِ غيرِك، فإنَّه كان يُقال: كفى بالمرء عيباً أن يستبينَ له من الناس ما يخفى عليه من نفسِه، أو يمقتَ الناسَ فيما يأتي مثله، أو يُؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥-٣٨.

واستعمل لله عقلَك بتَرْكِ التدبير، واستعن بالله على صرف المقادير. قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا ابن آدم لا تفرح بالغِنى، ولا تقنَطْ بالفقر، ولا تحزن بالبلاء، ولا تفرح بالرخاء، فإنَّ الذهبَ يُجرَّب بالنار، وإنَّ العبدَ الصالحَ يجرَّب بالبلاء، وإنَّك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تؤمِّل إلا بالصبر على ما تكره، وابذل جهدك لرعاية ما افترض عليك.

وارْضَ بما أرادَك الله به. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ارضَ بما قسم الله لك تكن من أغنى النَّاس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أوْرَعِ النَّاس، وأدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد النَّاس.(١)

ولا تشكُ مَنْ هُو أرْحَمُ بك إلى من لا يرحمك، واستعنْ بالله تكنْ من أهل خاصَّته. قال عبادةُ بنُ الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أظهِرْ اليأسَ ممَّا في أيدي النَّاس فإنَّه الغِنَى، وإيَّاك والطمعُ وطلب الحاجات فإنَّه الفقرُ، وإذا صلّيت فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ، واعلم أنَّك لن تجدَ طعمَ الإيمانِ حتى تُؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه، وكُنْ بالحقِّ عاملاً يزدْك الله نوراً وبصيرةً، ولا تكُنْ ممَّن يأمر به وينأى عنه فيبوء بإثمه، ويتعرَّض لمقت ربِّه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] وقال رسولُ الله ﷺ: من وَعَظ ولم يتَّعِظْ، وزَجَر ولم ينزجر، ونهى ولم يَنْتِه، فهو عند الله من الخائبين.

ولا تخالط إلا عاقلاً تقياً، ولا تجالِسْ إلا عالماً بصيراً، وقد سُئل النبيُّ ﷺ: أيُّ جُلسائنا خيرٌ؟ قال: من ذكّركُم بالله رؤيتُه، وزادكم في علمكم منطقُه، وذكَّركُم بالآخرة عملُه. وتَواضعْ للحقِّ واخْضَعْ له، وأدِمْ ذكرَ الله تَنلْ قُربَه، قال رسولُ الله ﷺ: جُلساءُ الله يوم القيامة: الخاضعون المتواضعون الخائفون الذاكرون الله كثيراً.(٢)

وابذل النصيحةَ لله وللمؤمنين، وشاوِر في أمرك الذين يخشون الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨] وقال النبيُّ ﷺ: الدين النصيحة. واعلم أنَّ من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشّك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخٍ لك.

---

(١) المرجع السابق، ص٤١-٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣-٦٩.

قال عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خيرَ في قومٍ ليسوا بناصحين، ولا خيرَ في قومٍ لا يحبون الناصحين. وآثِرْ الصدقَ في كل موطن تغنم، واعتزل الفضول تسلم، فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البر، والبرَّ يهدي إلى رضا الله تعالى، والكذبَ يهدي إلى الفُجور، والفُجور يُورث سخط الله. وقال عبدُ الله بنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا تتكلم فيما لا يعنيك، ولا تمارِ سفيهاً ولا حليماً، واذكر أخاك بما تُحبُّ أن تُذكر به، واعمل عَملَ رجلٍ يعلمُ أنه مجازىٰ بالإحسانِ، مأخوذٌ بالإجرام، وأدمْ شُكرَكْ، واقصرْ مِن أملِك، وزُر القبورَ بهمِّك تُذكِّركَ بالموتِ، وجُلْ في الحشرِ بقلبك.

وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اعمل كأنك ترىٰ، وعُدَّ نفسَك في الموتىٰ، واعلم أنَّ الشرَّ لا يُنسَىٰ، والخير لا يَفنىٰ، واعلم أنَّ قليلاً يُغنيك خيرٌ من كثيرٍ يُلهيك، وإيّاك ودعوةَ المظلوم، ثم رُم جهازك، وافرغ من زادِك، وكن وصيَّ نفسِك، ولا تجعل الرجال أوصياءك، واعقِل أمرَكَ، وتيقَّظ من سِنَتِكْ، فإنَّك مسؤولٌ عن عمرك. قال أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو عقلَ ابنُ آدم عن ربِّه كان خيراً له من جهاده.

واعلم أنَّ من جعلَ همَّه الآخرة كفاه الله أمرَ دُنياه، كما ذُكر في الحديث المروي: تفرَّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنَّه من كانت الدنيا أكبرَ همِّه أفشىٰ الله عليه ضيعته، وجعل فقرَه بين عَيْنَـيْه، ومن كانت الآخرةُ أكبرَ همِّه جمعَ الله له أمرَه، وجعل غِناهُ في قلبِه، وما أقبل عبدٌ بقلبِه إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا جعل الله قلوبَ المؤمنين تنقادُ إليه بالرحمةِ والمودةِ.

واحذر يا أخي المراء في القرآن، والجدلَ في الدين، والكلام في التحديد،[1] وكن من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].[2]

والزم الأدب، وفارق الهوىٰ والغضب، واعمل في أسباب التيقّظ، واتخذ الرفق خِدناً والتأني صاحباً، والسلامةَ كهفاً، والفراغَ غنيمةً، والدنيا مطيّةً، والآخرة منزلاً.

---

(١) قال المحقق أبو غدة: المراد به ذكر الحد لله تعالى، والخوض في صفاته بالتشبيه والتمثيل والتعطيل.

(٢) المرجع السابق، ص٧٠-٧٩.

وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل للمؤمن راحةً دون الجنة. واحذر مواطن الغفلة، ومخاتل العدو، وطربات الهوىٰ، وضراوة الشهوة، وأماني النفس فإنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: أعدَىٰ أعدائك نفسُك التي بين جنبيك، وإنَّما صارت أعدىٰ أعدائك لطاعتك لها، وكل أمرٍ لاح لك ضُوءُه بمنهاجِ الحقِّ فاعْرِضْه علىٰ الكتاب والسنة والآداب الصالحة، فإن خفيَ عليك أمرٌ فخذ فيه رأي من ترضىٰ دينَه وعقلَه، واعلم أنَّ علىٰ الحقِّ شاهداً بقبول النفس له، ألا ترىٰ لقولِ رسول الله ﷺ: استفت قلبَك وإنْ أفتاك المفتون! وقيِّد الجوارحَ بإحكامِ العِلم، وراع همَّك بمعرفة قُرب الله منك، وقُمْ بين يديه مقامَ العبد المستجير تجِدْهُ رؤوفاً رحيماً، قال رسولُ الله ﷺ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنزل العبد من نفسِه بقدر منزلتِه منه. وذلك علىٰ قدرِ الخشيةِ لله والعلم به، والمعرفة له.

واعلم أنَّه من آثر الله آثره، ومن أطاعه فقد أحبه، ومن ترك له شيئاً لم يعذِّبْه به، كما قال رسولُ الله ﷺ: دعْ ما يُريبُكَ إلىٰ ما لا يريبك، فإنَّك لن تجد فقْدَ شيءٍ تركته لله، واحمِ القلبَ عن سُوء الظنِّ بحسنِ التأويل، وادفع الحسدَ بقصرِ الأملِ، وانْف الكِبْر باستبطان العز، واترك كلَّ فعلٍ يضطرك إلىٰ اعتذار، وجانبْ كلَّ حالٍ يرميك في التكلف، وصُن دينك بالاقتداء، واحفظ أمانتك بطلب العلم، وحصِّن عقلَك بآداب أهل الحلم، وأعدَّ الصبرَ لكلِّ موطنٍ، والزم الخلوة بالذِّكْر، واصحبْ النعم بالشكر.

واستعنْ بالله في كل أمرٍ، واستخر الله في كلّ حالٍ، وما أرادك الله له فاترك الاعتراض فيه، وكلّ عملٍ تُحبُّ أنْ تلقىٰ الله به فألْزِمْهُ نفسَك، وكلُّ أمرٍ تكرهُه لغيرِك فاعتزلْه من أخلاقك، وكلِّ صاحبٍ لا تزداد به خيراً في كل يوم فانبذ عنك صُحبتَه، وخذ بحظِّك من العفو والتجاوز.

واعلم أنَّ المؤمن مُختَبرٌ صدقُه في كلِّ حال، مُطّلب نفسه بالبلوىٰ، رقيب لله علىٰ نفسِه، فاثبت علىٰ محجَّةِ الحقِّ، تأتِكَ مودَّةُ الخلق، واصدق في الطلب ترث عِلمَ البصائر، وتَبْدُ لك عيونُ المعارف، وتميّز بنفسك علمَ ما يرد عليك بخالص التوفيق، فإنَّما السبق لمن عمل، والخشية لمن علم، والتوكل لمن وثق، والخوف لمن أيقن، والمزيد لمن شكر، واعلم أنَّ ما يصل العبد إليه من الفهم بقدر تقديم عقله وموجود علمه

بتقواه لله وطاعته، فمن وهب الله له العقلَ وأحياه بالعلم بعد الإيمان، وبصَّره باليقين، وعرَّفه عيوبَ نفسه فقد نُظمت له خصال البر، فاطلب البر في التقوىٰ، وخذ العلم من أهل الخشية، واستجلب اليقين بمباحث الصدق في مواطن التفكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال رسولُ الله ﷺ: "تعلموا اليقين فإنِّـي أتعلَّمُه."(١)

واعلم أنَّ كلَّ عقلٍ لا يصحبه ثلاثةُ أشياء فهو عقلٌ مكّارٌ: إيثار الطاعة علىٰ المعصية، وإيثار العلم علىٰ الجهل، وإيثار الدين علىٰ الدنيا، وكل علمٍ لا يصحبه ثلاثةُ أشياء فهو مزيد في الحجة: كفُّ الأذىٰ بقطع الرغبة، ووجود العمل بالخشية، وبذل الإنصاف بالتباذل والرحمة.

واعلم أنَّه ما تزيَّنَ أحدٌ بزينةٍ كالعقل، ولا لبس ثوباً أجملَ من العلم؛ لأنَّه ما عُرف الله إلا بالعقل، ولا أُطيع إلا بالعلم، واعلم أنَّ أهلَ المعرفة بالله بنوا أصولَ الأحوال علىٰ شاهد العلمِ، وتفقّهوا في الفروع، ألا ترىٰ لقول النبيِّ ﷺ: من عمل بما علم؛ ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم. وعلامة ذلك فهمُ تزايد العلم بالإشفاق، ومزيد العلم بالاقتداء، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً، والأصل الذي بنوا به في طريقهم التزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق، وتقديم العلم علىٰ حظوظ النفوس، والاستغناء بالله عن جميع خلقه، فاطلب آثار من زاده العلمُ خشيةً، والعملُ بصيرةً، والعقلُ معرفةً، فإنْ حجبَك عن منهاجهم فقْدُ الأدب فارجع بالذمِّ علىٰ نفسك، ولن يخفىٰ علىٰ أهل العلم صفة المخلصين.

واعلم أنَّ في كلِّ فكرةٍ أدباً، وفي كلِّ إشارة علماً، وإنّما يميز ذلك من فَهِمَ عن الله عَزَّوَجَلَّ مرادَه، وجنىٰ فوائد اليقين من خطابه، وعلامة ذلك في الصادق؛ إذا نظرَ اعتَبرَ، وإذا صَمَتَ تفكَّر، وإذا تكلَّم ذكَرَ، وإذا مُنع صبرَ، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلِيَ استرجع، وإذا جُهل عليه حَلِم، وإذا عَلِمَ تواضع، وإذا علَّم رفق، وإذا سُئل بذل، شفاءٌ للقاصدِ، وعونٌ للمسترشد، حليفُ صِدْقٍ، وكهفُ أمنٍ للخائفين، بَرٌّ، قريبٌ

(١) المرجع السابق، ص٧٩-٩٦.

الرضا في حقِّ نفسه، بعيدُ الهمة في حقِّ الله تعالىٰ، نيَّتُهُ أفضلُ من عملِه، وعملُه أبلغُ من قولِه، موطنه الحق، ومعقلُه الحياء، ومعلومُه الورع، وشاهدُه الثقة، له بصائر من النور يُبصر بها، وحقائق من العلم ينطق منها، ودلائل من اليقين يُعبِّر عنها، وإنَّما يواصل بذلك من جاهد لله تعالىٰ نفسَه، واستقامت طاعتُه، وحسُنت نِيَّتُه، وخشي الله في سره وعلانيته، وقصَّر الأملَ، وشمَّر مئزر الحذر، وأقلع بريح النجاة في بحر الابتهال، فأوقاته غنيمةٌ، وأحواله سليمةٌ، لم يغتر بزخرف دار الغرور، ولم يلهه بريقُ سراب نسيمها عن أهوال يوم النشور.(١)

واعلم أنَّ العاقل لما صحَّ علمُه وثبتَ يقينُه علم أنه لا يُنجيه من ربِّه إلا الصدق، فسعىٰ في طلبه، وبحث عن أخلاق أهله، رغبةً في أن يحيا قبل مماته، ليستعدَّ لدار الخلود بعد وفاته، فباع نفسه وماله من ربه حيث سمعه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فعلم بعد الجهل، واستغنىٰ بعد الفقر، وأنس بعد الوحشة، وقرُب بعد البُعد، واستراح بعد التعب، فائْتَلَفَ أمرُه، واجتمع همُّه، فشعاره الثقة، والمراقبةُ حالُه، ألا ترىٰ لقولِ رسولِ الله ﷺ: اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك. يَحْسَبُه الجاهل صِمّيتاً عَيِيَّاً، وحِكمتُه أصْمَتَتْهُ، ويَحْسَبُه الأحمقُ مِهذاراً، والنصيحةُ لله أنطقَتْهُ، ويَحْسَبُه غَنياً والتعفُّفُ أغناهُ، ويَحْسَبُه فقيراً والتواضعُ أدناهُ، لا يتعرَّض لما لا يَعنيه، ولا يتكلّفُ فوقَ ما يكفيه، ولا يأخذُ ما ليس بمحتاجٍ إليه، ولا يدعُ ما وُكّل بحفظه، الناسُ منه في راحة، وهو من نفسِه في تعب، قد أماتَ بالورعِ حرصَه، وحسَمَ بالتُقىٰ طمَعَه، وأفنىٰ بنورِ العلمِ شهواتِه.

فهكذا فكُن، ولمثل هؤلاء فاصحَبْ، ولآثارهم فاتبع، وبأخلاقهم فتأدّب، فهؤلاء الكنزُ المأمون، بائعهم بالدنيا مغبونٌ، وهم العدَّة في البلاء، والثقات من الأخلاء، إن افتقرتَ أغْنَوْك، وإن دعوا الربَّ لم ينْسَوكَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٩٧-١٠٥.

واعلم وسَّعَ الله بالفهمِ قلبي وقلبَك، وأنار بالعلم صدري وصدرَك، وجمع باليقين همّي وهمّكَ، أنّـي وجدت كلَّ بلاءٍ داخلٍ على القلب -ضرورةً- من نتائجِ الفضولِ، وأصلُ ذلك الدخول في الدنيا بالجهل، ونسيان المعاد بعد العلم، والنجاةُ من ذلك ترك كلَّ مجهولٍ في الورع، وأخذ كلِّ معلومٍ في اليقين. ووجدتُ فسادَ القلب فسادَ الدين، ألا ترى لقول رسولِ الله ﷺ: ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب، ومعنى الجسد -ها هنا- الدين؛ لأَنَّ بالدين صلاحَ الجوارحِ وفسادَها، وأصلُ فسادِ القلبِ تركُ المحاسبةِ للنفس، والاغترارُ بطولِ الأملِ، فإذا أردتَ صلاحَ قلبِكَ فقفْ مع الإرادةِ، وعند الخواطر، فخُذْ ما كان لله، ودعْ ما كان لغيرِه، واستعنْ على قِصرِ الأمل بدوامِ ذِكْرِ الموتِ.

ووجدتُ أصولَ الفضول المتحركة من القلب تظهر على السمع والبصر واللسان، والغذاء واللباس والمسكن، ففضول السمع يُخرج إلى السهو والغفلة، وفُضولُ البصر يخرج إلى الغفلة والحيرة، وفُضول اللسان يخرج إلى التزيُّد والبدعة، وفُضول الغذاء يخرج إلى الشره والرغبة، وفُضولُ اللباس يخرج إلى المباهاة والخيلاء.

واعلم أنَّ حفظَ الجوارح فريضةٌ، وتركَ الفضول فضيلةٌ، والتوبة قبل ذلك فريضة، وقد فرضَها الله ورسولُه، فقال جلَّ ذِكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] معنى نصوحاً: ترك العودة فيما تاب منه العبد إلى ربِّه، وقال رسول الله ﷺ: يا أيُّها النَّاس تُوبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وتقرّبوا إلى الله بالعمل الصالح من قبل أن تُشغلوا، ولا تصحُّ التوبة إلا بأربعة أشياء: حلُّ إصرارِ القلب عن المعاودة، والاستغفار بالندم، وردّ التبعات والمظالم، وحفظ الجوارح من الحواس السبع: السمع والبصر واللسان والشم واليدان والرجلان والقلب، وهو أميرها، وبه صلاح الجسد وفسادُه، وقد جعل الله على كل جارحة أمراً ونهياً فريضة منه، وجعل بينهما سعة وإباحة، تركها فضيلة للعبد.

ففرضُ القلب بعد الإيمان والتوبة إخلاصُ العمل لله، واعتقاد حسن الظنِّ عند الشبهة، والثقة بالله، والخوف من عذابه، والرجاء لفضله، وقد رُوي في معنى القلب

أخبارٌ كثيرة، منها أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: إنَّ من المؤمنين من يلين له قلبي. وقال ﷺ: إنَّ الحق يأتي وعليه نورٌ، فعليكم بسرائر القلوب.(١)

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للقلوب شهوةٌ وإقبالٌ، وفترةٌ وإدبار، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها. قال ابنُ المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: القلب مثلُ المرآة؛ إذا طالت في اليد صدئت، وكالدابة إذا غفل عنها عدلت. وقال بعض الحكماء: القلبُ مِثلُ بيتٍ له ستةُ أبوابٍ، ثم قيل لك: احذر ألا يدخل عليك من أحدِ الأبواب شيءٌ فيُفسد عليك البيتَ، فالقلبُ هو البيت، والأبواب: العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتىٰ انفتح بابٌ من هذه الأبواب بغير عِلم ضاعٍ البيتُ، ففرضُ اللسان الصدق في الرضا والغضب، وكف الأذىٰ في السر والعلانية، وترك التزَيُّد بالخير والشر. قال رسولُ الله ﷺ: من ضَمِنَ لي ما بين لِـحْيَيْهِ وما بين رِجليه ضَمِنْتُ له علىٰ الله الجنة، وقال رسولُ الله ﷺ لمعاذ بنِ جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهل يَكبُّ النَّاسَ في النَّار علىٰ مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم، وقال ﷺ: أنذركم فضول الكلام، حسبُ أحدِكم ما يبلغ به حاجته، فإنَّ الرجل يُسأل عن فضول كلامه كما يُسأل عن فضول عمله، وقال ﷺ: إنَّ الله عند لسان كلِّ قائل، فاتقىٰ الله امْرُؤٌ عَلِمَ ما يقول.

وفرْضُ البصر الغَضُّ عن المحارم، وترك التطلع فيما حُجب وسُتر، قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: النظر سهمٌ من سِهام إبليس؛ فمن تركه من خوف الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوتَه في قلبه. وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من غضَّ بصرَه عن النظر الحرام زُوِّج من الحور العين حيث أحبَّ، ومن اطلع فوق بيوت الناس حشره الله يوم القيامة أعْمىٰ. وقال داود الطائي لرجل وقد أحدَّ النظرَ إلىٰ بعض من ينظر إليه، فقال: يا هذا! ارْدُدْ بصرَك إليك، فإنَّه بلغني أنَّ الرجلَ يُسأل عن فضول نظره، كما يسأل عن فضول عمله، ويقال: لك النظرةُ الأولىٰ وليست لك الآخرة، فما هجم علىٰ النظر فهو موضوع عن العبد، وما استبدّ به النظر بمعقول الفهم فالعبد مأخوذٌ به.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٥-١١٤.

وفرضُ السمع تبعٌ للكلامِ والنظرِ، فكلُّ ما لا يحل لك الكلام فيه والنظر إليه فلا يحل لك استماعه ولا التلذذ به، والبحث عما كتم عنك تجسس، وسماع اللهو والغناء وأذىٰ المسلمين حرام كالميتة والدم، وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نُهينا عن الغيبة والاستماع إليها، وعن النميمة والاستماع لها، وسُئل القاسم بنُ محمدٍ عن سماع الغناء قال: إذا ميَّز الله بين الحق والباطل يوم القيامة أين يقع الغناء؟ قيل: في حوز الباطل، قال: فأفتِ نفسك، وليس من جارحةٍ أشد ضرراً علىٰ العبد بعد لسانه من سمعه؛ لأنه أسرعُ رسولٍ إلىٰ القلب، وأقرب وقوعاً في الفتنة.

وقد ذُكر عن وكيعِ بنِ الجراح قال: سمعتُ كلمةً من مبتدع منذ عشرين سنة ما أستطيع إخراجها من أذني. وكان طاووس إذا أتاه مبتدعٍ سدَّ أذنيه، لئلا يسمع كلامه.

وفرْضُ الشمِّ تبعٌ للسمعِ والبصرِ، فكلُّ ما حلَّ استماعه ونظرُه جاز لك شمُّه، وقد رُوي عن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أُتي بمسكٍ، فأمسك عنه أنفَه، فقيل له في ذلك، فقال: وهل ينتفع منه إلا برائحته.

وفرْضُ اليدين والرجلين أن لا تبسطهما إلىٰ محظورٍ، ولا تقبضهما عن حقٍّ، وقال مسروق: ما خطا العبدُ خطوةً إلا كُتبت حسنةً أو سيئةً، وكتبت ابنةُ سليمان إلىٰ عبدة بنت خالد بن معدان: زوريني، فكتبت إليها عبدةُ: أما بعد فإنَّ أبـي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يكره أن يسير مسيراً ليس هو فيه ضامناً علىٰ الله، أو يأكل طعاماً إذا سُئل عنه يوم القيامة لم يكن عنده فيه مخرج، وقد كرهت من ذلك ما كره أبي، والسلام عليك.[1]

فإنْ قال قائل: ما السبيل إلىٰ العمل بذلك؟ قيل: لزومُ منهاجِ الأئمة المتقين، والنظرُ في آداب المسترشدين، لمعرفة الخطو والتيقظ بالمحاسبة، والعمل بالإنصاف، والتحرز بكفِّ الأذىٰ، وبذل الفضل بترك المنَّة، وحسن السمْت بغير حسدٍ، والقناعة بِحُبِّ الخمول، وطولُ الصمت رغبةً في السلامة، والتواضع للخلق بلا وَحشة، والأنس بالذكر في الخلوة، وتفرُّغ القلب للخدمة، واجتماع الهمِّ بالمراقبة، وطلب النجاة في طريق الاستقامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) المرجع السابق، ص١١٤-١٢٣.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وقال سفيانُ بنُ عبد الله الثقفي: يا رسول الله، حدِّثْني بأمرٍ أعتصم به، قال: قل آمنتُ بالله، ثم استقم. وقال عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استقاموا لله بطاعته ولم يرُوغوا رَوَغَانَ الثعالب. وقال أبو العالية الرياحي: استقاموا: أخلصوا لله الدين والدعوة والعمل، وأصل الاستقامة في ثلاثةٍ: اتِّباع الكتاب، والسنة، ولزوم الجماعة.(١)

واعلم أنَّ أنْجَى طريقٍ للعبدِ: العملُ بالعِلمِ، والتحرُّزُ بالخوفِ، والغنى بالله عَزَّوَجَلَّ، فاشتغل بإصلاح حالك، وافتقر إلى ربك، وتنزَّه عن الشبهات، وأقلل حوائجك إلى النَّاس، وأحبَّ لهم ما تحبُّ لنفسك، واكْرَهْ لهم ما تكرهُ لنفسك، ولا تحقرنَّ ذنباً، ولا تظهرنَّ سراً، ولا تكشفنَّ سِتراً، ولا تحدِّثنَّ نفسك بخطيئة، ولا تصرنَّ على صغيرة، وافزع إلى الله عند كل فاقة، وافتقر إليه في كل حال، وتوكل عليه في كل أمرٍ، واعتزل الهوى ولا تقنع من نفسك بالتربص، وأخمل ذكرك، وأدم لله شكرك، وأكثر من الاستغفار، واعتبر بالأفكار.(٢)

وعليك بالتأنّي عند موارد العجلة، وحسن الأدب في المخالطة، ولا تغضب لنفسك على النَّاس، واغضب لله على نفسك، ولا تكافئنَّ أحداً بإساءة، واحذر المدحة للجاهل بنفسه، ولا تقبلها لنفسك من أحدٍ، وأقلل الضحك، وجانب المزاح، واكتم الأوجاع وأظهر التعفف، واستبطن الثقة، واستشعر اليأس وحسن الفقر، واصبر على ما أصابك، وارْضَ بما قسم الله لك، وكن من وعد الله على يقين، ومن وعيده في وجل، ولا تتكلفنَّ ما قد كُفيتَه، ولا تُضيعنَّ ما وُكلت بطلبه، وافتقر إلى الله في كل عطائه، وارغب في النجاة منه، واعفُ عمَّن ظلمك، وأعط من حرمك، وصلْ في الله من قطعك، وآثِرْ في الله من أحبَّك، وابذل نفسك ومالك لإخوانك، وارع حقوق المولى في دينك، ولا يعظم في عينيك كبيرٌ من المعروف تفعله، ولا تحقرنَّ صغيراً من المنكر تفعله.(٣)

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٣-١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٠-١٣١.

(٣) المرجع السابق، ص١٣١-١٣٣.

واحذر التزيُّن بالعلم كما تحذر العجب بالعمل، ولا تعتقدنَّ باطناً من الأدب ينقضه عليك ظاهرٌ من العلم، وأطع الله في معصية الناس، ولا تُطع الناسَ في معصية الله تعالىٰ، ولا تدخرنَّ من جهدك عن الله شيئاً، ولا ترض من نفسِك لله عملاً، وقُم بين يديه في صلاتك جملةً، وأدِّ زكاة ما افترض الله عليك بالنشاط والرغبة، واحفظ صومَك من الكذب والغيبة.

وارعَ حقَّ الجار والمسكين والقريب. وأدّب أهلك، وارفق بما مَلَكَتْ يمينك، وكُن قواماً بالنشاط كما أمرك مولاك، وإذا حُرِّكْتَ لخير فتعجّله، وما اشتبه عليك فدعْه، والزم الرحمةَ للمؤمنين، وقُل الحقَّ حيثما كنت، ولا تُكثر الأيْمان وإن كنتُ صادقاً، واحذر التوسّع في المنطق وإن كنت بليغاً، وإياك والتكلُّف في الدين وإن كنت عالماً، وقدّم العلم قبل كل مقال.

والزم الإشفاقَ بعد الاجتهاد، ودارِ الناس ما سلم لك الدين، واحذر المداهنة أصلاً، وخالق الناس بخُلقٍ حسنٍ، ولا تستحينَّ أن تقول فيما لا تعلم: الله أعلم، ولا تنشر حديثك عند من لا يريده، ولا تبذل دينَك عند من يُبغّضه إليك، ولا تتعرّض من البلاء ما لا طاقة لك به، وأكرم نفسك عمن يهينها، ونزّه همتك عن دناءة الأخلاق، ولا تُوَاخ إلا أميناً، ولا تُبدِ أسرارك لكل النَّاس، ولا تجاوز بالمرء حاله، ولا تخاطبه من العلم بما لا يحتمله عقلُه، ولا تدخل في أمرٍ لم تُدعَ إليه، ووقّر مجالسَ العلماء، واعرف قدر الحكماء.

ولا تَدَع المكافأة والصنائع، وأعرض عن الجهّال، واحلم عن السفهاء، وشاور في أمرك الذين يخشون الله.[1]

وانْصر أخاك مظلوماً، ورُدّه إلىٰ الحقِّ إنْ كان ظالماً، وابذُلْ له حقّه منك، ولا تطالبه في حقك منه، ويسّر علىٰ الغريم، وارفق بالأرملة واليتيم، وأكرم الصابرين من الفقراء، وارحم أهل البلاء من الأغنياء، ولا تَـحْسِدَنَّ أحداً علىٰ نعمةٍ، ولا تذكر أحداً بغيبةٍ، وسدّ علىٰ نفسك باب سوء الظن بخوف المسألة، وافتح بابَ حسن الظن بسعة التأويل، وأغلق باب الطمع بالإياس، واستفتح باب الغنىٰ بالقناعة، ونزّه ذِكر

(١) المرجع السابق، ص١٣٣-١٤٢.

الله عن إضافة المكاره، وحصّل الأوقات، واعرف ما يَذهب به ليلُك ونهارُك.[1]

وجدِّد في كل وقتٍ توبةً. واجعل عُمُرَكَ ثلاثَ ساعاتٍ: ساعةً للعلمِ، وساعةً للعملِ، وساعةً لحقوقِ نفسِكَ، وما يلزمك. واعتبر بمن مضىٰ، وتفكَّر في منصرف الفريقين بين يدي الله تعالىٰ؛ فريقٌ في الجنة برضاه، وفريقٌ في السعير بسخطه، واعرف قُرب الله منك، وأكرم الحفظة الكاتبين، وتناول نِعم الله بالفهم، وردّها إليه بحُسن الثناء والشكر. واحذر من اتهام النفس برؤية المقامات، وتسفيه الحقِّ بغَمْط النَّاس، فإنَّه سُمٌّ قاتل، واعتزل خوف السقوط من أعين الناس بخوف مقت الله لك، وخوف الفقر بقرب الأجل، وأخف أثرك ما استطعت، وابذل الجهد عند المشورة، وأحب في الله بعزم، واقطع في الله بِـحَزْم، ولا تخالل إلا تقياً عالماً، ولا تخالط إلا عاقلاً بصيراً، وكن مقتدياً بمن قَبْلَك من الأئمة، ومُعَلِّماً لمن بعدك من الأمة، إماماً للمتقين، كهفاً للمسترشدين.[2]

ولا تظهرنَّ إلىٰ أحدٍ شكوىٰ، ولا تأكل بدينك الدنيا، وخُذ بحظِّك من العُزلةِ، ولا تأخذنَّ إلا حلالاً، وجانِب الإسرافَ، واقنع من الدنيا بالكفاف، واطلب الأدب في بساتين العلم، والأنس في مواطن الخلوة، والحياء في شعاب النفس، والاعتبار في أودية التفكُّر، والحكمة في رياض الخوف، واعرِفْ دوامَ إحسان الله إليك مع مخالفتك لأمره، وحِلمه عنك مع إعراضك عن ذِكْرِه، وسترِه عليك مع قلَّةِ حيائك منه، وغِناهُ عنك مع فقرِك إليه.

أيْن عالمٌ بربِّه؟ أين خائفٌ من ذنبِه؟ أين مسرورٌ بقربِه؟ أين مشغولٌ بذكرِه؟ أين مشفِقٌ من بُعدِه؟ هو ذا مغفور له يا مغرور، أَلَـمْ يَرَكَ الجليلُ قد هتكْتَ السُّتُور؟!

واعلم يا أخي أنَّ الذنوب تُورِث الغفلة، والغفلةُ تُورث القسوةَ، والقسوةُ تُورث البعد من الله، والبعدُ من الله يُورث النار، وإنّما يتفكر في هذه الأحياءُ، وأما الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا، واعلم أنَّه كما لا يغني ضوء النهار الأعمىٰ، كذلك لا يستضيء بنور العلم إلا أهلُ التقىٰ، وكما أنَّ الميتَ لا ينفعه الدواء كذلك لا

(١) المرجع السابق، ص١٤٢-١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٨-١٥٢.

يفيد الأدب في أهل الدعوىٰ، وكما لا يُنبت الوابلُ الصفا كذلك لا تُثمر الحكمةُ بقلب محبٍّ الدنيا، ومن أَلِفَ هواه قلَّ أدبُه، ومن خالف دلالةَ عِلمه كثُر جهلُه، ومن لم ينفعه دواؤه كيف يداوي غيرَه؟!

واعلم أنَّ أرْوَحَ الناس أبداناً وأقلَّهم هماً أهلُ الزهد في الدنيا، وأتعبَ الناس قلوباً وأكثرَهم شغلاً أهلُ الاهتمام بالدنيا، وأعونَ الأخلاق علىٰ الزهد قِصرُ الأملِ، وأقربَ حالات أهل المعرفة ذِكرُ القيام لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. واعلم أنَّه لا طريقَ أقربُ من الصدق، ولا دليلَ أنجحُ من العلم، ولا زادَ أبلغُ من التقوىٰ، وما رأيتُ أنْفَىٰ للوسواس من ترك الفضول، ولا أنْوَرَ للقلب من سلامة الصدر، ووجدتُ كرامةَ المؤمن تقواه، وحلْمَه صبرَه، وعقْلَه تجمّلَه، ومودَّتَه تجاوزَه وعفوَه، وشرفَه تواضعَه ورِفْقَه.(١)

واعلم أنَّ محبة الغِنَىٰ -مع اختيار الله لعبده الفقر- تَسخّطٌ، ومحبة الفقر -مع اختيار الله لعبده الغنىٰ- جورٌ، وكل ذلك هربٌ من الشكر لقلة المعرفة، وتضييع للأوقات من قصر العلم.

وذلك أنَّ إيمانَ الغنيِّ لا يُصلحُه الفقرُ، وإيمانَ الفقيرِ لا يُصلحُه الغِنَىٰ، كما جاء في الخبر أنَّ الله تعالىٰ يقول: إنَّ من عبادي من لا يُصلِحُ إيمانَه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدَه ذلك، وإنَّ من عبادي من لا يُصلِحُ إيمانَه إلا الغِنىٰ، ولو أفقرْتُه لأفسَدَه ذلك. وكذلك في الصحة والسقم، فمن عرف الله لم يتَّهِمْهُ، ومن فهم عن الله رضي بقضائه، ولو لم يكن لأهل العلم إلا هذه الآيةُ لكَفَتْهُم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

واحذر أخلاقَ الجاهلين ومجالسةَ المذنبين، ودعاوىٰ المعجبين، ورجاءَ المغترين، ويأسَ القانطين، وكن بالحق عاملاً، وبالله واثقاً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، فإنَّ من صدَقَ الله نَصَحَهُ، ومن تزيَّن لغيره فضَحَهُ، ومن توكّل عليه كفاه، ومن وثق بغيره مَقَتَهُ، ومن خافه أمَّنَهُ، ومن شكره زادَه، ومن أطاعه أكرمَه، ومن آثره أحبَّه،

(١) المرجع السابق، ص١٥٢-١٦٣.

ومن أحبَّه مولاه فقد فاز. واحذَرْ أنْ تدينَ الله بالعقلِ، وتعمل بالهوىٰ، وتترك الحقَّ وتبوء بالباطل، وتتمنىٰ المغفرة وأنت ناسٍ للتوبة.

واعلم أنَّه لا يُرْضَىٰ من العلم والعمل إلا ما ثَبَتَ باليقين أصلُه، وعلا بالصدق فرعُه، وأثمر بالورع نباتُه، وقام بالإشفاق برهانُه، وحُجب بالخشية أستارُه، فلا ترضَ من نفسك بالتواني، فإنَّه لا عُذر لأحدٍ في التفريط، ولا لأحدٍ عن الله غنىٰ.

واعلم أنَّ مِنْ سعادة المرء حُسنَ النية فيما عند الله تعالىٰ، والتوفيق لِـمَحَابِّه، ومن أراد الله به خيراً وهب له العقلَ، وحبَّب إليه العلم، وحبَاهُ بالإشفاق، واستعمله بالرفق، وأغناه بالقناعة، وبصَّره عيبَه.[1]

واعلم رحمك الله أنَّ الصدق والإخلاص أصلُ كلِّ حالٍ، فعن الصدق يتشعَّب الصبرُ والقناعةُ والزهدُ والرضا والأنس، وعن الإخلاص يتشعَّب اليقينُ والخوفُ والمحبة والإجلال والحياء والتعظيم، ولكل مؤمنٍ في هذه المقامات موطنٌ يُعرف به حالُه، فيقال له: خائفٌ، وفيه الرجاء، وراجٍ، وفيه الخوفُ، وصابرٌ وفيه الرضا، ومحبّ وفيه الحياء، وقوةُ كلِّ حالٍ وضعفه بـحَسَبِ إيمان العبد ومعرفته. ولكلِّ أصلٍ من هذه الأحوال ثلاثُ علامات يُعرف بها الحال، فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام.

والصبرُ في ثلاثةِ أشياءٍ لا تتم إلا به: الصبر عن محارم الله، والصبر علىٰ اتِّباع أمر الله، والصبر عند المصائب احتساباً لله.

والقناعة في ثلاثة أشياء: قلَّة الغنىٰ بعد وجوده، وصيانة الفقر عند العدم، وقلة الأسباب والسكون إلىٰ أوقات الله عَزَّوَجَلَّ مع حلول الفاقة.

وللقناعة أولٌ وآخر؛ فأولها تركُ الفضول مع وجود الاتساعِ، وآخرُها وجودُ الغنىٰ مع القلّةِ وفقد الأسبابِ، ومن هاهنا قال بعضُهم: القناعةُ أعلىٰ من الرضا. وإنما أراد قناعةَ التمام؛ لأَنَّ الراضي لا يتغيَّر في المنع والعطاء، والقانعُ غَنيٌّ بربِّه، لا يحب

(١) المرجع السابق، ص١٦٣-١٧٠.

الزيادةَ معه من حظ هواه، إلا إن كانت منه إليه.

والزهدُ في ثلاثةِ أشياءٍ -لا يُسمىٰ زاهداً إلا بها-: خَلْعُ الأيدي من الأملاك، ونزاهة النفس عن الحلال، والسهو عن الدنيا بكثرة الأوقات. ويكون الرجل متزهداً بثلاثة أُخر: حِمية النفس عند ترامي الإرادات، والهرب من مواطن الغنىٰ، وأخذ المعلوم عند الحاجة إليه.

والأُنس في ثلاثة أشياء: أُنسٌ بالعلم والذكْرِ في الخلوة، وأُنسٌ باليقينِ والمعرفةِ مع الخلوةِ، وأُنسٌ بالله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ حالٍ.

والرَّضَا: نظامُ المحبة، ونَفْسُ التوكل، وروحُ اليقين، وقد ذُكر عن أيوب السختياني والفضيل بن عياض رحمة الله عليهما أنهما كانا يقولان: الرضا: التوكُّل.[1]

فهذه شُعَبُ الصدقِ المأخوذةُ بأوصافِ العِلْمِ، وكان سفيان الثوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: إذا كَمُلَ صِدْقُ الصادقِ لم يملك ما في يديه.

وأما شُعبُ الإخلاصِ، فلا يُسمىٰ المخْلِصُ مخلصاً حتىٰ يُفرد الله عَزَّوَجَلَّ من الأشباه والأندادِ والصاحبة والأولاد، ثم إرادتُهُ اللهَ بإقامة التوحيد وجمعُ الهمِّ له وبه في النفل والفَرْض.

وصِحَّةُ اليقين في ثلاثةِ أشياءٍ: سُكونُ القلْبِ إلىٰ الثقةِ بالله، والانقيادُ لأمرِ الله، والإشفاقُ والوجلُ من سابقِ العِلم.

ولليقين أولٌ وآخِرٌ، فأوَّلُه الطمأنينةُ، وآخرُه إفراد الله بالكفاية، لقوله جلَّ وعزَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، والحَسْبُ هو الكافي، والمكتفي هو العبد الراضي بما قضىٰ الله تعالىٰ.

وإنما قلنا: آخرُ اليقين من وجود أوصافِ العبدِ في مقامِ الإيمان، لا في آخرِ اليقينِ من العلم، ولن يبلغ ذلك أحدٌ من خلق الله، كما قال رسول الله ﷺ: لن يبلغَ أحدٌ من الله كنهاً. قالوا: يا رسول الله، إنا بلَغَنا أنَّ عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يمشي علىٰ

(١) المرجع السابق، ص١٧٠-١٧٢.

الماء، قال: لو ازداد يقيناً وخوفاً لمشى في الهواء. ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين، وهل رأيت خائفاً لما لم يستَيْقِنْهُ؟

والخوفُ في ثلاثة أشياء: خوف الإيمان، وعلامتُه بذل الجهد في مفارقة المعاصي والذنوب، وهو خوف المريدين، وخوف السلب، وعلامته الخشية والإشفاق والورع، وهو خوفُ العلماءِ، وخوفُ الفوتِ وعلامتُه بذلُ الجُهْدِ في طَلَبِ مَرضاة الله بوجود الهيبة والإجلال لله عَزَّوَجَلَّ، وهو خوفُ الصدِّيقين.(١)

ومقامٌ رابعٌ في الخوف خصَّ الله به الملائكة والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو خوفُ الإعظام مع أنهم آمنون في أنفسِهم بأمان الله لهم، فخوفُهم تعبُّدُهُم لله إجلالاً وإعظاماً.

والمحبةُ في ثلاثةِ أشياءٍ، لا يُسمَّى المحبُّ مُحباً لله عَزَّوَجَلَّ إلا بها، محبةُ المؤمنين في الله عَزَّوَجَلَّ، وعَلامةُ ذلك كفُّ الأذى عنهم، وجلبُ المنفعةِ إليهم، ومحبةُ الرسولِ ﷺ لله عَزَّوَجَلَّ وعلامة ذلك اتِّباعُ سُنَّتِه، قالَ الله جل ذِكْرُه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومحبةُ الله عَزَّوَجَلَّ في إيثارِ الطاعةِ على المعصيةِ، ويقال: ذكر النعمة يُورث المحبة.

وللمحبة أوَّلٌ وآخِرٌ، فأولُها محبة الله بالأيادي والمِنَن، قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جُبلتِ القلوبُ على حُبِّ مَن أحسنَ إليها. وأعلاها المحبةُ لوجوبِ حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، قال عليُّ بنُ الفضيلِ رحمة الله عليه: إنما يُحَبُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو الله. وقال رجلٌ لطاووس: أوصني، قال: أوصيك أن تُحبَّ الله حباً حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليك منه، وخَفْهُ خوفاً حتى لا يكون شيءٌ أخوفَ إليك منه، وارْجُ الله رجاءً يحولُ بينَك وبين ذلك الخوف، وارضَ للناسِ ما ترضى لنفسِك. قُم فقد جمعْتُ لك علم التَّوراةِ والإنجيلِ والزبورِ والفرقان.

والإجلالُ والتعظيمُ مِن الحياء بمنزلة الرأسِ من الجسدِ الذي لا غِنى لأحدِهما عن صاحِبه، فإذا استحيا العبدُ من ربِّه أجلَّه، وأصلُ الحياء المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٢-١٧٧.

والمراقبةُ في ثلاثةِ أشياءٍ: مراقبةُ الله في طاعتِه بالعمل، ومراقبةُ الله في معصيتِه بالترْكِ، ومراقبةُ الله في الهمِّ والخواطرِ لقولِ النبيِّ ﷺ: اعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك.

ومراقبةُ القلبِ لله عَزَّوَجَلَّ أشدُّ تعباً على البدن من مكابدةِ قِيام الليلِ وصِيام النهار وإنفاق المال في سبيل الله، وقد ذُكر عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه كان يقول: إنَّ لله في أرْضِهِ آنيةً، وإنَّ مِنْ آنِيَتِهِ فيها القلوبَ، فلا يقبل منها إلا ما صُفِّيَ وصَلُب ورَقَّ. ومعنى ذلك أن يُصَفِّي القلبَ لله عَزَّوَجَلَّ باتِّباع أمره ونَـهْيِه، ومشاهدةِ الصدق والإشفاق، وصفَّاه لرسول الله ﷺ بقبول ما أتَى به قولاً وعملاً ونِيَّةً، وصفَّاه للمؤمنين بكفِّ الأذى وإيصال النفع. وأمَّا قوله: "وصَلُبَ" فمعناه قَوِيَ في إقامة الحدود لله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وقوله: "ورَقَّ" فالرِّقَّة على وجهين؛ رِقَّةٌ بالبكاء، ورِقَّةٌ بالرأفة.

وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.[1]

(١) المرجع السابق، ص١٧٧-١٨٣.

## (٢)
# رِسَالَةُ "المُعَلِّمِين"
### أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (توفي: ٢٥٥هـ)

**أهمية تعليم الكتابة**

لولا الكتابُ لاختلَّتْ أخبارُ الماضين، وانقطعت آثارُ الغائبين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلمُ للغائب عنك، وللماضي قبْلَك، والغابر بعدَك، صار نفعُه أعمّ، والدواوين إليه أفقر. والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره، وتقويم سكان مملكته إلا بالكتاب. ولولا الكتاب ما تم تدبير، ولا استقامت الأمور، وقد رأينا عمودَ صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل في نصابه، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب. وليس علينا لأحد في ذلك من المنة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا ودلّنا عليه، وأخذ بنواصينا إليه، ما للمعلمين الذين سخّرهم لنا، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا،...". (مج٢، ج٣، ص ٢٧ – ٢٨)

**الفصل الثاني:**

# رسالة "المعلمين" للجاحظ

## أولاً: التعريف بـ"الجاحظ":

هو أبو عثمان عمرو بن بَـحْر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الشهير بالجاحظ لجحوظٍ في عينيه، ولد في البصرة عام (١٦٣هـ)، وتوفي فيها. من أئمة البلاغة والأدب، وكان معتزلياً، تَتَلْمذ على النَّظّام، وبِشر بنِ المعتمر. عُرف أتباعه بالفرقة الجاحظية، وقَعَتْ عليه الكتب فمات، وكان ذلك سنة (٢٥٥هـ).

رحل إلى بغداد وتتلمذ على أبي عبيدة صاحب عيون الأخبار، والأصمعي صاحب الأصمعيات، وعلى الأخفش في النحو، وعلى النَّظَّام في الكلام. ولمع في الكتابة والبلاغة، فتولى ديوان الرسائل للخليفة المأمون.

عاصر الجاحظُ في حياته اثني عشر خليفة من خلفاء العباسيين، وذلك في حقبة اختلطت فيها الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية، وازدهرت فيها صنوف العلم والمعرفة، كما شاعت كذلك ألوان من اللهو والرقة في الدين، فاتصل الجاحظ بهذه الثقافات بقراءة الكتب المترجمة أو بمجالسة المترجمين، وقد عكست كتابات الجاحظ نماذج من ذلك كله.

تميَّز منهجه في البحث بالتجربة العلمية، والمعاينة والمشاهدة للأمور التي يكتب عنها، وامتاز منهجه في الكتابة بالبساطة والزخارف اللغوية، ومع ذلك فهو يكثر من الاستشهاد بالأدلة القرآنية، والأحاديث، والأشعار. أما منهجه في معالجة القضايا فكان يعرض للرأي وضدِّه، عرضاً وشرحاً واستدلالاً.

**مؤلفاته:** زادت مؤلفاته عن مائتي كتاب منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والمحاسن والأضداد، ونظم القرآن. وله مجموعة كبيرة من الرسائل القصيرة في موضوعات شتى عددها (٤٤) رسالة، منها: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة، وفضيلة المعتزلة، والاستبداد

والمشاورة في الحرب، والنبي والمتنبي، ورسالة المعلمين، وذمُّ القوَّاد، وتنبيه الملوك، وفضائل الأتراك، والعِرَافة والفِرَاسة، وصناعة الكلام، وغيرها، جمعت في أربعة أجزاء مجموع صفحاتها (١٤٨٠) من غير صفحات المقدمات والفهارس.

## ثانياً: التعريف برسالة "المعلمين":[١]

لم يؤلف الجاحظ كتاباً خاصاً بعنوان التربية أو التعليم، كما فعل غيرُه، ولكنَّ معظم مؤلفاته تضمنت كثيراً من الحقائق التربوية، والاتجاهات التعليمية، التي تجعله صاحبَ مدرسةٍ تربويةٍ. هي مثال على إسهام قطاع الأدباء في بناء الفكر التربوي. والنسخة المعتمدة من "رسالة المعلمين" طبعت ضمن رسائل الجاحظ.

تحدث الجاحظ في هذه الرسالة عن الكتاب ودوره في توارث الخبرة والحفاظ عليها، وتفضيل الورق على الجلد، وعن ممارسة الكتابة، وعن الكتاتيب في عصره، وأنواع العلوم ومواد التعليم، وأصناف المعلمين ومنزلة معلم الأحداث، وما ينبغي أن يكون عليه المعلم من حسن الخلق والأمانة ورعاية حقوق المهنة، وعن أهداف التعليم، وهي: الإصلاح الأخلاقي، والعلم لذات العلم، وتحقيق المركز والرزق. وتحدث عن حرية الرأي، وتعليم اللغات، والترجمة. كما تحدث عن النقل والعقل، وضرورة الاهتمام بالطفل ورياضته، وكيفية توجيهه، وأنَّ إسلامه يكون تلقيناً لا اختياراً، والاعتراف بالفروقات الفردية بين الأطفال، واختلاف طبائعهم، وسياسة الرضيع عند بكائه. وتحدث عن دور الإثابة في سياسة التعليم، وعن الحفظ والاستنباط، والفرق بين الحفظ والفهم، وعن المعرفة، ووسائل اكتسابها.

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩١م، المجلد الثاني، الجزء الثالث، وتضم هذه الرسائل (٤٤ رسالة) وتقع في مجلدين، كل مجلد يضم جزئين، وتقع رسالة المعلمين في الجزء الأول من المجلد الثاني، وتقع في حوالي (٢٤) صفحة، و(٢٧٠٠) كلمة.

## ثالثاً: مختارات من رسالة "المعلمين"[1]

### ١- فصل

أعانك الله على سَوْرة الغضب، وعصَمَك من سَرَف الهوى، وصرَفَ ما أعارك من القوَّة إلى حبِّ الإنصاف، ورجَّح في قلبك إيثار الأناة، فقد استعملتَ في المعلمين نَوْكَ السفهاء، وخَطَلَ الجهلاء، ومفاحشةَ الأبذِياء، ومجانبةَ سُبل الحكماء، وتهكُّمَ المقتدرين، وأمْنَ الـمُغْتَرِّين. ومَنْ تعرَّضَ للعداوة وجدَها حاضرة، ولا حاجة بك إلى تكلّفِ ما كُفيت.

### ٢- فصل منه

ولولا الكتاب لاختلّتْ أخبار الماضين، وانْقطعت آثارُ الغائبين، وإنَّما اللسان للشاهد لك، والقلمُ للغائب عنك، وللماضي قَبْلَكَ، والغابر بَعْدَك، صار نفعُه أعمّ، والدواوين إليه أفقر.

والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره، وتقويم سكان مملكته إلا بالكتاب.

ولولا الكتاب ما تَـمَّ تدبير، ولا استقامت الأمور، وقد رأينا عمودَ صلاحِ الدين والدنيا إنَّما يعتدل في نصابه، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب.

وليس علينا لأحدٍ في ذلك من الـمِنَّة بَعْدَ الله الذي اخترع ذلك لنا ودلَّنا عليه، وأخذَ بنواصينا إليه، ما للمعلمين الذين سخّرهم لنا، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا، هؤلاء هم الذين هجوتَـهُم وشكوتَـهم وحاججْتَهم وفحَشْتَ عليهم، وألزمت الأكابرَ ذنبَ الأصاغر، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصِّرين، ورَثَيْت لآباء الصبيان من إبطاءِ المعلمين على تحذيقهم، ولم تَرْثِ للمعلمين من إبطاء الصبيان عمَّا يُراد بهم، وبُعْدِهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه. والمعلمون أشقى بالصبيان من رُعَاة الضَّأْن ورُوَّاض الـمِهارة.

ولو نظرت من جهة النظر علمتَ أنَّ النعمةَ فيهم عظيمةٌ سابغة، والشكرَ عليها

---

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٢٧-٥١.

لازمٌ واجب.[1]

**٣- فصل منه**

وأجمعوا على أنَّهم لم يجدوا كلمة أقل حرفاً ولا أكثر ريعاً ولا أعمَّ نفعاً، ولا أحثّ على بيان، ولا أدعى إلى تبين، ولا أهجى لمن ترك التفهُّم وقصّر في الإفهام، من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قيمة كل امرئ ما يحسن." وقد أحسن من قال: مذاكرة الرجال تلقيحٌ لألبابها.

وكَرِهَتْ الحكماءُ الرؤساء أصحابُ الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا: الحفظ عذقُ الذهن. ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة. والقضية الصحيحة والحكم المحمود: أنَّه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرفَ منزلة منه، ومتى أهملَ النظرَ لم تُسرع إليه المعاني، ومتى أهملَ الحفظَ لم تعلق بقلبه وقلَّ مُكْثُها في صدره.

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يعالجان به ويستعينان متفق عليه، ألا وهو فراغ القلب للشيء، والشهوة له، وبهما يكون التمام، وتظهر الفضيلة.

ولصاحب الحفظ سببٌ آخر يتفقان عليه، وهو الموضع والوقت، فأما الموضع فأيهما يختاران إذا أرادا ذلك الفوق دون السفل. وأما الساعات فالأسحار دون سائر الأوقات؛ لأَنَّ ذلك الوقت قبل وقت الاشتغال وبعقب تمام الراحة والجِمام؛ ولأنَّ للجِمام مقداراً هو المصلحة، كما أنَّ للكدِّ مقداراً هو المصلحة.[2]

**٤-فصل منه**

ويستدل أيضاً بوصايا الملوك للمؤدبين في أبنائهم، وفي تقويم أحداثهم، على أنهم قد قلَّدوهم أمورهم وضميرهم ببلوغ التمام في تأديبهم، وما قلَّدوهم ذلك إلا بعد أن

---

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٠.

ارتفع إليهم في الحنو حالهم في الأدب، وبعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص. وأنت حفظك الله لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحُسَّاب، والخطاطين لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار، فكم تظن أنا وجدنا منهم؛ من الرواة والقضاة والحكماء، والولاة من المناكير والدهاة، ومن الحماة والكفاة، ومن القادة والذادة، ومن الرؤساء والسادة، ومن كبار الكتاب والشعراء، والوزراء والأدباء، ومن أصحاب الرسائل والخطابة، والمذكورين بجميع أوصاف البلاغة، ومن الفرسان وأصحاب الطعان، ومن نديم كريم، وعالم حكيم، ومن مليحٍ ظريف، ومن شاب عفيف.

ولا تعجل بالقضية حتى تستوفي آخر الكتاب، وتبلغ أقصى العذر، فإنك إن كنت تعمدت تذممت، وإن كنت جهلت تعلمت، وما أظن من أحسن بك الظن إلا وقد خالف الحزم.[1]

**٥- فصل منه**

قال المعلم: وجدنا لكل صنف من جميع ما بالناس إلى تعلمه حاجة معلمين، كمعلمي الكتاب والحساب، والفرائض والقرآن، والنحو والعروض والأشعار، والأخبار والآثار، ووجدنا الأوائل كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتابة والحساب، ثم لَعِب الصَّوالجة والرَّمْي في التَّنْبُوك،[2] والمجثَّمة[3] والطير الخاطف، ورَمْي البنجكاز،[4] وقبل ذلك الدَّبُوق،[5] والنَّفخ في السبَطَانة،[6] وبعد ذلك الفروسية، واللعب بالرماح والسيوف، والمشاولة[7] والمنازلة والمطاردة، ثم النجوم واللُّحون،

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣١.

(٢) قوس بمواصفات محددة أهمها الخفة في الوزن.

(٣) أي: حيوان ينصب للقتل بالرمي.

(٤) خشبات تنصب لتكون هدفاً للرمي.

(٥) من ألعاب الأطفال.

(٦) قناة مجوفة ينفخ فيها لرمي الطيور.

(٧) حمل الأثقال.

والطبّ والهندسة، وتعلُّم النَّرْد والشِّطْرنج وضرب الدُّفوف، وضرب الأوتار، والوقع والنفخ في أصناف المزامير، ويأمرون بتعليم أبناء الرعية الفِلاحة والنِّجارة والبُنيان والصِّياغة والخياطة والسرد والصبغ وأنواع الحياكة. نَعَمْ حتىٰ علَّموا البلابل وأصناف الطير الألحان. وناساً يُعلِّمون القرود والدِّببة والكلاب والظِّباء المكِّية والبَبَّغاءَ والصقر وغراب البَيْن، ويُعلِّمون الإبل والخيل والبغال والحمير والفيلة أصناف المشي، وأجناس الحُضْر، ويعلمون الشواهين والصقور والبوازي والفهود والكلاب وَعَنَاقَ الأرض الصيد. ويُعلِّمون الدواب الطحن والبخاتي الجمز[1] حتىٰ يَرُوضوا الـهِملاج والـمِعناق[2] بالتخليع وغير التخليع[3] وبالموضوع والأوسط والمرفوع.

ووجدنا للأشياء كلِّها معلمين.

وإنَّما قيل للإنسان العالم الصغير سليل العالم الكبير؛ لأَنَّ في الإنسان من جميع طبائع الحيوان أشكالاً، من ختل الذئب، وروغان الثعلب، ووثوب الأسد، وحقد البعير، وهداية القطاة، وهذا كثير وهذا بابه.

ولأنَّه يحكي كل صوتٍ بفيه، ويُصوِّر كلَّ صورة بيده، ثم فضّله الله تعالىٰ بالمنطق والروية وإمكان التصرف، وعلىٰ أنّا لا نعلم أنَّ لأحد من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الأصناف فضيلة كفضيلة المعلم من الناس الأحداث المنطق المنثور، ككلام الاحتجاج والصفات والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات بين الموزون من القصائد والأرجاز، ومن المزدوج والأسجاع مع الكتاب والحساب، وما شاكل ذلك ووافقه، واتصل به وذهب مذهبه.[4]

وقالوا: إنما اشتُق اسم المعلم من العلم، واسم المؤدب من الأدب، وقد عَلِمْنا أنَّ العلم هو الأصل، والأدب هو الفرع. والأدبُ إما خُلُق وإما رواية، وقد أطلقوا له اسم

---

(١) الوثب.

(٢) الهملاج والمعناق طريقتان في سير الدواب.

(٣) التخليع طريقة في المشي.

(٤) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٤.

المؤدِّب على العموم، والعلم أصلٌ لكلِّ خير، وبه ينفصل الكرم من اللؤم، والحلال من الحرام، والفضلُ من الموازنة بين أفضل الخيرَيْن، والمقابلة بين أنقص الشَّرَّيْن.

فلم يعرضوا لأحد من هذه الأصناف التي اتخذ الناس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل، والسرف والاقتصاد، والجد والهزل إلا هؤلاء الذين لا يعلِّمون إلا الكتاب، والحساب، والشعر، والنحو، والفرائض، والعروض، وما بالسماء من نجوم الاهتداء والأنواء والسعود، وأسماء الأيام والشهور، والمناقلات. ويمنعهم العرامة ويأخذهم بالصلاة في الجماعة، ويُدرِّسهم القرآن، ويهذِّن ألسنتهم برواية القصيد والأرجاز، ويعاقب على التهاون، ويضرب على الفرار، ويأخذهم بالمناقلة، والمناقلة من أسباب المنافسة.[1]

**٦- فصل منه**

وقد ذهب قوم إلى أنَّ الأدب حُرْف وطلبه شُؤم، وأنشدَ قولَ الشاعر:

ما ازددت في أدبي حرفاً أُسرُّ به ... إلا تزيدت حُرْفاً تحته شوم
إن المقدَّم في حذقٍ بصنعته ... أنى توجَّه فيها فهو محروم

ولم نر شاعراً نال بشعره الرغائب ولا أديباً بلغ بأدبه المراتب، ذكر يُمن الأدب، ولا بركة قول الشعر، فإذا حُرم الواحد منهم، والرجل الشاذ ذكر حُرف الأدب، وشؤم الشعر، وإن كان عدد من نال الرغائب أكثر من عدد من أخفق.

ومهما عيَّرنا من كان في هذه الصفة، فإنا غير معايرين لأبي يعقوب الخريمي؛ لأنه نال بالشعر وأدرك بالأدب.

وليس الذي يحمل أكثر الناس على هذا القول إلا وجدان المعاني والألفاظ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظرف وفضل اللسان، وهم عليه قادرون.[2]

---

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٧.

**٧- فصل منه**

وقد قالوا: الصبيُّ عن الصبيِّ أفهم، وبه أشكل، وكذلك الغافل والغافل، والأحمق والأحمق، والغبي والغبي، والمرأة والمرأة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. لأَنَّ الناس عن الناس أفهم، وإليهم أسكن، فمما أعان الله تعالىٰ به الصبيان أن قرّب طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين.

وسمع الحجّاجُ وهو يسير كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ فيه تخليط وهذيان، فقال: مجنونة، أو ترقّص صبياً.

ألا ترىٰ أنَّ أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بياناً وأدقهم فطنةً، وأبعدهم رويةً، لو ناطق طفلاً أو ناغىٰ صبياً، لتوخىٰ حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كل ما فضّله الله به بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة، وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقين في الصناعات.

**٨- فصل في رياضة الصبيِّ**

وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلىٰ السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتابٍ إنْ كتبَه، وشعرٍ إنْ أنشدَه، وشيءٍ إنْ وَصَفُه، وما زاد علىٰ ذلك فهو مشغلةٌ عما هو أولىٰ به، ومذهلٌ عما هو أردّ عليه منه، من رواية المثل والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع.

وإنَّما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه من لا يحتاج إلىٰ تعرُّف جَسِيمات الأمور، والاستنباط لغوامض التدبر، ولمصالح العباد والبلاد، والعلم بالأركان، والقطب الذي تدور عليه الرحىٰ، ومن ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه. وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يُضطر إليه شيء، فمن الرأي أن يُعتمد به في حساب العقد، دون حساب الهند، ودون الهندسة وعويص ما يدخل في المساحة، وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كُفاةُ السلطان وكتّاب الدواوين.

وأنا أقول: إنَّ البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل والترقي فيه والسبب إليه، أردُّ عليه من البلوغ في صناعة المحررين ورؤوس الخطاطين؛ لأَنَّ في

أدنى طبقات الخط مع صحة الهجاء بلاغاً، وليس كذلك حال الحساب.

ثم خذه بتعريف حجج الكتَّاب وتخلُّصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقْه حلاوة الاختصار، وراحة الكفاية، وحذّره التكلف واستكراه العبارة، فإنَّ أكرم ذلك كلَّه ما كان إفهاماً للسامع، ولا يُحوِج إلى التأويل والتعقب، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصّراً عنه، ولا فاضلاً عليه.

فاخْتَرْ من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد، مُغْرِقاً في الإكثار والتكلف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أنْ يتَّسِق له القول، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة، فالمعنى بعدُ مقيمٌ على استخفائه، وصارت العبارة لَغواً وظَرْفاً خالياً.(١)

وشرُّ البُلغاء من هيأ رسمَ المعنى قبل أن يُهيئ المعنى، عِشقاً لذلك اللفظ، وشغَفاً بذلك الاسم، حتى صار يجُرّ إليه المعنى جراً، ويُلزقه به إلزاقاً، حتى كأنَّ الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره، ومنعَه الإفصاح عنه إلا به.

والآفة الكبرى أنْ يكون رديء الطبع بطيء اللفظ، كليل الحدّ، شديد العُجب، ويكون مع ذلك حريصاً على أنْ يُعدَّ في البلغاء، شديد الكَلف بانتحال اسم الأدباء، فإذا كان كذلك خفي عليه فرقُ ما بين إجابة الألفاظ واستكراهه لها.

وبالجملة إنَّ لكلِّ معنىً شريفٍ أو وضيع، هزلٍ أو جَدٍ، وحَزْم أو إضاعة، ضرباً من اللفظ هو حقُّه وحظُّه، ونصيبُه الذي لا ينبغي أنْ يجاوزه أو يقصِّر دونه.

ومن قرأ كُتبَ البُلغاء وتصفَّح دواوين الحكماء، ليستفيد المعاني فهو على سبيل صواب، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران ها هنا في وزن الربح هناك؛ لأَنَّ من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمَلَه الحرصُ عليها والاستهتارُ بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك! قال صاحبه: ولِمَ ذاك؟ قال: لأني أقول البيتَ وأخاه، وأنت

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٠.

تقول البيت وابن عمه.

وإنما هي رياضةٌ وسياسة، والرفيق مصلحٌ وآخرُ مفسد، ولا بد من هِدانٍ[1] وطبيعة مناسبةٍ.

وسماع الألفاظ ضارٌ ونافعٌ.

فالوجه النافع: أن يدور في مسامعه ويغبَّ في قلبه، ويختمر في صدره، فإذا طال مُكْثُها تناكحتْ، ثم تلاقحت، فكانت نتيجتُها أكرمَ نتيجة، وثمرتُها أطيبَ ثمرة؛ لأنَّها حينئذ تخرج غير مسترقةٍ ولا مختلسة، ولا مغتصبة، ولا دالة على فقر؛ إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره، وبين الشيء إذا عشَّش في الصدر، ثم باضَ، ثم فرّخ، ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختاراً واللفظ اعتسافاً واغتصاباً فرقٌ بيّن.

ومتى اتَّكل صاحبُ البلاغة على الهوينَى والوكال، وعلى السرقة والاحتيال لم ينل طائلاً وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوءُ العادة.

والوجه الضار: أن يتحفظ ألفاظاً بعينها، من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً وحائفاً[2] سروقاً، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام، فإذا مرّ كلامه بنقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني اسْتَخَفُّوا عقلَه وبَـهْرَجُوا علمه.

ثم اعلم أنَّ الاستكراه في كل شيء سمِجٍ، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو في الطُّرَف أسمج، وفي البلاغة أقبح، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه، مسرودة في نفسه، ولم تكن مخلّدة في كتبه.

وخيْرُ الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك من حسنه، وأوقفك على حَدِّه.[3]...

---

(١) مهادنة.

(٢) ظالماً وجائراً.

(٣) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٢.

**١٠- فصل:**

ومن المعلمين، ثم من البلغاء المتأدبين عبد الله بن المقفع، ويكنَّى أبا عمرو، وكان يتولى لآل الأهتم، وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعاني وابتداع السِّيَر، وكان جواداً فارساً جميلاً، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله، وكان يتعاطى الكلام، ولم يكن يُحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً، وكان ضابطاً لحكايات المقالات، ولا يعرف من أين غُرَّ المغْتَرُّ ووَثِقَ الواثق، وإذا أردت أن تعتبر ذلك، إن كنت من خُلّص المتكلمين ومن النظارين، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم، ردئ المدخل في مواضع الطعن عليهم.[١]

وقد يكون الرجل يُحسن الصنفَ والصنفين من العِلم، فيظن بنفسِه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض أن ادّعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحدٌ إلا بخذلان الله تعالى، فلا حرمنا الله تعالى عصمته، ولا ابتلانا بخذلانه.[٢]...

**١١- فصل:**

ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أردّ في عاجل، ولا أفضل في آجل من حسن الظن بالله تعالى وعزّ.

ثم اعلم أنَّ أعقلَ الناسِ السلطانُ ومن احتاج إلى معاملته، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة، والاهتداء إلى مواضع الحجة، وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة، ولولا السلطان لأكل الناس بعضَهم بعضاً، كما أنه لولا الـمُسيم لوثب السباع على السَّوام.[٣]

---

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٤.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٤.

(٣) المسيم هو الراعي، والسوام جمع سائمة وهي الدواب ترعى.

ودعني من تدريسه كتب أبي حنيفة ودعني من قولهم: اصرفه إلى الصيارفة، فإن صناعة الصرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بداً من حلة السلطان.[1]

ودعني من قول من يقول: قد كانت قريش تجاراً، فإن هذا بابٌ لا ينقاس ولا يطّرد، ومن قاس تجار الكرخ وباعته، وتجار الأهواز والبصرة على تجار قريش، فقد أخطأ مواضع القياس، وجهل أقدار العلل.

قريشٌ قومٌ لم يزل الله تعالى يقلبهم في الأرحام البريئة من الآفات، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات، ويُعَبِّيهم لكل جسيم، ويُربِّيهم لكل عظيم.

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه في التجارة لعرف اختلاف السبل، وتفاوت ما بين الطرق، ولو كانت عِلَّتُهم في ذلك كعِلَّة تجَّار الأُبلة ومحتكري أهل الحيرة لثَلمت التجارة في أعراضهم، ولنهَكَ سُخْفُ التربُّحِ من مروءاتهم، ولصغَّر ذلك من أقدارهم في صدور العرب، ولوضع من علوهم عند أهل الشرف، وكيف وقد ارتحلت إليهم الشعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظماء، فأسنوا لهم العطية، ولم يُقصِّروا عن غاية، فسقوا الحجيج وأقاموا القرى لزوار الله تعالى، وهم بوادٍ غير ذي زرع، فلو أنه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول، ومن المجد ما تحرج فيه العيون، لما أصلح طبائعَهُم الشيءُ الذي يفسد جميع الأمة، ولقد أورث ذلك صدورهم من السعة، بقدر ما أورث غيرهم من الضيق، ولو كانت سبلهم عند الملوك إذا وفدوا عليهم، أو وردوا بلادهم بالتجارات سبل غيرهم من التجار، لما أوجهوهم وقربوهم، ولما أقاموا لهم قرى الملوك، وحبوهم بكرامة الخاص.

وإذا كانت قريش حُمساً تنسَّك في دينها، وتتأله في عبادتها، وكان مانعاً لهم من الغارات والسباء، ومن وطء النساء من جهة المغنم، ولذلك لم يئدوا البنات ولا ولدت منهم امرأة غيرهم من جهة السباء، ولا زوجوا أحداً من العرب حتى يتحمس ويدين

---

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٥.

بدينهم، ولذلك لما صاروا إلى بناء الكعبة لم يُخرجوا في بنائها من أموالهم إلا مواريث آبائهم ونسائهم، خوفاً من أن يخالطه شيءٌ من حرامٍ؛ إذ كانت أرباح التجارات مخوفاً عليها ذلك، فلما كانوا بوادٍ غير ذي زرع ويحتاجون إلى الأقوات، وإقامة القرى لم يجدوا بداً من أن يتكلفوا ما يُعيشهم ويصلح شأنهم، فأخذوا الإيلاف، ورحلوا إلى الملوك بالتجارات، فهذا هو السبب.

فانظر كم بين علَّتِهم وعِلَّة غيرهم! فيسرّك بعد هذا أن يتحول ابنك في مسلاخ صالح الزرازريشي، أو في طباع ابن بادام، أو في عقل ابن سامرى.

فإن زعموا أنَّ أصحاب السلطان بِعَرَضٍ مكروه فليعلموا أنَّ كلَّ مسافر فبِعرض مكروه، وقد قال بعض الحكماء: المسافر ومتاعُه على قَلَتٍ[1] إلا من حفظ الله يعني على الهلاك.

وراكبُ البحرِ أشدُّ خطراً، ومشتري طعام الأهواز أشد تهوراً، ورافع الشراع بعرض هلكة، والمتعرض للملاحة والمعرِّض نفسَه للسباع أقل شفقة، وسكان الجزائر والسواحل أحق بالتعرض وأولى بالخوف، والمنهوم بالطعام الردي، والمدمن للشراب أشبه بأصحاب التغرير، والمتباري في ذلك والمتزيد منه أحق بتوقع الحدثان، وحوادث الأزمان، وقد جرت عليه عادة الدهر، وسيرة الأيام وهذا كله أحق بالاهتمام.

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب وإلى إعطاء الحزم أكثر من نصيبه، وكيف دار الأمر فإن التاجر قد استشعر الذل، وتغشى ثوب المذلة.[2]

وصاحبُ السلطان قد تجاوز حدَّ العِزّ والهيبةِ، وإنما عيبه سُكْر السلطان[3] وإفراط التعظيم قد استبطن بالعز، وظاهر بالبشر، واستحكمت تجربته، وبعُدَت بصيرته حتى عرف مصلحة كل مصر، وإصلاح كل فاسد، وإقامة كل معوج، وعمارة

---

(١) هلاك.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٥-٤٩.

(٣) سكر السلطان شعوره بالزهو والنشورة من كثرة المدح.

كل خرب. ولا أعلم في الأرض أعمُّ إفلاساً ولا أشدُّ نكبةً، ولا أكثر تحولاً من يسر إلى عُسر، ولا رأينا الجوائح إلى أحد أهدى منها إلى أموال الصيارفة، فكيف يقاس شأن قوم تعمُّهم المعاطب، بشأن أهل السلامة فيهم أكثر، والنكبات فيهم أقل؟

وبعد هذا، فإني أرى ألا تستكرهه فتبغّض له الأدب، ولا تهمله فيعتاد اللهو.

على أني لا أعلم في جميع الأرض شيئاً أجلب لجميع الفساد من قرناء السوء، والفراغ الفاضل عن الجَمام.[1]

درّسه العلم، ما كان فارغاً من أشغال الرجال، ومطالب ذوي الهمم، واحتلْ في أن تكون أحب إليه من أمَّه، ولا تستطيع أن يـَمْحَضَك الـمِقَةَ،[2] ويصَّفِي لك المودةَ مع كراهته لما تحمل إليه من ثقل التأديب عند من لم يبلغ حال العارف بفضله.

فاستخرج مكنون محبته بِـبِرِّ اللسان، وبذل المال، ولهذا مقدارٌ من جازه أفْرَطَ، والإفراط سَرَفٌ، ومن قصّر عنه فرَّط، والمفَرِّطُ مِضياع.

ولا تستكثرنَّ هذا كلَّه فإنَّ بعض النعمة فيه تأتي على أضعاف النعامة، والذي تحاول من صلاح أمر من تؤمِّل فيه أن يقوم في أهلك مقامك، وإصلاح ما خلّفت كقيامك لحقيقٌ بالحيطة عليه، وبإعطائه المجهود من نفسك.

وقال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. فعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فوهب له غلاماً وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

اعلم أنَّه أعطاك ولداً عَبْرَة عين العدو، وقُرَّة عين الصديق الولي، فاحْمَد الله وأخلص في الدعاء، وأكثر من الخير إن شاء الله تعالى.[3]

---

(١) الراحة.

(٢) الحُبّ.

(٣) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٩-٥١.

# (٣)
# آدَابُ المُعَلِّمِين
## أبو عبد الله محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي (توفي: ٢٥٦هـ)

**تفرُّغ المعلم لتلاميذه**

ولا يحلُّ للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكون في وقتٍ لا يعرِّضهم فيه، فلا بأس أن يتحدّث وهو في ذلك ينظر إليهم ويتفقّدهم. ... قال (سحنون): وليلزم المعلم الاجتهاد، وليتفرّغ لهم، ولا يجوز له الصلاة على الجنائز، إلا فيما لا بُدّ منه، ممن يلزمه النظر في أمره؛ لأنه أجيرٌ لا يدع عملَه، ولا يتبع الجنائز ولا عيادة المريض.

وينبغي له أن يجعلَ لهم وقتاً يُعلِّمهم فيه الكَتْبَ، ويجعلهم يتخايرون (يتنافسون)؛ لأَنَّ ذلك مما يُصلحُهم ويخرِّجهم، ويبيح لهم أدب بعضهم بعضاً...(ص١٢٠)

قال محمد: لا بأس أن يستأجرَ الرجلُ المعلِّمَ على أن يعلِّم أولادَه القرآنَ بأجرة معلومةٍ، إلى أجلٍ معلومٍ، أو كلَّ شهرٍ، وكذلك نصف القرآن، أو رُبعه، أو ما سميا عليه. قال: وإذا استأجر الرجلُ معلماً على صبيان معلومين جاز للمعلِّم أنْ يعلِّم معهم غيرَهم، إذا كان لا يُشغله ذلك عن تعليم هؤلاء الذين استُؤجِر لهم. قال: وإذا استُؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة، فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم... (ص ١٢٦).

**الفصل الثالث:**

# كتاب "آداب المعلمين" لابن سحنون

## أولاً: التعريف بـ"ابن سحنون":

هو أبو عبد الله محمد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد في القيروان عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م)، التي كانت تعد أهم مدن الشمال الأفريقي، وأول الأماكن التي ظهر فيها علم الشريعة في أفريقيا.[١] تعلم على يد والده أبي سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي، الذي عُرِف بسحنون -إما لأنه حاد الذكاء، أو على اسم طائر معروف بنَظَرِهِ الحادِّ- وهو عالم مشهور في الفقه المالكي. أظهر محمد بن سحنون قابلية للتعلم في سن مبكرة. وكان يناظر أباه في بعض مسائل العلم، ويسمّع للناس كتب أبيه قبل أن يخرج أبوه للدرس، فإذا جلس أبوه للدرس جلس مع الناس. وأخذ العلم عن علماء أفريقية (تونس اليوم) ومنهم موسى الصمادي، وعبد العزيز المدني، وعبد الله اليحصبي، وابن أبي حسان، وأبو جعفر الصمادحي، وعبد العزيز بن يحيى المدني، وغيرهم، ثم سافر إلى الحج استجابة لطلب أبيه، الذي نصحه أن يأخذ من كل مكان يمر به في طريق الحج من علم أهله، وأخذ العلم عن أبي مصعب الزهري، وسلمة بن شبيب في المدينة المنورة وغيرهما. ولما عاد إلى القيروان اتخذ له حلقة غير حلقة أبيه.

ومن أبرز تلاميذه ابنه أبو سعيد محمد بن محمد بن سحنون، وابن حبيب القطان موسى بن عبد الرحمن الإفريقي، وعبد الله بن محمد ابن أبي وليد الأموي، وغيرهم.

أخذ ابن سحنون كثيراً من الصفات الشخصية والعلمية التي عرفت في والده، من الورع والتواضع والزهد والحلم، إضافة إلى الفقه والدين. وعاش متقشفاً مخشوشناً

---

(١) يقول ابن خلدون عن القيروان إنها كانت حاضرة المغرب كما كانت قرطبة حاضرة الأندلس، فقد: استبحر عمرانها وكان فيها للعلوم والصناع أسواق نافقة، وبحور زاخرة، ورسخ فيها التعليم لامتداد عصرها لما كان فيها من الحضارة انظر:

- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. **مقدمة ابن خلدون**، دراسة وتحقيق وتعليق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م، ج٣، ص١٠٢.

متواضعاً، مع أنه كان صاحب مكانة عند أمراء البلاد من بني الأغلب، كما كان وجيهاً مكرماً عن العامة من الناس. وعرف عنه اللياقة في تدبير الأمور وسعة الحيلة، فكان الناس يستشيرونه في أمورهم ويطلبون منه التوسط في حل مشكلاتهم مع الأمراء.

ألف ابن سحنون نحواً من مئتي كتاب ورسالة، لم يصل إلينا منها إلا القليل، وشملت هذه الكتب الفقة، والحديث، والسيرة، وطبقات العلماء، والجهاد، والتاريخ. وأكثر ما اشتهر بين الناس من مؤلفاته كتاب صغير بعنوان: آداب المعلمين. توفي ابن سحنون عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

## ثانياً: التعريف بـ"آداب المعلمين"[١]

يُعَدُّ هذا الكتاب أقدم ما وصَلَنَا من كتب التراث المتخصصة في التعليم، وموضوعات هذا الكتاب تدلُّ على نوعية الأسئلة التي كانت تطرح حول واقع التعليم في ذلك العصر، وذلك من موضوعات في أساسيات العلم في القرآن والفقه والحديث واللغة، ومن أخذ الأجر على التعليم، وحدود العقاب الذي يمكن أن يمارسه المعلم على التلاميذ، وعلاقة المعلم بأولياء أمور التلاميذ، وأساليب التعليم من قراءة وكتابة وتسميع.

ويبدو أنَّ هذه الأسئلة كانت تُطرح على سبيل الفتاوى الشرعية لبيان ما يجوز وما لا يجوز، ولذلك سلكت إجابات المؤلف مسلكاً فقهياً، معتمداً على التراث الذي كان سائداً من فقه الإمام مالك. كما جاءت على منهج المحدثين في تسلسل سند الرواية، فهو مثلاً يروي عن أبيه سنداً متصلاً إلى رسول الله ﷺ. ومثال ذلك واضح في الجملة الأولى من الكتاب، التي جاءت على الوجه الآتي: حدثني أبي سحنون عن عبد الله بن وهب عن سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان

---

(١) آداب المعلمين لابن سحنون، تحقيق: محمد العروسي المطوي. عند:

- حجازي، عبد الرحمن عثمان. **المذهب التربوي عند ابن سحنون: رائد التأليف التربوي الإسلامي**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٦م.

بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: أفضلُكم من تعلَّم القرآن وعلّمه.[1]

كتابُ "آداب المعلمين" رسالة صغيرة في حدود خمسة آلاف كلمة (ست عشرة صفحة). وقد جاءت هذه الرسالة على أسلوب المحدثين؛ أي في قالب رواية رواها محمد بن سحنون، عن أبيه كلّها أو جُلّها، ثم سجَّلها كتاباً وتناقلها النساخ من بعده، لكنَّ هذا لا يُنقص من قيمة ما تضمنته من مبادئ سنها سحنون وابنه لتعليم الأطفال.

ويظهر مما جاء بعد كتاب ابن سحنون هذا أنَّ كثيراً من الكتابات اللاحقة اعتمدت عليه وأخذت منه، ولا سيما مؤلفات القابسي والزرنوجي.

يحتوي الكتاب على عشرة أبواب، وهي: ما جاء في تعليم القرآن العزيز، ما جاء في العدل بين الصبيان، ما يكره مَـحْوُه من ذكر الله تعالى وما ينبغي أن يُفعل من ذلك، ما جاء في الأدب وما يجوز وما لا يجوز، ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم، ما جاء في القضاء بعطية العيد، ما ينبغي أن يخلِّي الصبيان فيه، ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان، ما جاء في إجازة المعلم ومتى يجب، ما جاء في إجازة المصحف وكتب الفقه وما شابهها.

## ثالثاً: مختارات من "آداب المعلمين"[2]

### ما جاء في تعليم القرآن الكريم:

عن سحنون، عن عبد الله بن نافع قال: حدثني حسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جدِّه، عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: عليكم بالقرآن، فإنَّه ينفي النِّفاق كما تنفي النَّارُ خبثَ الحديد.

موسى عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الرحمن بن بديل عن أبيه عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: "إنَّ لله أهلين من الناس." قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: "هم حملة القرآن، هم أهل الله وخاصته."

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١١٣-١٢٨.

عن مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: أُنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه.[1]...

وحدثني موسى عن ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أسد بن وداعة، عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] قال: كلٌّ من تعلَّم القرآن وعلّمه فهو ممن اصطفاه الله من بني آدم.

وحدثونا عن سفيان الثوري عن العلاء بن السائب قال: قال ابن مسعود: ثلاثٌ لا بُدَّ للنَّاس منهم: لا بد للناس من أمير يحكم بينهم، ولولا ذلك لأكلَ بعضُهم بعضاً، ولا بدُّ للنَّاس من شراء المصاحف وبيعها، ولولا ذلك لقلّ كتاب الله، ولا بد للناس من معلِّمٍ يُعلِّمُ أولادهم، ويأخذ على ذلك أجراً، ولولا ذلك لكان الناس أميين.[2]...

**ما جاء في العدل بين الصبيان:**

حدثني محمد بن عبد الكريم البرقي قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم العمري قال: حدثنا آدم بن بهرام بن إياس عن الربيع عن صبيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أيُّما مؤدبٍ وَلِيَ ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلّمهم بالسوية، فقيرهم مع غنيهم، وغنيهم مع فقيرهم، حُشر يوم القيامة مع الخائنين...

**باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى، وما ينبغي أن يفعل ذلك:...**

قيل لأنس: كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ قال أنس: كان المؤدب له إجانة، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماء طاهراً فيصبونه فيها، فيمحون به ألواحهم، قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف.

قلت: أفترى أن يلعط؟ قال: لا بأس به، ولا يُمسَح بالرِجل، ويُمسح بالمنديل، وما أشبهه.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١١٤.

قلت: فما ترىٰ فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحىٰ غير ذلك مما ليس من القرآن.[1]...

**ما جاء في الأدب، وما يجوز من ذلك، وما لا يجوز:**

قال: حدثنا عن عبد الرحمن عن عبيد بن إسحاق عن سيف بن محمد قال: كنت جالساً عند سعد الخفاف، فجاءه ابنه يبكي، فقال: يا بني ما يبكيك؟ قال: ضربني المعلم، قال: أما والله لأحدثنكم اليوم: حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: شرار أمتي معلمو صبيانهم، أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم علىٰ المسكين.

قال محمد: وإنما ذلك؛ لأنه يضربهم إذا غضب، وليس علىٰ منافعهم، ولا بأس أن يضربهم علىٰ منافعهم، ولا يجاوز بالأدب ثلاثاً، إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذىٰ أحداً، ويؤدبهم علىٰ اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأما علىٰ قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثاً.[2]...

**ما جاء في الختم، وما يجب في ذلك للمعلم:**

وسألته متىٰ تجب الختمة؟ فقال: إذا قاربها وجاوز الثلثين، فسألته عن ختمة النصف، فقال: لا أرىٰ ذلك يلزم. قال سحنون: ولا يلزم ختمه غير القرآن كله، لا نصف، ولا ثلث، ولا ربع، إلا أن يتطوعوا بذلك. قال محمد: وحضرت لسحنون قضىٰ بالختمة علىٰ رجل، وإنما ذلك علىٰ قدر يُسر الرجل وعُسره.

وقيل له: أترىٰ للمعلم سعة في إذنه الصبيان اليوم ونحوه؟ فقال: ما زال ذلك من عمل الناس مثل اليوم وبعضه، ولا يجوز له أن يأذن لهم أكثر من ذلك إلا بإذن آبائهم؛ لأنه أجير لهم.

قلت: وما أهدىٰ الصبي للمعلم، أو أعطاه شيئاً فيؤذن له علىٰ ذلك؟ فقال: لا، إنما الإذن في الختم اليوم ونحوه، وفي الأعياد، وأما في غير ذلك فلا يجوز له إلا بإذن الآباء،

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١١٦.

قال: ومن هنا سقطت شهادة أكثر المعلمين؛ لأنهم غير مؤدين لما يجب عليهم إلا من عصم الله، قال لي: هذا إذا كان المعلم يعلّم بأجر معلوم كل شهر أو سنة، وأما إن كان على غير شرط فما أعطي قبل، وما لم يُعط لم يسأل شيئاً، فله أن يفعل ما شاء، إذا كان أولياء الصبيان يعلمون تضييعه، فإن شاؤوا أعطوه على ذلك وإن شاؤوا لم يعطوه.[1]

**ما جاء في القضاء في عطية العيد:**

قلت: فعطية العيد يُقضى بها؟ قال: لا، ولا أعرف ما هي، إلا أن يتطوعوا بها، قال: ولا يحلُّ للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئاً من هدية وغير ذلك، ولا يسألهم عن ذلك، فإن أهدوا إليه على ذلك فهو حرام، إلا أن يهدوا من غير مسألة، إلا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف، فإن لم يفعلوا فلا يضربهم في ذلك، وأيضاً إن كان يهددهم في ذلك فلا يحل له ذلك، أو يُـخَلِيهم إذا أهدوا له فلا يحل له ذلك؛ لأَنَّ التخلية داعية إلى الهدِيَّة، وهو مكروه.

**ما ينبغي أن يخلَّى الصبيان فيه:**

قلت له: فكم ترى أن يأذن لهم في الأعياد؟ قال: "الفطر يوماً واحداً، ولا بأس أن يأذن لهم ثلاثة أيام، والأضحى ثلاثة أيام، ولابأس أن يأذن لهم خمسة أيام." قلت: أفيرسل الصبيان بعضهم في طلب بعض؟ قال: لا أرى ذلك يجوز له، إلا أن يأذن له آباؤهم، أو أولياء الصبيان في ذلك، أو تكون المواضع قريبة، لا يشتغل الصبي في ذلك، وليتعاهد الصبيان هو بنفسه في وقت انقلاب الصبيان ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا.

قال: "وأحِبُّ للمعلم أن لا يوَلِّـي أحداً من الصبيان الضرب، ولا يجعل لهم عريفاً منهم، إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم، وعرف القرآن، وهو مستغن عن التعليم، فلا بأس بذلك، وأن يعينه فإنَّ ذلك منفعةٌ للصبي، ولا يحلُّ له أن يأمر أحداً أن يعلم أحداً منهم، إلا أن يكون في ذلك منفعةٌ للصبي في تخريجه، أو يأذن والده في ذلك، ولْيَـلِ هو ذلك بنفسه، أو يستأجر من يعينه إذا كان في مثل كفالته."[2]

---

(١) المرجع السابق، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق، ص١١٨.

**ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان**

ولا يحلُّ للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكون في وقت لا يعرِّضهم فيه، فلا بأس أن يتحدث وهو في ذلك ينظر إليهم ويتفقدهم. قلت: فما يعملُ الناس من الإيلام عند الختم، ومن الفاكهة، يُرمى بها على النَّاس، هل يحل؟ قال: لا يحل؛ لأنَّه نُـهْبَة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل طعام النُّهْبة.

قال: وليلزم المعلم الاجتهاد، وليتفرغ لهم، ولا يجوز له الصلاة على الجنائز، إلا فيما لا بد منه، ممن يلزمه النظر في أمره؛ لأنه أجير لا يدع عمله، ولا يتبع الجنائز ولا عيادة المريض.

وينبغي له أن يجعل لهم وقتاً يعلمهم فيه الكَتْبَ، ويجعلهم يتخايرون؛[1] لأَنَّ ذلك مما يصلحهم ويخرِّجهم ويبيح لهم أدب بعضهم بعضاً، ولا يجاوز ثلاثاً، ولا يجوز له أن يضرب رأس الصبي ولا وجهه، ولا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه، إذا أرسل وراءه.

قلت: فهل ترى للمعلم أن يكتب لنفسه كتب الفقه أو لغيره؟ قال: أما في وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس، مثل أن يأذن لهم في الانقلاب، وأما ما داموا حوله فلا؛ أي لا يجوز له ذلك، وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه إلى ما لا يلزمه. ألا ترى أنه لا يجوز له أن يوكل تعليم بعضهم إلى بعض، فكيف يشتغل بغيرهم؟!

قلت: فيأذن للصبي أن يكتب لأحد كتاباً؟ فقال: لا بأس، وهذا مما يُخَرِّج الصبي إذا كتب الرسائل، وينبغي أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يُشترط ذلك عليه، وكذلك الشعر، والغريب، والعربية، والخط، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع، وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له، والشكل، والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة، والتوقيف والترتيل، يلزمه ذلك، ولا بأس أن

---

(١) يتنافسون.

يعلمهم الشعر، وليس ذلك بواجب عليه.[1]...

وليجعل الكتب من الضحى إلى وقت الانقلاب، ولا بأس أن يجعلهم يملي بعضهم على بعض؛ لأَنَّ ذلك منفعة لهم، وليتفقد إملاءهم، ولا يجوز أن ينقلهم من سورة إلى سورة حتى يحفظوها، بإعرابها، وكتابتها، إلا أن يسهل له الآباء، فإن لم يكن لهم آباء وكان لهم أولياء أو وصي، فإن كان دفع أجر المعلم من غير مال الصبي إنما هو عنده، فله أن يسهل للمعلم كما للأب، وإن كان من مال الصبي يعطي الأجرة لم يجر أن يسهل للمعلم أن يخرجه من السورة حتى يحفظها كما أعلمتك، وكذلك إن كان الأب يعطي من مال الصبي...[2]

قال سحنون: ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه، وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة، إذا كانوا بني سبع سنين، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر، وكذلك قال مالك، وحدثنا عنه عبد الرحمن قال: قال مالك: يُضربون عليها بنو عشر، ويفرّق بينهم في المضاجع، قلت: الذكور والإناث؟ قال: نعم.

قال سحنون: ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة؛ لأَنَّ ذلك دينهم، وعدد ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير وكيفية الجلوس، والإحرام، والسلام، وما يلزمهم في الصلاة، والتشهد والقنوت في الصبح، فإنه من سُنَّة الصلاة، ومن واجب حقها الذي لم يزل رسول الله ﷺ عليها حتى قبضه الله تعالى صلوات الله عليه ورحمته وبركاته، ثم الأئمة بعده على ذلك، لم يُعلم عن أحد منهم ترك القنوت في الفجر، رغبة عنه وهم الراشدون والمهديون، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، كلهم على ذلك، ومن تبعهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وليتعاهدهم بتعليم الدعاء ليرغبوا إلى الله، ويعرفهم عظمته وجلاله، ليكبروا على ذلك، وإذا أجدب الناس واستسقى بهم الإمام فأحبُّ للمعلم أن يخرج بهم، من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء، ويرغبوا إليه، فإنه بلغني أنَّ قوم يونس

(١) المرجع السابق، ص١٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.

ﷺ لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم، فتضرعوا إلى الله بهم.[1]...

وسُئل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد، قال: لا أرى ذلك يجوز؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم يُنصب المسجد للتعليم، قال مالك: ولا أرى أن ينام في المسجد، ولا يؤكل فيه إلا من ضرورة، ولا يجد بداً منه مثل: الغريب، والمسافر، والمحتاج الذي لا يجد موضعاً.

قال محمد: وحدثني سحنون عن عبد الله بن نافع قال: سمعت مالكاً يقول: لا أرى لأحد أن يقرأ القرآن وهو مار على الطريق، إلا أن يكون متعلماً، ولا أرى أن يُقرأ في الحمام.

قال مالك: وإذا مر المعلم بسجدة وهو يقرؤها عليه الصبي فليس عليه أن يسجد؛ لأَنَّ الصبي ليس بإمام، إلا أن يكون بالغاً فلا بأس أن يسجدها، فإن ترك فلا شيء عليه؛ لأنها ليست بواجبة، وكذلك إذا قرأها هو، فإن شاء سجد، وإن شاء ترك، ألا ترى أنَّ عمر قرأها على المنبر، فنزل فسجد، ثم قرأها مرة أخرى فلم يسجد، وقال: إنها لم تكتب علينا. قال مالك: وكذلك المرأة إذا قرأت السجدة على الرجل لم يسجد الرجل معها لأنها ليست بإمام، وقد قال رسول الله ﷺ للذي قرأ عليه: "كنت إماماً فلو سجدت سجدت معك."

قال سحنون: وأكره للمعلم أن يعلم الجواري، ولا يخلطهن مع الغلمان؛ لأَنَّ ذلك فساد لهم.

قال: وسئل سحنون عن المعلم: أيأخذ الصبيان بقول بعضهم على بعض في الأذى؟ فقال: ما أرى هذا من ناحية الحكم، وإنما على المؤدب أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضاً، وذلك إذا استفاض علم الأذى من الجماعة منهم، أو كان الاعتراف، إلا أن يكونوا صبياناً قد عرفهم بالصدق، فيقبل قولهم، ويعاقب على ذلك...[2]

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٣.

**ما جاء في إجارة المعلم، ومتى تجب:**

قال محمد: وكتب شجرة بن عيسى إلى سحنون يسأله عن المعلم، يُستأجر على صبيان يعلمهم، فيمرض أحد الصبيان، أو يريد أبوه أن يخرج به إلى سفر أو غيره، فقال: إذا استؤجر سنة معلومة، فقد لزمت آباءهم الإجارة، خرجوا أو أقاموا، وإنما تكون الإجارة هنا تبعّض على حال الصبيان؛ لأَنَّ منهم الخفيف والثقيل، وقد يكون الصبي له المؤنة في تعليمه، ومنهم من لا مؤنة على المعلم فيه، ففي هذا ينظر.

قال: وقال سحنون: انتقص ما ينوب أباه من إجارة في باقي الشرط، ولا يلزمه ذلك، وكذلك إن مات الأب انتقص ما بقي من الإجارة وكان ما بقي في مال الصبي. قال محمد: مثل الرضاع إذا استأجر الرجل لولده من يُرضعه ثم مات الأب أو الصبي، فإن عبد الرحمن روى عن مالك: أنَّ الإجارة تنتقص، ويكون ما بقي في مال الصبي إن كان له مال، ويكون ذلك موروثاً عن الميت، وإن مات الصبي أخذ الأب باقي الإجارة.

وروى أشهب عن مالك: أنَّ تلك العطية نُفِّذت للصبي، فإن مات الأب كانت للصبي، وإن مات الصبي كان ما بقي موروثاً عن الصبي، كأنه مال له، وكذلك أجرة المعلم، مثل هذا، والله أعلم. قال محمد: وهذا قولي، وهو القياس.

قال سحنون: وقد سئل بعض علماء الحجاز منهم ابن دينار وغيره أن يُستأجر المعلم للجماعة، وأن يُفرض على كل واحد ما ينوبه، فقال: يجوز إذا تراضى بذلك الآباء؛ لأَنَّ هذا ضرورة ولا بد للناس منه، وهو أشبه...[1]

وسئل مالك عن المعلم يجعل للصبيان عريفاً فقال: إن كان مثله في نفاذه فقد سهل في ذلك، إن كان للصبي في ذلك منفعة. وسمعته يقول: تنازع المغيرة بن عبد الرحمن وابن دينار كلاهما من علماء الحجاز عن الصبي يختم القرآن عند المعلم فيقول الأب: إنه لا يحفظ، فقال المغيرة: إن كان أخذ القرآن كله عنده، وقرأه الصبي كله نظراً في المصحف، وأقام حروفه فإن أخطأ منه اليسير الذي لا بد منه مثل الحروف ونحوها،

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٤.

فقد وجبت للمعلم الختمة وهو ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وهو الذي أحفظه من قول مالك. وقال ابن دينار: سمعت مالكاً يقول: تجب للمعلم الختمة على قدر يُسْر الرجل وعُسْره، يجتهد في ذلك أولي النظر للمسلمين.(١)...

وقالوا: إذا استظهر الصبي القرآن كله، كان له أكثر في العطية للمعلم من إذا قرأه نظراً، وإذا لم يتهجَّ الصبي ما يملى عليه ولا يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئاً، وأُدّب المعلم، ومُنع من التعليم، إذا عُرف بهذا، وظَهر تفريطه.(٢)

**ما جاء في إجارة المصحف، وكتب الفقه، وما شابهها:**

وقال سحنون: قلت لابن القاسم: أرأيت المصحف، أيصح أن يستأجر ليقرأ فيه؟ فقال: لا بأس به؛ لأَنَّ مالكاً قال: لا بأس ببيعه.

ابن وهب عن ابن لهيعة ويحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن ربيعة قال: لا بأس ببيع المصحف. وإنما يباع الحبر والورق والعمل. ابن وهب عن عبدالجبار بن محمد أنَّ ابن مصبح كان يكتب المصاحف في ذلك الزمان ويبيعها، أحسبه قال: في زمن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا ينكر ذلك عليه أحد، ولا رأينا أحداً بالمدينة ينكر ذلك، قال: وكلهم لا يرون به بأساً.

قال: ولا أرى أن تجوز إجارة كتب الفقه؛ لأَنَّ مالكاً كره بيعها؛ لأنَّ فيها اختلاف العلماء، قوم يجيزون ما يبطل قوم... قال محمد: لا أرى بأساً بإجارتها، وبيعها، إذا علم من استأجرها، أو اشتراها.

قال محمد: لا بأس أن يستأجر الرجلُ المعلمَ على أن يعلم أولاده القرآن بأجرة معلومة، إلى أجل معلوم، أو كل شهر، وكذلك نصف القرآن، أو ربعه، أو ما سمَّيا عليه. قال: وإذا استأجر الرجل معلماً على صبيان معلومين جاز للمعلم أن يعلم معهم غيرَهم، إذا كان لا يشغله ذلك عن تعليم هؤلاء الذين استؤجر لهم.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٥.

قال: وإذا استؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم.[1]... قال: ولا بأس بالرجل يستأجر الرجل أن يعلم ولده الخط والهجاء، وقد كان النبي ﷺ يفادي بالرجل يعلم الخط.[2]...

كمل كتاب آداب المعلمين مما دوّن محمد بن سحنون عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلّم. وكتبه لنفسه عبيد الله الراجي سعة فضل الله ورحمته، المعترف بذنبه، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البري المرادي، غفر الله له ولوالديه، بحرمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ كثيراً، والحمد لله رب العالمين.[3]

(١) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٨.

# (٤)

# رَسَائِلُ "إخْوَانِ الصَّفَا وخِلَّانِ الوَفَا"

## إخوان الصفا

**التعلم والتعليم والمعلم**

واعلم يا أخي بأنّ العلمَ إنَّما هو صورةُ المعلوم في نفسِ العالم، وضدُّه الجهل، وهو عدم تلك الصورة من النفس، واعلم بأنَّ أنفس العلماء علَّامة بالفعل، وأنفس المتعلمين علَّامة بالقوة، وأنَّ التعلَّم والتعليم ليسا شيئاً سوىٰ إخراج ما في القوة، يعني الإمكان إلىٰ الفعل يعني الوجود، فإذا نُسب ذلك إلىٰ العالم سُمي تعليماً، وإن نُسب إلىٰ المتعلِّم سُمي تعلُّماً. (ص ٢٦٣) ...

واعلم يا أخي بأنَّ العلم لا يكون إلا بعد التعليم والتعلُّم، والتعليم هو تنبيه النفس العلَّامة بالفعل للنفس العلَّامة بالقوة، والتعلُّم هو تصوّر النفس لصورةِ المعلوم. (ص٢٧٧) ...

واعلم يا أخي، بأنَّ كلَّ صانع من البشر لا بُد له من أستاذٍ يتعلّم منه صنعتَه أو عِلمَه، وذلك الأستاذ من أستاذٍ له قبلُ، وهكذا حتىٰ ينتهي إلىٰ واحدٍ ليس عِلمُه من أحدٍ من البشر، فيكون عند ذلك أحدُ الأمرين، إمَّا أن نقول: إنه استخرجه بقوة نفسه وفكره وروِّيته واجتهاده، كما يزعم المتفلسفون، وإمَّا أن نقول: إنَّه أخذه عن موقِف له ليس من البشر، كما يقول الأنبياء صلوات الله عليهم. (ص٢٩٤) ...

## الفصل الرابع:

# "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"

## أولاً: التعريف بـ"إخوان الصفا":

لم يجد المؤرخون معلومات دقيقة عن حقيقة إخوان الصفا، ومذهبهم وشخصياتهم، فمَا كَتَبُوه هُم عن أنْفسهم -على قلّته- كان محاولةً لمنع الوصول إلى المعلومات الدقيقة عنهم، وما كَتَبَهُ غيرُهم كان كذلك قليلاً ومتفاوتاً تفاوتاً كبيراً بين المدح والذم، فهم جماعة فكرية هدفها الإصلاح، وهم جماعة من الشيعة، وهم من أئمة الباطنية أو الإسماعيلية، وهم فلاسفة دهريون، وهم معتزلة... إلخ.

وعلى الرغم من أنَّ خطاب إخوان الصفا في الغالب هو للأخ الذي يقرأ هذه الرسائل، والذي يفترض أن يكون عضواً في الجماعة، فقد جاء في أحد الرسائل خطاباً خاصاً بعنوان فصل في مخاطبة المتشيعين جاء فيه: جمع الله بيننا وبينك أيها الأخ البار الرحيم... ملَّةُ الإسلام،... ومحبَّةُ نبيّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأهل بيت نبيه الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين... وحرمةُ الأدب والخروجُ من جملة العوام...[1] وهذا النص مؤشر على انتساب إخوان الصفا للشيعة.

أما قولُهم بالفلسفة، ونقلهم أقوال الفلاسفة والحكماء واستخدام مصطلحاتهم، فإنّه لا يبدو متناقضاً مع التأكيد على مرجعية القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف في مجمل المواعظ والإرشادات، والتأكيد على الإيمان بأركانه الستة التي يؤمن بها المسلمون، مما يرجِّح اعتبار مقولاتهم ضمن مجمل التراث الإسلامي.

ولعلَّ أهم ما يُروى عنهم هو ما كتبه أبو حيان التوحيدي، وذكر أسماء بعض رجالهم. وكانت نشأتهم في البصرة في القرن الرابع الهجري، حين كانت البصرة ملتقى لأخلاط من الناس والثقافات، من المسلمين والنصارى واليهود والصابئة والزرادشتيين،

---

(١) إخوان الصفا. **رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا**، بيروت: دار صادر، ط٣، ٢٠١١م، ج٤، ص١٩٥.

من عرب وفرس وهنود. وكان القرن الرابع الهجري حقبة من الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في دولة الخلافة العباسية. وزادت فيه حدة الخصومات المذهبية والتعصب القومي والانحلال الأخلاقي. واشتدت الخصومة بين المتصوفة والفقهاء، وبين الفلاسفة والمتكلمين، وبين الفقهاء والنحويين، وبين الشافعية والحنابلة. لكنَّ ذلك القرن هو قرنُ ازدهار العلوم والتقدم العمراني، وفيه امتزجت الثقافة الإسلامية لدى بعض العلماء، بما توافر من ترجمات الثقافات اليونانية والفارسية والهندية.

ويصف التوحيدي إخوان الصفا بأنَّهم جماعة سرية اجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، واخترعوا لأنفسهم مذهباً يضمن لهم الفوز برضوان الله وجنته، وذلك عن طريق تطهير الشريعة التي دُنِّست بالجهالات واخْتَلطت بالضلالات، عن طريق الفلسفة.

وفي المجمل فإنَّ إخوان الصفا مجموعة من الفلاسفة وجماعة سرية تعتمد تنظيماً هرمياً يتوزع أعضاؤه على أربعة مراتب تبعاً للسن، ونوعية التربية، ويجتمعون بصورة دورية في خلايا يتدارسون الأوضاع العامة والتعليمات التنظيمية، وينشرون دعوتهم بين الشباب، وكتبوا علمهم في رسائل تجمع بين العلم والرياضيات، والأدب والتصوف.

## ثالثاً: التعريف بـ"رسائل إخوان الصفا":[1]

رسائل إخوان الصفاء موسوعة ضخمة اشتملت على أغلب فنون الثقافة المعروفة في عصرهم، وتشتمل على اثنين وخمسين رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الأدب، وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية. واشتملت على علوم الرياضيات، والهندسة، والموسيقى، والفلك، والطب، والحيوان، والأدب، والتصوف، وغيرها، وتختم برسالة جامعة حاول مؤلفوها أن يجعلوها خلاصة سائر الرسائل.

هدف الرسائل كما يرى إخوان الصفا هو مساعدة أعضاء الجماعة للحصول على السعادة في هذه الحياة، من خلال التحقُّق بالكمال الروحي، والزهد في الدنيا،

(١) إخوان الصفا. **رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا**، بيروت: دار صادر، ط٣، ٢٠١١م.

والاتصاف بالفضائل، من أجل تحصيل السعادة الأبدية في الآخرة.

وتتراوح أحجام الرسائل ما بين ثلاث صفحات إلى ما يزيد عن مائة صفحة. وهي مقسومة على أربعة أقسام: علوم رياضية تعليمية (١٤ رسالة)، وعلوم طبيعية جسمانية (١٧ رسالة) وعلوم عقلانية ونفسية (١٠ رسائل) وعلوم ناموسية شرعية إلهية (١١ رسالة). وينسجم تقسيمهم للرسائل مع تقسيم للفلسفة إلى ثلاثة مجالات هي: الرياضيات، والطبيعيات، والإلهيات؛ فهم يجعلون الموضوعات النفسانية والعقلانية جزءاً من الإلهيات. ومن الطبعات المتداولة للرسائل طبعة دار صادر التي جاءت في أربعة مجلدات، ووصل مجموع صفحاتها إلى ما يقارب أَلْفَيّ صفحة.

والرسائل هي بصورة عامة خلاصات وتطبيقات، تتصف بالسهولة واللغة المبسطة التي يفهمها العامة، تحتوي على كثير من القصص، ذات المغزى الأخلاقي والنقد السياسي، وترد أغلب هذه القصص على لسان الحيوانات.

يعنينا من هذه الرسائل الرسالة السابعة من القسم الرياضي في الصنائع العلمية والغرض منها. وتقع في حدود أربعة آلاف كلمة (حوالي ١٥ صفحة) وهي الرسالة التي تصنّف ضمن التراث التربوي الإسلامي، حيث تتحدث عما سمّوه الفنون العلمية. وتناقش طبيعة المعرفة وأصناف العلوم التي يحتاجها المتعلم، وتحديد التسلسل المناسب لاكتساب الأدب، أو التعليم. ومن هذه العلوم: العلوم التدريبية، التي تتضمن القراءة والكتابة واللغة والشعر، والعلوم الدينية التقليدية التي يتفرع عنها الوحي والتفسير والفقه، والعلوم الفلسفية ويتفرع عنها الرياضيات والمنطق والميتافيزيقيا.

لكن الرسائل في مجموعها هي منهاج للتعليم والتربية، في موضوعات العلوم الشرعية والفلسفية، وفضل تعلّمها، وإرشادات موجهة إلى الأخ عضو الجماعة، في مدارستها مع الأعضاء المدعوين للانضمام إلى الجماعة، وما يلزمه من استكمال العدة للقيام بهذه المهمة. وفي الرسائل كذلك نصوص مباشرة في فئات المتعلمين وما يصلح لكل فئة منهم.

ولذلك أضفنا بعض النصوص المقتبسة من مواقع أخرىٰ في مجموعة الرسائل، غير الرسالة السابعة.

## ثالثاً: مختارات من "رسائل إخوان الصفا":

### ١ - نص الرسالة السابعة:

#### من القسم الرياضي في الصنائع العلمية والغرض منها

اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد فرغنا من ذكر النسب العددية وأَخْبرنا بماهِيَّاتِها، وكميَّة أجناسها، وأنواع تلك الأجناس، ووصفنا كيفية إظهارها من القوة إلىٰ الفعل، وبيَّنا أنّ الموضوع فيها كلِّها أجسامٌ طبيعية، وأنَّ مصنوعاتِها كلَّها جواهرُ جسمانية، وأنَّ أغراضها كلَّها عمارة الأرض لتتميم أمر معيشة الحياة الدنيا.

فنريد أن نذكرَ في هذه الرسالة الصنائع العلمية التي هي الموضوع فيها جواهر روحانية، التي هي أنفس المتعلمين، ونبَيِّنَ أنَّ تأثيراتها في المتعلمين كلَّها روحانية،... ونبينَ أيضاً ماهية العلوم، ونذكر كمية أجناسها، وأنواع تلك الأجناس، ونصف أيضاً كيفية إخراج ما في قوة النفس من العلوم إلىٰ الفعل الذي هو الغرض الأقصىٰ في التعاليم، وهو إصلاح جواهر النفوس، وتهذيبُ أخلاقها وتتميمها، وتكميلها للبقاء في دار الآخرة التي هي دار الحيوان، لو كانوا يعلمون، والذين يريدون الخلود في الدنيا هم الغافلون عن أمر الآخرة.[1]

#### فصل في مثنوية الإنسان

اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنَّ الإنسان لما كان هو جملةٌ مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية، وهما جوهران متباينان في الصفات، متضادان في الأحوال، ومشتركان في الأفعال العارضة، والصفات الزائلة، صار الإنسان من أجل جسده الجسماني مريداً للبقاء في الدنيا، متمنياً للخلود فيها، ومن أجل نفسه الروحانية صار طالباً للدار الآخرة، متمنياً للبلوغ إليها، وهكذا أكثر أمور الإنسان، وتصرّف

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٨-٢٧٥.

أحواله مثنوية متضادة، كالحياة والممات، والنوم واليقظة، والعلم والجهالة، والتذكر والغفلة، والعقل والحماقة، والمرض والصحة، والفجور والعفة، والبخل والسخاء، والجبن والشجاعة، والألم واللذة.

وهو متردد بين الصداقة والعداوة، والفقر والغنىٰ، والشبيبة والهرم، والخوف والرجاء، والصدق والكذب، والحق والباطل، والصواب والخطأ، والخير والشر، والقبح والحسن، وما شاكلها من الأخلاق والأفعال والأقاويل المتضادة المتباينة، التي تَظهر من الإنسان، الذي هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية.

واعلم يا أخي بأنَّ هذه الخصال التي عددنا لا تُنْسب إلىٰ الجسد بمجرده، ولا إلىٰ النفس بمجردها، ولكن إلىٰ الإنسان الذي هو جملتها، والمجموع منهما الذي هو حي ناطق مائت، فحياته ونطقه من قِبَل نفسه، وموته من قِبَل جسده، وهكذا نومُه من قبل جسده، ويقظتُه من قبل نفسه، وعلىٰ هذا القياس سائر أموره وأحواله المتباينات، المتضادات بعضُها من قِبَل النفس، وبعضها من قِبَل الجسد، مثال ذلك عقله وعلمه وحلمه، وتفكره وسخاؤه، وشجاعته وعفته، وعدله وحكمته وصدقه، وصوابه وخيره، وما شاكلها من الخصال المحمودة، فكلها من قِبَل نفسه وصفاء جوهرها وأضدادها، من قبل أخلاط جسده ومزاج أخلاطه.[1]

**فصل في الصفات المختصة بالجسد والنفس**

واعلم يا أخي بأنَّ الصفات المختصة بالجسد بمجرده هي أنَّ الجسد جوهر جسماني طبيعي، ذو طعم ولون ورائحة وثِقَلٍ وخِفَّة، وسكون ولين وخشونة وصلابة ورخاوة، وهو متكون من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم، والمرّتان المتولدة من الغذاء الكائن من الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، ذوات الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وهو منفسد، أعني الجسد، ومتغير ومستحيل، وراجع إلىٰ هذه الأركان الأربعة بعد الموت الذي هو مفارقة النفس الجسد، وتركها استعماله.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٩.

وأما الصفات المختصة بالنفس بمجردها فهي أنَّها جوهرة روحانية سماوية نورانية، حيَّةٌ بذاتها علَّامة بالقوة فعالة بالطبع، قابلة للتعاليم، فعالة في الأجسام ومستعملة لها، ومتممة للأجسام الحيوانية والنباتية إلى وقت معلوم، ثم إنها تاركة لهذه الأجسام، ومفارقة لها، وراجعة إلى عنصرها، ومعدنها ومبدئها، كما كانت إما بربح وغبطة، أو ندامة وحزن وخسران، كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ – ٣٠] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فكفى بهذا يا أخي زجراً ووعيداً، وتهديداً وتوبيخاً، ومذكراً ونذيراً، إن كنت منتبهاً من نوم الغفلة، ومستيقظاً من رقدة الجهالة.

وأعيذك أيُّها الأخ البارُّ الرحيم أن تكون من الذين ذمَّهم ربُّ العالمين بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أفترى ذمَّهُم من أجل أنَّهم لم يكونوا يعقلون أمر معيشة الدنيا؟ إنَّما ذمَّهُم لأنهم لم يكونوا يتفكَّرون في أمر الآخرة والمعاد، ولا يفقهون ما يقال لهم من معاني أمر الآخرة، وطريق المعاد فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].(١)

## فصل في مثنوية قنية(٢) الإنسان ومثنوية الأعمال

ولما تبين أنَّ أكثر أمور الإنسان وتصرّف أحواله مثنوية متضادة، من أجل أنَّه جملةٌ مجموعة من جوهر متباينين جسد جسماني، ونفس روحانية، كما بيَّنا قبل، صارت قنيته أيضاً نوعين جسمانية كالمال ومتاع الدنيا، وروحانية كالعلم والدين، وذلك أنَّ العلم قنية للنفس، كما أنَّ المال قنية للجسد، وكما أنَّ الإنسان يتمكن بالمال من تناول اللذات من الأكل والشرب في الحياة الدنيا، فهكذا بالعلم ينال الإنسان طريق الآخرة، وبالدين يصل إليها، وبالعلم تضيء النفس، وتشرق وتصح، كما أنَّ بالأكل والشرب ينمي

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) قُنْيَة ما يقتنيه الإنسان ويكتسبه.

الجسد، ويزيد ويربو ويسمن، فلما كان هكذا صارت المجالس أيضاً اثنين: مجلسٌ للأكل والشرب، واللهو واللعب، واللذات الجسمانية، من لحوم الحيوان ونبات الأرض، لصلاح هذا الجسد المستحيل الفاسد الفاني، ومجلسٌ للعلم والحكمة، وسماع روحاني من لذة النفوس التي لا تبيد جواهرها، ولا ينقطع سرورها في الدار الآخرة، كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] فلما كانت المجالس اثنين صار أيضاً السائلون اثنين؛ واحدٌ يسأل حاجةً من عرض الدنيا لصلاح هذا الجسد، ولجر المنفعة إليه، أو لدفع المضرة عنه، وواحد يسأل مسألة من العلم، لصلاح أمر النفس وخلاصها من ظلمات الجهالة، أو للتفقه في الدين، طلباً لطريق الآخرة، واجتهاداً في الوصول إليها، وفراراً من نار جهنم، ونجاةً من عالم الكون والفساد، وفوزاً بالوصول والصعود إلى عالم الأفلاك، وسعةِ السموات والسيحان في درجات الجنان، والتنفس من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن.[1]

## فصل في العلم والمعلوم والتعلُّم والتعليم وأوجه السؤال

وينبغي لطالبي العلم والباحثين عن حقائق الأشياء أن يعرفوا أولاً ما العلم وما المعلوم، وعلى كم وجهٍ يكون السؤال، وما جواب كل سؤال، حتى يدْرُوا ما الذي يسألون، وما الذي يجيبون إذا سُئلوا؛ لأَنَّ الذي يسأل ولا يدري أي شيءٍ سأل، فإذا أجيب لا يدري بأيِّ شيءٍ أجيب.

واعلم يا أخي بأنَّ العلم إنَّما هو صورة المعلوم في نفس العالِم، وضده الجهل، وهو عدم تلك الصورة من النفس، واعلم بأنَّ أنفس العلماء علَّامة بالفعل، وأنفس المتعلمين علَّامة بالقوة، وأنَّ التعلَّم والتعليم ليسا شيئاً سوى إخراج ما في القوة، يعني الإمكان إلى الفعل يعني الوجود، فإذا نُسب ذلك إلى العالِم سُمي تعليماً، وإن نُسب إلى المتعلم سُمي تعلّماً.

واعلم بأنَّ السؤالات الفلسفية تسعة أنواع، مثل تسعة آحاد: أولها هل هو؟ والثاني: ما هو؟ والثالث: كم هو؟ والرابع: كيف هو؟ والخامس: أي شيء هو؟

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦١-٢٦٢.

والسادس: أين هو؟ والسابع: متى هو؟ والثامن: لم هو؟ والتاسع: من هو؟

**تفسيرها:**

**هل هو؟** سؤالٌ يبحث عن وجدان شيء، أو عن عدمه، والجواب نعم، أو لا، وقد بيَّنا معنى الوجود والعدم في رسالة العقل والمعقول.

**وما هو:** سؤال يبحث عن حقيقة الشيء، وحقيقة الشيء تعرف بالحدِّ أو بالرسم، وذلك أنَّ الأشياء كلَّها نوعان: مركب وبسيط، فالمركب مثل الجسم، والبسيط مثل الهيولى، والصورة، وقد بيَّنا معناهما في رسالة الهيولى، والأشياء المركبة تعرف حقيقتها إذا عُرفت الأشياء التي هي مركبة منها، مثال ذلك، إذا قيل: ما حقيقة الطين؟ فيقال: تراب وماء مختلطان، وهكذا إذا قيل: ما حقيقة السكنجين؟ فيقال: خلٌّ وعسل ممزوجان، وعلى هذا القياس كل مركب إذا سُئل عنه، فيحتاج أن يذكر الأشياء التي هو مركب منها، وموصوفٌ بها، والحكماء يسمُّون مثل هذا الوصف الحد، ومن أجل هذا قالوا في حد الجسم: إنَّه الشيء الطويل العريض العميق، فقولهم الشيء؛ إشارة إلى الهيولى، وقولهم الطويل والعريض والعميق؛ إشارة إلى الصورة؛ لأَنَّ حقيقة الجسم ليست بشيء غير هذه التي ذكرت في حدِّه، وهكذا قولهم في حدِّ الإنسان إنه حيٌّ ناطق مائت، فقولهم: حيٌّ ناطقٌ يعنون به النفس، ومائتٌ يعنون به الجسد؛ لأنَّ الإنسان هو جملة مجموعة منهما، أعني جسداً جسمانيّا، ونفساً روحانية، وعلى هذا القياس تُعرف حقيقة الأشياء المركبة من شيء.[1]

وأما الأشياء التي ليست مركبة من شيء، بل مخترعة مبدعة كما شاء باريها وخالقُها تعالى، فحقيقتها تعرف من الصفات المختصة بها، مثال ذلك إذا قيل: ما حقيقة الهيولى؟ فيقال: جوهرٌ بسيطٌ قابلٌ للصورة، لا كيفية فيه البتة، وإذا قيل: ما الصورة؟ فيقال: هي التي يكون الشيء بها ما هو، فمثل هذا الوصف تسميه الحكماء الرسم، والفرق بين الحد والرسم، أنَّ الحد مأخوذ من الأشياء التي المحدود مركبٌ

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٣.

منها، كما بيَّنا، والرسم مأخوذ من الصفات المختصة بالمرسوم، وفرقٌ آخر أنَّ الحدَّ يخبرك عن جوهر الشيء المحدود، ويميّزه عما سواه، والرسم يميز لك المرسوم عمّا سواه حسب، فينبغي لك أيها الأخ البار الرحيم، أيَّدك الله وإيَّانا بِرُوحٍ منه، إذا سُئلت عن حقيقة شيءٍ من الأشياء أن لا تستعجل بالجواب، بل تنظر هل ذلك الشيء المسؤول عنه مركبٌ أم بسيطٌ حتى تجيب بحسب ذلك.

**وأمَّا كم هو؟** فسؤالٌ يبحث عن مقدار الشيء والأشياء ذوات المقادير نوعان: متصلٌ ومنفصلٌ، فالمتصل خمسة أنواع: الخط والسطح والجسم والمكاني والزماني، والمنفصل نوعان: العدد والحركة، وهذه الأشياء كلها، يقال فيها: كم هو، وقد بيَّنا ماهية العدد في رسالة الأرثماطيقي، وماهية الحركة، والزمان والمكان، والجسم في رسالة الهيولى، وماهية الخط والسطح في رسالة الهندسة.

**وأما كيف هو؟** فسؤالٌ يبحث عن صفة الشيء، والصفات كثيرةُ الأنواع، وقد بيَّنّاها في رسالة شرح المقولات العشر التي كلُّ واحدةٍ منها جنس الأجناس.

**وأما أي شيء هو؟** فسؤال يبحث عن واحدٍ من الجملة، وعن بعض من الكلِّ مثال ذلك: إذا قيل: طلع الكوكب فيقال: أي كوكب هو؟ لأَنَّ الكواكبَ كثيرة، وأما إذا قيل: طلعت الشمس، فلا يقال: أي شمس هي؟ إذ ليس من جنسها كثرة، وكذلك القمر.

**وأما أين هو؟** فسؤالٌ يبحث عن مكان الشيء، أو عن رتبته، والفرق بينهما أنَّ المكانَ صفةٌ لبعض الأجسام لا لكلّها، مثال ذلك إذا قيل: أين زيد؟ فيقال: في البيت أو في المسجد أو في السوق، أو في موضع آخر.

وأما المحل فهو صفة للعرض، والعرض نوعان: جسماني، وروحاني، فالأعراض الجسمانية حالة في الأجسام مثال ذلك، إذا قيل: أين السواد؟ فيقال: حالٌّ في الجسم الأسود، وهكذا الألوان كلها والطعوم، والروائح، حالّة في الأجسام ذات الطعم، واللون والرائحة، وهكذا حُكم جميع الأعراض الجسمانية.[1]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٤.

وأما الأعراض الروحانية فحالَّة في الجواهر الروحانية مثال ذلك، إذا قيل: **أين العلم**؟ فيقال: حالٌّ في نفس العالم، وكذلك السخاء والشجاعة، والعدل، وما شاكلها من الصفات حالَّة في النفس، وهكذا حكم أضدادها.

وقد ظن كثير من أهل العلم ممن ليست له خبرة بأمر النفس، ولا معرفة بجوهرها أنَّ هذه الأعراض حالَّة في الجسم، كلُّ واحد في محلٍّ مختصٍّ، مثال ذلك ما قالوا: إنَّ العلم في القلب، والشهوة في الكبد، والعقل في الدماغ، والشجاعة في المرارة، والجبن في الطحال، وعلىٰ هذا القياس سائر الأعراض، وقد بيَّنَّا نحن أنَّ هذه الأعضاء آلاتٌ وأدواتٌ للنفس تظهر بها، ومنها في الجسد هذه الأفعال والأخلاق، في رسالة تركيب الجسد.

وأما الرتبة فهي من صفات الجواهر الروحانية، مثال ذلك إذا قيل: **أين النفس**؟ فيقال: هي دون العقل وفوق الطبيعة، وهكذا إذا قيل: أين الخمسة من العدد؟ فيقال: بعد الأربعة، وقبل الستة، وعلىٰ هذا القياس حكم الجواهر الروحانية التي لا توصف بالمكان، ولا بالمحل، ولكن بالرتبة كما بينا في رسالة المبادئ العقلية.[1]

**وأما متىٰ هو**؟ فسؤال يبحث عن زمانِ كون الشيء، والأزمان ثلاثة: ماض، مثل: أمس، ومستقبل، مثل: غد، وحاضر، مثل: اليوم، وهكذا حكم السنين والشهور، والساعات، وقد بيّنا ماهية الزمان واختلاف أقاويل العلماء في ماهيته في رسالة الهيولىٰ.

**وأما لِمَ هو**؟ فسؤال يبحث عن عِلَّة الشيء المعلول، واعلم يا أخي بأنَّ لكلِّ معلول صناعي أربع علل: إحداها: علة هيولانية، والثانية: علة صورية، والثالثة: علة فاعلية، والرابعة: علة تمامية، مثال ذلك: الكرسي والباب والسرير، فإنَّ العلة الهيولانية فيها الخشب، والعلة الصورية الشكل والتربيع، والعلة الفاعلية النجار، والعلة التمامية للكرسي القعود عليه، وللسرير النوم عليه، وللباب ليغلق علىٰ الدار، وعلىٰ هذا القياس كلُّ معلول لا بُدَّ له من هذه الأربع العلل، فإذا سُئلت عن علة شيء، فاعرف أولاً عن أيِّها تُسأل، حتىٰ يكون الجواب بحسب ذلك.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٥.

**وأما من هو؟** فسؤال يبحث عن التعريف للشيء، ويقول علماء النحو: إنَّ هذا السؤال لا يتوجّه إلا إلى كلِّ ذي عقل، ويقول قوم آخرون: إلى كلِّ ذي علم وتمييز. والجواب فيه أن يُعرف السؤال بأحد ثلاثة أشياء، إمَّا أن يُنسب إلى بلده، أو إلى أصْلِه، أو إلى صناعته، مثال ذلك إذا قيل: مَن زيد؟ فيقال: البصري، ينسب إلى بلده، والهاشمي إلى أصله، والنجار إلى صناعته.

فهذه جملة مختصرة في كمية السؤالات وأجوبتها، ومباحث العلوم، والنظر في حقائق الأشياء شبه المدخل والمقدمات، ليقرب من فهم المتعلمين النظر في المنطق الفلسفي، وليوقفوا عليها قبل النظر في إيساغوجي الذي هو المدخل إلى المنطق الفلسفي.[1]

## فصلٌ في أجناس العلوم

وإذ قد فرغنا من ذكر ماهية العلوم، وأنواع السؤالات، وما يقتضي كل واحدٍ من الأجوبة، فنريد أن نذكر أجناس العلوم، وأنواع تلك الأجناس ليكون دليلاً لطالبي العلم إلى أغراضهم، وليهتدوا إلى مطلوباتهم؛ لأَنَّ رغبة النفوس في العلوم المختلفة وفنون الآداب كشهوات الأجسام للأطعمة المختلفة الطعم واللون والرائحة.

فاعلم يا أخي بأنَّ العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس، فمنها الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، ومنها الفلسفية الحقيقية. فالرياضية هي علم الآداب التي وُضِعَ أكثرُها لطلب المعاش، وصلاحِ أمر الحياة الدنيا، وهي تسعةُ أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم اللغة والنحو، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما شاكلها، ومنها علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات والحرث والنسل، ومنها علم السير والأخبار.

فأما أنواع العلوم الشرعية التي وُضعت لطب النفوس وطلب الآخرة، فهي ستة أنواع: أولها علم التنزيل، وثانيها: علم التأويل، والثالث: علم الروايات والأخبار، والرابع: علم الفقه والسنن والأحكام، والخامس: علم التذكار والمواعظ والزهد

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٦.

والتصوف، والسادس: علم تأويل المنامات، فعلماء التنزيل هم القراء والحفظة، وعلماء التأويل هم الأئمة وخلفاء الأنبياء، وعلماء الروايات هم أصحاب الحديث، وعلماء الأحكام والسنن هم الفقهاء، وعلماء التذكار والمواعظ هم العباد والزهاد والرهبان، ومن شاكلهم، وعلماء تأويل المنامات هم المعبِّرون.

وأما العلوم الفلسفية فهي أربعة أنواع: منها الرياضيات، ومنها المنطقيات، ومنها الطبيعات، ومنها الإلهيات.

**فالرياضيات أربعة أنواع:**

أولها: الأرثماطيقي، وهو معرفة ماهية العدد، وكمية أنواعه، وخواص تلك الأنواع، وكيفية نشوئها من الواحد الذي قبل الاثنين، وما يعرض فيها من المعاني إذا أضيف بعضُها إلى بعض.

والثاني: الجومطريا، وهو الهندسة، وهي معرفة المقادير ذوات الأبعاد، وكمية أنواعها، وخواص تلك الأنواع، وما يعرض فيها من المعاني، إذا أضيف بعضُها إلى بعض، وكيفية مبدئها من النقطة التي هي رأس الخط، وهي من صناعة الهندسة، كالواحد في صناعة العدد.

والثالث: الأسطرنوميا، وهي النجوم، وهي معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج، وكمية أبعادها ومقادير أجرامها، وكيفية تركيبها وسرعة حركاتها، وكيفية دورانها، وماهية طبائعها، وكيفية دلائلها على الكائنات قبل كونها.

والرابع: الموسيقى الذي هو علم التأليف، وهو معرفة ماهية النسب، وكيفية تأليف الأشياء المختلفة الجواهر المتباينة الصور، المتضادة القوى، المتنافرة الطبائع، كيف تجمع، ويؤلف بينها، كَيْمَا لا تتنافر وتأتلف وتتحد، وتصير شيئاً واحداً، وتفعل فعلاً واحداً، أو عدة أفعال، وقد عملنا في كل صناعة من هذه الصناعات رسالة شبه المدخل والمقدمات.[1]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٨.

**والعلوم المنطقيات خمسة أنواع**

أولها: انولوطيقا، وهي معرفة صناعة الشعر.

والثاني: ريطوريقا، وهي معرفة صناعة الخطب.

والثالث: طوبيقا، وهي معرفة صناعة الجدل.

والرابع: بولوطيقا، وهي معرفة صناعة البرهان.

والخامس: سوفسطيقا، وهي معرفة صناعة المغالطين في المناظرة والجدل، وقد تكلَّم الحكماء الأولون والمتأخرون في هذه الصنائع والعلوم، وصنَّفوا فيها كتباً كثيرة، وهي موجودةٌ في أيدي الناس.

وقد عمل أرسطاطاليس ثلاثة كُتبٍ أُخَر، وجعلها مقدمات لكتاب البرهان، أولها: قاطيغورياس، والثاني: باريمنياس، والثالث: انولوطيقا الأولىٰ، وإنما جعل عنايته أكثرها بكتاب البرهان؛ لأَنَّ البرهان ميزان الحكماء، يعرفون به الصدق من الكذب في الأقوال، والصواب من الخطأ في الآراء، والحق من الباطل في الاعتقادات، والخير من الشر في الأفعال، كما يعرف جمهور الناس بالموازين والمكاييل والأذرع تقدير الأشياء الموزونة والمكيلة والمذروعة، إذا اختلفوا في حزرها، وتخمينها، فهكذا العلماء العارفون بصناعة البرهان يعرفون بها حقائق الأشياء، إذا اختلف فيها حزر العقول وتخمين الرأي، كما يعرف الشعراء العروضيون استواء القوافي وانزحافها، إذا اختلف فيه بصناعة العَروض الذي هو ميزان الشعر.

وقد عمل فرفوريوس الصوري كتاباً وسماه إيساغوجي، وهو المدخل إلىٰ صناعة المنطق الفلسفي، ولكن من أجل أنَّهم طوَّلوا الخطب فيها، ونقلها من لغة إلىٰ لغة، من لم يكن عارفاً بها وبمعانيها، انغلق علىٰ الناظرين في هذه الكتب فهم معانيها، وعَسُرَ علىٰ المتعلمين أخذُها، وقد عملنا في كل واحدة من هذه الصنائع رسالة ذكَرْنا فيها نُكَتَ ما يُحتاج إليه، وتركنا التطويل، لكن نريد أن نذكر غرض ما في كل رسالة منها ها هنا، ليكون من ينظر فيها قد عرف غرض كل صناعة من هذه قبل النظر فيها

فنقول: أما غرض ما في إيساغوجي فهو معرفة معاني الستة الألفاظ التي تستعملها الفلاسفة في أقاويلها، وهو قولهم: الشخص والنوع والجنس والفصل والخاصة والعرض، وماهية كل واحد منها، وكيفية اشتراكاتها، وماهية رسومها التي تميز بعضها من بعض، وكيفية دلالاتها على المعاني التي في أفكار النفوس ...

وأما غَرَضُ ما في باريمتياس فهو معرفة تلك العشرة الألفاظ التي هي في قاطيغورياس، وما تدل عليه من المعاني عند التركيب، حتى تصير كلماتٍ وقضايا ويكون منها الصدق والكذب.

وأما غَرَضُ ما في أنولوطيقا الأولى، فهو معرفة كيفية تركيب تلك الألفاظ مرة أخرى، حتى يكون منها مقدمات وكمية أنواعها، وكيف تستعمل حتى يكون منها شيء محسوس واقتران القضايا ونتائجها.

وأما غَرَضُ ما في أنولوطيقا الثانية، فهو معرفة كيفية استعمال القياس الحق والبرهان الصحيح، الذي لا خطأ فيه ولا زلل.[1]

وأما العلوم الطبيعية فهي سبعةُ أنواع: أولها علم المبادئ الجسمانية، وهي معرفة خمسة أشياء: الهيولى، والصورة والزمان والمكان والحركة، وما يعرض فيها من المعاني إذا أضيف بعضها إلى بعض.

والثاني: علم السماء والعالم وهو معرفة جواهر الأفلاك والكواكب، وكميتها وكيفية تركيبها، وعلة دورانها وهل تقبل الكَوْنَ والفساد، كما تقبل الأركان الأربعة التي هي دون فلك القمر أم لا؟ وما عِلَّةُ حركات الكواكب واختلافها في السرعة والإبطاء، وما علة حركة الأفلاك؟ وما علة سُكُونِ الأرض في وسط الفلك في المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا؟ وهل في العالم موضع فارغ لا شيء فيه؟ وما شاكل ذلك من المباحث.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٦٩.

والثالث: علم الكون والفساد، وهو معرفة ماهية جواهر الأركان الأربعة، التي هي النار والهواء والماء والأرض، وكيف يستحيل بعضُها إلى بعض، بتأثيرات الأشخاص العالية، ويكون منها الحوادث والكائنات، من المعادن والنبات والحيوان، وكيف تستحيل إليها راجعة عند الفساد.

والرابع: حوادث الجو، وهو معرفة كيفية تغيرات الهواء بتأثيرات الكواكب بحركاتها، ومطارح شعاعاتها على هذه الأركان، وانفعالاتها منها، وخاصة الهواء، فإنَّه كثيرُ التلوّن والتغير من النور والظلمة، والحر والبرد، وتصاريف الرياح والضباب، والغيوم والأمطار، والثلوج والبَرَد والبُرُوق، والرعود والشهب والصواعق، وكواكب الأذناب وقوس قزح، والزوابع، والهالات، وما شاكلها مما يحدث فوق رؤسنا من التغيرات والحوادث.

والخامس: علم المعادن، وهو معرفة الجواهر المعدنية التي تنعقد من البخارات المحتقنة في باطن الأرض، والعصارات المنعقدة في الأهوية وكهوف الجبال، وقعور البحار، من العقاقير والجواهر من الكباريت، والزوابيق والشبوب والأملاح، والنوشادر، والذهب والفضة والنحاس، والحديد والرصاص، والأسرب[1] والكحل، والزرنيخ، والبلور، والياقوت والبازهرات، وما شاكلها ومعرفة خواصِّها ومنافعها ومضارِّها.

والسادس: علم النبات وهو معرفة كلِّ نَبْتٍ يُغْرَس أو يُبذر أو يَنبت على وجه الأرض، أو في رؤوس الجبال، أو قعر المياه، أو شطوط الأنهار، من الأشجار والزروع، والبقول والحشائش، والعشب والكلأ، ومعرفة كمية أنواعها وخواص تلك الأنواع، ومواضع منابتها من البقاع، وكيفية امتداد عروقها في الأرض وارتفاع فروعها، وأصولها في الهواء، وانبساطها على وجه الأرض، وتفرق فروعها في الجهات، وأشكال أغصانها من الطول والقصر، والدقة والغلظ، والاستقامة والاعوجاج، وكيفية أشكال أوراقها، من السعة والضيق، واللين والخشونة، وألوان أزهارها، وأصباغ أنوارها، وكيفية صور ثمارها وحبوبها وبذورها وصموغها، وطعومها وروائحها، وخواصها

(١) نوع من الرصاص.

ومنافعها ومضارها، واحداً واحداً.

والسابع: علم الحيوان، وهو معرفة كل جسم يغتذي وينمي، ويُـحِسُّ ويتحرك مما يمشي على وجه الأرض، أو يطير في الهواء، أو يسبح في الماء، أو يدبُّ في التراب، أو يتحرك في جوف جسم آخر، كالديدان في جوف الحيوان، وفي لبّ النبات والثمر والحبوب وما شاكلها، ومعرفة كمية أجناسها، وأنواع الأجناس، وخواص تلك الأنواع، ومعرفة كيفة تكونها في الأرحام، أو في البيض، أو في العفونات ومعرفة كيفية تأليف أعضائها، وتركيب أجسادها واختلاف صورها، وائتلاف أزواجها، وفنون أصواتها، ومنافرة طباعها، وتباين أخلاقها، وتشاكل أفعالها، ومعرفة أوقات هيجانها وسفادها، واتخاذ أعشاشها، ورفقها بتربية أولادها، وتحنُّنِها على صغار نتاجها، ومعرفتها بمنافعها ومضارها وأوطانها، وأربابها، وأعدائها ومعارفها، وما شاكل ذلك.

فالنظر في هذه كلِّها والبحث عنها يُنسب إلى العلوم الطبيعيات، وكذلك على الطب والبيطرة وسياسة الدواب والسباع والطيور والحرث والنسل، وعلم الصنائع أجمع داخل في الطبيعيات.[1]

**فصل في العلوم الإلهية**

والعلوم الإلهية خمسة أنواع: أولها معرفة الباري جلَّ جلاله وعمَّ نَوَالُه، وصفةِ وحدانيته، وكيف هو علة الموجودات، وخالق المخلوقات، وفائض الجود ومعطي الوجود ومعدن الفضائل والخيرات، وحافظ النظام ومبقي الدوام، ومدبر الكل وعالم الغيب والشهادة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأوَّلُ كلَّ شيء ابتداءً، وآخِرُ كلِّ شيء انتهاءً، وظاهر كل شيء قدرة، وباطن كل شيء علماً، وهو السميع العليم، اللطيف الخبير، الرؤوف بالعباد، عزَّ شأنه، وجلّت قدرته، وتعالى جدّه، وجل ثناؤه، ولا إله غيره، تعالى عما يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٧٢.

والثاني علم الروحانيات: وهو معرفة الجواهر البسيطة العقلية، العلامة الفعالة، التي هي ملائكة الله وخالص عباده وهي الصور المجردة من الهيولى، المستعملة للأجسام المدبرة بها، لها ومنها أفعالها، ومعرفة كيفية ارتباط بعضها ببعض، وفيض بعضها على بعض، وهي أفلاك روحانية، محيطات بالأفلاك الجسمانية.

والثالث علم النفسانيات، وهي معرفة النفوس، والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، ومعرفة كيفية إدارتها للأفلاك، وتحريكها للكواكب، وتربيتها للحيوان والنبات، وحلولها في جثث الحيوانات وكيفية انبعاثها بعد الممات.

والرابع علم السياسة، وهي خمسة أنواع: أولها: السياسة النبوية، والثاني: السياسة الملوكية، والثالث: السياسة العامية، والرابع: السياسة الخاصية، والخامس: السياسة الذاتية.

فأمَّا السياسة النبوية فهي معرفة كيفية وضع النواميس المرضية، والسنن الزكية بالأقاويل الفصيحة، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة، والآراء السخيفة، والعادات الردية، والأفعال الجائرة، ومعرفة كيفية نقلها من تلك الأديان والعادات، ومحو تلك الآراء، عن ضمائرها بذكر عيوبها، ونشر تزييفها ومداواتها من سقام تلك الآراء، وتلك العادات بالحمية لها من العود إليها، وشفائها بالرأي الـمُرْضِي، والعادات الجميلة، والأعمال الزكية، والأخلاق المحمودة بالمدح لها، والترغيب في جزيل الثواب يوم المآب، وكيفية سياسة النفوس الشريرة بصدودها عن قصد سبيل الرشاد، وسلوكها في وعور طرق الغَيِّ والتمادي بالقمع لها، والزجر والوعيد والتوبيخ والتهديد، لترجع إلى سبيل النجاة، وترغب في جزيل الثواب، ومعرفة كيفية تنبيه الأنفس اللاهية، والأرواح الساهية من طول الرقاد، ونسيانها ذكر المعاد، والإذكار لها عهد يوم الميثاق، لئلا يقولوا: ما جاءنا من رسول ولا كتاب، وهذه السياسة يختصّ بها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

وأما السياسة الملوكية فهي معرفة حفظ الشريعة على الأمَّة، وإحياء السنة في الـمِلَّة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإقامة الحدود وإنفاذ الأحكام التي رسمها

صاحب الشريعة، ورد المظالم وقمع الأعداء، وكف الأشرار ونصرة الأخيار، وهذه السياسة يختصّ بها خلفاء الأنبياء صلوات الله عليهم، والأئمة المَهْدِيُّون، الذين قضوا بالحق، وبه كانوا يعدلون.

وأمَّا السياسة العامية التي هي الرياسة على الجماعات، كرياسة الأمراء على البلدان والمدن، ورياسة الدهاقين على أهل القرى، ورياسة قادة الجيوش على العساكر، وما شاكلها، فهي معرفة طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم، وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم، وترتيب مراتبهم، ومراعاة أمورهم، وتفقد أسبابهم، وتأليف شملهم، والتناصف بينهم، وجمع شتاتهم، واستخدامهم في ما يصلحون له من الأمور، واستعمالهم في ما يشاكلهم من صنائعهم، وأعمالهم اللائقة، بواحد واحد منهم. وأما السياسة الخاصية فهي معرفة كلِّ إنسان كيفية تدبير منزله، وأمر معيشته، ومراعاة أمر خدمه، وغلمانه وأولاده ومماليكه، وأقربائه، وعشرته مع جيرانه، وصحبته مع إخوانه، وقضاء حقوقهم، وتفقد أسبابهم، والنظر في مصالحهم من أمور دنياهم وآخرتهم.

وأمَّا السياسة الذاتية فهي معرفة كلِّ إنسان نفسه وأخلاقه، وتفقد أفعاله وأقاويله في حال شهواته وغضبه ورضاه، والنظر في جميع أموره.

والخامس: علم المعاد؛ وهو معرفة ماهية النشأة الأخرى، وكيفية انبعاث الأرواح من ظلمة الأجساد، وانتباه النفوس من طول الرقاد، وحشرها يوم المعاد، وقيامها على الصراط المستقيم، وحشرها لحساب يوم الدين، ومعرفة كيفية جزاء المحسنين وعقاب المسيئين.

وقد عملنا في كلِّ فصل من هذه العلوم التي تقدم ذِكْرُها رسالةً، وذكرنا فيها طرفاً من تلك المعاني، وأتممناها بالجامعة ليكون تنبيهاً للغافلين، وإرشاداً للمريدين، وترغيباً للطالبين، ومسلكاً للمتعلمين، فكُنْ به يا أخي سعيداً، واعْرِضْ هذه الرسالة على إخوانك وأصدقائك، ورغّبهم في العلم، وزهّدهم في الدنيا، ودلّهم على طريق الآخرة، فإنَّك بذلك تنال الزلفى من الله تعالى، وتستوجب رضوانه، وتفوز بسعادة الآخرة، وتبلغ به المرتبة العليا، كما دلَّ عليه قول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: الدالُّ على الخير كفاعله.

واعلم يا أخي، بأنَّ هذه الطريقة هي التي سلكها الأنبياء صلوات الله عليهم، واتَّبَعَهُم عليها الأخيار الفضلاء، من العلماء والحكماء، فاجتهد لعلك تُحشر في زمرتهم، كما وعد الله تعالىٰ، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ٧٠﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفَّقك الله وإيَّانا أيُّها الأخ للسداد، وهدانا وإياك سبيل الرشاد.[1]

## ٢- مختارات من رسائل أخرىٰ:

### أ- الرسالة الثامنة:

**من القسم الرياضي: في الصنائع العملية والغرض منها:...**

واعلم يا أخي بأنَّ العلم لا يكون إلا بعد التعليم والتعلُّم، والتعليم هو تنبيه النفس العلَّامة بالفعل للنفس العلَّامة بالقوة، والتعلَّم هو تصور النفس لصورة المعلوم.[2]...

واعلم يا أخي، بأنَّ كلَّ صانع من البشر لا بُدَّ له من أستاذٍ يتعلّم منه صنعتَه أو عِلْمَه، وذلك الأستاذ من أستاذٍ له قبلُ، وهكذا حتىٰ ينتهي إلىٰ واحد ليس عِلمُه من أحدٍ من البشر، فيكون عند ذلك أحدُ الأمرين، إمَّا أن نقول: إنَّه استخرجه بقوة نفسه وفكره وروِيَّتَه واجتهاده، كما يزعم المتفلسفون، وإمَّا أن نقول: إنَّه أخذه عن موقِف له ليس من البشر، كما يقول الأنبياء صلوات الله عليهم.[3]...

**مطلب في التربية**

واعلم بأنَّ العادات الجارية بالمداومة فيها، تُقَوِّي الأخلاق الـمُشاكِلَةَ لها، كما أنَّ النظر في العلوم والمداومة علىٰ البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها، يُقوِّي الحِذْق بها والرسوخ فيها؛ وهكذا المداومة علىٰ استعمال الصنائع، والدؤوب فيها يُقوي الحِذق

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٧٢-٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٧٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٩٤.

والأستاذية فيها؛ وهكذا جميع الأخلاق والسجايا، والمثال على ذلك أنَّ كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربَّوْا معهم، تطبَّعُوا بأخلاقهم، وصاروا مِثْلَهم، وهكذا أيضاً كثيرٌ من الصبيان، إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربّوا معهم، تطبّعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلَهم، إنْ لـمْ يكن في كلِّ الخلقِ ففي بعضٍ، وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبَّع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات، أو الإخوة والأخوات، والأتراب والأصدقاء، والمعلمين والأستاذين المخالطين في تصاريف أحوالهم، وعلى هذا القياس حُكم الآراء والمذاهب والديانات جميعاً.[1]...

## فصل في طلب العلم

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه، بأنَّ الله جلَّ ثناؤه، قد فرضَ على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتركونها، كما قلنا آنفاً، ولكن ليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة، وأحكام الناموس أوجبُ ولا أفضلُ ولا أجلُّ ولا أشرفُ ولا أنفعُ لعبدٍ، ولا أقربُ له إلى ربِّه بعد الإقرار به، والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاؤوا به وخبَّروا عنه، مِنَ العلم وطلبِه وتعليمِه. وبيانُ ذكرِ شرفِ العلم، على ما ذكرناه من فضيلته وجلالته، وفضل طلبه وتعليمه، ما روي عن النبي ﷺ، أنَّه قال: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لله خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لا يَعْلَمُونه صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَالمؤنسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغربة، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، والمقرَّب عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ الله بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً يُهْتَدَى بِهِمْ، وَأَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ تُقْتَفى آثَارُهُمْ، وَيوثقُ بأَعْمَالهمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى آرَائهِمْ، وتَرْغَبُ الْـمَلائِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، ويستغفرُ لهم كلُّ رطبٍ ويابسٍ، حَتَّى حِيتَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامُّه، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُه، وَالسَّمَاءُ وَنُجُومُهَا؛ لأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٠٧.

الْقلبِ مِنَ الجهْلِ، ومصابيحُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضُّعْفِ، يَبْلُغُ بِه الْعَبْدُ مَنَازِلَ الأَحرَارِ، وَمجَالِسَ الْمُلُوكِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالْفِكْرُ فِيهِ يُعْدِّلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يُطَاعُ الله، وَبه يُعْبَد، وَبِهِ يُعْلم الخيرُ، وَبِهِ يُتَوَرَّعُ، وَبه يُؤْجَرُ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وبه يُعْرَفُ الْحَلالُ مِنَ الْحَرَامِ، واعلم أنَّ العلمَ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، ويُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءَ.(١)

## فصل

واعلم يا أخي، أَيَّدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأنَّ طالب العلم يحتاج إلى سبع خصال، أوَّلُـها السؤال والصمت، ثم الاستماع، ثم التفكر، ثم العمل به، ثم طلب الصدق من نفسه، ثم كثرة الذكر إنَّه من نِعم الله، ثم ترك الإعجاب بها يحسنه. والعلمُ يُكسب صاحبَه عشرَ خصال محمودة، أوَّلُـها: الشرفُ وإنْ كان دنيًّا، والعزُّ وإنْ كان مَهيناً، والغِنَى وإن كان فقيراً، والقوةُ وإن كان ضعيفاً، والنُّبْلُ وإن كان حقيراً، والقربُ وإن كان بعيداً، والقدرُ وإن كان ناقصاً، والجودُ وإن كان بخيلاً، والحياءُ وإن كان صلفاً، والمهابةُ وإن كان وضيعاً، والسلامة وإن كان سقيماً، وقال الله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وآيات كثيرة في القرآن في مدحِ العلماء وفضائلهم، وحُسن الثناء عليهم في مثل ذلك.

واعلم يا أخي بأنَّ للعلماء مع كثرة فضائل العلم آفاتٍ وعيوباً وأخلاقاً رَدِيَّـة تحتاج أن تتجنبها وتتحـذرها، فمنها الكِبْرُ والعُجْـبُ والافتخار، وقـد رُوي عـن رسول اللـه ﷺ أنـه قال: من ازداد علماً ولم يزدد للـه تواضعاً، وللجهال رحمـة، وللعلماء مـودة، لـم يزدد من اللـه إلا بُعـداً، ومنها كثرة الخلاف، والمنازعةُ فيه، وطلبُ الرياسة به، والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم، وقال لقمان الحكيم لابْنِهِ: يا بُـنَـيَّ جالسْ العلماء وزاحمْهُم بِرُكْبَتِكَ، فإنَّ الله يحيي القلوب الميْتَة بنور

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٦-٣٤٧.

العلم، كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر؛ وإيَّاك ومنازعة العلماء فإنَّ الحكمة نزلت من السماء صافية، فلما تعلَّمَها الرجال صرَفُوها إلى أهواء أنفسهم. ومن آفات العلماء الخوضُ في المشكلات والترخيص في الشبهات، وتركُ العمل بموجبات العلم. ومن آفات العلماء أيضاً كثرة الرغبة في الدنيا، وشدة الحرص في طلبها.[1]...

## فصل في العلم والتعلم والتعليم

واعلم أنَّ العلم ليس بشيء سوى صورة المعلوم في نفس العالم، وأن الصنعة ليست شيئاً سوى إخراج تلك الصورة التي في نفس الصانع العالم ووضعها في الهيولى.

واعلم يا أخي أنَّ أنفُس العلماء علَّامة بالفعل، وأنفُس المتعلمين علامةٌ بالقوة؛ والتعليم ليس شيئاً سوى إخراج ما في القوة إلى الفعل، والتعلُّم هو الخروج من القوة إليه، وأنَّ كلَّ شيء بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلا لشيء هو بالفعل يخرجه إليه، وأنَّ النفس الكلية الفلكية هي علامةٌ بالفعل، والأنفس الجزئية علامةٌ بالقوة، فكلَّ نَفْس جزئية تكون أكثر معلومات، وأحكم مصنوعات، فهي أقرب إلى النفس الكلية، لقرب نسبتها إليها، ولشدَّةِ شَبَهِها بها، كما قيل في حد الفلسفة إنها التشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية. فاجتهد أن تكتسب معلومات كثيرة تكن أفعالك كلُّها حكمة زكية، فإنَّها القُنْيَة الروحانية، كما تجتهد أبناء الدنيا في اكتساب المال الذي هو القنية الجسدية.

واعلم أنَّه كما أنَّ المال يتمكن الإنسان به مما يريده من اللذات في الدنيا وطيب العيش، فهكذا بالعلم تتمكن النفس من اللذات في الدار الآخرة، وبالعلم يَتَقَرَّبُ إلى الله أبناءُ الآخرة، وبه يتفاضل بعضهم على بعض، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] الآية.

واعلم أنَّ بالعلم تحيا النفوس من موت الجهالة، وبه تتَنَبَّهُ من نوم الغفلة كما قال الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٧-٣٤٨.

فالعلم يَهديك إلى طريق ملكوت السماء، ويُعينُك على الصعود إلى هناك، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وأخبر عن أهل الجهالة فقال تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وهذا وعيدٌ لهم بالإياسِ عن الصعود إلى ملكوت السماء، فأعيذك أيها الأخ أن ترضى بأن تكون منهم، أو معهم، وقيل: إن المرء مع من أحب، بل كن من الذين أمرهم رسول الله ﷺ فقال: كن عالماً أو متعلماً، أو تجالس العلماء أو تحب العلماء، وإياك والخامس إلا أن تكون من الطوائف.(١)...

ثم اعلم أنَّ العلمَ غذاءٌ للنفس وحياةٌ لها، كما أنَّ الطعام وجميع المتناولات غذاء وشراب للجسد وحياة له. ثم اعلم أنَّ العلم بالأشياء، بعضه طبيعي غريزي مثل ما يُدرك بالحواس، ومثل ما في أوائل العقول؛ وبعضه تعليمي مكتسب مثل الرياضيات والآداب، وما يأتي به الناموس. فمن الناس من لا يرغب في التعلم والتأدب، بل يتَّكِلُ على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول. ومنهم من يرغب في التعلُّم والتأدُّب، لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلا ما يتصور في نفسه أو يقوم عليه برهان هندسي أو منطقي. ومنهم طائفة لا تقبل إلا ما يدل عليه قول الشاعر؛ وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر. ومنهم طائفة لا تقبل إلا بالاحتجاج والجدل. ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك.

وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الإنسان في إدراك المعلومات والمحسوسات إلى أي نهاية، وهي جهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء، وإلى أي حد ينتهي. لأَنَّ في النَّاس طائفة من العقلاء لـمَّا تفكروا في حدوث العالم، وبحثوا عن العلة الموجبة لكونه، بعد أن لم يكن، لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بدء كون العالم، فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى القول بقدم العالم.(٢)...

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٩.

**ب- الرسالة الحادية عشرة:**

**من العلوم الناموسية والشرعية**

...

اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنا قد ذكرنا في خمسين رسالة تقدمت لنا قبل هذه الرسالة فنون العلم وغرائب الحكمة، ورتبناها وجمعنا فيها علوماً كثيرة وأغراضاً جمة، وحكماً بليغة، ورتبانها بحسب ما تقتضيها درجات المتعلمين ومراتب الطالبين المستفيدين، فكما لا ينبغي أن يبلغ العلم لمن ليس هو من أهله، ولا يعرف فضله، فهكذا لا يجوز ولا يحل أن نمنع منه من هو مسترشد وطالب له، ولا نبخل به على مستحق. فينبغي لمن حصلت له هذه الرسائل من إخواننا الكرام أن يدفع منها إلى كل من يستحق ما يقرب من فهمه، وما يعلم أنه يصلح له، أو يليق بمرتبته، أولاً فأولاً، على الترتيب الذي رتبناه في رسالة الفِهْرِست. فكما ارتقت نفسه في العلم إلى درجة درجة، وانتهت إلى مرتبة مرتبة في المعرفة رقي إلى ما بعدها، ودُفع إلى ما يتلوها، إلى أن تبلغ نفسه إلى حد كمالها.[1]...

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه، أنَّنا نورد من العلوم في كتبنا ورسائلنا ما يكون تزكية للعقول وتنبيهاً للنفوس، فأخذْنا من كل علم بقدر ما اتسع له الإمكان وأوجبه الزمان، وقد اجتهدنا أن يكون ذلك من أحسن ما قدرنا عليه ووصلنا إليه، ولذلك وصفناه وأثبتناه وأوردناه لإخواننا، أيدهم الله، ورضينا لهم كما رضينا لأنفسنا؛ إذْ كنَّا كلُّنا روحاً واحدة، وتراباً واحداً، وبني أب واحد، ولنا رب واحد وهو الذي خلقنا من نفس واحدة. وقد قال رسول الله ﷺ: لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يرَضى لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه. وقال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨].[2]

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٢٨٣.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٣٦٧.

## (٥)

# سِيَاَسُة الصِّبْيَانِ وتَدْبِيرُهُم

**ابن الجزار أبو جَعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني (توفي: ٣٦٩هـ)**

**من سياسة الصبيان معرفة صحة الأبدان**

إنّ معرفة سياسة الصبيان وتدبيرهم بابٌ عظيمُ الخطر، جليلُ القدْر، ولم أرَ لأحد من الأوائل المتقدّمين المرضيين في ذلك كتاباً كاملاً شافياً، بل رأيتُ ما يُحتاج من عِلمه ومعرفته مِن ذلك متفرّقاً في كُتبٍ شتّىٰ وأماكن مختلفة، ممّا لعلّ بعض الناس قد عَرف بعضَه وجهل بعضَه، ولعلّ بعضَهم قد عرف ذلك كلَّه، ولم يعرفه من أسهل طرقه، وأقصد سبُله، وأقرب مآخذه.

فلمّا كان الأمر في ذلك علىٰ ما وصفنا، رأيت أن أجمع المتفرّق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألّفتُ بعضَه إلىٰ بعضٍ في هذا الكتاب ... وأضمّنه جميع ما علمتُ أنّ جالينوس قاله في ذلك وأضيفُ إلىٰ ما أجمعه من الكتب مبوّباً. وجملة أبوابه اثنان وعشرون باباً. وإنّما جعلته كذلك ليسهُل درسه علىٰ قارئه ويُعرَف حفظه علىٰ راويه، وأكملتُ فيه أحد حدود صناعة الطبّ الذي هو حفظ الصحّة علىٰ الأبدان الصحيحة، ودفع المرض عن الأبدان السقيمة..." (ص ٤٥)

الفصل الخامس:

# كتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم" لابن الجزار

## أولاً: التعريف بـ"ابن الجزار":

ابن الجزار هو أبو جَعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، ولد في القيروان عام (٢٨٥هـ/ ٨٩٥م) وتوفي فيها عام (٣٦٩هـ/ ٩٨٠م)، اشتهرت أسرته بالطب، فأبوه طبيب عيون، وعمه طبيب جراح، فتعلم الطب على أبيه وعمه، وغيرهما من أطباء عصره مثل إسحاق بن سليمان، وإسحاق بن عمران. عرف بالعفة والنزاهة والمروءة. كان على علاقة طيبة مع ملوك الدولة الفاطمية، لذلك كان ميسوراً يُنَزِّه نفسه عن أخذ أجرة العلاج، فيحيلهم إلى غلامه ليعطيهم العلاج ويأخذ الأجر. كانت القيروان في عهد ابن الجزار عاصمة دولة الأغالبة، وكانت تضج بالعلم والأدب، وسائر أوجه النشاط الحضاري.

طَبيبٌ ومؤرِّخ وفيلسوف، أَلَّف كثيراً من الكتب في الطبِّ، ومن كتبه: كتاب في علاج الأمراض يعرف بزاد المسافر، وكتاب في علاج الأدوية المفردة ويعرف باعتماد المسافر، وكتاب في علاج الأدوية المركبة ويعرف بالبُغْيَة، وكتاب العُدَّة لطول الـمُدَّة، وكتاب في الزكام وأسبابه وعلاجه، وكتاب طب الفقراء والمساكين، وكتاب طب المشايخ وحفظ صحتهم، وسياسة الصبيان وتدبيرهم.

وترجمَ ابنُ الجزّار عدداً من الكتب اليونانية في الطب، منها كِتاب المقالات الخمس لديسقوريدس، وكتاب المقالات الست في الأدوية المفردة لجالينوس.

وألَّف في مجالات أخرى غيرِ الطِّبِّ منها في التاريخ: كتاب التعريف بصحيح التاريخ، وكتاب أخبار الدولة الفاطمية، وكتاب مغازي أفريقيا، ومنها في الجغرافيا كتاب عجائب البلدان، ومنها في علم النفس، رسالة في النفس وفي الذاكرة واختلاف الأوائل فيها، وفي الأدب كتاب المكلل، وكتاب الفصول في سائر العلوم والبلاغات.

اهتم المستشرقون في أوروبا بتراث ابن الجزار فكتبوا عنه وترجموا بعض أعماله إلى الألمانية والفرنسة والإيطالية. وعرف عندهم باسم Aljizar. ومما ترجم من كتبه كتاب زاد المسافر الذي ترجم إلى اليونانية واللاتينية والعبرية.

## ثانياً: التعريف بـ" سياسة الصبيان وتدبيرهم"[1]

عدّ المؤرخون هذا الكتاب أول كتاب في طب الأطفال في المراحل الأولى من حياتهم. ولذلك عَدُّوا ابنَ الجزَّار أوَّلَ طبيب عربي متخصص في طب الأطفال. وهو مثال على إسهام قطاع الأطباء في التربية والتنشئة والتعليم.

يقع الكتاب في حوالي (١٤٠٠٠) كلمة (في حدود خمسين صفحة) إذا حذفت هوامش التحقيق. وهو مع هوامش التحقيق حوالي (٧٠) صفحة. وزعت على (٢٢) باباً، يمكن تصنيفها في ثلاث فئات: تشكل الأبوابُ الستةُ الأولى الفئة الأولى، وتتحدث عن الحمل والولادة والمرضعة واللبن، وتتحدث الأبواب من السابع حتى الحادي والعشرين عن الأمراض التي تصيب الأطفال، وعن مداواتها، وحماية أعضاء الجسم من الأمراض التي تصيبها، بدءاً من أعلى الجسم وانتهاءً بأسفله. أما الفئة الثالثة فتتكون من الفصل الثاني والعشرين، وهو الفصل الوحيد الأقرب إلى أدبيات التربية والتعليم التقليدية في التراث الإسلامي، ولا سيما ما رود في تأديب الأطفال، حيث ينفع التأديب في الصغر، ولا يؤدي التأديب إلى النتيجة المرجوة عند الكبر.

سلك ابن الجزار في الكتاب أسلوباً علمياً سهل العبارة تكثر فيه المترادفات، ويمكن للقارئ البسيط فهمه والاستفادة منه، ينهي أبوابه بجملة (إن شاء الله). وواضح أن ابن الجزار يعتمد في معلومات كتابه على مصادر الطب اليوناني القديم مثل كتب ابقراط وجالينوس.

تطغى أهمية الكتاب الطبية على أهميته التربوية، ومع أن مصطلحي التدبير

---

(١) ابن الجزار القيرواني، أبو جَعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد. **سياسة الصبيان وتدبيرهم**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٤م.

والسياسة في عنوان الكتاب ترتبطان بالتراث التربوي العربي بصورة مباشرة، إلا أنَّ استعمال ابن الجزار لهما كان في سياق حماية الصحة ومعالجة الأمراض. ولكنَّنا نَعُدّ ذلك أمراً مهماً في مجال التربية الوالدية؛ إذْ من المهم أن يعرف الشباب المقبلون على الزواج والمتزوجون حديثاً ماذا ينتظرهم عند حمل الزوجة وولادتها، وكيف يمكنهم تقديم الرعاية اللازمة لحفظ صحة الطفل ووقايته من الأمراض، وعلاجه عند وقوعها.

## ثالثاً: مختارات من "سياسة الصبيان وتدبيرهم"

قال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد: إنّ معرفةَ سياسة الصبيان وتدبيرِهم بابٌ عظيم الخطر، جليلُ القَدْر، ولم أرَ لأحدٍ من الأوائل المتقدّمين الـمَرْضَيِّين في ذلك كتاباً كاملاً شافياً، بل رأيت ما يُحتاج من عِلمه ومعرفته مِن ذلك متفرّقاً في كتب شتّى وأماكن مختلفة، ممّا لعلّ بعض الناس قد عرف بعضَه وجهِل بعضه، ولعلّ بعضَهم قد عرف ذلك كلّه ولم يعرفْه من أسهل طرقه، وأقصد سبُله، وأقرب مآخذه.

فلمّا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، رأيتُ أن أجمع المتفرّق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألّفتُ بعضَه إلى بعض في هذا الكتاب، كالذي يؤلّف من الجوهر إكليلاً بهيّاً، وينظُم منه عقداً حسناً، وأضمّنه جميع ما علمتُ أنّ جالينوس قاله في ذلك وأضيفُ إلى ما أجمعه من الكتب مبوّباً. وجملة أبوابه اثنان وعشرون باباً. وإنّما جعلته كذلك ليسهُل درسه على قارئه ويُعرَف حفظه على راويه، وأكملتُ فيه أحد حدود صناعة الطبّ الذي هو حفظ الصحّة على الأبدان الصحيحة ودفع المرض عن الأبدان السقيمة، وذلك أنّا ذكرنا ما نحفظ به الصبيان على صحّتهم الطبيعية وحسن العناية بهم وجودة التدبير لجسم المرضعة، ليصلح اللّبن ويجود هضمه في أبدانهم، ثم فقّرتُ ذلك بذكر الأعراض التي تعرض للصبيان من وقت وِلادتهم إلى أن يحتلموا وطريق المداواة لهم على سبل الحيلة للبرء، واللهَ نسألُه التوفيقَ والتسديد، والعون على بلوغ ما أريد، إنّه وليّ حميد.[1]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥-٤٦.

## الباب الأول

## في تدبير الأطفال عند خروجهم من الرّحِم

### الأمُّ:

قال أبو جعفر: إنّ الذي يُحتاج إليه من المرأة عند طلب الولد هما أمران: أحدهما من البدن والآخر من النفْس، وذلك أول صلاح الولد والأساس الذي يُبْنىٰ عليه تأديبُه وتقريبُه.

فالذي من البدن؛ اعتدال مزاج الطفل وهيأته، وأن تكون المرأة خيّرة صحيحة البدن. وأمّا الذي في النفْس فصحّة القريحة وقوة الذهن وتهذيب الخاطر، فهو الذي يُحتاج إليه من المرأة، وذلك أنَّه ليس مع سقم البدن وفساد القريحة غاية، فيجب أن نذكر الآن ما يُحفظ به الصبيان عند خروجهم علىٰ الصحّة الطبيعية التي لم يَمَسَّها خطَل.[1]

### خروج الطفل وقطعُ سُرَّته وتمليحُه:

فنقول: إنّه ينبغي أن نبتدئ من تدبيره عند خروجه فيُقطع من سرّته أربع أصابع ويملّح ساعة يولد تمليحاً معتدلاً، ليكون بذلك جلده صلباً قوياً، ومن النّاس مَن يخلطه مع الساذج والقسْط والسُّمّاق والحُلْبة والصعْتَر، كلّ ذلك مدقوق مسحوق. فأمّا جالينوس فقال: قد يُكتفىٰ في الصبيان إذا كانوا علىٰ طبائعهم بالتمليح وحده، فإن زاغوا عن حالهم الطبيعية احتاجوا إلىٰ ورَق الآس المدقوق وإلىٰ ذرّه عليهم أو غيره ممّا يُشبهه. فإذا مُلّح الصبي فيجب أن يُمَرّ ذلك علىٰ جسده كلّه إلّا الفم والأنف، ولا يزال ذلك عليه حتىٰ ينحطّ وسخه، ثم يُغسل حينئذٍ بماء فاتر ويُنظَّف ويُنقّىٰ منخراه وفوه وأذناه.[2]...

### غذاء الرضيع:

وبعد أن يُبتدأ في تدبيرهم كما ذكرنا ويُلفوا في الخِرق كما وصفنا فيُغذّىٰ باللبن؛ فإنّ غذاءه الذي أعدّ له اللّبن. وجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الحلَمتيْن جميعاً أعدّتا معاً في وقت، أعني

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨.

اللبن في ثدي المرأة والسمرة للرطوبة على هذه الصفة التي عليها اللّبن في الأطفال. الذين يغتذون باللّبن. فإن أنت وضعتَ حلَمة الثدي في فم المولود وجدته يعصرها ويُعين عليها بشفتيْن، ثم يقنت لسانه ويجذبه فيدفع اللبن إلى حلقه كأنّه قد تعلّم ذلك وتفنّن فيه منذ دهر طويل. فإذا صار اللّبن إلى المريء أوصَله إلى المعدة، فإذا أخذت المعدة من ذلك اللّبن حاجتها دفعت عنها ما يفضُل منه إلى الأمعاء، ولا تزال الأمعاء تنفذ من واحد إلى واحد حتى يصير إلى الآخر، كأنه قد عرف ذلك كله بالتعليم.[1]...

**مضجع الطفل:**

ويُتّخذ للطفل منذ ابتداء الأمر داية وتُؤمر أن لا تزجره ولا تعمّه بشيء، وتُعنى بمضجعه فتُضجعه في فراشه في المهد مستوياً معتدلاً، ولا يكون ليّنا جداً لئلا ينقلب أو يلتوي عنقه، ويُجعل رأسه -إذا نُوّم- أعلى من جميع بدنه.[2]

**غسل الطّفل وتنظيفه:**

وتؤمر الحاضنة أن تحمّه بالماء الحارّ العذب؛ لأَنَّ عامة تدبيرهم إنّما يكون بما يرطّب أبدانهم لتبقى رطبة زماناً طويلاً. ويكون الماء معتدلاً لا حارّاً جداً. ويُفعل هذا في بيت معتدل الدفء مظلم قليلاً ويُحمّ أول الغذاة ونصف النهار وعند العشاء. وتبسط الحاضنة على ركبتيها وفخذيها خرقة كتّان ناعمة، ثم تَضجع الطفل عليها، وتحلّ عنه الخِرَق فتُسوّي أعضاءَه وتُلَوِّي مفاصِلَه، وكل ذلك برفق وإحكام.[3]...

**إرضاع الطفل:**

وينبغي أن لا يُرضع الصبيّ بعقب الحمّام، لكن بعد أن تهدأ حركاته، لئلا تعرض له تخمة فيتولّد عنها في بدنه كيموس رديء. فإذا أرادت إرضاعه فتغمز حَلَمتها غمزاً رفيقاً، ثم تضعها في فيه وتعصرها بعض العصر، لئلا يتعب الصبيّ من كثرة المصّ، ولا ترضعه لبناً كثيراً في دفعة واحدة، بل في دفعات قليلاً قليلاً إذا علمتْ أنّه يحتاج إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨-٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩-٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠.

اللبن. وقد ينتفع بالبكاء اليسير ولا سيما قبل شرب اللبن وهو جائع، فإنّ ذلك مما يرد أعضاءه. ويوسّع له صدره ودبُره.[1]...

**وقت غذاء الطفل:**

وإذا أتينا على ما أردنا شرحه من هذا فنحن أحقّ أن نرجع إلى ذكر ما ينبغي أن يُدبّر به الطفل إذا بلغ أوان الغذاء فنقول: إن الطفل من بَعد وقت اللبن يأخذ في استعمال المضغ فيتعلّمه من تلقاء نفسه كما يتعلّم سائر الأعمال. وقد ذكر جالينوس: أنّه ينبغي أن يُختار من الأوقات لطعم الصبيّ فصل الخريف واستواء الليل والنهار، وغيوب الثريا؛ لأَنَّ الشتاء يستقبله فيكون الإنضاج حينئذٍ قوياً، وتُؤمر المرضعة أن تُنقص من لبنه وتعوّده الطعام وتُمرنه عليه، لئلا يضرّه الانتقال بغتة، ويكون أول طعامه خبزاً ممضوغاً ويُجعَل في فمه.[2]...

**جلوس الطفل:**

وينبغي أن يُجلَس الصبيّ على الأرض، إذا اشتدّ بدنه نعما، وصلُبت أعضاؤه وقوي على حركة الجلوس.[3]

**المشيْ:**

ويُكلّف المشي مرة بعد مرة ويُقام أولاً بجنب الحائط، ويُحمَل أيضاً وقتاً بعد وقت، ولا يُدام عليه بنصف واحد من هذه الأشياء.[4]

**البكاء:**

ولا يُمكّن من البكاء الكثير فإنّه إذا كثر بكاؤه عرض له أبلمسيا،[5] فيجب أن يُسكت كما ذكرنا بدءاً وبكل شيء يعلم أنّه يلهيه به، ويُحول بينه وبين البكاء، مثل أن

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص٥٣.

(٥) نوع من أمراض الصبيان يشبه الصرع.

يُحمل على الأيدي حملاً رفيقاً ليّناً، ويُحرّك كذلك ويُرفع له بألحان وأصوات لذيذة ويُحرّك بالغدوات بالحمل، ويحسن له النغم بالتبيين، وذلك أنّ الأصوات اللذيذة تُلحِق النفس والطبيعة الالتذاذ بها من غير تعب، ومن أجل ذلك صار الأطفال إن نُغمّ لهم نُغمٌ حسنة يستلذّونها سكنتْ طبائعهم وهدأت وناموا من قريب.[1]...

## الباب الثاني

## في صفة المرضعة التي تحتاج لرضاع الصبيان

قال أبو جعفر: ينبغي أن لا يُهمل أمر المرضعة فيُرضى بكلّ ما يوجد منهنّ للرضاعة، لكن ينبغي أن تُختار المرضعة ويُرغب في أن توجد على هذه الصفة التي أصف.[2]

**سنّها:**

وذلك أن تكون شابّة غير مسنة، كذلك قال جالينوس في كتاب السياسة، وذلك أنّ الشابّة تكون ابنة خمس وعشرين والكبيرة ابنة خمس وثلاثين سنة. وزعم جالينوس: أنّها كانت مُسنّة جداً لم يكن لبنها غزيراً ولا جيداً صحيحاً، وإن كانت وسطاً كانت نافعة للصبيّ منفعة عظيمة.[3]

**خَلْقُها وخُلقها:**

وينبغي أن تكون مع ذلك حسنة القامة، جيدة البضعة، جيدة الذراعيْن والساقين، حسنة الوجه، حسنة الخُلُق لا تكاد تغضب سريعاً فإن كانت على ما وصفنا، وكانت مع ذلك قريبة لأم الصبيّ كان ذلك أفضل. وتكون سليمة غير سقيمة، فإنّها إن كانت سقيمة انتقل سقمها إلى الصبيّ، كما يعرض له ذلك من الإرث من الآباء والأجداد.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٦.

(٣) المرجع السابق، ص٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص٥٦-٥٧.

**الحاضنة:**

فأما الحاضنة وهي السيّاسة فيجب أن تكون سواء مرضعة قد طعنتْ في السنّ قليلاً وتكون فَطِنة معها تجربة وحُرْمة وتدبير وسياسة ورفق وتثبُّت، لتشير بعقل ما معها لما ذكرنا على مرضعة الصبيّ أن تفعل ما ينبغي لها أن تفعله وتقدرّه لتنويم الصبيّ وإيقاظه، إن شاء الله تعالى.[1]

## الباب الثالث

## في صفة لبن الظئر المحمود منه والمذموم وكيف ينبغي أن يكون

قال أبو جعفر: إنَّه لما أتينا على صفة الظئر أردنا أن نذكر بعقب ذلك صفة لبنها، فنقول: إنه ينبغي أن يكون لبن المرضع للصبيّ معتدلاً لا ثخيناً ولا رقيقاً ولا كثيراً ولا قليلاً.

والفرق بين اللّبن المذموم واللّبن المحمود أنّ اللّبن المحمود لذيذ الطعم، أبيض اللّون، طيّب الرائحة، مستوي القوام، متوسّط بين الخثورة والرقة كما ذكرنا. فأما إن كانت أحواله مضادّة لهذه الأحوال فهو لبن رديء مذموم. وقد ذكر ساوس أنه يجرّب اللّبن بأن يؤخذ منه شيء فيصبّ على الظفر ويُنظر إليه، فإن كان لاصقاً لا يَسري علمتَ أنّه فاضل، وإن سال منه سريعاً أو بطيئاً، فاعلم أنّه رديء لا خير فيه.[2]...

## الباب الرابع

## في الأطعمة والأشربة التي تُدبّر بها المرضعة ليكون لبنها صحيحاً

قال: ينبغي أن تُغذّى المرضعة للصبيّ، بالأطعمة والأشربة الموافقة للبن، المحمودة. ويلزم أيضاً من قيامها على نفسها أن لا تجوع ولا تمتلئ، ولا تستطلق بطنها ولا تيبس.

وتستعمل من التعب مقداراً كافية، وترتقي الدّرج وتنسج وتعجن وتخبز وتلزم أعمال الأيدي، وتلعب بالكرة وتُروّض يديْها في جميع ذلك رياضة معتدلة.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨.

وتستعمل من الأطعمة ما كان مزاجُه حسناً مثل خبز القمح المُحكم الصنعة وما أشبه ذلك، وتتناول مرة بعد مرة الأشياء المتّخذة من الحبوب المحمودة الخلط، والسمك الذي ليس بغليظ، ومن اللحم الطّريّ ومن أطراف الدجاج والطير، وتشرب شراباً ريحانياً مائلاً إلى الحلاوة، فإذا أنبت الصبيّ، فلتتناول من الأغذية أقوى مما وصفْنا، مثل لحم الجُدى، والحِملان.[1]...

## الباب الخامس

## في سبب قلّة اللّبن وتغير لونه

**قلّة اللبن:**

قال أبو جعفر: إنّه قد يكون من النّساء من يكون لبنها قليلاً بالطبع، وقد يقلّ لبعضهنَّ من أسباب شتّى: إمّا من قلّة الغذاء، وإمّا من أن تستعمل المُرضعة أغذية حريفيّة يابسة فتُنشف رطوبات لبنِها، وإما من قبل تغيير مزاج حرارة (ويبس) أو بُرودة أو يُبْس، أو من رطوبة مُحالة.[2]...

**أسباب قلّة اللّبن:**

ونحن الآن راجعون إلى آخر البرهان الذي يدلنا على معرفة السبب الذي تعرض منه قلّة اللبن لنأخذ في علاجه وتدبيره، فينبغي لنا أن ننظر إلى المادة التي تخرج من الثّديين عند الحلْب، فإن رأيناه متغيّراً إلى الصفرة المائية وكان طعمهُ مرّاً علمنا أنّ ذلك من قِبَل تغيّر مزاج مِرّة صفراء، وإن كانت المادة قليلة مائية أيضاً في لونها زرقة وتُسرع إليها الحموضة علمنا أنَّ ذلك من قِبَل بلغم مالح، وقلة اللبن العارض من قلة الأغذية بيّن معروف، وذلك بأن تخبرك المرأة بأنّها قليلة الغذاء، فأما إن كان الذي يخرج من الثّدي غليظاً مستحيلاً يشوبه شيء من حمرة ذميم الرائحة، علمنا بذلك واستدللنا على ضعف القوة المغيّرة للّبن، وعلى قلة الطبخ وضعف فعل الثّديين الطبيعي، وإن غلبَ مزاج بلغم فليس يكون معه اللّبن قليلاً إلا أن يكون بلغماً مالحاً،

---

(١) المرجع السابق، ص٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص٦٢.

كما ذكرنا بدءاً، لكن يكون معه اللّبن كثيراً إلا أنّه مخالف للّبن الطبيعيّ إلى الغلظ، فهذا بيان كافٍ إن شاء الله تعالى.[1]

## الباب السادس

## في تدبير المرضعة القليلة اللّبن وإصلاحه إن شاء الله

قال: ينبغي لنا أن نبدأ أولاً فننظر إلى الدم، فإن كان قليلاً عالجنا البدن بالأغذية، الحارة الرطبة والأشربة كذلك ليكثر الدم ويعتدل، وإن كان الدم مائلاً إلى المرة الصفراء ودلّنا على ذلك البرهان الذي قدّمنا، وأمهلنا البدن أولاً وأعطيناه ماء الشعير المحكم الطبخ من الرازيانج الرطب، ولبن المعز المطبوخ مع دقيق الجاورس، ودهن لوز حلو مع الحنطة المهروسة، وتحسى من هذا الحسو.[2]...

### علاج غِلَظ اللّبن:

فأمّا غلظ اللّبن الذي ذكرنا فيجب أن يلطّف لئلا يعرض للصبيّ أبلمسيا، وذلك أن تؤمر المرضعة بأن تمسح الصبيّ بالسكنجبين العسلي، أو تُلزَم ذلك في تلطيف اللّبن بالعمل والخدمة، وتُدخل في أغذيتها صَعْتراً جبلياً وزوفاً وما أشبه ذلك ممّا يلطّف.[3]

### علاج رقّة اللّبن:

فأما رقّة اللبن فينبغي أن تُعالج بما ذكرنا في أول هذا الكتاب، وتؤمر المرضعة أن تدع الأعمال وتُكثر من الشراب الحُلو وتتوقّى كثرة العرق، ولا تُكثر دخول الحمّام، وتشرب الأدوية التي تُغزِر اللبن مرّة بعد مرّة، وتحتال بكلّ حيلة أن يرقى اللبن إلى ثديها. فإن احتاجت إلى لزوم ثديَيْها المحاجم، فينبغي أن تلزم كلّ ثدي مِحجمة وتمصّ مصّاً قوياً، من غير شرط وقتاً بعد وقت، إن شاء الله تعالى.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٦٦.

(٤) المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.

## الباب السابع

## في الأعراض التي تعرض للصبيان في كلّ درجة من أسنانهم:...

**أسنان الأطفال:**

إن الأطباء قد أبانوا في كثير من موضوعاتهم أنّ أسنان الصبيان تُجزّأ على أربعة أجزاء؛ منها سنُّ الوِلْدان عند خروجهم من الأرحام. وهي الدرجة الأولى، ثم سنّ الصبيان عند خروج أسنانهم من بعد سنّ الولدان، وهي الدرجة الثانية، ثمّ سنّ ابن سبع سنين، وهي الدرجة الثالثة، ثم سنّ المُحتملين في أربع عشرة سنة، وهي الدرجة الرابعة. وكذلك رتّبها أبقراط في كتاب الفصول على أربع درجات، على ما بيّنا، وذكر العلل التي تعرض للصبيان في كل درجة. وأنا ذاكر الفصول من كلام أبقراط التي أبان فيها ذلك؛ لأنها موضّحة لنا ما نروم إيضاحَه في هذا الكتاب، ونؤخّر تفسير جالينوس لها لما يستقبل، في حين نذكر كلّ عارض وهيئته وعلاجه، وهذا أول الفصول.[1]...

## الباب الثامن

## في السّعفة والرية المتولّدة في رؤوس الصبيان

وأكثر ما تتولّد السعفة والرية في رؤوس الصبيان لكثرة دمائهم ورطوبة جلودهم، وأكثر ما يتولّد ذلك في جلدة الرأس، وربّما عرضَ في الرأس والوجه، وربّما تولّد في الوجه دون الرأس.[2]...

## الباب التاسع

## في الداء المسمى الداوس العارض للصبيان وعلاجه

قال أبو جعفر: إنّه قد يعرض لرأس الصبيّ أن يخرج عن الاعتدال إمّا بأن يكبُر وإما بأن يصغر. فأمّا كِبَره عن حدّ الخِلقة، فهو أن تتولّد ريح غليظة في عظام الرأس وحجابه، فيحتقن فيه، فلا يجد مسلكاً يخرج منه، فتنتفخ عظام الرأس فيكون ذلك سبباً لكبره. فأمّا صِغر الرأس فإنّه خلقة وتركيب، فلذلك ليس فيه حيلة ولا إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨-٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٧٠.

علاجه سبيل.[1]...

## الباب العاشر

## في داء الصرع العارض للصبيان ويسمىٰ أبلمسيا

قال أبو جعفر: إنّ داء الصرع أكثر ما يعرض للصبيان الصغار ولا سيَّما الذين أجسادهم رطبة، وقد يسمّىٰ خاصة مرض الصبيان، يحدث ذلك بهم من سببيْن؛ أحدهما من سوء مزاج بارد رطب يغلب علىٰ الدماغ، والآخر رداءة التدبير. والبرهان الذي يُعلم به الصرع الحادث من سوء المزاج من الصرع الحادث من رداءة التدبير، أنّه إذا كان ابتداؤه مبدأ أوّل الولادة، فالسبب فيه سوء مزاج طبيعي غالب علىٰ الدماغ، إمّا بارد وإمّا رطب وإمّا بارد ورطب، فإن لم يكن ابتداؤه مبدأ أوّل الولادة فحدوثه، إمّا من سوء التدبير وإمّا من سبب آخر من خارج، فإذا عرض لهم فينبغي أن يُعلم أنّ منهم مَن يحتاج إلىٰ العلاج الطّبي ومنهم مَن لا يحتاج إليه. فأمّا الذين لا يحتاجون إليه فالذين حدث لهم هذا الداء في سنّهم الأول، وذلك أنّ بُرأهم منه يكون بانتقالهم من سنّ الأطفال إلىٰ سنّ المراهقين لسبب ميلهم إلىٰ المزاج الذي هو أسخن وأجفّ، فلذلك قلنا لهم إنّهم لا يحتاجون إلىٰ العلاج الطّبي، فلذلك يجب أن تُحسن النظر في تدبيرهم، وتحذر أن يعرض لهم عارض من خارج فيُمرضهم. فأمّا الصبيان المحتاجون إلىٰ العلاج الطّبي فهم الذين يحدث لهم هذا الداء بعد ولادتهم، ولم يكن حدوثه بهم منذ أول الأمر فهؤلاء يحتاجون إلىٰ العلاج الطّبي؛ لأنهم يُرجىٰ لهم البرء منه.[2]

**علاجه:**

فإذا أردت علاج هؤلاء فينبغي أن تُسقىٰ المرأة التي ترضع الصبيّ الأدوية الكبار، ويُعنىٰ بتنقية جسمها وتُغذّىٰ بالأغذية الحسنة المزاج، وتُحمىٰ من كلّ غذاء يولد فضلاً غليظاً، ويعلّق علىٰ الصبيّ نفسه الفاوينا فإنّه نافع لدائه.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٧٨-٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص٧٩.

## الباب الحادي عشر

## في السهر العارض للصبيان

قال: إنّه معلوم مفهوم أنّ الأمر الطبيعي في الصبيان هو كثرة النوم، وقد ذكر أبقراط أنّه يعرض للصبيان في الدرجة الأولىٰ من أسنانهم سهر دائم، بعد ذلك مرض، وإنّما يعرض لهم من أجل رطوبة فاسدة في اللّبن.

وقد يعرض للصبيان اليُهْمِ منهم التفزّع في النوم، وخاصة إذا كانت المعدة منه ضعيفة أو حسّاسة بالطبع، ثم فسد الطعام في معدته. وقد زعم جالينوس أنّه تفقّد هذا فوجده في المستكمَل فضلاً عن الطفل، وذلك أنّه يعرض له التخييل الهائل في النوم إذا اجتمع في المعدة، فإنّه أكثر مواضعها حسّاً. فإذا عرض للصبيّ السهر فينبغي إذا أردتَ علاجه أن يُبتدأ فيُسعط الصبيّ بشيء من دهن البنفسج ودهن الزعفران أو بدهن الشبت مضروب مع عصير الخس، أو أدهن جبهة الصبيّ ببعض هذه الأدهان، وأصلح لبن المرضع واجعلها ترتاض رياضة معتدلة، لتزول الرطوبة الفاسدة التي في اللبن، ويُسقىٰ الصبيّ من شراب الخشخاش.[1]...

## الباب الثاني عشر

## في الرطوبة السائلة من آذان الصبيان

قد ذكر أبقراط أنّه يعرض للصبيان في الدرجة الأولىٰ من أسنانهم رطوبة في الأذنين، وذلك مخالف للمجرىٰ الطبيعي، وإنّما ذلك من كثرة رطوبة الدماغ مع أنّ التدبير في هذا السنّ في غاية الرطوبة، حتّىٰ إنّ طبيعة الطفل تكون بطبيعة الشمع أشبه منها بطبيعة الحجر؛ لأَنَّ دماغه أرطب كثيراً مِن سائر أعضائه كلّها، ولا يحتمل الدماغ كثرة الرطوبة فيُلقي ما يُلْقىٰ عليه منها إلىٰ الآذان وما حولها.[2]

**علاجه:**

فينبغي إذا أردتَ علاج ذلك أن تأخذ صوفاً فتغمسه في ماء وعسل وشراب

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣.

عتيق، ويقطّر منه في الآذان، أو تُحشى الصوفة شبّاً يمانياً، وتُدخَل في الأُذنين، أو تأخذ زعفراناً فتسحقه بماء سَخِن ويقطّر من ذلك في الآذان، أو تأخذ زعفراناً أو نطروناً مسحوقاً، ويُلقى فيه شيء من خلّ ممزوج ويقطّر منه في الآذان.[1]...

## الباب الثالث عشر

## في زوال الحدقة وهو الحَوَل العارض للصبيان

قال: وقد يعرض الحول للصبيان كثيراً، فيما يعرض من ذلك، فإنّما يعرض على ضربين: إمّا أن يعرض لهم في بطون أمّهاتهم وعند الولادة، والضرب الآخر يعرض لهم بعد الولادة. فإذا أردت أن تعالج ذلك فأْمُر أن يُسوّى موضع الرأس في المهد ويُجعل قريباً منهم باللّيل سراج يضيء، فإن كان الحَوَل مما يلي اليمين فليُجعل السراج من الجانب الأيسر، وإن كان الحول من الجانب الأيسر فليوضع السراج من الجانب الأيمن. وقد ذكر بعض الأطباء أنَّ ممّا يُنتفع به من ذلك أن يُعمد إلى خرقة حمراء وخيط أحمر فيُربط في الأذن التي تميل إلى ناحيتها الحدقة، ويكون الخيط طويلاً قليلاً، ليقع النظر عليه ويُربَط خلال ذلك، ويُربط في الناحية التي تميل إليها الحدقة، ويُدمَن استعمال ذلك.[2]...

## الباب الرابع عشر

## في الوجع الحادث للصبيان في حين خروج الأسنان

إنّما تنبُت الأسنان في الدرجة الثانية كما قال أبقراط، وإنّما ذلك لأَنَّ المولود يحتاج إلى غذاء هو أغلظ من اللّبن، فتنبُت الأسنان والصبيّ من سبعة أشهر، ومنهم لأكثر من ذلك، ومنهم من يبدأ إنبات أسنانهم من أسفل فيكون ذلك أمارة لنباتها من فوق بلا وجع. فأمّا الأضراس فقد تنبت العُليا والسفلى وكذلك الأنياب.

قال جالينوس: إنّ الأسنان إذا نبتت سريعاً كان نباتها أيسر وأقلّ وجعاً، غير أنها تكون رديئة ضعيفة، وإذا نبتت بطيئة كان نباتها شاقّاً موجعاً، إلا أنها تكون قوية

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص٨٥.

شديدة، وزعم أنّه إن كان نبات الأسنان في فصل الربيع وعند طلوع الثريا، فليس يشتدّ ذلك عليهم. وإن كان في الفصل الشتاء اشتدّ عليهم إلا أن اللّثّة لا ترمُ، وإن كان في فصل القيظ عرضت لهم أوجاع كثيرة.[1]...

## الباب الخامس عشر

## في القروح العارضة في أفواه الصبيان الُقلاع

وقد يعرض للصبيان في الدرجة الأولى من أسنانهم قرح في الفم يسمى القُلاع، وإنّما يعرض لهم؛ لأَنَّ اللبن يخرج ويلدغ اللسان؛ لأنَّ فيه رطوبة مائية حارة ليست باليسيرة، واللّثاث من الطفل لا تحتمل مُلاقاة اللّبن لها، فيحدثُ فيها قرح لغلبة ما بيّنّا.[2]

**علاجه:**

فإذا أردت علاجه فتقدَّمْ إلى داية الصبي أن تأخذ عدساً وخبزاً يسيراً فتمضغه مضغاً جيداً، ثم تلقيه في فم الصبيّ، أو تأخذ بسبائج فتذيبه بالماء وتطلي به فاه، أو تأخذ مخّاً من مخّ الأبل ومخّ عجل فتخلطهما، وتُطلي به فاه.[3]...

صفة برود آخر عملتُه أنا فحمدته وهو عجيب: يُؤخذ من بزر الورد وبزر البقلة الحمقاء وكثيراء بيضاء وحُلبة من كلّ واحد وزن مثقال، ومن السُّك والمحلب، من كلّ واحد وزن درهم، وسكر طبرزد، وزن درهمين، يُدقّ ذلك ويُنخلُ ويذرّ منه على الموضع الذي فيه الحرّ والبثر والسُلاق، وقد ينفعهم أيضاً لُعاب البزر قطوناً وحبّ السفرجل مع ماء الورد الرفيع، ومع ماء الرّمان الحامض. فإن كان مع ذلك كثرة اللّعاب فيُعالجوا بالأقاقيا وأقماع الرمان مع ما ذكرنا. وزعم ناس من الأطباء أنه مما يُنتفع به من ذلك أن يُطعَموا فأراً مشوياً، وأنا لا آمر بالعلاج بمثل ذلك، وإن لم يكن ينفع لذلك غيره.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩.

(٤) المرجع السابق، ص٩٠-٩١.

## الباب السادس عشر

## في السعال العارض للصبيان وعلاجه:

وقد يعرض للصبيان في الدرجة الأولىٰ من أسنانهم سعال فيؤذيهم، وإنّما يهيج ذلك فيهم، لقرب عهدهم بالدفء في بطون أمّهاتهم وخروجهم إلىٰ برد الهواء، ولأنه ليس لألسنتهم قوة علىٰ سدّ الحنجرة، فيهيج السعال لبرد الهواء ووصوله إلىٰ حلوقهم وصدورهم.[1]

**علاجه:**

فإذا أردتَ علاجهم من السُّعال العارض لهم فينبغي أن لا تقاربهم الأدوية القوية جداً؛ لأَنَّ أبدانهم لا تقوَىٰ علىٰ ذلك لضعف في قوتها ورخاوة لحمها، لكن ينبغي لنا أن نعالجهم بالأدوية التي تشبه الأغذية وتكون عَذبة الطَعْم، لئلا يكرهها الصبيّ قبل منفعته بها.[2]...

وزعم بعض الأطباء أنّه ينبغي إذا عرض السّعال للصبيان أن يُحمّ الطفل بماء سخن ويُدلك رأسه بعَسل كثير ويُدخل الأصبع في فيه ويُقلَب تحت لسانه ثمّ يُكسر من فوق، فإنّه يتقيّأ بلغماً كثيراً، وهو شفاؤه.

وقد ألّف يحيىٰ لسُعال الصبيان دواءً جرّبتُه أنا: يُؤخذ زبيب منزوع العجم ويُغلّىٰ في مِغرفة حديد وأحرز عليه أن يحترق، ثم يُنزل الزبيب ويُحرّك حتىٰ يبرد، ثم يُدقّ ويؤخذ منه جزء ومن الفانيذ جزء فيُخلطان ويُدقّان جميعاً ويُطعم منه الصبيّ غدوة وعشية مثل الجلّوزة، إن شاء الله.[3]...

## الباب السابع عشر

## في القيء والاختلاف العارض للصبيان

قال: وقد يعرض للصبيان الاختلاف والقيء في الدرجة الأولىٰ من أسنانهم،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٩٤.

وكذلك قال أبقراط، والسبب في ذلك أنَّ الصبيان ربّما رغبوا في كثرة الرضاع؛ لأنهم لا يعرفون قدر ما ينفعهم منه فتكثر عليهم لعلّة ذلك رطوبة اللّبن، فإن طفا ووصل ذلك اللّبن في معدته هيّج ذلك قيْئاً، وإذا انحدر إلى الأمعاء هيّج انطلاقاً.

فأمّا الاختلاف فإنّه يعرض للصبيان عند نبات أسنانهم، وإنما ذلك لأَنَّ الغذاء لا ينهضهم ولا يثبت في البدن، لاستغال الحرارة الغريزيّة بوجَع اللثة والأسنان، وقد يعرض للصبيان زحيرٌ أيضاً.[1]...

**علاجه:**

ونحن راجعون إلى ذكر العلاج النافع لجميع ما ذكرنا. فينبغي إذا عرض للصبيّ القيء أن يسقى من شراب الرمّان المتّخذ بالنعنع، ويُسقى من شراب المَبية على قدر احتماله، ويُؤخذ نعنع يابس فيُدقّ ويُنخلُ، ثم يُعجن بدُهن ورد ويُطلى منه فم الصبيّ ومنخراه، فإنّه يقطع القيء.[2]...

## الباب الثامن عشر

## في الحيّات والدود تتولّد في أمعاء الصبيان

قال: إنّ الحيّات والدود إنما تتولد من عفونة، وليس تقع العفونة وحدها في تولّد هذا الحيوان، لكنّها تحتاج أن تكون حرارة كثيرة. وقد يفسد الغذاء كثيراً في المعدة والأمعاء في الصبيان إلّا أنّ الحرارة في الصبيّ الصغير جداً ليس تقوى بعد أن تستحوذ على تلك المادة. وأما من كان مِن الصبيان في الدرجة الثالثة مِن أسنانهم، ففي بدنه من المادة التي يُمكن أن تُولّد هذا الحيوان وفيها معها الحرارة التي تقوم على طبْخ تلك المادة حتى يُعمَل ذلك الحيوان. فينبغي لنا أن نعرف أنّ الدُّود العريض، الذي مثل دود الخلّ، يتولّد خاصة في أسفل الأمعاء الغليظة، والذي يتولّد في البطن، المستديرَ الذي يُعرف بالحيّات، أكثر ما يتولّد في المعاء حتّى إنّه ربّما صعد إلى المعدة. وتولّد هذا الجنس في الصبيان أكثر كثيراً مِن تولّد الدود. والذي يتولّد في الأمعاء العلاة المسمّى

(١) المرجع السابق، ص٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٧.

حبّ القرع فإنّه يتولّد قليلاً في الصبيان.[1]...

## الباب التاسع عشر
## في نتوء السرّة العارض للصبيان

**ورم السرّة:**

قال: إنّه يعرض للصبيان والأطفال ورم السرّة، وذلك واجب أن يعرض للطفل في سرّته، لقرب عهدها بالقطع، كما يحدث تغير السرّة من الأعضاء إذا حدث فيها جرح. وقد يعرض لهم أيضاً، إذا أداموا البكاء والصياح ولسبب عطسة أو ضربة أو لسعال شديد، شبيه بالفتق.[2]

**علاجه:**

فإذا أردتَ علاج ذلك فينبغي أن تأخذ النافخة فتُسحق مع بياض البيض ويلطخ على السرّة وتصير عليه كسف، وهي خرقة كتّان، تلف وتَرِقّ حتى تصير كالهدب وتُشدّ على السرّة ثلاثة أيام ويؤخذ من الترمس المرّ والكنيب فيُحرقان ويُجعلان على السرّة.[3]...

## الباب العشرون
## في الحصى المتولّد في مثانات الصبيان

قال: إنّ الحصى قد يتولد في المثانة والكُلى، وبخاصة عند الكهول، وتولّد الحصى مرض خاص للصبيان الذين في الدرجة الثانية، وذلك أنّه لا يتجاوز الطريق القصد في المطعم فتجتمع في بدنه أخلاط نيئة كثيرة فينحدر من أعلاها شيء في البول إلى المثانة، فيصير مادة تولّد الحصى في المثانة فقط؛ لأَنَّ عنق المثانة منه تكون ضيّقة فيعوق المادة الضعيفة من النفوذ من سبب ضيقِه، وإنّما ذلك منهم خاصة على هذه الحالة للحرارة التي في مثاناتهم، فتلك الحرارة تحلّ لطيف الكيموس الذي فيهم فيصير بخاراً ويبقى غليظاً فيها، فيثخن ويتكوّن منها الحصى وتجد البول فيهم صافياً نقيّاً، وإنما صار

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٥.

كذلك؛ لأَنَّ ثُقْلَه إذا جمد صار مادة يُكوّن بها الحصى ويكبر.

وقد يتبع الحصى المتولّد في مثانات الصبيان أعراض لازمة منها: عسر البول، وشدة الوجع، ويجد الصبي حكّة في إحليله، ويقوم من أدنى سبب وربّما كان قائماً أبداً، والسبب الذي صار الحصى يُحدِث فيهم الألم بمنع البول من الخروج؛ لأنها تقع في رقبة المثانة، وإنّما صارت الحصاة التي في المثانة تدعو الصبيّ إلى أن يحك ذكره ويقلقه فإنّما ذلك لأَنَّ الصبي يظنّ أنّ ذكره هو سبب وجعه.[1]...

## الباب الحادي والعشرون

## في البثر والقروح والحكّة العارضة للصبيان

قال: وقد يعرض للصبيان بَثر كأنّه قرح، وربما كانت حكة، وقد يعرض لهم ذلك من فساد اللّبن ورداءته. وربما كان ذلك من قِبَل أنَّ الصبيّ لم يَهْضم اللّبن ولم ينضحْهُ، وقد يكون ذلك البثر أبيض ويكون أحمر وأسود؛ لأَنَّ البثر الأسود الذي كأنّه محترق يؤدي إلى موت الطفل.

فإذا أردتَ علاج ذلك البثر فأصلح لبن المرضعة للطفل بمثل ما ذكرنا بديّاً، واحرصْ على أن يخرج البثر كله إلى ظاهر الجلد. فإنّك إن فعلتَ ذلك انتفع الصبيّ. فإذا غاب راجعاً إلى باطن البدن خِيفَ على الصبيّ، وإن خرج ولم يعد إلى باطن البدن فعند ذلك فاحمِهِ واجعلْ في الماء ورق الأثل أو ورق وردٍ أو دُهْن ورد أو خرنوب أو دهن خرنوب واطلِ على القرح لصوقاً قد هيأته من شمع وإسفيداج، وليكن الاستحمام بما ذكرنا قبل ذلك كثيراً.[2]...

## الباب الثاني والعشرون

## في الأمر بتأديب الأطفال

...

الصغير أسلس قيادة وأحسن مواتاة وقبولاً. فإن قال لنا قائل: نجد من الصبيان

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٨-١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

من يقبل الأدب قبولاً سهلاً، ونجد منهم مَن لا يقبل ذلك. وكذلك قد نجد من الصبيان من لا يستحي، ونجد منهم من هو كثير الحياء. ونجد منهم مَن يعنىٰ بما يُعَلّمه ويتعلّمه بحرص واجتهاد، ونجد من هو يملّ التعليم ويبغضه. وقد نجد أيضاً في ذوي العناية منهم وذوي العلم من إذا مُدح تعلّم علماً كثيراً، ومنهم من يتعلّم إذا عاتبته أو عاتبه المعلّم ووبّخه، ومنهم من لا يتعلّم إلا للفَرقَ من الضرب، وكذلك نجد اختلافاً كثيراً ومطّرداً في الذين يملّون التعلّم ويبغضونه. وقد نرىٰ من الصبيان مُحباً للكذب ونرىٰ منهم مُحباً للصدق، ويُرىٰ فيهم اختلافٌ في الأخلاق ومضادّة كثيرة بالطبع، فما معنىٰ قولك: ويجبّذ في أن يؤخذ الأطفال بالأدب منذ الصغر وأنت ترىٰ منهم مثل هذا بالطبع من غير تعليم ولا تأديب، أفترىٰ الأدب ينقل الطبع المذموم إلىٰ الطبع المحمود؟[1]

فنقول لقائل هذه المقالة: أما ما ذكرتَ من طبائع الصبيان واختلافهم وقولك: أفَتَرَىٰ الأدبَ ينقل الطبع المذموم إلىٰ الطبع المحمود؟ فلعمري إنّه لكذلك، وإنّما أوتي صاحب الطبع المذموم من قِبل الإهمال في الصبيان وتركه ما يعتاد ممّا تميل إليه طبيعته فيما هي مذمومة، أو يعتاد أشياء مذمومة أيضاً لعلّها ليست في غريزته، فإن أخذ في الأدب بعد غلبة تلك الأشياء عَسُر انتقاله ولم يستطع مفارقة ما اعتاده في الصّبا.[2]

وقد قال أبو واس الفيلسوف: إنّ أكثر الناس إنّما أوتوا في سوء مذاهبهم من عادات الصبا إذا لم يتقدّمهم تأديب وإصلاح أخلاقهم وحسن سياستهم. فلذلك أمرنا نحن أن يؤدّب الصبيان وهم صغار؛ لأنّهم ليس لهم عزيمة تصرفهم لما يؤمرون به من المذاهب الجميلة والأفعال الحميدة والطرائق المثلىٰ إذا لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتّباع ما يُراد بهم من ذلك، فمن عوّد ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة في الصغر حَاز بذلك الفضيلة، ونال المحبّة والكرامة، وبلغ غاية السعادة، ومن ترك فعل ذلك وتخلّىٰ عن العناية به أدّاه ذلك إلىٰ عظيم النقص

(١) المرجع السابق، ص١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١١٣-١١٤.

والخساسة، ولعلّه يعرِف فضيلة ذلك في وقت لا يمكنه تلافيه واستدراك ما فاته منه، فتحصل له الندامة التي هي ثمرة الخطأ، وذلك أنّا قد نرىٰ من الناس مَن يعلم أنّ مذاهبه رديئة ولا يخفىٰ عليه الطريق المحمود ويعسر عليه النزوع إليه لتقدُّم العادة المعتادة فيهم، وإن حملوا أنفسهم علىٰ بعض تلك الحالات تصنُّعاً وحياء من الناس في الظاهر لم يعدموا إذا خلَوْا أن يرجعوا إلىٰ المذاهب المتمكّنة في غرائزهم.

وإنّما أصل العادة أنَّ الإنسان إلىٰ العادة أميل، وعليها أحرص، وبها أشدّ تمسّكاً. فليس إذاً من الأسباب الذميمة شيء أقوىٰ سبباً إذا كان في طبيعته من مثل ذلك الشيء الذي تعوّده، فإن لم يُعَن في ذلك الطبع فإنّ العادة وحدها تبلغ في ذلك إذا استحكمتْ وتمكّنت مبلغاً قوياً، وكذلك فعل العادة في الأشياء المحسوسة الفاضلة.

فإن رأيتَ صبياً فيه طبيعة جيّدة وعادته صالحة فإنّه لا تفارقه الخِصال المحمودة الشريفة؛ لأنَّه طُبع عليها من جهتين قويتين، كما أنّ ذلك لا تفارقه الخصال المذمومة الدنيئة؛ لأنَّه طُبع عليها من هاتين الجهتين، أعني العادة والطبيعة، مع أنّ بعض الحكماء قال: العادة طبيعة ثانية. فلموقع العادة هذا الموقع وجب أن يؤدّب الأطفال ويعوّدوا بالأشياء الجميلة، وتربيتهم تربية فاضلة ليكونوا إن قَبِلتْ طبائعهم منفعة التأديب والتعاهد، أخياراً فضلاء. فإن أمكن أن يكون من الصبيان مَن لا يقبل ذلك لم يلزمنا نحن التواني وإغفال ما يجب في تأديبهم، فنرجع علىٰ أنفسنا باللَّوم فنقول: إنّا قد أخطأنا؛ إذْ لم نعاتبهم في حين يُمكن فيه تأديبهم وقبولهم. وقد علمنا أنّ صغير الخطأ في أوائل الأشياء وأصولها ليس بيسير الضرر في العاقبة، كذلك العاقبة في الصواب، كأنّ الأشياء لتُنبئ علىٰ الأصول.[1]

فقد بيّنا بياناً شافياً وأوضحنا إيضاحاً كافياً، وتبيّن لمن فهِم عنّا قولَنا: إنّ الصواب أن يؤدب الصبي، فإن كانت طبيعته طبيعةَ مَن ليس بأديب ولا لبيب فهذا بيّن للمعترض طريق الصواب. فأمّا إن كان الصبيّ طبيعته جيدة، أعني أن يكون مطبوعاً علىٰ الحياء وحبّ الكرامة والألفة محباً للصدق، فإنَّ تأديبه يكون سهلاً، وذلك

(١) المرجع السابق، ص١١٥.

أنّ المدح والذمّ يبلغان منه عند الإحسان أو الإساءة ما لا تبلغه العقوبة من غيره، فإن كان الصبيّ قليل الحياء مستخِفّاً للكرامة قليل الألفة محبّاً للكذب، عسُر تأديباً، ولا بدّ لمن كان كذلك من إرغاب وتخويف عند الإساءة، ثمّ يُحقّق ذلك بالضرب إذا لم ينجح التخويف. وينبغي أن يُتفقّد الصبيّ في كلامه وقعوده بين الناس وحركته ونومه وقيامه ومطعمه ومشربه، ويُلْزَم في جميع ذلك ما ألزمه العقلاء أنفسهم حتىٰ صاروا وأفعالهم طبيعة مِن طبائعهم.[1]

ولولا حبّ الاختصار، وترك الإكثار، لأتيْنا الطريق إلىٰ النهاية، ولكنّه فيما ذكرناه كفاية، لمن فهم عنّا المعنىٰ والمراد في كلامنا.

وقد أتممنا كتابنا، وبلغنا فيه مرادنا، والله المستعان المُعين، لا ربّ غيره.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥-١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١٦.

## (٦)

# الرِّسَالَةُ المُفَصِّلَةُ لأَحْوَالِ المُتَعَلِّمِينَ وأَحْكَامِ المُعَلِّمِين والمُتَعَلِّمِين

**أبو الحسن علي القابسي (توفي: ٤٠٣هـ)**

**تعليم الأولاد مسؤولية الآباء:**

ثم اعلم أنَّ أئمةَ المسلمين في صَدْرِ هذه الأمة، ما منهم إلا مَنْ قد نظر في جميع أمور المسلمين بما يُصلحهم في الخاصة والعامة، فلم يبلُغْنا أنَّ أحداً منهم أقام معلّمين يُعلِّمون للناس أولادهم من صغرهم من الكتاتيب، ويجعلون لهم على ذلك نصيباً من مال الله عَزَّوَجَلَّ، كما قد صنعوا لمن كلّفوه القيامَ للمسلمين في النظر بينهم في أحكامهم، والأذان لصلاتهم في مساجدهم، مع سائر ما جعلوه حفظاً لأمور المسلمين، وحيطةً عليهم.

وما يمكن أن يكونوا أغفلوا شأن معلِّم الصبيان، ولكنهم -والله أعلم- رأوا أنَّه شيءٌ مما يختص أمرُه كلَّ إنسانٍ في نفسِه؛ إذْ كان ما يعلّمه المرءُ لولدِه، فهو من صلاح نفسه المختصِّ به، فأبقوه عملاً من عمل الآباء، الذي يكون لا ينبغي أن يحمله عنهم غيرهم، إذا كانوا مطيقية. (ص ٩٨)

الفصل السادس:

# كتاب "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" لأبي الحسن القابسي

## أولاً: التعريف بـ"القابسي"

أبو الحسن عليُّ بن محمد بن خلف المعافري القابسي الفقيه القيرواني، ولد على الأرجح في القيروان عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م). أخذ لقب القابسي من عَمِّه الذي سمي بهذا الاسم؛ لأَنَّ عِمَامَتَه تشبه عِمامة أهل قابس، وهي مدينة قديمة ولا زالت قائمة على ساحل خليج سيرت في تونس. عُرِف القابسي بأنَّه شيخُ المالكية بتونس في عصره، والحافظُ العالمُ بالحديث ورجاله وعِلَلِه، والفقيهُ الأصولي، والزاهد الوَرِع. ذكر المؤرخون كثيراً عن عِلْمِه وفضله. جلس للتعليم في القيروان، وأُكْرِه على تولِّي القضاء فيها.

أخذ العلم عن عدد كبير من العلماء في تونس ومصر والحجاز، منهم الحافظ أبو القاسم حمزة الكناني، وأبو زيد المروزي، وابن مسرور الدباغ، وأبو الفتح بن بدهان، وأبو ذر الهروي، فأصبح علَماً في الحديث والفقه والكلام، وأخذ عنه العلم كثيرون منهم مكي بن أبن طالب مؤلف كتاب التبصرة في القراءات السبع، والحسين بن أبي العباس الإجدابي المؤرخ مؤلف كتاب المناقب في خصال العباد في القيروان، وعبد الرحمن اللبيدي مؤلف كتاب الشرح والتفصيل لمسائل المدونة، وأبو عمرو الداني الذي أقام في حلقة القابسي أربعة أشهر لمع فيها فأجازه القابسي، وغيرهم كثير.

يذكر المؤرخون أنَّ القابسي ألَّف أكثر من مائة كتاب، منها: كتاب ملخص الموطأ، وهو ملخص لمسند موطأ الإمام مالك بن أنس، وكتاب الـمُمَهَّد في الفقه جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، وكتاب الـمُنَبِّه للفطن، الـمُبْعِد من شُبَهِ التأويل، وكتاب أحكام الديانة في الشعائر الدينية. كما عرف أنَّه إمامٌ في التربية والتعليم، وقد عرف من كتبه في مجال التعليم كتاب تعليمي في مناسك الحج، وكتاب: رُتَبُ العلم وأحوالُ أهله، وكتاب: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين.

كان عصر القابسي مليئاً بالأحداث والتقلبات السياسية والدينية، فقد شهد حكمَ عدد من خلفاء الفاطميين الذين اهتموا بالعلوم لخدمة مذهبهم وسلطانهم، في حين نشط علماء المالكية في المقابل يعلمون النَّاس فقه السنة على مذهب الإمام مالك، ويعقدون المناظرات مع علماء الإسماعيلية من رجال الفاطميين. توفي القابسي عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م).

## ثانياً: التعريف بـ"الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"[١]

رسالة القابسي هذه من أشهر كتب التراث المتخصصة في التربية والتعليم. أصبح التعليم في زمن القابسي مهنة لها أحكامها وشروطها، وأخذ الآباء والأوصياء والمسؤولون عن الوقف التعليمي يعقدون عقوداً مع المعلمين، وفق شروط والتزامات محددة بين أطراف العقد، تختص بمكان التعليم وزمانه ومدته، والأجرة عليه وحقوق المعلمين والمتعلمين، وواجباتهم. ونشأت بطبيعة الحال أسئلة تحتف بهذه العقود وشروطها مما يقتضي تقديم الإجابات عنها. وهذا هو ما فعله القابسي فقد كانت رسالته إجابات عن هذه الأسئلة في صيغة أحكام وأقضية حول ما يجوز وما ينبغي وما لا يجوز.

ومع أن رسالة القابسي صُنفت في مجال الفقه، والفقه المالكي على وجه التحديد، فإنَّ من المعروف أنَّ الفقة المالكي فقهُ محدِّثين، والقابسي معروف كذلك في الحفظ والحديث، لذلك حين وصف منهجه في كتابة رسالته قال: فقد بيَّنْتُ لك ما جاء في فضل من تعلَّم القرآن وعلَّمه، كل ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وعما جاء عن النبي ﷺ تسليماً.

رغم الفارق الزمني بين عصر ابن سحنون والقابسي إلا أنَّ وحدة المكان، ووحدة المذهب والمشيخة، جعلت القابسي ينحو منحى ابن سحنون فجاءت رسالته على نمط كتاب آداب المعلمين لابن سحنون، فأخذ منه كثيراً من عباراته وفتاواه. ونقل عمن

---

(١) القابسي، أبو الحسن علي بن خلف. **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، دراسة وتحقيق وترجمة فرنسية: أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.

نقل عنه، لكن القابسي توسع في تفريع المسائل، وتصور الحالات بالقدر الذي جرى فيه اختلاف التوسع في أوضاع التعليم بين قرن ابن سحنون وهو القرن الثالث الهجري، وقرن القابسي وهو القرن الرابع الهجري.

اقتصر القابسي على تعليم الصبيان، وهي مرحلة الالتحاق بالمدرسة والتخرج منها الختمة والحذقة، وكل الأمثلة التي جاءت في الكتاب من حيث موضوعات التعليم، وأساليب التأديب تختص بها دون مرحلة الحلم من الصبيان، أو ما كان يُعرف بتعليم الكُتَّاب.

كانت رسالة القابسي إجابات عن الأسئلة التي وجهت إليه، وكانت هذه الأسئلة هي حالات وأمثلة وقضايا من الواقع الاجتماعي الذي كان سائداً، ولذلك فإنَّ الأسئلة وإجاباتها تُعَدُّ وصفاً لحالة التعليم في عصر القابسي وعلى الأخص في مرحلة الكُتَّاب. ومع ذلك فإنَّ في إجابات القابسي ما يتضمن رؤيته لما ينبغي أن يكون عليه الحال. فقد تكرر الحديث عن الأجرة التي يأخذها المعلم على تعليم الصبي في الحالات المختلفة، من وجود الأب أو الوصي أو القريب أو الواقف أو المحسن، وفي الحالة التي لا يوجد فيها من يدفع الأجرة، فإنَّ البديل هو أن يقوم المعلم بتعليم الصبي احتساباً؛ لأنه لا بد للصبي أن يجد من يعلِّمُه، مهما كانت الظروف، وهذا في الفهم الشرعي للقابسي، وهو ما نسميه اليوم مبدأ إلزامية التعليم.

جاءت رسالة القابسي في ثلاثة أجزاء: الأول في سؤال السائل عن تفسير الإيمان والإسلام والإحسان، وعن الاستقامة ما هي وكيف صفة الصلاح، وتحدث الجزء الثاني عن: ذكر ما يأخذه المعلمون على المتعلمين وسنُّة ذلك، وما يصلح للصبيان مع القرآن، وما على المعلم أن يعلمهم إيَّاه من سائر مصالحهم، وما لا ينبغي له أن يأخذ منهم عليه أجراً، وهل يعلِّمُ المسلمُ النصرانِيّ أو يترك النصارى يعلمون المسلمين، وهل يشترط المعلم للحِذْقة أجلاً معلوماً. أما الجزء الثالث فقد تناول فيه مجموعة من القضايا شملت الهدية للمعلم وتشاغل المعلم، ومرضه، واستعمال الدِّرة والفَلَقَة في التأديب، ومسائل الختمة، وخروج الصبي من الكُتَّاب، ومكان التعليم، وموت المعلم

أو الصبي أو والد الصبي، وتأديب الرجل زوجته وابنه، وتفسير نزول القرآن على سبعة أحرف.

وقد جاءت مادة الرسالة في حوالي عشرين ألف كلمة وما يعادل ثمانين صفحة من الحجم الوسط.

## ثالثاً: نصوص مختارة من "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"

قال أبو الحسن عليٌّ بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١-٥].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١-٢].

والحمد الذي لم يزل واحداً أحداً حيَّاً قيُّوماً، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، تكلم بالقرآن، وأنزله على محمد خير الأنام، للرحمة والتبيان، بالنور والبرهان، والحكمة والفرقان، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقال جل ثناؤه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١ - ٨].(١)

أحمده وأُومن به، وأستعينه وأتوكَّل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فقام بالرسالة وأدى الأمانة،

(١) المرجع السابق، ص٥٤.

ونصح الأمة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. فسبحان الله الذي سبَّح له ما في السموات والأرض...

والحمد لله الذي هدانا للإيمان، وعلمنا القرآن، ومنَّ علينا باتِّباع نبيه محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم وعلمنا ما بعثت به إلينا محمداً خاتم النبيين من كتاب وحكمة، وما تلا من آياتك، وزكنا إنك أنت العزيز الحكيم. اللهم وألهمنا شكر نعمتك به علينا... وأيدنا على طاعتك، بأن نستعين عليها كما أمرتنا... أنت الحق ووعدك الحق، لا إله إلا أنت، الملك الحق المبين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٥ - ٧] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأنلنا حُسن مرافقتهم بفضلك ورحمتك فأنت أرحم الراحمين، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وأنت مولانا، فنعم المولى ونعم النصير، فانصرنا بحسن الخلاص فيما أوليتنا وفيما ابتليتنا برحمتك في عبادك الصالحين، الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[1]

قال أبو الحسن: قد سألني سائل، وألّح عليَّ أن أُجيبه عن مسائل كتبها، وشرط فيها شروطاً، واعتذر من إلحاحه عليّ، أنَّه مضطرّ إليها وراغبٌ في فهم ما تعذّر عليه من فهمها؛ إذ هي تحلّ عليه، وتنزل به فيرهبها، ويخشى القدوم عليها، ويخاف ضيق الإمساك عنها، لبعده ممن يصلح أن يستعان به فيها، فَعَذَرْتُه بعذره، وأشفقتُ من التوقف عنه، على وجلٍ مني في مجاوبته عن كلِّ ما سأل عنه، فتراخيت عن سرعة مجاوبته طويلاً، وهو مقيم على حفزي فيما أراد مني، حتى ألقى اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قلبي الانقيادَ إلى مجاوبته، فأعوذ بالله أن أكون من المتكلفين، وأسأل الله الكريم العصمة بالحق فيما ابتلاني به من المقالة في الدين، وأن يهديني إلى أحسن القول فأتبعه بهدى من عنده، فهو هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨.

## ذكر سؤاله عن تفسير الإيمان والإسلام والإحسان وعن الاستقامة ما هي وكيف صفة الصلاح

قال أبو الحسن: أمَّا تفسير الإيمان والإسلام، فقد بُيِّن في الصحيح، قال أبو هريرة: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.[1]...

وأما سؤالك عن الاستقامة ما هي؟ فاعلم أنَّ وصفها قد مرَّ فيما تقدم من هذا الباب. وقال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيّه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] فالاستقامة هي القيام بما أمر الله به، وفي الذي قدمنا قول الله جل وعز: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] وفي وصف أولي الألباب والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، فتلك الأوصاف كلها من وفّى بها فهو المستقيم كما أُمر.[2]...

والاستقامة في الدين هي مداومة المقام فيه، على استوائه واعتداله، لا يُنَكَّبُ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا يلتزم منه ما لا يطيقه.[3]...

قال حذيفة بن اليمان: يا معشر القُرَىٰ إن تستقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً، لقد ضللتم ضلالاً بعيداً. قال أبو الحسن: يريد حذيفه رحمة الله عليه بقوله: هذا من لم يدرك النبي ﷺ يأمرهم أن يستقيموا في متابعة أصحاب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأَنَّ أصحاب النبي ﷺ هو المتبعون على السبيل الذي دعا إليها الرسول ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.

(٣) المرجع السابق، ص٦٨.

(٤) المرجع السابق، ص٦٩.

## ذكر سؤاله عما جاء في فضائل القرآن...

قال أبو الحسن: أما سؤالك أن نبدأ لك بشيء من فضائل القرآن فيكفيك في فضل القرآن معرفتك أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، ثم ثناء الله على هذا القرآن في غير موضع منه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]... ومن هذا المعنى في القرآن كثير معروف تَتَبُّع ذكرِه في هذا الكتاب يُطِيلُه، وهو شيء بيّن في القرآن، يُغْنِي عن كل كتاب، والحمد لله رب العالمين.(١)

وأما ما لمن تعلَّمه أو علَّمه من الفضل، ففيه حديثٌ مشهورٌ ومنشور، وهو حديث سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه،" وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمارة عثمان حتى كان الحجاج، قال: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا.

قال أبو الحسن: قال فأبو عبد الرحمن هو القائل: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا. يريد أنَّ حديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ في فضل من تعلّم القرآن أو علّمه هو الذي أقعده لتعليم الناس القرآن يقرئهم إيَّاه.(٢)...

وأما سؤالك عمن تعلَّم القرآن ثم ضيَّعه حتى نَسِيَه، فإن كان تضييعه إياه زهادة فيه، ليس بغالب عليه عمل يقوم له عذر، فهو الذي أخشى عليه من شيء قد جاء فيمن تعلم القرآن ثم نسيه، فهي نعمةٌ كَفَرَها، وإنَّما يكون ذلك فيمن تعمد التشاغل به عنه، فإن كان تشاغله عنه بعمل من أعمال السفهاء، كان أشد، وما يدريك أنَّ ذلك النسيان إنَّما أصابه عقوبة لاشتغاله عنه بسوء الاكتساب، فكان اكتسابه السوء ذنباً منه عُجلت له عقوبته بأن نسي القرآن بعدما حفظه.(٣)...

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤-٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦.

(٣) المرجع السابق، ص٧٩.

قال أبو الحسن: ولقد أُمر من نَسي شيئاً من القرآن ألا يقول: نَسِيتُه، كما في حديث شعبة وغيره عن مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عبد الله قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّياً مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ [صحيح البخاري]. فها هنا ينظر العبد فيما يشغله عن القرآن حتى نسي منه ما نسي، هل له في ذلك عذر أم لا عذر له، فيحسن الإنابة إلى ربِّه ممَّا لا عذر له فيه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٦- ٧] وقد وصّى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ أهل القرآن بالمحافظة على استذكاره، وأخبرهم أنه أشد تَفَصِّياً من صدور الرجال من النَّعَمِ.(١)...

قال أبو الحسن: والماهر بالقرآن يؤمر بترتيله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ١- ٦] قيل: معنى هذا أشد وطأ؛ أي مواطأة للقرآن بسمعك وبصرك؛ أي فهمك، فالقراءة على هذه الصفة أقوم قيلاً؛ أي أصوب قيلاً.(٢)...

وأما سؤالك عما لمن علَّم القرآنَ لِولدَه، فيكفيك منه قولُ الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: "خيركم من تعلَّم القرآنَ وعلّمه،" والذي يعلِّم القرآنَ ولده داخلٌ في ذلك الفضل، فإن قلت: إنه لا يلي تعليمه بنفسه، ولكنه يستأجر له من يعلّمه، فاعلم أنه هو الذي يعلّم ولده، إذا أنفق ماله عليه في تعليمه القرآن، فلعله أن يكون علمه من ذلك، من السابقين بالخيرات، بإذن الله تعالى، وتكون هذه الدرجة هي نية هذا الوالد في تعليم ولده القرآن، وما زال المسلمون وهم يرغبون في تعليم أولادهم القرآن، وعلى ذلك يربونهم وبه يبتدرونهم، وهم أطفالٌ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. ولا يعلمون إلا ما علمهم آباؤهم.

فقد جاء في الصحيح من حديث هُشَيْم، عن أبي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ؟

---

(١) المرجع السابق، ص٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣.

قَالَ: المفَصَّلُ. وفي حديث أبي عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الْمُحْكَمُ، قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَم.

وقد قال أبو موسىٰ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَأَيُّمَا مَمْلُوكٍ أَدَّىٰ حَقَّ مَوَالِيهِ وَحَقَّ رَبِّهِ فَلَهُ أَجْرَانِ [صحيح البخاري]. فإذا كان لمن علم وليدة فأحسن تعليمها، وصنع فيها ما قال في هذا الحديث يكون له أجران، فالذي يعلِّمُ ولده فيحسنُ تعليمَه، ويؤدِّبُه فيحسن تأديبَه، فقد عمل في ولده عملاً حسناً، يُرجىٰ له من تضعيف الأجر فيه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقد جاء أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بامرأة في محنتها، فقيل لها: هذا رسول الله فأخذت بعضد صبي معها وقالت: ألهذا حج؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم ولك أجر [صحيح مسلم]. فهل يكون لهذه المرأة أجر فيما هو لصبيها حج، إلا من أجل أنها أحضرته ذلك الحج، ووليت القيام به فيه، وإنَّما له من ذلك الحج بركة شهود الخير، ودعوة المسلمين، والذي يناله الصبي من تعليمه القرآن وهو علم يبقىٰ له بِحَوْزِه، وهو أطول غنىٰ وأكثر نفقة، وهذا أبين من أن يطال فيه بأكثر من هذا، وقد قال رجل لابن سحنون -رحمة الله عليه- ممن يطلب ابنه العلم عنده: إني أتولىٰ العمل بنفسي، ولا أشغله عما هو فيه، فقال له: أعلمت أنَّ أجرك في ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد.[1]

وأما سؤالك عن رجل امتنع أن يجعل ولده في الكتَّاب هل للإمام أن يجبره؟ وهل الذكر والأنثىٰ في ذلك سواء؟ فإن قلت: لا يجبره فهل يوعظ ويؤثم؟ وكيف إن لم يكن له والد وله وصيٌّ، فهل يلزم ذلك الوصي بالجبر؟ فإن لم يكن له وصيّ فهل ذلك للولي أو للإمام؟ فإن كان لا أحد لهذا الولد فهل للمسلمين أن يفعلوا ذلك في ماله؟ فإن لم يكن له مال فهل علىٰ المسلمين أن يؤدوا عنه، أو يكون في الكتّاب ولا يكلفه المعلم

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٩.

إجارة؟ وكيف إن كان له أب وله مال ولا يبالي ذلك، فهل للإمام أن يسجنه أو يضربه على ذلك، أم ليس ذلك عليه؟ وكيف إن كان هذا في بلد لا سلطان يكرههم على الواجبات، وينهاهم عن المنكرات، فهل نبيح لجماعة من المسلمين المرضيين دينهم أن يقوموا مقام السلطان، أم ليس يجوز ذلك؟[1]

## الجزء الثاني

## بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد

قال أبو الحسن: إنَّ الذي قدمت لك مما يرجى للوالد في تعليم ولده القرآن، وإنما هو على وجه الترغيب للوالد في تعليم ولده الطفل، الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يميز لنفسه ما يأخذ لها، وما يدفعه عنها، وليس له ملجأ إلا لوالده، الذي تجب عليه نفقته لمعيشته، فما زاده بعد ذلك الواجب فهو إحسان من الوالد للولد، كما لو أحسن للأجنبيين، أو لمن لا يلزمه نفقته، ولكن يُرجى له فيما أحسن به إلى ولده المحتاج إليه ما هو أفضل؛ إذ ليس يشركه فيه غيره، ولا حيلة للطفل يستعين بها فيستغني بنفسه فيها عن نظر والده له فيها.

وقد أُمِرَ المسلمون أنْ يُعلِّموا أولادَهم الصلاة، والوضوء لها، ويدربوهم عليها، ويؤدبوهم بها، ليسكنوا إليها ويألفوها، فتخفف عليهم إذا انتهوا إلى وجوبها عليهم، وهم لا بد لهم إذا علَّموهم الصلاة، أن يعلِّموهم من القرآن ما يقرءونه فيها.

وقد مضى أمر المسلمين أنهم يعلمون أولادهم القرآن، ويأتونهم بالمعلمين ويجتهدون في ذلك، وهذا مما لا يمتنع منه والد لولده، وهو يجد إليه سبيلاً، إلا مداركة شح نفسه، فذلك لا حجة له. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

ولا يدع أيضاً هذا والد واحد تهاوناً واستخفافاً لتركه إلا والدٌ جافٍ لا رغبة له في الخير، إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف في كتابه عباده، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا

(١) المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٤].

فمن رغب إلى ربه أن يجعل له من ذُرِيَّتِه قرَّةَ عين، لم يبخل على ولده بما ينفق عليه في تعليمه القرآن، قال الله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]؛ أي وما نقصناهم من عملهم من شيء، فما يدع الرغبة في تعليم أهله وولده الخير شُحاً على الإنفاق أو تهاوناً به يفقدهم ذلك الخير، إلا جافٍ أو بخيل.

إنَّ حكمَ الولد في الدين حكمُ والدِه، ما دام طفلاً صغيراً، أفَيَدَعُ ابنه الصغير لا يعلمه الدين وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين؟ ألم يسمع قول الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تُنْتِجُونَ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهْوَ صَغِيرٌ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ.

فأَخْبَرَ بما يدرك الولدَ من أبويه مما يعلمانه، فمن مات قبل أن يبلغ أن يُعلَّم ردَّ رسولُ الله ﷺ أمرَه إلى عِلْمِ الله بهم ما كانوا عاملين لو عاشوا. فإذا كان وُلْدُ الكافرين يدركهم الضرر من قبل آبائهم، ينبغي أن يدرك أولاد المؤمنين النفع في الدين من قبل آبائهم، ولقد استغنى سلف المؤمنين أن يتكلَّفوا الاحتجاج في مثل هذا، واكتفوا بما جعل الله في قلوبهم من الرغبة في ذلك فعملوا به، وأبقوا ذلك سنة ينقلها الخلفُ عن السلف ما احتُسِبَ في ذلك على أحد من الآباء، ولا تبيَّن على أحد من الآباء أنَّه ترك ذلك رغبة عنه لا تهاوناً به، وليس هذا من صفة المؤمن المسلم، ولو ظهر على أحد أنَّه ترك أن يُعلِّم ولده القرآن تهاوناً بذلك لجُهِّل وقُبِّحَ ونُقِّصَ حالُه، ووَضُعَ عن حال أهل القناعة والرضا، ولكن قد يُخلِّف الآباءَ عن ذلك قلة ذات اليد، فيكون معذوراً حسب ما يتبين من صحة عُذْرِه.(١)

وأما إن كان للولد مال، فلا يدعه أبوه أو وصيه، إن كان قد مات أبوه، وليدخل الكتّاب، ويؤاجر المعلم على تعليمه القرآن من ماله حسب ما يجب، فإن لم يكن لليتيم

(١) المرجع السابق، ص٩٢-٩٤.

وصي نظر في أمره حاكم المسلمين، وسار في تعليمه سيرة أبيه أو وصيه، وإن كان ببلد لا حاكم فيه، نظر له في مثل هذا، لو اجتمع صالحو ذلك البلد على النظر في مصالح أهله؛ فالنظر في هذا اليتيم من تلك المصالح.

وإن لم يكن لليتيم مال، فأمُّه أو أولياؤه الأقرب فالأقرب به، هم المرغبون في القيام به في تعليم القرآن، فإن تطوَّع غيرُهم بحمل ذلك عنهم فله أجره، وإن لم يكن لليتيم من أهله من يُعنى به في ذلك، فمن عُني به من المسلمين فله أجره؛ وإن احتسب فيه المعلم فعلَّمه لله عَزَّوَجَلَّ، وصبر على ذلك، فأجره إن شاء الله يُضعَّف في ذلك؛ إذ هي صنعته التي يقوم منها معاشه، فإذا آثره على نفسه استأهل إن شاء الله حظاً وافراً من أجور المؤثرين على أنفسهم، ويكفيك من البيان عما وصفت لك من ثواب من رغب في ذلك وسارع إليه الذي تقدم عن الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إذ قال للمرأة: نعم، ولك أجر.[1]

وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها، فأما أن تُعَلَّم الترسُّل والشعر وما أشبهه فهو مخوف عليها، وإنما تعلم ما يُرجى لها صلاحه، ويُؤمن عليها من فتنته، وسلامَتُها من تعلم الخط أنجى لها، ولما أذن النبي ﷺ في شهود العيد أمرهن أن يُخرجن العواتق وذوات الخدور. وأمر الحائض أن تعتزل مصلى الناس، وقال: يشهدن الخير، ودعوة المسلمين، فعلى مثل هذا يقبل في تعليمهن الخير الذي يؤمن عليهن فيه، وما خيف عليهن منه، فصرفه عنهن أفضل لهن، وأوجب على متولي أمرهن، فافهم ما بَيَّنْتُ لك، واستهدِ الله يهْدِك، وكفى به هادياً ونصيراً.

واعلم أنَّ الله جلَّ وعزَّ وقد أخذ على المؤمنات فيما عليهن، كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم، وذلك في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ...﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ...﴾ [التوبة: ٧١] وجمعهما في حسن الجزاء في غير آية من كتابه، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ [التوبة: ٧٢] وأمر أزواج نبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يذكرن ما سمعن منه ﷺ فقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤] فكيف لا يُعلَّمْنَ الخير، وما

(١) المرجع السابق، ص٩٤.

يُعين عليه، ويصرف عنهن القائم عليهن ما يحذر عليهن منه؛ إذ هو الراعي فيهن والمسؤول عنهن، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.[1]

## الباب الأول

### ذكر ما أراد أن يبين له فيما يأخذه المعلمون على المتعلمين، وسنة ذلك...

قال أبو الحسن: قدَّمت فوق هذا الباب ما جاء لمن علم القرآن، وبينت ما يؤكد تعليمه والحرص عليه، ويحذر مما يشغل عنه لئلا ينساه من حَفِظَ، بما فيه الكفاية. وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. ما يُلزِم القيام بتعلُّم القرآن حتى يقوم له من يبلغه إلى يوم القيامة، وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]. وهو ميسر للذكر إلى يوم القيامة وما اختلف المسلمون أنَّ القرآن هو حجة الله على عباده إلى يوم القيامة، وأن على المسلمين القيام به، والدعوة إليه إلى يوم القيامة.

وفي الصحيح لطلحة ابن مُصَرِّف قال: سألتُ عبد الله بن أبي أَوْفَى: أوصى النبيُّ ﷺ؟ فقال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية أمروا بها، ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله. [صحيح مسلم].

ومشتهر عند المسلمين أنه جاء عن النبي ﷺ أنه قال: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي، فهو شيء لا بد من تعلمه، ومن قام به فله أجره، ومن لم يقم به ترك حظه، وأعوذ بالله أن يتفق المسلمون على ترك القيام به، ولو كان كذلك لكانت الهلكة المبيرة.[2]...

ثم اعلم أنَّ أئمة المسلمين في صدر هذه الأمة، ما منهم إلا من قد نظر في جميع أمور المسلمين بما يُصلحهم في الخاصة والعامة، فلم يبلُغْنا أنَّ أحداً منهم أقام معلمين يعلمون للناس أولادهم من صغرهم من الكتاتيب، ويجعلون لهم على ذلك نصيباً من مال الله عَزَّوَجَلَّ، كما قد صنعوا لمن كلفوه القيام للمسلمين في النظر بينهم في أحكامهم،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦-٩٧.

والأذان لصلاتهم في مساجدهم مع سائر ما جعلوه حفظاً لأمور المسلمين، وحيطة عليهم، وما يمكن أن يكونوا أغفلوا شأن معلم الصبيان، ولكنَّهم -والله أعلم- رَأَوْا أنَّه شيء مما يختص أمرُه كلَّ إنسان في نفسه؛ إذ كان ما يعلِّمُه المرء لولده، فهو من صلاح نفسه المختص به، فأبقوه عملاً من عمل الآباء، الذي يكون لا ينبغي أن يحْمِلُه عنهم غيرهم إذا كانوا مطيقية، ولما ترك أئمة المسلمين النظر في هذا الأمر، وكان مما لا بد منه للمسلمين أن يفعلوه في أولادهم، ولا تطيب أنفسهم إلا على ذلك، واتخذوا لأولادهم معلماً يختص بهم، ويداومهم، ويرعاهم حسب ما يرعى المعلم صبيانه، وبَعُد أن يمكن أن يوجد من النَّاس من يتطوَّع للمسلمين فيعلِّم لهم أولادَهم ويحبس نفسَه عليهم، ويترك التماس معايشه، وتصرفه في مكاسبه، وفي سائر حاجياته، صَلُح للمسلمين أن يستأجروا من يكفيهم تعليم أولادهم، ويلازمهم لهم، ويكتفي بذلك عن تشاغله بغيره، ويكون هذا المعلم قد حمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم، ويبصرهم استقامة أحوالهم، وما يُنمي لهم من الخير أفهامهم، ويبعد الشر مآلهم.

وهذه عناية لا يكثر المتطوعون بها، ولو انتظر من يتطوع بمعالجة تعليم الصبيان القرآن لضاع كثير من الصبيان، ولما تعلم القرآن كثير من الناس، فتكون هي الضرورة القائدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تثبت أطفال المسلمين على الجهالة. فلا وجه لتضييق ما لم يأت فيه ضيق، ولا ثبت فيه عن الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يدل على التنزيه عنه.

ولقد ذكر الحارث بن مسكين في تاريخ سنة ثلاث وسبعين، أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت مالكاً يقول: كل من أدركت من أهل العلم لا يرى بأجر المعلمين، معلمي الكُتَّاب بأساً. ولابن وهب أيضاً في موطئه عن عبدالجبار بن عمر قال: كلُّ مَن سألتُ بالمدينة لا يرى لتعليم المعلمين بالأجر بأساً.[1]...

قال أبو الحسن: ولقد مرت بي حكاية تذكر عن ابن وهب أنه قال: كنت جالساً عند مالك فأقبل إليه مُعلِّمُ الكتاب، فقال له: يا أبا عبد الله إني رجل مؤدب الصبيان،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٨-٩٩.

وإنه بلغني شيء، فكرهت أن أشارط وقد امتنع الناس عليّ، وليس يعطونني كما كانوا يعطون وقد اضطررت بعيالي وليس لي حيلة إلا التعليم، فقال له مالك: اذهب وشارط، فانصرف الرجل، فقال له بعض جلسائه: يا أبا عبد الله تأمره أن يشترط على التعليم، فقال لهم مالك: نعم فمن يُمحِّط[1] لنا صبياننا؟ ومن يؤدبهم لنا؟ لولا المعلمون أيّ شيء كنَّا نكون نحن؟

ويشد ما في هذه الحكاية عن مالك ما ذكره ابن سحنون قال: حدثونا عن سفيان الثوري، عن العلاء بن السائب، قال: قال ابن مسعود: ثلاث لا بد للناس منهم، من أمير يحكم بينهم، ولولا ذلك لأكل بعضُهم بعضاً، ولا بد للناس من شراء المصاحف وبيعها، ولولا ذلك لبطل كتاب الله، ولا بد للناس من معلم يعلم أولادهم، ويأخذ على ذلك أجراً، ولولا ذاك كان الناس أميين.[2]...

فأما تعليم الفقه والفرائض يستأجر الرجل من يعلم ولده ذلك، فسئِل ابن القاسم عنه فقال: ما سمعتُ -يعني عن مالكٍ- فيه شيئاً، إلا أنه كره بيع كتب الفقه، فإنا نرى الإجارة على تعليم ذلك لا تعجبني والشرط على تعليمها أشَرُّ.

وأما ابنُ سحنون فذكر في كتابه قال: قال مالك: لا أرى أن يجوز إجارة من يعلم الفقه والفرائض، وقال لابنه: روى بعض أهل الأندلس أنه لا بأس بالإجارة على تعليم الفقه والفرائض والشعر والنحو، وهو مثل القرآن. فقال: كره ذلك مالك وأصحابنا، وكيف يُشبه القرآن، والقرآن له غاية يُنْتَهى إليها، وما ذكرت ليس له غاية يُنْتَهى إليها، فهذا مجهول، والفقه والعلم أمر قد اختلف فيه، والقرآن هو الحق الذي لا شك فيه، والفقه لا يُستظهر مثل القرآن، وهو لا يُشبهه، ولا غاية له، ولا أمد ينتهي إليه.

قال ابن حبيب: قلت لأصبغ: فكيف جوَّزتم الشرط على تعليم الشعر والنحو والرسائل، إذا لم تسموا لذلك أجلاً، وهو مما ليس له منتهى ينتهي منه إلى حد معروف. فقال لي: هو عندنا معروف بمنزلة الحناطة والخبز، وقد أجاز مالك الشرط

---

(١) يصلح.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠.

على تعليم الحناطة والخبز، وما أشبه ذلك من الصناعات، فإذا بلغ من ذلك مبلغ أهل العلم به من الناس وجب في ذلك حقه.

قال أبو الحسن: أما الاستئجار على تعليم الشعر لولده فقال فيه ابن القاسم: قال مالك: لا يعجبني هذا.

والذي اختلف فيه من قدمنا ذكره إنما هو في إفراد المعلم بالإجارة على تعليم غير القرآن والكتابة، فأما ما كان من معاني التقوية على القرآن، من الكتابة والخط، فما اختلفوا فيه.

ولقد ذكر ابن سحنون أنه ينبغي أن يعلمهم إعراب القرآن، ذاك لازم له، والشكل والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة، بالتوقيف والترتيل، يلزمه ذلك، ويلزمه أن يعلمهم ما علم من المقارئ الحسنة وهو مقرأ نافع، ولا بأس إن أقرأهم بغيره، إذا لم يكن مستشنعاً، ولا بأس أن يعلمهم الخطب إن أرادوا.

قال: ويعلمهم الأدب، فإنه من الواجب لله عليه، وهو من النصيحة لهم وحفظهم ورعايتهم، وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر، وكذلك قال مالك، حدثنا عنه عبد الرحمن. وقال: قال مالك: يُضربون عليها بنو عشر، ويُفرَّق بينهم في المضاجع، قلت: الذكور والإناث؟ قال: نعم.

قال: ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة؛ لأَنَّ ذلك من دينِهم، وعددَ ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير وكيف الجلوس، والإحرام، والسلام، وما يلزمهم في الصلاة، والتشهد والقنوت في الصبح، فإنه من سنة الصلاة، ومن واجب حقها. وليعلمهم الصلاة على الجنائز والدعاء عليها، فإنه من دينهم. وينبغي أن يعلِّمهم سنن الصلاة، مثل ركعتي الفجر، والوتر، وصلاة العيدين، والاستسقاء والخسوف، حتى يعلمهم دينهم الذي تَعبَّدهم الله به، وسنة نبيهم ﷺ.

وليتعاهدهم بتعليم الدعاء ليرغبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويعرفهم عظمته وجلاله، ليكبروا على ذلك، وإذا أجدب الناس واستسقى بهم الإمام فأحِبُّ للمعلم أن يخرج

منهم من يعرف الصلاة، ليبتهلوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويرغبوا إليه، فإنَّه بلغني أن قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم يتضرعون إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى بهم معهم، فرفع عنهم.

وينبغي أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يُشترط عليه ذلك، وكذلك الشعر، والغريب، والعربية، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع، ولا بأس أن يعلمهم الشعر، مما لا يكون فيه فحش، ومن كلام العرب وأخبارها وليس ذلك بواجب عليه، كل هذا عند سحنون لا بأس أن يعلمه الذي يعلم القرآن والكتاب يتطوع به، أو يُشترط عليه، فأما إقراره بالإجارة على تعليم هذه الأشياء ولم يكن القصد إلى تعليم القرآن والكتابة، فسحنون يأباه، كما تقدم عنه كل ذلك، لقول مالك في الإجارة على تعليم الشعر: لا يعجبني.[1]...

فافهم، فقد بيّنت لك وجوه جواز أخذ الإجارة على تعلّم القرآن، وما يجوز أن يعلَّم بالأجر، وما يُكرَه من ذلك للمعلم والمتعلم، وما اختلف أصحابنا فيه من كراهية له أو توسعة، ليستبين طالب الحلال ما يصفو له به الحال في أجرة التعليم، وما يَنْزَهُ منه ذو الورع من ذلك. وبيّنت لك ما ينبغي للمسلم أن يتعلمه أو يعلّمه ولدَه، وما يختلف من ذلك.[2]...

## الباب الثاني

### ذكر ما أردا بيانَه من سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم ورفقه بهم

وهل يستعين بهم فيما بينهم أو لنفسه، وهل يوليهم غيره إن احتاج إلى ذلك، وهل يشتغل مع غيره معهم أو يشتغل له، وكيف يرتب لهم أوقاتهم لدرسهم وكتابتهم، وكيف محوهم ألواحهم وأكتافهم، وأوقات بطالتهم لراحاتهم، وحد أدبه إياهم، وعلى من الآلة التي بها يؤدبهم، والمكان الذي فيه يعلمهم، وهل يكون ذلك في مسجد، وهل يشترك معلمان أو أكثر، وهل يدرس الصبيان في حزب واحد مجتمعين، وهل يـَمَسُّون

(١) المرجع السابق، ص١١٠-١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.

المصحف وهم على غير طهر، ويعلّمون الوضوء لمس المصحف، ويصلون في جماعة يؤمهم أحدهم؟

قال أبو الحسن: قد تقدم من بيان ما يجيزه الشرط لمعلم الصبيان على آبائهم من إجارتهم، وما على المعلمين أن يعلِّمُوه الصبيان، وما لا ينبغي أن يُعلموه لهم ما فيه الكفاية. فالواجب على المعلم الاجتهاد حتى يوفي ما يجب عليه للصبيان، فإن وفّى ذلك يطيب له ما يأخذه على التعليم بشرط، وليعلم أنَّه إن فرّط في وفاء ما عليه، أنه لا يجب له ولا يطيب له ما يأخذ من ذلك؛ لأَنَّ الذين أجازوا له شرط الإجارة، بيّنوا له ما يجب عليه، فإن خالف ما بيّنوا له لم يُطيبوا له ما أخذ بشرطه. فليس يجد إلى من يستند من العلماء في جواز ما فعل من التفريط، لما في الأخذ على تعليم القرآن من الخلاف الذي قدمنا التعريض به.

وبعدُ، فإنَّ التزامه لما التزم من هذا يدخل في العقود التي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوفائها، ونظره فيمن التزم النظر له من الصبيان رعاية يدخل بها في قول الرسول ﷺ: كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته.[1]...

ومِن حُسْنِ رعايته لهم أن يكون بهم رفيقاً، فإنَّه قد جاء عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "اللهم من ولي مِن أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفُقْ به." [صحيح البخاري]. وقد قال رسول الله ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء." [صحيح البخاري].

قال أبو الحسن: فقولك: هل يُستَحبُّ للمعلم التشديد على الصبيان؟ أو ترى أن يرفق بهم ولا يكون عبوساً؛ لأَنَّ الأطفال كما علمت تدخل في هذه الوصية المتقدمة، ولكن إذا أحسن المعلم القيام وعُنِيَ بالرعاية وضع الأمور مواضعها؛ لأنه هو المأخوذ بأدبهم، والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم، والقائم بإكرامهم على مثل منافعهم، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم، ولا من رحمته

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧.

إيَّاهم. فإنَّما هو لهم عوض من آبائهم، فكونه عبوساً أبداً من الفظاظة الممقوتة، ويستأنس الصبيان بها فيجرؤون عليه، ولكنه إذا استعملها عند استئهالهم الأدبَ، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم، فلم يأنسوا إليها، فيكون فيها إذا استعملت أدباً لهم في بعض الأحايين دون الضرب، وفي بعض الأحايين يوقع الضرب معها، بقدر الاستئهال الواجب في ذلك الجرم، ولكن ينبغي له ألا يتبسط إليهم تبسّط الاستئناس من غير تقبض موحش في كل الأحايين، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ولا يبتسم في وجهه، وإن أرضاه وأرجاه على ما يجب، ولكنه لا يغضب عليه فيوحِشُه إذا كان محسناً.

وإذا استأهل الضرب فاعلم أنَّ الضرب من واحدة إلى ثلاثة، فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبة فوق استئهالها، وهذا هو أدبه إذا فرَّط، فتثاقل عن الإقبال على العلم، فتباطأ في حفظه، أو أكثر الخطأ في حزبه، أو في كتابة لوحِه، من نقص حروفه، وسوء تَهَجِّيه، وقُبح شكله، وغلطه في نَقْطه، فنُبِّه مرّة بعد مرة، فأكثر التغافل ولم يُغْنِ فيه العذل، والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد، من غير شتم ولا سبٍّ لعرض، كقول من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقاً فيقول: يا مسخ يا قرد، فلا يفعل هذا ولا ما كان مثله في القبح، فإن قلت له واحدة، فلتستغفر الله منها، ولْتَنْتَهِ عن معاودتها، وإنما يجري الألفاظ القبيحة من لسان التقيِّ تَمَكُّن الغضب من نفسه، وليس هذا مكان الغضب. وقد نهى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقضي القاضي وهو غضبان، وأَمر عمرُ بنُ عبد العزيز رحمة الله عليه بضرب إنسانٍ فلما أقيم للضرب قال: اتركوه، فقيل له في ذلك، فقال: وجدتُ نفسي عليه غضباً، فكرهت أن أضربه وأنا غضبان.[1]

قال أبو الحسن: كذا ينبغي لمعلم الأطفال أن يراعي منهم حتى يُخْلِص أدبَهم لمنافعهم، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه، ولا شيء يريح قلبه من غيظه، فإن ذلك إن أصابه فإنما ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه، وهذا ليس من العدل. فإن اكتسب الصبي جرماً من أذى ولعب، وهروبٍ من الكُتَّاب، وإدمانِ البطالة فينبغي للمعلم أن يستشير أباه، أو وصيَّه إن كان يتيماً، ويُعْلِمُه إذا كان يستأهل من الأدب

(١) المرجع السابق، ص١٢٧.

فوق الثلاث، فتكون الزيادة على ما يوجبه التقصير في التعليم عن إذن من القائم بأمر هذا الصبي، ثم يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر، إذا كان الصبي يطيق ذلك.

وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم إلى التأثير المشنع أو الوهْن الـمُضِرِّ، وربَّما كان من صبيان المعلم من يناهز الاحتلام، ويكون سيء الرعية غليظ الخلق، لا يريعه وقوع عشر ضربات عليه ويرى للزيادة عليه مكاناً وفيه محتمل مأمون، فلا بأس إن شاء الله من الزيادة على العشر ضربات، والله يعلم المفسد من المصلح، وإنما هي أعراض المسلمين وأبشارهم فلا يتهاون فيها بنيلها بغير الحق الواجب، ولْيَلِ أدبهم بنفسه فقد أحب سحنون ألا يولي أحداً من الصبيان الضرب.

قال أبو الحسن: ونِعْمَ ما أحبَّ سحنون من ذلك، من قِبَل أنَّ الصبيان تجري بينهم الحمية والمنازعة، فقد يتجاوز الصبي المطيق فيما يؤلم المضروب، فإن أمن المعلم التقي من ذلك، وعلم أنَّ المتولي للضرب لا يتجاوز فيه، وَسِعَهُ ذلك إن كان له عذر في تخلفه عن ولاية ذلك بنفسه، وليتجنب أن يضرب رأس الصبي أو وجهه، فإنَّ سحنون قال فيه: لا يجوز له أن يضربه به، وضرر الضرب فيهما بيّن، وقد يوهن الدماغ، أو يطرف العين، أو يؤثر أثراً قبيحاً فليُجتَنبا، فالضرب في الرجلين آمن، وأحمل للألم في سلامة. ومن رفقه بالصبيان أنَّ الصبي إذا أُرسل وراءه، ليتغذى فيأذن له ولا يمنعه من طعامه وشرابه، ويأخذ عليه في سرعة الرجوع إذا فرغ من طعامه.[1]

**العدل بين الصبيان:**

ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم، ولا يفضل بعضهم على بعض، وإن تفاضلوا في الجُعل، وإن كان بعضهم يكرمه بالهدايا والأرفاق، إلا أن يفضل من أحب تفضيله في ساعة راحاته، بعد تفرغه من العدل بينهم، وذلك من قِبَل أنَّ القليلَ الجُعْلِ إنَّما رضي أن يؤدي أداءه ذلك على إتمام تعليم ولده، كما شرط الرفيع الجُعل، إلا أن يبين المعلم لآباء الصبيان أنه يفاضل بينهم على قدر ما يصل إليه من العطاء من كل واحد منهم، فيرضوا له بذلك، فيجوز له، وعليه أن يفي بما التزم من قدر ذلك.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٩- ١٣٠.

**عدم الخلط بين الذكران والإناث في مجلس التعليم:**

ومن صلاحهم ومن حسن النظر لهم، ألا يخلط بين الذكران والإناث. وقد قال سحنون: أكره لمعلمٍ أنْ يُعلِّم الجواري، ويخلطهن مع الغلمان؛ لأَنَّ ذلك فسادٌ لهن.

قال أبو الحسن: وإنه ينبغي للمعلم أن يحترس الصبيان بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده، يناهز الاحتلام، أو يكون له جرأة.[1]...

**محو الألواح:**

وأما ما يصنعه الصبيان من محو ألواحهم وأكتافهم، فذكر ابن سحنون فيه عن أنس بن مالك بإسنادٍ ليس هو من رواية سحنون، قال: إذا محت صبيةٌ الكتابَ تنزيلُ ربِّ العالمين بأرجلهم، نبذَ المعلمُ إسلامَه خلْف ظهرِه، ثم لم يبال حين يلقى الله على ما يلقاه عليه.

قيل لأنس: كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ قال أنس: كان المؤدب له إنجانةٌ،[2] وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماء طاهراً فيصبه فيها، فيمحون به ألواحهم، قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف.

قال محمد: قلت لسحنون: فترى أن يُلعَط؟[3] قال: لا بأس به، ولا يُمسح بالرجل، ويُمسح بالمنديل، وما أشبهه.

قلت له: فما تقول فيما يكتب الصبيان في الكتف من الرسائل؟ فقال: أمَّا ما كان من ذِكْر الله تعالى فلا يمحه برجله، ولا بأس أن يمحي غير ذلك مما ليس من القرآن. وقال محمد: وحدثني موسى، عن جابر بن منصور، قال: كان إبراهيم النخعي يقول: من المروءة أن يُرَى في ثوب الرجل وشفتَيْه مداد. قال محمد: وفي هذا دليل أنه لا بأس

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٠.

(٢) قصعة من الآنية.

(٣) يلعط اللوح؛ أي يمسح ما كتب عليه بلسانه.

أن يَلْعَطَ الكتابَ بلسانه. وكان سحنون ربما كتب الشيء ثم يلعطُه.[1]

**الإجازات والعطل:**

وأما بطالة الصبيان يوم الجمعة فقال سحنون: يأذن في يوم الجمعة، وذلك سنة المعلمين منذ كانوا، لم يَعِبْ ذلك عليهم، وذكر أنَّ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال في المعلم يُستأجر شهراً: له أن يتبطَّل يوم الجمعة، وما كان الناس قد عملوا به، وجَرَوْا عليه فهو كالشرط، وأما تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر فهو أيضاً يجري عُرْفَ الناس، إن كان قد عُرِفَ من شأن المعلمين فهو كما عرف من شأنهم في يوم الجمعة.

فأما بطالتهم يوم الخميس كله، فهذا بعيد، إنما دراسة الصبيان أحزابهم وعرضهم إيَّاه على معلميهم في عَشِيٍّ يوم الأربعاء، وغُدُوٍّ يوم الخميس إلى وقت الكتابة، والتخاير إلى قبل انقلابهم نصف النهار، ثم يعودون بعد صلاة الظهر للكتاب، والخيار إلى صلاة العصر، ثم ينصرفون إلى يوم السبت يُبكّرون فيه إلى معلميهم، وهذا حسن نافع رفيق بالصبيان، وبالمعلمين لا شطط فيه.

وكذلك بطالة الأعياد أيضاً على العرف المشتهر المتواطأ عليه، وقال ابن سحنون لأبيه: كم ترى أن يؤذن لهم في الأعياد؟ فقال: الفطر يوماً واحداً، ولا بأس أن يأذن لهم ثلاثة أيام، والأضحى ثلاثة أيام، ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام.

قال أبو الحسن: يريد ثلاثة أيام في الفطر، يوماً قبل العيد، ويوم العيد، فيوم ثانيه، وخمسة أيام في الأضحى، يوم قبل النحر، وثلاثة أيام النحر، واليوم الرابع هو آخر أيام التشريق، ثم يعودون إلى معلميهم، في اليوم الخامس من أيام النحر، وهذا وسط في الرفق.

وأما بطالة الصبيان من أجل الختم، فقيل لسحنون أيضاً: أترى للمعلم سعة في إذنه للصبيان اليوم ونحوه؟ قال: ما زال ذلك من عمل الناس مثل اليوم وبعضه، ولا يجوز له أن يأذن لهم أكثر من ذلك إلا بإذن آبائهم كلهم؛ لأنه أجير لهم.

قيل له: ربما أهدى الصبي إلى المعلم، أو أعطاه شيئاً فيأذن له على ذلك؟ فقال: لا،

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٤-١٣٥.

إنما الإذن في الختم اليوم ونحوه، وفي الأعياد، وأما في غير ذلك فلا يجوز له إلا بإذن الآباء، قال: ومن هاهنا أسقط شهادة أكثر المعلمين؛ لأنهم غير مؤدين لما يجب عليهم إلا من عصم الله.[1]

## الجزء الثالث

## بسم الله الرحمن الرحيم

...

وأما وصفك لما جرى عندكم من صنيع معلميكم إذا تزوج رجل أو وُلد له، فيبعثون صبيانهم فيصيحون عند بابه، ويقولون: أستاذنا بصوت عال فيُعْطون ما أحبوا من طعام، أو غير ذلك، فيأتون به معلمهم، فيأذن لهم يتبطلون بذلك نصف يوم أو ربع يوم، بغير أمر الآباء، فيكفيك ما سألت عنه قولُ سحنون: ولا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئاً من هدية أو غير ذلك، ويسألهم في ذلك، فإن أهدوا إليه على ذلك فهو حرام، إلا أن يهدوا إليه من غير مسألة، إلا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف، فإن لم يفعلوا فلا يضربهم في ذلك، وأما إن كان يهددهم في ذلك فلا يحل، أو يخليهم إذا أهدوا إليه فلا يحل له ذلك؛ لأَنَّ التخلية داعية إلى الهدية، وهو مكروه. فإذا كان هذا كما وصف سحنون فيما يأتي به الصبيان، فالذي سألت عنه أنت أشد وأكره، لعل صاحب التزويج، أو أبا المولود لا يُعطي ما يُعطي، إلا تقية من أذى المعلم، أو أذى صبيانه، أو من تقريع بعض الجهال فيصير المعلم من ذلك إلى أكل السحت، ولا يفعل هذا إلا معلم جاهل، فليوعظ فيه وليُنْه عنه ويُزجر، حتى يترك العمل الذي وصفت فإنه عمل الشيطان، وليس من عمل أهل القرآن.[2]

### تشاغل المعلم عن الصبيان

وأما سؤالك عما يُصرف المعلم الصبيان فيه، ويكلفهم إيَّاه، وهل يتشاغل هو عنهم بشيء، فإنَّ سحنون قال: سُئل مالك عن المعلم يجعل للصبيان عريفاً فقال: إن

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٥-١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠.

كان مثله في نفاذه، فقد سهّل في ذلك، إذا كان للصبي في ذاك منفعة، قال سحنون: ولا بأس أن يجعلهم يُـمْلي بعضهم على بعض؛ لأَنَّ ذلك منفعة لهم، وليتفقد إملاءهم، قيل له: فيأذن للصبي أن يكتب لأحد كتاباً؟ فقال: لا بأس به، وهذا مما يخرج الصبي إذا كتب الرسائل، قال: ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه، قيل له: فيرسل الصبيان بعضهم في طلب بعض؟ قال: لا أرى ذلك يجوز له، إلا أن يأذن أولياء الصبيان في ذلك، أو يكون الموضع قريباً، لا يشغل الصبيان في ذلك، وليتعاهد الصبيان هو بنفسه في وقت انقلاب الصبيان، ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا.[1]...

قال: ولا يجوز للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكونوا في وقت لا يعرضهم فيه، فلا بأس بأن يتحدث، وهو في ذلك ينظر إليهم يتفقدهم.[2]...

وكذلك إنْ مَرِضَ أو كان عليه شغل، فهو يستأجر لهم من يكون فيهم بمثل كفايته لهم، إذا لم تطل مدة ذلك، فإن طالت فلآباء الصبيان في ذلك نظر ومتكلم مِنْ قِبَلِ أنَّه هو المستأجر بعينه، فلا يصلح أن يُقيمَ عِوضاً منه إلا فيما قرب، فيستخلف إذا كانت الإجارة واجبة عليه.

كذلك إن هو سافر فأقام من يوفيهم كفايته لهم، إن كان سفراً لا بد منه، قريباً اليوم واليومين، وما أشبههما، فيستخلف ذلك إن شاء الله، وأما إن بعد أو خيف بَعْد القريب لما يعرض في الأسفار من الحوادث فلا يصلح له ذلك.[3]...

وأما سؤالك عمَّا يكلفه المعلم الصبيان أن يأتوه به من بيوت آبائهم يريد بغير إذن آبائهم، أو حمله الصبيان بغير تكليف من المعلم، وكان ذلك من الطعام أو غير الطعام وإن قل قدره من حطب أو غير ذلك، فهذا لا يحل للمعلمين أن يأمروا به، ولا أن يقبلوه إن أُتي به إليهم، وإن لم يأمروا به، إلا بإذن الآباء، ويسلم أيضاً من أن يكون ما أذن الآباء في ذلك على وجه الحياء وتقية اللائمة، وقد تقدم من قول سحنون في فصل

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٠ -١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص١٤١.

(٣) المرجع السابق، ص١٤١ -١٤٣.

ما يجوز من بطالتهم ما فيه الكفاية من سؤالك هذا، فافهم.

وشراء الدِّرة والفَلَقَة على المعلم ليس على الصبيان، وكذلك كراء الحانوت لمجلس التعليم، على المعلم يكون، كل ذلك لسحنون، وهو صواب.

وقال: إذا استُؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة معلومة، فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم.

قال أبو الحسن: وهذا صواب أيضاً؛ لأنهم هم أتو بالمعلم إليهم وأقعدوه لصبيانهم، وعلى هذا يعتدل الجواب.

وقال سحنون: وإذا استأجر الرجل معلماً على صبيان معلومين جاز للمعلم أن يُعلِّم معهم غيرهم، إذا كان لا يشغله ذلك عن تعليم هؤلاء الذين استُؤجر لهم، ومعنى هذا: إذا كان لم يشترط على المعلم أنه لا يزيد على العدة المذكورة له شيئاً، فأما إن اشترطوا عليه أن لا يزيد على العدة المذكورة له، أو شرطوا عليه ألا يخلط مع صبيانهم غيرهم، فليس له ذلك، وهذا هو جواب سؤالك عندي له.[1]

وأما تعليم الصبيان في المسجد فإن ابن القاسم قال: سُئل مالكٌ عن الرجل يأتي بالصبي إلى المسجد، أتستحب ذلك؟ قال: إن كان قد بلغ موضع الأدب، وعرف ذلك، ولا يعبث في المسجد فلا أرى بأساً، وإن كان صغيراً، ولا يقر فيه ويعبث فلا أحب ذلك، ولابن وهب عن مالك مثل معنى هذا، وأما سحنون فقال: وسُئل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد، فقال: لا أرى ذلك يجوز؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم يُنصَب المسجد للتعليم. قال أبو الحسن: جواب صحيح، وتَكَسُّب الدنيا في المسجد لا يصلح، ألم تسمع قول عطاء بن يسار للذي أراد أن يبيع سلعة في المسجد: عليك بسوق الدنيا، فإنما هذا سوق الآخرة، فلا يترك لمعلم الصبيان أن يجلس بهم في المسجد، وإن اضطر إلى ذلك بانهدام مكانه، فليتخذ مكاناً يعلم فيه إلى أن يصلح ما انهدم له، إن أحب.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٥.

واتخاذ المكان عليه، بيتاً كان أو حانوتاً، إلا أن يدعى إلى صبيان بأعيانهم فقد تقدم قول سحنون في كراء ذلك أنه على الصبيان، فإذ كان بيت المعلم لهم؛ إذ هم بأعيانهم فبناؤه عليهم، أو يتخذ مكاناً غيره، وليس على المعلم من ذلك شيء، إنما على المعلم المكان إذا كان يعلم لعامة الناس.

وأما شركة المعلِّمَين والثلاثة والأربعة فهي جائزة، إلا إذا كانوا في مكان واحد، وإن كان بعضهم أجود تعليماً من بعض؛ لأَنَّ لهم في ذلك ترافقاً وتعاوناً، ويمرض بعضهم فيكون السالم مكانه حتى يفيق، وإن كان بعضهم عربي القراءة يحسن التقويم، والآخر ليس كذلك، ولكنه ليس يلحن، فلا بأس بذلك.

قلت: ذلك على ما جاء عن مالك، وعن ابن القاسم في مُعلميْن اشتركا، وقد رُوي عن مالك أن ذلك لا يصلح حتى يستوي علمها، فلا يكون لأحدها فضل على صاحبه في علمه، فإن كان أحدهما أعلم من صاحبه لم يصلح، إلا أن يكون لأعلمها فضل من الكسب، يقدر عليه على صاحبه، وإلا لم يصلح.[1]...

## الباب الأول

## ذكر سؤاله عما تكون فيه الأحكام بين المعلمين والصبيان، وعن أدب الرجل زوجته وولده وعبدَه وشكواه ولدَ الكبير

قال أبو الحسن: قد قدمت لك من وصف ما يطيب للمعلمين، يأخذونه من المتعلمين، ومن وصف ما ليس لهم أخذه، وما يكون نزاهة لأهل الورع منهم، ما فيه الكفاية والبيان لما سألت عنه، وفيها ما يوجب لهم في شرطهم، فإن أراد منهم أحد ترك ما دخل فيه، أو اختلفوا في أمر وسعتهم الأحكام.[2]

وسألت عن الخَتْمَة متى تجب للمعلم، وعلى أي وجه تجب له، وكيف يكون حال الصبي في حفظه وقراءته وإجارته فيستوجبها المعلم؟ قال: ووجوب الختمة للمعلم

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٥ -١٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

فيما سألت عنه على وجهين:

أحدهما: أن يستظهر القرآن حفظاً من أوله إلى آخره، فهذا الذي تجب له الختمة على نظر حاكم المسلمين، المأمون على النظر في ذلك، وتكون على قدر يُسْرِ الأب وعُسره، وقدر ما فهمه الصبي، مما علَّمه المعلم، مع استظهاره القرآن، وليس في ذلك حد مُوقَّت، إنما هو ما يرى أنه هو الواجب في عادات الناس في مثل هذا المعلم، بمثل هذا الصبي وفي حال أبيه.

والوجه الآخر: أن يكون الصبي استكمل قراءة القرآن في المصحف نظراً لا يخفى عليه شيء من حروفه مع ما فهمه الصبي مما ينضاف إلى ذلك، من ضبط الهجاء، والشكل وحسن الخط، فيكون الاجتهاد في الواجب لمعلم هذا الصبي أيضاً، على قدر عادات الناس في أحوالهم، إلا أن المستظهر للحفظ مع ما صاحبه من حسن خط، وضبط شكل وهجاء، وإعراب قراءة، يكون في الاجتهاد أفضل جعلاً ممن لم يستظهر الحفظ، إنما قوي على تلاوة القرآن نظراً، وما نقص تعلم كل واحد منهما عما وصفت لك، كان الاجتهاد له فيما يجب من الجعل دون من استكمل ذلك، فعلى هذين الوجهين يُحمل ما يجب للمعلم على المتعلم إذا هو استكمل ختم القرآن.

وهذا إذا لم يكن شرط المعلم للختمة جُعْلاً مسمّى، فأما إن شرط ذلك كان له ما شرط إذا حذق الصبي الوجه الذي علم من ظاهر أو نظر، فإن نقَص تعلم الصبي مما علم به، نقص من الأجر المسمّى بمقدار ما نقص من تعلم الصبي، حتى ينتهي من نقص التعليم إلى أقل ما ينفعه، فيكون له بمقدار المنفعة التي له فيه. وإن كان لم يشترط للختمة شيئاً مُسمّى، حتى يكون للمعلم فيها إذا أحذقها الصبي الاجتهاد، فنقص حذق الصبي حتى ينتهي إلى مالا يسمى تعلماً، في إجادته، ومعرفته بالهجاء والشكل، والنظر في المصحف فبأي شيء ختم هذا؟

ما لهذا خِتْمة: يملي على الصبي فلا يتهجى، ويرى الحروف فلا يضبطها، ولا يستمر في قراءتها، معلم هذا قد فرَّط فيه، إن كان يحسن التعليم، وإن كان لا يحسن التعليم فقد غرر، ورأى العلماء أنَّ مثل هذا المعلم يستأهل الأدب لتفريطه فيما وليه،

وتهاونه بما التزمه، وأن يمنع من التعليم، وهو صواب، إذا كان شأنه التفريط أو الغرور بتعليمه وهو لا يحسن، ورأى بعضهم أنَّ هذا المعلم لا يستأهل الإلزام بل يستأهل اللوم، والتعنيف والغلظة والتأنيب من الإمام العدل.

فإن اعتذر المعلم بِبَلَهِ الصبي، واخْتُبِر الصبي فوُجِد لذلك لا يحفظ ما عُلِّم ولا يضبط ما فُهِّم، فلم يحصل لهذا المعلم إلا إجارة حَوْزِه وتأديبه، لا إجارة التعليم إذا لم يُعرِّف أباه بمكانه من فقد الفهم؛ لأنه لو عرَّف أباه فرضي له بشيء لزمه، فإذا لم يعرفه فقد غرَّه، والمغرِّر لا يستأهل على تغريره جُعلاً ولا إحساناً.[1]..

واعلم أنّي ما ذهبت إلى أن لا يُجعل للمعلم حصةٌ مما يوجب الاجتهاد في الختمة إذا كمُلت، إذا أخرج الصبيَّ أبوه، ولم يستكملها، وقد تعلّم منها شيئاً؛ لأنَّي رأيتُه من وجه الإجارة التي لم يُشترطْ لها غاية، فما نِيل منها كان عليه الواجب فيه، ولم يبطل عناءُ الأجير، وكذلك المجاعلة على الشيء الذي لم يشترط كماله إلزاماً، فعمل فيه العامل ما شاء ثم ترك. فإن كان لرب العمل فيما علم لمنفعة ينتفع بها وأدّى حصتها من الجعالة، فلم لا يكون المعلم الذي لم يستكمل تعليم الختمة هكذا؟ وهو لو علّم سورة واحدة لانتفع بها المتعلم، والمعلِّم لا يُعَلِّمُه حِسبةً. وإني لأرى رأيي بمنصوص قول مالك، قلتُ في ذلك: قال مالك في الذي يعلم الصبيان إنه إذا اشترط سنة أو سنتين فذلك له لازم، وإن لم يكن شرط مسمّى، فأراد أن يخرج أو يخرج عنه الصبي فله بقدر ما علّم. كذلك روى ابن القاسم وابن وهب من مالك في سماعيهما، وفي موطأ ابن وهب.[2]...

**أجرة المعلم عند رحيل القوم:**

وأما سؤالك عن معلم قوم نزل بهم ما اضطرهم إلى الرحيل فرحلوا، بعضهم إلى مكان، وبعضهم إلى مكان آخر، أو رحل بعضهم وثبت بعضهم في البلدة ما يصنع هذا المعلم؟

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٠.

فالجواب أن ينظر إلى ما عاقدهم هذا المعلم عليه، فإن كان إنما جلس على المشاهرة شهراً بشهر، أو سنة بسنة، فالحكم فيه أن يترك تعليمهم متى شاء، ويتركوه متى شاؤوا، والحكم بينهم فيما قد علَّم لهم، على ما قد بينا قبل هذا في الذي له أن يخرج ولده، ولا يُلتفت في هذا العقد إلى خروجهم كان بغَلَبَةٍ أو بغير غلبة، إنما للمعلم بقدر ما علَّم، رحلوا عنه، أو رحل عنهم.

ولو كان عقد معهم على سنةٍ بعينها أو أشهرٍ بأعينها، نظر فيما نزل بالقوم، فإن كان ما لا يجدون معه ثباتاً، ولا بد لهم من الرحيل عنه، لما نزل بهم من بلاء لا يطيقونه بفتنة أو مجاعة، فهم في رحيلهم معذورون، وليس عليه أن يتبعهم في الأسفار، ولم يستأجروه على ذلك، فإن رجعوا في بقية من المدة، رجع إليهم في تلك البقية، وسقط عنهم الأجر بحساب الأيام التي حيل فيها بينه وبينهم؛ لأنهم لم يمنعوه من السير معهم، ولا أمسكوا أولادهم عنه طوعاً، وليس عليهم أن يستكملوا له الأجر، وهو لم يستكمل عمل الأجل.

ولو كان قد حاسبهم عند رحيلهم وفاسخهم لم يلزمه إن رجعوا بقية من المدة، أن يرجع إليهم، وإن كان رحيلهم طوعاً، فليس لهم أن ينقصوا إجارته، فإن أحبوا الرحيل بأولادهم دفعوا إليه أجره كاملاً، وصنعوا ما شاؤوا، فإن رحل بعضهم متطوعين، وثبت بعضهم، فالحكم بينه وبين الراحلين كما تقدم في رحيل جميعهم متطوعين، ويلزمه وفاء الأجل للثابتين، ولو لم يثبت منهم إلا واحد؛ لأنه يأخذ أجره كاملاً، وتخف عنه مؤونة من غاب عنه ما دام غائباً.[1]

وأما إن كان رحيل من رحل عن قَهْرَةٍ غَلَبَتْهُ على ذلك فذهب بولده، فهو عندي عذر تنفسخ به الإجارة بينه وبين الراحلين، ويحاسبهم، ثم ينظر فيمن بقي ممن لم يرحل، فإن كانوا هم الأكثر، ولم ينتقص عليه ما يضر به، فهو يوفي الثابتين أَجَلَهم، وإن وجد من يعلمهم مكان الراحلين كان له ذلك؛ إذ لا مضرة على المقيمين في ذلك، وأما إن كان الراحلون هم الأكثر ولم يبق من المقيمين إلا من عليه في الثبات معهم

(١) المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٧.

المضرة البينة، فهو عندي عذر له، إن شاء أن يفاسخهم فعل، وإن شاء أن يثبت معهم فعل، وله إن وجد عوضاً من الراحلين فيعلمهم ولا يمنع من ذلك أيضاً.[1]...

**الأجرة إذا مات المعلم أو الصبي أو أبوه:**

وأمَّا إن مات المعلم فالإجارة منفسخة، لا يستأجر من ماله من يعلِّم مكانه، وله من الإجارة بحساب ما علّم من الأجل، ومن جعل الختمة بمقدار ما علّم من القرآن حسب ما تقدم تفسيره، وكذلك إذا مات الصبي سواءً، وإنَّما للمعلم من الإجارة بحساب ما علّم، وكذلك من جُعل الختمة. وأما إذا مات أبو الصبي فلا تنفسخ الإجارة، ولكن إن كان لم يقبض المعلم شيئاً فهو يأخذ من تركة الميت حساب ما مضى، وما بقي من الأجل فيما ينوبه، يؤخذ من مال الصبي إن كان له مال ورثه من أبيه، أو من غير ذلك، وإن كان لم يكن للصبي مال فللمعلم أن يفسخ الإجارة إلا أن يشاء أن يتطوع للصبي بذلك، ولا يتبعه بشيء رجاء أن يتيسر، هذا لا يُلزم الصبي، وإن أبى المعلم من التطوع فتطوع غيره من أولياء الصبي، أو من غيرهم، بأن يدفع ذلك للمعلم ثبتت الإجارة ولم تنفسخ. والله ولي التوفيق.[2]

**الضرب والعقاب:**

وأما سؤالك عما يتعدى به المعلم في ضرب الصبيِّ، فترقى إلى ما هو أكثر من الضربة، فهذا إنما يقع من المعلم الجافي الجاهل، وقد قدمت لك نهي المعلم عن ضرب الصبي وهو غضبان، والضرب على التعليم إنما هو لخطأ الصبيان، فما يصلح أن يضربهم به إنما هي الدرّة، وتكون أيضاً رطبة مأمونة، لئلا تؤثر أثر سوء، وقد أعلمت أنه يجتنب ضرب الرأس والوجه، فما لهذا يضرب بالعصا واللوح.

قال في كتاب ابن سحنون: سُئل مالك عن معلِّم لو ضرب صبياً ففقأ عينه، أو كسر يده، فقال: إن ضرب بالدرة على الأدب، وأصابه بعودها فكسر يده، أو فقأ عينه، فالدية على العاقلة، إذا فعل ما يجوز، فإن مات الصبي فالدية على العاقلة بالقسامة،

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٧-١٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٨-١٦٩.

وعليه الكفارة، فإن ضربه باللوح أو بعصاً فقتله فعليه القصاص؛ لأنه لم يؤذن له أن يضربه بعصا ولا بلوح.[1]...

وسألت هل يؤدب الرجل امرأته؟ فاعلم أنَّ أدبه إياها مأخوذ من كتاب الله، وذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: ٣٤] فكذلك كل شيء يجب عليها أن تطيعه فيه، إذا كان هو مؤدياً إليها حقوقها، وسالماً من ظلمها، فله أن يؤدبها عليه. وأدَبُهُ إيّاها يكون بقدر استئْهالها...

وأدبُه لابنه الصغير هو مأمور فيه حتىٰ يظهر منه الجفاء وسوء الخلق، فيزجر عنه. إنما السبيل في أدب من يريد صلاحَه أن يؤدِّبَه في غير عطب ولا حميّة؛ إذ هو ليس علىٰ باب العداوة. وكذلك عَبْدُه وأمتُه، إليه أدَبُهما، فيؤدب كل واحد منهما علىٰ قدر جرمه، أدباً عدلاً ليس لعدده حد يقتصر عليه، حتىٰ يظهر منه الظلمُ لعبده والعُتُوُّ عليه، فيرد عنه ويُنهىٰ. كما جاء: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله." قال الرسول ﷺ: "إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلّفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم."

وسألت عن الوالد يشكو ولده الكبير ويذكر عنه أنه يعُقُّه، ويعُقُّ أمَّه، فاعلم رحمك الله أنَّ الولد إذا احتلم وملك أمره، فقد ارتفع عنه نظر والده، وبقي علىٰ الولد حق الوالدين فعليه أن يوفيهما أو من كان معه منهما ما ألزمه الله عَزَّوَجَلَّ منهما، فإنه عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

فإذا رأيت والداً يشكو ولَده، فاقرأ علىٰ ولده القرآن وفهِّمْه ما عليه لوالده، في لين ورفق، لعلَّه يتذكر أو يخشىٰ، وحذِّره عقوق والديه، فإنَّ الرسول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عَدَّ

(١) المرجع السابق، ص١٧٠-١٧١.

عُقوق الوالدين مع الكبائر التي تُدخل النار، فأمَّا أن يؤخذ بقول والده، أو يحكم بذلك عليه فلا، ولكن إن كان والده من أهل الصلاح، ويؤمن منه أن يكون فيه انحراف لولد غيره، أو إلى زوجة له غير أمه، فيُعرَّف الولد أنَّ أباه لا يُتهم عندنا بالكذب، ولا سبيل إلى سوء الظن به فيك، وهو إن لم تجر عليك الأحكام بقوله، فإنَّ قوله فيك السوء يُزري بك، ويمقتك وينفّر عنك القلوب، وتُرى بعين الجهالة والسفه، فإن كان هذا الولد من أهل المروءة والقناعة فيُستنهى ويتأبخ ويُستشعر الصبرَ على والديْه، وإن كان من أهل السفه والجهالة والمَرادة نظر فيه حاكم المسلمين العدل بحسن النظر، وزجره عمَّا لم يقم به عليه بينة، إلا شكوى الأب، بعضَ الزجر، ورُبَّ والدٍ يكون السفه صفتَه وله الولدُ الحليم، فيعتو عليه والدُه بسَفَهه، فلا يُقبل منه، ولا يُطاع فيه، ويُزجر عنه حتى يكف أذاه، ولك في هذا الوصف مَقْنَعٌ مما سألت عنه إن شاء الله.[1]

**ذكر سؤاله عن قول الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: نُزِّل القرآن على سبعة أحرف:**

وسألت عن تفسير: أنزل القرآن على سبعة أحرف. فاعلم أنَّ المراد منه مفهوم في نصِّه، كما جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرَأُها عليه، وكان رسول الله ﷺ أقْرَأَنِيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرَأْتَنِها، فقال له رسول الله ﷺ: اقرأ، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ. فقال ﷺ: هكذا أنزلت، ثم قال لي: اقرأ، فقرأت، فقال: هكذا أنزلت. إنَّ هذا القرآن أُنْزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه. فبين ﷺ بقوله: فاقرؤوا ما تيسر منه إنها سبع قراءات، في كل واحدة منها ألفاظ مخالفة لما في الأخرى، فليقرأ كل امرئ بما تيسر منه من هذه السبعة. وقد تختلف الألفاظ في القراءة في كلمة، والمعنى فيها واحد. وقد تختلف المعاني فيها باختلاف الألفاظ في قراءتها.

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٤-١٧٧.

والقراءتان المشهورتان الثابتتان عمن نُسبتا إليه، من وجبت إمامته، وصحت ثقته بمنزلة الآيتين، عند حذاق المقرئين تُفسِّرُسس إحداهما الأخرىٰ، أو يخالف معناها معناها، فتكون إحداهما ناسخة للأخرىٰ، فلينشرح صدرك إلىٰ ما قرأ به أئمة المسلمين المشهورين، الذين سلم لهم أهل الأمصار الجامعة ما تقلَّدوه، وثِقوا بهم فيها فيما رَوَوْهُ، فما منهم إلا من قراءتُه حسنةٌ، مسلَّمٌ بها ويحتجُّ بها، ونكفُّ عن غيرهم، فإنه ليس لما جاء به قوة كقوتهم. وهؤلاء الأئمة هم: نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، إمام القرَّاء بالمدينة، وعبد الله بن كثير إمام القراء بمكة، وعبد الله بن عامر إمام القراء بالشام، وأبو عمرو بن العلاء إمام القراء بالبصرة. وثلاثة منهم بالكوفة وهم: عاصم بن أبي النجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي.[1]...

عصمنا الله وإياك من الفتنة في الدين، وأعاذنا من شر الفاتنين والمفترين، وختم لنا بما يُرضيه عنَّا، ليُميتَنا عليه، فيدخلَنا برحمته في عباده الصالحين، آمين رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله، بتاريخ ثامن عشر ذي القعدة سنة ست وسبعمائة.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٩-١٨١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨١.

## (٧)

# تَهْذِيبُ الأَخْلَاقِ وتَطْهِيرُ الأَعْرَاق

## مِسْكَوَيْه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (توفي: ٤٢٠هـ)

**معرفة النفس بترتيب تعليمي أساس تحصيل الأخلاق الجميلة:**

غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خُلُقاً تصدر به عنَّا الأفعال كلّها جميلةً، وتكون مع ذلك سهلةً علينا لا كلفةَ فيها ولا مشقّة، ويكونُ ذلك بصناعةٍ وعلى ترتيبٍ تعليمي.

والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي؟ وأي شيء هي؟ ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني كمالَـها وغايَتَها، وما قُوَاها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العَلِيَّة. وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يُزكِّيها فتُفلح، وما الذي يُدَسِّيها فتَخِيب. (ص ٢٣٣-٢٣٤)

فمن اتفق له في الصبا أن يُربَّـى على أدب الشريعة، ويُؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها، ثم يَنظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعوَّدَ صدقَ القول وصحة البرهان، فلا يسكن إلا إليها، ثم يتدرَّج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بـ "ترتيب السعادات ومنازل العلوم"، حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الإنسان، فهو السعيد الكامل، فليُكثر حمد الله تعالى على الموهبة العظيمة، والمنة الجسيم (ص ٢٨٣).

## الفصل السابع:

# كتاب "تهذيب الأخلاق" لمسكويه

## أولاً: التعريف بـ"مسكويه"

هو أبو علي، أحمد محمد بن يعقوب مسكويه، ولد في الريّ بالقرب من طهران سنة (٣٢٠هـ)، ولا يُعرف الكثير عن حياته في أول عمره، أو عن أساتذته، لكنه كان يذكر أنَّ والده شجعه على دراسة الأدب والشعر، على كُرْهٍ منه؛ إذ إنّه كان يرغب في دراسة الكيمياء، فتتلمذ فيها على أبي الطيب الكيميائي الرازي، وقرأ كتابات محمد بن زكريا الرازي، وجابر بن حيان، واهتم بالتاريخ، ودرس تاريخ الطبري على ابن كامل من أصحاب الطبري. ودرس علوم اليونان على ابن الخمار، وبرع فيها ولا سيما المنطق والطب. ويبدو أنَّ أبا حيان التوحيدي تتلمذ على مسكويه، كما يُستشف من خلال بعض كتابات التوحيدي التي ضمنها أجابات مسكويه على أسئلته، كما في "الهوامل والشوامل"، و"ماهية العدل"، و"مقالة في ماهية الكيمياء".

كانت الحقبة التي عاش فيها مسكويه ألمَعَ فترات التاريخ الإسلامي، من حيث تطوُّر العلم والفكر، وازدهرت المؤسسات العلمية، ونبغ كثير من العلماء في مختلف التخصصات، على الرغم من أنَّها حقبةُ ضعفٍ وتفكّكٍ سياسي، وانهيار أخلاقي. وقد انعكس ذلك على جهود مسكويه في تخصيص أهم كتبه لإصلاح المجتمع من خلال تطهير إصلاح النفوس والأخلاق.

مسكويه فيلسوف، ومؤرخ، وطبيب، وأديب. كانت له علاقات وثيقة مع العلماء والأدباء في عصره، ومنهم أبو سليمان السجستاني، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمداني، وابن سينا.

تبنَّى بعض أفكار أرسطو، لكنَّه تأثر بأفلاطون كذلك. وكان ينقل عن جالينوس وفيثاغورس، وغيرهما من فلاسفة اليونان. كما اهتم بفلسفة الكندي، والعامري، وأبي عثمان الدمشقي الطبيب. وكان مثل غيره من علماء المسلمين يستشهد بالقرآن الكريم،

والحديث النبوي.

**من مؤلفاته:** له مؤلفات كثيرة، منها: تجارب الأمم وتعاقب الهمم في التاريخ، وتهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق في فلسفة الأخلاق والحكمة العملية، وكتاب آداب العرب والفرس، والفوز الأصغر ويحتوي على ثلاث مسائل في الحكمة النظرية، وترتيب السعادات ومنازل العلوم وهو شرح لمراتب السعادة الثلاث، وتحديد دقيق لمراتب العلوم، وكتب في الطب منها الأدوية المفردة، والأشربة، والهوامل والشوامل فالهوامل هي أسئلة أبي حيان التوحيدي، والشوامل هي أجوبة مسكويه، وله كذلك في الكيمياء كتب منها: رسالة في الكيمياء، كتاب ذكر الحجر الأعظم، وله كتاب في الشعر يضم شعره بعنوان: المستوفي في الشعر، وغير ذلك.

عُرف بأبي علي الخازن؛ لأنه عمل خازناً لمكتبات عدد من الوزراء البُوَيْهِيِّين، ومساعداً لهم في الريّ وفي بغداد. وأمضى معظم سنوات حياته متنقلاً بين موطنه الريّ، وأصفهان، وبغداد، وشيراز، توفي في أصفهان عام (٤٢٠) للهجرة عن عمر يقارب مائة سنة.

## ثانياً: التعريف بـ"تهذيب الأخلاق"[١]

جاء نص مسكويه في هذا الكتاب بعد تجريده من هوامش التحقيق في حوالي ٣٥ ألف كلمة (١٣٠ صفحة). وتختلف موضوعات الكتاب عما ألفناه في مصنفات التراث التربوي الإسلامي، فلم ينشغل كثيراً في تفصيل آداب المعلم والمتعلم، وأنواع العلم وكتبه ومؤسساته. وإنما حدّد غاية الكتاب بصورة واضحة وهي: "أن نحصل لأنفسنا خُلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي". ويعبر عن أهمية مهنة التعليم بأنها أشرف الصناعات وأكملها؛ لأنها الصناعة التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم.

---

(١) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. **تهذيب الأخلاق**، دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، بغداد وبيروت: منشورات الجمل، ط١، ٢٠١١م.

يتألف الكتاب من مقدمة أوضح فيها غاية الكتاب وموضوعه، وست مقالات، هي: المقالة الأولى: في معنى النفس وتمييزها عن الجسد، والثانية: عن خلق الإنسان وقابليته للتهذيب والتربية، والمقالة الثالثة: عن الخير والسعادة التي يسعى الإنسان للحصول عليها، والرابعة: في العدالة وتمييز الأعمال الخلقية عن غيرها، والخامسة: في المحبة والصداقة، والسادسة: في الأمراض النفسية، والسابعة: في علاج النفس.

يَعدُّ بعض الباحثين مسكويه مثالاً على الفكر المدني الحرَّ الذي نهل من الفلسفات المختلفة، دون أن يتقيد بالمذهبية الإسلامية التقليدية التي تجعل القرآن الكريم، والسنة النبوية مرجعية لها. عند التأمل في نصوص الكتاب، سنجد المرجعية القرآنية والنبوية واضحة لا شِيَةَ فيها، لكنَّه بدلاً من أن يأتي بنص من القرآن أو الحديث، ثم ينطلق في الحديث عن موضوعه، يقوم بعكس ذلك، يتحدث عما يراه، ثم يستشهد بالنص. ومع ذلك فإنَّ استشهاده بمقولات الفلاسفة في تهذيب النفس يُعد في معظمه من القيم الإنسانية المشتركة التي لا يعد الاستشهاد بالضرورة انعطافاً عن المرجعية الإسلامية، بل كان في ذلك محاولة لما عرف في التراث الإسلامي بالجمع بين النقل والعقل.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الكتاب قد نال اهتمام عدد من الباحثين من المستشرقين والمسلمين، فتولوه بالدراسة والتحقيق والطباعة، وطبع مرات عدة بعنوان: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، نظراً لأَنَّ مسكويه أشار إلى الكتاب بهذا العنوان.

## ثالثاً: مختارات من كتاب "تهذيب الأخلاق"

### مقدمة[1]

اللهم إنّا نتوجه إليك ونسعى نحوك، ونجاهد نفوسنا في طاعتك، ونركب الصراط المستقيم، الذي نَهَجْتَهُ لنا إلى مرضاتك؛ فأعِنّا بقوتك واهدنا بعزّتك واعصمنا بقدرتك، وبلِّغْنا الدرجة العُليا برحمتك، والسعادة القصوى بجودك ورأفتك إنك على ما تشاء قدير.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٣.

**الغرض من تأليف الكتاب**

قال أحمد بن محمد مسكويه: غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خُلُقاً تصدر به عنَّا الأفعال كلّها جميلةً، وتكون مع ذلك سهلةً علينا لا كلفةَ فيها ولا مشقّة، ويكونُ ذلك بصناعةٍ وعلى ترتيبٍ تعليمي.

والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي؟ وأي شيء هي؟ ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني كمالَـها وغايَتَها، وما قُوَاها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العَلِيَّة. وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يُزكِّيها فتُفلح، وما الذي يُدَسِّيها فتَخِيب، فإنّه عَزّ مِن قائل يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ولـمَّا كان لكلِّ صناعة مبادئ عليها تبتني وبها تحصل، وكانت تلك المبادئ مأخوذة من صناعة أخرى، وليس في شيء من هذه الصناعات أن تبين مبادئ أنفسها، كان لها عُذرٌ واضح في ذكر مبادئ هذه الصناعة، على طريق الإجمال والإشارة بالقول الوجيز، وإن لم يكن مما قصدنا له. واتِّباعها بعد ذلك مما توخيناه من إصابة الخُلق الشريف الذي يشرِّف شرفاً ذاتياً حقيقياً، لا على طريق العرض الذي لا إثبات له ولا حقيقة، أعني المكتسب بالمال والمكاثرة، أو السلطان والمغالبة أو الاصطلاح والمواضعة.

فنقول وبالله التوفيق قولاً نبين به أنَّ فينا شيئاً ليس بجسم، ولا بجزء من جسم، ولا عَرَض، ولا محتاج في وجوده إلى قوة جسمية، بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس، ثم نبيّن ما مقصودنا منه الذي خلقنا له وندينا إليه فنقول:

## المقالة الأولى: النفس

## تعريف النفس الإنسانية

**مقدمة**[1]

إنَّا لـمَّا وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضادُّ أفعال الأجسام، وأجزاء الأجسام بحدّه

(١) المرجع السابق، ص٢٣٧.

وخواصّه، وله أيضاً تضادُّ أفعال الجسم وخواصه. حتّىٰ لا يشاركه في حال من الأحوال. وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادُّها كلها غاية المباينة.

ثم وجدنا هذه المباينة والمضادَّة منه للأجسام والأعراض إنَّما هي من حيث كانت الأجسام أجساماً والأعراض أعراضاً، حكمنا بأنَّ هذا الشيء ليس بجسم ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً، وذلك أنَّه لا يستحيل ولا يتغير. وأيضاً فإنَّه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كِلال ولا نقص.

**١ - النفس، ليست جسماً ولا جزءاً من جسم:**

**وبيان ذلك:** أنَّ كلَّ جسمٍ له صورة ما، فإنَّه ليس يقبل صورة أخرىٰ من جنس صورته الأولىٰ، إلا بعد مفارقته الصورة الأولىٰ مفارقة تامَّة.

**مثال ذلك:** أنَّ الجسم إذا قبل صورة وشكلاً من الأشكال كالتثليث مثلاً، فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرهما، إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أي شيء كان من الصور، فليس يقبل صورة أخرىٰ من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولىٰ وبطلانها البتة.[1]...

ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلَّها علىٰ اختلافها من المحسوسات والمعقولات علىٰ التمام والكمال، من غير مفارقة للأولىٰ ولا معاقبة ولا زوال رسم، بل يبقىٰ الرسم الأول تاماً كاملاً، وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاماً كاملاً.

ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يَرِدُ ويطرأ عليها من الصور، بل تزداد بالصورة الأولىٰ قوة علىٰ ما يرد عليها من الصورة الأخرىٰ.

وهذه الخاصة مضادَّةٌ لخواص الأجسام. ولهذه العلّة يزداد الإنسان فهماً كلّما ارتاض وتخرج في العلوم والآداب، فليست النفس إذن جسماً.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٨.

فأمَّا أنَّها ليست بعَرَض فقد تبين من قبل أنَّ العرض لا يحمل عرضاً؛ لأَنَّ العرض في نفسه محمول أبداً، موجود في غيره، لا قِوام له بذاته. وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله هو قابل أبداً حامل أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض.

**فإذن؛** النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عَرَضاً.[1]...

**٢- مراتب النفس:**[2]

والجسم يزداد بهذه الأشياء قوة ويستفيد منه تماماً وكمالاً؛ لأنَّها مادَّتُه وأسباب وجوده، فهو يفرح بها ويشتاق إليها من أجل أنَّها تتمِّم وجودَه وتزيد فيه وتَـمُدُّه. فأمَّا هذا المعنى الآخر، الذي سمّيناه نفساً، فإنَّه كلّما تباعد من هذه المعاني البدنية التي أحصيناها وتداخل إلى ذاته وتخلّى من الحواس بأكثر ما يمكن، ازداد قوة وتماماً وكمالاً، وتظهر له الآراء الصحيحة والمعقولات البسيطة. وهذا إذن، أدلُّ دليلٍ على أنَّ طباعه وجوهره من غير طباع الجسم والبدن، وأنَّه أكرمُ جوهراً وأفضلُ طِباعاً من كل ما في هذا العالم من الأمور الجسمانية.

وأيضاً فإنَّ تشوّقها إلى ما ليس من طباع البدن وحرصَها على معرفة حقائق الأمور الإلهية، وميلَها إلى الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسمية، وإيثارَها لها وانصرافَها عن الأمور واللذات الجسمانية، يدلُّنا دلالة واضحة أنَّها من جوهر أعلى وأكرم جداً من الأمور الجسمانية؛ لأنَّه لا يمكن في شيء من الأشياء أن يتشوّق ما ليس من طباعه وطبيعته، ولا أن ينصرف عمَّا يُكْمِل ذاتَه، ويقوِّم جوهره.

فإذن؛ كانت أفعال النفس إذا انصرفت إلى ذاتها فتركت الحواس مخالفة لأفعال البدن، ومضادة لها في محاولاتها وإراداتها، فلا محالة أنَّ جوهرها مفارقٌ لجوهر البدن ومخالفٌ له في طبعه، وأيضاً فإنَّ النفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس، فلها من نفسها مبادئ أُخر وأفعال، لا تأخذها عن الحواس البَتَّةَ، وهي المبادئ الشريفة العالية التي تنبني عليها القياسات الصحيحة، وذلك أنَّها إذا حكمت

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٩.

أنَّه ليس بين طرفي النقيض واسطة، فإنَّها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر؛ لأنَّه أوّلي، ولو أخذته من شيء آخر لم يكن أوليّاً.[1]...

## المقالة الثانية[2]

...

### ١٠- فائدة التماس الفضيلة واجتناب النقيصة:[3]

فإذاً يجب على العاقل أن يعرف ما ابْتُلي به الإنسان من هذه النقائص التي في جسمه، وحاجاته الضرورية إلى إزالتها وتكميلها، فأمَّا بالغذاء فالذي يحفظ به اعتدالَ مزاجه وقوامَ حياته، فينال منه قدر الضرورة في كماله. ولا يطلب اللذة لعينها، بل قوام الحياة التي تتبعه اللذة. فإن تجاوز ذلك قليلاً فبقدر ما يحفظ رتبته في مروءته، ولا يُنسب إلى الدناءة والبخل بحسب حاله ومرتبته بين الناس.

وأمَّا باللباس فالذي يدفع به أذى الحر والبرد ويستر العورة، فإن تجاوز ذلك فبقدر ما لا يُستحْقَر ولا يُنسب إلى الشحِّ على نفسه، وإلى أن يسقط بين أقرانه وأهل طبقته.

وأما بالجماع فالذي يحفظ نوعه وتبقى به صورته، أعني طلب النسل، فإن تجاوز ذلك فبقدر ما لا يخرج به عن السنة، ولا يتعدّى ما يملكه إلى ما يملك غيره.[4]

ثم يلتمس الفضيلة في نفسه العاقلة التي بها صار إنساناً، وينظر إلى النقائص التي في هذه النفس خاصة، فيروم تكميلها بطاقته وجهده، فإنَّ هذه الخيرات هي التي لا تُستر، وإذا وصل إليها لا يمنع عنها الحياء، ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات، ويتظاهر بها أبداً بين الناس وفي المحافل، وهي التي يكون بها بعض الناس أفضل من بعض، وبعضهم أكثر إنسانية من بعض، ويغذو هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨٢.

لنقصانها، كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها، فإنَّ غذاء هذه هو العلم والزيادة في المعقولات والارتياض بالصدق في الآراء، وقبول الحق حيث كان، ومع من كان، والنفور من الكذب والباطل كيف كان، ومن أين جاء.

فمن اتفق له في الصبا أن يُربىٰ علىٰ أدب الشريعة، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتىٰ يتعوَّدَها، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتىٰ تتأكَّدَ تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتىٰ يتعوَّدَ صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن إلا إليها، ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بـ"ترتيب السعادات ومنازل العلوم"، حتىٰ يبلغ إلىٰ أقصىٰ مرتبة الإنسان فهو السعيد الكامل، فليُكثر حمد الله تعالىٰ علىٰ الموهبة العظيمة والمنة الجسيمة.[1]

ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نُشوئه، ثم ابتلي بأن يربِّيه والداه علىٰ رواية الشعر الفاحش، وقبول أكاذيبه، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات، كما يوجد في شعر امرئ القيس والنابغة وأشباههما، ثم صار بعد ذلك إلىٰ رؤساءَ يقِرُّونه علىٰ روايتها، وقول مثلها، ويُجْزِلون له العَطِيَّةَ، وامتُحن بأقران يساعدونه علىٰ تناول اللذات الجسمانية، ومال طبعه إلىٰ الاستكثار من المطاعم والمشارب والمراكب والزينة وارتباط الخيل الفُرُهِ[2] والعبيد الروقة،[3] كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الأوقات، ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي هو أهل لها، فليَعُدَّ جميع ذلك شقاء لا نعيماً وخسراناً لا ربحاً، وليجتهد علىٰ التدريج إلىٰ فطام نفسه منها. وما أصعب ذلك إلا أنَّه علىٰ كل حال خيرٌ من التمادي في الباطل.

وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنِّني خاصة تدرجت إلىٰ فطام نفسي بعد الكِبَرِ واستحكام العادة، وجاهدْتُها جهاداً عظيماً، ورضيتُ لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيتُ لنفسي، بل تجاوزت في النصيحة لك إلىٰ أن

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٣.

(٢) الفره جمع فاره؛ أي جميل حسن.

(٣) الروقة جمع أروق؛ أي جميل الأسنان حسن الخلق.

أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري لتدركه أنت، ودلَلْتُك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة، وقدَّمْتُ لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك. فالله َ في نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد! استسلموا للحق، وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزور، وخذوا الحكمة البالغة، وانتهجوا الصراط المستقيم، وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها.[1]

**١١- الإنسان والملك والسبع والخنزير!**

واعلموا أنّ أصحَّ مثلٍ ضُرب لكم من نفوسكم الثلاث التي مرَّ ذكرها في المقالة الأولى: مَثَلُ ثلاثة حيوانات مختلفة جُمعت في مكان واحد، مَلِكٌ وسبع وخنزير، فأيها غلب بقوته قوة الباقين كان الحكم له. وليعلم من تصور هذا المثال أنَّ النفس لما كانت جوهراً غير جسم ولا شيء فيها من قوى الجسم وأعراضه، كما بيَّنا ذلك في صدر هذا الكتاب، كان اتحادها واتصالها بخلاف اتحاد الأجسام واتصال بعضها ببعض، وذلك أنَّ هذه الأنفس الثلاث إذا اتصلت صارت شيئاً واحداً، ومع أنَّها تكون شيئاً واحداً فهي باقية التغاير وباقية القوى، تثور الواحدة بعد الواحدة حتى كأنَّها لم تتصل بالأخرى، ولم تتَّحد بها، وتستجدي أيضاً الواحدة للأخرى، حتى كأنَّها غير موجودة ولا قوة لها تنفرد بها، وذلك أنَّ اتحادها ليس بأن تتصل نهايتها ولا بأن تتلاقى سطوحها، كما يكون ذلك في الأجسام، بل تصير في بعض الأحوال شيئاً واحداً، وفي بعض الأحوال أشياء مختلفة، بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن.

ولذلك قال قوم: إنَّ النفسَ واحدةٌ ولها قوى كثيرة، وقال آخرون: بل هي واحدة بالذات كثيرة بالعرض وبالموضوع، وهذا شيء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب، وسيمر بك في موضعه، وليس يضرك في هذا الوقت أن تعتقد أيَّ هذه الآراء شئت، بعد أن تعلم أنَّ بعض هذه كريمة أدبية بالطبع وبعضها مهينة عادمة للأدب بالطبع، وليس فيها استعداد لقبول الأدب، وبعضها عادمة للأدب، إلا أنها تقبل التأدب وتنقاد للتي هي أدبية.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٥.

أما الكريمة الأدبية بالطبع فالنفس الناطقة. وأما العادمة للأدب، وهي مع ذلك غير قابلة له فهي النفس البهيمية، وأما التي عدمت الأدب، ولكنها تقبله وتنقاد له، فهي النفس الغضبية، وإنَّما وهب الله تعالىٰ لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها علىٰ تقويم البهيمية التي لا تقبل الأدب.

وقد شبَّه القدماء الإنسان وحالَه في هذه الأنفس الثلاث بإنسانٍ راكب دابَّةً قوية ويقود كلباً أو فهداً للقنص، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذي يروِّضُ دابَّتَه وكلبَه يصَرِّفُهما ويُطِيعانِه في سيره وتصَيُّده وسائر تصرفاته، فلا شك في رغد العيش المشترك بين الثلاثة وحسن أحواله؛ لأَنَّ الإنسان يكون مرفَّهاً في مطالبه، يُجري فرسَه حيث يُحبُّ وكما يُحب، ويُطلق كلبَه أيضاً كذلك، فإذا نزل واستراح أراحهما معه، وأحسن القيام عليهما في المطعم والمشرب، وكفاية الأعداء وغير ذلك من مصالحهما. وإذا كانت البهيمية هي الغالبة ساءت حال الثلاثة، وكان الإنسان مضعوفاً عندهما فلم تُطِعْ فارسَها وغلبت. فإن رأت عُشباً من بعيد عَدَتْ نحوه وتعسَّفتْ في عَدْوِها وعدلت عن الطريق النهج، فاعترضتها الأودية والوهاد، والشوك والشجر، فتقَحَّمَتْها وتورَّطتْ فيها، ولحق فارسَها ما يلحق مثله في هذه الأحوال، فيصيبهم جميعاً من أنواع المكاره والإشراف علىٰ الهلكة ما لا خفاء فيه، وكذلك إن قوي الكلب لم يُطع صاحبَه، فإن رأىٰ من بعيد صيداً أو ما يظنه صيداً أخذ نحوه فجذب الفرس وفارسه، ولحق الجميع من الضر والضرر أضعاف ما ذكرناه.

وفي تصوّر هذا المثل الذي ضربه القدماء تنبيهٌ علىٰ حال هذه النفوس ودلالة علىٰ ما وهبه الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان ومكَّنَه منه، وعرضه له، وما يُضَيِّعُه بعصيان خالقه تعالىٰ فيه عند إهمال السياسة، واتِّباعه أمر هاتين القوتين، وتعبُّدِه لهما، وهما اللتان ينبغي أن تتبعاه بتأمُّره عليهما. فمن أسوأ حالاً ممن أهمل سياسة الله عَزَّوَجَلَّ وضيَّع نعمته عليه، ترك هذه القوىٰ فيه هائجة مضطربة تتغالب، وصار الرئيس منها مرؤوساً والملك منها مستعبداً يتقلب معها في المهالك، حتىٰ تتمزق ويتمزق معها هو أيضاً. نعوذ بالله من الانتكاس في الخلق الذي سببه طاعة الشيطان واتِّباع الأبالسة، فليست الإشارة بها إلىٰ

غير هذه القوىٰ التي وصفناها ووصفنا أحوالها. نسأل الله عصمته ومعونته علىٰ تهذيب هذه النفوس، حتىٰ ننتهي فيها إلىٰ طاعة الله، التي هي نهاية مصالحنا، وبها نجاتنا وخلاصنا إلىٰ الفوز الأكبر والنعيم السرمدي.[1]

**١٢- سياسة النفس العاقلة:**

وقد شبَّه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة وترك سلطان الشهوة يستولي عليها برجلٍ معه ياقوتةٌ حمراء شريفة لا قيمة لها من الذهب والفضة جلالةً ونفاسة. وكان بين يديه نار تضطرم فرماها في حباحبها حتىٰ صارت كِلْساً لا منفعة فيها فخسرت وخسر ضروب منافعها.

فقد علمنا الآن أنَّ النفس العاقلة إذا عرفت شرف نفسها، وأحست بمرتبتها من الله عَزَّوَجَلَّ أحسنت خلافته في ترتيب هذه القوىٰ وسياستها، ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالىٰ إلىٰ محلّها من كرامة الله تعالىٰ، ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع للسبعية ولا للبهيمة، بل تقوِّم النفس الغضبية التي سميناها سبعية، وتقودُها إلىٰ الأدب بِحَمْلها علىٰ حُسن طاعتها، ثم تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها إلىٰ الشهوات، حتىٰ تقمع بهذه سلطان تلك وتستخدمها في تأديبها، وتستعين بقوة هذه علىٰ تأبِّي تلك، وذلك أنَّ هذه النفس الغضبية قابلة للأدب، قويةٌ علىٰ قمع الأخرىٰ كما قلنا، وتلك النفس البهيمية عادمة للأدب غير قابلة له. وأمَّا النفس الناطقة، أعني العاقلة، فهي كما قال أفلاطون بهذه الألفاظ، أما هذه فبمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك فبمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع، فإنْ أنْتَ آثرت الفعل الجميل في وقت، وجاذبتك القوة الأخرىٰ إلىٰ اللذة، وإلىٰ خلاف ما آثرت، فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالأنفة والحمية، واقهر بها النفس البهيمية، فإنْ غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت، فأنت في طريق الصلاح، فتمم عزيمتك، واحذر أن تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك، فإن لم تفعل ذلك، ولم تكن العقبىٰ في الغلبة لك كنت كما قال الحكيم الأول:

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٥-٢٨٧.

"إني أرى أكثر الناس يدّعون محبة الأفعال الجميلة، ثم لا يحتملون المؤونة فيها على علمهم بفضلها، فيغلبهم الترفُّه ومحبة البطالة، فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الأفعال الجميلة فرق إذا لم يحتملوا مؤونة الصبر ويصيروا إلى تمام ما آثروه وعرفوا فضله، واذكر مثل البئر التي تردى فيها الأعمى والبصير فيكونان في الهلكة سواء، إلا أنَّ الأعمى أعذر."

ومن وصل من هذه الآداب إلى مرتبة يُعتدّ بها واكتسب بها الفضائل التي عددناها فقد وجب عليه تأديب غيره وإفاضة ما أعطاه الله على أبناء جنسه.[1]

**١٣- فصل في تأديب الأحداث والصبيان خاصة**

نقلتُ أكثره من كتاب بريسن[2]

قد قلنا فيما تقدم: إنَّ أوَّل قوة تظهر في الإنسان، وأوَّل ما يتكون هي القوة التي يشتاق بها إلى الغذاء، الذي هو سبب كونه حيًّاً، فيتحرك بالطبع إلى اللبن، ويلتمسه من الثدي الذي هو معدنه، من غير تعليم ولا توقيف، ويحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته، ودليله الذي يدل به على اللذة والأذى، ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أبداً إلى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات، ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها بالآلات التي تخلق له، ثم يحدث له الشوق إلى الأفعال التي تحصل له هذه، ثم يحدث له من الحواس قوة على تخيل الأمور، ويرتسم في قوته الخيالية مثالات فيتشوق إليها، ثم تظهر فيه قوة الغضب التي يشتاق بها إلى دفع ما يؤذيه، ومقاومة ما يمنعه من منافعه، فإن أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته انتقم منها، وإلا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء.

ثم يحدث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة أولاً أولاً، حتى يصير إلى كماله في هذا التمييز، فيسمى حينئذ عاقلاً.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) العنوان من المؤلف (مسكويه) وبريسن هذا مفكر وفيلسوف يوناني له كتاب مختصر كتاب الأخلاق لجالينوس، وكتاب آخر بعنوان: كتاب تأديب الأحداث والصبيان، ص٢٨٨.

وهذه القوىٰ كثيرة وبعضها ضروري في وجود الأخرىٰ، إلىٰ أن ينتهي إلىٰ الغاية الأخيرة، وهي التي لا تراد لغاية أخرىٰ، وهو الخير المطلق الذي يتشوقه الإنسان من حيث هو إنسان، فأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه، ولذلك قلنا: إنَّ أول ما ينبغي أن يُتفرس في الصبي، ويستدل به علىٰ عقله: الحياء، فإنه يدل علىٰ أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه، ويخاف أن يظهر منه أو فيه، فإذا نظرت إلىٰ الصبي فوجدته مستحيياً مطرقاً بطرفه إلىٰ الأرض، غير وقاح الوجه ولا محدق إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك علىٰ أنَّ نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه، وهذا ليس بشيء أكثر من إيثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل، وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا يجب أن تُهمل ولا تترك، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة، وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة، وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء إلىٰ شيء، فإذا نُقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها.[1]

**١٤- دستور تهذيب الأولاد[2]**

فالأوْلىٰ بمثل هذه النفس أن تُنَبَّه أبداً علىٰ حب الكرامة، ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال، وبلزوم سننه ووظائفه، ثم يمدح الأخيار عنده، ويمدح هو في نفسه إذا ظهر شيء جميل منه، ويخوّف من المذمة علىٰ أدنىٰ قبيح يظهر منه، ويؤاخذ باشتهائه للمآكل والمشارب والملابس الفاخرة، ويُزيَّن عنده خلف النفس والترفع عن الحرص في المآكل خاصة، وفي اللذات عامة.

ويحبب إليه إيثار غيره علىٰ نفسه بالغذاء والاقتصار علىٰ الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسه، ويعلم أنَّ أوْلىٰ الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزَيْنَّ للرجال، ثم العبيد والخول، وأنَّ الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٠.

أشبهه، حتىٰ إذا تربَّىٰ علىٰ ذلك، وسمعه من كل من يقرب منه وتكرر عليه، لم يترك مخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته، لا سيما من أترابه، ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه، وذلك أنَّ الصبي في ابتداء نشوئه يكون علىٰ الأكثر قبيحَ الأفعال، إمَّا كلَّها، وإمَّا أكثرها، فإنَّه يكون كذوباً يُخبر ويحكي ما لم يسمعه ولم يره، ويكون حسوداً سروقاً، نماماً لجوجاً ذا فضول، أضرّ شيء بنفسه وبكل أمر يلابسه، ثم لا يزال به التأديب والسنن والتجارب، حتىٰ ينتقل في أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤخذ ما دام طفلاً بما ذكرناه ونذكره. ثم يُطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرىٰ ما تعوده بالأدب، حتىٰ يتأكد عنده بروايتها وحفظها، والمذاكرة بها جميع ما قدمنا ذكره، ويحذر النظر في الأشعار السخيفة، وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضربٌ من الظرف، ورقة الطبع، فإنَّ هذا الباب مفسدة للأحداث جداً.

ثم يُمدح بكلِّ ما يظهر منه من خُلقٍ جميل وفِعل حسنٍ، ويُكرم عليه، فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته فالأوْلىٰ أن لا يوبَّخَ عليه، ولا يكاشف بأنَّه أقدم عليه، بل يُتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر علىٰ مثله ولا همَّ به، لا سيما إن ستره الصبي، واجتهد في أن يخفىٰ ما فعله عن الناس، فإن عاد فليُوبخ عليه سِراً، وليعظم عنده ما أتاه، ويحذر من معاودته، فإنَّك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته علىٰ الوقاحة، وحرّضته علىٰ معاودة ما كان استقبحه، وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو إليها نفسه، وهذه اللذات كثيرة جداً.

### ١٥- أدب المطاعم[1]

والذي ينبغي أن يبدأ به في تقويمها آداب المطاعم، فيفهم أولاً أنَّها إنَّما تراد للصحة لا للذة، وأنَّ الأغذية كلَّها إنَّما خُلقت وأعدت لنا لتصحَّ بها أبدانُنا وتصيرَ مادة لحياتنا، فهي تجري مجرىٰ الأدوية يداوي بها الجوع والألم الحادث منه، فكما أنَّ الدواء لا يراد للذة، ولا يُستكثر منه للشهوة، فكذلك الأطعمة لا ينبغي أن يتناول منها، إلا ما يحفظ صحة البدن، ويدفع ألم الجوع، ويمنع من المرض، فيحقَّر عنده قدرُ الطعام الذي

(١) المرجع السابق، ص٢٩١.

يستعظمه أهل الشَّرَهِ، ويُقبَّح عنده صورةُ من شَرِهَ إليه، وينال منه فوق حاجة بدنه أو ما لا يوافقه، حتىٰ يقتصر علىٰ لون واحد، ولا يرغب في الألوان الكثيرة.

وإذا جلس مع غيره لا يُبادر إلىٰ الطعام، ولا يديم النظر إلىٰ ألوانه، ولا يحدق إليه شديداً. ويقتصر علىٰ ما يليه، ولا يُسرع في الأكل، ولا يوالي بين اللقم بسرعة، ولا يعظم اللقمة، ولا يبتلعها حتىٰ يُجيد مضغَها، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، ولا يلحظ من يؤاكله، ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام، ويعوَّد أن يُؤثر غيره بما يليه، إن كان أفضل عنده، ثم يضبط شهوته حتىٰ يقتصر علىٰ أدنىٰ الطعام وأدونه، ويأكل الخبز القفار الذي لا أدم معه في بعض الأوقات.

وهذه الآداب وإن كانت جميلة بالفقراء، فهي بالأغنياء أفضل وأجمل.

وينبغي أن يستوفي غذاءه بالعشي، فإن استوفاه بالنهار كسل، واحتاج إلىٰ النوم وتبلد فهمه مع ذلك، وإن منع اللحم في أوقاته كان أنفع له وقعاً في الحركة والتيقظ وقلة البلادة، وبعَثَهُ علىٰ النشاط والخفة، وأما الحلواء والفاكهة فينبغي أن يمتنع منها ألبتَّةَ إن أمكن، وإلا فليتناول أقل ما يمكن، فإنَّها تستحيل في بدنه فتكثر انحلاله، وتعوده مع ذلك علىٰ الشَّرَهِ ومحبة الاستكثار من المآكل. ويُعَوَّدُ أن لا يشرب في خلال طعامه الماء، فأمَّا النبيذ وأصناف الأشربة المسكرة فإيَّاه وإيَّاها، فإنَّها تضره في بدنه ونفسه، وتحمله علىٰ سرعة الغضب والتهور والإقدام علىٰ القبائح والقِحَة[1] وسائر الخلال[2] المذمومة.

ولا ينبغي أن يحضر مجالس أهل الشرب إلا أن يكون أهل المجلس أدباء فضلاء، وأمَّا غيرُهم فلا، لئلا يسمع الكلام القبيح، والسخافات التي تجري فيه، وينبغي أن لا يأكل حتىٰ يفرغ من وظائف الآداب التي يتعملها، ويتعب تعباً كافياً. وينبغي أن يُمنع من كل فعل يستره ويخفيه، فإنَّه ليس يُخفِي شيئاً إلا وهو يظُنُّ أو يعلم أنَّه قبيح، ويُمنع من النوم الكثير فإنَّه يقبحه، ويغلظ ذهنه ويميت خاطره، هذا بالليل فأمَّا بالنهار فلا

(١) قلة الحياء.

(٢) الصفات.

ينبغي أن يتعوَّدَه ألبتَّةَ، ويُمنع أيضاً من الفراش الوطيء وجميع أنواع الترفُّه، حتىٰ يصلب بدنه ويتعود الخشونة، ولا يتعود الخيش والأسراب في الصيف، ولا الأوبار والنيران في الشتاء للأسباب التي ذكرناها، ويُعوّد المشي والحركة والركوب والرياضة حتىٰ لا يتعود أضدادها.

**١٦- أدب الملابس**[١]

ويُعوّد أن لا يكشف أطرافه، ولا يُسرع في المشي، ولا يُرخي يديه، بل يضمهما إلىٰ صدره، ولا يُربي شعره، ولا يَزَيَّنُ بملابس النساء، ولا يلبس خاتماً إلا وقت حاجته إليه، ولا يفتخر علىٰ أقرانه بشيء مما يملكه والداه، ولا بشيء من مآكله وملابسه، وما يجري مجراها، بل يتواضع لكل أحد، ويُكرم كلَّ من عاشره، ولا يتوصل بشرف إن كان له أو سلطان من أهله، إن اتفق له إلىٰ غضب من هو دونه، أو استهداء من لا يمكنه أن يرده عن هواه، أو تطاوله عليه، كمن اتفق له إن كان خاله وزيراً أو عمه سلطاناً، فتطرق به إلىٰ هضيمة أقرانه، وثلم إخوانه، واستباحة أموال جيرانه ومعارفه.

**أدب المجالس:**[٢]

وينبغي أن يعوّد علىٰ أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رِجلاً علىٰ رِجل، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده، ولا يعمد رأسه بيده، فإنَّ هذا دليلُ الكسل، وأنَّه قد بلغ به القبح إلىٰ أن لا يحمل رأسه حتىٰ يستعين بيده، ويعوّد أن لا يكذب، ولا يحلف ألبتَّةَ، لا صادقاً ولا كاذباً، فإنَّ هذا قبيح بالرجال، مع الحاجة إليه في بعض الأوقات، فأمَّا الصبيُّ فلا حاجة به إلىٰ اليمين، ويعوَّد أيضاً الصمت وقلة الكلام، وأن لا يتكلم إلا جواباً، وإذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه، والصمت له.

ويمنع من خبيث الكلام وهجينه، ومن السبِّ واللعن، ولغو القول، ويعوَّد حُسن الكلام وظريفه، وجميل اللقاء وكريمه، ولا يُرخّص له أن يستمع لأضدادها من

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٣.

غيره، ويعوَّد خدمة نفسه ومعلمه، وكلَّ من كان أكبر منه.

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين، وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع بأحد، فإن هذا فعل المماليك، ومن هو خوار ضعيف، ولا يعيِّر أحداً إلا بالقبيح والسيء من الأدب، ويعوَّد أن لا يوحش الصبيان، بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه، لئلا يتعوّد الربح على الصبيان، وعلى الصديق، ويبغض إليه الفضة والذهب، ويُحذَّر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعي، فإنَّ حبّ الفضة والذهب آفته أكثر من آفة السموم، وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً، ليستريح إليه من تعب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد، ويعوَّد طاعة والديه، ومعلميه ومؤدبيه، وأن يَنظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم.

وهذه الآداب النافعة للصبيان، وهي للكبار من الناس أيضاً نافعة، ولكنها للأحداث أنفع؛ لأنَّها تعوّدهم محبة الفضائل، وينشأون عليها، فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل، ويسهّل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة، وتحدُّه الشريعة والسنة، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها، والفكرِ الكثير فيها، وتسوقُهم إلى مرتبة الفلسفة العالية، وترقّيهم إلى معالي الأمور، التي وصفناها في أول الكتاب؛ من التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومجاورة الملائكة مع حُسن الحال في الدنيا، وطيب العيش وجميل الأُحدوثة، وقلة الأعداء، وكثرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة، فإذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه إلى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الأمور، فهِم أنَّ الغرض الأخير من هذه الأشياء التي يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك، إنَّما هو ترفيه البدن، وحفظ صحته، وأن يبقى على اعتداله مدةً ما، وأن لا يقع في الأمراض ولا تفجؤه المنية، وأن يهنأ بنعمة الله عليه، ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية، وأنَّ اللذات البدنية كلَّها في الحقيقة هي خلاص من آلام، وراحات من تعب.

فإذا عرف ذلك وتحقّقه، ثم تعوَّده بالسيرة الدائمة، عُوِّد الرياضات التي تحرك

الحرارة الغريزية، وتحفظ الصحة، وتنفي الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط وتذكّي النفس، فمن كان متمولاً مترفاً كانت هذه الأشياء التي رسمتها أصعب عليه، لكثرة من يحتف به ويغويه، ولموافقة طبيعة الإنسان في أول ما تنشأ هذه اللذات، وإجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منها، وطلب ما تعذَّر عليهم بغاية جهدهم، فأما الفقراء فالأمر عليهم أسهل، بل هم قريبون إلى الفضائل، قادرون عليها، متمكنون من نيلها، والإصابة منها، وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين.

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفاً عليهم من الأحوال التي ذكرناها، ومن سماع ما حذّرت منه، وكانوا يُنفذونهم مع ثقاتهم إلى النواحي البعيدة منهم، وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش، ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه، وأخبارهم في ذلك مشهورة، وكثير من رؤساء الديلم في زماننا هذا ينقلون أولادهم عندما ينشأون إلى بلادهم، ليتعودوا بها هذه الأخلاق، ويبعدوا عن التفتح وعادات البلدان الرديئة.

وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تأديب الأحداث فقد أُعرفك أضدادها، أعني أنَّ من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يُرجَ فلاحُه، ولا ينبغي له أن يُشتغل بصلاحه وتقويمه، فإنَّه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي الذي لا يُطمع في رياضته، فإنَّ نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية، ولنفسه الغضبية، فهي منهمكة في مطالبها من النزوات، وكما أنَّه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية التي لا تقبل التأديب، كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها، وأمعَنَ قليلاً في السن، اللهم إلا أن يكون في جميع أحواله عالماً بقُبح سيرته، ذاماً لها، عائباً على نفسه، عازماً على الإقلاع والإنابة، فإنَّ مثل هذا الإنسان من يُرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج، والرجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة، وبمصاحبة الأخيار وأهل الحكمة، وبالإكباب على التفلسف.[1]...

(١) المرجع السابق، ص٢٩٣-٢٩٥.

## ٢٢- مراتب الأفق الإنساني[١]

وأوَّل هذه المراتب من الأفق الإنساني المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب: كأواخر الترك من بلاد يأجوج ومأجوج، وأواخر الزنج وأشباههم من الأمم التي لا تميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة، ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل. وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عَزَّوَجَلَّ بالمحسوسات، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه في ما تقدم، حتى يصل إلى آخر أفقه، فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة، وهذا أعلى مرتبة الإنسان.

وعندها تتحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها، وهو الذي يسمى دائرة الوجود؛ لأَنَّ الدائرة هي التي قيل في حدها: إنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها، ودائرة الوجود هي المتأحدة التي جعلت الكثرة وحدة، وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على وحدانية موجدها وحكمته وقدرته ووجوده، تبارك اسمه تعالى جده، وتقدس ذكره.

ولولا أنَّ شرح هذا الموضوع لا يليق بصناعة تهذيب الأخلاق لشرحته وأنت تقف عليه إن بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله. وإذا تصورت قدراً ما أومأنا إليه وفهمته اطلعت على الحالة التي خلقت لها وندبت إليها، وعرفت الأفق الذي يتصل بأفقك، وتنقلك في مرتبة بعد مرتبة، وركوبك طبقاً عن طبق. وحدث لك الإيمان الصحيح، وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهاء، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكنونة التي مبدؤها تعلّم المنطق، فإنَّه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي، ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعها، ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية. وحينئذٍ تستعد لقبول مواهب الله عَزَّوَجَلَّ وعطاياه، فيأتيك الفيض الإلهي

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٩.

فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية، وتلحظ المرتبة التي ترقيت فيها أولاً فأولاً من مراتب الموجودات.

وعلمت أنَّ كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها في وجودها، وعلمت أنَّ الإنسان لم يتم له كماله، إلا بعد أن يحصل له ما قبله، وأنَّه إذا صار إنساناً كاملاً وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه، وصار حكيماً تاماً تأتيه الإلهامات في ما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية في التصورات العقلية. وإمَّا نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره، فيكون حينئذٍ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل، وذلك بتصوره حال الموجودات كلها، والحال التي ينتقل إليها من حال الإنسيّة، مطالعة الآفاق التي ذكرناها، وحينئذٍ يفهم عن الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وتصور معنى قول رسول الله ﷺ: هناك ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر.

وإذا بلغ بنا الكلام إلى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة التي أهّل الإنسان لها، ونسقنا أحواله التي يترقى فيها، وأنه يكون أولاً بالشوق إلى المعارف والعلوم فينبغي أن يزيد في بيانه وشرحه فنقول:

**٢٣- غاية الكمال والسعادة التامة:**[١]

إنّ هذا الشوق ربَّما ساق الإنسان على منهجٍ قويم وقصْدٍ صحيح، حتى ينتهي إلى غاية كماله، وهي سعادته التامة، وقلّما يتفق ذلك، وربما اعوَجَّ به عن السَّمْتِ[٢] والسُّنن، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها، ولا حاجة بك إلى علمها الآن وأنت في تهذيب خلقك. فكما أنَّ الطبيعة المدبرة للأجسام ربَّما شوقت إلى ما ليس بتمام للجسم الطبيعي، لِعِلَلٍ تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق إلى أكل الطين وما جرى مجراه مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده، كذلك أيضاً النفس الناطقة ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذي لا يكلّمها ولا يشوقها نحو سعادتها، بل يحركها إلى

(١) المرجع السابق، ص٣٠٢.

(٢) السمت: الطريق أو الحجة.

الأشياء التي تعوقها وتقصر بها عن كمالها، فحينئذٍ يحتاج إلى علاج نفساني روحاني، كما احتاج في الحالة الأولى إلى طب طبيعي جسماني.

ولذلك تكثر حاجات الناس على المقومين والمنفعين، وإلى المؤدبين والمسددين، فإنَّ وجود تلك الطبائع الفائقة التي تنساق بذاتها من غير تَوَفُّقٍ إلى السعادة عسرة الوجود، لا توجد إلا في الأزمنة الطوال والمدد البعيدة وهذا الأدب الحق الذي يؤدينا إلى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغاية، حتى إذا لحظت الغاية تدرج منها إلى الأمور الطبيعية على طريق التحليل، ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب، فيسلك فيها إلى أن ينتهي إلى الغاية التي لحظت أولاً: وهذا المعنى هو الذي أَحْوَجَنَا في مبدأ هذا الكتاب وفي فصول أخر منه أن نذكر أشياء عالية، لا تليق بهذه الصناعة ليتشوق إليها من يستحقها، وليس يمكن الإنسان أن يشتاق إلى ما لا يعرفه أَلْبَتَّةَ، فإذا لحظها من فيه قبول لها وعناية بها عرفها بعض المعرفة، فتشوقها وسعى نحوها واحتمل التعب والنصب فيها.

وينبغي أن يعلم كل إنسان مُعد نحو فضيلة ما، فهو إليها أقرب، وبالوصول إليها أحرى، ولذلك ما تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر إلا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة، فينتهي إلى غايات الأمور وإلى غاية غاياتها، أعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها، ولأجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التي تخصه، ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم بقسمين: أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية، والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية. وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الأخيرة على طريق التحليل، ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها. وإذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى. وانتهى بهم إلى تلك الغايات.[1]...

(١) المرجع السابق، ص٣٠٣.

## المقالة الثالثة[1]

...

**٨- شروط تحصيل السعادة:**[2]

وليس تحصل هذه المراتب التي يترقَّىٰ فيها صاحب السعادة التامة إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلَّها علماً صحيحاً، ويستوفيَها أولاً أولاً كما رتبناها في كتابنا المسمىٰ بترتيب السعادات. ومن ظنَّ من النَّاس أنَّه يصل إليها بغير تلك الطريقة وعلىٰ غير ذلك المنهج، فقد ظنَّ باطلاً وبَعُدَ عن الحق بعداً كثيراً. وليتذكر في هذا الموضع الخطأ العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة لتعطيل القوة العاملة وإهمالها، وبترك النظر الخاص بالعقل واكتفائهم بأعمال ليست مدنيّة، ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل. وقد سماهم قوم العاملة والناجية، ولذلك رتبنا هذا الكتاب عقب ذلك الكتاب، ليلحظ منهما السعادة الأخيرة المطلوبة بالحكمة البالغة، وتتهذب لها النفس وتتهيأ لقبولها غسلاً وتنقية من الأمور الطبيعية وشهوات الأبدان، ولذلك سميته أيضاً بكتاب الطهارة.

**وقد قال أرسطوطاليس في كتابه المسمىٰ بالأخلاق:**

"إنّ هذا الكتاب لا ينتفع به الأحداث كثيرَ منفعةٍ، ولا من هو في طبيعة الأحداث.قال: ولست أعني الحدث ها هنا حدث السن؛ لأَنَّ الزمان لا تأثير له في هذا المعنىٰ، وإنَّما أعني السيرة التي يقصدها أهل الشهوات واللذات الحسية."

**وأما أنا فأقول:** إنِّي ما ذكرت هذه المرتبة الأخيرة من السعادة طمعاً في وصول الأحداث إليها، بل ليمرّ علىٰ سمعهم فقط، وليعلم أنَّ هاهنا مرتبة حكمية لا يصل إليها إلا أهلها الأعلون مرتبة فحسب، فلْيلتمِس كلَّ من نظر في هذا الكتاب المرتبة الأولىٰ منها بالأخلاق التي وصفتها، فإن وفِّق بعد ذلك وأعانه الشوق الشديد والحرص التام وسائر ما ذكرناه ووصفناه عن الحكيم، فلْيَتَرَقَّ في درجة الحكمة

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٠.

وليتصاعد فيها بجهده، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُعينه ويُوفقه.

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة، ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة، وتجرد بنفسه اللطيفة التي عُنِيَ بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية، فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عَزَّوَجَلَّ إعداداً روحانياً، ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته، ولا شوق إليها؛ لأنَّه قد تطهَّر منها وتنزَّه عنها، ولم تبق إرادة لها ولا حرص عليها، وقد استخلصها للقاء رب العالمين، ولقبول كرامته وفيض نوره الذي كان غير مستعد له، ولا فيه قبول من عطائه. ويأتيه حينئذٍ الذي وعد به المتقون والأبرار كما سبق الإيماء إليه مراراً في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وفي قول النبي ﷺ: هناك ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر.

وإذا لخصنا أمر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى، فقد تبين بياناً كافياً أنَّ إحداهما بالإضافة إلينا أُولى والأخرى ثانية، ومن المحال أن نسلك إلى الثانية من غير أن نمر بالأولى؛ فقد وجب أن نعود إلى ما بدأنا به من ذكر الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة، ونستوفي الكلام فيها وفي الأخلاق التي بَيَّنَّا الكتاب عليها، ونخلي عن بيان الرتبة الثالثة إلى وقت آخر فنقول: إنَّ من عني ببعض القوى التي ذكرناها دون بعض أو تعمّد لإصلاحها في وقت دون وقت، لم تحصل له السعادة. وكذلك يكون حال الرجل في تدبير منزله إذا عني ببعض أجزائه دون بعض، أو في وقت دون وقت، فإنَّه لا يكون مدبر منزل. وكذلك حال مدبر المدينة إذا خص بنظره طائفة أو وقتاً دون وقت لم يستحق اسم الرياسة على الإطلاق وأرسطوطاليس تمثل بأن قال:

"إنّ الخطاف[1] الواحد إذا ظهر لا يدل على طبيعة الربيع، ولا يوم واحد معتدل الهواء يبشر بالربيع. فعلى طالب السعادة أن يطلب السيرة اللذيذة عنده فيسر بها دائماً، فإن تلك السيرة هي واحدة ولذيذة في نفسها، فلذلك قلنا إنه ينبغي أن يتشوقها دائماً ويثبت عليها أبداً."

(١) طائر من فصيلة السنونيات، أسود اللون يكثر ظهوره في الربيع.

ولما كانت السَّيَرُ ثلاثاً؛ لأنَّها تنقسم بانقسام الغايات الثلاث التي يقصدها الناس أعني: سيرة اللذة، وسيرة الكرامة، وسيرة الحكمة، وكانت سيرة الحكمة أشرفَها وأتمها، وكانت فضائل النفس كثيرة وجب أن يفضُلَ الإنسان بأفضلها ويشرُفَ بأشرفها، فسيرة الأفاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها لأَنَّ أفعالها أبداً مختارة وممدوحة، وكلُّ إنسان يلتذّ بما هو محبوب عنده؛ يلتذُّ بعدل العادل ويلتذ بحكمة الحكيم؛ فالأفعال الفاضلة والغايات التي ينتهي إليها بالفضائل لذيذةٌ محبوبة، فالسعادة ألذّ من كلِّ شيء، وأرسطوطاليس يقول:

"إنّ السعادة الإلهيّة وإن كانت كما ذكرناها من الشرف وسيرتها ألذ وأشرف من كل سيرة، فإنَّها محتاجة إلى السعادات الأخر الخارجة لِأنْ تظهر بها، وإلا كانت كامنة غير ظاهرة. وإذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل النائم الذي لا يظهر فعله، وحينئذٍ لا يكون بينه وبين غيره فرق كما وصفنا حالها في ما تقدم."[1]

**٩- لذّة العقل:**

فالمطلع، إذن، على حقيقة هذه السعادة المتمكّن من إظهار فعله بها هو الذي يلتذ بها، وهو الذي سُرَّ سروراً حقيقياً غير مُمَوّه ولا مزخرف بالباطل، وهو الذي يخرج من حدِّ المحبة إلى العشق والهَيَمان، وحينئذٍ يأنف أن يصير سلطانُه العالي يحبُّ سلطانَ بطنه وفرجه، فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه، وأعني بالسرور المزخرف بالأباطيل، اللذات التي تشركنا فيها الحيوانات التي ليست بناطقة، فإنَّ تلك اللذات حسية تنصرم وشيكاً...، فإذا دامت عليها صارت كريهة، وربما عادت مؤلمة.

وكما أنَّ للحس لذةً عرضية على حدة فكذلك للعقل لذةٌ ذاتية على حدة؛ لأَنَّ لذة العقل لذة ذاتية، ولذة الحس عرضية، فمن لا يعرف اللذة بالحقيقة كيف يلتذ بها، ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير إليها؟ فلذلك قدمنا وصفها وشوقنا إليها بإعادة الكلام فيها مراراً، وقلنا من لا يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة، ولا يعرف الحكمة

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٣.

العَمَليّة، يعني إيثار الأفضل والعمل به، والثبات عليه لا ينشط له، ولا يرتاح إليه.[1]...

**المقالة الخامسة**[2]

...

**١٠- محبة الحكماء:**[3]

وأمَّا محبَّة الحكماء فهي أشرف وأكرم من محبة الوالدين لأجل أنَّ تربيتهم هي لنفوسنا، وهم الأسباب في وجودنا الحقيقي، وبهم وصلنا إلى السعادة التامة التي نلنا بها اللقاء الأبدي والنعيم السرمدي في جوار رب العالمين.

فبحسب فضل أنعامهم علينا وبقدر فضل النفوس على الأبدان تجب حقوقهم وتلزم طاعتهم ومحبتهم، وليس يبلغ أحدٌ جزاءَ ولا مكافأةَ الأوَّلِ ولا ما يستأهله الثاني، أعني الوالدين، وإن هو اجتهد وبالغ، ولا يؤدي حقوقهما أبداً وإنْ خدم بأقصى طاقته وغاية وُسْعِه.[4]

**١١- محبة طالب الحكمة للحكيم:**

وأما محبة طالب الحكمة للحكيم والتلميذ الصالح للمعلم الخير، فإنَّها من جنس المحبة الأولى وفي طريقها، وذلك لأجل الخير العظيم الذي يشرف عليه ويصل إليه، وللرجاء الكريم الذي لا يتحقق إلا بعنايته ولا يتم إلا بمطالعته؛ ولأنَّه والد روحاني وربٌّ بشري وإحسانه إحسانٌ إلهي. وذلك أنَّه يربّيه بالفضيلة التامّة ويغذوه بالحكمة البالغة، ويسوقه إلى الحياة الأبدية في النعيم السرمدي، وإذا كان هو السبب في كل وجودنا العقلي وهو المربّي لنفوسنا الروحانية، فبحسب فضل النفس على البدن يجب أن يفضل المنعم بهذا على المنعم بذاك، وبقدر فضلها على البدن يكون فضل التربية على التربية، فيحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة محبة خالصة شبيهة بالمحبة الأولى. ولذلك

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٠- ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص٣٧١.

(٤) المرجع السابق، ص٣٧١.

قلنا إنَّ هذه المحبة من جنس تلك المحبة الأولىٰ، والطاعة له من جنس تلك الطاعة، وكذلك تعظيمه له وإجلاله إياه. ثم لما كان سبب هاتين النعمتين ومعرضنا لهما وسائقنا إليهما وإلىٰ جميع النعم، هو السبب الأول الذي هو سبب الخيرات كلها، قربت منا أو بعدت عنا عرفناها أو لم نعرفها، وجب أن تكون محبتنا له في أعلىٰ مراتب المحبات. وكذلك طاعتنا له وتمجيدنا إياه.

ويجب علىٰ من بلغ هذه المنزلة من الأخلاق أن يعرف مراتب الـمَحَبَّات، وما يستحقه كل واحد من صاحبه حتىٰ لا يبذل كرامة الوالد للرئيس الأجنبي، ولا كرامة الصديق للسلطان، ولا كرامة الولد للعشير، ولا كرامة الأب للابن، فإنَّ لكلّ واحد من هؤلاء وأشباههم صِنفاً من الكرامة وحقاً من الجزاء ليس للآخر، ومتىٰ خُلط فيه اضطَّربَ وفَسَدَ وحدثت الملامات. وإذا وَفّىٰ كلُّ واحد منهم حقَّه وقِسْطُه من المحبة والخدمة والنصيحة، كان عادلاً، وأَوْجَبَتْ له محبَّتُه وعدالتُه فيها محبَّتَه علىٰ صاحبه ومُعَامِلِهِ. وكذلك يجب أن يجريَ الأمر في مؤانسة الأصحاب والخلطاء، والمعاشرين من توفية حقوقهم وإعطائهم ما هو خاص بهم.

ومن غش المحبة والصداقة كان أسوأ حالاً ممن غش الدرهم والدينار، فإنَّ الحكيم ذكر أنَّ المحبة المغشوشة تنحَلُّ سريعاً وتفسُد وشيكاً، كما أنَّ الدرهم والدينار إذا كانا مغشوشين فسدا سريعاً، وهذا واجب في جميع أنواع المحبات، ولذلك يتعاطىٰ العاقل أبداً نمطاً واحداً ويلزم مذهباً واحداً في إرادة الخير، ويفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته، ويرىٰ خيره عند غيره كما يراه عند نفسه، وأمَّا صديقه فقد قلنا إنَّه هو هو، إلا أنَّه غيرُه بالشخص، أمَّا سائر مخالطيه ومعارفه فإنَّه يسلك بهم مسلك أصدقائه، كأنَّه مجتهد في أن يبلغ بهم وفيهم منازل الأصدقاء بالحقيقة، وإن كان لا يمكن ذلك في جميعهم، فهذه سيرة الرجل الخيِّر في نفسه وفي رؤسائه وأهله وعشيرته وأصدقائه وسلطانه.[1]

(١) المرجع السابق، ص٣٧٣.

**١٢- الشرير والخيّر:**

وأما الشرير فإنَّه يهرب من هذه السيرة وينفُر منها لرداءة الهيئة التي حصلت له، ولمحبته البطالة والتكاسل عن معرفة الخير والتمييز بينه وبين الشر، وبين ما هو مظنون عنده خيراً وليس بخير. ومن كان على هذه الحالة من الشر ورداءة الهيئة كانت أفعاله كلُّها رديئة وذاتُه رديئة، ومن كانت ذاته رديئة هرب من ذاته لأجل أنَّ الرداءة مهروب منها، واضطر إلى صحبته قوم يناسبونه ليفنِيَ عمرَه معهم، ويشتغل بهم عن ذاته وما يجده فيها من الاضطراب والقلق، وذلك أنَّ هؤلاء الأشرار إذا خَلوا بأنفسهم تذكروا أفعالهم الرديئة، وهاجت بهم القوى المتضادة التي تدعوهم إلى ارتكاب الشرور المتضادة، فيألمون من ذواتهم وتتشاغب نفوسهم أنواع الشغب وتجذبهم القوى التي فيهم وهي التي لم يُروِّضوها بالأدب الحقيقي إلى جهات مختلفة من اللذات الرديئة، وطلب الكرامات التي لا يستحقونها والشهوات الرديئة التي تهلكهم سريعاً.

فإذا جذبتهم هذه القوى إلى جهات مختلفة أحدثت فيهم آلاماً كثيرة؛ لأنَّه ليس يمكن أن يفرح ويحزن معاً، ولا يرضى ويسخط في حال واحدة، ولا يستطيع أن يؤلف بين الأضداد حتى تجتمع له، فهو في شقائه يهرب من ذاته؛ لأنَّها رديئة متألمة كثيرة الشغب عليه، ويلتمس لعشرته ومخالتطه من هو مثله أو أسوأ حالاً منه، فيجد للوقت راحة به وسكوناً إليه لأجل المشاكلة، ثم يعود بعد قليل وبالاً عليه، وزيادة في خباله وفساده، فيألم به ويهرب منه، فليس له محب ولا ذاتُه، ولا له نصيح ولا نفسُه، وليس يتحصل إلا على الندامة ولا يرجع إلا إلى الشقوة.[١]...

**١٧- شروط اتخاذ الصديق:**[٢]

والطريق إلى السلامة من هذا الخطر بحسب ما أخذناه عن سقراطيس: إذا أردنا أن نستفيد صديقاً أن نسأل عنه كيف كان في صباه مع والديه ومع إخوته وعشيرته، فإنَّ كان صالحاً معهم فارْجُ الصلاح منه، وإلا فابعد منه وإيّاك وإيّاه. قال: ثم اعرف

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨٠.

بعد ذلك سيرته مع أصدقائه قبلك، فأضفها إلى سيرته مع إخوته وآبائه، ثم تتبع أمره في شكر من يجب عليه شكره أو كفره النعمة، ولست أعني بالشكر المكافأة التي ربَّما عجز عنها بالفعل، ولكن ربَّما عطل نيته في الشكر فلا يكافئ بما يستطيع وبما يقدر عليه، ويغتنم الجميل الذي يسدى إليه ويراه حقاً له أو يتكاسل عن شكره باللسان. وليس أحدٌ يتعذّر عليه نشر النعمة التي تتولاه والثناء على صاحبها والاعتداد له بها، وليس شيء أشد احتياجاً للنقم من الكفر، وحسبك ما أعده الله لكافر نعمته من النقم مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر. ولا شيء مع استغنائه عن الشكر. فتعَرَّفْ هذا الخُلُق ممن تريد مؤاخاته.

واحذر أن تُبْتلى بالكافر للنعم المستحقر لأيادي الإخوان وإحسان السلطان.

ثم انظر إلى ميله إلى الرّاحات وتباطئه عن الحركة التي فيها أدنى نصب، فإنّ هذا خلق رديء ويتبعه الميل إلى اللذات، فيكون سبباً للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق. ثم انظر نظراً شافياً في محبته للذهب والفضة واستهانته بجمعهما وحرصه عليهما، فإنَّ كثيراً من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبّة ويتهادون ويتناصحون، فإذا وقعت بينهم معاملة في هذين الحجرين هرَّ بعضهم على بعض هرير الكلاب، وخرجوا إلى ضروب العداوة.

ثم انظر في محبته للرئاسة والتفريط، فإنَّ من أحب الغلبة والترؤس وإن يفرط لا ينصفك في المودّة ولا يرضى منك بمثل ما يعطيك ويحمله الخيلاء والتيه على الاستهانة بأصدقائه وطلب الترفع عليهم. وليس تتم مع ذلك مودة ولا غبطة، ولا بد من أن تؤول الحال بينهم إلى العداوة والأحقاد والأضغان الكثيرة.

ثم انظر هل هو ممن يستهزئ بالغناء واللحون وضروب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحيك، فإن كان كذلك فما أشغله عن مساعدات إخوانه ومواساتهم، وما أشد هُروبَه عن مكافأة بإحسان واحتمال النصب ودخول تحت جميل فيه مشقة، فإن وجدته بريئاً من هذه الخلال فلتحتفظ عليه ولترغب فيه، ولتكتفِ بواحد إن وجد فإنَّ الكمال عزيز.

وأيضاً فإنَّ من كثر أصدقاؤه لم يَفِ بحقوقهم، واضطر إلى الإغضاء عن بعض ما يجب عليه التقصير في بعضه، وربما ترادفت عليه أحوال متضادّة، أعني أن تدعوه مساعدة صديق إلى أن يسر بسروره ومساعدة آخر إلى أن يغتمَّ بغمّه، وأن يسعى بسعي واحد ويقعد بقعود آخر مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة. ولا ينبغي أن يحملك ما حضضتُك عليه من طلب الفضائل ممن تصادقه على تتبع صغار عيوبه، فتصير بذلك إلى أن لا يسلم لك أحد فتبقى خلواً من الصديق، بل يجب أن تغضي عن المعايب اليسيرة التي لا يسلم من مثلها البشر، وتنظر ما تجده في نفسك من عيب فتحتمل مثله من غيرك. واحذر عداوة من صادقته أو خاللته أو خالطته مخالطة الصديق، واسمع قول الشاعر:

عــدوُّك مــن صَــدِيقكَ مــستفادٌ ... فَــلا تَــستكثرنَّ مــن الــصِّحابِ
فــإنّ الــدّاءَ أكثــرُ مــا تــراهُ ... يكــونُ مــن الطعــام أو الــشرابِ

ولذلك يجب عليك متى حصل لك صديق أن تكثر مراعاتِه وتبالغ في تفقّده، ولا تستهين باليسير من حقّه عند مُهمٍ يعرض له أو حادث يحدث به، فأمَّا في أوقات الرخاء فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب، وأن تظهر له في عينك وحركاتك وفي هشاشتك وارتياحك، عند مشاهدته إيّاك، ما يزداد به في كلّ يوم وكلّ حالة ثقة بمودتك وسكوناً إلى غيبك، ويرى السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها إذا لقيك، فإنّ التحفي الشديد عند طلعة الصديق لا يخفي، وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل، ثم ينبغي أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنَّه يؤثره ويحبّه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية، وتثني عليهم من غير إسراف يخرج بكل إلى الـمَلَق[1] الذي يمقتك عليه، ويظهر له منك تكلف فيه، وإنما يتمُّ لكَ ذلك إذا توخّيت الصِدق في كل ما تثني به عليه.

والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توانٍ فيها بوجه من الوجوه وفي حال من الأحوال، فإنَّ ذلك يجلب المحبة الخالصة ويكسب الثقة التامّة، ويفيدك محبة الغرباء

(١) كثرة المدح إلى حدّ التملُّق.

ومن لا معرفة لك به. وكما أنَّ الحَمام إذا ألف بيوتنا وأنس لمجالسنا وطاف بها يجلب لنا أشكاله وأمثاله، فكذلك حال الإنسان إذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الآنس بنا، بل يزيد على الحيوان غير الناطق بحسن الوصف وجميل الثناء ونشر المحاسن.[1]

واعلم أنَّ مشاركة الصديق في السّراء إذا كنت فيها، وإن كانت واجبة عليك حتى لا تستأثرها ولا تختصّ بشيء منها، فإنَّ مشاركته في الضرّاء أوجب، وموقعها عنده أعظم. وانظر عند ذلك إن أصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر، كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك، وكيف يظهر له تفقّدك ومراعاتك. ولا تنتظرن به أنْ يسألك تصريحاً أو تعريضاً بل اطلع على قلبه واسبق إلى ما في نفسه وشاركه في مَضَضْ ما لحقه ليخف عنه. وإن بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس إخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول، وإنْ رأيت من بعضهم نُبُوّاً عنك، أو أنَّ نقصاً مما عهدته فداخله زيادة مداخلة، اختلط به واجتذبه إليك، فإنّك إن أنفت من ذلك أو تداخلك شيء من الكبر والصلف عليهم، انتقص حبل المودة وانتكثت قوّته، ومع ذلك فلست تأمن أن يزولوا عنك فتستحيي منهم وتضطر إلى قطيعتهم حتى لا تنظر إليهم، ثم حافظ على هذه الشروط بالمداومة عليها لتبقى المودة على حال واحدة.[2]

**١٨- مراعاة الصديق:**

وليس هذا الشرط خاصاً بالمودّة، بل هو مطرد في كل ما يخصّك، أعني أنَّ مركوبك وملبوسك ومنزلك متى لم تراعها مراعاة متّصلة فسدت وانتقضت، فإذا كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك، ومتى غفلت أو توانيت لم تأمن تقوضه وتهدمه، فكيف ترى أن تجفو من ترجوه لكل خير وتنتظر مشاركته في السرّاء والضرّاء؟ ومع ذلك فإن ضرر تلك يختص بك بمنفعة واحدة. وأمّا صديقك فوجوه الضّرر التي تدخل عليك بجفائه وانتقاض مودته كثيرة عظيمة، وذلك أنّه ينقلب عدواً وتتحوّل

(١) المرجع السابق، ص٣٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨٣.

منافعه مضار، فلا تأمن غوائله وعدوانه مع عدمك الرغائب والمنافع به، وينقطع رجاؤك في ما لا تجد له خلفاً عنه عوضاً ولا يسد مسدّه شيء، وإذا راعيت شروطه وحافظت عليها بالمداومة أمنت جميع ذلك، ثم احذر المراء معه خاصة وإن كان واجباً أن تحذره مع كل أحد، فإنّ مماراة الصديق تقتلع المودة من أصلها؛ لأنها سبب الاختلاف، والاختلاف سبب التباين الذي هربنا منه إلى ضده وقبّحنا أثره، واخترنا عليه الإلفة التي طلبناها وأثنينا عليها، وقلنا: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ دعا إليها بالشريعة القويمة.

وإنّي لأعرف من يؤثر الـمِراء ويزعم أنه يقدح خاطره ويشحذ ذهنه ويثير شُكُوكه، فهو يتعمّد في المحافل التي تجمع رؤساء أهل النظر، ومتعاطي العلوم مُماراة صديقه، ويخرج في كلامه معه إلى ألفاظ الجهّال من العامة وسقاطهم، ليزيد في خَجل صديقه وليظهر انقطاعه وتبلّجه، وليس يفعل ذلك عند خَلْوته به ومذاكرته له، وإنما يفعله حيث يظن به أنّه أدق نظراً أو أحضر حجة وأغزر علماً وأحدّ قريحة.

فما كنت أشبِّهُهُ إلا بأهل البغي وجبابرة أصحاب الأموال والمتشبّهين بهم من أهل البِدع، فإنَّ هؤلاء يستحقر بعضهم بعضاً، ولا يزال يصغّر بصاحبه ويزري على مروءته ويتطلّب عيوبه ويتتبّع عثراته، ويبالغ كل واحد في ما يقدر عليه من إساءة صاحبه حتى يؤدّي بهم الحال إلى العداوة التامة التي يكون معها السِعاية وإزالة النعم، وتجاوز ذلك إلى سَفك الدم وأنواع الشرور فكيف يثبت مع المِراء محبّة أو يُرجى له إلفة؟

ثم احذر في صديقك إن كنت متحققاً بعلم أو متحلّياً بأدب أن تَبخل عليه بذلك الفن، أو يرى فيك أنك تحب الاستبداد دونه والاستئثار عليه، فإنَّ أهل العلم لا يرى بعضهم في بعض ما يراه الدنيا بينهم، وذلك أنَّ متاع الدنيا قليل. فإذا تزاحم عليه قوم ثلم بعضهم حال بعضه، ونقض حظُّ كلِّ واحد من حظِّ الآخر. فأمَّا العلم فإنه بالضّد وليس أحد ينقص منه ما يأخذه غيره منه، بل يزكو على النفقة ويربو مع الصدقة، ويزيد على الإنفاق وكثرة الخَرج، فإذا بخل صاحب علم بعلمه فإنَّما ذلك لأحوال فيه كلّها قَبيحة، وهي أنَّه: إما أنْ يكون قليل البضاعة منه فهو يخاف أن يفنى ما عنده، أو يرد عليه ما لا يعرفه فيزول تشرفه عند الجهّال، وإمَّا أن يكون مكتسباً به فهو يخشى أن

يضيق مكسبه به وينقص حظه منه، وإما أن يكون حسوداً والحسود بعيد من كل فضيلة لا يودّه أحد.

وإنِّي لأعرف من لا يرضىٰ بأن يبخل بعلم نفسه حتىٰ يبخل بعلم غيره ويكثر عَتَبه وسَخَطه علىٰ من يفيد غيره من التلامذة المستحقّين لفائدة العلم، وأكثر ما يتوصل إلىٰ أخذ الكُتب من أصحابهم ثم يمنعهم منها. وهذا خلق لا تبقىٰ معه مودّة بل يجلب إلىٰ صاحبه عداوات لا يحسبها، ويحسم أطماع أصدقائه من صداقته.

ثم احذر أن تبسط إلىٰ أصحابك ومن يخلو بك من أتباعك أو تحمل أحداً منهم علىٰ ذكر شيء في نفسه، ولا ترخص في عيب شيء يتصل به فضلاً عن عيبه، ولا يطمعن أحدٌ في ذلك من أولي أسبابك والمتّصلين بك جداً ولا هزلاً، وكيف تحتمل ذلك فيه وأنت عينه وقلبه وخليفته علىٰ الناس كلهم؟ بل أنت هو فإنَّه إنْ بلغه شيء مما حذرتك منه لم يشك أنَّ ذلك كان عن رأيك وَهَواك، فينقلب عدواً وينفر عنك نفور الضد، فإن عَرفت منه أنت عيباً فوافقه عليه موافقة لطيفة ليس فيها غِلظة، فإنَّ الطبيب الرقيق ربّما بلغ بالدّاء اللطيف ما يبلغه غيره بالشق والقطع والكي، بل ربَّما توصل بالغذاء إلىٰ الشفاء واكتفىٰ به عن المعالجة بالدواء.[1]

ولستُ أحبّ أن تُغْضِي عمّا تعرفه في صديقك، وأن تترك موافقته عليه بهذا الضَرب من الموافقة. فإنّ ذلك خِيانة مِنك ومسامحة في ما يعود ضرره عليه، وليس مِن حقّ الصديق أنْ يعرف ويبذل لعيون الأضداد حتىٰ يُعيبوه ويثلبوه. ثم احذر النميمة وسماعها، وذلك أنَّ الأشرار يدخلون بين الأخيار في صورة النُصحاء. فيوهمونهم النصيحة، وينقلون إليهم في عرض الأحاديث اللذيذة أخبار محرفة مُموّهة، حتىٰ إذا تجاسروا عليهم بالحديث المختلق يُصرّحون لهم بما يفسد موادتهم، ويشوّه وجوه أصدقائهم إلىٰ أنْ يبغض بعضهم بعضاً، وللقدماء في هذا المعنىٰ كتب مؤلفة يحذرون فيها من النميمة، ويشبّهون صورة النمّام بمن يحك بأظافره أصول البنيان القوية حتىٰ يؤثّر فيها، ثم لا يزال يزيد ويمعن حتىٰ يدخل فيها المعول فيقلعه من أصله، ويضربون

(١) المرجع السابق، ص٣٨٥.

له الأمثال الكثيرة الشبيهة بحديث الثور مع الأسد في كتاب كليلة ودمنة.

ونحن نكتفي بهذا القدر من الإيماء لئلا نخرج عن رسم كتابنا، وعمّا بَنَيْنا عليه مذهبنا من الإيجاز مع الشرح، ولستُ أترك مع الإيجاز والاختصار تعظيم هذا الباب وتكريره عليك، لتعلم أنّ القدماء إنَّما ألّفوا فيه الكتب وضربوا له الأمثال، وأكثروا فيه من الوصايا لـمّا رأوه من النفع العظيم، عن السامعين من الأخيار، ولـمّا خالفوه من الضرر الكثير على من يستهين به من الإغمار، وليعلم أنّ المثل المضروب في السباع القوية إذا دخل عليها الثعلب الرَّواغ على ضعفه فأهلكها ودمّرها، وفي الملوك الحُصناء يدخل بينهم أهل النّميمة في صورة النّاصحين حتى يفسدوا نيّتهم على وزرائهم المبالغين في نصيحتهم، المجتهدين في تثبيت مُلكِهم وإيثارهم على آبائهم وأولادهم إلى أن لا يملأوا عُيونهم منهم، وإلى أن يبطشوا بهم قتلاً وتعذيباً وهم غير مذنبين ولا مجترمين ولا مستحقين إلا الكرامة والإحسان. وإذا بلغ بهم من الإفساد والإضرار لما بلغه من هؤلاء فكم بالحريِّ أن يبلغ منَّا إذا لم يجدوه في أصدقائنا الذين اخترناهم على الأيام، وادخرناهم للشدائد وأحللناهم محل أرواحنا وزدناهم تفضلاً وإكراماً.[1]...

**خاتمة المقالة السابعة[2]**

فينبغي للعاقل أن لا يفكر في الأشياء الضارة المؤلمة، وأن يقل القُنْيَة ما استطاع؛ إذ كان فقدها سبباً للأحزان. فقد حكي عن سقراط أنَّه سئل عن سبب نشاطه وقلة حزنه فقال: لا أقتني ما إذا فقدته حزنت عليه. وإذ قد ذكرنا أجناس الأمراض التي تخص النفس، وأشرنا إلى علاجاتها، ودللنا على أشفيتها، فليس يتعذر على العاقل المحب لنفسه، الساعي لها في ما يخلّصها من آلامها وينجيها من مهالكها أن يتصفح الأمراض التي تحت هذه الأجناس من أنواعها وأشخاصها، فيداوي نفسه منها، ويعالجها بمقابلاتها من العلاجات. والرغبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك في التوفيق، فإنَّ التوفيق مقرون بالاجتهاد، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣٥.

تمّ كتاب الطهارة في تهذيب النفس، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلواته على نبيِّه محمد وآله وسلَّم تسليماً كثيراً.

# (٨)
# كِتَابُ السِّيَاسَة

## أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (توفي: ٤٢٨هـ)

**الفروق الفردية في التعلم والعمل:**

وإذا فرَغَ الصبيُّ من تعلُّم القرآنِ، وحفظ أصول اللغةِ نظر عند ذلك إلىٰ ما يُراد أنْ تكون صناعتُه مُوجّهةً لطريقه، فإنْ أرادَ به الكتابة أضاف إلىٰ دراسة اللغة دراسة الرسائل والخُطب ومناقلات الناسِ، ومحاوراتهم، ... وإن أريد أُخرىٰ أخذ به فيها بعد أنْ يُعلم مدبّر الصبيِّ أن ليس كلُّ صناعةٍ يرومها الصبيُّ ممكنةً له مؤاتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبَه.....

فإذا خرجت عن هذه الطبقة إلىٰ طبقةٍ أخرىٰ، وجدتَ واحداً يختارُ علمَ الحسابِ، وآخرَ يختارُ علم الهندسة، وآخر يختارُ علمَ الطبِّ، وهكذا تجد سائر الطبقات، إذاً طبقة طبقة، حتىٰ تدورَ عليها جميعِها.

... فلذلك ينبغي لمدبِّر الصبيِّ إذا رام اختيارَ الصناعة أنْ يزنَ أولاً طبعَ الصبيِّ ويسبرَ قريحتَه، ويختبرَ ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسبِ ذلك، فإذا اختارَ له إحدىٰ الصناعات تعرَّف قَدْر ميلِه إليها، ورغبته فيها، ونظر هل جرت منه علىٰ عِرفان أم لا، وهل أدواته وآلاته مساعدةٌ له عليها، أم خاذلةٌ.

(ص ٨٦-٨٧)

**الفصل الثامن:**

# كتاب "السياسة" لابن سينا

## أولاً: التعريف بـ"ابن سينا"

هو الفيلسوف أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المعروف بالرئيس، صاحب التصانيف في الطب، والمنطق والطبيعيات والإلهيات. ولد في إحدىٰ قرىٰ بخارىٰ عام (٣٧٠هـ)، ونشأ وتعلم في بخارىٰ، ولما بلغ عشر سنين من عُمُره كان قد أتقن علوم القرآن، والأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، وحساب الهندسة والجبر والمقابلة، ثم جاء الحكيم أبو عبد الله النائلي، فأنْزله والد ابن سينا عنده، فابتدأ أبو علي يقرأ عليه كتاب إيساغوجي، وأحكم عليه علم المنطق وإقليدس والمجسطي وفاق ابن سينا أستاذه أضعافاً كثيرة، وكان مع ذلك يدرس الفقه علىٰ إسماعيل الزاهد. وانتفع بمصنفات الفارابي وكتبه، وطاف البلاد، وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، ثم انتقل إلىٰ أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه. وكان من أشهر تلاميذه أبو علي الجوزجاني.

تنَقَّل بين بخاري وهمذان وأصفهان وكثير من البلدان. وعاد في أواخر أيامه إلىٰ همذان، فمرض في الطريق، ومات بها سنة (٤٢٨هـ). تميزت الحقبة الزمنية التي عاش فيها ابن سينا بضعف الدولة العباسية، وما أصاب المجتمع من اضطرابات وتقلبات سياسية، وقيام الدويلات المتصارعة، وسقوط نفوذ البويهيين، وسيطرة السلاجقة علىٰ مفاصل الدولة.

تكلَّم كثيرون في عقيدة ابن سينا، وانتمائه لمعتقدات أبيه الذي يقول عنه ابن سينا في مقدمة كتاب السياسة، إنه: ممن أجاب داعي المصريين من الإسماعيلية (الفاطميين)، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل علىٰ الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم. وكذلك أخي. وكانوا ربَّما تذاكروا وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي.[1] وربما

---

(١) ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. **كتاب السياسة**، تقديم وضبط وتعليق: علي محمد إسبر، دمشق: بدايات للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م، ص٨.

كانت حياته العلمية الجادة في مجال الطب والفلك واللغة والفلسفة غلبت على اهتماماته الأخرى، فاكتفى في بعض مسائل الاعتقاد بما يقوله غيره من الفلاسفة، التي يرى جمهور العلماء أنها آراء شاذة، تشكك في صحة المعتقد بها.

صنف ابن سينا نحو مئة كتاب، بين مطوّل ومختصر، منها ما هو مطبوع. ومن كتبه في الحكمة والفلسفة كتاب اللواحق، والحاصل والمحصول، والإنصاف، والمجموع، والنجاة، والإشارات والتنبيهات، والحكمة المشرقية. وفي الإلهيات: الخطب التوحيدية، والحكمة العرشية. وفي المنطق والجدل: كتاب الأوسط للجرجاني، وكتاب الموجز الكبير، ومفاتيح الخزائن، والحدود. وفي الفلك مقالة في آلة رصد، ومقالة في غرض قاطيغورياس، ومقالة في الأجرام السماوية، ومقالة في هيئة الأرض من السماء، ومقالة في إبطال أحكام النجوم. وفي الرياضيات: رسالة في الزاوية، مقالة في عكوس ذوات الجهات، مقالة الأرثماطيقي. وفي الطب: القانون في الطب، الأدوية القلبية، القولنج، التدارك لأنواع خطأ التدبير. وفي العلوم: مقالة في تقاسيم الحكمة والعلوم، رسالة في الكيمياء. وفي النفس: المبدأ والمعاد في النفس، النفس لأرسطوطاليس، فصول في النفس والطبيعيات، رسالة في القوى الإنسانية وإدراكاتها. وفي الأخلاق والزهد: البر والإثم، مقالة في تحصيل السعادة، مقالة في الأخلاق. وفي اللغة والموسيقى: لسان العرب، الملح في النحو، المدخل إلى صناعة الموسيقى.

## ثانياً: التعريف بـ"السياسة"

وهي رسالة قصيرة تقع في حوالي خمسة آلاف كلمة، (٢٠) صفحة، والسياسة عند ابن سينا تبدأ بسياسة المرء لنفسه، ولمن حوله لينتهي إلى رؤية عامة حول تدبير شؤون الحياة بجوانبها كافة. وهي أنموذج لإسهام الفلاسفة في مجال التعليم والتربية.

تبدأ الرسالة بالحديث عن سياسة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتدبيره للبشر؛ إذ جعلهم متفاضلين في عقولهم وآرائهم، وميولهم وتفاوت أحوالهم، مما جعل بعضهم مسخراً لبعض، فحصل البقاء للجميع، وكل ذلك من دلائل حكمة الله وتدبيرة ورحمته بخلقه.

ثم تحدث عن حاجة جميع الناس إلى السياسة والتدبير بدءاً من الملوك والزعماء، ثم سائر الناس حسب رتبهم. ومن ذلك سياسة الرجل لنفسه، ثم سياسة الرجل؛ دخله وخرجه في مسائل الرزق والمال، ثم سياسة الرجل أهله زوجته، وولده، وخدمه. ونستطيع أنْ نؤكد أنَّ السياسة عند ابن سينا هي ما نسميه اليوم بالتربية، التي يحتاجها الإنسان منذ لحظة ولادته، وأنها تشتمل على تربية الشخصية الإنسانية في جوانبها الجسمية والنفسية والاجتماعية. وابن سينا ينهل فيما يكتبه من الثقافة الإسلامية السائدة ومن الثقافات التي كانت متاحة له ولا سيما الثقافة اليونانية. واشتملت الرسالة على كثير مما هو معروف من موضوعات التربية بما في ذلك الصفات اللازمة للمعلم، والتدرج في موضوعات التعليم، وأساليب التعليم ومسألة الثواب والعقاب، ومراعاة الفروق الفردية، وغير ذلك.

ومن الملاحظ كذلك أنَّ المعرفة الفلسفية والطبية أثرت في الطريقة التي صاغ فيها ابن سينا كلامه عن التربية.

## ثالثاً: مختارات من كتاب "السياسة"

الحمد لله الذي نهج لعباده بما دلّهم عليه من حمده سبيل شكره، وأشرع لهم بما هيّأهم له من شكره أبواب مزيده، ومنّ عليهم بالعقل الذي جعله لدينهم عصمة، ولدنياهم عماداً، وحباهم بالنطق الذي جعله فرقاً بينهم وبين البهائم العجم والأنعام البكم. فالحمد لله حمداً كثيراً على ما عمّ من حسن تدبيره، وشمل من لطف تقديره حتى حاز كل صنف من أصناف خلقه حظّه من المصلحة.[1]...

**التفاضل بين البشر**

ثم منّ عليهم برأفته منّا مستأنفاً بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين، كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين، لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فنائهم، لما يلقي بينهم من التنافس والتحاسد، ويثير

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

من التباغي والتظالم. فقد علم ذوو العقول أنَّ الناس لو كانوا جميعاً ملوكاً لتفانوا عن آخرهم، ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا عِياناً بأسْرهم، كما أنهم لو استووا في الغني لما مَهَنَ أحدٌ لأحد...

وكل ذلك من دلائل الحكمة وشواهد لطف التدبير وأمارات الرحمة والرأفة.[1]

**ضرورة السياسة**

وأحق الناس وأولاهم، بتأمل ما يجري عليه تدبير العالم من الحكمة وحسن إتقان السياسة وإحكام التدبير: الملوك، الذين جعل الله تعالىٰ ذكره بأيديهم أزمّة العباد، وملّكهم تدبير البلاد، واسترعاهم أمر البريّة، وفوَّض إليهم سياسة الرعيّة، ثم الأمثل فالأمثل، من الولاة الذين أُعطوا قيادة الأمم واستكفوا تدبير الأمصار والكور، ثم الذين يَلُونَهم من أرباب النعم، وسوَّاس البطانة والخدم، ثم الذين يلونهم من أرباب المنازل وروّاض الأهل والولدان. فإنَّ كل واحد من هؤلاء راعٍ لما يحوزه كنَفُه، ويضمُّه رحْلُه، ويصرفه أمره ونهيه، ومن تحت يده رعيته.

ويحتاج أصغرهم شأناً وأخفهم ظهراً وأرقهم حالاً وأضيقهم عطناً، وأقلهم عدداً، من حسن السياسة والتدبير، ومن كثرة التفكير والتقدير، ومن قلة الإغفال والإهمال، ومن الإنكار والتأنيب، والتعنيف والتأديب، والتعديل والتقويم، إلىٰ جميع ما يحتاج إليه الملك الأعظم.[2]...

**في سياسة الرجل نفسه**

إنَّ أول ما ينبغي أنْ يبدأ به الإنسان من أصناف السياسة نفسه؛ إذ كانت نفسُه أقربَ الأشياء إليه، وأكرمَها وأولاها بعنايته، ولأنَّه متىٰ أحسن سياسة نفسه لم يعيَ بما فوقها من سياسة المصر. ومن أوائل من يلزم من رام سياسة نفسه أنْ يعلم أنَّ له عقلاً هو السائس، ونفساً أمّارة بالسوء، كثيرة المعايب، جمَّة المساوئ، في طبعها وأصل خلقها هي المسوسة، وأنْ يعلم أنَّ كل من أراد إصلاح فاسد لزمه أنْ يعرف جميع فساد

(١) المرجع السابق، ص٥٧-٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩-٦٠.

ذلك الفاسد، معرفةً مستقصاة حتىٰ لا يغادر منه شيئاً، ثم يأخذ في إصلاحه، وإلا كان ما يصلحه غير حريز ولا وثيق. كذلك من رام سياسة نفسه ورياضتها وإصلاح فاسدها لم يجز له أنْ يبتدئ في ذلك حتىٰ يعرف جميع مساوئ نفسه معرفة محيطة، فإنَّه إنْ أغفل بعض تلك المساوئ وهو يرىٰ أنَّه قد عمّلها بالإصلاح كان كمن يدمل ظاهر الكَلْم، وباطنة مشتمل علىٰ الداء...

ولما كانت معرفة الإنسان نفسه غير موثوق بها، لما في طباع الإنسان من الغباوة عن مساوئه وكثرة مسامحته نفسه عند محاسبتها؛ ولأن عقله غير سالم من ممازجة الهوىٰ إياه عند نظره في أحوال نفسه، كان غير مستغن في البحث عن أحواله والفحص عن مساوئه ومحاسنه عن معونة الأخ اللبيب، الوادّ الذي يكون منه بمنزلة المرآة فيريه حسن أحواله حسناً وسيئها سيئاً.[1]

**في سياسة الرجل دخله وخرجه**

إن حاجة الناس إلىٰ الأقوات دعت كل واحد منهم إلىٰ السعي في اقتناء قوته من الوجه الذي ألهمه الله قصده، وسبب رزقه من وجوه المطالب وسبل المكاسب. ولما كان الناس في باب المعيشة صنفين؛ صنفاً مكفيّاً سعياً برزق سيِّب له من وراثة أو جناه، وصنفاً محوجاً فيه إلىٰ الكسب، ألهم هذا الصنف التسبّب إلىٰ الأقوات بالتجارات والصناعات، وكان الصناعات أوثق وأبقىٰ من التجارات؛ لأَنَّ التجارة تكون بالمال، والمال وشيك الفناء عديد الآفات كثير الحوائج.

وصناعات ذوي المروءة ثلاثة أنواع: نوع من حيّز العقل وهو صحة الرأي وصواب المشورة وحسن التدبير، وهو صناعة الوزراء والمدبرين وأرباب السياسة والملوك، ونوع من حيّز الأدب وهو الكتاب والبلاغة وعلم النجوم وعلم الطب، وهو صناعة الأدباء، ونوع من حيّز الأيد والشجاعة، وهو صناعة الفرسان والأساورة، فمن رام إحدىٰ هذه الصناعات فليفُزْ بإحكامها والتقدم فيها، حتىٰ يكون من أصحابها موصوفاً بالفصاحة غير مرذول وما مؤخَّر.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥-٦٦.

وليعلم أنَّه ليس شيء أزين بالرجل من رزق واسع وافق منه استحقاقاً. ثم ليطلب معيشته بصناعة على أعفّ الوجوه وأرفقها وأعفاها وأبعدها من الشره والحرص، وأنآها من الطمع الفاحش والمأكل الخبيث. وليعلم أنَّ كلَّ فضل نيل بالمغالبة والكابرة والاستكراه والمجاهدة، وكل ربح حيز بالإثم والعار، ومع سوء القالة وقُبح الأحدوثة، أو ببذل الوجه ونزف الحياء، أو بثلم المروءة وتدنيس العرض زهيد، وإن عظم قدره نزر، وإن عَزُرَتْ مادته وبيل، وإن ظهرت هناءته وخيم، وإن كان في مرآة العين مَرِيّا.[1]

**في سياسة الرجل أهله**

إن المرأة الصالحة شريكة الرجل في ملكه، وقيّمته في ماله، وخليفته في رحله. وخير النساء العاقلة الديّنة الحييّة الفطنة، الودود الولود، القصيرة اللسان، المطاوعة العنان، الناصحة الجيب، الأمينة الغيب، الرَّزان في مجلسها، الوقور في هيبتها، المهيبة في قامتها، الخفيفة المبتذلة في خدمتها لزوجها، تحسن تدبيرها، وتكثِّر قليله بتقديرها، وتجلو أحزانه بجميل أخلاقها، وتسلّي همومه بلطيف مداراتها.

وجماع سياسة الرجل أهله الحسم في ثلاثة أمور لا تدعُه، وهي الهيبة الشديدة، والكرامة التامة، وشغل خاطرها بالمهِمِّ.

أما الهيبة، فهي إذا لم تهَبْ زوجها هان عليها، وإذا هان عليها لم تسمع لأمره ولم تصغ لنهيه، ثم لم تقنع بذلك حتى تقهره على طاعتها، فتعود آمرة ويعود مأموراً، وتصير ناهية ويصير منهياً، وترجع مدبِّرة ويرجع مدبَّراً، وذلك الانتكاس والانقلاب، والويل حينئذ للرجل...

أما كرامة الرجل أهله فمن منافعها أنَّ الحرة الكريمة إذا استجلت كرامة زوجها دعاها حُسن استدامتها لها ومحاماتها عليها وإشفاقها من زوالها إلى أمور كثيرة جميلة، لم يكد الرجل يقدر على إصارتها إليها من غير هذا الباب إلا بالتكلف الشديد والمؤونة الثقيلة...

---

(١) المرجع السابق، ص٧٣-٧٤.

وكرامة الرجل أهله على ثلاثة أشياء: في تحسين شارتها، وشدة حجابها، وترك إغارتها.

وأما شغل الخاطر بالمهم فهو أنْ يتصل شغل المرأة بسياسة أولادها وتدبير خدمها، وتفقد ما يضمه خدرها من أعمالها، فإنَّ المرأة إذا كانت ساقطة الشغل خالية البال، لم يكن لها هم إلا التصدي للرجال بزينتها والتبرج بهيأتها، ولم يكن لها تفكير إلا في استزادتها، فيدعوها ذلك إلى استصغار كرامته واستقصار زمان زيادته وتسخُّط جملة إحسانه.[1]

**في سياسة الرجل ولده**

إنّ من حقِّ الولد على الوالدِ إحسان تسميتِه، ثم اختيار ظِئره[2] كي لا تكون حمقاء ولا ورهاء،[3] ولا ذات عاهة، فإنَّ اللبن يُعدي كما قيل، فإذا فُطمَ الصبيُّ عن الرضاع بُدئ بتأديبه ورياضة أخلاقِه، قبلَ أنْ تهجمَ عليه الأخلاقُ اللئيمة، وتفاجئهُ الشيمُ الذميمةُ، فإنَّ الصبيَّ تتبادر إليه مساوئ الأخلاقِ، وتنثالُ عليه الضرائبُ الخبيثةُ فما تمكّن منه من ذلك غلب عليه، فلم يستطع له مفارقة، ولا عنه نزوعاً، فينبغي لغنم الصبي أنْ يجنّبه مقابح الأخلاق، وينكّب عنه معايب العاداتِ بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، وبالإعراض والإقبالِ، وبالحمد مرةً وبالتوبيخ مرّة أخرى ما كان كافياً، فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يُحجم عنه، وليكن أول الضرب قليلاً موجعاً، كما أشار إليه الحكماء قبلُ، بعد الإرهاب الشديدِ، وبعد إعداد الشفعاء فإنَّ الضربة الأولى إذا كانت موجعةً ساء ظنُّ الصبيّ بما بعدها، واشتد منها خوفُه، وإذا كانت الأولى حفيفةً غير مؤلمة حَسُن ظنّه بالباقي فلم يحفل به.

فإذا اشتدّت مفاصلُ الصبيِّ واستوى لسانُه وتهيأ للتلقين ووعى سمعُه أخذ في تعلُّم القرآن وصُوّر له حروف الهجاء، ولُقّن معالمَ الدين.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٩-٨١.

(٢) الظئر هي المرضع.

(٣) خرقاء.

وينبغي أنْ يروي الصبي الرجز ثم القصيدة، فإنَّ رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن؛ لأَنَّ بيوته أقصر ووزنه أخف، ويبدأ من الشعر بما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل، وعيب السخف وما حثّ على بِرّ الوالدين واصطناع المعروف، وقرى الضيف وغير ذلك، من مكارم الأخلاق.[1]

وينبغي أنْ يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضةِ الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً، بعيداً من الخفة والسخف، قليل التبذّل والاسترسال بحضرةِ الصبي، غير كزٍّ ولا جامدٍ، بل حلواً لبيباً، ذا مروءةٍ ونظافةٍ ونزاهة، قد خدم سراة الناس، وعرف ما يتباهون به من أخلاق الملوك، ويتعايرون به من أخلاق السفلة، وعرف آداب المجالسة، وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة.[2]

وينبغي أنْ يكون مع الصبيِّ في مكتبه صِبيةٌ من أولادِ الجِلّة[3] حسنة آدابهم مرضيّةً عاداتهم، فإنَّ الصبيَّ عن الصبيِّ ألقنُ، وهو عنه آخذُ وبه آنسُ.

وانفراد الصبيِّ الواحد بالمؤدب أجلبُ الأشياء لضجرهما، فإذا رواح المؤدب بين الصبيِّ والصبيِّ كان ذلك أنفى للسآمة، وأبقى للنشاط، وأحرص للصبيِّ على التعلُّمِ والتخرّج، فإنَّه يباهي الصبيان مرةً ويغبطهم مرّةً، ويأنف من القصور عن شأوهم مرّةً. ثم يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل، وتحلُّ منعقد الفهم؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ من أولئك إنَّما يتحدَّثُ بأعذبِ ما رأى، وأغربِ ما سمعَ، فتكون غرابةُ الحديثِ سبباً للتعجُّبِ منه، والتعجبُ منه سبباً لحفظه، وداعياً إلى التحدث به، ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الزيارة، ويتكارمون، ويتعاوضون الحقوق، وكلّ ذلك من أسباب المباراةِ والمباهاةِ والمساجلةِ والمحاكاةِ، وفي ذلك تهذيبٌ لأخلاقِهم، وتحريكٌ لهمَمهم، وتمرينٌ لعاداتهم.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣-٨٤.

(٢) المرجع السابق ص٨٤.

(٣) الجلّة: جمع جليل، وهو العظيم، يريد أولاد الطبقة المتميزة بتربيتها وأخلاقها.

(٤) المرجع السابق، ص٨٥ - ٨٦.

وإذا فرغ الصبيُّ من تعلُّم القرآنِ، وحفظ أصول اللغةِ نظر عند ذلك إلىٰ ما يُراد أنْ تكون صناعتُه مُوجّهةً لطريقه، فإن أرادَ به الكتابة أضاف إلىٰ دراسة اللغة دراسة الرسائل والخُطب ومناقلات الناسِ، ومحاوراتهم، وما أشبه ذلك، وطُورح الحساب، ودُخل به الديوان، وعُني بخطه، وإن أريد أُخرىٰ أخذ به فيها بعد أنْ يعلم مدبّر الصبيِّ أنْ ليس كل صناعةٍ يرومها الصبيُّ ممكنةً له مؤاتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبَه، وأنه لو كانت الآدابُ والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة إذن ما كانَ أحدٌ غُفلاً من الأدب وعارياً من صناعته، وإذن لأجمع الناس كلهم علىٰ اختيار أشرف الآداب، وأرفعِ الصناعات، ومن الدليل علىٰ ما قلنا سهولة بعضِ الآداب علىٰ قومٍ، وصعوبته علىٰ آخرين، ولذلك نرىٰ واحداً من الناسِ تؤاتيه البلاغة وآخر يؤاتيه النحو، وآخرُ يؤاتيه الشعر، وآخرُ يؤاتيه الخُطب، وآخر النسب. ولهذا يقال: بلاغة القلم، وبلاغةُ الشعر.[1]

فإذا خرجت عن هذه الطبقة إلىٰ طبقةٍ أخرىٰ وجدتَ واحداً يختارُ علم الحسابِ، وآخر يختارُ علم الهندسة، وآخر يختارُ علمَ الطبِّ، وهكذا تجد سائر الطبقات، إذاً طبقة طبقة، حتىٰ تدورَ عليها جميعها.

ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة، وعِلل خفيّة تدقُّ علىٰ أفهامِ البشرِ وتلطف القياس لا يعلمها إلا الله جلَّ ذِكرُه. وربما نافر طباع إنسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشيءٍ، ومن ذلك أنَّ أناساً من أهلِ العقل راموا تأديب أولادهم واجتهدوا في ذلك، وأنفقوا فيه الأموالَ فلم يدركوا من ذلك ما حاولوا، فلذلك ينبغي لمدبِّر الصبيِّ إذا رام اختيارَ الصناعة أنْ يزنَ أولاً طبعَ الصبيِّ ويسبر قريحتَه ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسبِ ذلك، فإذا اختارَ له إحدىٰ الصناعات تعرَّف قَدْر ميلِه إليها، ورغبته فيها، ونظر هل جرت منه علىٰ عِرفان أم لا، وهل أدواته وآلاته مساعدةٌ له عليها، أم خاذلةٌ، ثم يبتُّ العزمَ، فإنَّ ذلك أحزمُ في

---

(١) المرجع السابق، ص٨٦.

التدبير وأبعد من أنْ تذهب أيام الصبيِّ فيما لا يؤاتيه ضياعاً.[1]

فإذا وغلَ الصبيُّ في صناعته بعضَ الوغولِ فمن التدبير أنْ يُعرَض للكسب ويُحمل على التعيُّش منها، فإنَّه يحصل في ذلك له منفعتان: إحداهما إذا ذاق حلاوة الكسبِ بصناعته وعرف غناها وجَداها عظيمين لم يضجع في إحكامها وبلوغ أقصاها، والثانية أنه يعتاد طلب المعيشة قبل أنْ يستوطئ حال الكفاية، فإنَّا قلَّ ما رأينا من أبناء المياسير من سلم من الركون إلى مالِ أبيهِ وما أعدَّ له من الكفاية.

فلما عوَّل على ذلك قطعه عن طلب المعيشة بالصناعة، وعن التخلي بلباس الأدب، فإذا كسب الصبيُّ بصناعته فمن التدبير أنْ يزوَّج ويُفرَد رحله.[2]...

وانقضت الأبواب التي مثّلنا فيها ما يحق على الرجل فعله في تدبير نفسه، وما يشتمل عليه منزله، وإنما ذكرنا القليل من الكثير، والجمل دون التفسير. ولو شرحنا كل باب بما يشاكله من أخبار الناس وأشعارهم، لكان الكتاب أحسن وأكمل، إلا أنَّه يكون أكبر وأطول، فآثرنا التخفيف على القارئ، والتسهيل على الناظر، ولرب قليل أريع من كثير، وصغير أتم من كبير. والله ولي التوقيق.

نجزت رسالة السياسة، والحمد لله كثيراً دائماً كفاءَ مِنَّتِه.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٣ - ٩٤.

## (٩)

# رسالتا "مراتب العلوم" و"مداواة النفوس"

## ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد (توفي: ٤٥٦هـ)

**أهمية الكتاب في العلم والتعليم:**

وباليقين يدري كلُّ ذي لُبٍّ سليمٍ أنه لا يُتوصّل إلى العلوم إلّا بطلب، ولا يكون الطلبُ إلا بسماعٍ وقراءة وكتاب، لا بدَّ من هذه الثلاث خصال، وإلا فلا سبيل دونها إلى شيءٍ من العلوم ألبتة. فإذ ذلك كذلك فلنتكلم -بعون الله تعالى- على وجه التوصل إلى العلوم، وبيان أفضلها صفةً وأعلاها قدراً، والذي بالناس إليه الضرورة الماسة، والفاقة الشديدة، والحد الذي لا يجزئ منه ما دونه، والنهاية التي لا وراء لها منه. (من رسالة مراتب العلوم ص ٦٥)...

ودعائمُ العلم مشهورةٌ مستحكمة، يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت، ثم قصدٌ إلى عين العلم، ... وذكاء وفهمٌ وبحث وذِكرٌ وصبرٌ على كلِّ ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به. فإذ لا سبيل إلى ذلك فالكتب نِعْمَ الخازنة له إذا طُلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد. وهذا خطأ ممن ذم الإكثار منها، ولو أُخِذَ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها، وادَّعوا ما شاءوا. (ص٧٨)

الفصل التاسع:

# رسالتا "مراتب العلوم" و"مداواة النفوس" لابن حزم

## أولاً: التعريف بـ"ابن حزم"

هو أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، ولد في قرطبة في بيت عز وجاه، عام (٣٨٤هـ)، حيث كان أبوه من وزراء الدولة العامرية في الأندلس، وهو أحد أئمة الإسلام. عُرف ابن حزم بأنه فقيهٌ وفيلسوف، وكاتب وشاعر.

ونظراً لمكانة أبيه السياسية فقد كان يريد له أنْ يتعلم فنون السياسية والرياسة، وشارك ابن حزم في شبابه في بعض المهام الإدارية والقيادية، لكنه سرعان ما اتجه نحو الأدب والتاريخ والأنساب، ثم أقبل بشغف بالغ على العلوم الشرعية، بعد أنْ تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

وكانت بداية تعليمه على يد مربيه الشيخ أبي علي الفاسي. وأخذ علم الحديث عن شيخه يحيى بن مسعود، والفقه عن شيوخ قرطبة، والمنطق عن محمد بن الحسن المذحجي القرطبي، وغيره من شيوخ الأندلس. بدأ فقهه على المذهب الشافعي، ثم تحول إلى المذهب الظاهري، حتى عُرف بابن حزم الظاهري.

ومن شيوخه: أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور، ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي، وحمام ابن أحمد القاضي، ومحمد بن سعيد بن نبات، وعبد الله بن ربيع التميمي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد، وعبد الله بن محمد بن عثمان، وأبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي، وعبد الله بن يوسف بن نامي، وأحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ، وغيرهم. ويروي عن أبي عمر بن عبد البر، وأحمد بن عمر بن أنس العذريي، وغيرهم.

وتتلمذ على يده كثير من العلماء منهم: المؤرخ محمد بن فتوح بن عيد، وأبو عبد الله الحميدي الأندلسي، وهو الذي اهتم بمؤلفات ابن حزم، وأذاع كتبه، وهو صاحب الجمع بين الصحيحين.

عاش ابن حزم في فترة اضطراب شديد في أحوال الدولة الإسلامية في الأندلس؛ إذ انهارت الدولة الأموية، وتقسمت بلاد الخلافة إلى أكثر من عشرين من دويلات الطوائف المتناحرة التي فقدت كثيراً من معايير الحياة الإسلامية، واستعان بعضها على بعضها الآخر بالممالك النصرانية. وربما كان ذلك سبباً في حدته وقسوته التي أوقعته في المحن المتتالية.

كان شديد الانتقاد للعلماء في زمنه، بسبب ميلهم إلى التقليد، فتمالأوا على بغضه، وتضليله، وتحذير السلاطين من فتنته، فتعرض للإقصاء والمحن، وحُرقت كتبه، توفي عام ٤٥٦هـ.

يرى المؤرِّخون أنَّ الإمام ابن حزم هو أكثر علماء الإسلام تأليفاً بعد ابن جرير الطبري، فقد عرف من عناوين مؤلَّفاته حوالي أربعمائة مؤلف في فروع العلم المختلفة، لا سيما: علوم الفقه وأصوله، والعقائد، والأديان المقارنة، والتَّاريخ، والأدب، وهي متفاوتة في الحجم ما بين مؤلف كبير من عدة مجلات ومتوسِّطة في مجلد أو مجلدين، ورسائل قصيرة ما بين العشر صفحات ومائة صفحة. وقد أمكن تحديد ٨٣ عنواناً لكتب ورسائل من مؤلفات ابن حزم لم تصلنا للأسف. وترجمت بعض رسائله إلى الإنجليزية، والروسية، والألمانية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية.

ومن أشهر المؤلفات التي وصلتنا: المحلّى، والفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل، وجمهرة الأنساب، وجوامع السيرة، والإحكام لأصول الأحكام، ومجموعة كبيرة من الرسائل جُمعت في أربعة مجلدات، ومن هذه الرسائل: التقريب لحد المنطق، ومراتب العلوم، ومداواة النفوس، وطوق الحمامة، وغيرها.

## ثانياً: التعريف برسالة "مراتب العلوم"[1]

رسالة تقع في حوالي ستة آلاف كلمة (٣٠ صفحة). ويوحي عنوانها بأن ابن حزم سوف يدخل فيما دخل فيه كثيرون من تفضيل علم على آخر، وفق توجه كل عالم. لكن

---

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أربعة أجزاء، ١٩٨٧م، ج٤، ص٦١-٩٠.

ابن حزم يحسم الأمر بطريقة مختلفة، فيقرر أنَّ أفضل العلوم هو علم الشريعة؛ لأنه هو ما يؤدي إلى الفوز في دار البقاء، ويؤكد مع ذلك أنَّ لكل علم فضلاً لقيمته في ذاته؛ ولأنه مرتبة تؤدي إلى ما هو أعلى منها، وصولاً إلى المرتبة الأسمى. ثم يوضح أنَّ على الإنسان أنْ يأخذ من كل علم بنصيب، ويصرف جل اهتمامه إلى ما يناسب طبعه ورغبته، وربما: كان ذلك في علمين أو ثلاثة أو أكثر. ويوضح كذلك الحد الأدني من كل علم بصورة أشبه ما تكون بمنهاج تربوي لطالب العلم.

أما العلوم التي يرى ابن حزم أنَّ على الطالب أنْ يتعلمها، فيرى أنها سبعة علوم؛ ثلاثة منها هي علوم بناء الأمة، وهي: الدين واللغة والتاريخ، وأربعة منها تشترك فيها كل الأمم، وهي: الفلك والحساب والطب والفلسفة.

ومن جهة أخرى يؤكد ابن حزم أنَّ جميع العلوم تتكامل فيما بينها، ولا يستغني منها علم عن غيره.

وقد تعرضت هذه الرسالة لكثير مما تعرضت له كتب التراث التربوي الأخرى، ولكن بصورة موجزة أشبه بقواعد عامة، ففي هذه الرسالة مثلاً تنويه بقيمة المعلم أو المؤدب، ويتحدث عن آداب العلم، وعن سِنِّ بدء التدريس، ثم يتدرج بالمتعلم في ست مراحل؛ تبدأ بمهارات اللغة، وبالقرآن الكريم، ثم قواعد اللغة، ثم الحساب، ثم المنطق وعلوم الطبيعة، ثم التاريخ، ثم قضايا العقيدة، وأخيراً علوم الشريعة، وهي عنده ليست مراحل متتابعة، ولكن متداخلة حسب رغبة المتعلم وملكاته.

## ثالثاً: التعريف برسالة "في مداواة النفوس"[1]

ومما له صلة قوية بالتراث التربوي رسالة أخرى بعنوان مداواة النفوس نجتزأ منها بعض الفقرات.

تقع المادة المجردة من مقدمات التحقيق والهوامش، في حوالي (١٨) ألف كلمة (٨٢ صفحة)، طبعت ضمن رسائل ابن حزم، وطبعت كذلك منفردة عدة طبعات أغلبها

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٤١٥.

كان تحت عنوان "رسالة في مداوة النفوس"، وبعضها بعنوان "كتاب الأخلاق والسير".

يشتمل الكتاب على مقدمة المصنف، وثلاثة عشر فصلاً، تحدث فيه عن إصلاح الأخلاق، وعن فضل العلم، وعن الإخوان والصداقة والنصيحة، وأنواع المحبة، وأنواع صباحة الصور، وفيما يتعامل الناس به، وعن مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة، وعن غرائب أخلاق النفس. وفصل في تطلع النفس إلى معرفة ما تستر به عنها من كلام مسموع، وفصلٌ في حضور مجالس العلم.

## رابعاً: مختارات من رسالة "مراتب العلوم"[1]

قال الفقيه الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحمد لله رب العالمين الذي أفاض علينا النعم الجزيلة، ومنحنا القوى الرفيعة، حمداً يرضيه عنا، ويقتضي لنا المزيد من آلائه ومواهبه السنية، وصلى الله على سيدنا محمد، خيرته من الإنس، وصفوته من ولد آدم، المبعوث بالهدى لاستنقاذ من اتبعه من ظلمات الكفر، وعمى الجهل إلى نور العلم.

أما بعد، فإنَّ الله تعالى كرَّم بني آدم وفضّلهم على كثير ممن خلق، وخصَّهم على سائر خليقته بالتمييز الذي مكّنهم به من التصرّف في العلوم والصناعات. فواجبٌ على المرء ألا يضيع وديعة خالقه عنده، وأن لا يهمل عطية باريه لديه، بل فرضٌ عليه أنْ يصونها باستعمالها فيما له خلق، وأن يحوطها في تصريفها فيما دعي إليه.

وبعد، فإنَّ لكلّ مقام مقالاً، ولكل زمان حالاً، وإن السالفين قبلنا كانت لهم علومٌ يواظبون على تعليمها، ويورثها الماضي منهم الآتي. ثم إنَّ من تلك العلوم ما بقي وبقيت الحاجة إليه، ومنها ما دُرس رسمه، ودثرت أعلامه، وانبتَّ جملةً فلم يبقَ إلا اسمه. فمن ذلك علم السحر، وعلم الطَّلسمات، فإنَّ بقاياها ظاهرة لائحة، وقد طمس معرفة علمها، ومن ذلك علم الموسيقى وأصنافها الثلاثة، فإنَّ الأوائل يصفون أنَّه كان منها ما يشجع الجبناء وهو اللويّ، ونوع ثان يسخّي البخلاء وأظنه الطنينيّ،

(١) المرجع السابق،ج٤، ص٦١-٩٠.

ونوع ثالث يؤلّف بين النفوس وينفر. وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة. فاعلموا أسعدكم الله بتوفيقه أنَّ من رأيتموه يدّعي علم الموسيقى واللحون، وعلمَ الطلسمات، فإنَّه مُمَخْرَقٌ كذاب ومشعوذ وقاح، وكذلك من وجدتموه يتعاطى علم الكيمياء فإنَّه قد أضاف إلى هذه الصفات الذميمة التي ذكرناها استثكال أموال الناس، واستحلال التدليس في النقود، وظلم من يعامل في ذلك، والتغرير بروحه وبشرته في جنب ما يعاني من هذه الرذيلة. فإنَّ العلمين المذكورين أولاً، وإن كانا قد عدما وانقطعا ألبتة، فقد كانا موجودين دهوراً. وأما هذا العلم الذي يدَّعونه من قلب جوهر الفلزّ، فلم يزل عدماً غير موجود. وباطلاً لم يتحقق ساعة من الدهر؛ إذ من المحال الممتنع قلب نوع إلى نوع، ولا فرق بين أنْ يُقلب نحاس إلى أنْ يصير ذهباً، أو يُقلب ذهب إلى أنْ يصير نحاساً، وبين قلب إنسان على أنْ يصير حماراً، أو قلب حمار إلى أنْ يصير إنساناً. وهكذا سائر الأنواع كلها، وهذا ممتع ألبتة، وبالله تعالى التوفيق، ومنه أستمد لا إله إلا هو، فلا وجه للاشتغال بعلم قد دثر وعدم، وإنما الواجب أنْ يهتم المرء بالعلوم الممكن تعلمها، التي قد يُنتفع بها في الوقت، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به، ثم الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع، فإنَّ من رام الارتقاء إلى أرفع العلوم دون معاناة ما لا يوصل إليه إلا به، كمن رام الصعود إلى عليةٍ مفتحة مظلمة أنيقة البناء، دون أنْ يتكلف التنقل إليها في الدرج والمراقي التي لا سبيل إلى تلك العليّة إلا بها.[1]

وليس للمرء إلا داران: دار الدنيا، ودار معاده إذا فارق الدنيا، وبيقين ندري أنَّ مدة المقام في هذه الدار إنَّما هي أيام قلائل. وإجهاد المرء نفسه فيما لا ينتفع به إلا في هذه الدار من العلوم رأي فائل، وسعيٌ خاسر؛ لأَنَّ المنتفع به في هذه الدار من العلوم، إنَّما هو ما اكتسب به المال، أو ما حُفظت به صحة الجسم فقط، فهما وجهان لا ثالث لهما. فأما العلوم التي يكتسب بها المال، فإنَّ وجه الكسب بها ضيق غير متسع، واكتساب المال بغير العلم أجدى وأشد توصلاً إلى المراد من التوسع في العلم لكسب

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٢.

المال، كصحبة السلطان وعمارة الأرض والتقلب في التجارات. وهذه الوجوه كلها قد نجد الجاهل الأغتم أنفذ فيها من العالم النحرير؛ فإذا ذاك كذلك، فالشغلُ بطلب العلم ليكون سبباً إلى كسب المال والتعب فيه بهذه النية عناءٌ وضلال، وفاعله قد جمع عيبين عظيمين: أحدهما ترك أخصر الطريقين إلى مطلوبه، وأسهلهما في التوصل إلى غرضه، وركب أوعرهما مسلكاً وأطولهما تعباً، وأقلهما فائدة، وأبعدهما منفعة. والوجه الثاني أنه استعمل الفضيلة التامة التي بان بها عن الحشرات والبهائم في اقتناء حجارة لا يدري متى تدعه أو يدعها، وكان كمن أتعب نفسه وأسهر ليله وأطال كدَّه في إقامة سيف هندي قاطع نفيس، وبنى داراً سرية أنيقة البناء محكمة النقوش، موثقة الأساس، فلما تمّا له كما أراد جعل يستعمل السيف في كسر العظام وقطع البقل، وأوقف الدار لطرح ما يكنس فيها من الحشوش، فمن أخسر صفقةٌ من هذا![1]

وأما العلم الذي ليس فيه إلا حفظ صحة الجسم فقط، فإنَّ المتعِبَ فيه بدنه، المجهد لنفسه في تلقِّيه وتقييده لا يحصل من تمامه لديه إلا على البصر في معاناة مرض لا يدري أيتم له غرضه من برئه أم لا يتم. ثُـمَّ إنْ تَـمَّ فليس على ثقة من عود ذلك الداء بعينه أشدَّ ما كان، أو حدوث داء آخر مثل الذي استنفد طوقه في معاناته وأعضل منه. وأما المضمون المحتوم، فإنَّه لا يقدر على دفع الموت إذا حلَّ، ولا على علاج الزمانة إذا استحكمت؛ ولعل ذلك يحدث بمن أتعب نفسه في مداواته في أسرع من كرَّ الطرف.

فمن تأمل ما ذكرنا، علم أنَّ المنفعة بما قصد به من العلوم إلى المنفعة الخاصة، قليلة جداً وضعيفة العائدة جملة. إلا أنَّ هذين الوجهين، وإن كانا وَتْحَيّ[2] النفعِ قليلَي الإجزاء؛[3] لاتصالهما بالتعب في اقتناء العلم الذي هو سببهما، فلهذا حظٌّ من النفع. وإنما الداء العياء، والذم الكامل، والخسارة المحضة، حالُ مَن اقتنى أرفعَ العلوم ليحصل به

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٣.

(٢) وَتَحَ وتْحاً، الوتح: القليل التافه.

(٣) الإجزاء: مصدر من أجزأ، بمعنى أغنى وكفى مصدر.

على كسب مال من غير وجهه، وصرف ما علم في غير طريقه، فإنَّ حال الجاهل الخاملة أجلُّ من حال العالم، لما ذكرنا. ونسأل الله التوفيق ونعوذ به من الخذلان.[1]

فإذا الأمر كما ذكرنا، فأفضل العلوم ما أدّى إلى الخلاص في دار الخلود، ووصل إلى الفوز في دار البقاء. فطالب هذه العلوم لهذه النية هو المستعيض بتعبٍ يسير راحة الأبد، وهو ذو الصفقة الرابحة، والسعي المنجح الذي بذل قليلاً واستحقَّ كثيراً، وأعطى تافهاً وأخذ عظيماً. وهو الذي عرف ما لا يبقى معه فزهد فيه، وميَّز ما لا يزايله فسعى له، ونسأل الله أنْ يجعلنا في عدادهم بمنِّه آمين.

وباليقين يدري كلُّ ذي لب سليم أنّه لا يتوصل إلى العلوم إلا بطلب، ولا يكون الطلب إلا بسماع وقراءة وكتاب، لا بدَّ من هذه الثلاث خصال، وإلا فلا سبيل دونها إلى شيء من العلوم ألبتة. فإذ ذلك كذلك فلنتكلم -بعون الله تعالى- على وجه التوصل إلى العلوم، وبيان أفضلها صفةً وأعلاها قدراً، والذي بالناس إليه الضرورة الماسة، والفاقة الشديدة، والحد الذي لا يجزئ منه ما دونه، والنهاية التي لا وراء لها منه.

فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أنْ يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوتهم على رجع الجواب -وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبيّ- فيسلمهم إلى مؤدب في تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا دُرب الغلام في ذلك، درس وقرأ. والحدُّ الذي لا ينبغي أنْ يقتصر المعلم على أقلَّ منه أنْ يكون الخط قائم الحروف، بيناً صحيح التأليف الذي هو الهجاء، فإنَّ الخط إنْ لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد. وأما التزيد في حسن الخط فليس هو فضيلة، بل لعله داعية إلى التعلق بالسلطان، فيفني دهره إمّا في ظلم الناس، وإمّا في تسويد القراطيس بتواقيع بعيدة من الحق، مشحونةٍ بالكذب والباطل، فيضيع زمانه باطلاً، وتخسر صفقته، ويندم حين لا ينفعه الندم، وكان كإنسان ملك مسكاً كثيراً فترك أنْ يصرفه في التطييب به ومداواة النفوس بريحه وفغوته[2] وأقبل يطيِّب به

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٤.

(٢) الفغوة: الرائحة الطيبة.

البهائم، ويصبه في الطريق حتىٰ فني في غير فائدة. فهذا حدّ تعلم الكتاب.[1]

وحدُّ تعلم القراءة أنْ يمهر في القراءة لكلّ كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صقعه، وينفذ فيه، ويحفظ مع ذلك القرآن، فإنَّه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة، أحدها التدرب في القراءة له وتمرين اللسان علىٰ تلاوته فيحصل من ذلك حداً، إلىٰ ما يحصل عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة، ليجدها عُدّةً عنده مدخرةً لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها.

فإذا نفذ في الكتابة والقراءة كما ذكرنا. فلينتقل إلىٰ علم النحو واللغة معاً:

**ومعنىٰ النحو**: هو معرفة تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذي يدل كل ذلك علىٰ اختلاف المعاني كرفع الفاعل ونصب المفعول، وخفض المضاف، وجزم الأمر والنهي، وكالياء في التثنية والجمع، في النصب وخفضهما، وكالألف في رفع التثنية، والواو في رفع الجمع وما أشبه ذلك، فإن جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم.[2]

**واللغة**: هي ألفاظ يعبر بها عن المعاني فيقتضي من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقتضي من اللغة المستعمل الكثير التصرف. وأقل ما يجزئ من النحو كتاب الواضح للزبيدي، أو ما نحا نحوه، كالموجز لابن السرَّاج، وما أشبه هذه الأوضاع الحقيقية، وأما التعمق في علم النحو ففضولٌ لا منفعة بها، بل هي مشغلةٌ عن الأوكد، ومقطعةٌ دون الأوجب والأهم، وإنما هي تكاذيب، فما وجه الشغل بما هذه صفته؟ وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط. فمن يزيد في هذا العلم إلىٰ إحكام كتاب سيبويه فحسن، إلا أنَّ الاشتغال بغير هذا أولىٰ وأفضل؛ لأنه لا منفعة للتزيد علىٰ المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أنْ يجعله معاشاً، فهذا وجه فاضل؛ لأنَّه باب من العلم علىٰ كل حال.

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٦٦.

والذي يجزئ من علم اللغة كتابان: أحدهما الغريب المصنف لأبي عبيد، والثاني مختصر العين للزبيدي، ليقف على المستعمل بهما، ويكون ما عدا المستعملَ منهما عُدَّة لحاجة إنْ عنَّتْ يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب. فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم خلق الإنسان لثابت، والفرق له، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري والممدود والمقصور والمهموز لأبي علي القالي والنبات لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، وما أشبه ذلك فحسنٌ، بخلاف ما قلنا في علل النحو؛ لأَنَّ اللغة كلها حقيقة، وذاتُ أوضاع صحاح وعبارات عن المعاني، ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكلِّ معنى في العالم اسم مختص به، لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك، وأقرب للبيان، إلا أنَّ الاقتصار على المقدار الجاري مما ذكرنا، والانصراف إلى الأهم والأوكد من سائر العلوم، أولى.

وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير، كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العونُ على تنبيه النفس.[1]

وينبغي أنْ يتجنب من الشعر أربعة ضروب:

**أحدها**: الأغزال والرقيق، فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة، وتحض على الفتوّة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات، وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق، وتنهى عن الحقائق، حتى ربَّما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين، وتبذير المال في الوجوه الذميمة، وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات. وإن سماع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة، لا سيما ما كان يُعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة، فإنَّ هذا النوع يسهّل الفسوقَ ويهوِّن المعاصي، ويُردي جملة.

**والضرب الثاني**: الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة، وعروة بن الورد، وسعد بن ناشب وما هنالك، فإنَّ هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة،

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٧.

وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق، وربما أدّته إلى هلاك نفسه في غير حق، وإلى خسارة الآخرة، مع إثارة الفتن، وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة، والشره إلى الظلم وسفك الدماء.

**والضرب الثالث**: أشعار التغرّب، وصفات المفاوز والبيد المهامة، فإنها تسهّل التحوُّل والتغرب، وتُنشب المرء فيما ربـمَّا صعب عليه التخلص منه بلا معنى.

**والضرب الرابع**: الهجاء، فإنَّ هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه، فإنَّه يهوِّن على المرء الكون في حالة أهل السفه من كنّاسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المكتسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة، وتمزيق الأعراض وذكر العورات، وانتهاك حرم الآباء والأمهات، وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة.

ثم صنفان من الشعر لا يُنهى عنهما نهياً تاماً ولا يُخصُّ عليهما، بل هما عندنا من المباح المكروه وهما: المدح والرثاء: فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال، وأما كراهتنا لهما فإنَّ أكثر ما في هذين النوعين الكذب، ولا خير في الكذب.[1]

وأيضاً فإنَّ الإكثار من رواية الشعر، هو كسب غير محمود؛ لأنه من طريق الباطل والفضول، لا من طريق الحق والفضائل، ولا يظنّ ظان أنَّ هذا علمٌ جهلناه فذممناه، فقد علم من داخَلَنا أو بلغه أمرُنا كيف توسَّعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكنا من الإشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف قوَّتنا على صناعته، وكيف تأتّي مُقصَّده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه والتقصير، ولكن الحقَّ أولى بما قيل.

فإذا بلغ المرء من النحو واللغة إلى الحدّ الذي ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد، فليحكم الضرب والقَسْم والجمعَ والطرحَ والتسمية، وليأخذ طرفاً من المساحة، وليشرف على الأرثماطيقي -وهو علم طبيعة العدد- وليقرأ كتاب أقليدس قراءة

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٨.

متفهم له، واقفٍ على أغراضه، عارفٍ بمعانيه، فإنَّه علم رفيع، به يُتوصَّل إلى معرفة نصبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها، والوقوف على براهين كل ذلك، وعلى دوران الكواكب وقطعها في البروج، فهذا علمٌ رفيع جداً يقف به المرء على حقيقة تناهي جِرم العالم وعلى آثار صنعة الباري في العالم، فلا يبقى له إلا مشاهدة الصانع فقط؛ وأما الصنعة والإدارة والتركيب، فقد شاهد كلّ ذلك بوقوفه على ما ذكرناه. وبمطالعته كتاب المجسطي يعرف الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والأوقات وزيادة الليل والنهار، والمدَّ والجزر، ومنازل الشمس والقمر والدراري. وأما الإيغال في المساحة فمنفعته في جلب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات الحكمية.[1]

وأما الاشتغال بأحكام النجوم فلا معنى له، ولا يخلو من أنْ يكون ما يحكون من قضاياها حقاً أو باطلاً؛ إذ لا سبيل إلى قسم ثالث، فإن كانت حقاً فما لها فائدة إلا استعجال الهمَّ والغم والبؤس والنكد، لتوقع المرض والنكبات وموتِ الأحبة وانقطاع كمية العمر، ومعرفة فساد المولد. فإنْ قالوا إنَّه قد يمكن دفع ما يتوقع من ذلك فقد قضوا بأنها لا حقيقة لها؛ إذ الحتُّ الحتم لا سبيل إلى ردّه. وإن كانت باطلاً فأهل أنْ لا يشتغل به. ونقول قولاً صحيحاً متيقَّناً ليعلم كل ذي عقل ينصح نفسه بأنه لا سبيل إلى قلب الأنواع وإحالة الطبائع، فمن اشتغل بشيءٍ من هذين العلمين، فإنما هو إنسان محرومٌ مخذولٌ، يطلب ما لا يجد أبداً، وبالجملة فليس القضاء بالنجوم علمَ برهان، وإنما هي تُراعى أبداً، وبالجملة تجارب، وإذ هي كذلك، فباطلٌ بلا شك؛ لأنَّ التجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل أبداً، والنصبة التامة من الكواكب لا تعودُ إلى عشرة آلاف من السنين، ولا سبيل إلى ضبط تجربة مثل هذه إلا بتداول قومٍ متعاقبين لرصد تلك النُّصَب، وباليقين ندري أنّه لا يبقى فيما انحدر عن شرق العمود مملكة عُشرَ الدَّور، فكيف الدور كله؟ وإذا ذهبت المملكة لم تذهب إلا بحروب وغارات وسوء حال، وفساد بلاد وحدوث أخر، وهذا

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦٩.

كله يذهب علوم تلك المملكة ورتبها وأرصادها، وأكثر أخبارها بل كلها، فلا سبيل مع ذلك إلى اتصال رصد هذه المدة كلها، فكيف أنْ يمكن دوام التجربة تكراراً دوراً بعد دور؟ وما عندنا تاريخ أبعد من تاريخ التوراة، وليس له إلا ثلاثة آلاف سنة فقط، فأين يقع مما نريد؟

وأما تاريخ الفرس فما عندنا أخبار لهم فاشية محققة إلا من عهد ملوك الساسانية، وذلك أقلّ من ألف عام، وكذلك تاريخ الروم. وأما تاريخ القبط والسريانيين وأدوم وعمون وموآب وسائر تلك الأمم، فما لهم اليوم في الدنيا خبر ولا أثر، فكيف تبقى أرصاد المدة المذكورة؟ وأما الهند والصين فلم تبلغنا آثارهم كما نريد، ولعل لهم أرصاداً قديمة، فإنهما مملكتان سلمتا من الآفات على مرّ الدهور.

على أنَّ أهل الصين ليسوا أهل علوم ألبتة، وإنما هم أهل صناعات، فلعل هذا يكون بالهند. فإن لم يكن فمضمونٌ عدمُهُ من العالم -هذا إلى ما في شروط علم القضاء من الصفات التي لا سبيل لمن يدعي علمها إلى استيفائها- من معرفة مواقع السهام ومطارح الشعاعات والدرج النيرة والمظلمة، والقتمة والآبار، وخواص الدراري في كل برج، والكواكب البيبانية، وغير ذلك مما لا يمكنهم توفيته حقه على أصولهم. فإذا كان ذلك كذلك، فتحقيق علمهم في القضاء لا سبيل إليه ألبتة؛ ولا يحصى كم شهدنا لهم من القضايا المحققة المتفق عليها من أهل الإحسان لهذا العلم، على ما في كتبهم، فما صدق منها شيء إلا الأقل النزر الذي يصدق بالتقدير أكثر منه، نعني من المواليد التي لا شيء في علمهم أحق منها. وأما المناخات وتحاويل السنين والقرانات الصغار، فيعلم الله أننا ما رأيناهم صدقوا منها في قضية أبداً، كلّ سنةٍ رأينا، وما وجدنا أكثر كلامهم في ذلك إلا على ظاهر الرأي والتقدير فقط، ولو لم يكن من ظاهر الدعوى إلا قولهم زُحَل يشرف في برج كذا، ويسقط في برج كذا، وكذا سائر الدراري. ودعواهم في وجوه المطالع وسائر تلك الخرافات، فإنهم لا يأتون على ذلك لا ببرهان ولا بإقناع ولا بشغب، وإنما هو "اسمع واسكت وصدق الأمير."[1]

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧١.

وما كان هذا سبيله فلا ينبغي أنْ يشتغل به عاقل اشتغال معتدٍّ به علماً، إلا أنّه لا ينبغي لطالب الحقائق أنْ يخلو من النظر فيه ليعرف أغراضهم، ويريح نفسه من تطلعها إلى الوقوف عليها، وليفيق من دعاويهم ومخْرَقَتهم، ويزيلَ عن نفسه الهمَّ إذا عرف أنّه لا فائدة فيه. ولقد حدثني شيخنا يونس بن عبد الله القاضي قال: سمعت يحيى بن مجاهد الفزاري الزاهد يقول: هذا كان أوان طلبي للعلم؛ إذ قوي فهمي واستحكمت إرادتي. فقلت له: فعلّمنا الطريق، لعلنا ندرك ذلك بِوَصاتك، في استقبال أعمارنا قال: نعم كنت آخذ من كل علم طرفاً، فإنَّ سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة، أو كلاماً هذا معناه. قال أبو محمد: ولقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإذا بلغ الإنسان حيث ذكرنا، أخذ في النظر في حدود المنطق وعلم الأجناس والأنواع والأسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والنتائج، ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب، وكيف التحفظ مما يظن أنّه برهان وليس ببرهان؟ فبهذا العلم يقف على الحقائق كلها ويميزها من الأباطيل تمييزاً لا يبقى معه ريب.

وينظر في الطبيعيات، وعوارض الجو، وتركيب العناصر، وفي الحيوان والنبات والمعادن، ويقرأ كتب التشريح، ليقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع وتأليف الأعضاء واختيار المدبر وحكمته وقدرته.[1]

فإذا أحكم ذلك في خلال ابتدائه بالنظر في العلوم فلا يكنْ منه إغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة، وقراءة التواريخ القديمة والحديثة، ليقف من ذلك على فناء الممالك المذكورة، وخراب البلاد المعمورة، ودثور المدائن المشهورة، التي طالما حُصِّنت وأُحكمت مبانيها، وذهاب من كان فيها وانقطاعهم، وتقلّب الدنيا بأهلها، وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد، ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم، ورحل بنوهم وضاعوا، وبقي ما تحملوا من الآثام والذم والذكر القبيح لازماً

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٢.

لأرواحهم في المعاد ولذكرهم في الدنيا، فيحدث له فيها بذلك زهد وقلة رغبة، وليشرف على اغترار الملوك بها، لعظيم الحسرات النازلة بهم وبمخلفيهم، وليقف على حمد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها، ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها. ويوفي على تيقّن النصح منها لما يرى من تناصر التواريخ على تباعد أقطار حامليها، وتفاوت أزمانهم وتباين هممهم، واختلاف أديانهم، وتفرق مذاهبهم على نقل قصة ما، فيوقن أنها حقّ لا شك فيه، ويسمع بخلاف نقلهم في قصة ما، فيدري أنها مضطربة. ويرى أخبار العلماء والصالحين فيرى الحرص على مثل حالهم، ويرغب في إلحاق اسمه بأسمائهم إذا سلك طريقهم، وحذا حذوهم، وعمل عملهم، ويطالع آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عليهم، وما أبقوا من الأسماء الذميمة، فيمقت طريقهم، ويجتنب أنْ يكون مذكوراً فيهم، ويجعل هذا العلم خاصة وقت راحته وسآمته من تعلّم غيره من العلوم، فإنَّ هذا العلم سهل جداً ومَنْشطٌ ومُنتَزَهٌ ولذة، لا ينبغي لأحد أنْ يخلو منه، فلا يدري أثراً ولا ما تقوم به الحجة من الأخبار التي يضطر إلى العلم بها حقيقة، بل يكون بمنزلة من قدَّر أنَّ العالَـم لم يكن إلا مذ كان هو.

فإذا أحكم ما ذكرنا فأولى الأشياء به معرفة ما له خرج إلى هذا العالم، وما إليه يرجع إذا خرج من هذا العالم، وبيان ذلك بيانُ انقضاء أيام سفره، فإنها قليلة جداً، فلا شيء أوكد عليه من هذا؛ لأَنَّ ما عدا ذلك من بؤس ونعيم ولذة ومال ورياسة وفقر وخمول ونكد فمنقضٍ كله في أسرع وقت، لسنا نقول بالموت الذي لا بد منه فقط، بل بالهرم وعوارض الدهر الذي لا يؤمن تقلبه بأهله قبل كر الطرف.[1]

فيلزم المرء أنْ ينظر -إذا أحكم ما ذكرنا- أنْ يطلب البرهان من العلوم الضرورية التي ذكرنا على: هل العالم مُحدَث أو لم يزل. فإذا حصل له أنّه مُحْدث وذلك قائم في إحصاء العدد لأزمانه وعدد أشخاصه وأنواعه، نظر هل له مُحدِثٌ أو لا محدث له، فإذا حصل له أنّه مُحدَث لم يزل، وهذا قائم من باب الفضائل من حدود المنطق، نظر هل المحدِث واحدٌ أو أكثر من واحد، فإذا حصل له أنّه واحد وهذا قائم من باب

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٣.

الإحصاء المذكور في العدد، نظر هل النبوة ممكنة أو واجبة أو ممتنعة، فإذا حصل له أنها ممكنة بالقوة بما يوجبه أنَّ المحدِث للعالم مختارٌ لا يعجز عن شيء، ثم إذا حصل له أنّه قد وجدت بالأخبار الضرورية، نظر في النبوات التي افترقت عليها المِلَل، فإذا حصل له أنَّ كل ما ثبتت به نبوة واحد منهم، فواجب أنْ تثبت بمثله نبوة من نَقَل عنه مثل الذي نقل عن غيره منهم، وقف عند ذلك وسلّم الأمر إلى من صحَّت له البراهين بنبوّته، وأنه عن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم، وعن عهوده يُخبرُ، وتبحَّث حينئذٍ عن كل ما أُمِر به أو نُهي عنه، فاستعمل نفسه به، ولم يقبل من إنسان مثله لم يؤيّد بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، أمراً ولا نهياً، فهذا طريق الخلاص، وشارع النجاة ومحلة الفوز، التي من عاج عنها طال تحيره وتردّده، وافترقت به السبل حتى يهلك خاسراً نادماً، أو موفياً على النجاة بالبخت، كمن وجد لقطة بلا طلب، ونعوذ بالله من البلاء.[1]

وهذه الطريق التي وصفنا مؤدِّية إلى الإقرار بنبوة محمد ﷺ، وموجبة لطلبنا في القرآن من عهود الله تعالى، وطلب عهوده عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتمييز صحيحها مما لا يصحَّ منها والأخذ بكل ذلك، والتمسك به، فإنَّ هذا معدوم في جميع الملل، حاشا ملة الإسلام؛ لأنَّ ملة من عبد الأوثان أو دان بقول البراهمة المبطلين للنبوات، فإنَّه لا سبيل إلى إثبات شريعة لهم؛ إذ قد أعدموا المثبت الشارع، وأعدموا الطريق الموصلة إليه، فبقي الناس على قولهم سُدىً لا زاجر لهم عن ظلم ولا عن فاحشة، وأما دين المنانية فظاهر التخليط، لقولهم بأن الصانع صَنَع في نفسه، وهذا مُبطَل بما يوجب حدوث العالم على ما بيّناه في كتابنا الموسوم بالفصل بالملل والنحل، وأما شريعة النصارى فإنَّهم مُقرُّون أنَّ شرائعهم ليست عن وحي الله تعالى، وإنما هنَّ وضع زكريا الملك وسائر بطارقته، وهذا شيء تشهد العقول بأنه لا يلزم؛ إذ لم يُوجب إلزامه برهان، وأما ملة المجوس فهم معترفون بأن ثلثي كتابهم ذهب، وأنَّ في ذلك الذاهب كانت الشرائع، ومن الباطل الممتنع أنْ يكلّف الله تعالى الناس أنْ يعملوا بشيء لا يدرونه، وقد ذهب عن أيديهم ويقرون أنَّ أزدشير بن بابك وضع لهم شرائع غير التي كانت لازمة لهم، فهذا

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٤.

لا يعتقده إلا جاهل، ولا يدين به إلا مخذول، وأما ملة اليهود فمعترفون أنَّ أكثر شرائعهم اللازمة لا سبيل لهم إليها؛ إذ خرجوا عن صهيون، وأن شرائع الربانيين منهم التي هم الآن عليها، هي غير شرائعهم التي أُمروا بها في التوراة، وأنّ علماءهم عوَّضوهم عن تلك هذه، ويلزمهم الإقرار بمن صحّ عنه من الأعلام مثلما صحَّ عن نبيهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.(١)

فإنْ اشتغل مغفل عن علم الشريعة بعلمٍ غيره، فقد أساء النظر وظلم نفسه؛ إذ آثر الأدنى والأقلّ منفعة على الأعلى والأعظم منفعة، فإنْ قال قائل: إنَّ في علم العدد والهيئة والمنطق معرفة الأشياء على ما هي عليه، قلنا: إنَّ هذا حسن إذا قُصدَ به الاستدلال على الصانع للأشياء بصنعته، ليتدرج بذلك إلى الفوز والنجاة والخلاص من العذاب والنكد؛ وأما إنْ لم يكن الغرض إلا معرفة الأشياء الحاضرة على ما هي عليه فقط، فطالب هذه العلوم، ومن جعل وكده معرفة صفة البلاد على ما هي عليه، وصفات سكان أهل كل بلدة، وما هي عليه صورهم سواء، ومن كان هذا هو غرضه فقط، فهو إلى أنْ يوصف بالفضول والحماقة أقرب منه إلى أنْ يوصف بالعلم؛ إذ حقيقة العلم هو ما قلنا إنَّه يطلبه لينتفع به طالبه، وينتفع به غيره في داره العاجلة وداره الآجلة، التي هي محل قراره، ومكان خلوده، وبالله تعالى نتأيد.

فإن كان المرء العالم في كفاف من العيش، من وجه مرضيّ، فليحمد الله عَزَّوَجَلَّ، وليقنع به، وليعمل لدار القرار، ولا يسرّه الإكثار من أحجارٍ وخِرَقٍ يتركها عما قريب، أو تتركه. وإن كان في حاجة، فإن أمكنه أنْ يجعل مكتسبه من العلم فحسن، إما أنْ يكون معلِّم هجاءٍ -فهي فضيلة عظيمة؛ لأنه سبب حياة كل من تعلّم منه شيئاً، وله الأجر المضاعف مِن كل من يتعلم ممن علَّمه هو إلى انقضاء الأبد، بأن كان سبب حياة نفوسهم- أو مؤدب نحو، أو مؤدب حسابٍ أو طبيباً. فإن كان في أحد هذه السبل فلينصح في صناعته تلك، وليطلب التزيد من العلم بما أمكنه، ليكون سبباً للخير في تعليم الجاهل، وإبراء الأدواء بإذن الله تعالى، ولا يرضَ بالغشّ والتمويه،

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٥.

فيفسد خلقه ومتاعه ومكتسبه فتخسر صفقته، وليستعمل القناعة جهده.

وإن ابتلي بصحبة سلطان فقد ابتلي بعظيم البلايا، وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه، وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه، فلا يشاركه في محظور ألبتة، وإن أداه ذلك إلى التلف، فلأن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً أفضل من أنْ يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً، ولعل تلفه سريع، وإن تأخر مدة فلا بدّ من التلف، وليعلم أنَّ السلطان إذا رأى منه إشفاقاً على دينه ونصيحة له فيما لا يؤذيه في معاده، فإنَّه تتزيد ثقته به، ويجلُّ في عينه، وإذا رآه شرهاً مؤثراً عاجلته على آخرته، ساء ظنه به، ولم يأمنه على نفسه إذا رأى الحظ له في هلاكه.

ولقد نكره للفاضل أنْ يصحب السلطان بعلم الطب، فإنَّ الغالب على الملوك الجهل والسبعية وقلة الصبر على ما قطع بهم عن لذاتهم، وتدبير الأصحاء ومعاناة المرضى لا يحتمل هذا، فهم دأباً يكلفون الطبيب إحياء الموتى ويستقصرونه دون هذه المنزلة، فإن اتبع أهواءهم غشَّهم، وإن نصحهم عصوه واستثقلوه.[1]

وأما صحبتهم بالنجوم فلا يدخل في ذلك ذو مسكة عقل ألبتة؛ لأنه يتعاطى ما ليس في قوته الوفاء به، فهو دهره في كذب متصل، ومواعيد مختلقة وخدائع متصلة، وفضائح متواترة، وخزايا متتابعة. وكدُّ من اتصل بسلطان إصلاح أخلاقهم وحملهم على البر وصرفهم عن المأثم جهده وطاقته.[2]

ودعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت، ثم قصدٌ إلى عين العلم، ليخرج به عن جملة أشباه البهائم فقط، لا ليجعله مكتسبه ولا ليمدح به، وذكاء وفهمٌ وبحث وذكر وصبر على كل ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به. فإذ لا سبيل إلى ذلك، فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٧٧.

لضاعت العلوم ولم توجد. وهذا خطأ ممن ذم الإكثار منها، ولو أُخِذَ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادَّعوا ما شاءوا. فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل. وسقوط الأنفة في التكرر على العلماء، وتقييد ما يسمع وجمعه، وملازمة المحبرة والكتب يده وكُمَّه، وسكنى حاضرة فيها العلم، ولقاء المتنازعين وحضور المتناظرين، فبهذا تلوح الحقائق، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد كمن تكلم عن غيره، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة، ومن لم يسمع إلا من عالم واحد أوشك أنْ لا يحصل على طائل، وكان كمن يشرب من بئر واحدة، ولعله اختار الملح المكدر، وقد ترك العذب. ومع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحقّ، ولا بد، فمن طلبه كما ذكرنا أوشك أنْ ينجح مطلبه، وأن لا يخفق سعيه، وأن يحصل في المدة اليسيرة على الفائدة العظيمة. ومن تعدَّى هذه الطريق كثر تعبه، وقلّت منفعته. ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره، أوشك أنْ يكون ضحكة وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه أكثر مما أدرك منه، لتعلق العلوم بعضها ببعض، كما ذكرنا، وأنها درج بعضها إلى بعض، كما وصفنا، ومن طلب الاحتواء على كلّ علم أوشك أنْ ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء، وكان كالمحضر إلى غير غاية؛ إذ العمر يقصر عن ذلك، وليأخذ من كلّ علم بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لا بد له منه كما وصفنا، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته، فيستكثر منه ما أمكنه، فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، على قدر زكاء فهمه، وقوة طبعه، وحضور خاطره، وإكبابه على الطلب، وكل ذلك بتيسير الله تعالى، فلو بإرادة المرء كان، لكان مُنى كلّ أحدٍ أنْ يكون أفضل الناس. والفهم والعناية مقسومان كقسمة المال والحال:

... ... ... ... ... ... ... والحظُّ مقسومٌ فأجملْ في الطلب

ومن طلب العلم ليفخر به أو ليمدح به أو ليكتسب به مالاً أو جاهاً، فبعيداً عن الفلاح؛ لأنه ليس له غرض في التحقيق فيه، وإنما غرضه شيء آخر غير العلم. ونفس الإنسان وعينه طامحتان إلى غرضه فقط، فلا يبالي كيف كان طلبه إذا حصل على مراده الذي إياه قصد.

فالعلوم تنقسم أقساماً سبعة عند كل أمة، وفي كل زمان وفي كل مكان وهي:

علم شريعة كل أمة، فلا بد لكل أُمَّة من معتقد ما، إما إثبات وإما إبطال، وعلم أخبارها وعلم لغتها، فالأمم تتميز في هذه العلوم الثلاثة، والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها، وهي علم النجوم، وعلم العدد والطب، وهو معاناة الأجسام، وعلم الفلسفة، وهي معرفة الأشياء على ما هي عليه، من حدودها من أعلى الأجناس إلى الأشخاص، ومعرفة إلهية.

وقد بينا أنَّ كل شريعة سوى الإسلام فباطل، فالواجب الاقتصار على شريعة الحق، وعلى كل ما أعان على التبحُّر في علمها.[1]

وعلم شريعة الإسلام ينقسم أقساماً أربعة: علم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الكلام:

**فعلم القرآن**: ينقسم إلى معرفة قراءته ومعانيه.

**وعلم الحديث**: ينقسم إلى معرفة متونه ومعرفة رواته.

**وعلم الفقه**: ينقسم إلى أحكام القرآن، وأحكام الحديث، وما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه، ومعرفة وجوه الدلالة، وما صحّ منها وما لا يصح.

**وعلم الكلام**: ينقسم إلى معرفة مقالاتهم ومعرفة حجاجهم وما يصح منها بالبرهان، وما لا يصح.

**وعلم النحو**: ينقسم إلى مسموعه القديم وعلله المحدثة.

**وعلم اللغة**: مسموع كله فقط.[2]

**وعلم الأخبار ينقسم على مراتب**: إما على الممالك أو على السنين، وإما على البلاد، وإما على الطبقات، أو منثوراً. فأصح التواريخ عندنا تاريخ الملة الإسلامية ومبدؤها،

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٧٩.

وفتوحها وأخبار خلفائها، وملوكها والمنتزين عليهم وعلمائهم، وسائر ما انتظم بذلك. وأما تاريخ بني إسرائيل فأكثره صحيح وفي بعضه دخل، وإنما يصح منه أخبارهم مذ صاروا بالشام إلى أنْ خرجوا عنها الخرجة الآخرة، لا من قبل ذلك. وأخبار الروم إنَّما تصح من عهد الاسكندر لا ما قبل ذلك. وأخبار الترك والخزر وسائر أمم الشمال وأمم السودان للأخبار... فالطالب للأخبار ينبغي له ألا يشتغل إلا بما أعلمناه بصحته -ولا ينبغي له قطع وقته بما لا يجدي عليه نفعاً- لا بما أخبرناه ببطلانه، فقد كفيناه التعب في ذلك..

وعلم النسب جزء من علم الخبر.

**وعلم النجوم**: ينقسم إلى معرفة علم الهيئة والتعديل ببرهانه، ثم الذي يذكرونه من القضاء.

**وعلم العدد**: ينقسم إلى ضبط قوانينه، ثم برهانه، ثم العمل بذلك في المساحات وغير ذلك.

**وعلم المنطق**: ينقسم إلى عقلي وحسي، أما العقلي فإلهي وطبيعي، وأما الحسي فطبيعي فقط.

**وعلم الطب**: ينقسم قسمين: طب النفس وهو من نتيجة علم المنطق بإصلاح الأخلاق ومداواتها وصرفها عن الإفراط والتقصير وإقامتها على الاعتدال؛ وطب الأجسام: وهو ينقسم إلى معرفة الطبائع الجسمية ومعرفة تركيب الأعضاء ومعرفة العلل وأسبابها، وما تعارض به من الأدوية وتميز القويّ من الأدوية والأغذية، وينقسم أيضاً قسمين: عمل باليد كالجبر والبط والكيّ والقطع، وعمل في صرف قوى العلل بقوى الأدوية، وينقسم أيضاً قسمين: حفظ الصحة لئلا يحدث المرض ثم معاناة المرض.

**وعلم الشعر**: ينقسم إلى روايته ومعانيه ومحاسنه ومعايبه وأقسامه ووزنه ونظمه.

وها هنا علمان إنَّما يكونان نتيجة العلوم التي ذكرنا إذا اجتمعت، أو من نتيجة اجتماع علمين منهما فصاعداً، وهما علم البلاغة، وعلم العبارة:

فأما علم البلاغة فإن صرفه صاحبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى تبيين الحقائق وتعليم الجهال فهي فضيلة، وأما إن صرفه في ضد ذلك خسرت صفقته؛ إذ أتعب نفسه وأفنى عمره فيما هو وبال عليه، ونعوذ بالله من البلاء.[1]

وأما علم العبارة فهو طبع في المعبر مع عون العلم عليه، ولا يقطع بصحته إلا بعد ظهور ذلك عليه لا قبله.

فهذه الأفانين هي التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم.

وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما عُلِمَ فهو علم؛ فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها وغرسها والبناء وغير ذلك. إلا أنَّ هذه إنَّما هي الدنيا خاصة فيما بالناس إليه الحاجة في معايشهم. والعلوم التي قدمنا، الغرض منها التوصل إلى الخلاص في المعاد فقط، فلذلك استحقت التقديم والتفضيل، وبالله تعالى التوفيق.

ونحن نوصي طالب العلم بأن لا يذم ما جهل منها، فهو دليل على نقصه وقوله بغير معرفة، وأن لا يعجب بما علم فتطمس فضيلته، ويستحق المقت من الواهب له ما وهب، وأن لا يحسد من فوقه حسداً يؤديه إلى تنقيصه، فهذه رذيلتان. وأما إن حسده ولم ينتقصه، وكان ذلك رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه محسوده فحسن، وهو رغبة في الخير. وأن لا يحقر من دونه فقد كان في مثل حاله قبل أنْ يعلم ما علم. وأن لا يكتم علمه، فيحصل هو ومن لا علم له في منزلة واحدة؛ إذ كلاهما غير مستعمل للعلم ولا مظهر له. وأن لا يتكلم في علم قبل أنْ يحكمه فيخزى، وأن لا يطلب بعلمه عرض دنياه فيبذل الأفضل بالأدنى، وأن يستعمل تقوى الله تعالى في سره وجهره، فهو زين العالم، وبالله التوفيق.[2]

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٠.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٨١.

## فصل

والعلوم التي ذكرنا يتعلق بعضها ببعض، ولا يستغني منها علم عن غيره، فأول ذلك أنا قد أبنَّا أنَّ غرضنا من الكون في الدنيا والمطلوب بتعلم العلوم، إنَّما هو تعلم علم ما أراد الله تعالىٰ منا، وما به أخبر عنا، وما به يكون المخلص من هول مكاننا الكدر المظلم المشوب بالآفات المملوء من أنواع المتالف والمهالك، والمحفوف بأصناف البلايا والمعاطب، وهو المعرفة بالشريعة والإعلان بها والعمل بموجبها، فإذ الأمر كذلك، فلا سبيل إلىٰ صحة المعرفة بها واستحقاق حقيقتها إلا بمعرفة أحكام الله عَزَّوَجَلَّ، وعهوده إلينا في كتابه المنزل، وبمعرفة ما وصّانا به محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وبلّغه إلينا، وما أجمع علماء الديانة عليه، وما اختلفوا فيه، ولا يوصل إلىٰ هذا إلا بمعرفة الناقلين لتلك الوصايا وأزمانهم وأسمائهم وأنسابهم، للفرق بين ما اتفقت فيه الأسماء، وبمعرفة المقبولين من غيرهم ومعرفة من لقوا فحدَّثوا عنه ممن لم يلقوه فبلغهم عنه، وبمعرفة القراءات المشهورة ليوقف بذلك علىٰ ما تنفق فيه المعاني، مما تختلف فيحدث باختلافها حكم ما، وكل هذا لا يتم إلا بمعرفة مستعمل اللغة، ومواقع الإعراب الذي تختلف المعاني باختلاف أمثلته وأشكاله، ولا بدَّ في اللغة والإعراب من التعلق بطرف من علم الشعر، ولا بد من المعرفة بالنسب بما يدري المرء من تجوز الإمامة ممن لا تجوز فيهم، ومن هم الأنصار الذين أمرنا بالإحسان إلىٰ محسنهم والتجاوز عن مسيئهم، ومن هم أولو القربىٰ الذين حرمت عليهم الصدقة، ولا بد أنْ يعرف من الحساب ما يعرف به القبلة والزوال إلىٰ أوقات الصلوات، ولا يوقف علىٰ حقيقة ذلك إلا بمعرفة الهيئة، ولا يعرف حقيقة البرهان في ذلك إلا من وقف علىٰ حدود الكلام، ولا بد أنْ يعرف من الحساب أيضاً كيف قسمة المواريث والغنائم، فإنَّ تحقيق ذلك فرض لا بد منه.[1]

ولا بد في الشريعة من معرفة العيوب التي تجبُّ التكليف كعاهة الجنون المتملكة، وقوام الآفات والأدواء، فلا بدَّ من معرفة العلل ومداواتها، وهو علم الطب. والدعاء

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٢.

إلى الله عَزَّوَجَلَّ واجب، ولا سبيل إليه إلا بالخطّ والبلاغة، ومعرفة ما تستجلب به القلوب من حسن اللفظ وبيان المعنى، ولا يكون هذا إلا بالمعرفة الشرعية وباللغة وبالإعراب، وبالفصاحة، وحكم المنظوم والمنثور.

والرؤيا حق، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فلا بد من معرفة عباراتها، ولا تكون عباراتها إلا بالتمكّن في العلوم المذكورة.

وأما القضاء بالنجوم فلا يعرف بطلانه إلا من أشرف عليه، ولا يعرف الخطأ من الصواب إلا بمعرفتهما معاً، فهذا وجه تعلّق العلوم بعضها ببعض، وافتقار بعضها إلى بعض.

وإن لم يتمكن المرء الإحاطة بجميعها فليضرب في جميعها بسهم ما وإن قلَّ، -كما قدَّمنا - وليكن الناس فيها في تعاونهم على إقامة الواجب من ذلك عليهم كالمجتمعين لإقامة منزل، فإنَّه لا بدَّ من بنَّاء وأجراء ينقلون الحجر وينقلون الطين، ومن صنّاع القرمد، وقطّاعي الخشب، وصناعي الأبواب والمسامير حتى يتم البناء، وكذلك سائر ما بالناس الحاجة إليه من الحرث، فإنَّه لا يتم إلا بالتعاون على القيام بآلاته والعمل بها. وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقي إلى عالم الخلود، ورضى الخالق أوجب وأكرم، وبالله تعالى نتأيد.[1]

## فصل

ومن السمج القبيح بقاء الإنسان فارغاً في مدة إقامته في هذه الدار، مفنياً تلك المدة فيما غيره أولى به وأحسن منه، في حماقة وبطالة أو معصية وظلم. وقد سمعت شيخنا ابن الحسن يقول لي ولغيري: إن من العجب من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة. أما يرى الحراث يحرث له، والطحان يطحن له، والنساج ينسج له، والخياط يخيط له، والجزار يجزر له، والبنَّاء يبني له، وسائر الناس كل متولٍّ شغلاً، له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة؟ أفما يستحي أنْ يكون عيالاً على كل العالم لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة؟ ولقد صدق، ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له. وأي كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٣.

الناس. وقد نبه الله تعالىٰ عباده بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فكل ما لمخلوق فيه مصلحة في دينه أو ما لا غنىٰ للمرء عنه في دنياه فهو برٌّ وتقوىٰ، إذا استعان به علىٰ أمر الله وحضَّ عليه. وأفضل ما استعمله المرء في دنياه، بعد أداء ما يلزمه لله تعالىٰ في نفسه من تعلم اعتقاده من قول وعمل، أنْ يعلم الناس دينهم الذي له خُلقوا، فيقودهم إلىٰ رضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويخرجهم بلطف خالقه تعالىٰ من الظلمة العميَّة إلىٰ النور الخالص، ومن المضيق المهلك إلىٰ السعة الرحبة، ثم الحكم بالحق، والمنع من الظلم، والذب عن الحوزة، بجهاد أهل الحرب والمحاربة وأهل البغي، وإقامة الناس علىٰ ما خُلقوا له من إقامة الدين الذي افترضه الله تعالىٰ عليهم، ثم العون في إحراز ما ذكرنا، بكتابة واحتراز وقسمة، وإقامة حدّ وقبض مال واجبٍ قبضُه وغير ذلك، ثم هكذا أبداً كل ما فيه عون علىٰ ذلك حتىٰ يبلغ الأمر إلىٰ الصناعات التي لا غنىٰ بالناس عنها.[1]

واعلم أنَّ كل أحد من الناس ممن له تمييز صحيح، فإنَّه لا يخلو من أنْ يكون موقناً بصحة المعاد بعد الموت وبالجزاء، أو يكون شاكاً في ذلك، أو يكون معتقداً أنْ لا معاد ولا جزاء، وإنما هي هذه الحياة الدنيا فقط. فإن كان ممن يوقن بالمعاد والجزاء فاللازم له إجهاد نفسه واستفراغ طوقه فيما يتخلص به من الهلكة في معاده، ويكون حينئذٍ إذا اشتغل بغير ذلك وضيع ما فيه نجاته وخلاصه في الأبد، فاسدَ التمييز سخيف العقل مذموماً مهلكاً لنفسه، بل أسوأ حالة من المجانين والحيوان الدارج غير الناطق. ولا مخلص في المعاد إلا بالبحث عن شريعة الحق وإيثار تعلّمها علىٰ كل علم. وإحراز نجاته في دنياه الآجلة. فالواجب عليه إجهاد نفسه وترك كل حال شاغلة له عن البحث عن صحة الأمر، عن أنَّ المعاد حق أو شيء غيره حق. وإذا اشتغل بذلك عن شيء غيره، فهو بلا شك فاسد التمييز، خاسر الصفقة مغرّر بنفسه عن الأمر الذي فيه عظيم البلاء عليه، أو كثير السعادة له، ولا يصل إلىٰ علم ذلك إلا بالبحث عن الشرائع، وطلب البرهان فيها حتىٰ يقع علىٰ حقيقة الأمر في ذلك.

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٤.

وإن كان غير معتقد لصحة المعاد، ولم يكن عنده شيء غير هذه الدار، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما: إما أنْ لا يكون يرىٰ إمراج النفس في الشهوات، وإهمالها في اللذات وإطلاقها علىٰ اتباع الهوىٰ -فإن كان هذا هكذا فليس أولىٰ بذلك فيه من غيره؛ وهذا رأي يقتضي له أنْ لا يتظلم ممن تلف بقتله وأخذ ماله أو هتك ستره وتسخيره فيما يلذ به غيره وإشقائه فيما ينعم به سواه، ولا أخسر صفقة ممن يرىٰ أنْ لا دار له سوىٰ هذه، ثم لا يكون حظه منها إلا الشقاء والتعب والهلكة- أو يكون ممن يقول بالسياسة التي جماعها الأمن له من غيره، ولغيره منه، علىٰ دمه وحرمته وبشرته وماله، وشمول العافية وصلاح الحال والكفاية. وهذا لا يصح ألبتَّة، ولا يوجد إلا باستعمال الشريعة الداعية بالوعيد بالآخرة، والعقاب في الدنيا لأجل معصيته، فإذ لا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالشريعة فالاشتغال بها هو الغرض، والاشتغال عنها رأيٌ فاسد.[1]

وأيضاً فإنَّ المشتغل بعلم الشريعة محصِّلٌ الأمن من السلطان والخاصة والعامة، متصدّ لعلو الحال في الدنيا والصلاح فيها؛ ومن خالفها محصل للمخالفة للسلطان والخاصة والعامة، متعرض للبلاء في دمه وحاله وماله؛ فلا أضعف حالاً ولا أسوأ تمييزاً ولا أضعف عيشاً ممن لا يقر بالمعاد ولا يعرف إلا هذه الدار، ثم هو متعرض للبلاء مدة حياته. وإنما يتحمل الأذىٰ والمخاوف ويتعرض للهلكة والبلاء من يرىٰ أنّه إذا خرج من هذه الدار صار إلىٰ الحياة الأبدية، والنعيم السرمدي والسرور الخالد، وإلا فهو أحمق مجنون. وإنما قلنا هذا البرهان العقلي الحسي الضروري: إن إيثار علم الشريعة علىٰ كل علم واجب علىٰ كل من لا يقر بالمعاد، وعلىٰ من يشك بالمعاد، كوجوبه علىٰ من يقر بالمعاد.

وإن قوماً قويَ جهلهم، وضعفت عقولهم، وفسدت طبائعهم، يظنون أنهم من أهل العلم، وليسوا من أهله، ولا شيء أعظم آفة علىٰ العلوم وأهلها، الذين هم أهلها بالحقيقة من هذه الطبقة المذكورة؛ لأنهم تناولوا طرفاً من بعض العلوم يسيراً، وكان الذي فاتهم من ذلك أكثر مما أدركوا منه، ولم يكن طلبهم لما طلبوا من العلم لله تعالىٰ،

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٥.

ولا ليخرجوا من ظلمة الجهل، لكن ليزدروا بالناس زهواً وعجباً، وليماروا لجاجاً وشغباً، وليفخروا أنهم من أهله تطاولاً ونفجاً، وهذه طريق مجانبة الفلاح؛ لأنهم لم يحصلوا على الحقيقة، وضيعوا سائر لوازمهم فعظمت خيبتهم، ولم يكن وكدهم أيضاً، مع الازدراء بغيرهم، إلا الازدراء بسائر العلوم وتنقيصها، لظنهم الفاسد أنّه لا علم إلا الذي طلبوا فقط. وكثيراً ما يعرض هذا لمبتدئ في علم من العلوم وفي عنفوان الصبا وشدة الحداثة. إلا أنَّ هؤلاء لا يرجى لهم البرء من هذا الداء، مع طول النظر والزيادة في السنّ.[1]

فقصدُنا أنْ نُرِيَ كلَّ من هذه صفته أحد وجهين: إما نقص علمه الذي يتبجح به عن غيره من العلوم؛ أو فاقة علمه ذلك إلى غيره من العلوم، وأنه إن لم يُضِفْ غيره من العلوم إلى علمه كان ناقصاً لا ينتفع به كبير منفعة، بل لعله يستضرُّ به جداً:

فمن ذلك أنا وجدنا قوماً من أهل طلب العلم، أعني الديانة، يزْرونَ بسائر العلوم، وهذا نقص عظيم شديد لا ينتفع به صاحبه في قسمة الفرائض والمواريث، وأن يعرف من المطالع ما يعرف به أوقات الصلوات ودخول شهر رمضان -شهر الصوم- ووقت الحج، وإن لم يعرف مضار المأكل والمشرب، أوشك أنْ يتناول ما يؤذيه ويضرّ به، وذلك محرّم، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتداوي فاتباع أمره فرض. فتعلُّم الطب فرض على الكفاية، ومضيَّعهُ مضيّعُ فرض. والقرآن عربي فلا سبيل إلى أنْ يعلمه من لم يعلم العربية، ولا سيما إن كان المذكور لم يتناول من الشريعة إلا علماً واحداً من علومها، فهذا إنسانٌ ناقصٌ مسيء إلى نفسه مهلك لها؛ لأنه إن تناول علم القرآن ولم يتناول علم السنن كانت يده من الدين صفراً، وكان علمه عليه لا له. ومن أحسن علم السنن ولم يحسن علم القرآن لم يعلم ما يجوز به القراءة مما لا يجوز، وما أنزل الله تعالى مما لم ينزل. وإن تعلق بالفتيا دون علم بالقرآن والسنن فهو والحمار سواء، ولا يحل له أنْ يفتي؛ لأنه لا يدري أحق أم باطل، وإنما يفتي مقلداً لمن لا يدري هل أصاب أو أخطأ، ولا يعرف ما هو عليه أهو من الدين أم من غير الدين إلا ظناً.

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٦.

وإن تعلّق بالكلام دون أنْ يعرف السنن كان هالكاً، لمغيبه عن حقيقة الشريعة التي كلّفه الله تعالىٰ إياها، وألزمه أداءها.[1]

ووجدنا قوماً طلبوا علوم العرب، فازدروا علىٰ سائر العلوم كالنحو واللغة والشعر والعروض، فكان هؤلاء بمنزلة من ليس في يده من الطعام إلا الملح، وليس معه من السلاح إلا المصقلة التي بها يجلىٰ السلاح فقط، وكان الواحد منهم غائباً عن علم الشريعة التي لا معنىٰ لخروجنا إلىٰ هذا العالم غيرها، ولا خلاص لنا ولا سلامة عند خروجنا من الدنيا إلا بها، وكان بمعزل عن علم الحقائق.

ووجدنا قوماً طلبوا علوم الأوائل أو علماً منها، واتخذوا سائر العلوم سخرياً مثل من تعلق بالطب فلم ير علماً غيره؛ فيقال له: إنك لا تشك أنّه قد يكون فيمن لا يتعانىٰ ولا يحسن الطب أحسن أجساماً وأطول أعماراً من المتعنِّين، كأهل البادية والعامة والبلاد التي لا يحسن أهلها الطب، هذا أمر لا ينكره منكر، فإنَّ هذا عيان مشاهد، فما فائدة الطب إذن؟ ولا غرض لأهله إلا تصحيح الأجسام ودفع الأمراض المخوف منها الموت ولم يحصلوا من هذا الغرض إلا علىٰ أقلّ مما حصل عليه غيرهم. ومثل قوم من أهل الهندسة وعلم الهيئة لا يرون ما عدا ذلك من العلوم إلا هذراً ولغواً، فيقال لهم: ما الفرق بين معرفة قطع كوكب كذا وكوكب كذا وصفة برج كذا وبرج كذا من الأرض، وبين صفة مدينة كذا، وحركات ملك فلانة، أو حركات فلان وفلان؟ وهذا لا سبيل لهم إلىٰ المخلص منه؛ لأنَّ كلَّ ذلك خبر عن بعضهم ما في العالم فقط لا يفيد فائدة إلا المعرفة بما عرف من كل ذلك، أنّه علىٰ هيئته والاستدلال بكل ذلك علىٰ الصانع المدبر سواء. فإنْ صار إلىٰ علم القضاء لم يحصل إلا علىٰ دعاوىٰ كاذبة وخرافات لا تصح، بل البرهان قائم علىٰ بطلان هذه الدعاوىٰ، بما قد أحكمناه في غير هذا الموضع، ومن ذلك أنهم لا يدعون علىٰ ذلك دليلاً أصلاً إلا تجارب يذكرونها وهذا باطل؛ لأَنَّ تلك التجارب لا يمكن إثباتها ألبتة، ولأنها لا تكون إلا في مدد طوال، ولا سبيل إلىٰ بقاء دولة ولا استمرار حالة علىٰ سلامة، مقدار تلك المدة أبداً، ونقول لهم:

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٧.

إنَّ أصحَّ ما بأيديكم، بإقراركم المواليد والقرانات، ونحن نجد الكبش يولد ويعيش ويذبح وهو يباشر أكله في دقيقة واحدة، ثم يعمل من جلده أديم، فبعضه رقٌّ يُنسخُ فيه، وتطول مدة بقائه، وبعضه نطائق تقطع وتعفن، ولم يتقدم في الوجود والنشأة بعض ذلك الأديم بعضاً. وأيضاً فإنهم خابوا من علم الشريعة الذي هو الحقيقة. وطائفة حصلت على علم حدود المنطق، فنقول لهم: إنكم لم تحصلوا إلا على العلوم التي لا منفعة لها ولا فائدة، إلا تصريفها في سائر العلوم، فأنتم كمن جمع آلة البناء ولم يصرفها في البنيان، فهي معطلة لديه لا معنى لها، فإن قالوا: إن لهذه العلوم معايش ومكاسب، قلنا: هي أضعف المكاسب وأقل المعايش سعة، فإذ ليس غرضكم إلا هذا، فالتجارة والزراعة وصحبة السلطان أجدى بالمكسب وأوسع بالوفر حظاً مما أنتم عليه.

ولم نورد شيئاً من هذا تنقيصاً لشيء من هذه العلوم -ومعاذ الله من هذا- ولو فعلنا ذلك لدخلنا في جملة من نذم، ولركبنا الملة الخسيسة، لكن تنقصاً لمن قصد بعلمه ذمَّ سائر العلوم وتنقصها. وأما من طلب علماً ما، لم يفتح الله تعالى له في غيره، وهو مع ذلك معترف بفضل سائر العلوم، ونقص حاله إذ أقصر عنها، فهو محسن محمود فاضل قد تعوض الإنصاف والعدل والصدق مما فاته منها، فنعم العوض ما حصل عليه، ولا ملامة عليه فيما لم يفتح الله تعالى له فيه، وأما من أخذ من كل علم ما هو محتاج إليه، واستعمل ما علم كما يجب فلا أحد أفضل منه؛ لأنَّه قد حصل على عز النفس وغناها في العاجل، وعلى الفوز في الآجل، ونجا مما حصل فيه أهل الجهل، ومن لم يستعمل ما علم من أضداد هذه الأحوال.[1]

وجملة الأمر أنّه لولا طلب النجاة في الآخرة لما كان لطلب شيء من العلوم معنى؛ لأنَّه تعب، وقاطع عن لذات الدنيا المتعجلة من المشارب والمآكل والملاهي والسفاه والاعتلاء واتباع الهوى؛ فلو لم يكن آخرة يؤدي إليها طلب العلوم، لما كان أحد أسوأ حالاً من المشتغل بالعلم؛ فإذ الأمر كذلك فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض كما بيّنا قبل، محتاج بعضها إلى بعض، ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٨٩.

فقط، وهو علم الشريعة، وبالله تعالىٰ التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.[1]

تمت الرسالة الموسومة بمراتب العلوم والحمد لله رب العالمين وصلاته علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

## خامساً: مختارات من رسالة "في مداواه النفوس"[2]

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الفقيه الأندلسي:

الحمد لله علىٰ عظيم مننه، وصلىٰ الله علىٰ محمد عبده، وخاتم أنبيائه ورسله وسلّم تسليماً كثيراً، وأبرأ إليه تعالىٰ من الحول والقوة، وأستعينه علىٰ كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ويُخلّص في الأخرىٰ من كل هول ومضيق.

أما بعد: فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادنيها واهبُ التمييز تعالىٰ، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحني عَزَّوَجَلَّ من التهمم بتصاريف الزمان، والإشراف علىٰ أحواله، حتىٰ أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه؛ علىٰ جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وعلىٰ الازدياد من فضول المال، وزممتُ كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب، لينفع الله تعالىٰ به من يشاء من عباده، ممن يصل إليه بما أتعبت فيه نفسي، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وأهديته إليه هنيئاً، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك؛ إذا تدبّره، ويسره الله تعالىٰ لاستعماله.

وأنا راج من الله تعالىٰ أعظم الأجر؛ لِنِيَّتِي في نفع عباده، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة علل نفوسهم، وبالله تعالىٰ أستعين، وحسبنا الله تعالىٰ ونعم الوكيل.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٩٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٤١٥.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٤.

## فضل العلم[1]

١٨- لو لم يكن من فضل العلم إلا أنَّ الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة؟! ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أنَّ صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة؟!

١٩- لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنّه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهمّ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره، ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالبُ العلم، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد، والخمر، والأغاني، وركض الدواب في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة. وأما بفائدة فلا.[2]

٢٠- لو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال، ومن الهمِّ بمغيب الحقائق عنه، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره، لزاد حمداً لله عَزَّوَجَلَّ، وغبطةً بما لديه من العلم، ورغبة في المزيد منه.

٢١- من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والتين.

٢٢- نشر العلم عند من ليس من أهله مُفسدٌ لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء.

٢٣- الباخل بالعلم ألوم من الباخل بالمال؛ لأَنَّ الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٣.

٢٤- من مال بطبعه إلى علم ما -وإن كان أدنى من غيره- فلا يشغلها بسواه فيكون كغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا يُنجب.

٢٥- أجلُّ العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

٢٦- انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.[1]

٢٧- العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودةً، وتصفيه من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف.

٢٨- من الغوص على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل، لكان أحكم من الحسن البصري وأفلاطون الأثيني، وبزرجمهر الفارسي.

٢٩- وقف العقل عند أنّه لا ينفع أنْ لم يؤيد بتوفيق في الدين أو بسعد في الدنيا.

٣٠- لا تضر بنفسك في أنْ تجرب بها الآراء الفاسدة لتُري المشير بها فسادها فتهلك، فإنَّ ملامة ذي الرأي الفاسد لك على مخالفته وأنت ناج من المكاره خيرٌ لك من أنْ يقدّرك ويندم كلاكما وأنت قد حصلت في مكاره.

٣١- إياك وأن تسر غيرك بما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة.

٣٢- وقف العلمُ عند الجهل بصفات الباري عَزَّوَجَلَّ.

٣٣- لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون.

٣٤- من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٤.

أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الإتساء به بمنه، آمين آمين.

٣٥- غاظني أهل الجهل مرتين من عمري: إحداهما: بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتي أيام علمي. فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم. وسرني أهل العلم مرتين من عمري، إحداهما بتعليمي أيام جهلي، والثانية بمذاكرتي أيام علمي.[1]

٣٦- من فضل العلم والزهد في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عَزَّوَجَلَّ إلا أهلهما، ومستحقهما. ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال والصوت أنَّ أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما.

٣٧- ومن طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة والبر والصدق، وكرم العشيرة، والصبر والوفاء والأمانة، والحلم وصفاء الضمائر، وصحة المودة. ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكَلِبة والثعالب الخَلِبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد خبيث الطبيعة.

٣٨- منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنّه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله والثناء الرديء فينفر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أنْ يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة. ولا يأتي الفضائلَ من لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جداً فاضل التركيب. وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام؛ لأَنَّ الله تعالى علمهم الخير كله دون أنْ يتعلموه من الناس.

٣٩- وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً، ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٥.

وفساد العلانية والسريرة، شرار الخلق وهذا كثير جداً، فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالىٰ.[1]...

## في حضور مجالس العلم

٢١٥- إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علماً وأجراً، لا حضور مستغن بما عندك، طالباً عثرة تشنِّعها، أو غريبة تُشيعها، فهذه أفعال الأرذال، الذين لا يفلحون في العلم أبداً.

فإذا حضرتها علىٰ هذه النية فقد حصلت خيراً علىٰ كل حال، فإن لم تحضرها علىٰ هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخلقك، وأسلم لدينك.

٢١٦- فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه، لا رابع لها، وهي:

أ- إما أنْ تسكت سكوت الجهال، فتحصل علىٰ أجر النية في المشاهدة، وعلىٰ الثناء عليك بقلة الفضول، وعلىٰ كرم المجالسة ومودة من تجالس.

ب- فإن لم تفعل ذلك فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل علىٰ هذه الأربع محاسن، وعلىٰ خامسة، وهي استزادة العلم.[2]

وصفة سؤال المتعلم؛ أنْ تسأل عما لا تدري، لا عما تدري، فإنَّ السؤال عما تدريه سخفٌ وقلّةُ عقلٍ، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك، ولا لغيرك، وربما أدىٰ إلىٰ اكتساب العداوات. وهو يُعَدُّ عين الفضول. فيجب عليك أنْ لا تكون فضولياً، فإنها صفة سوء. فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك، فاقطع الكلام، فإن لم يجبك بما فيه كفاية، أو أجابك بما لم تفهم فقل له: لم أفهم، واستزده، فإن لم يزدك بياناً وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول، ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلا حصلت علىٰ الشر والعداوة، ولم تحصل علىٰ ما تريد من الزيادة.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٦.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤١١.

جـ- والوجه الثالث أنْ تراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك أنْ تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بيناً، فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك، فإنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر، ولا على تعليم، ولا على تعلم، بل على الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التي ربـمَّا أدت إلى المضرات.

وإياك وسؤال المعنت، ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم، فهما خُلُقا سُوء، دليلان على قلة الدين، وكثرة الفضول، وضعف العقل، وقوة السخف، وحسبنا الله ونعم الوكيل.[1]

وإذا ورد عليك خطاب بلسان، أو هجمت على كلام في كتاب، فإياك أنْ تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة، قبل أنْ تتبين بطلانه ببرهان قاطع، وأيضاً فلا تقبل عليه إقبال المصدق به، المستحسن إياه، قبل علمك بصحته ببرهان قاطع، فتظلم في كلا الوجهين نفسك، وتبعد عن إدراك الحقيقة، ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن النزاع عنه، والنزوع إليه إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى، فالتزيد به علماً، وقبوله إن كان حسناً، أو رده إن كان خطأ فمضمون لك إن فعلت ذلك الأجر الجزيل، والحمد الكثير والفضل العميم، مع الوقوف على الحقيقة في أغلب الأمر.

من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك في الغنى، ولو أنك قارون، حتى إذا تصاون في الكسب عما تشره أنت إليه، فقد حصل أغنى منك بكثير، ومن ترفّع عما تخضع إليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير.

فرض على الناس تعلم الخير والعمل به، فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معاً، ومن علمه، ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم، وأساء في ترك العمل به، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهو خير من آخر لم يعلمه، ولم يعمل به، وهذا الذي لا خير فيه أمثل حالاً، وأقل ذماً من آخر ينهى عن تعلّم الخير، ويصدّ عنه.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤١١-٤١٢.

ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه، لما نهى أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي ﷺ، وحسبك بمن أدى رأيه إلى هذا فساداً وسوء طبع، وذم حال، وبالله تعالى التوفيق.[1]

قال أبو محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاعترض هاهنا إنسان فقال: كان الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نهى عن شيء لا يأتيه أصلاً، وإذا أمر بشيء كان شديد الأخذ به، وهكذا تكون الحكمة، وقد قيل: أقبح شيء في العالم أنْ يأمر بشيء لا يأخذ به في نفسه، أو ينهى عن شيء يستعمله. قال أبو محمد: كذب قائل هذا، وأقبح منه من لم يأمر بخير، ولا نهى عن شر، وهو مع ذلك يعمل الشر ولا يعمل الخير.[2]

قال أبو محمد: وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
وابدأ بنفسك فانها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إنْ وعظت ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم

قال أبو محمد: إنَّ أبا الأسود إنَّما قصد بالإنكار المجيء بما نهي عنه المرء، وأنه يتضاعف قبحه منه مع نهيه عنه فقد أحسن، كما قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ولا يُظن بأبي الأسود إلا هذا، وأما أنْ يكون نهى عن النهي عن الخلق المذموم فنحن نعيذه بالله من هذا، فهو فعل من لا خير فيه.

وقد صحَّ عن الحسن أنّه سمع إنساناً يقول: لا يجب أنْ ينهى عن الشر إلا من لا يفعله، فقال الحسن: ود إبليس لو ظفر منا بهذه، حتى لا ينهى أحد عن منكر، ولا يأمر بمعروف.

وقال أبو محمد: صدق الحسن، وهو قولنا آنفاً.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤١٢ - ٤١٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤١٣ - ٤١٣.

جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير والعمل به، وممن يبصر رشد نفسه، فما أحد إلا له عيوب، إذا نظرها شغلته عن غيره، وتوفانا على سنة محمد ﷺ آمين رب العالمين.[1]

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، ورضي الله عن أصحاب رسول الله.

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤١٤.

## (١٠)
# مِنْهَاجُ الْمُتَعَلِّم

**أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)**

**من واجبات المعلم مراعاة الحالة النفسية والعقلية:**

أولاً: يجب على المعلِّم إذا جِيء بمبتدئ أن يراعيه ويكرمَه، ويعزّه إلى يومٍ كان مأنوساً؛ لأَنَّ المبتدئ كالطير الوحشيِّ لا يأنس إلا بالتلطف، فإنَّ العلم أشقُّ عليه وأمرُّ، فيجب إصلاحه على ما يقتضيه طبْعُه، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "العلم مرٌّ فاجعلوه حلواً بالتلطُّف والتعطُّف." ولا يشقّ عليه حتى يسمعَ كلامَه ويعملَ بأَمْرِه. (ص ٧٩)

ثانياً: ثم يبدأ بالتأديب، ثم بالتعليم، فإنَّ التعليم لا يكون إلا بعد التأديب؛ لأَنَّ من ليس له أدبٌ ليس له علمٌ. (ص ٨٠)

ثالثاً: ويجب على المعلم أن يشخِّص طبيعة المبتدئ من الذكاوة والغباوة، ويعلِّمَه على مقدار سَعَتِه، ولا يكلّف الزيادة في مقداره، ومن كُلِّف يَئِسَ عن تحصيل العلم، فيتبع الهوى، ويشكل تعليمُه، ولا يُشرِك الذكِيَّ مع الغَبِـيّ، فهو تقصير في الذكي، وكسلان في الغبي، ولا يغضب، بل يكرر في محل لا يفهمه حتى يفهم. (ص٨١)

الفصل العاشر:

# كتاب "منهاج المتعلم" لأبي حامد الغزالي

## أولاً: التعريف بـ"الغزالي"

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ولد في طوس في فارس سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م). مات والده في سن مبكرة، فألجأه الفقر إلى مدرسة يحصل فيها طلبة العلم القوت اللازم. ثم انتقل إلى نيسابور ليتعلم على يدي الجويني، إمام الحرمين، فأخذ عنه جملة من العلوم في الفقه والأصول، وعلم الكلام والمنطق والفلسفة. ودرس على الفضل بن محمد الفارمذي، تلميذ أبي القاسم القشيري، فأخذ عنه وعن الشيخ يوسف النساج التربية الصوفية. ومن أشهر تلاميذه أبو منصور بن الرزاز، وأبو عبد الله الجيلي، وأبو الفتح الباقرجي، وأبو بكر بن العربي، وهو من حمل كتابه إحياء علوم الدين إلى المغرب العربي عند عودته من رحلته المشرقية، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي، الملقّب بـ"المهدي"، وأبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن برهان الحنبلي، وعبد القادر الجيلاني، الذي عاصر الغزالي في بغداد سبعة عشر عاماً، وفي سيرتهما تشابه ملحوظ.

عانى الغزالي من أزمة فكرية من السفسطة والشك في قدرة العقل والحواس على تحصيل العلم اليقيني، خرج منها بعد شهرين ووثقها في كتابه المنقذ من الضلال، وتفرّغ بعدها لدراسة الأفكار والمعتقدات السائدة في وقته، فجاءت معظم كتاباته عنها. ثم عانى من أزمة وجدانية بعد أنْ تسنّم الغزالي أعلى مراتب التدريس في نظامية بغداد، وأصبح من أشهر العلماء والمدرسين في العالم الإسلامي، وكان يحضر مجلسه المئات، فأدرك أنَّ التكريم الدنيوي الذي حظي به يؤدي إلى تعلقه بالدنيا ومتاعها، فترك منصبه وتحول إلى حياة الزهد والتصوف، وأمضى أحد عشر عاماً بعد ذلك يتنقل بين دمشق والقدس والخليل والحجاز، وكتب في هذه الحقبة كتابه إحياء علوم الدين. ثم رجع الغزالي إلى بلده طوس وعاش ستة أعوام يوزع وقته بين التدريس والعبادة، وتوفي هناك سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م).

كتب الإمام الغزالي في كل العلوم، في الأخلاق، والمنطق، والجدل، والأصول، والفقه، والتصوف والفلسفة، ومن أهم مصنفاته: الاقتصاد في الاعتقاد في علم الكلام، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة في الفلسفة، وفضائح الباطنية، والمنخول، والمستصفى في علم الأصول، والمنقذ من الضلال، ومنهاج المتعلم، وأيها الولد، وغيرها من المصنفات التي يقع في قمتها كتابه المشهور إحياء علوم الدين.

تبين سيرة الغزالي وما كتبه عن نفسه أنّه كان واعياً ومدركاً لما يقوم به من أعمال على حياته، وعلى الواقع الاجتماعي من حوله، وكان يعزّز هذا الإدراك بكتابة إصلاحية متميزة، فهو بذلك مفكّرٌ ومصلح. ولم يقف فكره على جانب محدد من جوانب الفكر الإنساني التي كانت تسود عصره، فحدد مفكري زمانه في أربع فئات: المتكلمين، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية. فدرس حقيقة كل فئة وكتب عنها محللاً ناقداً أو ناقضاً، ثم اختار أنْ يرسي مركبه مع الصوفية. وقد أخذ موقعاً متميزاً في الفكر الإسلامي، وتتلمذت على أعماله أجيالٌ من طلبة العلم والباحثين حتى وقتنا الحاضر، ولا سيما في مجال الأخلاق والتربية النفسية، مما يجعله واحداً من أبرز رجال التربية والتعليم في التراث الإسلامي.

## ثانياً: التعريف بـ"منهاج المتعلم"[1]

يُنسب هذا الكتاب إلى أبي حامد الغزالي، ويعد من الرسائل المتميزة في موضوع التعليم ضمن التوجه التربوي الصوفي. وقد قسّمه المؤلف إلى ثلاثة أبواب، الأول في فضل العلم، والثاني في المعلم، والثالث في المتعلم. ويقع نص الكتاب (مجرداً من الشرح والتحقيق) فيما يقرب من (٢٥) صفحة (حوالي ٧٦٠٠ كلمة). وقد ألفه بعد كتاب الإحياء، بدليل إحالته إليه في بعض المواضع، وكان قد تكلم في كتاب الإحياء وغيره من الكتب عن موضوعات تختص بتشكيل شخصية الإنسان، وفضائل تعليم الصغار، وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب، وأفرد رسالة صغيرة بعنوان:

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **منهاج المتعلم**، حققه وعلق عليه: طه ياسين، دمشق: دار طيبه ودار النهضة، ط١، ٢٠٠٧م.

أيها الولد. لكن كتاب منهاج المتعلم يُعدّ مرجعاً متخصصاً في مسائل التعليم والتربية، رغم صغر حجمه.

واشتملت فصول الكتاب على موضوعات متنوعة منها: فضل العلم على المال، ومنافع العلم، ومسؤولية الأب في اختيار معلم ولده، ومسؤولية المعلم في التحقق من العلم الذي سوف يقدمه لتلاميذه، وتدرجه في تعليمهم من الأهم إلى المهم، وبيان مسؤوليات المتعلم تجاه نفسه وتجاه العلم والمعلم، وتفصيل بعض القضايا التي تعالج النسيان وتقوي الحفظ...

ويعتقد الغزالي أنَّ الانقطاع إلى نوع واحد من العلم لا يمكِّن الإنسان من الاستقامة في الطريق إلى الله، فلا بد من أنْ يأخذ من كل علمٍ أحسنه وأرشده، ولذلك رأى أنَّ من طلب الله تعالى بعلم الكلام وحده يصير زنديقاً، ومن طلب الله تعالى بالزهد وحده غير مقارن للعلم ارتكب البدعة، ومن طلبَ الله تعالى بالفقه وحده صار فاسقاً، والتفنّن في طلب العلم هو الأخذ بما يلزم من كل ذلك، والجمع بين اكتساب المعرفة بإعمال الفكر العقل، والوهب بالتزكية والتصفية اللازمة لتلقي النور الإلهي. فالمعرفة وحدها لا تمنح صاحبها ما يفيده. ويعد ما تركه الغزالي من تراث تأسيساً قوياً في الفكر التعليمي الإسلامي.

## ثالثاً: مختارات من "منهاج المتعلم"

الحمد لله موجد العلم للمجدّين، ومورث المعرفة للطالبين، والصلاة والسلام على محمدٍ أعلم المعلمين، وعلى آله وأصحابه أكرم المتعلمين.

وبعدُ: فإني أريدُ بحول الله تعالى وقوته أنْ أجمع مسائل مما يتعلق بالعلم، والمعلم والمتعلم، وإن تكلموا فيها كثيراً، إلا أنني أجمعُ ما فيها من المهمات، وما يورثُ الجرأة على إقدام العلم، وأرجو من الله تعالى أنْ يعطيني الإقدامَ والجد على العلم والعمل به، وسميتها بـ"منهاج المتعلم"، والله الهادي إلى سبيل الصواب، ورتبتُها على ثلاثة أبواب.[1]

(١) المرجع السابق، ص٤١.

## الباب الأول في العلم

### فصل في مكانة العلم

قال الله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وقال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. بدأ في الشهادة بنفسه، وثنّىٰ بالملائكة، وثلّث بأولي العلم. وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣] إلىٰ غير ذلك من الآيات. قال رسول الله ﷺ: "طلبُ العلم فريضةٌ علىٰ كل مسلم ومسلمةٍ."

وقال عليه أكملُ الصلاة والسلام: "اطلبِ العلمَ ولو بينك وبينه بحرٌ من النار." وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "اطلب العلم ولو بالصين." وقال عليه أشرفُ الصلاة والسلام: "اطلب العلمَ من المهدِ إلىٰ اللحد."(١)

### فرضية العلم

وفي الخلاصة: كل عبادة كالصلاة والزكاة والصوم، فُرضت في وقتٍ دون وقتٍ، وتعلُّم العلم فرضٌ في جميع الحالات، وأوحىٰ الله تعالىٰ لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا داود اتخذ نعلين من حديد وعصاً من حديد، واطلب العلم والعبر، حتىٰ ينقطع نعلاكَ، وينكسر عصاك، وقيل: إنَّ علمَ ما يتعلق بنفسك في جميع الأحوال بمنزلة الطعام والشراب، ولا بد لكل أحد من ذلك، فإنَّ حياة القلبِ به كما أنَّ حياة البدن بهما، كما قال النبي ﷺ: "من كان حياً بالعلم لم يمت أبداً." ثم اعلم أنَّ كل علمٍ يُتوصل به إلىٰ فرض عين؛ فتحصيله فرضُ عينٍ، فإنَّ العلم المتعلّق بمعرفة الله تعالىٰ، وبالصلاة والزكاة والصوم والحج وبما يتعلق بالحلال والحرام وغير ذلك، فرضُ عينٍ، لا بد لكل مسلمٍ ومسلمةٍ طلبه، وتحصيلُه وإقامته، كالصوم والزكاة وغيرهما، ويسأل الله تعالىٰ عن كل مسألةٍ متعلقةٍ به، ويعاقب عليها، ولا يُعفىٰ عنه بتوبةٍ، واستغفار، ولا بعذرٍ ما، كما لو عوقب علىٰ ترك الصلاة والزكاة وغيرهما، ويفسق تاركها، كما يفسق تارك الصلاة

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢-٤٣.

والزكاة وغيرهما من سائر الفروض، ويسقطُ عن الشهادة كما سقط تارك الصلاة عنها، وعلى هذا عِلمُ أحكام فرضِ الكفاية، والسنة المؤكدة، وغير المؤكدة، والمندوب والمستحسن، وعلم أيضاً: حرمةُ تعلُّم ما يتوصل به إلى الحرام كتعلُّم السحر والنارنجات والنجوم المحرمات.[1]

**فصل: في فضل العلم**

سُئل النبي ﷺ: أيّ الأعمال أفضلُ؟ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "العلم،" فقيل: أيّ الأعمال تزيد يا رسول الله؟ قال: "العلم،" فقيل: تُسأل عن العمل وتجيبُ عن العلم يا رسول الله؟ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "إن العملَ القليلَ مع العلم ينفع، وإن العملَ الكثير مع الجهل لا ينفع." واعلم أنَّ الله تعالى جعل العلمَ وسيلةً إلى كلِّ فضيلةٍ، وإن العلم ليزدادُ به الشريف شرفاً، ويرفع العبد إلى مجالس الملوك.[2]

**العلم ثلاثة أحرف**

قال الحكماء: العلم ثلاثة أحرفٍ: عينٌ، ولامٌ، وميمٌ، فاشتقاق العين من العليين، واللام من اللطف، والميم من الملك، فالعين يجرُّ صاحبه إلى العليين، واللام تجعله لطيفاً في الدنيا والآخرة، والميمُ تجعله ملكِاً على الخلق، ويعطيه الله تعالى في العلم ببركة العين العزة. وببركة اللام اللطافة، وببركة الميم المحبة والملائمة.[3]

**الناس هم العلماء**

ثم اعلم: أنَّ شرفَ العلم لا يخفى على أحدٍ من ذوي العقول، مع أنّه مختصٌّ بالإنسانية؛ لأَنَّ جميع الخصال سوى العلم يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوانات، كالشجاعة والقوة والشفقةِ وغير ذلك.

وفي هذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "الناس عالمٌ، أو متعلِّمٌ، والباقي همجٌ." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "كن عالماً أو متعلماً، أو مستمعاً للعلم، أو محباً للعلماء، ولا تكن

---

(١) المرجع السابق، ص٤٤-٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧.

الخامس فتهلك." قيل لابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، فقيل: من الملوك؟ فقال: الزهاد.[1]

**بالعلم منّ الله تعالى على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**

بالعلم أظهر الله تعالى فضل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الملائكة، وأمرهم بالسجود. وأمر الله تعالى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بزيادة العلم، ولا يأمن بزيادة غيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] وقال أبو إسحاق الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: إن الله تعالى أنعمَ على نبيه ﷺ بأشياء، فلم يَمُنَّ عليه فيها، إلا على العلم، فقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣] وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله تعالى أعطى لسليمان وداود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ العلم والملك، ومنَّ عليهما بالعلم لا بالملك وغيره، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥].

وهذا دليل على أنَّ أجلَّ الأشياء هو العلم، وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خُيّر سليمان بين العلم والملك، فاختار العلم على الملك، فأعطاه الله العلم والملك معه.[2]...

**فصل في فضل العلماء**: ... وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "فضلُ العالم على العابدِ كفضلِ القمر ليلة البدر على سائر الكواكب." وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أفضلُ الناس المؤمنُ العالمُ الذي إذا احتيج إليه نفع، وإن استُغني عنه أغنى نفسَه." وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "لولا العلماء ما عُبد الله في الأرض، وما رُزق العبادُ، وما أخرجتِ الأرضُ نباتَها، ولا الأشجارُ أثمارها، ولا العيونُ مواهبها، ولا السماء أمطارها." وقال الربيع: العلماء سراج الأزمنة، فكلُّ عالمٍ مصباحُ زمانه، يستضيء به أهل زمانه، وقال بعضهم: كل محلةٍ فيها عالمٌ، فهم أحياءٌ، وكلُّ محلةٍ لا يكون فيها عالمٌ فهم أمواتٌ.

قال يحيى بن معاذ: العلماءُ أرأف بأمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من آبائهم وأمهاتهم؛ لأَنَّ آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وآفاتها، والعلماءُ يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨-٥٠.

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "إنّ الله تعالىٰ وملائكته وأهل السموات والأرض حتىٰ النملة في جُحرها، وحتىٰ الحوت في البحر، ليصلّون علىٰ معلِّم الناس الخير."[1]

**فضل العالم علىٰ الجاهل**

وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف عابدٍ جاهلٍ،" قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "العالم حبيبُ الله، ولو كان فاسقاً، والجاهل عدوُّ الله ولو كان عابداً."

ويحكىٰ أنَّ من الناس جماعة اختلفوا في شرف العالم الفاسقِ، وشرف الجاهل العابد، فخرج منهم واحدٌ وذهب معهم إلىٰ صومعة العابد الجاهل، فخاطبه بأن قال له: يا عبدي، قبلت دعوتك وغفرت لك ذنوبك، فاتركِ العبادة واسترح، فقال العابد الجاهل: إلهي إني أرجو منك هذا، وإني أحمدك، وأشكرك، وأعبدك في زمان كذا وكذا، فقال القائل: فقد أخطأتَ وكفرتَ لجهلك. ثم ذهب معهم إلىٰ العالم الفاسق فإذا به يشرب الخمر، فقال ذلك القائل: يا عبدي اتق مني، وأنا ربك أستر ذنبك، وأنت لا تستحي مني، فإني أريد أنْ أهديك، فقال العالمُ الفاسقُ، وسلَّ سيفه وخرج من مكانه فقال: يا ملعون! أنت لا تعلم ربّك، فإني أعلِّمك ربَّك، فذهب ذلك القائل معهم إلىٰ مكانهم فعلموا شرف العلم، وأهله، انتهىٰ. ولكل شيء عمادٌ، وعماد الدين الفقيه، ونفع العالم لنفسه ولغيره، ونفعُ الجاهل إن نفع لنفسه، وليس علىٰ الشيطان شيءٌ أشقُّ من عالمٍ يتكلم بالعلم، ويسكت به، هذا منقول عن إبراهيم بن الأدهم، ثم قال: وقال إبليس لعنه الله: لسكوته أشد من كلامه.[2]

**فضل العالم علىٰ العابد**

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "بين العالم والعابد مئة درجةٍ، بين كل درجتين مسيرة سبعين سنة: ألا فاعرفوا حقوقهم، وابذلوا لهم المجالس، والمواقف، وقدموهم علىٰ أنفسكم، فإنهم الناسُ، ومقدّمون عند الله تعالىٰ، إنهم ليسوا كمثلكم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ

---

(١) المرجع السابق، ص٥١-٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣-٥٥.

يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩٠]. كيف يستوي؟ فإنَّ من عمل بحسنةٍ وهو غير عالم، قالوا: حُدَّ بعشرة، وإن كان عالماً ضوعف بخمسين غلى خمس مئة ألفٍ،" وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "يبعثُ الله العلماء، فيقول لهم: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم، فقد غفرت لكم،" كذا في المنتخب من إحياء علوم الدين.[١]

**محبة العلماء**

قال في المنهاج: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يحاسب عبداً، فيرجح سيئاته على حسناته، فيأمر به إلى النار، فإذا ذهبوا به إلى النار يقول الله تعالى لجبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أدرك عبدي، واسأله: هل جلس مع العلماء في بيت واحد في دار الدنيا؟ فأغفر له، فيسأله، فيقول: لا، فيقول الله تعالى لجبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: اسأله: هل له صديق يحبُّ العلماء؟ فأغفر له، فيسأله فيقول: بلى، فلانٌ لي صديقٌ وهو يجالس العلماء، ويحبهم، فيقول الله تعالى: غفرت لذلك."[٢]

**العلم حياةٌ والجهل مماتٌ**

قيل:

الجاهلون موتى قبل موتهِمُ ... والعالمون وإن ماتوا فأحياء

وقيل:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبورُ
وإن امرءاً لم يحيَ بالعلم ميتٌ ... فليس له حين النشور نشورُ

وقيل:

وذو العلم يبقى عنده متضاعفاً ... وذو الجهل بعد الموت تحت الترائبِ
فإن فاتك الدنيا وطيبُ نعيمها ... فقد أخذتَ بالعلم خيرَ المواهبِ[٣]

---

(١) المرجع السابق، ص٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص٥٨.

**نوم العالم عبادة**

وحكي أنَّ رسول الله ﷺ جاء إلى المسجد فرأى الشيطان في باب المسجد، فقال له النبي ﷺ: "يا لعين، ماذا تصنع هنا؟" فقال الشيطان: أريد أن أدخلَ المسجد وأفسد صلاة هذا المصلي، ولكن كنت أخافُ من هذا الرجل النائم، فقال النبي ﷺ: "يا لعين ولمَ لم تخف من المصلي وهو في العبادات والمناجاة مع ربه؟ والنائم في الغفلة،" فقال الشيطان: المصلي جاهلٌ، وإفسادُه سهلٌ، والنائمُ عالمٌ، فإن أغويتُ المصلي، وأفسدتُ صلاتَه، أخاف من إيقاظه، وإصلاح صلاتِه، فكنت خجِلاً، فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "نومُ العالم خيرٌ من عبادةِ الجاهل." انتهى. ولأَفْضَلُ من علمٍ علمٌ يزيده حلمٌ؛ أيّ من عالمٍ حليم، والحِلمُ ترك الاستعجال في العقوبة والانتقام. قال مصعب بن الزبير لبنيه: تعلموا العلم، فإن كان لكم مالٌ كان العلم لكم جمالاً، وإن لم يكن لكم مالٌ كان العلمُ لكم مالاً.[1]

**بالعلم يغدو الصغير كبيراً**

قال هشام بن عروة: تعلّموا العلم؛ فإن تكونوا صغار قومكم تصيروا كبارهم، ولا تحسب مع نفسك غنىً عن علمٍ بحالٍ؛ مما حكي: أنّه قيل لعبد الله بن المبارك: لو أنَّ الله تعالى أوحى إليك: أنَّك تموتُ العشية فماذا تصنع اليوم؟ قال: أقوم أطلبُ العلمَ؛ لأَنَّ الله تعالى أعطى لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل شيءٍ، ولم يأمره بطلب الزيادة، وأعطاه العلمَ وأمره بطلب الزيادة، لما مرَّ.[2]

**فصلٌ: في فضل العلم على المال**

وعن السدي أنّه قال: العلمُ أفضلُ من كنوز الدنيا، فإنها تنقصُ مع الإنفاق، والعلم يزداد بالإنفاق، وإن العلم يحفظ أهله من كل آفةٍ، والمال يوقعها في الآفات، وإنما مثل العلم كمثل السراج على الطريق، يقتبس ويستفيد من ضوئه الذاهبُ والجائي، ولا ينقُص أصلاً.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩.

واعلم أنَّ الناس اختلفوا في العلم والمال، قال بعضهم: العلمُ أفضل من المال، وقال الآخر: المال أفضل من العلم، فتنازعوا فيه حتىٰ بعثوا إلىٰ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رسولاً ليسأله عن ذلك، فذهب إليه وسأله، فقال: اعلم أنَّ للعلم شرفاً علىٰ المال، من سبعة أوجه:

إحداها: أنّ العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة والأشقياء.

والثاني: العلمُ يحرسُ صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أنَّ المال يعطيه الله تعالىٰ لمن يحبه ولمن لا يحبه، ولا يعطي العلم إلا لمن يحبه.

والرابع: لا ينقص العلمُ بالبذل والإنفاق، بل يُزاد بهما، والمال ينقص بهما.

والخامس: أنَّ صاحب العلم لا يموت، ولا ينقطع عمله إلىٰ يوم القيامة، ومعه علمه أبداً، وصاحب المال يموتُ وينقطع عمله، ويبقىٰ ماله لغيره.

والسادس: أنَّ صاحب العلم لا يعذّب في القبر ولا يبلىٰ، وإنّ صاحب المال يعذَّب في القبر ويبلىٰ.

والسابع: أنَّ صاحب المال يُسأل يوم القيامة عن كل درهم من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، ويُحاسب عليه، وإنّ صاحب العلم له بكل مسألة درجةٌ، وكل حرف حسنة، ولكلِّ حرفٍ من حروف القرآن عشر حسناتٍ، إنْ قرأ علىٰ غير طهرٍ، وإن قرأ علىٰ طهر: إنْ كان في غير الصلاة فلكلِّ حرفٍ مئة حسنةٍ، وإن قرأ في الصلاة، فلكل حرف ألفُ حسنةٍ، كذا في منهاج الذاكرين.[1]

**فصلٌ في سعادة أهل العلم**

ونعم القول ما قيل:

أهـل العلـم في الـدارين مـسعودُ ... والخلد في الجنـة الفـردوس موعـود
العلـمُ عـزٌّ وأهـل العلـم محـترم ... والجهـلُ ذُلٌّ وأهـل الجهـل مطـرود

(١) المرجع السابق، ص٦٠-٦٢.

... وقيل: لا تحسبن الجهال أحياء، بل هم أمواتٌ، وثوبهم كفنهم، وقال رسول الله ﷺ: "ينبغي على العالم أنْ يصومَ إذا الناس مفطرون، ويحزن إذا الناس يفرحون، ويبكي إذا الناس يضحكون، ويصمت إذا الناس يتكلمون، ويتأكدَ إذا الناس يخلطون،" فلم يرض عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يكون مَن علِمَ كمن لا يعلم، ولا يفهم، قال رسول الله ﷺ: "من ازداد علماً ولم يزدد زهداً، لم يزدد من الله إلا بعداً."[1]

## العلم كسبيٌّ وسماعيٌّ

واعلم أنَّ تحصيل العلم على نوعين: كسبيٌّ وسماعيٌّ.

والكسبي: هو العلم الحاصل بمداومة الدرس والقراءة عند الأستاذ.

والسماعي: هو التعلم عند العلماء بالسماع في أمور دينهم، ودنياهم، وهذا لا يحصل إلا بمحبة العلماء، والاختلاط معهم، والمجالسة والاستفسار منهم. كما قيل: كن عالماً أو متعلماً أو محباً لهم، فإنَّ الجهل لا يكون صاحبه معذوراً في الدنيا والآخرة، والمتصف به مغبون فيهما؛ لأَنَّ شرفهما مع العلم، كما قيل: من أراد الدنيا فليتّجر، ومن أراد الآخرة فليتزهّد، ومن أراد كليهما فليتعلم، فإنَّ من انتقل من الدنيا بقي ما جمعه فيها سوى العلم، فإنَّ العلم رفيقه في القبر، وأنيسه وفراشه وتحته وجنبه وزاده.[2]

## العلم خيرُ الزاد

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "من أراد منكم سفراً من أسفار الدنيا فلا يمش بلا زاد،" وكيف يريدون السفر إلى الآخرة بلا زاد؟ ونعم الزاد العلم، ولا سيما شفيعه، وبراقه، وظلُّه في يوم القيامة، وإن العلم كان شفيعاً لملك الموت، وجواباً لمنكر ونكير، ونوراً ومؤنساً في القبر، وثقلاً في الميزان، وقائداً على الصراط، ومفتاحاً للجنة. وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن العلم أنيسي في الوحدة، وصاحبي في الخلوة، ودليلي عند الحيرة، والوزير عند الأخلاء، التفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته يعدل القيام، وبه يُعبد الربُّ، وبه

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢-٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

يوَحَّد، وبه يطاع، وهو إمامٌ، والعمل تابعٌ له، ففيه عزُّ الدنيا، وسعادة الآخرة.[1]

**ثمار العلم في الدنيا**

وقال الزهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تتشعب من العلم عشرةٌ: الشرفُ إن كان دنياً، والغنىٰ إن كان فقيراً، والعزّةُ إن كان مهيناً، والقوةُ إن كان ضعيفاً، والجود إن كان بخيلاً، والقربُ إن كان قصياً، والكبير إن كان صغيراً.[2]

**تنبيه وتحذير**

وإنّ العلم للعلماء ميراث الأنبياء، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "العلماء ورثةُ الأنبياء." والعاقل من يغتنم بغنائم العلم وعظمِه وعظمِ أهله، ولا ينظر لهم بنظر الإهانة، فإنَّ العلم عزيزٌ لا يقومُ إلا بشخصٍ عزيزٍ، قال النبي ﷺ: "من أهان عالماً أهانه الله تعالىٰ يوم القيامة." وقال النبي ﷺ: "من أذلَّ عالماً أذلّه الله تعالىٰ يوم القيامة بين الخلائق." وقال النبي ﷺ: "من احتقر صاحب علمٍ فقد احتقرني، ومن احتقرني فقد احتقر الله تعالىٰ، ومن احتقر الله تعالىٰ فله النار." وقال ﷺ: "من آذىٰ عالماً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله، ومن آذىٰ الله تعالىٰ فله النار." وفي الخبر: قال الله تعالىٰ: "لا تحقروا عبداً لي أعطيتُه علماً، فإني لم أحقِّره حين علَّمته." و"إن الملائكة لتضع أجنحتها حتىٰ تمر عليها حملةُ العلمِ، وطلابُها، تواضعاً وإكراماً لهم."[3]

**فصلٌ في رحيل العلماء**

وقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "من لم يحزن بموت العالم فهو منافق، فإنَّه لا مصيبة أعظم من موت العالم، وما من مؤمن يحزن بموت العالم إلا كتب الله تعالىٰ له ثواب ألف عالمٍ وألف شهيد." وقال النبي ﷺ: "لموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت العالم." وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لموت ألفِ عابدٍ قائمٍ في الليل، صائمٍ في النهار، أهونُ من موتِ عالمٍ

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

قال محقق منهاج المتعلم في الهامش: واستكملها وهب بن منبه: ... والنبل إن كان حقيراً، والمهابة إن كان وضيعاً، والسلامة إن كان سفيهاً.

(٣) المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

واحدٍ، يعلمُ ما أحلّه الله مما حرَّمه، وإن لم يزدد على الفرائض."[1]

**حاجة العامة للعلماء**

قيل: مثل العامة مع العلماء مثل القصار مع الشمس، إذا غضب القصّار على الشمس، كانت المضرّة على القصار لا الشمس، فكذلك إذا غضب العامة على العالم تكون المضرّة للعامة لا للعلماء، فإنَّ لحوم العلماء مسمومة، من شمّها مرض، ومن ذاقها مات.[2]

**العلم رفيقُ الدنيا والآخرة**

وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "إذا مات إنسانٌ انقطع عملُه إلا من ثلاثة: من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة." وقال ﷺ: "إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبضِ العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً؛ اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا." وعن أبي الدرداء، قال رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن العالم يستغفر له من في السموات والأرض، والحيتانُ في جوف الماء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنَّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ."[3]

**ثواب العلم**

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع." رواه أنس بن مالك، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من طلب العلم كان كفارةً لما مضى." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من مات في طلب العلم، فقد مات شهيداً." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من مات في طلب العلم قبل حصول المراد خلق الله تعالى ملكاً عالماً يعلمه إلى يوم القيامة." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من أراد أنْ ينظر إلى عتقاء الله من النار، فلينظر إلى المتعلمين."

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨-٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "متعلِّمٌ كسلان أفضل عند الله تعالىٰ من ألفِ عابدٍ." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "قوام العالم بالعالم." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من خدمَ عالماً سبعة أيامٍ؛ فقد خدم الله تعالىٰ سبعة آلاف سنة، وأعطاه الله تعالىٰ بكل يوم ثواب ألف شهيدٍ."[1]

## فصلٌ في منافع العلم

قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن إبليس قائمٌ أمامك، والنفس عن يمينك، والهوىٰ عن يسارك، والدنيا خلفك، والأعضاء عند حواليك، والجبار فوقك، والهوىٰ يدعوك إلىٰ الشهوات، والدنيا تدعوك إلىٰ اختيارها علىٰ الآخرة، والأعضاء تدعوك إلىٰ المعصية، والجبار يدعوك إلىٰ الجنة والمغفرة، ولا يعلم مكر هؤلاء ولا يؤمن من شرّها، ولا يتوصل إلىٰ المغفرة والجنة إلا بالعلم. اللهم ارزقنا العلم المنجي من وسوسة هؤلاء، والوصول إلىٰ الجنة، والمغفرة، إنك أنت الجواد الكريم، وعن يحيىٰ بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: العلمُ دليل العمل، والفهم وعاء العلم، والعقل قائد الخير، والهوىٰ مركب الذنوب، والمال رداء المتكبرين، والدنيا سوق الآخرة.[2]

## العافية في العلم

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: لولا الأبدال لخسفت الأرض ومن فيها، ولولا الصالحون لهلك الطالحون، ولولا العلماء لصار الناس كلهم كالبهائم، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا يصلح العقلُ بغير ورعٍ، ولا الفضل بغير علم.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "العافيةُ في الدنيا والآخرة العلمُ، والعبادةُ، والرزق من الحلال، والصبر علىٰ الشدة، والشكر علىٰ النعمة." وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لإبليس عليه من الله ما يستحقه: "مَن أعداؤك؟ قال عليه اللعنة: أنت يا محمد، والعالم العاملُ بالعلم، وحامل القرآن إن عمل بما فيه."[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٧١-٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص٧٢.

(٣) المرجع السابق، ص٧٣.

**العلم يرفع قدر الكلب**

قيل: العلمُ ينفع ولو مع الكلب العقور، وللخاصة المشابهة بالعلم روعي الكلب المعلم للصيد، وقال أبو بكر الرازي: نكتة في شرف العلم وأهله، وهي: أنّه ليس في الدنيا والآخرة أشرف من المؤمن، وليس من المخلوقات شيءٌ أخسُّ من الكلب بعد الخنزير، ثم إنَّ الله تعالىٰ أباح صيد الكلب الذي هو أخسّ المخلوقات لهذا المؤمن، الذي هو أشرف المخلوقات، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٥]. الآيات، فلما كان من فضل العلم مع الكلب ما يرفع من قدره، حيث يباح صيدُه للمؤمن الشريف، فكيف إذا وُجد شرفُ العلم من هذا المؤمن؟! فلا يعرف أحد قدره حينئذ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.[1]

**العلماء هم الأطباء**

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "الناس كلهم مرضىٰ إلا العلماء، فهم أطباء، ومن أراد الصحة فليقرب منهم، فإنَّ النظر إليهم عبادة، والمشي معهم عزٌّ، والأكل معهم شفاء، فإنهم قومٌ لا يشقىٰ جليسهم أبداً، فمن حفظهم حُفظ، ومن ضيعهم قُصم. قيل: مثل العالم مثل العطار، إذا أُعطيت الطيب فبهما، وإلا تصل إليك رائحةٌ طيبة، وكذلك العالم، إن أفادَ الناس من علمه فبهما، وإلا تصل إليهم بركته.[2]

**العلماء كالأشجار المثمرة**

قيل: مثل العالم كشجرة مثمرة، كلما حرَّكتها انتفعتَ بثمارها، وإن لم تحرِّكها لم يسقط عليك منها شيء، وقيل: مثل العالم كالنحلة، يخرج من بطنها شفاءٌ للناس، وهو العسل، فكذلك العلم، يخرجُ من أفواه العلماء شفاء للعصاة.[3]

**العالم الذي لا يعمل بعلمه كالطبيب المريض**

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "العالم طبيب الدين، والدرهم داؤه، فإذا كان

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤ - ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص٧٥ - ٧٦.

الطبيب يجرُّ الداء إلى نفسه، فكيف يداوي غيره؟"

قيل فيه:

وغـير تقـيٍّ يـأمرُ النـاس بـالتقى ... طبيبٌ يـداوي النـاس وهـو مـريضُ

قالت رابعة العدوية للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البيت، فأجاب الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لرابعة:

خـذي بعلمـي ولا تنظـري إلى عمـلي ... ينفعـك علمـي ولا يـضرُرْك تقـصيري

وهذا القدر كافٍ في فضيلة العلم والعلماء، في مثل هذا المختصر والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.(١)

## الباب الثاني في المعلم

### فصلٌ في صفات المعلم

يجب أنْ يكون المعلِّم ماهراً في فنٍّ يعلّمه، وأن يكون طاهرَ القلب واللسان، وأن يكون نظيفاً من الغيبة، وعدلاً في الدين، وناصحاً في جميع الأمور، وملائماً في العيش، وشريفاً في النسب، وكبيراً في السنِّ، وألا يكون غضوباً، وألا يخالط السلطان، ولا يلابس الدنيا بشغله عن أمر دينه، وعن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "إذا كان العالم راغباً في الدنيا كانت مجالستُه زيادةً للجاهل جهلاً، وللفاجر فجوراً." وقال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "العلماء أمناء الرسل، مالم يخالطوا السلطان، ولم يدخلوا في الدنيا، فإن خالطوا السلطان، ودخلوا في الدنيا فقد خانوا الرسل؛ فاعتزلوهم واحترزوهم." حُكي عن أبي جعفر الهنداوني: يُحكى عن معروف الكرخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، أنّه قال: لما مات أبو يوسف رحمة الله تعالى عليه، لم تكن في نيتي أنْ أحضر بجنازته، فإنَّه كان يدخلُ في أمر السطان، فرأيته قبل أنْ يُدفن في المنام فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: غفر لي ربي، قلت: بماذا؟ قال: بنصحي للمسلمين، فانتبهت في المنام فشهدتُ جنازته.(٢)

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٧-٧٨.

## فصل في واجبات المعلم

### العطف واللين

أولاً: يجب على المعلم إذا جيء بمبتدئ أنْ يراعيه ويكرمه، ويعزّه إلى يوم كان مأنوساً؛ لأَنَّ المبتدئ كالطير الوحشيِّ، لا يأنس إلا بالتلطف، فإنَّ العلم أشقُّ عليه وأمرُّ، فيجب إصلاحه على ما يقتضيه طبعه، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "العلم مرٌّ؛ فاجعلوه حلواً بالتلطف، والتعطف." ولا يشق عليه حتى يسمع كلامه ويعمل بأمره.[1]

### الأدب قبل العلم

ثانياً: ثم يبدأ بالتأديب، ثم بالتعليم، فإنَّ التعليم لا يكون إلا بعد التأديب؛ لأَنَّ من ليس له أدبٌ، ليس له علمٌ.[2]

### الذكي والغبي

ثالثاً: ويجب على المعلم أنْ يشخِّص طبيعة المبتدئ من الذكاوة والغباوة، ويعلّمه على مقدار سعته، ولا يكلّف الزيادة في مقداره، ومن كلف يئس عن تحصيل العلم، فيتبع الهوى، ويشكل تعليمُه، ولا يشرك الذكي مع الغبي، فهو تقصير في الذكي، وكسلان في الغبي، ولا يغضب، بل يكرر في محلّ لا يفهمه حتى يفهم.[3]

### لا يُبذل العلمُ إلا لأهله

رابعاً: ولا يعلِّم من لا يعظِّمه، ولا يكرِّمه؛ فإنَّ العلم لا يحصل إلا بالتعظيم والتكريم، ومن لا يبالي في متعلم وصفه على ما ذكر، ولم يلتفت حتى مرّ عليه زمانٌ، فقد خان في حقه لتضييع أيامه.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص٨٠-٨١.

(٤) المرجع السابق، ص٨١.

**الفصاحة والبيان**

خامساً: ومن الواجب على المعلم حسنُ العبارة عند التكلُّم، وتفصيلُ الكلام، وإيضاحه بعد ظهوره، يعني يعبِّر بما ينفع المبتدئ بكلام بليغٍ فصيح الكلمات، وتفصيل بما أجمله في الكلام، وإيضاحه له على وجهٍ يفهم منه المراد بسهولةٍ، فإنَّ المعلم إن لم يتصف بهذه الأوصاف الحميدة لا يستفيد منه المتعلم، وإن استفاد لا ينفعه.[1]

**اختيار المعلم من مسؤولية الأب**

فيجب على الآباء أنْ يجدوا معلِّماً متّصفاً بهذه الأوصاف، وتوكّل على الله، ثم فوِّض أمرك إليه، ولا يفارقه، فإنَّ العلم لا يحصل إلا بالثبوت، والدوام، كما قيل: من ثَبَتَ نبَتَ، قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثبتُّ عند حماد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فنبتُّ. وكذا نبتَ محمد وأبو يوسف وزفر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، لثبوتهم عند أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[2]

**من وراء القصد؟**

سادساً: ويجب على المعلم أنْ ينوي بتعليمه إرشادَ عباد الله تعالى إلى الحق، فإنَّ الله تعالى لو هدى رجلاً بسببه، فهو خير له من جميع أموال الدنيا يتصدق بها في سبيل الله، ولو أصلح المعلم الناصح عبداً عاصياً؛ فهو أحبُّ إلى الله من عبادة الثقلين؛ يعني الإنس والجن، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين بعث معاذاً إلى اليمن: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها."[3]

**العمل بعد العلم**

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "خيركم من تعلَّم العلم وعلَّمه الناس." وروي عن معاذ بن جبل روايةً مرفوعة: تعلُّم العلم لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قُربة. وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من علِمَ وعَمل وعلَّم؛ فذلك الذي يدعى في ملكوت السموات عظيماً."[4]

---

(١) المرجع السابق، ص ٨١ - ٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص٨٢.

(٣) المرجع السابق، ص٨٣.

(٤) المرجع السابق، ص٨٤.

**علامة المعلم الصالح**

وعلامة المعلم الصالح: قطع الطمع عن الخلق استحياءً من الخالق، وتقريبُ الفقير إلى نفسه في التعليم، والشفقة عليه، والتواضع للمتعلم، بحيث لا يظهر عليه الكبر، على ما هو المعتاد عند أبناء زماننا، والرفق عليه.[1]

**البدء بالتعليم من الأهم إلى المهم**

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: من تقلَّد العلم فقد تقلَّد أمراً عظيماً، فعليه أنْ يحفظ آدابه ووظائفه، ويبدأ المعلم في تعليم المتعلم بأقرب ما يفتقر إليه الطالب، وأهم ما ينفعه في الدنيا والآخرة، فإنَّ التعليم كتعمير البيت، فإذا الباني عمَّر البيت من أي جنب خرب، وكذلك المعلم يعلِّم المتعلِّم من أي فنٍّ جهل.[2]

**ضياع العلم**

ولا يعلم العلم إلا لأهله، قال النبي ﷺ: "لا تطرحوا الدرر في أفواه الكلاب،" وقال النبي ﷺ: "لا تعلّقوا الجواهر في أعناق الخنازير،" فإنَّ العلم خيرٌ من الجواهر، ومن كرهه فهو شرٌّ من الخنازير.

قال عكرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "إن لهذا العلم ثمناً، قيل له: وما هو؟ قال: أنْ تضعه فيمن يحسن حمله، ولا يضيعه."[3]

**كتمان العلم**

ولا يكتم العلم عن أهله، فإنَّ وضع العلم في غير أهله إضاعةٌ له، ومنعه عن أهله ظلمٌ وجورٌ، يُسأل عن كلٍّ منهما يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وهو إيجابٌ للتعليم، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦] وهو تحريمٌ للكتمان، وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من علمَ علماً فكتمه؛ لُجم يوم القيامة بلجام من النار،" وقال

---

(١) المرجع السابق، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

(٣) المرجع السابق، ص٨٦-٨٧.

النبي ﷺ: "يعاقَبُ العالمُ يوم القيامة لسكوته عن علمه،" و"يعاقب الجاهل لسكوته عن جهله."

ولا يحلُّ للعالم أنْ يسكت عن علم، ولا للجاهل أنْ يسكتَ عن جهله، وقد أمر الله تعالىٰ الجاهلَ بالسؤال في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، وأمر العالمَ بحسن الرد علىٰ الجاهل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحىٰ: ١٠].(١)

**يتنوع الأسلوب بتنوع العلم**

سابعاً: ويجب علىٰ المعلِّم أنْ يتكلم في كل نوعٍ من العلم، بما يبلغ عقل المتعلم، ويدرك ذهنه، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "كلموا الناس علىٰ قدر عقولهم" ويحدِّث الناس بما يُفهم القلوب سهلاً بلا مشقة.(٢)

**لا ترج المغفرة بغير عمل**

لا يحدّث الجاهل المغرور الغافل برخصةٍ، فيأمن ويقول: إن الله كريمٌ، فلا يسعىٰ في العمل الصالح، بل لا يبالي في المعاصي، وأنت تعلم أنَّ رجاء المغفرة بغير عملٍ، إنَّما هو كمثل أجير استأجره رجلٌ كريمٌ علىٰ إصلاح إناءٍ، وشرط له الأجر عليه، فجاء الأجير وكسرَ الإناء وأفسده، ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم: أنَّ المستأجر كريمٌ، أفيراه العقلاء في انتظاره راجياً معذوراً، أم مغروراً متمنياً.(٣)

**لا يأس من رحمته ولا أمن من مكره**

ولا يشدُّ عليه فييأس، فإنَّ الأمن واليأس كفرٌ، فلا يحدِّث الجاهلَ بالأمن واليأس، لئلا يوقعه في الكفر، ففي حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "أنَّ العالمَ الناصحَ من لم يُيئِّس الناس من رحمة الله تعالىٰ، ولم يؤمِّنهم من مكر الله."(٤)

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩.

(٤) المرجع السابق، ص٨٩.

**التحقق في العلم قبل بذله**

ولا يذهب بلا مبالاة في وجوه الحديث، وفي توجيهاته، وفي الحديث: "إن تدقيق الكلام من الشيطان." ولا يكثر على المستمع إكثاراً يورثه الملالة، ويخبره ما عنده من العلم على وجهه؛ أي كما سمعه، لا يزيده ولا ينقصه، فإنَّ خيانة الرجل في العلم أشدُّ من خيانته في المال، ولا يحدِّث بكل ما سمع، فإنَّ بعضه قد يكون كذباً غير مطابقٍ للواقع، فربما يقع بسببه فيما يصير وبالاً، فإنَّ من قال في العلم بسماع ولم يتحقق من صحته، بل يتكلم على سبيل الشبهة والجرأة، دخل النار بغير حساب.(١)

**الشفقة بدلاً من السخرية**

ولا يجيب المعلم عن سؤال المتعلم طالباً ذلَّه، بل بالشفقة والمرحمة، والله أعلم بالصواب.(٢)

## الباب الثالث في المتعلم

### فصلٌ فيما يجب على الآباء

يجبُ على الآباء تأديبُ الأبناء، وتربيتهم، وإرسالهم إلى المعلم إذا بلغ أربع سنين، وأربعة أشهر وأربعة أيام، فإنَّ الأب إذا لم يؤدب ابنه ولم يحسن أدبه، ولم يُجلسه بين يدي المعلم، ظهرت آثارُ الانحراف في جميع أعضائه، خصوصاً في لسانه، وذهب استعداده، وقابليته للعلم، وحدث الجهلُ والطغيان، وأنواع المعاصي فيه، فيحصل للأب حصة من سوء عمله، فيعاقب عليها بمثل ما عوقب ابنه، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته،" فإن الخلقة على الإسلام، والقابلية، والاستعداد للعلم، وسائر السعادات الدينية والدنيوية، وزوالها عند الأبناء، إنَّما هو بسبب الأبوين، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "كل مولودٍ يولد على فطرة الإسلام، إلا أنَّ أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه، أو يمجّسانه." الحديث، وكذلك كل مولود يولد على القابلية، والاستعداد للعلم، إلا أنَّ أبويه يجهّلانه، فإن الابن إذا

---

(١) المرجع السابق، ص٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٩٠.

اكتسب الأدب والعلم والمعرفة، وأنواع السعادات الدنيوية والأخروية، حصل من هذه الأوصاف الحميدة خيرٌ كثيرٌ له، ولأبويه، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، كما مر."[1]

**الذي يعلِّم ولده القرآن**

قيل: إن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أجر من علَّم ولده القرآن؟ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "القرآن كلام الله تعالى، ولا غاية له،" فجاء جبرائيل فقال: يا محمد، إن الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول: "من علَّم ولده القرآن كأنما حجَّ البيت عشرة آلاف مرة، وأعتق عشرة آلاف رقبة من ولد إسماعيل، وأطعم عشرة آلاف مسكين مسلمٍ جائعٍ، وكأنما كسا عشرة آلاف عريان مسلم، ويُكتب له بكلِّ حرف عشر حسنات، ويُمحى عنه عشر سيئات، ويكون معه في القبر إلى يوم القيامة، ويكون حجّةً بين يدي الله تعالى، ولا يفارقه حتى يدخل الجنة."[2]

**التحرز عن كلام الفحش**

ويجب على كل مسلم: أنْ يُجري لسانَ ابنه على كلام طيب، وألفاظ مليحة، ويحرزه عن كلمات الفحش، والمهملات إذا ابتدأ التكلُّم، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "أكرموا أولادكم، وأحسنوا آدابهم."[3]

**آداب لا بد منها**

ومن تأديبه: الانحناء للعاطس والشارب ومطارقة النعلين، وقُبَلُ اليد عند خروج الحمّام، والجلوس على ركبتيه، والقيام عند مجيء الكبير، وفتح الباب عند ذهابه وغير ذلك، وهذه التربية واجبةٌ على الأب، لا على الأستاذ، فإنّ الابن على ما رآه في حال الصبا من الأقوال والأفعال، كما قيل: "العلمُ في الصغر كالنقش في الحجر."[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٩١-٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٩٢-٩٣.

(٤) المرجع السابق، ص٩٣.

## فصلٌ في واجبات المتعلم

### تعظيم الأستاذ

أولاً: يجب على المتعلم امتثال أوامر أستاذه، إلا أنْ يأمره بالمناهي، فإنَّه يخالفه، ويجب على المتعلم: تعظيم العلم وأهله، وأستاذه.

اعلم بأنّ المتعلم لا ينال العلم، ولا ينتفع به؛ إلا بتعظيم العلم وأهله، وبتعظيم أستاذه.

قيل: ما وصل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة. وقيل: الحرمة خيرٌ من الطاعة، ألا يرى أنَّ الإنسان لا يكفر بالمعصية، ولكن يكفر باستخفافها، ومن تعظيم العلم تعظيم الأستاذ، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنا عبدُ من علَّمني حرفاً،" وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من علَّمني حرفاً فقد صيَّرني عبداً، إن شاء باع، وإن شاء خُدم."

ونعم ما قيل:

رأيتُ أحقَّ الحقِّ حقّ المعلم ... وأوجبه حفظاً على كلِّ مسلم
لقد حقَّ أنْ يُهدى إليه كرامةٌ ... لتعليم حرفٍ واحدٍ ألف درهم

وقال شمس الأئمة الحلواني: "إنما نلتُ هذا العلم بتعظيم المعلم."[1]

### السعي لإرضاء المعلم

ثانياً: ويطلب المتعلِّم مسرّة المعلِّم بالتواضع، والتملُّق، والدعاء، والخدمة، والنصرة، وغير ذلك.[2]

### حق المعلم بعد حق الله

ثالثاً: ويقدِّم حقّ الأستاذ على أبويه وسائر المسلمين، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "خير الآباء من علَّمك،" وقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إنما المعلم أبٌ لكم، مثل الوالد لولده." بل هو الوالد على الحقيقة، فإن الأب سبب الحياة الفانية، والمعلّم سببُ الحياة

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤-٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٥.

الباقية، لذلك يقدَّم حقُّه على حقّ الأبوين. وقال بعضهم: "الآباء ثلاثة: أبٌ رباك، وأبٌ ولدك، وأبٌ علَّمك، وخير الآباء من علَّمك"، وقال يحيى بن معاذ: "المعلِّمُ خيرٌ من آبائكم وأمهاتكم؛ لأَنَّ آباءكم وأمهاتكم يحفظون من نار الدنيا، ومعلِّم الخير يحفظ من نار الآخرة."

وفي الخبر: قيل لإسكندر ذي القرنين: لِمَ تعظّم أستاذك أكثر من أبويك؟ فقال: لأَنَّ أبي أنزلني من السماء إلى الأرض، وأستاذي يرفعني من الأرض إلى السماء.[1]

**عين الرضا عن كل عيبٍ كليلة**

رابعاً: ولا يبخل المتعلّم بشيء من ماله عن أستاذه، ويحمل ما يسمع من خطاياه على أحسن التأويل، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "حملُ المؤمن على الصلاح هو أقربُ في الفلاح" وهو الفوز والنجاة.[2]

**الجدية في العلم**

خامساً: لا يضحك في العلم، وسماعه، ولا يلعب فيه فيموت قلبه، ولا يجادل في العلم، ولا يعارض، فإنَّه يدق باب الضلال، ويورِث الملال.[3]

**تعظيم الكتاب**

ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب، وعدم مدّ الرجل نحو الكتاب، وينبغي للمتعلّم ألا يأخذ الكتاب إلا بطهارةٍ، ويضع كتاب التفسير فوق سائر الكتب، ولا يضع على الكتاب شيئاً آخر.[4]

**من أدبه مع أستاذه**

ولا يمشي مع أستاذه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ الكلام عِنده إلا بإذنه، ولا يسأل شيئاً عن ملاله، والحاصل ما كان في رضائه، ومن أي وجه كان، ويحترز عن

---

(١) المرجع السابق، ص٩٥-٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص٩٦.

(٤) المرجع السابق، ص٩٧.

سخطه.[1]

**تعظيم أولاد المعلم**

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء، وتعظيم أولاد أستاذه، ومن يتعلق به، حكى صاحب الهداية: أنّ واحداً من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس، وكان يقوم في أثناء الدرس أحياناً، فسألوا عنه، فقال: إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السكة، ويجيء أحياناً على باب المسجد، فإذا رأيته أقوم تعظيماً لأستاذي.[2]

**لا تملق إلا في طلب العلم**

والتملّق مذموم إلا في طلب العلم، فإنَّه ينبغي أنْ يتملَّق لأستاذه، وشركائه، ليستفيد منهم، قال أبو بكر الصديق: الحلمُ زينةُ العلم، والتذلُّل زينة المتعلِّم، كما مر، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "ليس من أخلاق المؤمن التملُّق إلا في طلب العلم."[3]

**الدعاء والنصرة للمعلم**

سادساً: وينبغي لطالب العلم أنْ يستمع العلم والحكمة، بالتعظيم والحرمة ومن تعظيم الأستاذ؛ الدعاء له بالخير سراً وجهراً، والخدمة له والنصرة، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من علّم عبداً آية من كتاب الله تعالى فهو مولاه،" لا يترك عونه، ولا نصرته، ولا يختار على أستاذه أحداً، فإن فعل ذلك ضيّع ما حصّل منه.[4]

**الإسلام دين النظافة**

سابعاً: ويجب على المتعلم: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق، لقوله عليه الصلاة السلام: "بُني الإسلامُ على النظافة،" وما هذه في الثياب فحسب؛ بل في القلب، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] فبيَّن أنَّ النجاسة لا تختص بالثياب، ففيما لم ينظّف الباطن عن رذائل الأخلاق، لا يقبل العلم النافع، ولا

---

(١) المرجع السابق، ص٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٩٧-٩٨.

(٣) المرجع السابق، ص٩٨.

(٤) المرجع السابق، ص٩٩.

يستضيء بنور العلم.[1]

**التفويض في اختيار نوع العلم**

ثامناً: ويجب على المتعلم ألا يختار نوع العلم بنفسه، بل يفوّض أمره إلى أستاذه، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، فكان أعرفَ ما ينبغي لكل واحدٍ، وما يليق بطبيعته، وقال برهان الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان طالب العلم في الزمان الأول يفوِّض أمره إلى أستاذه، وكان يصل إلى مقصوده ومراده، والآن يختارون بأنفسهم، ولا يصلون مقصودهم من العلم.

تاسعاً: ويجب على المتعلم ألا يتكبّر على المعلِّم، ولا يتأمّر عليه، بأن يلقي زمام الاختيار إليه.[2]

**البعد عن الوطن**

عاشراً: وينبغي للمتعلم أنْ يقلل علائقه، ويبعد عن وطنه، حتى يتفرّغ قلبه للمعلم، كما قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤] ولذلك قيل: "العلم لا يعطيك بعضه، حتى تعطيه كلّك."[3]

**أدبٌ رفيعٌ**

حادي عشر: وينبغي للمتعلم ألا يجلس قريباً من أستاذه عند قراءة الدرس، بغير ضرورة، بل ينبغي أنْ يكون بينه وبين أستاذه قدر القوس.[4]

**القصد هو الله**

ثاني عشر: يجبُ أنْ ينوي المتعلم بتحصيل العلم رضاء الله تعالى، والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه، وعن سائر الجهال، وإحياء الدين، وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم، وينوي به الشكر على نعمة العقل، وصحة البدن. ولا ينوي به إقبال

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩ - ١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٠١.

(٤) المرجع السابق، ص١٠١.

الناس، واستجلاب متاع الدنيا، والإكرام عند السلطان، وغيره، وقال حماد رحمة الله عليه، أستاذ أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

من طلب العلم للمعاد فاز بفضلٍ من الرشاد
فيا لخسران طالبيه لنيل فضلِ من العباد

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحق، وإعزاز العلم وإحياء الدين، لا لنفسه.[1]

**لباس أهل العلم**

وينبغي أنْ يكون العلماء وطلاب العلم في زماننا أحسن ثياباً، وأعظم عمامةً، وأوسع أكماماً فرقاً عن الجهلاء، كما قال أبو حنيفة لأصحابه: "عظّموا عمائمكم، ووسّعوا أكمامكم." قال ذلك: لئلا يُستخف بالعلم وأهله، ومن طعن بأطوار علماء زماننا، التي هي لتنفيذ الحقّ وإعزاز العلم، وإحياء الدين يكفُر، وأما الأطوار التي لمجرّد العرف، والتعظيم فيما بينهم فليس بشيءٍ.[2]

**مخالفة الوالدين في التعلم**

ويجوز المخالفة لوالديه في التعلّم، قال في منبع الأدب: "قيل: كلُّ ما لا يؤمن من الهلاك مع جهله، فطلبُ علمه فرضُ عينٍ، ولا يجوزُ تركه، وإن منع الأب عن طلبهِ، سواءٌ كان من الأمور الاعتقادية كمعرفة الصانع وصفاته، وما يجب له، وما يستحيل عليه، وما يجوز، وأن محمداً عبده ورسوله، الصادق في أفعاله، وأقواله، ومن الطاعات التي تتعلّق بالظاهر، كالطهارة، والصلاة، والصوم، وغيرها، أو مما يتعلّق منها بالباطن كالنية، والإخلاص، والتوكل، والصبر، والشكر، وغيرها من المعاصي." وما يتعلّق بالظاهر: كالنظر بشهوة إلى أجنبية، أو أمرد، والغيبة، وكل ما يتعلّق باللسان كشرب الخمر، والزنا، وأكل الحرام، والربا، وغير ذلك، ومما يتعلّق منها بالباطن؛ كالحسد والرياء، وسوء الظن، وغير ذلك. فإن معرفة هذه الأشياء فرضُ عين، يجبُ على

(١) المرجع السابق، ص١٠١-١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٢.

المكلف طلبُها، وتحصيلها، وإن لم يأذن له أبوه.[1]

## النحو والصرف مفتاح العلوم

ثالث عشر: ويجب على المتعلم، أنْ يقدِّم في التعلم الأهمَّ من العلوم، وهو الصرف والنحو، وغيرها على الترتيب، وذلك أنَّ العلماء لا يصلون مقاصدهم من العلوم إلا بسبب الألفاظ، والألفاظ لا تحصل إلا بهما، وعن عبد الله بن المبارك أنّه قال: مات أبي وخلّف لي ستين ألف درهم، فأنفقتُ منها ثلاثين ألف درهم في تعلّم الفقه، وثلاثين ألفاً في تعلُّم النحو والأدب، وليت الذي أنفقته في تعلُّم الفقه أنفقته في تعلُّم النحو والأدب، فإن النصارى كفروا بتحريف حرفٍ واحدٍ من كتاب الله تعالى، حيث وجدوا في الإنجيل مكتوباً إني أنا الله ولَّدتُ عيسى عن عذراء بتول؛ أي منقطعة عن الأزواج، بتشديد لامِ ولّدت فقرؤوها بتخفيفها فكفروا.

قيل:

النحـــو زيـــن للفتـــى ... يكـــرم بـــه حيـــث أتـــى
مَـــن لم يعـــرف النحـــو ... فواجـــب أنْ يـــسكتا[2]

## لزوم التفنن في أخذ العلم

ويأخذ من كل علمٍ أحسنه، وأرشده؛ أي ما يُرشد صاحبه إلى الصراط المستقيم، كالفقه، والحديث، والتفسير، من العلوم الشرعية والصرف، والنحو، والمعاني في العلوم العربية. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: إنَّما العلم منيعٌ غوره، فخذوا من كل علمٍ أحسنه، وبكتب ويستفيد ويطلب من كلِّ فنٍّ نصيباً كافياً غير زائدٍ، على قدر الحاجة، فإن التفنّن لازمٌ للعلم، ولذلك قيل: من طلب الله تعالى بعلم الكلام وحده يصير زنديقاً، ومن طلب الله تعالى بالزهد وحده غير مقارن للعلم ارتكب البدعة، ومن طلبَ الله تعالى بالفقه وحده صار فاسقاً، ومن تفنّن تخلَّص من كل ذلك.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣- ١٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٥.

**المحبرة في كل وقت**

رابع عشر: ويجب على المتعلم أنْ يكون مستفيداً في كل وقتٍ، حتى يحصل له الفضل، وأن يكون معه في كل وقتٍ محبرةٌ، حتى يكتب ما سمعه من الفوائد، ولذلك قيل: من حفظ فر، ومن كتب قرَّ. وقيل: أحسنُ العلم ما يحفظ من أفواه الرجال؛ لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون.[1]

**لا تيأسن من طلب العلم**

خامس عشر: ولا يعرضُ المتعلم عن العلم والتعلّم، إذا لم يؤثر في قلبه شيءٌ من العلم، فإن العلم إذا دخل السمع نفعه يوماً، وكذا عمل بما علِم ولم يتركه، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "مالا يدرك كلُّه لا يتركُ جلّه." وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من عمل بما علم، ورّثه الله علم ما لم يعلم."[2]

**الأدب في السؤال**

سادس عشر: ويحسِّن سؤالَه، فإنّ حُسن السؤال نصفُ العلم، والسؤال مفتاح خزائن العلم، فإنّ صدور العلماء خزائن العلم، فيفتح أبوابها؛ أي أفواههم، بالسؤال عليهم.[3]

**العلم في الصغر كالنقش في الحجر**

سابع عشر: ويجب على المتعلم أنْ يتعلّم في صغره، قبل البلوغ أو بعده، ففي الحديث: "مثل الذي يتعلّم في صغره كالوشم على الصخرة؛" أي النقش على الحجر، كما قيل: العلم في الصغر كالنقش على الحجر، والعلم في الكبر كالنقش على المدر، والذي يتعلّم في الكبر كالذي يكتب على الماء المتجمد، فإنَّه يزول سريعاً، إلا من يهديه الله تعالى، فإنَّه لا مانع لهدايته تعالى.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٦ - ١٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨.

**العلم ضالة المتعلم**

ثامن عشر: ويجب أنْ يتعلّم من كل عالمٍ؛ صغيرٍ، وكبيرٍ، وغنيٍّ، وفقيرٍ، ولا يستنكف من استفادة العلم، مما هو أدنى حالاً منه، فإن العلم ضالةُ المؤمن أخذها حيث وجدها.

وأيضاً العلم سبب النجاة من سبع الجهل، ومن طلب مهرباً من سبعٍ، لا يفرِّق بين مُرشدِ الشريف، أو الحقير إلى المهرب، وكذلك يجب لطالب العلم المهرب من سبع الجهل، ألا يفرِّق بينهما.[1]

**من جَدّ وجَدْ**

تاسع عشر: ويجب على المتعلم الجدّ والمواظبةُ والملازمة لطلب العلم، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] كما قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من طلب وجدّ وجد، ومن قرع باباً ولجَّ ولج." قيل: بقدر سعيك تنال ما تتمنى، فإن العلم كنزٌ لا يحصل إلا بالمشقة. فإنّ من لم يصبر على مشقةِ العلم ساعةً يبقى في ظلمات الجهل أبداً. ويجب في تحصيل العلم من سعي ثلاثة: المعلم، والمتعلم، والأبُ إن كان حياً، وإذا فُقد واحدٌ فُقدَ العلمُ.[2]

**أفضل أوقات الحفظ**

عشرون: ويجب على المتعلم مواظبة الدرس، والتكرار في أول الليل وآخره، فإن ما بين العشاءين، ووقت السحر، وقتٌ مباركٌ. قيل:

يا طالبَ العلم باشر الورَعا ... وجانب النوم واترك الشبعا
ودم على الدرس لا تفارقه ... فإن العلم بالدرس قام وارتفعا[3]

**الهمة والجدية**

حادي وعشرون: ويجب على المتعلم الهمةُ العاليةُ في العلم وغيره، فإن المرء يطير

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٩-١١٠.

بهمته كالطير يطير بجناحيه، وقيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

أما إذا كانت له همة ولم يكن له جدٌّ، أو كان له جدٌّ ولم تكن له همةٌ عالية، فلا يحصل له من العلم إلا قليل.[1]

**التقوى مصباح العلم النافع**

ثاني وعشرون: ويجب على المتعلم التقوى، فإن العلم لا يحصل إلا بها، فإن العلم الحاصل بالفسق والفجور لا ينفع صاحبه، ولا يخلِّصه من ظلمات الجهل، بل يجب عليه أنْ يعملَ بما علِم، فإن الطالب من الذي إذا ازداد علمُه، ازداد تقواه، حتى يكون في الدارين من الفائزين.[2]

**الورع في التعلم**

ثالث وعشرون: ويجب عليه الشكر لما حصل له من العلم، قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما أدركت العلم بالجهد، والشكر، فلما فهمتُ ووقعت على علمٍ قلت: الحمد لله، فازداد علمي،" ولا يعتمد على نفسه، وعقله، بل يعتمد ويتوكل على الله تعالى، ويطلب العون منه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]. ويهديه إلى صراط مستقيم، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالى بإحدى ثلاثة أشياء: إما أنْ يميته في شبابه، أو يوقعه في الرساتيق، أو يبتليه بخدمه السلطان،" فمهما كان طالب العلم ورعاً، كان علمه أنفع والتعلّم أيسر، وفوائده أكثر.[3]

**فصلٌ في أسباب النسيان وأسباب الحفظ**

رابع وعشرون: ويجب عليه أنْ يستعمل ما يجلب الذكاء ويدفع النسيان، والكسلان، فإن زوال العلم بالنسيان، وأصل النسيان بالعصيان.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١٠-١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١١.

(٤) المرجع السابق، ص١١٢.

**احذر من المعي أنْ يمتلئ**

يتولد الكسل من كثرة البلغم، ولذلك قيل: إن النسيان من كثرة البلغم، وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء، وكثرةُ شرب الماء من كثرة الأكل، فاحترز منها.[1]

**أشياء تورث النسيان**

وكذلك أكل التفاح الحامض، والنظر إلى المصلوب، وقراءة ألواح القبر، والمرورُ بين قطعان الجمل، وإلقاء القمل الحي على الأرض، والحجامة على نُقر القفا، يورث الكسلان والنسيان.[2]

**أشياء تورث الحفظ**

وأما أكلُ الخبز اليابس، والزبيب، على الجوع، فإنهما يقطعان البلغم، وكذلك السواك، فإنَّه يقلل البلغم، ويزيد في الحفظ والفصاحة، وكذلك يقلل القيء.

وأما طريق تقليل الأكل: التأمّلُ في منافع قلة الأكل، وهي الصحة والعفة، والإيثار، قيل:

فعارٌ ثم عارٌ ثم عارٌ شقاءُ المرء من أجل الطعام

وأقوى أسباب الحفظ: الجدُّ والمواظبة وتقليل الغذاء، وصلاةُ الليل، وقراءةُ القرآن نظراً، وقيل: ليس شيئاً أزيد في الحفظ من قراءة القرآن نظراً.[3]

**أفضل الأيام لطلب العلم**

خامس وعشرون: ويطلب المتعلم العلمَ يوم الإثنين، والأربعاء، والخميس والجمعة، فإنَّه تيسيرٌ له، هكذا روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في ذكره، في الخلاصة، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "ما من شيء يبدأ في يوم الأربعاء إلا قد تمَّ" هكذا فعل أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ. وقيل: إن يوسف الهمداني وقَّف كلَّ عملٍ من أعمال الخير إلى يوم

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١١٢.

(٣) المرجع السابق، ص١١٤.

الأربعاء، وذلك أنَّ يوم الأربعاء يومٌ خلق الله تعالىٰ فيه النور.[1]

**التكرار أسُّ الحفظ**

وأما قدر السبق، فينبغي للمبتدأ أنْ يكون قدر ما يمكن ضبطُه بالإعادة مرة، أو مرتين، ويزيدُ كلمةً، بمقدار ما حصلَ حفظه بلا مشقة، قيل: السبق حرفٌ، والتكرار ألفٌ، ويكرّر سبق الأمسِ خمس مراتٍ، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، وهكذا إلىٰ واحد، ويجب عليه أنْ يكرر كثيراً بعد الحفظ، فإنَّه نافعٌ جداً، قال حمادٌ أستاذ أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك:

اخـــدُم العلـــمَ خدمـــة المـــستفيد ... وأدم دَرســـــه بفعـــــلٍ حميـــــد
وإذا مـــا حفظـــتَ شـــيئاً أعِـــدْه ... ثـــم أكّـــده غايـــة التأكيـــد[2]

**فوائد المطارحة والمناظرة**

ولا بد من المذاكرة والمطارحة والمناظرة، والمشاورة، لإظهار الحق، وفائدة المطارحة والمناظرة أقوىٰ من مجرد التكرار، وقيل: المطارحة ساعةً خيرٌ من تكرير شهر، وإنما تفقّه أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكثرة المطارحة، والمذاكرة في دكانه حين كان بزّازاً.[3]

**الهجرة في طلب العلم**

ويسافر المتعلم في طلب العلم إلىٰ أقصىٰ البلاد؛ أي البعيدة، ولو سافر ودخل الأرض كلها راجلاً، حكي عن الشقيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه قال لابنه: لو أنَّ رجلاً سافر من المشرق إلىٰ المغرب واستفاد في سفره كلمةً واحدة من عالمٍ، ما قلتُ أنَّ سفره ضائعٌ.

وحكي أنَّ خلف بن أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أرسلَ ابنه من بلخ إلىٰ بغداد للتعلّم فأنفق عليه خمسين ألف درهم، فلما رجع قال له: ما تعلمتَ؟ قال: تعلَّمتُ هذه المسألة: إن زمان الغسل محسوبٌ من الطهر في حق صاحبة العشر، ومحسوبٌ من الحيض فيما

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥ - ١١٦.
(٢) المرجع السابق، ص١١٦.
(٣) المرجع السابق، ص١١٧.

دونها، فقال خلف: ما ضيَّعتَ سفرك.[1]

## فصلٌ في النصائح

**أشياء تزيد في نور العين وأخرىٰ تنقص منه:**

أربعةُ أشياء تزيد في نور العين: النظر في المصحف، والنظر في وجه الأبوين، والنظر إلىٰ الكعبة، والنظر في وجه العلماء.

وأربعة أشياء تنقص من نور العين: أكل الطعام المالح، والمشي في عين الشمس، والنظر في وجه العدو، وصبُّ الماء الحار علىٰ الرأس.[2]

**أشياء تسود القلب وأخرىٰ تنوّره**

أربعة أشياء تسوِّد القلب: كثرةُ الكلمات، وكثرةُ الضحك، وكثرةُ الأكل، وأكل الحرام.

وخمسة أشياء تنوِّر القلب: قراءة سورة الإخلاص، وقلّة أكل الطعام، ومجالسةُ العلماء، والإكثار من صلاة الليل، وأكل النباتات المأكولة.[3]

**أشياء لا تعتمد عليها:**

أربعة أشياء لا تعتمد عليها: طيبُ الهواء في فصل الشتاء، وضحكُ الملوك، وملاءمة العدو، وزهد المرأة.[4]

**رأس الحكمة مخافة الله**

اعلم أنّه إذا أردت أنْ تفعل شيئاً فاعْلم أولاً: أنَّ الله تعالىٰ حاضرٌ وناظرٌ فوقك، إن كان ذلك الشيء خيراً فافعله بالخشوع، والخضوع رعايةً لعظمةِ الله تعالىٰ، وإلا

---

(١) المرجع السابق، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق، ص١١٨.

(٣) المرجع السابق، ص١١٩-١٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٠.

فاترك الشيء خوفاً من غضب الله تعالىٰ وعذابه.[1]

**كيف تعامل الناس**

وإن شئت أنْ تعيشَ مع جميع المخلوقات بالمحبة والمودة فارعَ من كان كبيراً منك كأبيك، ومن كان مساوياً لك في السنِّ كأخيك، ومن كان صغيراً منك كابنك، ولا تشتر شيئاً بالنسئة من أخلائك فإنَّه يورث البُغض، ولا تقترض منهم؛ لأَنَّ القرض مِقراضُ المحبة. ولا تتكلم بسرِّك إلىٰ ثلاثة: شارب الخمر، والمرأةِ، والصبي، ولا تكن مع تارك الصلاة، وشارب الخمر، والزاني، وممن لا حياء له، فإن هؤلاء مذمومون عند الله تعالىٰ، وعند جميع المخلوقات، ولا ترج الوفاء من العمال، وممن يشابههم، والمنافق والغلام الصبيح، والسفهاء، وإن شئت ألا يُكشف عيبُك؛ لا تكشف عيبَ غيرك كما يقال: "لا تقل، لا تسمع، ومن دقَّ دُقَّ، وإن شئت ألا تسمع كلاماً غليظاً فلا تقل للغير كلاماً غليظاً."

ولا تترك أخلاء أبيك، فإن أخلاّء الأب ميراث الابن، ولا تأمن مِن أعداء أبيك، ولا تدخل ولا تتكلم بين المرأة وزوجها، وبين التلميذ وأستاذه، وبين العبد ومولاه، وبين الأب وابنه.[2]

**خاتمة**

ثم اعلم أنّه ينبغي لكل طالبِ علمٍ أنْ يقرأ ويحفظ هذه الرسالة ويطالعها، ويستعملها، في كل زمانٍ ومكانٍ، وتُقرأ عليه ويستمع ويحفظ ما سمع؛ لأَنَّ من لم يعرف شرفَ العلم وعِظمه وسعادةَ أهله، وعظمَ شأنهم في الدنيا والآخرة لم يجدَّ، ولم يسعَ إلىٰ تحصيله، ولم يصبر علىٰ المشقة فيه، ولم يحصل مرادُه، ولم يصل مقصوده؛ لأَنَّ من طلب شيئاً ولم يعلمْ كيفية طلبه ولم يعلم ممن يطلب ذلك الشيء، ولم يباشر أسبابَه لم يصل مرادَه ألبتة.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٢١.

وأما من يطالعها، وقف على عِظم العلمِ وأهله، وعرف كيفية تحصيلِه إجمالاً، فوصلَ إلى مُراده، ونال مقصودَه، بعون الله تعالى.

الحمد لله على إتمامه وإعطاء نعمائه، والصلاة على محمدٍ وآله، وأصحابه أجمعين.[1]

تمت نهاية الكتاب

(١) المرجع السابق، ص١٢٢.

# (١١)
# تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِ طَرِيقَ التَّعَلُّمِ

## برهان الدين الزرنوجي (توفي: ٥٩١هـ)

**العصف الفكري وفحص التحصيل بالمذاكرة والمناظرة والمطارحة:**

ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، فينبغي أنْ يكون كل منها بالإنصاف والتأني والتأمل، ويتحرز عن الشغب والغضب، فإنَّ المناظرة والمذاكرة مشاورةٌ، والمشاورة إنَّما تكون لاستخراج الصواب، وذلك إنَّما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف، ولا يحصل بالغضب والشغب، فإنْ كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم وقهره فلا تحل، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق، والتمويه، والحيلة فيها لا تجوز، إلا إذا كان الخصم متعنتاً لا طالباً للحق، وكان محمد بن يحيىٰ إذا توجه عليه الإشكال ولم يحضره الجواب يقول: ما ألزمته لازمٌ، وأنا فيه ناظر، وفوق كل ذي علم عليم.

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوىٰ من فائدة مجرد التكرار، لأَنَّ فيه تكراراً وزيادة، فقد قيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، ولكن إذا كان مع منصف سليم الطبيعة، وإيَّاك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع، فإنَّ الطبيعة متسرية والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة. (ص ٥١-٥٢)

الفصل الحادي عشر:

# كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" لبرهان الإسلام الزرنوجي

## أولاً: التعريف بـ"الزرنوجي"

هو برهان الإسلام الزرنوجي، أصله وتعليمه ورحلاته مجهولة، ولم يوثق يوم ولادته ووفاته، ورجّح بعض الباحثين أنّه ولد عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) في بلدة زارنوج، وهي بلدة معروفة بعد نهر أوكسس تقع فيما يعرف الآن بتركستان. ويعتقد أنّه توفي في بخارىٰ حوالي سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م). والتفاصيل عن حياته المبكرة قليلة، لكن المعروف أنّه درس علىٰ أيدي مجموعة من علماء الحنفية أشهرهم: الشيخ علي بن أبي بكر المرغيناني، صاحب كتاب الهداية في الفقه الحنفي من سمرقند، وتتلمذ كذلك علىٰ مفتي بخارىٰ خواهر زاده، وهو ركن الإسلام محمد بن أبي بكر. ويذكر المؤلف في كتابه عدداً من المشايخ الذين أخذ العلم عنهم، منهم الشيخ الإمام سديد الدين الشيرازي، والإمام الأجلّ فخر الدين المعروف بقاضي خان.

تميز العصر الذي عاش فيه الزرنوجي وهو القرن السادس الهجري بالفتن الداخلية نتيجة التنازع علىٰ السلطة، والحروب الخارجية مع التتار والصليبيين. لكن الحركة العلمية لم تتوقف، بل ظهر كثير من العلماء الأفذاذ في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

لم يُعرف للزرنوجي من التأليف غير كتاب (تعليم المتعلم طريق التعلم)، حيث أصبحت شهرة الكتاب تُعرِّف بالمؤلف. وبعض المحققين للكتاب يظنّ أنَّ هذا الكتاب هو مختصر من كتاب آخر ليس للزرنوجي، اعتماداً علىٰ بعض العبارات في الكتاب التي يشير فيها الزرنوجي إلىٰ المصنف، ثم يعقب بقول له.

## ثانياً: التعريف بـ" تعليم المتعلم طريق التعلم"[1]

كان عنوان الكتاب سبباً من أسباب الاهتمام به، ففي حين ركزت كثير من كتابات التراث التربوي الإسلامي على دور المعلم، حاول هذا الكتاب أنْ يلفت الانتباه إلى أنَّ الأكثر أهمية هو عملية التعلّم، التي يقوم بها المتعلم، ويستكمل بها شرائط التعلم، وأن الأصل في الطرق والنشاطات التي يقوم بها المعلم؛ أي كيفية التعليم، هي مساعدة المتعلم على اكتساب العلم. وقد لفت الزرنوجي الانتباه إلى هذا الأصل في عنوان الكتاب، قبل أنْ يتحدث في موضوعاته. والكتاب بهذا العنوان يتصل اتصالاً مباشراً بما يعرف الآن بعلم نفس التعلم.

الكتاب صغير الحجم، يقع في حوالي (٤٠) صفحة (١٢٠٠٠كلمة) وقد نال شهرة ملموسة لدى الباحثين الأوروبيين، فترجم إلى اللاتينية والألمانية والإنجليزية والتركية، وطبع بهذه اللغات. كما نال اهتماماً جيداً في العالم العربي والإسلامي، وكان موضوعاً لعدد من الدراسات والأطروحات الجامعية. ونوّه الباحثون بقيمة المبادئ التربوية التي تضمنها الكتاب، والتي تجد ما يقابلها في الدراسات النفسية والتربوية الحديثة.

ومن ميزات الكتاب كذلك أنّه يخاطب مرحلة تعليمية أعلى من مرحلة الكتّاب، التي يبدأ الصبيان تعليمهم فيها، ذلك أنّه في المجمل خطاب موجه إلى مرحلة أعلى يتمكن فيها المتعلم من اختيار المتعلم لأستاذه، وعلومه، وكتبه، وشريكه، والوعي على العوامل التي تعين على توفر أفضل متطلبات التعلم الجيد.

وسيجد القارئ موضوعات الكتاب في عناوين الفصول بعد لحظات في مقدمة الكتاب، فلا داعي لإيرادها هنا.

## ثالثاً: مختارات من "تعليم المتعلم طريق التعليم"

الحمد لله الذي فضل بني آدم بالعلم والعمل على جميع العالم، والصلاة والسلام على محمد سيد العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه ينابيع العلوم والحكم، وبعد:

---

(١) الزرنوجي، برهان الدين إبراهيم. **تعليم المتعلم طريق التعلم**، الخرطوم: الدار السودانية للكتب، ط١، ٢٠٠٤م.

فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم في زماننا يجدّون إلى العلم ولا يصلون، ومن منافعه وثمراته يحرمون، لما أنهم أخطأوا طرائقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، ولا ينال المقصود قلَّ أو جلّ، أردت وأحببت أنْ أبين لهم طريق التعلُّم، على ما رأيت في الكتب وسمعت من أساتذتي أولي العلم والحكم، رجاء الدعاء لي من الراغبين فيه المخلصين، بالفوز والخلاص في يوم الدين.

بعدما استخرت الله تعالى فيه، وسميته: "تعليم المتعلم طريق التعلم"، وجعلته فصولاً:

فصل: في ماهية العلم والفقه وفضله. فصل: في النية في حال التعلم. فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات. فصل في تعظيم العلم وأهله. فصل في الجد والمواظبة والهمة. فصل: في بداية السبق وقدره وترتيبه. فصل: في التوكل. فصل: في وقت التحصيل. فصل: في الشفقة والنصيحة. فصل: في الاستفادة. فصل: في الورع في حالة التعلم. فصل: فيما يورث الحفظ، وفيما يورث النسيان. فصل: فيما يجلب الرزق، وما يمنعه، وما يزيد في العمر وما ينقص.[1]

**فصل في ماهية العلم والفقه وفضله**

قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة." اعلم أنّه لا يفترض على كلِّ مسلمٍ طلب كلِّ علمٍ، وإنما يُفترض عليه طلب علم الحال، كما يقال: وأفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال. ويُفترض على المسلم طلب ما يقع له في حاله، في أي حالٍ كان، فإنَّه لا بد له من الصلاة فيُفترض عليه علم ما يقع له في صلاته بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأَنَّ ما يُتوصل به إلى إقامة الواجب يكون واجباً. وكذلك في الصوم والزكاة، إن كال له مال، والحج إن وجب عليه، وكذلك في البيوع إن كان يتجر...

قيل: إن علم ما يقعُ على نفسه في جميع الأحوال بمنزلة الطعام لا بد لكل واحد من ذلك، وعلم ما يقع في الأحايين بمنزلة الدواء، يحتاج حين المرض فقط، وعلم

(١) المرجع السابق، ص٦-٧.

النجوم بمنزلة المرض فتعلمه حرام؛ لأنه يضر ولا ينفع، والهرب من قضاء الله تعالىٰ وقدره غير ممكن...

اللهم إلا إذا تعلّم من النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة فيجوز ذلك، وأما تعلم علم الطب فيجوز؛ لأنه سبب من الأسباب، فيجوز تعلمه كسائر الأسباب، وقد تداوىٰ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد حُكي عن الشافعي رحمة الله عليه أنّه قال: "العلم علمان: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وما وراء ذلك بُلغة مجلس"، وأما تفسير العلم فهو صفة يتحلىٰ بها المذكور لمن قامت هي به كما هو، والفقه معرفة دقائق العلم مع نوع علاج.

قال أبو حنيفة رحمة الله عليه: "الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها."

وقال: ما العلم إلا للعمل به، والعمل به ترك العاجل للآجل، فينبغي للإنسان أنْ لا يغفل عن نفسه، ما ينفعها وما يضرها في أولها وآخرها، ويستجلب ما ينفعها ويجتنب ما يضرها، كي لا يكون عقله وعلمه حجة عليه فيزداد عقوبة، نعوذ بالله من سخطه وعقابه.

وقد ورد في مناقب العلم وفضائله آياتٌ وأخبارٌ صحيحة مشهورة لم نشتغل بذكرها، كي لا يطول الكتاب.[1]

**فصل في النية في حال التعلّم**

ثم لا بد له من النِيَّة في زمان تعلُّم العلم؛ إذ النيةُ هي الأصل في جميع الأفعال لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إنما الأعمال بالنيات" حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

كَمْ مِنْ عملٍ يُتصور بصورة عمل الدنيا، ثم يصير بحسن النية من أعمال الآخرة، وكم من عمل يتصور بصورة عمل الآخرة، ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية.

ينبغي أنْ ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه، وعن سائر الجهال، وإحياءَ الدين، وإبقاء الإسلام، فإنَّ بقاءَ الإسلام بالعلم،

---

(١) المرجع السابق، ص٥-١٣.

ولا يصح الزهد والتقوىٰ مع الجهل.

وأنشدنا الشيخ الإمام الأجل الأستاذ برهان الدين صاحب الهداية لبعضهم شعراً:

فـــسادٌ كبـــيرٌ عـــالم مُتَهَتِّـــكٌ وأكـــبر منـــه جاهـــلٌ متنـــسّكُ
همـــا فتنـــةٌ للعـــالمين عظيمـــةٌ لمـــن بهـــما في دينـــه يتمـــسَّكُ

وينوي به الشكر علىٰ نعمة العقل، وصحة البدن، ولا ينوي به إقبال الناس عليه، ولا استجلاب حطام الدنيا، والكرامة عند السلطان وغيره...

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحق وإعزاز الدين لا لنفسه وهواه، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وينبغي لطالب العلم أنْ يتفكّر في ذلك، فإنَّه يتعلم العلم بجهد كثير فلا يصرفه إلىٰ الدنيا الحقيرة القليلة الفانية...

قال أبو حنيفة رحمة الله عليه لأصحابه: عظّموا عمائمكم، ووسّعوا أكمامكم. وإنما قال ذلك لئلا يُستخف بالعلم وأهله.

وينبغي لطالب العلم أنْ يحصّل كتاب الوصية التي كتبها أبو حنيفة ليوسف بن خالد السمتي عند الرجوع إلىٰ أهله، يجده من يطلب العلم، وقد كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر قدس الله روحه العزيز أمرني بكتابته عند الرجوع إلىٰ بلدي فكتبته، ولا بد للمدرس والمفتي في معاملات الناس منه، وبالله التوفيق.[1]

**فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات**

ينبغي لطالب العلم أنْ يختار من كلِّ علمٍ أحسنَه، مما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه من المآل، ويقدم عليه التوحيد والمعرفة، ويعرف الله تعالىٰ بالدليل، فإن إيمان المقلد، وإن كان صحيحاً عندنا، لكن يكون آثماً بترك الاستدلال.

---

(١) المرجع السابق، ص١٤-١٨.

ويختار العتيق دون المحدثات، قالوا: عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات، وإياك أنْ تشتغل بهذا الجدال الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنَّه يبعد الطالب عن الفقه، ويضيع العمر، ويورث الوحشة والعداوة، وهو من أشراط الساعة، وارتفاع العلم والفقه، كذا ورد في الحديث.

أما اختيار الأستاذ: فينبغي أنْ يختار الأعلم والأورع والأسن، كما اختار أبو حنيفة حماد ابن أبي سليمان بعد التأمل والتفكّر، وقال: وجدته شيخاً وقوراً حليماً صبوراً في الأمور. وقال: ثبتُّ عند حماد بن أبي سليمان فنبتُّ. وقال: سمعتُ حكيماً من حكماء سمرقند يقول: إن واحداً من طلبة العلم شاورني في طلب العلم، وكان قد عزم على الذهاب إلى بخارى لطلب العلم.

وهكذا ينبغي أنْ يشاور في كل أمر، فإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بالمشاورة في كل الأمور، ولم يكن أحدٌ أفطن منه، ومع ذلك أُمر بالمشاورة، وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور حتى حوائج البيت.

قال علي كرم الله وجهه: ما هلك امرؤٌ عن مشورة. قيل: الناسُ رجلٌ تام، ونصفُ رجلٍ، ولا شيء، فالرجلُ: من له رأي صائبٌ ويشاور العقلاء، ونصف الرجل: من له رأيٌ صائبٌ لكن لا يشاور، أو يشاور ولكن لا رأي له، ولا شيء: من لا رأي له ولا يشاور...

قال الحكيم رحمة الله عليه: إذا ذهبت إلى بخارى فلا تعجل في الاختلاف إلى الأئمة، وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذاً، فإنك إن ذهبت إلى عالم وبدأت بالسبق عنده، فربما لا يعجبك درسه فتتركه فتذهب إلى آخر فلا يبارك لك في التعلم، فتأمل في شهرين في اختيار الأستاذ، وشاور حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه، فتثبت عنده حتى يكون تعلّمك مباركاً وتنتفع بعلمك كثيراً، واعلم أنَّ الصبر والثبات أصلٌ كبير في جميع الأمور...

وأما اختيار الشريك فينبغي أنْ يختار المجدّ والورع وصاحب الطبع المستقيم المتفهم، ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان، قال الشاعر:

عـن المـرء لا تـسل وأبـصر قرينـه فكـلُّ قـرينٍ بالمقـارن يقـتدي
فـإن كـان ذا شرٍّ فجانبـه سرعـة وإن كـان ذا خـير فقارنـه تهتـدي

وأنشدت شعراً آخر:

لا تـصحب الكـسلان في حالاتـه كـم صـالحٍ بفـسادِ آخـر يفـسد
عدوىٰ البليـد إلىٰ الجليـد سريـعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد[1]

...

**فصل في تعظيم العلم وأهله**

اعلم أنَّ طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، فقد قيل: ما وصل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة، وقيل: الحرمة خير من الطاعة، ألا ترىٰ أنَّ الإنسان لا يكفر بالمعصية، وإنما يكفر باستخفافها وبترك الحرمة، ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنا عبد من علمني حرفاً واحداً، إن شاء باع، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق.

وقد أنشدت في ذلك شعراً:

رأيـت أحـق الحـق حـق المعلـم وأوجبـه حفظـاً عـلىٰ كـل مـسلم
لقـد حَـقَّ أنْ يُهـدىٰ إليـه كرامـةً بتعلـيم حـرف واحـد ألـفُ درهـم

فإن من علمك حرفاً واحداً مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين، وكان أستاذنا الشيخ الإمام سديد الدين الشيرازي يقول: قال مشايخنا: من أراد أنْ يكون ابنه عالماً فينبغي أنْ يراعي الغرباء من الفقهاء، ويكرمهم ويطعمهم ويعطيهم شيئاً، فإن لم يكن ابنه عالماً يكون حفيده عالماً، ومن توقير المعلم أنْ لا يمشي أمامه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدي بالكلام عنده إلا بإذنه، ولا يُكثر الكلام عنده، ولا يسأل شيئاً عند ملازمته ويراعي الوقت، ولا يدق الباب، بل يصبر حتىٰ يخرج الأستاذ...

(١) المرجع السباق ١٩- ٢٤.

وكان القاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي رئيس الأئمة في مرو، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام، وكان يقول: إنَّما وُجدت بهذا المنصب بخدمة الأستاذ، فإني كنت أخدم الأستاذَ القاضي الإمام أبا زيد الدبوسي، وكنت أخدمه وأطبخ طعامه ثلاثين سنة، ولا آكل منه شيئاً، وكان الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني رحمة الله عليه، قد خرج من بخارىٰ وسكن في بعض القرىٰ أياماً لحادثة وقعت له، وقد زاره تلاميذه غير الشيخ الإمام شمس الأئمة القاضي بكر بن محمد الزرنوجي، فقال له حين لقيه: لِمَ لم تزرني؟ قال: كنت مشغولاً بخدمة الوالدة، قال: ترزق العمر، لا ترزق رونق الدرس، وكان كذلك، فإنَّه كان يسكن في أكثر أوقاته في القرىٰ، ولم ينتظم له الدرس، فمن تأذىٰ منه أستاذه يحرم بركة العلم، ولا ينتفع بالعلم إلا قليلاً.

إن المعلم والطبيب كلاهما ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واقنع بجهلك إن جفوت معلما

...

ومن التعظيم أنْ يجوّد كتابة الكتاب، ولا يقرمط، ويترك الحاشية إلا عند الضرورة، ورأىٰ أبو حنيفة كاتباً يقرمط في الكتابة فقال: لا تقرمط خطك، إن عشت تندم وإن مت تُشتم، يعني إذا شخت وضعف نور بصرك ندمت علىٰ ذلك، وحُكي عن الشيخ الإمام مجد الدين الصرخكي أنّه قال: ما قرمطنا ندمنا، وما انتخبنا ندمنا، ومالم نقابل ندمنا، وينبغي أنْ يكون تقطيع الكتاب مربعاً، فإنَّه تقطيع أبي حنيفة، وهو أيسر علىٰ الرفع والوضع والمطالعة، وينبغي أنْ لا يكون في الكتاب شيء من الحمرة، فإنَّه من صنيع الفلاسفة، لا صنيع السلف، ومن مشايخنا من كره استعمال المركب الأحمر.

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء في طلب العلم والدرس، ومن يتعلم منه، والتملق مذموم إلا في طلب العلم، فإنَّه ينبغي أنْ يتملّق لأستاذه وشركائه، ليستفيد منهم...

وينبغي لطالب العلم أنْ لا يختار نوع العلم بنفسه، بل يفوض أمره إلىٰ الأستاذ، فإنَّ الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد، وما يليق بطبيعته، وكان الشيخ الإمام الأجل الأستاذ برهان الحق والدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كان

طلبة العلم في الزمان الأول يفوضون أمرهم في التعلم إلى أستاذهم، وكانوا يصلون إلى مقصودهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم، فلا يحصل مقصودهم من العلم والفقه. وكان يُحكى أنَّ محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان بدأ بكتابة الصلاة على محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له محمد بن الحسن: اذهب وتعلم علمَ الحديث، لما رأى أنَّ ذلك أليق بطبعه، فطلبَ علم الحديث فصار فيه مقدماً على جميع أئمة الحديث.[1]...

**فصل في الجد والمواظبة والهمة**

ثم لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم، وإليه الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]...

وقيل: من طلب شيئاً وجدّ وجَدَ، ومن قرع الباب ولجّ ولَجَ. وقيل: بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى، وقيل: يحتاج في التعلم والتفقه إلى الجِدِّ ثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب، إن كان في الأحياء.

أنشدني الشيخ الإمام الأجل الأستاذ سديد الدين الشيرازي للشافعي:

الجِدُّ يُدْنِي كل أمرٍ شاسعٍ ... والجِدُّ يفتح كلَّ بابٍ مغلقِ
وأحقُّ خلق الله بالهَمِّ امرؤٌ ... ذو همةٍ يُبلى بعيش ضيّق
ومن الدليل على القضاء وحكمه ... بؤسُ اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمق
لكنَّ من رُزق الحجا حرم الغنى ... ضدان يفترقان أيُّ تفرّق

...

وقيل: من أسهر نفسه بالليل، فقد فرح قلبه بالنهار، ولا بد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره، فإن ما بين العشائين ووقت السحر وقتٌ مبارك...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٣٢.

ولا يجهد نفسه جهداً، يضعف النفس حتىٰ ينقطع عن العمل، بل يستعمل الرفق في ذلك، والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "ألا إنَّ هذا الدين متينٌ، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض نفسك في عبادة الله تعالىٰ، فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقىٰ"...

فلا بد لطالب العلم من الهمة العالية في العمل، فإن المرء يطير بهمته، كالطير يطير بجناحيه.

وقال أبو الطيب:

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم
وتعظُم في عين الصغير صغارها وتصغُر في عين العظيم العظائم

والركن في تحصيل الأشياء الجِدّ والهمَّة العالية، فمن كانت همَّتُه حفظَ جميع كتب محمد بن الحسن واقترن بذلك الجد والمواظبة، فالظاهر أنّه يحفظ أكثرَها أو نصفَها، فأما إذا كانت له همة عالية ولم يكن له جِدٌّ، أو كان له جد ولم تكن له همةٌ عالية، فلا يحصل له العلم إلا قليلاً...

وقد قيل: الكسل من قلة التأمل في مناقب العلم وفضائله، فينبغي للمتعلم أنْ يتعب نفسه علىٰ التحصيل والجد، والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم، فإن العلم يبقىٰ ببقاء المعلومات والمال يفنىٰ،...

والعلم النافع يحصل به حسن الذكر، ويبقىٰ ذلك بعد وفاته، فإنَّه حياة أبدية... وكفىٰ بلذة العلم والفقه والفهم داعياً وباعثاً للعاقل علىٰ تحصيل العلم، وقد يتولّد الكسل من كثرة البلغم والرطوبات، وطريق تقليله تقليل الطعام.

قيل: اتفق سبعون طبيباً علىٰ أنَّ النسيان من كثرة البلغم، وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء، وكثرة شرب الماء من كثرة الأكل، والخبز اليابس يقطع البلغم، وكذا أكل الزبيب علىٰ الريق، ولا يكثر منه، حتىٰ لا يحتاج إلىٰ شرب الماء فيزيد البلغم، والسواك يقلل البلغم، ويزيد الحفظ والفصاحة، فإنَّه سنة سنية، تزيد في ثواب الصلاة، وقراءة

القرآن، وكذا القيء يقلل البلغم والرطوبات، وطريق تقليل الأكل التأمل في منافع قلة الأكل، وهي الصحة والعفة والإيثار.

وقد قيل:

فـــعار ثـــم عـــار ثـــم عـــار شـــقاء المـرء مـن أجـــل الطعـام

وعن النبي ﷺ أنّه قال: "ثلاثةٌ يبغضهم الله من غير جرم: الأكول، والبخيل، والمتكبر." وتأمل في مضار كثرة الأكل، وهي الأمراض وكلالة الطبع، وقيل: البطنة تُذهب الفطنة، حُكي عن جالينوس أنّه قال: الرمان نفعٌ كله، والسمك ضرر كله، وقيل: السمك خير من كثير الرمان، وفيه أيضاً: إتلاف المال، والأكل فوق الشبع ضرر محض، ويستحق به العقاب في الدار الآخرة، والأكول بغيض في القلوب، وطريق تقليل الأكل: أنْ يأكل الأطعمة الدسمة، ويقدم في الأكل الألطف والأشهى، ولا يأكل مع الجائع إلا إذا كان له غرض صحيح، بأن يتقوى به على الصيام والصلاة والأعمال الشاقة فله ذلك.[1]

**فصل في بداية السبق وقدره وترتيبه**

كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يوقف بداية السبق على يوم الأربعاء، وكان يروي في ذلك حديثاً، ويستدل به، ويقول: قال رسول الله ﷺ: "ما من شيء بُدئ يوم الأربعاء إلا وقد تم." وهكذا كان يفعل أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ...

وأما قدر السبق في الابتداء، فقد كان أبو حنيفة يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن أبي بكر الزرنجري أنه قال: قال مشايخنا: ينبغي أنْ يكون قدر السبق للمبتدي قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق، ويزيد كل يوم كلمة، حتى إنه وإن طال السبق وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين، ويزيد بالرفق والتدرج، فأما إذا طال السبق في الابتداء، واحتاج إلى الإعادة عشر مرات، فهو في الانتهاء أيضاً يكون كذلك؛ لأنه يعتاد

(١) المرجع السابق، ص٣٤-٤٧.

ذلك، ولا يترك تلك الإعادة إلا بجهد كثير، وقد قيل: السبق حرف والتكرار ألف.

وينبغي أنْ يبتدي بشيء يكون أقرب إلى فهمه، كان الشيخ الإمام الأستاذ شرف الدين العقيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الصواب عندي في هذا ما فعله مشايخنا، فإنهم كانوا يختارون للمبتدي صغارات المبسوط؛ لأنه أقرب إلى الفهم والضبط، وأبعد من الملالة، وأكثر وقوعاً بين الناس، وينبغي أنْ يعلق السبق بعد الضبط والإعادة كثيراً، فإنَّه نافع جداً، ولا يكتب المتعلم شيئاً لا يفهمه، فإنَّه يورث كلالة الطبع ويذهب الفطنة، ويضيع أوقاته.

وينبغي أنْ يجتهد في الفهم عن الأستاذ، بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار، فإنَّه إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك ويفهم، قيل: حفظ حرفين خير من سماع وقرين، وفهم حرفين خير من حفظ سطرين، وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك، فلا يفهم الكلام اليسير، فينبغي ألا يتهاون في الفهم، بل يجتهد ويدعو الله ويتضرع إليه، فإنَّه يجيب من دعاه، ولا يخيب من رجاه...

ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، فينبغي أنْ يكون كل منها بالإنصاف والتأني والتأمل، ويتحرز عن الشغب والغضب، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورةٌ، والمشاورة إنَّما تكون لاستخراج الصواب، وذلك إنَّما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف، ولا يحصل بالغضب والشغب، فإن كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم وقهره فلا تحل، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق، والتمويه والحيلة فيها لا تجوز، إلا إذا كان الخصم متعنتاً لا طالباً للحق، وكان محمد بن يحيى إذا توجه عليه الإشكال، ولم يحضره الجواب يقول: ما ألزمته لازمٌ، وأنا فيه ناظر، وفوق كل ذي علم عليم.

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار؛ لأنَّ فيه تكراراً وزيادة، فقد قيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، ولكن إذا كان مع منصف سليم الطبيعة، وإياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع، فإن الطبيعة متسرية والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة. وفي الشعر الذي ذكره الخليل بن أحمد فوائد كثيرة، وقد قيل:

العلـم مِـنْ شرْطِـه لِـمَنْ خَدَمَـه أن يجعـل النـاس كلَّهـم خَدَمَـه

وينبغي لطالب العلم أنْ يكون متأملاً في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك، فإنما تدرك الدقائق بالتأمل فلهذا قيل: تأمل تُدرك، ولا بد من التأمل قبل الكلام حتىٰ يكون صواباً، فإن الكلام كالسهم فلا بد من تقويمه قبل الكلام حتىٰ يكون مصيباً، وقال في أصول الفقه: هذا أصل كبيرٌ، وهو أنْ يكون كلام الفقيه المناظر بالتأمل...

وقيل لابن عباس: بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول. وإنما سُمي طالب العلم "ما تقول"، لكثرة ما كانوا يقولون في الزمان الأول، "ما تقول في هذه المسألة؟" وإنما تفقه أبو حنيفة بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازاً. فبهذا يعلم أنَّ تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب...

قال أبو حنيفة: إنَّما أدركتُ العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمتُ شيئاً من العلوم ووفقّت علىٰ فقه وحكمة قلت: الحمدُ لله، فازداد علمي. وهكذا ينبغي لطالب العلم أنْ يشتغل بالشكر باللسان والجنان والأركان والحال، ويرىٰ الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالىٰ، ويطلب الهداية من الله تعالىٰ بالدعاء له والتضرع إليه، فإن الله تعالىٰ هادٍ من استهداه...

ولا يبخل بما عنده من المال، بل ينفقه علىٰ نفسه وعلىٰ غيره. قال النبي ﷺ: "الناس كلهم من خوف الفقر في فقر،" وكانوا في الزمان الأول يتعلمون الحرفة، ثم يتعلمون العلم حتىٰ لا يطمعوا في أموال الناس. وفي الحكمة: "من استغنىٰ بمال الناس افتقر." والعالم إذا كان طماعاً لا يبقي حرمة للعلم، ولا يقول بالحق، فلهذا كان يتعوذُ صاحبُ الشرع ﷺ منه ويقول: "أعوذ بالله من طمع يُدني إلىٰ طبع." وينبغي للمؤمن أنْ لا يرجو إلا من الله تعالىٰ، ولا يخافَ إلا منه، ويظهر ذلك بمجاوزة حد الشرع وعدمها؛ فمن عصىٰ الله خوفاً من المخلوق فقد خافَ غيرَ الله، وإذا لم يعص الله تعالىٰ لخوف المخلوق وراقبَ حدودَ الشرع، فلم يخف غير الله بل خاف الله تعالىٰ، وكذا في جانب الرجاء.

وينبغي لطالب العلم أنْ يعد ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار، فإنَّه لا يستقر قلبه حتىٰ يبلغ ذلك المبلغ، وينبغي له أنْ يكرر سبق الأمس خمسَ مرات، وسبق اليوم الذي

قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي قبله ثلاثَ، والذي قبله اثنين، والذي قبله مرة واحدة، فهذا أدعى إلى الحفظ والتكرار. وينبغي أنْ لا يعتاد المخافتة في التكرار؛ لأَنَّ الدرسَ والتكرار ينبغي أنْ يكون بقوة ونشاط ولا يجهر جهراً يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوسطها...

وكان أستاذنا الشيخ القاضي الإمام فخر الإسلام قاضي خان يقول: ينبغي للمتفقه أنْ يحفظ كتاباً واحداً من كتب الفقه دائماً؛ ليتيسر له بعد ذلك حفظ ما يسمع من الفقه.[1]

**فصل في التوكل**

ثم لا بد لطالب العلم من التوكل في طلب العلم، ولا يهتم لأمر الرزق، ولا يشغل قلبه بذلك. روى أبو حنيفة عن عبد الله بن الحارث الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: "من تفقّه في دين الله كفاه الله تعالى همه، ورزقه من حيث لا يحتسب،" فإن من اشتغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة قلّ ما يتفرغُ لتحصيل مكارم الأخلاق ومعالي الأمور...

قال رجل لابن منصور الحلاج: أوصني، فقال ابنُ منصور: هي نفسك، إنْ لم تشغلها شغلتك. فينبغي لكل أحد أنْ يُشغل نفسه بأعمال الخير حتى لا يشغل بهواها، ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا؛ لأَنَّ الهم والحزن لا يَرُدُّ المصيبة، ولا ينفع، بل يضر بالقلب والبدن والعقل، ويَخِلُّ بأعمال الخير، ويهتم لأمر الآخرة؛ لأنه ينفع...

ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، فلهذا اختاروا الغربة. ولا بد من تحمّل النصب والمشقة في سفر التعلم، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه في سفرِ التعلم، ولم يُنقل عنه ذلك في غيره من الأسفار ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢]، ليُعلَم أنَّ سفرَ العلم لا يخلو عن التعب؛ لأَنَّ طلب العلم أمرٌ عظيمٌ، وهو أفضلُ من الجهاد عند أكثر العلماء، والأجرُ على قدر التعب والنصب، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذةً تفوق لذات الدنيا. ولهذا كان محمدُ بن

(١) المرجع السابق، ص٤٨-٦١.

الحسن إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناءُ الملوكِ من هذه اللذات؟

وينبغي لطالب العلم، ألا يشتغل بشيءٍ آخر غير العلم، ولا يُعرض عن الفقه. قال محمد بن الحسن: صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد، فمن أراد أنْ يترك علمنا هذا ساعةً فليتركه الساعة.[1]

**فصل في وقت التحصيل**

قيل: وقت التعلم من المهد إلى اللحد... وأفضل الأوقات شرخ الشباب، ووقت السحر، وما بين العشائين، وينبغي أنْ يستغرق جميع أوقاته، فإذا ملَّ من علمٍ يشتغل بعلمٍ آخر. وكان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا ملَّ من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعراء، وكان محمد بن الحسن لا ينامُ الليل، وكان يضعُ عنده الدفاتر، وكان إذا ملّ من نوع ينظرُ في نوعٍ آخر، وكان يضعُ عنده الماء، ويزيلُ نومه بالماء، وكان يقول: إنَّ النوم من الحرارة.[2]

**فصل في الشفقة والنصيحة**

ينبغي أنْ يكون صاحب العلم مشفقاً ناصحاً غير حاسد، فالحسد يضرُّ ولا ينفع، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهانُ الدين يقول: قالوا: إنَّ ابن المعلم يكون عالماً؛ لأَنَّ المعلم يريدُ أنْ يكونَ تلاميذه علماء، فببركة اعتقاده وشفقته يكون ابنه عالماً...

وينبغي أنْ لا ينازع أحداً ولا يخاصمه؛ لأنه يضيع أوقاته، قيل: المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء ستكفيه مساويه.

أنشدني الشيخ الإمام الزاهد العارف ركن الإسلام محمد بن أبي بكر المعروف بإمام خواهر زاده مفتي الفريقين، قال: أنشدني سلطان الشريعة يوسف الهمذاني:

لا تجـز إنـسـاناً عـلى سـوء فعلـه ... سـيكفيه مـا فيـه ومـا هـو فاعلُـه

...

(١) المرجع السابق، ص٦٢-٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.

قيل: عليك أنْ تشغتل بمصالح نفسك لا بقهر عدوك، فإذا أقمت مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك، إياك والمعاداة فإنها تفضحك وتضيعُ أوقاتك، وعليك بالتحمل لا سيما من السفهاء...

وإياك أنْ تظنّ بالمؤمن سوءاً فإنَّه منشأ العداوة ولا يحل ذلك، لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "ظنوا بالمؤمنين خيراً." وإنما ينشأ ذلك من خبث النية وسوء السريرة، كما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونه ... وصدّق ما يعتاده من توهّم
وعادىٰ محبيه بقول عداته ... وأصبح في ليلٍ من الشك مظلمِ[1]

**فصل في الاستفادة واقتباس الأدب**

وينبغي أنْ يكون طالب العلم مستفيداً في كل وقت حتىٰ يحصل له الفضل والكمال في العلم، وطريق الاستفادة أنْ يكون معه في كل وقت محبرة، حتىٰ يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية، فقد قيل: من حفظ فرّ، ومن كتب قرَّ، وقيل: العلمُ ما يؤخذ من أفواه الرجال؛ لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون: أحسن ما يحفظون.

وسمعتُ عن الشيخ الإمام الأديب الأستاذ زين الإسلام المعروف بالأديب المختار يقول: قال هلال بن زياد بن يسار: رأيتُ النبي ﷺ يقول لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة، فقلت: يا رسول الله أعد لي ما قلت لهم، فقال لي: هل معك محبرة؟ فقلت: ما معي محبرة، فقال النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا هلال لا تفارق المحبرة؛ لأَنَّ الخير فيها وفي أهلها إلىٰ يوم القيامة...

ولا بد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة في طلب العلم، والتملق مذموم إلا في طلب العلم، فإنَّه لا بد له من التملق للأستاذ والشريك، وغيرهم للاستفادة منهم...

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨-٧٢.

**فصل في الورع في حالة التعلم**

روى بعضهم حديثاً في هذا الباب عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالى بأحد ثلاثة أشياء: إما أنْ يميته في شبابه، أو يوقعه في الرساتيق، أو يبتليه بخدمة السلطان" فكلما كان طالب العلم أورع كان علمه أنفع، والتعلم له أيسر وفوائده أكثر. ومن الورع الكامل، أنْ يتحرز عن الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وأن يتحرز عن أكل السوق إنْ أمكن؛ لأَنَّ طعام السوق أقربُ إلى النجاسة والخباثة، وأبعدُ عن ذكر الله وأقربُ إلى الغفلة، ولأنَّ أبصارَ الفقراء تقعُ عليه ولا يقدرون على الشراء منه، فيتأذون بذلك فتذهب بركته...

ووصى فقيه من زهاد الفقهاء طالبَ علمٍ أنْ يتحرز عن الغيبة وعن مجالسة المكثار، وقال: إنَّ من يُكْثِرِ الكلامَ يَسْرقُ عمُرَكَ، ويضيعُ أوقاتك.

ومن الورع أنْ يجتنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل، ويجاور الصلحاء، فإن المجاورة مؤثرة، وأن يجلس مستقبل القبلة، ويكون مستناً بسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويغتنم دعوة أهل الخير، ويتحرز عن دعوة المظلومين...

فينبغي لطالب العلم أنْ لا يتهاون بالآداب والسنن، فإن من يتهاون بالآداب يحرم السنن، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة.

وينبغي أنْ يكثر الصلاة، ويصلي صلاة الخاشعين، فإن ذلك عون له على التحصيل والتعلم...

وينبغي أنْ يستصحب دفتراً على كل حال ليطالعه، وقيل: من لم يكن الدفتر في كمه لم تثبت الحكمة في قلبه. وينبغي أنْ يكون في الدفتر بياض ويستصحب المحبرة ليكتب ما يسمع من العلماء.[1]

**فصل فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان**

وأقوى أسباب الحفظ: الجد والمواظبة، وتقليل الغذاء، وصلاة الليل، وقراءة القرآن من أسباب الحفظ.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦-٨٠.

قيل: ليس شيء أزيدَ للحفظ من قراءة القرآن نظراً، والقراءة نظراً أفضل لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "أعظم أعمال أمتي قراءة القرآن نظراً."

ورأى شداد بن حكيم بعضَ إخوانه في المنام بعد وفاته، فقال لأخيه: أي شيء وجدته أنفع؟ قال: قراءة القرآن نظراً...

والسواك وشرب العسل وأكل الكندر مع السكر، وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق يورث الحفظ، ويشفي من كثير من الأمراض والأسقام، وأكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ، وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان.

وأما ما يورث النسيان فهو المعاصي وكثرة الذنوب، والهموم والأحزان في أمور الدنيا، وكثرة الاشتغال والعلائق، وقد ذكرنا أنه لا ينبغي للعاقل أنْ يهتم لأمر الدنيا؛ لأنه يضر ولا ينفع، وهموم الدنيا لا تخلو عن الظلمة في القلب، وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب، ويظهر أثره في الصلاة، فهمّ الدنيا يمنعه في الخيرات، وهمّ الآخرة يحمله عليه، والاشتغال بالصلاة على الخشوع، وتحصيل العلم ينفي الهم والحزن.[1]...

**فصل فيما يجلب الرزق وفيما يمنع، وما يزيد في العمر وما ينقص**

ثم لا بد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد في العمر والصحة، ليتفرغ في طلب العلم، وفي كل ذلك صنفوا كتباً، فأوردتُ ههنا بعضها على سبيل الاختصار.

قال رسول الله ﷺ: "لا يُرَدُّ القدرُ إلا بالدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البِرُّ، فإن الرجل ليُحرمُ من الرزق بذنب يصيبه." ثبت بهذا الحديث أنّ ارتكاب الذنب سببُ حرمان الرزق، خصوصاً الكذب فإنَّه يورث الفقر، وقد ورد فيه حديثٌ خاص، وكذا نومُ الصبحة يمنع الرزق، وكثرةُ النوم تورثُ الفقر، وفقرَ العلم أيضاً...

والنوم عرياناً...، والتهاون في الصلاة، وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الفجر، والابتكار بالذهاب إلى السوق، والإبطاء في الرجوع منه، وشراء كسيرات الخبز من الفقراء السؤال، ودعاء الشر على الولد، وترك تخمير الأواني، وإطفاء السراج

---

(١) المرجع السابق، ص٨١-٨٤.

بالنفس، كل ذلك يورث الفقر، عرف ذلك بالآثار...

وقال رسول الله ﷺ: "استنزلوا الرزق بالصدقة" والبكور مبارك يزيد في جميع النعم خصوصاً في الرزق. وحسن الخط من مفاتيح الرزق، وبسطُ الوجه وطيبُ الكلام يزيدُ في الحفظ والرزق.

وعن الحسن بن علي: كنسُ الفناء، وغسل الإناء مجلبة للغنى.

وأقوى الأسباب الجاذبة للرزق: إقامة الصلاة بالتعظيم والخشوع، وتعديل الأركان وسائر واجباتها، وسننها، وآدابها.

وصلاة الضحى في ذلك معروفة، وقراءة سورة الواقعة، خصوصاً في الليل وقت النوم، وقراءة سورة الملك، والمزمل، والليل إذا يغشى، وألم نشرح لك، وحضور المسجد قبل الأذان، والمداومة على الطهارة، وأداء سنة الفجر والوتر في البيت، وأن لا يتكلم بكلام الدنيا بعد الوتر، ولا يكثر مجالسة النساء إلا عند الحاجة، وأن لا يتكلم بكلام لغوٍ...

أما ما يزيد في الرزق: أنْ يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة: سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، مائة مرة، وأن يقول: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين" كل يوم صباحاً ومساءً مائة مرة.

وأن يقول بعد صلاة الفجر كل يوم: "الحمد لله وسبحان الله، ولا إله إلا الله" ثلاثاً وثلاثين مرة، وبعد صلاة المغرب أيضاً، ويستغفر الله تعالى سبعين مرة بعد صلاة الفجر، ويكثر من قوله: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" والصلاة على النبي ﷺ ...

وأما ما يزيد في العمر: البر، وترك الأذى، وتوقير الشيوخ، وصلة الرحم، وأن يقول حين يصبح ويمسي كل يوم ثلاث مرات: سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم ومبلغ الرضا، وزنة العرش، والحمد لله ملء الميزان ومنتهى العلم وزنة العرش، والله

أكبر ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش.

وأن يتحرز عن قطع الأشجار الرطبة إلا عند الضرورة، وإسباغ الوضوء والصلاة بالتعظيم، وقراءة القرآن، والمتابعة بين الحج والعمرة، وحفظ الصحة.

ولا بد أنْ يتعلم شيئاً من الطب، ويتبرك بالآثار الواردة في الطب التي جمعها الإمام أبو العباس المستغفري في كتابه المسمى "بطب النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" يجده من يطلبه، فهو كتاب مشهور.

والحمد لله على التمام، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل الرسل الكرام، وآله وصحبه الأئمة الأعلام، على ممر الدهور وتعاقب الأيام، آمين.[1]

(١) المرجع السابق، ص٨٥-٩٢.

## (١٢)
# تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالـمُتَكَلِّمِ فِي أَدَبِ العَالِـمِ والـمُتَعَلِّم

**بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكِنَاني (توفي: ٧٣٣هـ)**

**شراء الكتاب أو استئجاره أو استعارته أو نسخه:**

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه بشراء، وإلا فإجارة أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل،... وإذا أمكن تحصيلها شراءً لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله، لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه. (ص١٤٣)

**الثاني عشر:**

# كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة

## أولاً: التعريف بـ"ابن جماعة"

هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن جماعة الكناني الشافعي، ولد في حماة في شمال سورية سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م). وهو من بيت علم وفضل، فأبوه برهان الدين ابن جماعة من كبار العلماء، وكذلك جده. برز ابن جماعة في مرحلة مبكرة بسبب مهارته، وتمكنه في دراسة العلوم القرآنية، والحديث، والتاريخ، والفقه. تبوأ إثر ذلك مناصب عليا في الشام ومصر، وكان مرجعاً في فقه الشافعية، وعُين خطيباً للمسجد الأقصى في القدس، وعمل قاضياً لمصر ثلاث مرات ولدمشق مرتين.

تعلم القرآن وحفظ المتون على يد والده أولاً، ثم أخذ العلم من شيوخ حماة في عصره ومنهم الرشيد العطار، والتاج ابن القسطلاني، والتقي ابن أبي اليسر، والقاضي تقي الدين ابن رزين، وأخذ النحو عن ابن مالك.

وأخذ عنه العلم كثير من العلماء بعضهم نال مقاماً عالياً في العلم، ومنهم ابنه عز الدين، والصلاح الصفدي، وشمس الدين الذهبي، وتاج الدين السبكي.

من أهم مصنفاته: المنهل الروي، والفوائد اللائحة من سورة الفاتحة، والتبيان لمهمات القرآن، والمسالك في علوم المناسك، والنجم اللامع في شرح جمع الجوامع وغيرها.

انشغل في الحياة العلمية للمدرسين والطلاب في عدد من المؤسسات التعليمية، علاوة على وظيفته في القضاء. توفي سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م) ودفن في القاهرة بجانب ضريح الإمام الشافعي. ويُعد ابن جماعة رائداً في مجال علم أصول التدريس بتشكيله هذا العلم على أساس المشاركة الفعالة للمتعلم بوصفها عنصراً أساسياً للتعلم الإدراكي والفعال.

## ثانياً: التعريف بـ"تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم"[1]

يعد الكتاب من أهمّ الكتب المتخصصة في التراث التربوي الفقهي. يقع النص الأصلي للكتاب، دون التحقيق والتدقيق، في حوالي (١٨٠٠٠) كلمة (٧٢ صفحة). وتأتي أهميته بوصفه من أطول النصوص التي تختص مباشرة بالتعليم والتربية، وفيما يقدمه من بيانات عن العملية التعليمية في القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين). ويجمع الكتاب بين آداب المعلم والمتعلم، والكتاب الذي هو آلة العلم، والمدرسة التي هي مكان دراسة العلم وتدريسه.

قسّم المؤلف كتابه إلى خمسة أبواب، هي:

١- في فضل العلم والعلماء، وفضل تعلم العلم وتعليمه. وهو باب قصير جاء في حوالي خمس صفحات.

٢- في آداب العالم في نفسه، ومراعاة طالبه ودرسه. وقد جاءت مادته في ثلاثة فصول بالعناوين الآتية: في آداب العالم في نفسه في اثني عشر نوعاً، في آداب العالم في درسه، في اثني عشر نوعاً أخرى، وفي آداب العالم مع طلبته مطلقاً وفي حلقته، وجاء في أربعة عشر نوعاً.

٣- في أدب المتعلم. وجاءت مادة الباب في ثلاثة فصول بالعناوين الآتية: في آدابه في نفسه، وجاء في عشرة أنواع؛ وفي آدابه مع شيخه وقدوته وما يجب عليه من عظيم حرمته، فيه ثلاثة عشر نوعاً؛ وفي آدابه في درسه وقراءته في الحلقة، وما يعتمده فيها مع الشيخ والرفقة، وفيه ثلاثة عشر نوعاً.

٤- في الأدب مع الكتب التي هي آلة العلم، وفيه أحد عشر نوعاً.

٥- في آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب؛ لأنها مساكنهم في الغالب، وفيه أحد عشر نوعاً.

---

(١) إبراهيم، عبد الأمير إبراهيم شمس الدين. **الفكر التربوي عند ابن جماعة؛ دراسة وتحليل**، نص كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٩٠م.

وفي محتوى الكتاب ومنهجه ذكر المؤلف أنه جمع فيه ما اتفق في المسموعات، أو سمعه من المشايخ السادات، أو مر به في المطالعات، أو استفاده من المذكرات. وحذف من الكتاب الأسانيد والأدلة كيلا يطول على مطالعه أو يملَّه، وجمعتُ فيه بحمد الله من تفاريق آداب هذه الأبواب ما لم أره مجموعاً في كتاب. وفي كل فرع من الفروع يأتي المؤلف ما يعده واجباً على المعلم أو المتعلم، بصيغة أنْ يقوم بكذا وكذا، أو ينبغي أن...، أو لا بأس بكذا وكذا. وحين يكون ثمة ممارسات غير مقبوله لديه، يثني بالقول: ولا يفعل كذا وكذا...، أو والأولى أنْ لا... ثم يستشهد بما قد يحتاج له من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وأقوال العلماء. وعندما يأتي إلى أقوال العلماء موضحاً الآراء المختلفة، ثم يرجح بينها ويختار منها.

ولذلك يعد الكتاب مثالاً على التراث التربوي الفقهي الشافعي.

## ثالثاً: مختارات من "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم"

الحمد لله البر الرحيم، الواسع العليم، ذي الفضل العظيم، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الكريم، المنزّل عليه في الذكر الحكيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وعلى آله وأصحابه الكرام، وجواره في دار النعيم.

أما بعد، فإن من أهم ما يبادر به اللبيب في شرخ شبابه، ويُدئِب نفسه في تحصيله واكتسابه حُسنَ الأدبِ الذي شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله.

وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسنا، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء، لِعِلْمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم. وقال الحسن: إنْ كان الرجل ليخرج في أدب يكسبه السنين، ثم السنين.[1]...

(١) المرجع السابق، ص٥٨.

ولما بلغت رتبة الأدب هذه المزية وكانت مدارك مفضلاته خفية دعاني ما رأيتُ من احتياج الطلبة إليه وعسر تكرار توقفهم عليه، إما لحياء فيمنعهم الحضور، أو لجفاء فيورثهم النفور، إلى جمع هذا المختصر مذكراً للعالم ما جُعِل إليه، ومنبهاً للطالب على ما يتعيّن عليه، وما يشتركان فيه من الأدب، وما ينبغي سلوكه في مصاحبة الكتب، ثم أدب من يسكن المدارس، منتهياً أو طالباً؛ لأنها مساكن طلبة العلم في هذه الأزمنة غالباً.

وجمعت ذلك مما اتفق في المسموعات، أو سمعته من المشايخ السادات، أو مررت به في المطالعات، أو استفدته في المذاكرات، وذكرته محذوف الأسانيد والأدلة، كيلا يطول على مطالعه أو يمله.

وقد جمعت فيه بحمد الله تعالى من تفاريق آداب هذه الأبواب ما لم أره مجموعاً في كتاب، وقدّمت على ذلك باباً مختصراً في فضل العلم والعلماء على وجه التبرك والاقتداء.

وقد رتبته على خمسة أبواب تحيط بمقصود الكتاب:

الباب الأول: في فضل العلم وأهله، وشرف العالم ونسله.

الباب الثاني: في آداب العالم في نفسه، ومع طلبته ودرسه.

الباب الثالث: في أدب المتعلم في نفسه، ومع شيخه، ورفقته ودرسه.

الباب الرابع: في مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب.

الباب الخامس: في آداب سكنى المدارس وما يتعلق به من النفائس.

وقد سمّيْتُه: تذكرة السامع والمتكلم، في أدب العالم والمتعلم، والله تعالى يوفقنا للعلم والعمل، ويبلغنا من رضوانه نهاية الأمل.[1]

## الباب الأول

## في فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

ابنُ عباس: العلماء فوق المؤمنين بسبع مائة درجة ما بين الدرجة والدرجة مائة عام.

وقال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية. بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنفسه، وثَنَّىٰ بملائكته وثَلَّثَ بأهل العلم وكفاهم ذلك شرفاً وفضلاً وجلالة ونبلاً.[١]...

وقال رسول الله ﷺ: "من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين،" وعنه ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء،" وحسبك هذه الدرجة مجداً وفخراً، وبهذه الرتبة شرفاً وذكراً، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة. وعنه ﷺ لما ذُكِرَ عنده رجلان أحدهما عابدٌ والآخرٌ عالمٌ فقال: "فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم." وعنه ﷺ: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضىٰ الله عنه، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافرٍ."

واعلم أنَّ لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يطلب صلاحه، فكيف بدعاء الملائكة.[٢]...

وقال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام علىٰ الناس، والعلماء حكّام علىٰ الملوك.[٣]...

وقد ظهر بما ذكرناه أنَّ الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية، من صلاة، وصيام، وتسبيح، ودعاء ونحو ذلك؛ لأَنَّ نفع العلم يعمّ صاحبه والناس،

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص٦٦.

والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها؛ ولأن العلم مُصحّحٌ لغيره من العبادات، فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه، ولا يتوقف هو عليها؛ ولأن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، وليس ذلك للمتعبدين؛ ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه؛ ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها؛ ولأن في بقاء العلم إحياء الشريعة وحفظ معالم الملة.[1]

### فصل في النية

واعلم أنَّ جميع ما ذُكِرَ من فضيلة العلم والعلماء، إنَّما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين، الذين قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية، أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة في الأتباع والطلاب. فقد روي عن النبي ﷺ: "من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار." [أخرجه الترمذي].

وعنه ﷺ: "من تعلَّم علماً لغير الله أو أراد به غير وجه الله فليتبوأ مقعده من النار." [رواه الترمذي].[2]...

## الباب الثاني

## في أدب العالم في نفسه ومراعاة طالبه ودرسه

وفيه ثلاثة فصول:

### الفصل الأول

### في آدابه في نفسه

وهو اثنا عشر نوعاً:

النوع الأول: دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإنَّه أمين على ما أودع من العلوم، وما منح من

---

(١) المرجع السابق، ص٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

الحواس والفهوم، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤].[١]...

الثاني: أنْ يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالىٰ له من العزة والشرف؛ فلا يذلّه بذهابه ومشيه إلىٰ غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة، أو إلىٰ من يتعلمه منه منهم وإن عظم شأنه وكبر قدره.[٢]...

الثالث: أنْ يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله، فإن ما يحتاج إليه لذلك علىٰ الوجه المعتدل من القناعة ليس يُعَدُّ من الدنيا، وأقل درجات العالم أنْ يستقذر التعلق بالدنيا؛ لأنه أعلم الناس بخستها وفتنتها وسرعة زوالها وكثرة تعبها ونَصَبِهَا، فهو أحق بعدم الالتفات إليها والاشتغال بهمومها.[٣]...

الرابع: أنْ ينزه علمه عن جعله سُلماً يتوصل به إلىٰ الأغراض الدنيوية، من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم علىٰ أقرانه.قال الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وددت أنّ الخلق تعلموا هذا العلم علىٰ أنْ لا ينسب إليَّ حرف منه.[٤]...

الخامس: أنْ يتنزه عن دني المكاسب ورذيلها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً، كالحجامة والدباغة والصرف والصياغة، وكذلك يتجنب مواضع التهم وإن بعدت، ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يُسْتَنْكَرُ ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً؛ فإنَّه يُعَرِّضُ نفسه للتهمة، وعِرضه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، وتأثيم الوقيعة.[٥]...

---

(١) المرجع السابق ص٧١.

(٢) المرجع السابق ص٧٢.

(٣) المرجع السابق ص٧٣.

(٤) المرجع السابق ص٧٣.

(٥) المرجع السابق ص٧٣-٧٤.

السادس: أنْ يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، كإقامة الصلاة في المساجد للجماعات، وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى بسبب ذلك، صادعاً بالحق عند السلاطين، باذلاً نفسه لله، لا يخاف فيه لومة لائم، ذاكراً قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].[١]...

السابع: أنْ يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية؛ فيلازم تلاوة القرآن، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وكذلك ما ورد من الدعوات والأذكار في آناء الليل والنهار، ومن نوافل العبادات من الصلاة والصيام وحج البيت الحرام، والصلاة على النبي ﷺ...

وينبغي له إذا تلا القرآن أنْ يتفكر في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده، وليحذر من نسيانه بعد حفظه.[٢]...

الثامن: معاملة الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكفِّ الأذى عن الناس، واحتماله منهم، والإيثار وترك الاستئثار، والإنصاف وترك الاستنصاف، وشكر التفضل، وإيجاد الراحة، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والرفق بالطلبة، وإعانتهم وبرهم.[٣]...

التاسع: أنْ يطهّر باطنه وظاهره من الأخلاق الردية، ويعمره بالأخلاق الرضية.[٤]

العاشر: دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة، والاشتغال والإشغال قراءة وإقراء، ومطالعة وفكراً، وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً وبحثاً.

---

(١) المرجع السابق ص٧٤.

(٢) المرجع السابق ص٧٥.

(٣) المرجع السابق ص٧٦.

(٤) المرجع السابق ص٧٦.

ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل، إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل أو أداء حق زوجة أو زائر، أو تحصيل قوت وغيره، مما يحتاج إليه.[1]

الحادي عشر: أنْ لا يستنكف أنْ يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً، أو نسباً، أو سناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالةُ المؤمن، يلتقطها حيث وجدها. قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: لا يزال الرجل عالماً ما تعلّم، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون.[2]...

وكانت جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم. قال الحميدي وهو تلميذ الشافعي: صحبت الشافعي من مكة إلى مصر، فكنت أستفيد من المسائل، وكان يستفيد مني الحديث. وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صحّ عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.[3]...

الثاني عشر: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة، وكمال الأهلية، فإنَّه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة، وهو كما قال الخطيب البغدادي: يثبّتُ الحفظَ ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكسب جميل الذكر، وجزيل الأجر، ويخلده إلى آخر الدهر.[4]

## الفصل الثاني

## في آداب العالم في درسه

وفيه اثنا عشر نوعاً:

الأول: إذا عزم على مجلس التدريس تطهّر من الحدث والخبث، وتنظّف وتطيّب، ولبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم، وتبجيل الشريعة...

---

(١) المرجع السابق ص٧٨.

(٢) المرجع السابق ص٧٩.

(٣) المرجع السابق ص٨٠.

(٤) المرجع السابق، ص٨٠.

الثاني: إذا خرج من بيته دعا بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ وهو: اللهم إني أعوذ بك أنْ أضلَّ أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليَّ، عزّ جارك وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك...

ولا يجلس مقعياً ولا مستوفزاً، ولا رافعاً إحدىٰ رجليه علىٰ الأخرىٰ، ولا ماداً رجليه أو إحداهما من غير عذر، ولا متكئاً علىٰ يده إلىٰ جنبه أو وراء ظهره.[1]...

الخامس: إذا تعددت الدروس قدّم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم؛ فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذهب، ثم الخلاف، أو النحو، أو الجدل. وكان بعض العلماء الزهاد يختم الدروس بدرس رقائق الأخبار يفيد به الحاضرين...

وينبغي أنْ لا يطيل الدرس تطويلاً يُملُّ، ولا يقصرّه تقصيراً يُخِلّ، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة والتطويل.[2]

السادس: أنْ لا يرفع صوته زائداً علىٰ قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.[3]...

السابع: أنْ يصون مجلسه عن اللغط؛ فإن الغلط تحت اللغط، وعن رفع الأصوات، واختلاف جهات البحث. قال الربيع: كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فعدل إلىٰ غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة، ثم نصير إلىٰ ما تريد. ويتلطف في دفع ذلك من مباديه قبل انتشاره وثوران النفوس.[4]...

الثامن: أنْ يزجر من تعدىٰ في بحثه أو ظهر منه لدد في بحثه أو سوء أدب، أو ترك الإنصاف بعد ظهور الحق، أو أكثر الصياح بغير فائدة، أو أساء أدبه علىٰ غيره من

---

(١) المرجع السابق، ص٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

(٣) المرجع السابق، ص٨٦.

(٤) المرجع السابق، ص٨٧.

الحاضرين أو الغائبين، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه، أو نام أو تحدّث مع غيره، أو ضحك أو استهزأ بأحدٍ من الحاضرين، أو فعل ما يخلّ بأدب الطالب في الحلقة.[1]... هذا كله بشرط أنْ لا يترتب على ذلك مفسدة تربو عليه...

الحادي عشر:... والأولى للمدرس أنْ يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة، فإنَّ فيه فوائد وآداباً له ولهم، منها: عدم مزاحمتهم، ومنها إنْ كان في نفس أحد بقايا سؤال سأله.[2]...

الثاني عشر: أنْ لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له، ولا يذكر الدرس مِنْ عِلْمٍ لا يعرفه، سواء أشرطه الواقف أو لم يشرطه، فإن ذلك لعب في الدين، وازدراء بين الناس.[3]...

## الفصل الثالث

## في أدب العالم مع طلبته مطلقاً وفي حلقته

وهو أربعة عشر نوعاً:

الأول: أنْ يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها، واغتنام ثوابهم وتحصيل ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم، وبركة دعائهم له، وترحّمهم عليه، ودخوله في سلسلة العلم بين رسول الله ﷺ وبينهم، وعِداده في جملة مبلغي وحي الله تعالى وأحكامه؛ فإن تعليم العلم من أهم أمور الدين، وأعلى درجات المؤمنين.[4]...

الثاني: أنْ لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته، فإن حسن النية مرجو له ببركة العلم، قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أنْ يكون إلا لله.[5]...

---

(١) المرجع السابق، ص٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص٩٠.

(٤) المرجع السابق، ص٩٣.

(٥) المرجع السابق، ص٩٣.

الثالث: أنْ يرغِّبه في العلم وطلبه في أكثر الأوقات، بذكر ما أعد الله تعالىٰ للعلماء من منازل الكرامات، وأنهم ورثة الأنبياء، وعلىٰ منابر من نور، يغبطهم الأنبياء والشهداء.[1]...

الخامس: أنْ يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك، لحسن أدبه وجودة طلبه، ويحرضه علىٰ طلب الفوائد وحفظ النوادر الفرائد، ولا يدّخر عنه من أنواع العلوم ما يسأله عنه، وهو أهل له؛ لأَنَّ ذلك ربـَّما يوحش الصدر، وينفر القلب، ويورث الوحشة. وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له؛ لأَنَّ ذلك يبدد ذهنه، ويفرّق فهمه.[2]...

السادس: أنْ يحرص علىٰ تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنىٰ له، من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره. ويبدأ بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة.[3]...

السابع:... وينبغي للشيخ أنْ يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس،...، وبإعادة الشرح بعد فراغه فيما بينهم ليثبت في أذهانهم ويرسخ في أفهامهم؛ ولأنه يحثهم علىٰ استعمال الفكر ومؤاخذة النفس بطلب التحقيق...

الحادي عشر: أنْ لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم علىٰ بعض عنده في مودة أو اعتناء، مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة، فإنْ ذلك ربـَّما يُوحش منه الصدر وينفِّر القلب، فإنْ كان بعضهم أكثر تحصيلاً وأشد اجتهاداً، أو أبلغ اجتهاداً، أو أحسن أدباً، فأظهر إكرامه وتفضيله، وبيَّن أنَّ زيادة إكرامه لتلك الأسباب فلا بأس بذلك.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص٩٥.

(٣) المرجع السابق، ص٩٦.

(٤) المرجع السابق، ص٩٩.

الثاني عشر: أنْ يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً،...

وكذلك يتعاهد ما يعامل به بعضهم بعضاً من إفشاء السلام، وحسن التخاطب في الكلام، والتحابب والتعاون على البر والتقوى، وعلى ما هم بصدده، وبالجملة فكما يعلمهم مصالح دينهم لمعاملة الله تعالى يعلمهم مصالح دنياهم لمعاملة الناس، لتكمل لهم فضيلة الحالتين.[1]...

الرابع عشر: أنْ يتواضع مع الطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه، ويلين له جانبه، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الشعراء: ٢١٥]... وفي الحديث: "لينوا لمن تُعلِّمون ولمن تتعلَّمون منه،" وعن الفضيل: من تواضع لله ورثه الله الحكمة. وينبغي أنْ يخاطب كلاً منهم لاسيما الفاضل المتميز بكنيةٍ ونحوها من أحب الأسماء إليه، وما فيه تعظيم له وتوقير.[2]

## الباب الثالث

## في آداب المتعلم في نفسه ومع شيخه ورفقته ودرسه

وفيه ثلاثة فصول في آداب المتعلم:

### الفصل الأول

### في آدابه في نفسه

وفي عشرة أنواع:

الأول: أنْ يطهّر قلبه من كل غش ودنس وغلّ وحسد وسوء عقيدة وخلق؛ ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه، والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم -كما قال بعضهم- صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٧.

الثاني: حسن النية في طلب العلم، بأن يقصد به وجه الله تعالىٰ، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه والقرب من الله تعالىٰ يوم القيامة، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله.[1]...

الثالث: أنْ يبادر شبابه وأوقات عمره إلىٰ التحصيل، ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل؛ فإن كلَّ ساعةٍ تمضي من عمره لا بدَلَ لها ولا عوض عنها، ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق.[2]...

الخامس: أنْ يقسم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقية العمر لا قيمة له. وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل.[3]...

السادس: من أعظم الأسباب المعينة علىٰ الاشتغال والفهم وعدم الملال أكل القدر اليسير من الحلال...، والأوْلىٰ أنْ يكون أكثر ما يأخذ من الطعام ما ورد في الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ: "ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صُلبَه، فإنْ كان لا محالة؛ فثلثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشرابه، وثُلثٌ لنفسه" [رواه الترمذي]. فإنْ زاد علىٰ ذلك فالزيادة إسرافٌ خارجٌ عن السنة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١] قال بعض العلماء: جمع الله بهذه الكلمات الطبَّ كله.[4]...

التاسع: أنْ يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة علىٰ ثمان ساعات وهو ثُلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل. ولا بأس أنْ يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كلّ شيء من ذلك أو ضعف بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلىٰ حاله ولا يضيع عليه زمانه.ولا بأس بمعاناة المشي،

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص١١٠.

(٤) المرجع السابق، ص١١٠-١١١.

ورياضة البدن به فقد قيل: إنه ينعش الحرارة ويذيب فضول الأخلاط وينشط البدن... وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزه في بعض أيام السنة ويتمازحون بما لا ضرر عليهم في دين ولا عرض.[1]

العاشر: أنْ يترك العشرة فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم،...، والذي ينبغي لطالب العلم أنْ لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه بما رُوي عن النبي ﷺ: "اغد عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتهلك."[2]

## الفصل الثاني

## في آدابه مع شيخه وقدوته، وما يجب عليه من عظيم حرمته

وهو ثلاثة عشر نوعاً:

الأول: أنه ينبغي للطالب أنْ يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن إنْ أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفّته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً... وكذلك إذا اعتبرت المصنفات، وجدت الانتفاع بتصنيف الأتقى الأزهد، وأوفر الفلاح بالاشتغال به أكثر. وليجتهد على أنْ يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام الاطلاع، وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، لا ممن أخذ عن بطون الأوراق ولم يُعرف بصحبة المشايخ الحذاق.

قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من تفقّه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام. وكان بعضهم يقول: من أعظم البلية تشيخ الصحيفة؛ أي الذين تعلموا من الصحف.[3]

الثاني: أنْ ينقاد لشيخه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاروه فيما يقصده، ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢-١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١١٦.

في حرمته، يتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أنَّ ذُلَّه لشيخه عِزٌّ، وخضوعَه له فخر، وتواضعَه له رفعة.[1]...

الثالث: أنْ ينظره بعين الإجلال، ويعتقد فيه درجة الكمال، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به،... وينبغي ألا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه، ولا يناديه من بُعد، بل يقول: يا سيدي، ويا أستاذي.[2]...

الرابع: أنْ يعرف له حقّه، ولا ينسى له فضله،... (و) أنْ يعظم حضرته ويردّ غيبته، ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس.[3]...

الخامس: أنْ يصبر على جفوةٍ تصدر من شيخه، أو سوء خلق ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أنْ الصواب خلافها على أحسن تأويل.[4]...

السادس: أنْ يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، أو قصور يعاينه، أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه؛ إرشادُه وصلاحُه.[5]...

العاشر: إذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال متعطّش إليه فرح به كأنه لم يسمعه قط.[6]...

الثاني عشر: إذا ناوله الشيخ شيئاً تناوله باليمين، وإن ناوله شيئاً ناوله باليمين، فإن كان ورقة يقرؤها كفتيا أو قصة أو مكتوب شرعي ونحو ذلك نشرها ثم دفعها

---

(١) المرجع السابق، ص١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١٧.

(٣) المرجع السابق، ص١١٨.

(٤) المرجع السابق، ص١١٨.

(٥) المرجع السابق، ص١١٩.

(٦) المرجع السابق، ص١٢٤.

إليه، ولا يدفعها إليه مطوية إلا إذا علم أو ظن إيثار الشيخ لذلك... وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه مهيئاً لفتحه والقراءة فيه من غير احتياج إلى إدارته.[1]...

الثالث عشر: إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل وخلفه بالنهار، إلا أنْ يقتضي الحال خلاف ذلك، لزحمة أو غيرها، ويتقدم عليه في المواطئ المجهولة الحال، كوحل أو حوض، أو المواطئ الخطرة، ويحترز من ترشيش ثياب الشيخ،... وإذا صادف الشيخ في طريقه بدأه بالسلام، ويقصده بالسلام إنْ كان بعيداً، ولا يناديه، ولا يسلم عليه من بعيد ولا من ورائه، بل يقرب منه ويتقدم عليه ثم يسلّم.[2]

## الفصل الثالث

## في آدابه في دروسه وقراءته في الحلقة وما يعتمده فيها مع الشيخ والرفقة

وهو ثلاثة عشر نوعاً:

الأول: أنْ يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنَّه أصل العلوم وأمها وأهمها. ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه، والأصولين والنحو والتصريف، ولا يشتغل بذلك كله عن دراسة القرآن وتعهده وملازمة ورده منه في كل يوم أو أيام، أو جمعة، كما تقدم، وليحذر من نسيانه بعد حفظه، فقد ورد فيه أحاديث تزجر عنه.[3]...

الثاني: أنْ يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقاً في العقليات والسمعيات؛ فإنَّه يحيِّر الذهن ويُدهش العقل، بل يتقن أولاً كتاباً واحداً في فنٍّ واحدٍ، أو كتباً في فنون، إنْ كان يحتمل ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٠.

الثالث: أنْ يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إما على الشيخ أو على غيره مما يعينه، ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً محكماً، ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقات يقررها لتكرار مواضيه، ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه؛ لأنه يقع في التحريف والتصحيف.[1]...

الرابع: أنْ يبكّر بسماع الحديث ولا يُهمِل الاشتغال به وبعلومه، والنظر في إسناده ورجاله ومعانيه وأحكامه وفوائده ولغته وتواريخه، ويعتني أولاً بصحيحي البخاري ومسلم، ثم ببقية الكتب الأعلام والأصول المعتمدة في هذا الشأن كموطأ مالك، وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجة، وجامع الترمذي، ومسند الشافعي.[2]...

الخامس: إذا شرح محفوظاته المختصرات، وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات، انتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفيسة، والمسائل الدقيقة، والفروع الغريبة، وحل المشكلات والفروق بين أحكام المتشابهات من جميع أنواع العلوم.[3]...

السادس: أنْ يلزم حلقة شيخه في التدريس والإقراء، بل وجميع مجالسه إذا أمكن، فإنَّه لا يزيده إلا خيراً وتحصيلاً وأدباً وتفضيلاً. وينبغي أنْ يتذاكر مواظبو مجلس الشيخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد، وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم.[4]...

السابع: إذا حضر مجلس الشيخ سلَّم على الحاضرين بصوتٍ يسمع جميعهم، ويخص الشيخ بزيادة تحيةٍ وإكرام، وكذلك يسلّم إذا انصرف.[5]

---

(١) المرجع السابق، ص١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٤.

(٥) المرجع السابق، ص١٣٤.

الثامن: أنْ يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ، فإنَّه أدب معه واحترام لمجلسه، وهم رفقاؤه فيوقر أصحابه، ويحترم كبراءه وأقرانه.[1]...

التاسع: أنْ لا يستحيي من سؤال ما أشكل عليه وتفهّم ما لم يتعلمه بتلطف وحسن خطاب وأدب وسؤال.[2]...

## الباب الرابع

## في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها، وضبطها، وحملها، ووضعها، وشرائها، وعاريتها، ونسخها، وغير ذلك

وفيه أحد عشر نوعاً:

الأول: ينبغي لطالب العلم أنْ يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه بشراء، وإلا فإجارة أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل،... وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغي أنْ يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله، لعدم ثمنه، أو أجرة استنساخه.[3]...

الثاني: يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها.[4]...

الثالث: إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين، أو شيئين، أو كرسي الكتب المعروفة، كيلا يسرع تقطيع حبله... ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها أو شرفها، ومصنفها وجلالتهم. فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدريج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل... ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير، كيلا يكثر تساقطها... ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يعلّم بعود أو شيء جاف، بل

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٤٣.

بورقة أو نحوها، وإذا ظفر فلا يكبس ظفره قوياً.[1]

الرابع: إذا استعار كتاباً فينبغي له أنْ يتفقده عند إرادة أخذه وردّه، وإذا اشترىٰ كتاباً تعهد أوله وآخره ووسطه، وترتيب أبوابه وكراريسه، ويصفح أوراقه، واعتبر صحته.[2]...

الخامس: إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية فينبغي أنْ يكون علىٰ طهارةٍ مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب، بحبر طاهر، ويبتدئ كل كتاب بكتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن كان الكتاب مبدوءاً فيه بخطبة تتضمن حمد الله تعالىٰ والصلاة علىٰ رسوله ﷺ كتبها بعد البسملة، وإلا كتب هو ذلك بعدها. ثم كتب ما في الكتاب.

وكذلك يفعل في ختم الكتاب أو آخر كل جزءٍ منه.[3]...

السادس: ينبغي أنْ يتجنب الكتابة الدقيقة في النسخ، فإن الخط علامة، فأبينه أحسنه.[4]...

السابع: إذا صحح الكتاب بالمقابلة علىٰ أصله الصحيح أو علىٰ شيخ فينبغي له أنْ يشكِّل المشكّل، ويعجم المستعجم، ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيح.[5]...

الثامن: إذا أراد تخريج شيء في الحاشية، ويسمّىٰ اللحق (بفتح الحاء)، علّم له في موضعه بخط منعطف قليلاً إلىٰ جهة التخريج، وجهة اليمين أوْلىٰ إنْ أمكن، ثم يكتب التخريج في محاذاة العلامة صاعداً إلىٰ أعلىٰ الورقة، لا نازلاً إلىٰ أسفلها، لاحتمال تخريج آخر بعده.[6]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٤٧.

(٥) المرجع السابق، ص١٤٨.

(٦) المرجع السابق، ص١٤٩.

التاسع: لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على حواشي كتاب يملكه، ولا يكتب في آخره صح، فرقاً بينه وبين التخريج، وبعضهم يكتب عليه: حاشية أو فائدة، وبعضهم يكتبه في آخرها، ولا يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل: تنبيه على إشكال أو احتراز أو رمز أو خطأ ونحو ذلك.[1]

العاشر: لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بالحمرة، فإنَّه أظهر في البيان، وفي فواصل الكلام، وكذلك لا بأس به على أسماء أو مذاهب أو أقوال أو طرق أو أنزاع أو لغات أو أعداد ونحو ذلك، ومتى فعل ذلك بَيَّنَ اصطلاحه في فاتحة الكتاب، ليفهم الخائض فيه معانيها.[2]...

الحادي عشر: قالوا: الضرب أولى من الحك، لاسيما في كتب الحديث؛ لأَنَّ فيه تهمة وجهالة فيما كان أو كتب؛ ولأن زمانه أكثر فيضيع، وفعله أخطر.[3]...

## الباب الخامس

## في آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب؛ لأنها مساكنهم في الغالب

وهو أحد عشر نوعاً:

الأول: أنْ ينتخب لنفسه من المدارس بقدر الإمكان ما كان واقفُه أقرب إلى الورع، وأبعد عن البدع، بحيث يغلب على ظنِّه أنَّ المدرسة ووَقْفَها من جهة حلال، وأنَّ معلومها إنْ تناوله من طيب المال؛ لأَنَّ الحاجة إلى الاحتياط في المسكن كالحاجة إليه في المأكل والملبس وغيره.[4]...

الثاني: أنْ يكون المدرس بها ذا رياسة وفضل وديانة، وعقل ومهابة، وجلالة وناموس وعدالة، ومحبة في الفضلاء، وعطف على الضعفاء، يقرب المحصلين، ويرغب

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٠-١٥١.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٥.

المشتغلين، ويبعد اللغائين، وينصف البحاثين، حريصاً على النفع، مواظباً على الإفادة.[1]...

الثالث: أنْ يتعرف بشروطها ليقوم بحقوقها، ومهما أمكنه التنزه عن معلوم المدارس فهو أولى، لاسيما في المدارس التي ضيق في شروطها، وشدد في وظائفها.[2]

الرابع: إذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم. فإن فعل كان عاصياً ظالماً بذلك، وإن لم يحصر الواقف ذلك فلا بأس إذا كان الساكن أهلاً لها.

وإذا سكن في المدرسة غير مرتب بها، فليكرم أهلها ويقدمهم على نفسه فيما يحتاجون إليه منها، ويحضر درسها؛ لأنه أعظم الشعائر المقصودة ببنائها ووقفها.[3]...

الخامس: أنْ لا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضى من سكنها بالسكة والخطبة، بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له... ولكن له من أَنَفَة من عدم ظهور الفضيلة مع طول القيام في المدارس ومصاحبة الفضلاء من أهلها. ويكرر سماع الدروس فيها، ويقدم غيره عليه بكثرة التحصيل، وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد ويحاسبها على ما حصلته فيه، ليأكل مقرره فيها حلالاً. فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام، ولا لمجرد التعبد... بالعلم.[4]...

السادس: أنْ يُكرم أهل المدرسة التي يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام، ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والحرفة؛ لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه.[5]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٥) المرجع السابق، ص١٥٩.

السابع: أنْ يختار لجواره إنْ أمكن أصلحهم حالاً وأكثرهم اشتغالاً، وأجودهم طبعاً، وأصونهم عرضاً؛ ليكون معيناً له على ما هو بصدده.[1]...

الثامن: إذا كان مسكنه في مسجد المدرسة أو في مكان الاجتماع ومروره على حصيره وفرشه فليتحفظ عند صعوده إليه من سقوط شيء من نعليه، ولا يقابل بأسفلهما القبلة، ولا وجوه الناس، ولا ثيابه، بل يجعل أسفل أحدهما إلى أسفل الأخرى بعد نفضهما، ولا يلقيهما إلى الأرض بعنف، ولا يتركهما في مظنة مجالس الناس، والواردين إليها غالباً.[2]...

التاسع: أنْ لا يتخذ باب المدرسة مجلساً، بل لا يجلس فيه إذا أمكن إلا لحاجة، أو في ندرة لقبض أو ضيق صدر.[3]...

العاشر: أنْ لا ينظر في بيت أحد في مروره من شقوق الباب ونحوه، ولا يلتفت إليه إذا كان مفتوحاً، وإن سلَّم سلَّم وهو مار من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لا سيما إنْ كان فيهن نساء. ولا يرفع صوته جداً في تكرار أو نداء أحد.[4]...

الحادي عشر: أنْ يتقدم على المدرس في حضور موضع الدرس، ولا يتأخر إلى بعد جلوسه وجلوس الجماعة، فيكلفهم المعتاد من القيام ورد السلام، وربما فيهم معذور فيجد في نفسه مِنّةً ولا يعرف عذره.[5]...

تم الكتاب المبارك بحمد الله تعالى وتوفيقه، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. وكان الفراغ منه ليلة السبت السابعة

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٦١.

(٤) المرجع السابق، ص١٦١.

(٥) المرجع السابق، ص١٦٢.

عشر من ربيع الأول المبارك، سنة ألف وثلاثمائة وثمانية عشر، وفرغ المؤلف من جمعه في رابع عشر ذي الحجة سنة اثنين وسبعين وستمائة.[1]

(١) المرجع السابق، ص١٦٣.

# (١٣)
# قَنَاطِرُ الخُيْرَاتِ

## أبو طَاهِر إِسْمَاعِيل بن مُوسَىٰ الجِيطَالِي النَّفُوسِي (توفي: ٧٥٠هـ)

**العقل والعلم:**

وإنَّما قدَّمْنا بيانَ العقل علىٰ تفصيل أبواب العلم لأَنَّ العقل آلةٌ لدرك العلم، وأسٌّ للفضائل، وينبوعٌ للآداب، وأصلٌ للتكليف، وعمادٌ للدنيا؛ فالعِلْمُ يجري منه مَجْرىٰ الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين. وشرف العقل مدرك بالضرورة، وكيف لا يشرف ما هو وسيلة إلىٰ السعادة في الدنيا والآخرة، وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لكلِّ شيءٍ دعامةٌ، ودعامةُ المؤمن عَقْلُه، فبقدر عقله تكون عبادته. (ص ٣١)

الفصل الثالث عشر:

# كتاب "قناطر الخيرات"
# لأبي طاهر إسماعيل بن موسىٰ الجيطالي

## أولاً: التعريف بـ"الجيطالي"

هو الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن موسىٰ الجيطالي النفوسي، نسبة إلىٰ مدينة جيطال بجبل نفوسة في ليبيا. من أعيان الفقه الإباضي. نشأ في مدينة جيطال بجبل نفوسة في ليبيا، لا يُعرف تاريخ مولده بالتحديد، المؤكد أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع، وأنه توفي حوالي عام ٧٥٠هـ. أُطْلِقتْ عليه أوصاف تكريمية متعددة منها: إمام بارع، حجة الإسلام، عالِمٌ بالأدب، فيلسوف الإسلام، غزالي المغرب.

أخذ العلم عن أكبر علماء وقته، ومنهم أبو موسىٰ عيسىٰ بن عيسىٰ الطرميسي الذي توفي عام ٧٢٢هـ، وأبو عزيز، وغيرهما من العلماء. عُرف بقوة الحافظة، تنقّل بين المدن والقرىٰ لنشر الدعوة، في ربوع الإباضية، وأمضىٰ حياته مدرساً ومربياً.

امتُحن وسُجن بسبب وشاية بعض العلماء به، ثم أُطلق سراحه، فذهب إلىٰ جربة، فرحب به علماؤها، واجتمعت عليه الطلبة، وواصل التدريس والتأليف حتىٰ وافته المنية ودُفن فيها. رغم غزارة علمه إلا أنه لم يشتهر له تلاميذ معروفون.

من أهم مؤلفاته: قواعد الإسلام، وشرح نونية أبي نصر في ثلاثة أجزاء في أصول الدين، وكتاب الحساب وقسم الفرائض، وكتاب الحج والمناسك، وتذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان، وله مجموع فتاوىٰ ما جمعه من أجوبة الأئمة في ثلاثة أجزاء، وله كتاب مجموع الرسائل، وغيرها. ولعلّ من أهم كتبه قناطر الخيرات في ثلاثة مجلدات.

سادت معظم بلدان العالم الإسلامي في القرنين السابع والثامن للهجرة أوضاع سياسية مضطربة، وظهرت في داخل البلاد دويلات كثيرة متنازعة، وتعرضت من الخارج إلىٰ حملات متتابعة من المغول والصليبين. وفي الشمال الأفريقي علىٰ وجه الخصوص اضطربت حياة الناس، وانعدم الأمن، واستحكمت العدواة بين القبائل

والزعماء، وانتشرت المنكرات، وانكفأ كثير من الناس إلى الزهد والتصوف. ولعل هذه الظروف هي التي جعلت الجيطالي ينصرف إلى الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويمارس ذلك بقدر كبير من الجرأة، مما أثار نقمة الملأ الذين يحيطون بالحكام عليه.

## ثانياً: التعريف بـ"قناطر الخيرات"[1]

يقع في ثلاثة مجلدات، ويضم (١٧) موضوعاً سَمَّى كل موضوع قَنْطرةً، جمع فيها بين أبواب الفقه المعروفة وبعض أبواب السلوك والتربية. وأسماء هذه القناطر هي: العلم، والإيمان وسائر قواعد الاعتقاد، والصلاة ووظائفها، وأسرار الصوم وظواهره، والزكاة المشروعة في الأموال، وأسرار الحج، والتوبة، والدنيا، والخُلق، والشيطان، والنفس، والعوارض، والخوف والرجاء، والعبادة، والقوادح في الطاعات، والحمد والشكر، والاجتهاد. وكل قنطرة من هذه القناطر تشتمل على أبواب، وكل باب على فصول. وسبب تسمية الكتاب بالقناطر؛ أنَّ المؤلف صوَّر الحياة الدنيا بمفازة يقطعها الإنسان، من المهد إلى اللحد، لينتهي إلى الجنة أو النار، وفي المفازة عوائق كثيرة، يهلك فيها كثير من الناس، وفيها كذلك قناطر يسلكها الإنسان المؤمن فيعبر عن طريقها إلى غايته المنشودة، وهي السعادة في الدار الآخرة.

والقنطرة الأولى هي قنطرة العلم، وجاءت مادتها في مائتي صفحة من الجزء الأول من الكتاب المحقق. وهي مقسمة على عشرة أبواب، في بيان فضل العلم، وفي فضل التعلّم والتعليم، وفي بيان فرض العين، وفي بيان فضل العلم الذي هو فرض كفاية، وفي بيان حد الفقه والكلام في علم الدين، وفي بيان طرق العلم وتقاسيمه، وفي آداب المتعلّم والمعلِّم، وفي آفات العلم والعلماء السوء، وفي العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وفي بيان العلم المذموم وأسماء العلم المحمود. ويصنف الكتاب في المدرسة الفقهية الإباضية.

---

(١) الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسى النفوسي. **قناطر الخيرات**، مسقط: دار النهضة للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ثلاثة أجزاء.

منهج المؤلف أقرب ما يكون إلى منهج أبي حامد الغزالي في بيان معاني الإيمان وفلسفة الأخلاق، وتطهير القلوب وتنوير العقول، ويذكر المؤلف في كثير من المواقع أنه ينقل عن الغزالي.

والمادة التربوية المختارة تقتصر على قنطرة العلم من الجزء الأول من الكتاب وتقع في حوالي (٦٠٠٠٠) ستين ألف كلمة. أما الجزء المختار من هذه المادة، فقد جاء في (٦٥٠٠) كلمة.

## ثالثاً: مختارات من "قناطر الخيرات"[١]

أما بعد، فقد انكشف لأرباب القلوب بحقائق الإيمان وأوضح محكمات القرآن، أنْ لا وصول للعبد إلى السعادة الأبدية إلا بالعلم، وامتثال العبادة الدينية، وهما بضاعة الأولياء، ومنهاج الأقوياء، وهما دين الله القويم، وصراطه المستقيم... ومع ذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان ضعيفاً فحمله ثقل الأمانة تكليفاً، وأوجب عليه اتقان حمل تلك الأمانة بالعلم والعمل والتشمير في أداء حقها بالجد لا بالكسل...

قلت: ولما كان الطريق على ما وصفنا من المشقة والمخافة وكثرة العوائق، وبعد المسافة من الآفات المانعة والمفازات الشاسعة والشعاب والأودية والعقبان والمؤذية، رأينا أنْ نرتب عليها قناطر لكي يمكن للسالكين عليها العبور حتى تقضي بهم إنْ شاء الله تعالى إلى درجات السرور.[٢]...

---

(١) المرجع السابق، الجزء الأول.

والكتاب للأسف الشديد لم ينل العناية اللازمة في التدقيق والتحرير اللغوي والفني، فالأخطاء المطبعية كثيرة، وبعض العناوين متداخلة في النص، أو غير موجودة، وعلامات الترقيم في المواقع المناسبة لها مفقودة، ولذلك فقد أضفنا فيما أوردناه هنا من النصوص المختارة بعض الحركات، وعلامات الترقيم، والعناوين من باب الاجتهاد في فهم السياق. والنص لم يخضع للتحقيق، ولو خضع للتحقيق لاجتهد المحقق في نسبة الأقوال إلى أصحابها وتدقيق أسماء المراجع التي يشير المؤلف إليها، ويصلح ما قد يكون خطأ من المؤلف أو الناسخ.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٧-٨.

ثم اعلم بالتحقيق أنَّه ليس هذا الطريق في طوله وقصره، وقناطره المرتبة عليه، مثل المسافات التي تسلكها الأنفس فتقطعها بأقدام الأجسام، فيقع قطعها على حسب قوة الأجسام وضعفها، وإنَّما هو طريق روحاني تسلكه القلوب، فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر.[1]...

دعاني رحمكم الله تعالى إلى تمثيل الدنيا بالمفازة وتمثيل الشريعة بالطريق فيها، وتمثيل الفرائض بالقناطر مرتبة موضوعة عليها، وتمثيل أعمالها بالمطايا لأنِّي وجدت ضرب الأمثال يرشق القوب بسهام الموعظة رشقاً لا يليق بغيرها، ولأن ذلك أبلغ في تقريب المعاني إلى العقول.[2]...

وهذا الكتاب يحتوي على سبعة عشر قنطرة أشرحها إنْ شاء الله تعالى بالتمام. الأولى: قنطرة العلم وهي تحتوي على مقدمة في بيان العقل، وعشرة أبواب في تفصيل العلم: الأول في بيان فضله، والثاني في فضل التعلم والتعليم، والثالث في فرض العين، والرابع في فرض الكفاية، والخامس في بيان حد الفقه والكلام في علم الدين، وبيان علم الآخرة من علم الدنيا، والسادس في طرق العلم وتقاسيمه، والسابع في آداب المتعلم والعالم، والثامن في آفات العلم وعلماء السوء، والتاسع في بيان جنس العلم المذموم وأسماء العلم المحمود، والعاشر في العلامات المميزة بين علماء الدنيا والآخرة، وسائر القناطر تأتي على الترتيب المتقدم إنْ شاء الله تعالى إلى آخر قنطرة، فيكون آخرها صفة الجنة والنار.[3]...

## قنطرة العلم

### في فضل العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

وإنما قدمنا بيان العقل على تفصيل أبواب العلم لأَنَّ العقل آلة لدرك العلم، وأس للفضائل وينبوع للآداب، وأصل للتكليف وعماد للدنيا، فالعلم يجري منه مجرى الثمر من

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٥.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٨.

الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، وشرف العقل مدرك بالضرورة، وكيف لا يشوف ما هو وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لكلِّ شيءٍ دعامةٌ، ودعامةُ المؤمن عَقْلُه فبقدر عقله تكون عبادته.[1]...

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية، ومطية المؤمن العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن العقل، ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل، ولكل أهل بيت قيِّم، وقيِّم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عَقِبٌ يُنسَب إليه، ويذكر به، وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل شيء فسطاط، وفسطاط المؤمن العقل.[2]...

واعلم أنَّ بالعقل تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات، وهو ينقسم قسمين: غريزي، ومكتسبي، فالغريزي هو العقل الحقيقي، وله حد يتعلق به التكليف، لا يتجاوزه إلى زيادة ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان، فإذا تم في الإنسان سُمِّي عاقلاً وخرج به إلى حد الكمال.[3]...

وقال ﷺ: "من أوتي العقل فقد أوتي خيراً كثيراً، وإنما العاقل من عقل عن الله تعالى أمره ونهيه. ولو لم يكن كذلك فليس بعاقل...،" وقال: "أُمرنا معشر الأنبياء أنْ نكلم الناس على قدر عقولهم،" فإن قيل: إنْ كان العقل عَرَضاً فكيف خُلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهراً فكيف يكون جوهراً قائماً بنفسه لا يتحيز؟ قيل له: إنَّ هذا من العلم الغامض الذي لا يطلع عليه إلا الأنبياء أو الروحانيون. وقد أبطل الماوردي في كتابه هذا القول بهذه العلَّة. وقال قوم: "العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية." حُكِي هذا عن الحارث المحاسبي، فكأنه أشار إلى أنَّ العقل نور يُقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء، ونسبة هذه الغريزة إلى العلوم نسبة

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٢.

العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في انكشاف العلوم لها نسبة نور الشمس إلى البصر.[1]...

وقال بعضهم: العقل هو العلم بالمدركات الضرورية، وذلك نوعان: أحدهما: ما وقع عن درك الحواس الخمس، كالمرئيات المدركة بالبصر، والأصوات المدركة بالسمع، والطعوم المدركة بالذوق، والروائح المدركة بالشم، والأجسام المدركة باللمس، فإذا كان الإنسان ممن يدرك بحواسه هذه الأشياء ثبت له هذا النوع من العلم، وكان عاقلاً، ... والنوع الثاني: ما كان مبتدئاً في النفوس، كالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدم، وكالعلم بأن من المحال اجتماع ضدين، وأنَّ الواحد أقل من الإثنين، وهذا النوع من العلم لا يجوز أنْ يكتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله، فإذا كان عالماً بالمدركات الضرورية فهو كامل العقل، وإلى هذا ذهب الماوردي في كتابه، قال: فكل من نفى أنْ يكون العقل جوهراً أثبت محله القلب؛ لأنَّ القلب محل العلوم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] فدلت هذه الآية على أمرين؛ أحدهما: أنَّ العقل علم، والثاني أنَّ محله القلب، وفي قوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ تأويلان: أحدهما معناه يعلمون بها، والثاني يعتبرون. فهذه جملة القول في العقل الغريزي.

أما العقل المكتسب، فهو نتيجة العقل الغريزي، وذلك علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال، فإن من حَكَمَتْه التجاربُ يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف به يقال: إنه غَمْرٌ جاهل، وهذا العقل يُنَمَّى إنْ استُعْمِل، ويَنقص إن أهْمِل؛ لأنَّه من قوة ثقابة المعرفة وإصابة الفكرة.[2]...

## ذكر قنطرة العلم وتفصيل أبوابها العشرة

### الباب الأول: في بيان فضل العلم

فأما بيان فضله فعلى خمسة أقسام من الكتاب والسنة والآثار والمعاني والحس.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٣-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٤-٣٥.

**أما الكتاب** فآيات كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] فبدأ بنفسه وثنَّىٰ بملائكته وثلّث بأولي العلم من عباده، فساوَاهم بنفسه وملائكته بواو التشريك، تشريفاً وتعظيماً، فناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلالاً ونبلاً، وقوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الآية، والشهادة لا تكون إلا بالعلم، دون الجهل والشك والظن. قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فقال أهل العلم: لحن الخطاب: يرفعُ الله الذين آمنوا منكم درجةً، والذين أوتوا العلم درجات.[١]...

وأما من السنة فأحاديث كثيرة، منها ما رواه جابر بن زيد عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: "طلب العلم عند الله أفضل من الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله ...".

وعنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: "العلم بالتعلّم، والخير عادة، والشر لَجاجة، ومن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشدَه،" وعنه ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء،" ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.[٢]...

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "التفقه في الدين حق علىٰ كل مسلم، ألَا تعلَّموا وعلِّموا وتفقهوا ولا تموتوا جُهالاً." وروىٰ سلمان عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: "ما عُبِد اللهُ بشيء أفضل من فقه في دين، ولَفَقِيهٌ واحد أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف عابد، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ وعمادُ الدين الفقهُ."[٣]...

وعنه ﷺ أنه قال: "العالم أمين الله في الأرض." وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "صنفان من أمتىٰ إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء،" وعنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: "إذا أتىٰ عَلَيّ يومٌ

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٥٠.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٥١.

لم أزداد فيه علماً يقربني إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم."[1]...

وأما **الآثار** فرُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: عليكم بالعلم قبل أنْ يُرفع، ورَفْعُه بأن تهلك رُوَاتُه، فوالذي نفسي بيده لَيَودَّنَّ[2] رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أنْ يبعثَهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم، وأن أحداً لم يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.وعن الحسن أنه قال: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، وقال الحسن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] قال: هي العلم والعبادة، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قال: الجنة.[3]...

وقال بعض الحكماء: العلم شرف لا نديم له، والأدب مال لا خوف عليه، وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار. وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنَّه يُقَوِّمُكَ ويُسَدِّدك صغيراً، ويُقدِّمك ويُسوِّدك كبيراً، ويُصلح زيفك وفسادك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوّم عوجك وميلك، ويُصحِّح همتك وأملك. وقال بعض العلماء: من شرف العلم أنَّ كل من نسب إليه ولو في شيء صغير فرح، ومن دُفع عنه حزن.[4]

قال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وقال علي: قيمة كل امرئ ما كان يحسنه وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم، قيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم.[5]...

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٥٣.

(٢) الكلمة في الكتاب ليؤذن، وواضح أنها خطأ، فهذا الأثر مروي عند الغزالي وابن القيم وغيرهما.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٥٤.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٥٥.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٥٦-٥٧.

أما من جهة **المعاني** فوجوه كثيرة أيضاً، وذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في كتابه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فقلّلها وصغّرها، مع أنَّ العقلاء والناس عليها يقتتلون كل القتال، وفيها يتنافسون كل التنافس، وعظّم العلم وجعله خيراً كثيراً، فإذا كان القليل الفاني يتنافس فيه الناس هذا التنافس، ويقتتلون عليه هذا القتال، ويطلبونه هذا الطلب، ... والدليل على فضل العلم من جهة العقل أنَّ العلم سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع، حتى إنَّ أغنياء جهال العرب والعجم يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لمشايخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقّر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها.

وأما في الآخرة فمعلوم أنَّ العلم هو وسيلة إلى السعادة الأبدية، وذريعة إلى القرب من رب العالمين، وأعظم الأشياء في حق الآدمي ما هو وسيلة إلى ذلك، ولن يُتوصل إلى القرب منه عَزَّوَجَلَّ إلا بالعمل والعلم، ولا يُتوصل إلى كيفية العمل إلا بالعلم، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذاً أفضل الأعمال.[1]...

أما من جهة **المحسوس** فإن هذه الصنائع كلها التي جعل الله فيها قوام النفوس والأبدان من بناء وحراثة وخياطة إلى غير ذلك من أسباب المنافع، لو جهل الناس ذلك كله لاختلَّ أمرهم ومعاشهم، وانعدمت المنافع، وهلك الجميع. ثم رأينا هذا الإنسان العالم بالصنعة يكتسب منها الخير، ويجلب بها منافع كثيرة، والجاهل بالصنعة لا يجلب منفعة، قد تَعَطَّل من جميع المنافع، وضاع واحتاج، واختلّ عيشه ودينه، فلا يستوي من علم شيئاً مع من جهله.[2]

## الباب الثاني: في فضل التعلم والتعليم

وفي هذا الباب فصلان: الأول في فضل التعليم

أما **الآيات** فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. إلى

(١) المرجع السابق، ج١، ص٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٦٠.

قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية. وذلك فيما وجدت في الأثر أنَّ الناس في عهد النبي ﷺ يخرجون جميعاً في الجهاد فنزلت هذه الآية حثاً منه تعالىٰ في التعلم، أنْ يقيم بعضهم ويغزو بعضهم، فتقدم الغزاة، فيخبرهم القاعدون بما أحدث الله علىٰ نبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وأما الأحاديث الواردة في التعلم فكثيرة، كقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طريق جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: "اطلبوا العلم ولو بالصين،" والصين أقصىٰ بلاد التوحيد، فلما أوجب طلب العلم بالصين دل أنَّ طلبه فيما دون ذلك أوجب... وعنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: "العلم خزائن ومفاتحه السؤال، فاسألوا فإنَّه يؤجر فيه أربعة: السائل، والعالم، والمستمع، والمحب لهم."[1]...

وأما الآثار فروي عن أبي الدرداء أنه قال: لَأنْ أتعلم مسألة أحبُّ إليَّ من قيام ليلة. وقال أيضاً: العالم والمتعلم شريكان في الأجر، وسائر الناس همج لا خير فيهم، وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكن الرابعة فتهلك... وقال بعض العلماء: تعلموا فإذا تعلمتم فاعملوا وعلِّموا. وقال: إذا تعلمتم علماً فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك ولا بباطل فتمجه القلوب. وقال بعض الحكماء لبنيه: تعلموا العلم فإن لم تنالوا به في الدنيا حظاً فلأن يذم الزمان لكم خير من أنْ يذم الزمان خير من أنْ يذم بكم...

وعن معاذ بن جبل أنه قال: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عليه جهاد، وتعلميه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهلٍ قُربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل علىٰ السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله تعالىٰ به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة هداة يقتدىٰ بهم.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٦١-٦٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٦٢-٦٥.

## في بيان فضل التعليم من الكتاب والسنة والآثار

أما الآيات قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾ [التوبة: ١٢٢] والمراد بذلك هو التعليم والإرشاد، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] في هذه الآية إيجاب التعليم. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦] وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالىٰ في الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما الأحاديث فروي عن النبي ﷺ أنه قال: "ما أتىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذه من النبيين أنْ يبيِّنَه للناس ولا يكتُمَه." وعنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال: لَأَنْ يهدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها. وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيما حُكِي عنه: "من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أُعْطِي ثواب سبعين صِدِّيقاً."(١)...

وعنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: "إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس بعد أنْ يؤتيهم إياه ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم، حتىٰ إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالاً إنْ سُئِلُوا أفْتَوْا بغير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون."(٢)...

وأما الآثار فرُوِيَ عن عمر بن الخطاب أنه قال: من حديث بحديث فعُمِل به فَلَه مثلُ أجر ذلك العمل. وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتىٰ الحوت في البحر، ... وقال عطاء: دخلت علىٰ سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت له: ما أبكاك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء. وقال بعض السلف: العلماء سرج الأزمنة، كل واحد منهم مصباح زمانه، يستضيء به أهل عصره. وقال الحسن:

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٦٦.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٦٧.

لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم، يعني يُخْرِجون الناس بالتعليم من حدِّ البهيمة إلى حدِّ الإنسانية.[1]

## ما يجب على الإنسان أنْ يتعلمه

وينبغي للإنسان، بل يجب عليه، فرضاً أنْ يتعلم دينه، والعمل به يستوجب الرضوان من ربه، وبجهله يستوجب النيران من خالقه؛ إذ لا تصح عبادة وفاعلها يجهل صفة أدائها، ولم يعلم شروط إجزائها، ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: "عملٌ قليلٌ في علمٍ خيرٌ من عملٍ كثيرٍ في جهلٍ"... وقال بعض الحكماء: الناس ثلاثة: قدوة ومقتد والثالث لا يفلح... وقال الأزدي: الناس ثلاثة: عالم مرتفع، ومتعلم منتفع، وما سواهما منتقع. ويقال: أول العلم الصمت، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم نشره. وقال: عَلِّمْ علْمَكَ من يجهله، وتعلَّم ممن يَعْلَمْ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت...

وأما الدليل على فضيلة التعلم والتعليم من شواهد العقل، ومن كتاب الغزالي، فإنَّه لـمَّـا كان العلم أفضلَ الأشياء كان تعلمه طلباً للأفضل، وكان تعليمه للغير إفادة الأفضل لغيره، وبيانه أنَّ مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام في الدين إلا بنظام الدنيا؛ لأَنَّ الدنيا مزرعة للآخرة،... وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام: أحدها: أصول لا قوام للخلق إلا بها، وهي أربعة: أحدها الزراعة للمطعم، والثاني الحياكة وهي للملبس، والثالث: البناء وهو للمسكن، والرابع: السياسة وهي المتالف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها... والسياسة في استصلاح الخلق... تنقسم على أربعة مراتب: الأولى: وهي العليا سياسة الأنبياء، ... الثانية: سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين، ... الثالثة: سياسة العلماء بالله عَزَّوَجَلَّ وبدينة الذين هم ورثة الأنبياء...، الرابعة: سياسة الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط. وأشرف هذه السياسات الأربع بعد سياسة النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٦٨.

الأخلاق المحمودة السعيدة المنجية، وهو المراد بالعلم.[1]...

## الباب الثالث: في بيان فرض العين

اعْلم أنَّ كلَّ العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها محال، ولذلك قال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: "من ظنَّ أنَّ للعلم غايةً فقد بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله تعالىٰ بها حيث يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] إلىٰ قوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان: ٢٧]."

وقال بعض الحكماء: ولو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة، لكنا نطلبه لننتقص كل يوم من الجهل ونزداد كل يوم من العلم...[2]

وفي كتاب الغزالي قال: اختلف الناس في العلم الذي هو فريضة علىٰ كل مسلم، وتحزبوا فيه أكثر من عشرين فرقة، قال: ولا نطوِّل فيه بذكر التفصيل، ولكنَّ حاصله أنَّ كلَّ فريق نزَّل الوجوب علىٰ العلم الذي هو بصددها، فقال المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يُدْرَك التوحيد، وتعلم ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه؛ إذ به تُعْرَف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة. وقال المفسرون والمحدثون: هو علم القرآن والسنة؛ إذ بهما يُتَوَصَّل إلىٰ العلوم كلها، وقال بعض التصوفة: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عَزَّوَجَلَّ، وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لَمَّة الملك من لَمَّة الشيطان، وقال بعضهم: هو علم الباطن، وذلك علىٰ أقوام مخصوصين، هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه.[3]...

## الباب الرابع: في بيان العلم الذي هو فرض كفاية

وقد ذكر الغزالي في كتابه فقال: اعْلم أنَّ الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٧١-٧٣.

(٢) المرجع السابق ج١، ص٧٤.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٧٤-٧٥.

العلوم، ثم قال: والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى: شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما يستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يرشد العقل إليه، مثل الحساب، ولا ترشد التجربة إليه مثل الطب، ولا السماع، وذلك مثل اللغة، قال: والعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب. قال: وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. قال: أما فرض الكفاية فهو علم لا يُستغنى عنه في أمر قوام الدنيا، كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنَّه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

قال: ولا يتعجب من قولنا: إنَّ الطب والحساب من فروض الكفاية، كالفلاحة والخياطة والسياسة بل الحجامة. فلو خلا البلد من الحجام لسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله، قال: وأما ما يُعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب ودقائق الطب، وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه. قال: وأما المذموم فعلم السِّحْر والطلَسْمات وعلم الشعوذة والتلبيسات. قال: وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراه. قال: وأما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان فهي محمودة كلها. قال: ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية، وتكون مذمومة.[1]...

## الباب الخامس

## في بيان حد الفقه والكلام في علم الدين وطريق الآخرة وحد الكلام والفلسفة

وهذا الباب يتوزع منه ثلاثة فصول:

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨١-٨٢.

الأول: في حد الفقه، وقد تقدم الكلام في أنه مرتبط بمصالح الدنيا لسياسة الخلق، كما أنَّ علم الطب موضوع لاعتدال صحة الجسد في الدنيا... فاعلم أنَّ التسوية (بين الفقه والطب) غير لازمة بل بينهما فرق. والفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه: أحدها أنه علم شرعي؛ أي مستفاد من النبوة بخلاف الطب فليس هو من علم الشرع، هكذا ذكر الغزالي في كتابه. والثاني: لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة البتة، لا الصحيح ولا المريض، أما الطب، فليس يحتاج إليه إلا المرضىٰ وهو الأقلون، والثالث: أنَّ علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة؛ لأنَّه نظر في عمل الجوارح ومصدر الأعمال، ومنشؤها صفات القلب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفىٰ اتصال الجوارح بالقلب. وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء المزاج والأخلاط وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فمهما أضيف الفقه إلىٰ الطب ظهر شرفه، وإذا أضيف علم طريق الأخرة إلىٰ الفقه ظهر أيضاً شرف علم الآخرة.[1]

**في علم الدين وطريق الآخرة**

اعلم أنه قد ذكر الغزالي في كتابه: أنَّ علم طريق الآخرة قسمان:

أحدهما: علم معاملة، وهو علم بأحوال القلب وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود منها كالصبر والشكر والخوف والرجاء، والتوبة والرضا، والتوكل والزهد والتقوىٰ والقناعة والسخاوة، ومعرفة المنة لله تعالىٰ في جميع الأحوال، والخشوع والإحسان، وحسن الظن وحسن الخلق، وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص، وما أشبه ذلك من محمود أحوال القلب وصفاته، ... فذلك كله من علم الآخرة. وأما المذموم منها فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش، وطلب العلو، وحب الثناء، وحب طول البقاء في الدنيا... فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحس ومنابت الأعمال المحظورة، وأضدادها وهي الأخلاق المحمودة، منبع الطاعات والقربات. فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٨.

وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين.[1]...

والقسم الثاني: وهو علم مكاشفة، وهو علم الصديقين والمقربين، وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته عن صفاته المذمومة، فتنكشف في ذلك النور أمور كان يسمع بها من قبل أسمائها ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتىٰ تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالىٰ، أو صفاته التامات، وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه الآخرة علىٰ الدنيا والمعرفة بمعنىٰ النبي والنبوة، وبمعنىٰ الوحي ومعنىٰ لفظ الملائكة والشياطين، ... ومعنىٰ لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومعنىٰ القرب منه، والنزول في جواره ومعنىٰ حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلىٰ ومقارنة الملائكة والنبيين ومعنىٰ تفاوت درجات أهل الجنان حتىٰ يرىٰ بعضهم بعضاً، كما يرىٰ الكوكب الدري في جو السماء إلىٰ غير ذلك مما يطول تفصيله؛ إذ الناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات.[2]...

## الباب السادس: في بيان طرق العلم وتقاسيمه

اعلم أنا قد ذكرنا أقسام العلوم قبل هذا مجملة وسنشيرها هنا إنْ شاء الله تعالىٰ، إلىٰ قسمتها موجزة، وفي طرقها منحصرة، فنقول: إنَّ طرق العلم محصورة في ثلاثة طرق، وقيل: في أربعة: أحدها: الحس، والثاني: العقل، والثالث: السمع، والرابع: قيل إنه طريق البديهة. فهذه قسمة منحصرة تدور علىٰ ابن آدم في الدنيا والآخرة، فلا يسأل العبد في الآخرة إلا عنها؛ لأنَّها منحصرة فيما يُسأل عنه، فما شاهده ببصره أو سمعه أو أدركه بعقله، فكل علم داخل فيها وعنها يكون. فالبصر هو ما يُدرك به جميع المبصرات، والسمع هو ما يسمع به جميع المسموعات من الشرع وغيره، والفؤاد راجع إلىٰ القلب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]. أي حاضر القلب، والقلب واحد والمراد به العقل كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٩-٩٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٨٩-٩٠.

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦] فجمع في هاتين الآيتين ما قدمناه من طرق العلم.[1]...

## العلم بالدنيا وأقسامه

والعلم بالدنيا على ثلاثة أقسام: العلم بمنافعها، والعلم بمضارها، والعلم بأسباب المعيشة فيها، وفي لفظ آخر في العلم بالدنيا أُخْبِرنا أنَّ عاقبة نعيمها إلى الزوال، وأخبرنا أنَّ عاقبة عمرَانِها إلى الخراب، وأخبرنا أنَّ عاقبة عمارها إلى الهلاك.

وأما ما يتوصل به إلى العلم بها فثلاثة: اللغة والإعراب والحساب، فاللغة بها جاءت شريعتنا فإذا بطلت اللغة بطلت الشريعة والأحكام، والإعراب أيضاً به تنصلح المعاني وتفهم، فإذا بطل الإعراب بطلت المعاني، وإذا بطلت المعاني بطل الشرع أيضاً وبطل جميع ما يدور عليه أمر المعاملات كلها، من المخاطبات في الأقوال. وأما الحساب أيضاً فهو ما يتوصل به إلى معرفة الدين والدنيا جميعاً، أما الدين فإن هذه العبادات المؤقتة بالأزمان لا تعرف إلا بالحساب، به عرفت الأيام، والجمع، والشهور، والسنين. فالعبادات مرتبة فيها كصلاة الجمعة، فإذا جهل يوم الجمعة بطلت الصلاة، وكذلك الصيام، إذا جهل الحساب الذي به يُعرف شهره بطل أيضاً، وكذلك السنون أيضاً، في عبادة الزكاة والحج، فالحساب أصلٌ كبيرٌ في الدين والدنيا، فيه تصبح جميع المعاملات الدائرة بين الناس من المعاوضات والأخذ والعطاء وجميع منافع المعيشة به تصح، وبالله التوفيق.[2]

## الباب السابع: في آداب المتعلم والمعلم

وهذا الباب ينحصر في فصلين: الفصل الأول في آداب المتعلم، وتنحصر آدابه في عشرة أقسام:

القسم الأول: المبادرة إلى التعلم في أول وقت الإمكان، ويرغب فيه رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه، ولا يلهيه عن طلبه كثرةُ مال وجِدَة، ولا نفوذ أمرٍ وعلو منزلة،

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٩٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ١٠١.

فإن من ينفذ أمره فهو إلى العلم أحوج، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق...

والقسم الثاني: أنْ يكون قصده في التعلم إرادة وجه الله تعالى، وإنفاء الجهل عن نفسه، وإرشاد من قدر على إرشاده بنية خالصة، وعزيمة صادقة، فإذا كان قصده ونيته ما ذكرنا، فإنَّه يرجى أنْ يستوجب الفضل الذي جاء في الأحاديث المتقدمة...

والقسم الثالث: ينبغي لطالب العلم أنْ يقدم أولاً طهارة النفس من دناءة الأخلاق، ومذموم الأوصاف؛ لأنَّ العلم عمارة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى...

والقسم الرابع: أنْ يقلل طالب العلم علائقه من أشغال الدنيا، ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة، ويمنيها بانقطاع الأشغال المتصلة، فإن لكل وقت شغلاً وفي كل زمان عذراً...

والقسم الخامس: أنْ لا يتكبر عن العلم، ولا يتأمر على المعلم، بل يُلقي إليه زمام أمره بالكلية، في كل تفصيل، ويذعن لنصحه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، فبذلك ينال مطلوبه، ويظفر بمأموله...

القسم السادس: أنْ لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة إلا وينظر فيه، نظراً يطلع منه على مقصده وغايته، ثم إنْ ساعده العمر طلب التبحر فيه والاشتغال بالأهم فاستوفاه وتطرق من البقية، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك من عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا...

القسم السابع: ينبغي للمتعلم أنْ يحترز في بادئ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ذلك من علوم الدنيا أو علوم الآخرة؛ لأنَّ ذلك يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك، بل ينبغي له أنْ يتقن أولاً الطريقة الوحيدة المرضية عند أستاذه، إذا كان أستاذه نقاداً بصيراً بفنون العلم، مستقلاً باختيار رأي واحد ومذهب واحد، وإن كان أستاذه إنَّما عادته نقل المذاهب وما فيها، ولم يعتقد رأياً واحداً، فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده...

القسم الثامن: أنْ يحذر المتعلم الإذلال على من يعلمه وإن أنسه وطالت صحبته معه؛ لأنَّ الإذلال على العلماء من فعل الجهال، وفيه فساد الأحوال...

القسم التاسع: ينبغي لطالب العلم ألا يقصر في طلبه، وينتهز الفرصة ولا يشتغل بالفراغ فإنَّه من الفراغ تكون الصبوة... وينبغي له أنْ يبتدئ العلم من أوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله، فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسع جهله، فإن لكل علم فضولا مشغِلَةً، إنْ صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها، وقد قال ابن عباس: العلم أكثر من أنْ يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه...

القسم العاشر: في الشروط التي يتوفر بها علم الطالب بعد عون الله تعالى وحسن توفيقه، وهي بالجملة عشرة: العقل الذي يدرك حقائق الأمور... الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم... والذكاء الذي به يستقر حفظ ما تصوره وفهم ما علمه... والشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليه الملل... والاكتفاء بمادة تغنيه عن كلفة الطلب... والفراغ من العلائق؛ لأنَّ به يكون التوفر في الطلب... وعدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض... وطول العمر واتساع المدى لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال... والظفر بعالم سمح بعلمه، مُتَأَتٍّ في تعليمه، صادق في كل كلامه، بصير بفنون العلم، ناصح للمتعلم... والأخيرة تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو رأس كل بر، وبه ينال المتعلم مقصوده من الخير في الدنيا والآخرة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "من عمل بما علم، أورثه الله عَزَّوَجَلَّ علم ما لم يعلم"... فهذه وظائف ما على المتعلم من الآداب، وما به يتوفر علمه، وإذا استكملها فهو أسعد طالب، وأنجح متعلم، والله أعلم وأحكم.[1]

**في وظائف ما على العالم المعلم المرشد من الآداب**

اعلم أنَّ للإنسان في علمه أربعة أحوال، كما له ذلك في اقتناء الأموال؛ إذ لصاحب المال حالة استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١٠٢-١١٨.

متفضلاً وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يُقتني كالمال، فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به، وحال تبصير وتعليم لغيره، وهو أشرف الأحوال، فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات، فإنَّه كالشمس تضيء لغيرها، وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيِّب وهو طيب، وأما الذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، والـمِسَنّ الذي يشحد غيره ولا يقطع، وكالإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وكفتيلة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق... ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ وظائف آدابه.

وتنحصر بالجملة في عشرة وظائف:

أحدها: أنْ يكون المعلم عاملاً بعلمه أولاً، لئلا يكون كما قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]...

الوظيفة الثانية: الشفقة على المتعلمين منه أنْ يجريهم مجرى بنيه في التعهد لأحوالهم...

الوظيفة الثالثة: أنْ يقصد العالم بتعليمه وجه الله تعالى، ويقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه، في أنْ يطلب ثواب الله في تعليم من علم وإرشاد من أرشد، ولا يطلب ذلك في الدنيا عوضاً ولا أجراً...

الوظيفة الرابعة: النصيحة للمتعلمين والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسند لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لمعلومهم...

الوظيفة الخامس: ينبغي للعالم أنْ تكون له فراسة يتوسم بها أحوال تلامذته وغيرهم من جميع المتعلمين فيعطيه مالا يجهله بذكائه، ولا يضعف عن بلادته فإنَّه أروح للعالم وأنجح للمتعلم...

الوظيفة السادسة: ينبغي للعالم أنْ لا يعنف متعلماً ولا يحقر ناشئاً، ولا يستصغر مبتدئاً، فإن ذلك أدعى إليه وأعطف المسترشدين إليه، وأحث على رغبتهم فيما لديه...

الوظيفة السابعة: أنْ لا يبخل بتعليم من يحسن ولا يمنع من إفادة ما يعلم، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد، ثم فكيف يساغ له البخل بما منحه جوداً من غير بخل، وأوتيه عفواً من غير بذل...

الوظيفة الثامنة: ينبغي للعالم إذا سأله السائل متعلماً أنْ يجيبه، وإن عاوده مستفهماً أنْ يفيده، ولا يضجر؛ لأنه ربـَّما لم يفهم عنه الجواب في أول إجابته، وإن بان له أنه يسأله متعنتاً أو عابثاً أو طالب رخصة متأولاً صمت عنه ولم يجبه...

الوظيفة التاسعة: ينبغي للعالم أنْ يكون أوسع الناس صدراً، وأكثرهم صبراً، وأجملهم لقاء، وأحسنهم أخلاقاً؛ لأنَّ المتعلمين منه يَخْدُون خلائقَه، ويتخذون طريقه، فيجب أنْ يكون لهم إلىٰ أسنىٰ الأفعال منهاجاً، ومن غي الضلال سراجاً، فلا يمنع طالباً، ولا يؤيس راغباً، ولا ينفّر متعلماً، لما في ذلك من قطع الرغبة منه، والزهد فيما لديه، واستمرار ذلك مفض إلىٰ انقراض العلم بانقراضه...

الوظيفة العاشرة: ينبغي للعالم إذا سئل أنْ لا يعجل بالجواب، وإن كان له حافظاً، حتىٰ يتفكر فيه، ويعرفه معرفة صحيحة، فيجيب بعلم ويقين، فإن ذلك من آداب العلماء.[1]...

## فيما يجب علىٰ العالم أنْ يلتزمه

ومما يجب علىٰ العالم: أنْ يلتزم التواضع، ويجتنب العجب والتكبر؛ لأنَّ التواضع عطوف، والعجب والتكبر مُنَفِّرٌ صروف، وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح، ولأن العجب نقص يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب. وقد ورد الخبر به عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه قال: "قليل الفقه خيرٌ من كثير من العبادة" وكفىٰ بالمرء علماً إذا عبد الله، وكفىٰ به جهلاً إذا أعجب برأيه، وعلة إعجاب العلماء بأنفسهم انصراف أنظارهم إلىٰ من دونهم من الجهال، وانحراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء. وقد قيل في منثور الحكم: إذا علمت فلا تذكر كثرة مَنْ دونك من الجهال، ولكن انظر إلىٰ من فوقك من

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١١٩-١٤٢.

العلماء.[1]...

## الباب الثامن: في آفات العلم والعلماء السوء

### الجملة الأولى: في آفات العلم

وهي كثيرة، ونحن نذكر هنا منها ما لا بد منه، فأول آفات العلم: انصراف القلب عن التعلم، حتى لا تكون للإنسان همة في الطلب وذلك يكون بأسباب:

أحدها: علو منزلة واستصلاح رياسة دخل فيها، فهذا إلى العلم أحوج.

الثاني: أنْ يمنعه عن التعلم إصلاح ماله، ومَرَمَّة حاله، فهذا أضعف عذراً...

الثالث: يمنعه من التعلم كبر السن، فيتركه استحياء من تقصيره في الصغر وتعلّمه في الكبر، فرضي بالجهل عن العلم، وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل...

الرابع: أنْ يمتنع عن التعلم لتعذر المادة، وهذا أقل ما يكون إلا عند ذوي شره وشهوة مستعبدة، فينبغي أنْ يصرف إلى التعلم حظاً من زمانه لأنه لا بد للمكتسب من أوقات عطلة أو استراحة، ومن صرف كل عمره إلى الكسب، فهو من عبيد الدنيا وأُسراء الحرص...

الخامس: ربـمَّا منعه من التعلم ما يخشى من صعوبته، وبُعد غايته، ويخاف من قلة ذهنه، وهذا الظن من اعتذار ذوي النقص، وخيبة أولي العجز؛ لأنَّ الخشية قبل الابتلاء عجز...

السادس: ربـمَّا منع ذوي السفاهة من طلب العلم أنْ يصور في نفسه الحرمان من أجله، فإن رأى المحبرة تطيّر منها، أو وجد كتاباً أعرض عنه، وإن رأى متحلياً بالعلم هرب منه، كأنه لم ير عالماً مقبلاً وجاهلاً مدبراً، وهذا لا يُرجى له صلاح، ولا يؤمل منه فلاح، ... وكان هذا هو الخامس الذي قال فيه علي بن أبي طالب: أغد عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ١٤٦-١٤٧.

**الجملة الثانية: في الأخبار الواردة في العلماء السوء**

اعلم أنه قد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة، دلَّت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]... وأما الأحاديث فكثيرة كقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طريق جابر بن زيد، عن أنس بن مالك، عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: "ويل لمن لا يعلم ولم يعمل مرة، وويل لمن يعلم ولم يعمل مرتين." ومن طريق أيضاً عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: "من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء لقي الله وهو خائب من الحسنات."[1]...

**الباب التاسع: في العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة**

ونعني بعلماء الدنيا: العلماء السوء، وهم الذين قصدُهم من العلم التنعيم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها، وهم الذين وردت فيهم الأخبار والآثار المتقدمة.

ونعني بعلماء الآخرة: العلماء بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العاملين له، فهم الفائزون المقربون يوم القيامة، ولهم علامات منها: أنْ لا يطلب بعلمه الدنيا، فإن أقل درجات العلم النافع أنْ يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكُدُورَتَها، وانصرامها، ويدرك عظم الآخرة، ودوامها وبقاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنَّ الدنيا والآخرة متضادتان، وأنَّهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعدت عن الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب في إحداهما كذلك تفرغ من الآخر.[2]...

**الباب العاشر: في بيان العلم المذموم وأسماء العلم المحمود**

من كتاب الغزالي: اعْلم أنَّ هذا الباب يشتمل على جملتين: إحداهما: فيما تَعدُّه العوامُّ

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١٥٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ١٦٥.

من العلوم المحمودة، وليست كذلك، وفيها بيان الوجه الذي يكون به بعض العلوم مذموماً. والثانية: في أسماء العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها من المذموم.

**الجملة الأولى: في العلم المذموم**

وفي كتاب الغزالي قال: اعْلم أنَّ العلم لا يُذَمُّ لعَيْنِه، وإنَّما يذمُّ في حقِّ العباد لأحد أسباب ثلاثة:

أحدها: أنْ يكون مؤدياً إلى ضرر، إما لصاحبه أو لغيره، كما يُذم علمُ السِّحْر والطِّلَسْمات. أما السحر فقد نطق به القرآن فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]... وأمّا الطِّلَسْمات وخواص الأحجار مثل حجر المغناطيس في جذبه الحديد، وحجر الماس في كسره الأجسام الصلبة بخصوصية فيه، وحجر العقيق والحجر الباغض للدم، وحجر البرادي وغير ذلك من خواص الأحجار والنبات وخواص الأشياء، فالله أعلم ما سبب ذلك، فهو تعالى قد استأثر بعلم الأشياء وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه صلاح، واستأثر بعلم سائرها فلا تقف العقول على كنهها.

وفي كتاب المسعودي قال: ويمكن والله أعلم بهذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدِثة في العالم للحركات والفاعلة في الحيوان وغيره، قال: يمكن أنْ يكون الله تعالى جعلها معجزة لبعض الأنبياء السالفة، ثم رفع ذلك النبي، وبقيت علومه. قال ولقد رأيت بمصر حيَّةً مصوَّرة من حديد توضع على شيء ويدني منها حجر المغناطيس فتحدث فيها حركة وسعى إليه وتعلق به، قال: وإذا أصاب المغناطيس رائحة الثوم بطل فعله بالحديد، وإن غسل بشيء من الخل وناله شيء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد.

وقال في كتابه: لا تَنَازُع عند ذوي الفهم أنَّ في مواضع من الأرض مُدُناً وقرى لا تدخلها عقرب ولا حيَّة، مثل حمص والمعرة وأنطاكية. قال: وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج الرجل يده خارج السور وقع عليها البَقُّ، فإذا جذبها إلى داخل لم يبق عليها منها شيء، إلى أنْ انكسر عمود من رخام في بعض المواقع فأصيب في أعلاه حُقٌّ من

النحاس، في داخله بق مصور من نحاس كنحو كَفٍّ، فما مضت أيام أو على القرب من ذلك حتى صار البق يعم الأكثر من دورهم والله أعلم... وإنما كتبنا هذا ليقف القارئ على ما قال الناس في هذه الأشياء.

والسبب الثاني الذي يكون به العلم مذموماً هو أنْ يكون مُضِرَّاً بصاحبه، في غالب الأمر، وذلك كعلم النجوم، فإنَّه في نفسه غير مذموم لذاته؛ إذ هو قسمان: قسم حسابي، نطق به القرآن بأن مسير القمرين محسوب فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]... والقسم الثاني: الحكم بها وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب.[1]...

**الجملة الثانية: في أسامي العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها**

اعلم أنَّ هذه الجملة تنحصر في فصلين: أحدهما: في أسامي العلوم الشرعية، وكيفية التباسها بالمذمومة. والفصل الثاني: في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة.

ونبدأ بالفصل الأول فنقول: ذكر الغزالي في كتابه فقال: اعلم أنَّ منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما كان عليه السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة. قال: فهذه أسماء محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين.

اللفظ الأول: الفقه، قد تصرفوا فيه بالتخصيص لمعرفة الفروع في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، فمن كان أكثر اشتغالاً بها قيل هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب...

اللفظ الثاني: العلم، وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال ابن مسعود: "مات تسعة أعشار

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٢٠١-٢٠٥.

العلم،" فعرفه بالألف واللام، ثم فسره بالعلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ...

اللفظ الثالث: التوحيد: وهو عبارة عن معرفة من وحَّدَ الله تعالىٰ، وآمن به إيماناً يرىٰ به الأمور كلها من قبل الله تعالىٰ، رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرىٰ الخير والشر إلا منه جل جلاله، فهذا مقام شريف إحدىٰ ثمراته التوكل ...

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير: قال الله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] وقد ورد في الثناء علىٰ مجالس الذكر، أخبار كثيرة، كقوله ﷺ: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا"، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: "مجالس الذكر"...

اللفظ الخامس: الحكمة: وهي التي أثنىٰ الله تعالىٰ عليها، فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "كلمة من الحكمة يتعلّمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها" وقال: "الحكمة ضالة المؤمن" ومن أمثال ذلك ثم صار اسم الحكمة يطلق علىٰ الطبيب والشاعر والمنجم وأمثالهم...

كتبت أكثر هذا الباب من كتاب الغزالي لأنه اتبع فيه فضائح علماء السوء منهم، فأحببت أنْ تقفوا عليها إذا كان ما ذكره موافقاً للحق غير خارج عن الشرع، وبالله التوفيق.[1]

## في بيان القدر المحمود من العلم المحمود

اعلم أنَّ العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم مذموم قليله وكثيره، وهو الذي لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، أو فيه ضرر يغلب نفعه، وهو ما قدمناه من علم السحر والطِّلَسْمات، والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفائس مذموم، ومنه ما فيه ضرر يزيد علىٰ ما يظن أنه يحصل به قضاء وطرٍ في الدنيا والله أعلم.

القسم الثاني: قسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كثُر كان أحسن وأفضل، وذلك

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٢١٠-٢٢٠.

هو العلم بالله تعالىٰ وبصفاته وأفعاله وسننه في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة علىٰ الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وليتوصل به إلىٰ سعادة الآخرة، فبذل المقدور فيه إلىٰ أقصىٰ غاية الجهد قصور عن حد الواجب، فإنَّه البحر الذي لا يُدرك غوره، ... وهذا هو العلم المكنون الذي لا يُسطر في الكتب، ويعين علىٰ التنبيه لهذا العلم مشاهدة أحوال علماء الآخرة، كما قدمنا من علاماتهم...

القسم الثالث: يحمد منه مقدار الكفاية، ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه، وهي العلوم التي تقدمت. قيل: هذا في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً هو الأول، واقتصاداً هو الوسط، واستقصاء لا مرد له إلىٰ آخر العمر.[1]...

وإذا تفرغت من نفسك وتطهيرها، وقدرت علىٰ ترك ظاهر الإثم وباطنه، فصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك، وما بعد ذلك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها. فابتدئ بكتاب الله تعالىٰ، ثم بسنة رسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن، ... وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من الفقه، دون الخلاف، ثم بأصول الفقه. وهكذا إلىٰ بقية العلوم بما يتسع له العُمُر، ويساعد فيه الوقت. ولا تستغرق عمرَك في واحد منها طلباً للاستقصاء، فإنَّ العلم كثير والعُمُرَ قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها... فاقتصر من شائع علم اللغة علىٰ ما تفهم به كلام العرب وتنطق به، ... واقتصر من النحو علىٰ ما يتعلق بالكتاب والسنة، ومن علم الكلام علىٰ ما تحفظ به التوحيد والاعتقاد... وبالجملة فالمرْضِيُّ عند العقلاء أنْ تعد نفسك في الدنيا وحدك مع الله تعالىٰ، وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيها بعينك واشتغل فيما بين يديك، ودع عنك ما سوىٰ ذلك، والسلام...

كمل كتاب قنطرة العلم بحمد الله وحسن عونه يتلوها قنطرة الإيمان والتوحيد إنْ شاء الله تعالىٰ.[2]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٧-٢٢٨.

## (١٤)
# تُحْفَةُ المَوْدُودِ بأَحْكَامِ المَوْلُودِ

**ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، (توفي: ٧٥١هـ)**

**مسؤولية الوالدين عن الأبناء من الولادة حتىٰ التكليف:**

أما بعد فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوّع أحكامه علىٰ الإنسان من حين خروجه إلىٰ هذه الدار إلىٰ حين يستقر في دار القرار. وقبل ذلك وهو في الظلمات الثلاث كانت أحكامه القدرية جارية عليه ومنتهية إليه، فلما انفصل عن أمِّه تعلقت به أحكامه الأمْرِيَّة، وكان المخاطب بها الأبَوَيْن أو من يقوم مقامهما في تربيته والقيام عليه، فلله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه أحكامٌ أمَرَ قَيِّمَهُ بِها ما دام تحت كفالته، فهو المطالب بها دونه، حتىٰ إذا بلغ حدَّ التكليف تعلقت به الأحكام وجرت عليه الأقلام. (ص ٥)

**أخلاق أكثر الناس منحرفة بسبب سوء التربية:**

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خُلُقه، فإنَّه ينشأ علىٰ ما عوَّده الـمُرَبـي في صغره؛ من حَرَدٍ وغضب، ولجاجٍ وعَجَلَةٍ، وخفة مع هَوَاه، وطَيْش وحِدَّة، وجشع، فيصعب عليه في كِبَرِه تلافي ذلك. وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخةً له، فلو تحرَّز منها غاية التحرُّز فضحتْه -ولا بد- يوماً ما. ولهذا تجد أكثر الناس منحرفةً أخلاقُهم، وذلك من قِبَل التربية التي نشأ عليها. (ص ٣٤٩)

الفصل الرابع عشر:

# كتاب "تحفة المودود بأحكام المولود" لابن قيم الجوزية

## أولاً: التعريف بـ"ابن قيم الجوزية"

هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الحنبلي، الشهير بابن قيم الجوزية، وقيم الجوزية هو والده الذي كان قيِّما في المدرسة الجوزية بدمشق.

ولد عام ٦٩١هـ في زُرع (أزرع الحالية وهي بلدة في حوران السورية) أو في دمشق. أخذ العلم عن والده، وعن شيخ الحنابلة في عصره المجد الحراني، وعن الحافظ الذهبي، والحاكم المقدسي، وأيوب النابلسي الكحال، وبنت الجوهر المحدثة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم.

وتتلمذ عليه ابنه البرهان بن قيم الجوزية، والإمام الحافظ ابن كثير، والإمام ابن رجب، والسبكي، وابن قدامة المقدسي، والفيروزآبادي صاحب القاموس، وغيرهم.

عمل في الإمامة في المدرسة الجوزية، والتدريس في عدد من المدارس ومنها الصدرية، وجلس للفتوى وتفرغ للتأليف. امتحن بسبب مواقفه العلمية، عرف بأنه تلميذ ابن تيمية في المذهب والاجتهاد والجرأة. لكنه أقل منه حدَّة. وسجن معه في قلعة دمشق دون أنْ يسمح لهما باللقاء، ولم يخرج من السجن إلا بعد وفاة ابن تيمية.

ارتحل إلى بلاد عديدة، وحجَّ أكثر من مرَّة، واكتسب ثقافة موسوعية، فهو فقيه ومحدث، وعالم بالتاريخ، وبكتب اليهود والنصارى، وبالعبرية والسريانية والفارسية. حارب التقليد واعتمد على الدليل، وانتقد منهج الأقيسة العقلية عند الفلاسفة، وأنكر بدع الصوفية وأقوالهم بالحلول ووحدة الوجود.

ألف كثيراً من الكتب طبع منها ما يزيد على ثلاثين كتاباً منها: زاد المعاد، ومدارج السالكين، ومفتاح دار السعادة، وإعلام الموقعين، والصواعق المرسلة، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، وتحفة المودود بأحكام المولود.

توفي عام ٧٥١هـ وعمره ستون سنة.

## ثانياً: التعريف بـ"تحفة المودود بأحكام المولود"[١]

تضمن هذا الكتاب كثيراً من الأحكام التي تتصل بالمولود من زواج أبيه وأمه، وحمله ورضاعه، ونشأته، وما يلزم والديه في تربيته وتنشئته، ومراحل حياته، من شباب وشيخوخة وهرم، ثم وفاته، ودخوله في حياة البرزج، وأخيراً مستقره في الجنة أو النار. وقد جمع في ذلك ما ورد من القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العلماء والأطباء، بما فيهم جالينوس وأبقراط، وأتى بالآراء المختلفة وحاول التوفيق أو الترجيح بينها.

والكتاب موجه إلى من وهبه الله شيئاً من الأولاد، مقدماً له من الفوائد التي تشتد الحاجة إليها في المعاش والمعاد. وقيل في سبب تأليف ابن القيم لهذا الكتاب أنَّ ولده برهان الدين رزقه الله مولوداً، فأراد أنْ يقدم لولده هدية بهذه المناسبة، فلم يجد عنده من متاع الدنيا شيئاً، فألف هذا الكتاب وأهداه إيّاه.

ويتكون الكتاب من سبعة عشر باباً أوردنا عناوينها لاحقاً، مرتبة حسب مراحل عمر الطفل، وفي كل منها عدد من الفصول والفوائد. وتطرق في بعضها إلى تفاصيل دقيقة عن مسائل الحمل وتطور نمو الجنين، وما يرافق ذلك من تغيرات في الحامل، وجنينها، ثم في مراحل نشأة الإنسان مما يدخل في علم الطب، وعلم نفس النمو. مما تشتد الحاجة إلى معرفة الأبوين به، ويكوِّن برنامجاً لما يمكن تسميته بالتربية الوالدية.

ويقع الكتاب التي أخذت منه المختارات اللاحقة، في (٥٨٨) صفحة مع التحقيق والهوامش والفهارس، أما مادة النص المجرد فجاءت في حوالي خمسين ألف كلمة وهو ما يقارب (١٩٠) صفحة. ويصنف الكتاب في المدرسة الطبية، لكن منحاه في بيان الأحكام الشرعية هو المنحى الفقهي الحنبلي.

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي. **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، جدة ومكة المكرمة: مجمع الفقه الإسلامي ودار عالم الفوائد، (د. ت.)، وعدد صفحاته (٥٨٨) مع التحقيق والهوامش والفهارس.

## ثالثاً: مختارات من "تحفة المودود بأحكام المولود"

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. الحمد لله العلي العظيم الحليم الكريم الغفور الرحيم. الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين أظهر خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة سوداء للناظرين، ثم خلق العلقة مضغة وهي قطعة لحم بقدر أكلة الماضغين، ثم خلق المضغة عظاماً مختلفة المقادير والأشكال والمنافع أساساً يقوم عليه هذا البناء المبين، ثم كسا العظام لحماً هو لها كالثوب للابسين، ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين...

وأشهد أنْ لا اله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً جلَّ عن المثيل والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدس عن شبه خلقه، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه وحجته على عباده، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين.[1]...

أما بعد فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نوّع أحكامه على الإنسان من حين خروجه إلى هذه الدار إلى حين يستقر في دار القرار وقبل ذلك وهو في الظلمات الثلاث كانت أحكامه القدرية جارية عليه ومنتهية إليه، فلما انفصل عن أمه تعلقت به أحكامه الأمرية وكان المخاطب بها الأبوين أو من يقوم مقامهما في تربيته والقيام عليه، فلله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيه أحكامٌ أمَرَ قيِّمَه بها ما دام تحت كفالته، فهو المطالب بها دونه، حتى إذا بلغ حد التكليف تعلقت به الأحكام وجرت عليه الأقلام.[2]...

### فصل

وهذا كتاب قصدنا فيه ذكر أحكام المولود المتعلقة به بعد ولادته ما دام صغيراً من عقيقته وأحكامها، وحلق رأسه وتسميته، وختانه وبوله، وثقب أذنه، وأحكام

---

(١) المرجع السابق ص٣-٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥.

تربيته وأطواره من حين كونه نطفة إلى مستقره في الجنة أو النار، فجاء كتاباً نافعاً في معناه، مشتملاً من الفوائد على ما لا يكاد يوجد في سواه من نكت بديعة من التفسير وأحاديث تدعو الحاجة إلى معرفتها وعللها، والجمع بين مختلفها ومسائل فقهية لا يكاد الطالب يظفر بها، وفوائد حكمية تشتد الحاجة إلى العلم بها.[1]

فهو كتاب ممتع لقارئه معجب للناظر فيه يصلح للمعاش والمعاد، ويحتاج إلى مضمونه كل من وهب له شيء من الأولاد... وسميته "**تحفة المودود بأحكام المولود**"، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المسؤول أنْ يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه حسبنا ونعم الوكيل. وجعلته سبعة عشر باباً:

١- الباب الأول في استحباب طلب الأولاد.

٢- الباب الثاني في كراهة تسخط من وهب الله له من البنات.

٣- الباب الثالث في استحباب بشارة من وُلِدَ له ولدٌ وتهنئته.

٤- الباب الرابع في استحباب الأذان والإقامة في أذنه.

٥- الباب الخامس في استحباب تحنيكه.

٦- الباب السادس في العقيقة وأحكامها، والاختلاف في وجوبها، وحجة التابعين.

٧- الباب السابع في حلق رأسه والتصدق بزنة شعره.

٨- الباب الثامن في ذكر تسميته ووقتها وأحكامها.

٩- الباب التاسع في ختان المولود وأحكامه.

١٠- الباب العاشر في ثقب أذن الذكر والأنثى وحكمه.

١١- الباب الحادي عشر في حكم بول الغلام والجارية قبل أكلهما الطعام.

١٢- الباب الثاني عشر في حكم ريق الرضيع ولعابه، وهل هو طاهر أو نجس؟

---

(١) المرجع السابق، ص٦-٧.

لأنه لا يغسل فمه مع كثرة قيئه.

١٣- الباب الثالث عشر في جواز حمل الأطفال في الصلاة وإن لم يعلم حال ثيابهم.

١٤- الباب الرابع عشر في استحباب تقبيل الأطفال والأهل.

١٥- الباب الخامس عشر في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم.

١٦- الباب السادس عشر في ذكر فصول نافعة في تربية الأطفال.

١٧- الباب السابع عشر في أطوار الطفل من حين كونه نطفة إلى وقت دخوله الجنة أو النار.[١]

## الباب الأول

## في استحباب طلب الولد

قال الله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] فروى شعبة عن الحكم عن مجاهد قال: هو الولد. وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك. وأرفع ما فيه: ما رواه محمد بن سعد عن أبيه، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: هو الولد. وقال ابن زيد: هو الجماع. وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.[٢]...

وعن أنسٍ قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة، وينهى عن التبتل نهياً شديداً، ويقول: تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة رواه الإمام أحمد وأبو حاتم في صحيحه...

وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إن العبد لترفع له الدرجة، فيقول: أي رب أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك من بعدك."[٣]

---

(١) المرجع السابق،ص٧-٨.

(٢) المرجع السابق، ص٩.

(٣) المرجع السابق، ص١١-١٣.

ومما يرغب في الولد ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي حسان قال: توفي ابنان لي فقلت لأبي هريرة: سمعتَ من رسول الله ﷺ حديثاً تحدثناه تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، "صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال: أبويه فيأخذ بناحية ثوبه أو يده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يفارقه حتى يدخله الله وأباه الجنة"...

وفي صحيح البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: أتت النبيَّ ﷺ امرأة بصبي لها فقالت: يا نبيَّ الله، أدع الله له فلقد دفنت ثلاثة. فقال: "دفنت ثلاثة؟". قالت: نعم. قال: "لقد احتظرتِ بحظارٍ شديد من النار، فالولد إنه إنْ عاش بعد أبويه نفعهما، وإنْ مات قبلهما نفعهما."

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."[1]

## الباب الثاني

## في كراهة تسخط البنات

قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى ٤٩-٥٠].

فقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الزوجين إلى أربعة أقسام، اشتمل عليها الوجود، وأخبر أنَّ ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه. وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أنْ يتسخط ما وهبه، وبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذكر الإناث فقيل: جبراً لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهن. وقيل وهو أحسن: إنَّما قدمهن؛ لأَنَّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أخبر أنه يخلق ما

(١) المرجع السابق، ص١٣-١٧.

يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر، وهو أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدَّم ما كانت تؤخِّره الجاهلية من أمر البنات حتىٰ كانوا يئدوهن؛ أي هذا النوع المؤخر عندكم مقدم عندي في الذكر. وتأمل كيف نكَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإناث وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الصنفين معاً قدّم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير. والله أعلم بما أراد من ذلك.

والمقصود أنَّ التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمَّهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ٥٩].[1]...

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن جريج، حدثني أبو الزبير، عن عمر بن نبهان، عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "من كان له ثلاث بنات فصبر علىٰ لأوائهن وعلىٰ ضرائهن دخل الجنة." وفي رواية فقال رجل: يا رسول الله، واثنتين؟ قال: "واثنتين." قال: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: "وواحدة."[2]

## الباب الثالث

## في استحباب بشارة من وُلِدَ له ولد وتهنئته

قال الله تعالىٰ في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [هود: ٦٩] وقال تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. وقال في الذاريات: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]... وقال تعالىٰ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]...

ولما كانت البشارة تسرُّ العبد وتفرحه، استُحِبَّ للمسلم أنْ يبادر إلىٰ مسَرَّة أخيه، وإعلامه بما يفرحه... فإن فاتتْه البشارة استُحب له تهنئته. والفرق بينهما: أنَّ البشارة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤-٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

إعلامٌ له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أنْ علم به.[1]

ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير فبشَّره فلما دخل المسجد جاء الناس فهنؤوه، وكانت الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنّكاح: بالرفاء والبنين والرفاء الالتحام والاتفاق؛ أي تزوجت زواجاً يحصل به الاتفاق والالتحام بينكما والبنون فيهنؤون بالبنين سلفاً وتعجيلاً، ولا ينبغي للرجل أنْ يهنئ بالابن ولا يهنىء بالبنت، بل يهنىء بهما أو يترك التهنئة ليتخلص من سنة الجاهلية، فإن كثيراً منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها. وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط: روينا عن الحسن البصري أنَّ رجلاً جاء إليه وعنده رجلٌ قد وُلِدَ له غلام فقال له: يهنك الفارس، فقال له الحسن: ما يدريك فارسٌ هو أو حمار؟ قال: فكيف نقول؟ قال: قل بُورك لك في الموهوب وشكرت الواهب، وبلغ رشده ورزقت بره والله اعلم.[2]

## الباب الرابع

## في استحباب التأذين في أذنه اليمنىٰ والإقامة في أذنه اليسرىٰ

وفي هذا الباب أحاديث: أحدها:... عن أبي رافع قال: رأيت رسولَ الله ﷺ أذَّنَ في أُذُنِ الحسن بن عليٍّ حين ولدته فاطمة. رواه أبو داود والترمذي. وقال: حديث صحيح.

الثاني ما رواه البيهقي في الشعب من حديث الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال: "من وُلِدَ له مولودٌ فأذن في أذنه اليمنىٰ، وأقام في أذنه اليسرىٰ رُفعت عنه أم الصبيان"...

وسر التأذين -والله أعلم- أنْ يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام. فكان ذلك كالتلقين له شعارَ الإسلام عند دخوله إلىٰ الدنيا، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها. وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلىٰ قلبه، وتأثره به وإن لم يشعر مع ما في ذلك من فائدة أخرىٰ وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتىٰ يولد فيقارنه -للمحنة التي قدرها الله وشاءها- فيُسمِع شيطانَه ما يضعفُه ويغيظُه أول

(١) المرجع السابق، ص٣٢-٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.

أوقات تعلقه به.[1]

## الباب الخامس

## في استحباب تحنيكه

وفي الصحيحين من حديث أبي بردة، عن أبي موسىٰ، قال: وُلِدَ لي غلام، فأتيت به إلىٰ النبي ﷺ فسماه إبراهيم وحنَّكه بتمرة. زاد البخاري: ودعا له بالبركة، ودفعه إليَّ وكان أكبر ولد أبي موسىٰ.[2]...

## الباب السادس

## في العقيقة وأحكامها وفيه اثنان وعشرون فصلا

### الفصل الأول: في بيان مشروعيتها

قال مالك: هذا الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا. وقال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري: أدركت الناسَ وما يدعون العقيقة عن الغلام والجارية. وقال ابن المنذر: وذلك أمرٌ معمولٌ به بالحجاز قديماً وحديثاً، ويستعمله العلماء...

وبه قال مالك وأهل المدينة والشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وجماعة يكثرُ عددُهم من أهل العلم متبعين في ذلك سنةَ رسولِ الله ﷺ، وإذا ثبتت السنة وجب القولُ بها ولم يضُرَّها من عَدَل عنها. قال: وأنكر أصحاب الرأي أنْ تكون العقيقةُ سنةً وخالفوا في ذلك الأخبار الكائنة عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه وعمن روي عنه ذلك من التابعين. انتهىٰ.[3]

### الفصل الثاني: في ذكر حجج من كرهها

قالوا: روىٰ عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن العقيقة فقال: "لا أحب العقوق." قالوا: ولأنَّها من فعل أهل الكتاب كما قال النبي ﷺ: "إن اليهود تعُقُّ عن الغلام ولا تعق عن الجارية." ذكره البيهقي. قالوا: وهي من

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦-٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥-٤٦.

الذبائح التي كانت الجاهلية تفعلها فأبطلها الإسلام.[1]...

**الفصل الثالث: في أدلة الاستحباب**

فأما أهل الحديث قاطبة وفقهاؤهم وجمهور أهل العلم، فقالوا: هي من سنة رسول الله ﷺ، واحتجوا على ذلك بما رواه البخاري في صحيحه عن سلمان بن عامر الضبي قال: قال رسول الله ﷺ: "مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الأذى." وعن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه، ويُسمى فيه، ويُحلق رأسه." رواه أهل السنن كلهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة." رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: حديث صحيح. وفي لفظ: "أمرنا رسول الله ﷺ أنْ نعق عن الجارية شاة، وعن الغلام شاتين." رواه الإمام أحمد في مسنده. وعن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال: "عن الغلام شاتان وعن الأنثى واحدة، ولا يضركم ذكراناً كن أو إناثاً." رواه أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.[2]...

**الفصل التاسع: في بيان أنَّ العقيقة أفضل من التصدق بثمنها ولو زاد**

قال الخلال: باب ما يُستحب من العقيقة وفضلها على الصدقة: أخبرنا سليمان بن الأشعث قال: سئل أبو عبد الله، وأنا أسمع، عن العقيقة أحب إليك أو يدفع ثمنها للمساكين؟ قال: العقيقة. وقال في رواية الحارث، وقد سئل عن العقيقة: إنْ استقرض رجوت أنْ يخلف الله عليه أحيا سنة، وقال له صالح ابنه: الرجل يُولد له وليس عنده ما يعق أحب إليك أنْ يستقرض ويعق عنه أم يؤخر ذلك حتى يوسر؟ قال: أشد ما سمعنا في العقيقة حديث الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ: "كل غلام رهينة بعقيقته،" وإني لأرجو إنْ استقرض أنْ يعجل الله الخلف؛ لأنه أحيا سنة من سنن رسول الله ﷺ، واتبع ما جاء عنه. انتهى.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩-٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص٩٠.

**الفصل الثاني عشر: في استحباب طبخها دون إخراج لحمها نيئاً**

قال الخلال في جامعه: باب ما يستحب من ذبح العقيقة. أخبرني عبد الملك الميموني أنه قال لأبي عبد الله: العقيقة تطبخ؟ قال نعم. وأخبرني محمد بن علي قال: حدثنا الأثرم أنَّ أبا عبد الله قال في العقيقة: تطبخ جُدُولاً[1]...

وهذا لأنه إذا طبخها فقد كفى المساكين والجيران مؤنة الطبخ، وهو زيادة في الإحسان وشكر هذه النعمة، ويتمتع الجيران والأولاد والمساكين بها هنيئة مكفية المؤنة، فإن من أهدي له لحم مطبوخ مهيأ للأكل مطيب كان فرحه وسروره به أتم من فرحه بلحم نيء يحتاج إلى كلفة وتعب، فلهذا قال الإمام أحمد: يتحملون ذلك.

وأيضاً فإن الأطعمة المعتادة التي تجري مجرى الشكران كلها سبيلها الطبخ، ولها أسماء متعددة: فالقرى طعام الضيفان، والمأدبة طعام الدعوة، والتحفة طعام الزائر، والوليمة طعام العرس، والخرس طعام الولادة، والعقيقة الذبح عنه يوم حلق رأسه في السابع، والغديرة طعام الختان، والوضيمة طعام المأتم، والنقيعة طعام القادم من سفره، والوكيرة طعام الفراغ من البناء. فكان الإطعام عند هذه الأشياء أحسن من تفريق اللحم.[2]...

**الفصل السابع عشر: في بيان مصرفها**

قال الخَلَّال في جامعه في باب ذكر ما يتصدق به من العقيقة ويهدي: أخبرنا عبد الله بن أحمد أنَّ أباه قال: العقيقة تُؤكل ويُهدى منها. أخبرنا عِصْمَةُ بن عصام حدثنا حنبل قال: سمعت أبا عبد الله يسأل عن العقيقة كيف يصنع بها؟ قال: كيف شئت. قال: وكان ابن سيرين يقول: اصنع ما شئت قيل له يأكلها أهلها قال: نعم، ولا تؤكل كلها، ولكن يأكل ويطعم. وكذلك قال في رواية الأثرم. وقال في رواية أبي الحارث، وصالح ابنه: يأكل، ويطعم جيرانه. وقال له ابنه عبد الله: كم يقسم من العقيقة؟ قال: ما أحب. وقال الميموني: سألت أبا عبد الله: أيؤكل من العقيقة؟ قال: نعم، يؤكل منها.

---

(١) كل عضو موَّفر كما هو لا يكسر.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٩.

قلت: كم؟ قال: لا أدري. أما الأضاحي فحديث ابن مسعود وابن عمر. ثم قال لي: ولكن العقيقة يؤكل منها. قلت: يشبهها في أكل الأضحية؟ قال: نعم يؤكل منها. وقال الميموني: قال أبو عبد الله: يهدي ثلث الأضحية إلى الجيران. قلت: الفقراء من الجيران؟ قال: بلى فقراء الجيران. قال: تشبه العقيقه به؟ قال: نعم. من شبه به فليس ببعيد.[1]...

**الفصل التاسع عشر: في حكم من لم يعق عنه أبواه هل يعق عن نفسه إذا بلغ**

قال الخلال: باب ما يستحب لمن لم يُعَقَّ عنه صغيراً أنْ يَعُقَّ عن نفسه كبيراً. ثم ذكر من مسائل إسماعيل بن سعيد الشالنجي قال: سألت أحمد عن الرجل يخبره والده أنه لم يُعَقَّ عنه هل يَعُقُّ عن نفسه؟ قال: ذلك على الأب...

قال: وأخبرني عبد الملك في موضع آخر أنه قال لأبي عبد الله: فيعق عنه كبيراً؟ قال: لم أسمع في الكبير شيئاً. قلت: أبوه كان معسراً، ثم أيسر فأراد أنْ لا يدع ابنه حتى يعق عنه قال: لا أدري ولم أسمع في الكبير شيئاً، ثم قال: ومن فعله فحسن، ومن الناس من يوجبه.[2]...

## الباب السابع

## في حلق رأسه والتصدق بوزن شعره

قال أبو عمر بن عبد البر: أما حلق رأس الصبي عند العقيقة، فإن العلماء كانوا يستحبون ذلك. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في حديث العقيقة: "ويحلق رأسه ويسمى." وقال الخلال في الجامع: ذكر رأس الصبي والصدقة بوزن شعره: أخبرني محمد ابن علي، حدثنا صالح أنَّ أباه قال: يستحب أنْ يحلق يوم سابعه. وروى الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ: "يحلق رأسه." وروى سلمان بن عامر عن النبي ﷺ: "أميطوا عنه الأذى." قال: وسُئل الحسن عن قوله: "أميطوا عنه الأذى،" قال: "يحلق رأسه."[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٢-١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٣.

وفي الموطأ أيضاً عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن محمد بن علي بن الحسين أنه قال: وزنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ شعر حسن وحسين فتصدقت بزنته فضة.[1]...

## الباب الثامن

## في ذكر تسميته وأحكامها ووقتها

وفيه عشرة فصول:

١- الفصل الأول في وقت التسمية.

٢- الفصل الثاني فيما يستحب من الأسماء وما يحرم منها وما يكره.

٣- الفصل الثالث في استحباب تغير الاسم إلى غيره لمصلحة.

٤- الفصل الرابع في جواز تكنية المولود بأبي فلان.

٥- الفصل الخامس في أنَّ التسمية حق للأب دون الأم.

٦- الفصل السادس في الفرق بين الاسم والكنية واللقب.

٧- الفصل السابع في حكم التسمية باسم نبينا والتكني بكنيته إفراداً وجمعاً، وذكر الأحاديث في ذلك.

٨- الفصل الثامن في جواز التسمية بأكثر من اسم واحد.

٩- الفصل التاسع في بيان ارتباط معنى الاسم بالمسمى والمناسبة التي بينهما.

١٠- الفصل العاشر في بيان أنَّ الخلق يدعون يوم القيامة بآبائهم لا بأمهاتهم.[2]

## الباب التاسع

## في ختان المولود وأحكامه

وفيه أربعة عشر فصلاً:

١- الفصل الأول في معنى الختان، واشتقاقه ومسماه.

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

٢-الفصل الثاني في ختان إبراهيم الخليل، والأنبياء من بعده.

٣- الفصل الثالث في مشروعيته، وأنه من أصل الفطرة.

٤- الفصل الرابع في اختلاف أهل العلم في وجوبه.

٥- الفصل الخامس في وقت الوجوب.

٦- الفصل السادس في اختلافهم في الختان في السابع من الولادة هل هو مكروه أم لا؟ وحجة الفريقين؟

٧- الفصل السابع في بيان حكمة الختان، وفوائده.

٨- الفصل الثامن في بيان القدر الذي يؤخذ في الختان.

٩- الفصل التاسع في أنَّ حكمه يِعُمُّ الذكر والأنثى.

١٠- الفصل العاشر في حكم جناية الخاتن، وسراية الجناية.

١١- الفصل الحادي عشر في أحكام الأقلف في طهارته وصلاته وإمامته وذبيحته وشهادته.

١٢- الفصل الثاني عشر في المسقطات لوجوبه.

١٣- الفصل الثالث عشر في ختان نبينا محمد ﷺ، والاختلاف فيه؛ هل ولد مختوناً أو خُتن بعد الولادة، ومتى خُتن؟

١٤- الفصل الرابع عشر في الحِكَم التي لأجلها يبعث الناس يوم القيامة غُرلاً غير مختونين.[1]

**الفصل السابع: في بيان حكمة الختان وفوائده**

الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، ويجمّل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل للفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية

(١) المرجع السابق، ص٢١٧-٢١٨.

ملة إبراهيم.

وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما عاهد إبراهيم وعده أنْ يجعله للناس إماماً، ووعده أنْ يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن يكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامةَ العهد أنْ يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم، فالختان علَمٌ للدخول في ملة إبراهيم.[1]...

وقد ذكر في حكمة خفض النساء: أنَّ سارة لما وهبت هاجر لإبراهيم أصابها، فحملت منه، فغارت سارة، فحلفت لتقطعنّ منها ثلاثة أعضاء، فخاف إبراهيم أنْ تجدع أنفها وتقطع أذُنيها، فأمرها بثقب أذنيها وختانها، وصار ذلك سنة في النساء بَعْدُ. ولا ينكر هذا كما كان مبدأ السعي، سعيَ هاجر بين جبلين، تبتغي لابنها القوت، وكما كان مبدأ رمي الجمار حصبَ إسماعيل للشيطان لما ذهب مع أبيه، فشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعباده تذكرة وإحياءً لسنة خليله، وإقامة لذكره، وإعظاماً لعبوديته، والله أعلم.[2]

**الفصل الثامن: في بيان القدر الذي يؤخذ في الختان**

قال أبو البركات في كتابه الغاية: ويؤخذ في ختان الرجل جلدة الحشفة، وإن اقتصر على أخذ أكثرها جاز، ويستحب لخافضة الجارية أنْ لا تحيف، نصّ عليه. وحكي عن عمر أنه قال للخاتنة: أبقي منه شيئاً إذا خفضْتِ.[3]...

وقال الجويني في نهايته: المستحق في الرجال قطع القلفة، وهي الجلدة التي تغشى الحشفة، والغرض أنْ تبرز...وقال الجويني: المقدار المستحق في النساء ما ينطلق عليه الاسم.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧٧.

(٤) المرجع السابق، ص٢٧٨-٢٧٩.

**الفصل التاسع: في أنَّ حكمه يعم الذكر والأنثى**

قلت: لا خلاف في استحبابه للأنثى، واختلف في وجوبه، وعن أحمد في ذلك روايتان، إحداهما: يجب على الرجال والنساء، والثانية يختص وجوبه بالذكور. وحجة هذه الرواية حديث شداد بن أوس: الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء، ففرق فيه بين الذكور والإناث.[1]

## الباب العاشر

## في حكم ثقب أذن الصبي والبنت

أما أذن البنت فيجوز ثقبها للزينة نص عليه الإمام أحمد، ونص على كراهته في حق الصبي. والفرق بينهما أنَّ الأنثى محتاجة للحلية؛ فثقب الأذن مصلحة في حقها، بخلاف الصبي...

وفي الصحيحين لما حرَّض النبيُّ ﷺ النساءَ على الصدقة جعلت المرأة تُلْقِي خُرْصَها، الحديث. والخرص هو الحلْقة الموضوعة في الأذن. ويكفي في جوازه علْمُ الله ورسوله بفعل الناس له وإقرارهم على ذلك، فلو كان مما يُنهى عنه لنهى القرآن أو السنة.[2]

## الباب الحادي عشر

## في حكم بول الغلام والجارية قبل أنْ يأكلا الطعام

ثبت في الصحيحين والسنن والمسانيد عن أم قيس بنت محصن أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ، فبال على ثوبه فدعا بماء فنضحه عليه، ولم يغسله.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "بول الغلام الرضيع ينضح، وبول الجارية يغسل." قال قتادة هذا ما لم يطعما، فإذا طعما غسلا جميعاً. رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم، وقال: هو على شرط الشيخين.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أُتي رسول الله ﷺ بصبي يحنكه، فبال عليه، فأتبعه

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠٨-٣٠٩.

الماء. رواه البخاري ومسلم. وزاد مسلم: ولم يغسله.[1]

## الباب الثاني عشر

## في حكم ريقه ولعابه

هذه المسألة مما تعم به البلوى، وقد علم الشارع أنَّ الطفل يقيء كثيراً ولا يمكن غسل فمه، ولا يزال ريقه ولعابه يسيل على من يربيه، ويحمله ولم يأمر الشارع بغسل الثياب من ذلك، ولا منع من الصلاة فيها، ولا أمر بالتحرز من ريق الطفل، فقالت طائفة من الفقهاء: هذا من النجاسة التي يُعفى عنها للمشقة والحاجة، كطين الشوارع.[2]

## الباب الثالث عشر

## في جواز حمل الأطفال في الصلاة

ثبت في الصحيحين عن أبي قتادة أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي لأبي العاص بن الربيع، فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها. ولمسلم: حملها على عُنُقِه.[3]

## الباب الرابع عشر

## في استحباب تقبيل الأطفال

في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسنَ بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلت أحداً منهم، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقال: "من لا يرحم لا يرحم."

وفي الصحيحين أيضا من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: تقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: والله لكنا ما نقبل.

---

(١) المرجع السابق، ص٣١٣-٣١٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢١.

(٣) المرجع السابق، ص٣٢٤.

فقال: "أو أملك أنْ كان الله نزع من قلوبكم الرحمة."

وفي المسند من حديث أم سلمة قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً؛ إذ قالت الخادم: إنَّ فاطمة وعلياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالسُّدَّة قالت: فقال لي: قومي فتنحي عن أهل بيتي، قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهم الحسن والحسين، وهما صبيّان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدىٰ يديه، وفاطمة باليد الأخرىٰ، فقبَّل فاطمة، وقبَّل علياً، وأغدف (أي أسبل) عليهما خميصة سوداء، وقال: اللهم إليك لا إلىٰ النار أنا وأهل بيتي، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله، فقال: وأنت. وفي طريق أخرىٰ نحوه، وقال: إنك إلىٰ خير.[1]

## الباب الخامس عشر

## في وجوب تأديب الأولاد، وتعليمهم، والعدل بينهم

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علِّموهم وأدِّبوهم. وقال الحسن: مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير. وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع،" ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع.[2]...

وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك، فإنك مسؤول عنه ماذا أدبته؟ وماذا علّمته؟ وهو مسؤول عن برّك وطواعيته لك.[3]...

فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدىٰ، فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قبل الآباء، وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً كما عاتب

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٨-٣٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣١.

بعضهم ولده على العقوق فقال: يا أبت إنك عققتني صغيرا فعققتك كبيراً، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً.[1]

## الباب السادس عشر

## في فصول نافعة في تربية الأطفال تُحْمَد عواقبها عند الكِبَر

ينبغي أنْ يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة، وهو الأجود؛ لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط، بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع. وكل العرب تعتني بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادي، كما استُرضع النبي في بني سعد.

وينبغي أنْ يمنع حملهم والطواف بهم حتى يأتي عليهم ثلاثة أشهر فصاعداً، لقرب عهدهم ببطون الأمهات وضعف أبدانهم.[2]

وينبغي أنْ يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم، لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام، فإذا نبتت أسنانه قويت معدته وتغذى بالطعام. فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخر إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام، لحكمته ولطفه ورحمة منه بالأم، وحلمة ثديها فلا يعضه الولد بأسنانه.[3]...

ولا ينبغي أنْ يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه، ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع، فإنَّه ينتفع بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً، فإنَّه يروّض أعضاءه، ويوسّع أمعاءه، ويفسح صدره، ويسخن دماغه، ويحمي مزاجه، ويثير حرارته الغريزية ويحرك الطبيعة؛ لدفع ما فيها من الفضول ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره.[4]...

وينبغي أنْ يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة والحركات المزعجة، فإن ذلك ربـمَّا أدى إلى فساد قوته العاقلة؛ لضعفها فلا

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤٠.

ينتفع بها بعد كبره، فإذا عرض له عارض من ذلك فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده وإيناسه بما ينسيه إياه، وأن يلقم ثديه في الحال ويسارع إلى رضاعه، ليزول عنه ذلك المزعج له، ولا يرتسم في قوته الحافظة فيعسر زواله، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أنْ ينام، فينسى ذلك ولا يهمل هذا الأمر، فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه فينشأ على ذلك ويعسر زواله ويتعذر.[1]...

ومن سوء التدبير للأطفال أنْ يمكنوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب، ومن أنفع التدبير لهم أنْ يعطوا دون شبعهم؛ ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم وتقل الفضول في أبدانهم، وتصح أجسادهم، وتقل أمراضهم؛ لقلة الفضلات في المواد الغذائية.[2]...

وقال جالينوس: ولست أمنع هؤلاء الصبيان من شرب الماء البارد أصلاً. لكني أطلق لهم شربة تعقب الطعام في أكثر الأمر، وفي الأوقات الحارة في زمن الصيف إذا تاقت أنفسهم إليه. قلت: وهذا لقوة وجود الحار الغريزي فيهم ولا يضرهم شرب الماء البارد في هذه الأوقات، ولا سيما عقيب الطعام، فإنَّه يتعين تمكينهم منه بقدر؛ لضعفهم عن احتمال العطش باستيلاء الحرارة.[3]...

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خُلُقه، فإنَّه ينشأ على ما عوده المربي في صغره؛ من حرد وغضب، ولجاج وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش وحِدَّة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك. وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته -ولا بد- يوماً ما. ولهذا تجد أكثر الناس منحرفةً أخلاقهم، وذلك من قِبَل التربية التي نشأ عليها.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤٩.

ولذلك يجب أنْ يُجَنَّب الصبي إذا عقل: مجالسَ اللهو والباطل، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء؛ فإنَّه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استِجْدَاد طبيعة ثانية. والخروجُ عن حكم الطبيعة عَسِرُ جداً.

وينبغي لوليه أنْ يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب؛ فإنَّه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي. ويعوِّدُه البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أنْ يعطي شيئاً أعطاه إياه على يده، ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع؛ فإنَّه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يُجِمُّ نفْسَه وبدنه للشغل، فإن للكسل والبطالة عواقب سوء، ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا، وإما في العقبى، وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب. قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم.[1]

ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنَّه وقت قسم الغنائم، وتفريق الجوائز، فمستقلٌّ ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً.

ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام، ومخالطة الآثام، فإن الخسارة في هذه الفضلات وهي تفوّت على العبد خير دنياه وآخرته.

ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاحه، وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهواته. ويزعم أنه يُكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه

(١) المرجع السابق، ص٣٤٩-٣٥٠.

في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قِبَل الآباء.[1]...

ومما ينبغي أنْ يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال، ومهيأ له منها فيعلم، أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً. فإنَّه إنْ حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفَاتَه ما هو مهيأ له. فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنَّه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له مكّنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنَّه أنفع له وللمسلمين. وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعداً لها، قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها.

هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسّر على كل أحد، لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجةَ البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة. والله أعلم.[2]

## الباب السابع عشر

## في أطوار ابن آدم من وقت كونه نطفة إلى استقراره في الجنة أو النار

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون ١٢ - ١٦].

فاستوعب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة، بل تراباً وماء إلى حين بعثه يوم القيامة. فأول مراتب خلقه؛ أنه سلالةٌ من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن فتمكث كذلك أربعين يوماً. ثم يقلب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تلك النطفة علقة، وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين

(١) المرجع السابق، ص٣٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٣-٣٥٤.

يوماً أخرىٰ. ثم يصيّرها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مضغةً، وهي قطعة لحم، أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته.[1]...

قال بقراط في المقالة الثالثة من كتاب الأجنة: أنَا أحدِّثُك كيف رأيتُ المني ينشأ. كانت لامرأة من الأهل جارية نفيسة، ولم تكن تحب أنْ تحبل لئلا ينقص ثمنها، فسمعت الجارية النساء يقلن: إنَّ المرأة إذا أرادت أنْ تحمل لم يخرج منها مني الرجل، بل يبقىٰ محتبساً، ففهمت ذلك، وجعلت ترصده من نفسها فأحسَّت في بعض الأوقات أنه لم يخرج منها، فبلغني الخبر، فأمرتها أنْ تطفر إلىٰ خلفها، فطفرت سبع طفرات، فسقط منها المني بوجبة شبيهاً بالبيضة غير مطبوخة، قد قشر عنها القشر الخارج، وبقيت رطوبتها في جوف الغشاء.

قال: وأنا أقول أيضاً: إنه يجري من الأم فضول الرحم ليتغذىٰ بها الجنين. وقال: إنَّ الذي تظهر هي الأعصاب الدقاق البيض، وهي التي رأيت في وسط السرة، وليست في موضع آخر غير السرة؛ لأنَّ الروح إنَّما يشق طريقاً للنفس هناك.[2]...

وإذا نزل الدم واغتذىٰ الجنين منه حالت الحجب بينه وبين الجنين، ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصّه، فذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلىٰ حال، وذكر ظلمات الحجب التي علىٰ الجنين، فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فإن كل واحد من هذه حجاب علىٰ الجنين.[3]...

وقال بقراط: إنَّ المرأة إذا حبلت لم تألم من اجتماع الدم الذي ينزل ويجتمع حول رحمها، ولا تحس بضعف كما تحس إذا انحدر الطمث؛ لأنها لا يثور دمها في كل شهر، لكنه ينزل إلىٰ الرحم في كل يوم قليلاً قليلاً، نزولاً ساكناً من غير وجع، فإذا أتىٰ إلىٰ الرحم اغتذىٰ منه الجنين وتنما. ثم قال: وعلىٰ غير بعيد من ذلك إذا خلق للجنين لحم

(١) المرجع السابق، ص٣٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٠.

وجسد تكون الحجب، وإذا كبر كبرت الحجب أيضاً، وصار لها تجويف خارج من الجنين، فإذا نزل الدم من الأم جذبه الجنين واغتذىٰ به فيزيد في لحمه والرديء من الدم، الذي لا يصلح للغذاء ينزل إلىٰ مجاري الحجب، وكذلك تسمىٰ الحجب التي إذا صار لها تجويف يقبل الدم: المشيمة.

وقال: إذا تم الجنين وكملت صورته واجتذب الدم لغذائه بالمقدار اتسعت الحجب وظهرت المشيمة التي تكون من الآلات التي ذكرنا، فإن اتسع داخلها اتسع خارجها؛ لأنه أولىٰ بذلك لأَنَّ له موضعاً يمتد إليه.[1]...

وقد قال بقراط في كتاب الغذاء: تصوير الجنين في خمسة وثلاثين يوماً، وحركتُه في سبعين صباحاً، وكمالُه في مائة وعشرة أيام، ويتصور أجنَّة أُخر في خمسين صباحاً، ويتحركون التحرك الأول في مائة صباح، ويكملون في ثلاثمائة، ويتصور أجنّة أُخَر في أربعين صباحاً، ويتحركون في ثمانين صباحاً، ويولدون في مائتين وأربعين صباحاً، ويتصور أجنة أخر في خمسة وأربعين صباحاً، ويتحركون في تسعين صباحاً، ويولدون في مائتين وسبعين صباحاً.قال: فأما الولادة فتكون في الشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر.[2]

قلت: الذي دلَّ عليه الوحي الصادق عن خالق البشر، أنَّ الخلق ينتقل في كل أربعين يوماً إلىٰ طور آخر، فيكون أولاً نطفة أربعين يوماً، ثم علقةً كذلك، ثم مضغةً كذلك، ثم يُنفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يوماً، فهذا كأنك تشاهده عِيَاناً، وما خالفه فليس مع المخبر به عيان، وغاية ما معه قياسٌ فاسد، وتشريح لا يحيط علما بمبدإ ما شاهده منه، أو تقليد لواحد غير معصوم، وكلّ ما جاء به مشىٰ خلفه فيه، فيعتقد فيه المعتقد أنَّ هذا أمر متَّفَقٌ عليه بين الطبائعيين. وأصلُه كلُّه واحد أخطأ فيه، ثم قلّده مَن بعده، والقوم لم يشاهدوا ما أخبروا به من ذلك.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٣-٣٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٧٤-٣٧٥.

وغاية ما معهم أنهم شرَّحوا الحاكي أحياء وأمواتاً، فوجدوا الجنين في الرحم على الصفة التي أخبروا بها، ولكن لاعلم لهم بما وراء ذلك، من مبدأِ الحمل، وتغير أحوال النطفة، فإنْ ضيَّق مقلِّدُهم الفرضَ وقال: نفرض أنهم اعتبروا بِكْرا من حيث وُطِئتْ، ثم جعلوا يعدون أيامها إلى أنْ بلغت ما ذكروه، ثم شرَّحوها فوجدوا الأمر على الصفة التي أخبروا بها، فهذا غاية الكذب والبَهْت، فإن القوم لم يدَّعوا ذلك، وكيف يمكنهم دعواه وهم يخبرون أنَّ بعد ذلك بكذا وكذا يوماً يصير شأن الحمل كذا وكذا! وإنما مع القوم كليات وأقيسة، وينبغي أنْ يكون كذا وكذا، والنظام الطبيعي يقتضي كذا وكذا.[1]

وكثيرٌ منهم يأخذ ذلك من حركات القمر وزيادته ونقصانه، ومن حركات الشمس، ومن التثليث والتربيع والتسديس، والمقابلة.

وردّ عليهم آخرون منهم، وأبطلوا ذلك عليهم من وجوه، وأحالوا به على الأخلَق والأوْلَى والأنْسب.

وأحال به آخرون على حركات الكواكب وتنقّلها، وأحال آخرون على أيام البحارين وتغير الطبيعة فيها، وردّ بعض هؤلاء على بعض، وأبطل قوله بما تركناه مخافة التطويل.

وأصح ما بأيديهم التشريح والاستقراء التام الذي لا يُخْرَم. ونحن لا ننكر ذلك، ولكن ليس فيه ما يخالف الوحي عن خلق الأجنة أبداً.[2]...

وما غاية من يناله المنكر المعرض عما جاءت به الرسل، وغاية ما نالوا به علماً بأمور طبيعية فيها الحق والباطل، وأمور رياضية كثيرة التعب، قليلة الجدوى، وأمور الهيئة باطلُها أضعاف أضعاف حقّها، فأين العلم المتلقّى من الوحي النازل إلى الظن المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عَزَّوَجَلَّ إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما معه

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٥-٣٧٦.

حدسه وتخمينه؟ ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلىٰ ما جاءت به الرسل، كنسبة سراجٍ ضعيف إلىٰ ضوء الشمس، ولا تجد ولو عمِّرت عُمر نوح مسألةً واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلّهم علىٰ خلاف ما جاءت به الرسل في أمر من الأمور البتة، فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل البتة، وإنما جاءت بما لا يدركه العقل.

فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام لا رابع لها البتة: قسم شهد به العقل والفطرة، وقسم يشهد بجملته ولا يهتدىٰ لتفصيله، وقسم ليس في العقل قوة إدراكه، وأما القسم الرابع وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه، فالرسل بريئون منه، وإن ظنّ كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة أنَّ بعض ما جاءت به الرسل يكون من هذا القسم، فهذا إما لجهله بما جاءت به، وإما لجهله بحكم العقل أو لهما.[1]...

## فصل في سبب الشبه للأبوين أو أحدهما وسبب الإذكار والإيناث، وهل لهما علامة وقت الحمل أم لا؟

تقدم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: ٦] وثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أم سليم سألت النبي ﷺ عن المرأة ترىٰ في منامها ما يرىٰ الرجل، فقال: "إذا رأت المرأة ذلك فلتغتسل" فقالت أم سليم -واستحيت من ذلك-: وهل يكون ذلك؟ فقال النبي ﷺ: "نعم، فمن أين يكون الشَّبَهُ؟ ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشَّبَهُ."[2]

وفي صحيح مسلم عن عائشة: أنَّ المرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتَلَمَتْ فأبصرت الماء؟ فقال: "نعم،" فقالت لها عائشة: تربت يداك! فقال رسول الله: "دعيها، وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك، إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه."

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٧-٣٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٠.

تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنَّما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: "اسمي محمد الذي سماني به أهلي،" فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: "أينفعك شيء إنْ حدثتك؟" فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: سل، فقال اليهودي: أين يكون الناس حين تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات. فقال رسول الله: "هم في الظلمة دون الجسر،" فقال: فمن أول الناس إجازة يوم القيامة؟ قال: "فقراء المهاجرين." قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: "زيادةُ كبدِ النون،" قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: "ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها،" قال: فما شرابهم عليه؟ قال: "عيناً فيها تسمى سلسبيلاً،" قال: صدقت.[1] قال: أردت أنْ أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: "ينفعك إنْ حدثتك؟" قال: أسمع بأذني، قال: جئتُ أسألك عن الولد، قال: "ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله تعالى،" فقال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: "لقد سألني عن الذي سألني عنه ومالي علم بشيء منه، حتى أتاني الله عَزَّوَجَلَّ به."[2]...

فتضمنت هذه الأحاديث أموراً: أحدها أنَّ الجنين يُخلق من ماء الرجل وماء المرأة، خلافاً لمن يزعم من الطبائعيين أنه إنَّما يُخلق من ماء الرجل وحده. وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ - ٧] قال الزجاج: قال أهل اللغة: التَّرِيَبة موضع القلادة من الصدر والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب معلق الحلي من الصدر. وهو قول جميع أهل اللغة. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد صلب الرجل وترائب المرأة، وهو موضع قلادتها. وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير. وهو المطابق لهذه الأحاديث.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٠-٣٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٣٩٣.

وبذلك أجرى الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين، كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا، ولا بالمسيح، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مزج تراب آدم بالماء حتى صار طيناً، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتى صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستلةً منه، وجزءاً من أجزائه. والمسيح خُلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.[1]...

## فصل

وبكاء الطفل ساعة ولادته يدل على صحته وقوته وشدته، وإذا وضع الطفل يده أو إبهامه أو إصبعه على عضو من أعضائه، فهو دليل على ألم ذلك العضو، وكل الحيوان بالطبع يشير إلى ما يؤلمه من بدنه إما بيده أو بفمه أو برأسه أو بذنَبه، فلما كان الطفل عادماً للنطق أشار بأصبعه أو يده إلى موضع ألمه، كالحيوان البهيم.[2]...

## فصل

والجنين في الرحم كان يغتذي بما يلائمه، وكان يجتذب بالطبع المقدار الذي يلائمه من دم أمه، وبعد خروجه يجتذب من اللبن ما يلائمه أيضاً، لكنه يجتذب بشهوته وإرادته فيزيد على مقدار ما يحتاج إليه مع كون اللبن يكون رديئاً ومعلولاً، كما يكون صحيحاً. وكذلك يعرض له القيء والغثيان، ويجتذب أخلاط بدنه، وتعرض له الآلام والأوجاع والآفات التي لم تُعرض له في البطن، وقد كان عليه من الأغشية والحجب ما يمنع وصول الأذى إليه، فلما ولد هيىء له أغشية وحُجب أخر لم يكن يألفها ويعتادها، وربما صحا للحر والبرد والهواء، وكان يجتذبه من سرته وهو ألطف شيء معتدل صحيح، قد يصحّ قلب الأم وعروقها الضوارب، فهو شبيه بما يجتذبه من هو

(١) المرجع السابق، ص٣٩٣-٣٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٠٤.

داخل الحمام من الهواء اللطيف المعتدل، ثم يخرج منه وهلة واحدة عرياناً إلى الهواء العاصف المؤذي. وبالجملة فقد انتقل عن مألوفه، وما اعتاده وهلة واحدة، إلى ما هو أشد عليه منه وأصعب، وهذا من تمام حكمة الخلاّق العليم؛ ليمرن عبده على مفارقة عوائده ومألوفاته إلى ما هو أفضل منها وأنفع وأوفق له.[1]...

**فصل**

فإذا صار ابن عشر ازداد قوةً وعقلاً، واحتمالاً للعبادات، فيُضرب على ترك الصلاة، كما أمر به النبي ﷺ، وهذا ضربُ تأديبٍ وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدّد له حالٌ أخرى، يقوى فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثيرٌ من الفقهاء إلى وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يُعاقب على تركه، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قويٌّ جداً، وإن رُفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنَّه قد أعطي آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله وتمكن من نظر مثله واستدلاله، كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع ومصالح دنياه، فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله، مع أنَّ أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها.[2]...

**فصل**

ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يُسمى مُراهقاً ومناهزاً للاحتلام. فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر يحصل معه الاحتلام ونبات الشعر الخشن حول القُبُل وغِلَظُ الصوتِ، وانفراق أرنبة أنفه. والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران: الاحتلام والإنبات.

أما الاحتلام فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ ٥٨﴾ [النور: ٥٨]. ثم قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ٥٩﴾ [النور: ٥٩].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠٦-٤٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٥-٤١٦.

وقال النبي ﷺ: "رُفع القلم عن ثلاث؛ عن الصبي حتىٰ يحتلم، وعن المجنون حتىٰ يفيق، وعن النائم حتىٰ يستيقظ."[1] وقال لمعاذ: خُذ من كل حالم ديناراً. رواهما أحمد وأبو داود.

وليس لوقت الاحتلام سنٌّ معتاد، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي عشرة سنة، ومنهم من يأتي عليه خمس عشرة، وست عشرة سنة، وأكثر من ذلك ولا يحتلم.[2]...

وقال داود وأصحابه: لا حد له بالسن، إنَّما هو الاحتلام. وهذا قول قوي وليس عن رسول الله في السن حد البتة وغاية ما احتج به من قيده بخمس عشرة سنة بحديث ابن عمر حيث عرض علىٰ النبي في القتال وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، ثم عرض عليه وهو ابن خمس عشرة فأجازه.

وهذا الحديث وإن كان متفقاً علىٰ صحته فلا دليل فيه علىٰ أنه أجازه لبلوغه، بل لعله استصغره أولاً، ولم يره مطيقاً للقتال، فلما كان له خمس عشرة سنة رآه مطيقاً للقتال فأجازه، ولهذا لم يسأله هل احتملت أو لم تحتلم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما علق الأحكام بالاحتلام، وكذلك رسول الله. ولم يأت عنه في السن حديث واحد سوىٰ ما حكاه ابن عمر من إجازته ورده.[3]...

**فصل**

فإذا تيقن بُلوغُه جرىٰ عليه قلمُ التكليف، وثبت له جميعُ أحكام الرجل، ثم يأخذ في بلوغ الأشُدِّ. قال الزجّاج: الأشد: من نحو سبع عشرة سنة إلىٰ نحو الأربعين.

وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه: الأشد: الحلم. وهو اختيار يحيىٰ بن يعمر، والسدي. وروىٰ مجاهد عنه ثلاثاً وثلاثين سنة. وروىٰ عنه أيضاً ثلاثين. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال مقاتل: ثمان عشرة. وقد أحكم الأزهري تفسير اللفظة

---

(١) المرجع السابق، ص٤١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٨.

(٣) المرجع السابق، ص٤١٩.

فقال: بلوغ الأشدّ يكون من وقتِ بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة. قال: فبلوغ الأشدِّ محصورُ الأول، محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك. فبلوغ الأشد مرتبةٌ بين البلوغ وبين الأربعين.[1]...

## فصل

ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضَعف القُوى على التدريج، كما أخذ في زيادتها على التدريج. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين، فهو أولاً نطفةٌ، ثم علقةٌ، ثم مضغةٌ، ثم جنينٌ ما دام في البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يستتمَّ سبعة أيام فهو صديغٌ، بالغين المعجمة؛ لأنَّه لم يشتدَّ صُدغُه، ثم ما دام يرضع فهو رضيعٌ، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيمٌ، فإذا دبَّ ودرج فهو دارجٌ، قال الراجز:

يـا ليتنـي قـد زرت غـير خـارج  أمَّ صـبيٍّ قـد حَبَـا أو دارج[2]

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور وقد ثَغر، فإذا نبتت بعد سقوطها، فهو مُثَغّر بوزن مدَكِّر بالتاء والثاء معاً، فإذا بلغ السبع وما قاربها فهو مميز، فإذا بلغ العشر فهو مترعرعٌ وناشيء، فإذا قارب الحلُم فهو يافعٌ، ومراهقٌ ومناهزٌ للحُلُم، فإذا بلغ فهو بالغٌ، فإذا اجتمعت قوّته فهو حَزَوَّر، واسمه في جميع ذلك غُلامٌ، ما لم يخضرَّ شاربُه، فإذا اخضَرَّ شاربه وأخذ عِذَارُه في الطلوع فهو باقل، وقد بَقَلَ وجهه -بالتخفيف- ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتىً وشارخٌ بحصول شرخ الشباب له.[3]

قال الجوهري: الفتىً: الشاب، والفتاة: الشابة. ويُطلق الفتىً على المملوك وإن كان شيخاً كبيراً. ومنه الحديث: "لا يقل أحدكم: عبدي وأَمتي، وليقل: فتاي وفتاتي." ويقال: الفتىً على السخي الكريم. فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين، ثم

(١) المرجع السابق، ص٤٢٣-٤٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢٥-٤٢٦.

يأخذ في الكهولة إلى الستين، ثم يأخذ في الشيخوخة، فإذا أخذ شعره في البياض قيل: شابَ. فإذا ازداد قيل: وخَطه الشيبُ، فإذا زاد قيل: شَمِط، فإذا غلب شيبه فهو أغْثَمُ، فإذا اشتعل رأسُه ولحيته شيباً، فهو مُتَقَعْوِس، فإذا انحطّ قواه فهو هَرِم، فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصُه فقد رُدَّ إلى أرذل العُمُر، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم.[1]

## فصل

فإذا بلغ الأجل الذي قُدِّر له واستوفاه، جاءته رُسُل ربِّه عَزَّوَجَلَّ ينقلونه من دار الفناء إلى دار البقاء، فجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم دنا منه الملك الموكَّل بقبض الأرواح، فاستدعى بالروح. فإنْ كانت روحاً طيبةً قال: اخرُجي أيتها النفسُ الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدةً وأبشري برَوْح وريحانٍ وربٍّ غير غضبان، فتخرج من بدنه كما تخرج القطرة من في السقاء،...

ثم يفسح له في قبره مَدّ بصره، ويُفرش له خضر، ويُقيَّض له شابٌّ حسنُ الوجه طيّب الرائحة، فيقول: أبشر بالذي يسُرّك، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملُك الصالح، ثم يُفتح له طاقة إلى النار، يقال: انظر ما صرفَ الله عنك! ثم يفتح له طاقة إلى الجنة، ويقال: انظر ما أعدَّ الله لك! فيراهما جميعاً.[2]...

وأما النفس الفاجرة فبالضدِّ من ذلك كله.[3]...

ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ثم يُفرش له نارٌ، ويفتح له طاقة إلى الجنة فيقال: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفتح له طاقة الى النار، فيقال: انظر الى مقعدك من النار، فيراهما جميعاً، ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرّ، فيقول: أنا عملك السيء. ثم ينعم المؤمن في البرزخ على حسب أعماله، ويعذَّب الفاجر فيه على حسب أعماله، ويختص كل عضو بعذاب يليق

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٦-٤٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢٨.

بجناية ذلك العضو.[1]...

فيحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين عباده بحكمه الذي يحمَده عليه جميعُ أهل السماوات والأرض، وكلُّ بَرٍّ وفاجر ومؤمن وكافر.﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. ثم ينادي منادٍ لتتبع كلّ أُمَّة ما كانت تعبد. فيذهب أهل الأوثان مع أوثانهم، وأهل الصليب مع صليبهم، وكلّ مشركٍ مع إلهه الذي كان يعبد، لا يستطيع التخلّف عنه فيتساقطون في النار.[2]...

وترسل الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، فلا يجوزه خائنٌ، ولا قاطعُ رحمٍ، ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في الدنيا؛ فمارٌّ كالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، وساعٍ وماشٍ، وزاحف وحابٍ حبواً.[3]...

فإذا جاوز المؤمنون الصراط -ولا يجوزه إلا مؤمن- أُمِنُوا من دخول النار، فيحبسون هناك على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة. فإذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أُتي بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة! فيطلعون وجلين، ثم يقال: يا أهل النار! فيطلعون مستبشرين، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، وكلهم قد عرفه، فيقال: هذا الموت. فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ ولا موت. ويا أهل النار، خلودٌ ولا موت.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٩-٤٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣٢-٤٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص٤٣٥.

فهذا آخر أحوال هذه النطفة التي هي مبدأ الإنسان، وما بين هذا المبدإ وهذه الغاية أحوال وأطباق قدَّر العزيز العليمُ تنقّل الإنسان فيها، وركوبَه لها طبقاً بعد طبق، حتىٰ يصل إلىٰ غايته من السعادة والشقاوة: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: ٢٣ - ١٧].

فنسأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أنْ يجعلنا من الذين سبقت لهم منه الحسنىٰ، ولا يجعلنا من الذين غلبت عليهم الشقاوة، فخسروا في الدنيا والآخرة، إنَّه سميع الدعاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والحمد لله رب العالمين، وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد، وآله وصحبه، وسلّم تسليماً دائماً إلىٰ يوم الدين.[1]

(١) المرجع السابق، ص٤٣٦.

# (١٥)
# مُقَدِّمَةُ ابنِ خَلْدُون

## عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (توفي: ٨٠٨هـ)

**الشِّدَّةُ على المتعلمين مُضِرَّةٌ بِهِم:**

وذلك أنَّ إرهافَ الحدِّ بالتعليم مُضِرٌّ بالمتعلِّم، سيما في أصاغر الوُلد؛ ... ومن كان مَرْباه بالعَسْفِ والقهر من المتعلمين ... سطا به القهر، وضيّق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحُمل على الكذب والخُبْث،... وصارت له هذه عادةً وخُلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرُّن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسُلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين.

وهكذا وقع لكلّ أمَّة حصلت في قبضة القهر، ونال منها العَسْف، واعتبرْه في كل من يُمْلَكُ أمرُه عليه، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقراءً. وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتى إنَّهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه.

فينبغي للمعلم في مُتعلِّمه، والوالد في وُلده أنْ لا يستبدا عليهما في التأديب. (ص ١١١٩)

الفصل الخامس عشر:

# كتاب "مقدمة ابن خلدون" لابن خلدون

## أولاً: التعريف بـ"ابن خلدون"

هو وليُّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، ولد في تونس سنة (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، ونشأ في عائلة تهتم بالعلم والأدب، ونهل مما كان متوفراً من العلم في اللغة العربية، والقرآن، والحديث، والفقه، وغيرها. يذكر ابن خلدون أنَّ نَسَبَه يعود إلى حضرموت، وأنه من سلالة الصحابي وائل بن حجر، الذي وفد إلى النبي ﷺ من حضرموت مسلماً، فرحب به وأدناه من نفسه، وقرب مجلسه، وبسط له رداءه، ودعا له ﷺ بقوله: "اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده."

درس على يد أشهر العلماء البارزين في وقته خاصة، ومنهم: أبو عبد الله بن سعد بن برال وهو إمام في القراءات، وأبو عبد الله محمد بن بحر، الذي قال عنه ابن خلدون: إنَّه إمام العربية والأدب بتونس، وأبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب، وأبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب، وأبو عبد الله محمد المقري قاضي الجماعة بفاس، وأبو القاسم الشريف السبتي إمام اللسان نقداً ونظماً ونثراً. أمَّا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي فقد وصفه ابن خلدون بأنَّه شيخ التعاليم، وفارس المعقول والمنقول، فكان من أخص شيوخ ابن خلدون حيث لزمه وأخذ عنه الأصلين والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وتأثر به كثيراً.

عُرف عصر ابن خلدون بعدم الاستقرار والفوضي والنزاعات السياسية والمذهبية في شرق العالم الإسلامي وغربه، وفيه بدأ حركة المد الأوروبي، فبدأت مدن المسلمين تخرج إلى أيدي الإسبان في الوقت الذي كانت الإمارات الإسلامية في حالة من التناحر والنزاع.

ومع أنَّ عصره عُرف بعصر التقليد والجمود، إلا أنَّه كان مثالاً فريداً في النظر والتفكير الناقد، وسبر الأحداث، واكتشاف السنن التي تحكمها، وكان يُعينه في ذلك استلهام القرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية، ومقاصد الإسلام.

تنقّل ابن خلدون في حياته العملية بين تونس وفاس وبجاية وتلمسان وبسكرة، وبعض بلاد الأندلس، قبل أنْ يستقر في مصر، واشتعل في أول عهده بالوظيفة كاتباً وعضواً في المجالس العلمية للسلاطين، وسفيراً، ووزيراً وأميناً للسرّ. لكن المقرب من السلطان يتعرض للوشاية والحسد، لذلك ناله بعض ذلك ودخل به السجن مدة عامين، وامتلأت حياته بالأحداث والتقلبات والمغامرات السياسية، ويبدو أنَّ ذكاءه وثقته بالنفس، وطموحاته، وتقلّب ولاءاته بين أهل السلطان، كانت سبباً في المحن التي مرَّ بها. ثم اعتزل العمل السياسي وتفرَّغ للكتابة، قبل أنْ ينتقل إلى مصر، ويعمل فيها مدرساً وقاضياً حتى وفاته عام (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).

يذكر المؤرخون أنَّ لعبد الرحمن بن خلدون كتباً متعددة في التاريخ والحساب والفلسفة والتصوف. منها: شرح البردة المشهورة للبوصيري، وتلخيص كتاب الرازي في الفقه المعروف بالمحصل، المسمى لباب المحصل، وشرح أرجوزة في الفقه لابن الخطيب، وتلخيص بعض رسائل ابن رشد، ورسالة في المنطق. لكن ما اشتهر تحقيقاً ونشراً أربعة كتب هي: تاريخ ابن خلدون المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وكتاب مقدمة ابن خلدون، ويفترض أنها كانت في الأساس مقدمة لكتاب التاريخ، لكنها فُصلت عنه لقيمتها المتميزة وحجمها، وكتاب: شفاء السائل لتهذيب المسائل، وكتاب: التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقاً وغرباً الذي يُعدُّ السيرة الذاتية لابن خلدون ومذكراته.

تمثل إسهامه الرئيس في التراث التربوي بما كتبه في المقدمة. وإذا كانت بعض مواد التراث التربوي قد أخذت المدخل الفقهي أو الصوفي أو الفلسفي أو الأدبي، فإن إسهام ابن خلدون هذا تميّز عن غيره، بمدخله التاريخي العمراني.

## ثانياً: التعريف بـ"المقدمة"[1]

ينظر الباحثون إلى مقدمة ابن خلدون بوصفها كتاباً مستقلاً يختلف عن كتاب العبر المعروف بتاريخ ابن خلدون. وجاء وجه الاختلاف من أنَّ المقدمة أخذت طابعاً موسوعياً، عالج فيها مسائل متنوعة، تُصنّف اليوم ضمن علوم متعددة. ولم يكتف في معالجاته بالوصف والنقد والتحليل، وإنما تجاوز ذلك إلى وضع نظريات تفسيرية ذات قيمة عالية. ورأى أنّ ما كتبه فيه يدخل في علمٍ جديدٍ سمّاه علم العمران البشري وموضوعاته هي الموضوعات المعروفة اليوم في علم الاجتماع.

يُعدّ كتاب المقدمة من أكثر الكتب التي لقيت عناية الباحثين من المسلمين وغير المسلمين، وترجمت إلى عدة لغات أجنبية، وذلك لما تضمنه من وضوح في رؤية العالم وتجديد في أساليب البحث والنظر، وتحليل نقدي للروايات والأحداث، وسبق في المقولات والأفكار، واستلهام مباشر لمقاصد الإسلام كما بينها القرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية. وقد احتوى كتاب المقدمة على ستة أبواب عناوينها:

في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض، في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية، في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السّلطانية، في العمران الحضري والبلدان والأمصار، في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، في العلوم واكتسابها وتعلّمها.

وكانت أهم الأبواب من حيث الحجم والدخول في تفاصيل الأحداث، واستشراف الحكم الباب الثالث وموضوعه السياسة، والباب السادس وموضوعه العلم والتعليم. وقد عالج ابن خلدون موضوع السياسة وموضوع التعليم بوصفهما عِلْمين متخصصين قبل أنْ تعرف العلوم المتخصصة كما نعرف اليوم.

وقد تضمن باب في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه تفاصيل فريدة عن الفكر

---

(١) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. **مقدمة ابن خلدون**، دراسة وتحقيق وتعليق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م.

البشري، ومستويات العلم، وأنوع العقول، ومهنة التعليم، وأصناف العلوم النقلية والعقلية، وطرق التعليم والتدرج فيه، وأنواع المصنفات، والتعليم المقارن، والرحلة في طلب العلم. واحتلت مادة التعليم في المقدمة حوالي ٢٩٦ صفحة من بين ٩٣٦ صفحة؛ أي حوالي ثلث الكتاب.[١]

## ثالثاً: نصوص مختارة من "المقدمة"[٢]

### الباب السادس

### في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، فيه مقدمة ولواحق

فالمقدمة في الفكر الإنسان الذي تميز به البشر عن الحيوانات، واهتدىٰ به لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والنظر في معبوده، وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته ومَلَكَةِ قُدْرَته وفضلَّه به علىٰ كثير خلقه.

**١ - فصل في الفكر الإنساني:**

اعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ميّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله، ونهاية فضله علىٰ الكائنات وشرفه؛ وذلك أنَّ الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركّب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ويزيد الإنسان من بينها أنَّه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسِّه، وذلك بقوىٰ جعلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرىٰ، والفكر هو

---

(١) هذا التقدير مبني علىٰ الطبعة المزيدة والمنقحة التي جاءت في ثلاثة مجلدات مجموع صفحاتها (١٤٠٧) صفحات، لكنها تضمنت دراسة مطولة احتلت (٢٧٧) صفحة من المجلد الأول، وتضمنت فهارس تفصيلية مطولة كذلك احتلت (١٩٤) صفحة من المجلد الثالث. انظر:

- ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص٩١٥-١٢١٣.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٩١٥-١٢١٣.

التصرّف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]. والأفئدة جمع فؤاد، وهو هنا الفكر. وهو على مراتب:

الأولى: تعقُّل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً، أو وضعياً، ليقصد إيقاعها بقدرته، وهذا الفكر أكثره تصورات، وهو العقل التمييزي الذي يحصّل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره.

الثانية: الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم، وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً، إلى أنْ تتم الفائدة منها، وهذا هو المسمى العقل التجريبي.

والثالثة: الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل، فهذا هو العقل النظري، وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيد معلوماً آخر من جنسها، في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً أُخر كذلك، وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله، وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية.[1]...

**٤- فصل في علوم البشر وعلوم الملائكة:**

إنا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها: عالم الحسّ، ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك. ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر، فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فتراه عالماً آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات، نحو الحركات الفعلية، فنعلم أنَّ هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩١٦-٩١٧.

عالمنا، وهو عالم الأرواح والملائكة، وفيه ذوات مدركة، لوجود آثارها فينا، مع ما بيننا وبينها من المغايرة، وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم، ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحيحة منها، فنعلم أنها حق، ومن عالم الحق. وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن، ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس.[1]...

وأقعد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر؛ لأنه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية والروحانية، ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات، وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاقل والمعقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل. فعلومهم حاصلة دائماً، مطابقة بالطبع لمعلوماتهم، لا يقع فيها خلل ألبتة، وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أنْ لا تكون حاصلة. فهو كله مكتسب...

فقد تبين أنَّ البشر جاهل بالطبع، للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب والصناعة، لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي أشرنا إليه، إنَّما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالتنزه عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥].[2]

### ٨- فصل في أنَّ التعليم للعلم من جملة الصنائع:

وذلك أنَّ الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنَّما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلاً. وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي؛ لأنَّا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٢١.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٩٢٢.

النحرير... والملكات كلها جسمانية سواءً كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة؛ فتفتقر إلى التعليم. ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل.

ويدل أيضاً على أنَّ تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها... وإذا تقرر ذلك فاعلم أنَّ سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أنْ ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها...

وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم. وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها، فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنَّه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إنْ فاوض أو ناظر أو علّم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنَّه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك. وما يشهد بذلك في المغرب أنَّ المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هو أقل ما يأتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمة أو اليأس من تحصيلها، فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك.

وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب، اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم، فانحفظ بحفظه، وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين، وأما العقليات فلا أثر ولا عين. وما ذلك إلا لانقطاع

سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها، إلا قليل بسيف البحر، وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة، لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه، وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلا أنَّ الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر، من المشرق ثم إلى القاهرة، وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً.

فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع، حتى إنَّه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أنَّ عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة، وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية، ويتشيعون لذلك، ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع، وليس كذلك، وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة...

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاءً في عقله، وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس؛ إذ قدمنا أنَّ النفس إنَّما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية، وليس كذلك، ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إنَّ البدوي ليظنه أنَّه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية مالا يعرفه البدوي، فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها، ظن كل من قصّر عن تلك الملكات أنها لكمالٍ في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها

وجبلّتها عن فطرته، وليس كذلك، فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته، إنَّما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم، فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه، وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة، وأعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا، ظن المغفلون في بادئ الرأي أنَّه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب، وليس ذلك بصحيح فتفهمه. والله يزيد في الخلق ما يشاء، وهو إله السموات والأرض.[1]...

**١٠- فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد:**

اعلم أنَّ العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقليٌّ يأخذه عمن وضعه، والأول هي العلوم الحِكْمية الفلسفية، وهي التي يمكن أنْ يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقِفَهُ نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول؛ لأَنَّ الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي، بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي؛ إلا أنَّ هذا القياس يتفرّع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقليٌّ، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه.

وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة، وبه نزل القرآن، وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة ...

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٢٥-٩٢٩.

وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كلُّ ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك، فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة، المبلّغ لها، وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل؛ لأنها ناسخة لها.[1]...

**١١- علوم القرآن من التفسير والقراءات:**

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة، إلا أنَّ الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها، وتنوقل ذلك واشتهر إلى أنْ استقرت منها سبع طرق معينة، تواتر نقلها أيضا بأدائها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة...

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها، إلى أنْ كُتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً، وتناقله الناس بالمشرق والأندلسفي جيل بعد جيل...

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً، وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية؛ لأنَّ فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في ﴿بِأَيْيِدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وزيادة الألف في ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١] و﴿وَلَآ أَوْضَعُواْ﴾ [التوبة: ٤٧]...

(وأما التفسير) فاعلم أنَّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملاً جملاً، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له، وكان النبي ﷺ يبيّن المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٣٠-٩٣٢.

فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها، منقولاً عنه، كما علم من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] أنها نعي النبيِّ ﷺ وأمثال ذلك، ونقل ذلك عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونُقل ذلك عنهم، ولم يزل متناقلاً بين الصدر الأول والسلف، حتى صارت المعارف علوماً، ودُوِّنت الكتب.[1]...

**١٢- علوم الحديث**

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأَنَّ منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه؛ وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها... ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط.[2]...

**١٣- علم الفقه وما يتبعه من الفرائض:**

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه، وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم، ولا بد من وقوعه ضرورة أنَّ الأدلة غالبها من النصوص، وهي بلغة العرب، وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف، وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت، وتتعارض في الأكثر أحكامها، فتحتاج إلى الترجيح، وهو مختلف فيها أيضاً،والأدلة من غير النصوص مختلف فيها، وأيضاً فالوقائع المتجددة لاتوفى بها النصوص، وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع، ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم...

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٣٢-٩٣٥.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٩٣٦-٩٣٧.

ثم عظمت أمصار الإسلام، وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمُل الفقه وأصبح صناعة وعلماً، فبُدِّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء، وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز، وكان الحديث قليلاً في أهل العراق، لما قدمناه، فاستكثروا من القياس، ومهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه، وفي أصحابه أبو حنيفة، وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس، والشافعي من بعده...

وشذ (شيعة) أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية...

فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومقامه في الفقه لا يُلحق، شهد له بذلك أهل جلدته، وخصوصاً مالك والشافعي.

وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك ابن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واختص بزيادة مُدْرَكٍ آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره، وهو عمل أهل المدينة...

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن أدريس المطلبي الشافعي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، رحل إلى العراقمن بعد مالك، ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة، وأخذ عنهم، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق، واختص بمذهب، وخالف مالكاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من مذهبه.

وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من عِليةِ المحدثين، وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة، مع وفور بضاعتهم من الحديث، فاختصوا بمذهب آخر.[1]...

**١٤- علم الفرائض:**

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة، مما تصح باعتبار فروضها

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٤٧-٩٥١.

الأصول أو مناسختها، وذلك إذا هلك أحد الورثة، وانكسرت سهامه على فروض ورثته، فإنَّه حينئذ يحتاج إلى حسب يصحح الفريضة الأولى، حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة، وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين، وتتعدد لذلك بعدد أكثر، وبقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحسبان، وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أنْ يقر بعض الورثة بوارث، وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ، وينظر مبلغ السهام ثم تقسّم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة، وكل ذلك يحتاج إلى الحُسبان، وكان غالباً فيه وجعلوه فناً مفرداً.[1]...

**١٥- أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات:**

اعلم أنَّ أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية، وأجلّها قدراً وأكثرها فائدة، وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تُؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن، ثم السنة المبنية له...

فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة، فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه، والتواتر في نقله، فلم يبق فيه مجال للاحتمال، وأما السنة وما نُقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه، من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً، وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة، وأما القياس فبإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه كما قدمناه، هذه أصول الأدلة...

ثم بعد ذلك يتعيّن النظر في دلالة الألفاظ، وذلك أنَّ استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة، والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان. وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنَّها جبلَّته وملكته، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيّدها الجهابذة المتجرّدون

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٥٨.

لذلك بنقل صحيح ومقايس مستنبطة صحيحة، وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه، في معرفة أحكام الله تعالىٰ.[1]...

**١٦- علم الكلام:**

هو علم يتضمن الحِجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد علىٰ المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسرّ هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد، فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لناعن التوحيد علىٰ أقرب الطرق والمآخذ، ثم نرجع إلىٰ تحقيق علمه، وفيما ينظر ويشير إلىٰ حدوثه في الملة، وما دعا إلىٰ وضعه فنقول:

إنَّ الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلا بدلها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة، وعنها يتم كونها. وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضاً، فلا بدله من أسباب أُخَر، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتىٰ تنتهي إلىٰ مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا إله إلا هو. وتلك الأسباب في ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولاً وعرضاً، ويحار العقل في إدراكها. فإذاً، لا يحصرها إلا العلم المحيط، سيما الأفعال البشرية والحيوانية، فإن من جملة أسبابها في الشاهد القصود والإرادات؛ إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه. والقصود والإرادات أمور نفسانية ناشيءة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً، وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل. وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرىٰ. وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهولٌ سببُه؛ إذ لا يطلع أحد علىٰ مبادئ الأمور النفسانية، ولا علىٰ ترتيبها، إنَّما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً. والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغالياته، وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة، ويقع في مداركها علىٰ نظام وترتيب؛ لأَنَّ الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها. وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس؛ لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس، فلا

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٦٠-٩٦١.

تدرك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة. وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنَّه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: ٩١]...

فلذلك أُمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة، والتوجه إلى مُسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها، لترسخ صفة التوحيد في النفس، على ما علَّمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا، وطرق سعادتنا، لاطلاعه على ما وراء الحس...

ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنَّه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفِّهْ رأيَه في ذلك، واعلم أنَّ الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به...

وإذ تبين ذلك فلعلَّ الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا، خرجت عن أنْ تكون مدركة، فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع. فإذاً التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها؛ إذ لا فاعل غيره، وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعِلْمُنا به إنَّما هو من حيث صدورنا عنه. وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: العجز عن الادراك إدراك...

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أنَّ المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس، يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد، وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة، وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية...

إلا أنَّه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والناظر والاستدلال بالعقل وزيادة إلى النقل فحدث

بذلك علم الكلام...

ثم لما كثرت العلوم والصنائع، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة، في تعميم هذا التنزيه في آي السُّلُوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها؛ وقضوا بنفي السمع والبصر، لكونهما من عوارض الأجسام، وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر، وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر، ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقومبالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق،وذلك بدعة صرح السلف بخلافها، وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم، فحمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف، فاستُحِلَّ لخلافهم إيسارُ كثير منهم ودماؤُهم.

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد، دفعاً في صدور هذه البدع، وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري، إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفي التشبه، وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع؛ المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلَّم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح، والتحسين والتقبيح، وكمل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب، وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية، من قولهم: إنها من عقائد الإيمان، وإنه يجب على النبي تعيينها، والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له، وكذلك على الأمة، وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد، فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن، وسموا مجموعه علم الكلام، إما لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل، وإما لأَنَّ سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي...

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله، إنَّما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أنْ يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك ولشبيه عن تلك العقائد...

وعلى الجملة فينبغي أنْ يعلم أنَّ هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلة العقلية إنَّما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا؛ وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه البارئ عن كثير إيهاماته وإطلاقه، ولقد سُئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه، فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص. فقال: نفيُ العيب حيث يستحيل العيب عيبٌ. لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة؛ إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها، والله ولي المؤمنين.[1]...

**١٨- علم التصوف:**

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة، وأصله أنَّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه. والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة...

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق، والاقبال على العبادة اختصوا بمواجد مدركة لهم، وذلك أنَّ الإنسان بما هو إنسان إنَّما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك، وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين، والظن والشك والوهم؛ وإدراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضبوالصبر والشكر وأمثال ذلك...

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٦٦-٩٧٧.

فلما كتبت العلوم ودُوّنت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في أحكام الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنهم من كتب في أدب الطريقة وأذواق أهلها، ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف، وأمثالهم، وجمع الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الأمرين، في كتاب الإحياء، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أنْ كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنَّما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، وغير ذلك.

ثم إنَّ هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحسّ، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم، وسبب هذا الكشف أنَّ الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه، وتجدد نشؤه، وأعان على ذلك الذكر، فإنَّه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتَزيُّد إلى أنْ يصير شهوداً بعد أنْ كان علماً، ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة، وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم...

ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلّموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك، وأهل الفتيا بين منكر عليهم، ومسلّم لهم، وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً؛ إذ هي من قبيل الوجدانيات.[1]...

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٩٨٩-٩٩٣.

**٢٠- العلوم العقلية وأصنافها:**

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنَّه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل بوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة، وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة، وهي مشتملة على أربعة علوم: الأول: علم المنطق، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب، فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها، ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره، ثم النظر بعد ذلك عندهم، إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية، والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية، والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي، وهو الثاني منها، وإما أنْ يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات، ويسمونه العلم الإلهي، وهو الثالث منها، والعلم الرابع، وهو الناظر في المقادير، ويشتمل على أربعة علوم، وتسمى التعاليم، أولها علم الهندسة، وهو النظر في المقادير على الإطلاق...

وثانيها علم الارتماطيقي، وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل، الذي هو العدد، ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة، وثالثها علم الموسيقى، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم، بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء. ورابعها علم الهيئة، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها، وتعددها لكل كوكب من السيارة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة، الموجودة لكل واحد منها، ومن رجوعها واستقامتها، وإقبالها وإدبارها، فهذه أصول العلوم الفلسفية، وهي سبعة: المنطق، وهو المقدم منها، وبعده التعاليم. فالارتماطيقي أولاً ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات، ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه: فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياج، وهي قوانين لحساب، حركات الكواكب وتعديلها، للوقوف على مواضعها، متى قصد ذلك، ومن فروع

النظر في النجوم على الأحكام النجومية.[1]...

**٢١- العلوم العددية:**

وأولها الأرتماطيقي، وهو معرفة خواص الأعداد، من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف...وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها، ويدخل في براهين الحساب، وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف، وأكثرهم يدرجونه في التعاليم، ولا يفردونه بالتأليف...ومن فروع علم العدد صناعة الحساب، وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق...

وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات، وألف الناس فيها كثيراً، وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان، ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها؛ لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء دربٌ على الصواب، وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنَّه يغلب عليه الصدق، لِـمَا في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير ذلك خُلُقاً، ويتعود الصدق ويلازمه مذهباً...

ومن فروعه الجبر والمقابلة، وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك...

ومن فروعه أيضاً المعاملات، وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات...

ومن فروعه أيضاً الفرائض، وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات.[2]...

**٢٢- العلوم الهندسية:**

هذا العلم هو النظر في المقادير، إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل: أنَّ كل مثلث فزواياه

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٠٠٦-١٠٠٧.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٠١٢-١٠١٥.

مثل قائمتين،... والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس، ويسمى كتاب الأصول، وكتاب الأركان، وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين، وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة، أيام أبي جعفر المنصور...

واعلم أنَّ الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله، واستقامة في فكره؛ لأَنَّ براهينَها كلَّها بيِّنَةُ الانتظام جَلِيَّةُ الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع، وقد زعموا أنَّه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا...

المناظر من فروع الهندسة، وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها، بناء على إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي، ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً، والبعيد صغيراً.[1]...

**٢٣- علم الهيئة:**

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة، ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها لهذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية.[2]...

**٢٤- علم المنطق:**

وهو قوانين يُعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات، وذلك أنَّ الأصل في الإدراك، إنَّما هو المحسوسات بالحواس الخمس، وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك، من الناطق وغيره، وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات، وهي مجردة من المحسوسات، وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة، وهي الكلي، ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة، وأشخاص أخرى توافقها في

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٠١٦-١٠١٩.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٠١٩.

بعض، فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه، ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه.[1]...

**٢٥- الطبيعيات:**

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية، وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك، وفي مبدأ الحركة للأجسام، وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات.[2]...

**٢٦- علم الطب:**

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أنْ يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض، التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولاً في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة، والفصل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب.

وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام، وجعلوه علماً خاصاً كالعين وعللها وأكحالها، وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الأعضاء، ومعناها المنفعة التي لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني، وإن لم يكن ذلك من موضوع علم الطب إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه...

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٠٢١.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٠٢٥.

**فصل**: وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنَّه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة، وغيره، والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب، ووقع فيذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله، التي هي عادة وجبلّة، لا من جهة أنَّ ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل، فإنَّه ﷺ إنما بعث ليُعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات.[1]...

**٢٧- الفلاحة:**

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك.[2]...

**٣٥- فصل في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها:**

اعلم أنَّ العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك، بتصور الحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها، فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير، فلا بد من بيانها لآخر، إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة لصقل الأفكار في تصحيحها...

ثم إنَّ الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

(أولها) استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتتبُّع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقِّق يحرص على إيصالها لغيره؛ لتعمَّ المنفعة

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٠٢٦-١٠٢٧.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٠٢٨.

به، فيودع ذلك بالكتاب، في الصحف، لعلَّ المتأخر، يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه؛ تكلَّم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخَّصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الأبد.

(وثانيها) أنْ يقف على كلام الأولين وتواليفهم؛ فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها، فيحرص على إبانة ذلك لغيره، ممن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصلٌ شريفٌ.

(وثالثها) أنْ يعثر المتأخر على غلطٍ أو خطأٍ في كلام المتقدمين؛ ممن اشتهر فضله، وبَعُد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده؛ إذ قد تعذَّر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلّف ووثوق الناس بمعارفه؛ فيودع ذلك الكتابَ؛ ليقف الناظر على بيان ذلك.

(ورابعها) أنْ يكون الفنُّ الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول، بحسب انقسام موضوعه؛ فيقصد المطَّلع على ذلك أنْ يتمِّم ما نقص من تلك المسائل؛ ليكمل الفنُّ بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

(وخامسها) أنْ تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيقصد المطَّلع على ذلك أنْ يرتبها ويهذِّبها، ويجعل كل مسألة في بابها.

كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العُتَبي عن أصحاب مالك، فإنَّ مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها؛ فهذَّب ابن أبي زيد المدوَّنة، وبقيت العتبيَّة غير مهذَّبة، فنجد في كل باب مسائل من غيره، واستغنوا بالمدونة، وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

(وسادسها) أنْ تكون مسائل العلم مفرَّقة في أبوابها من علوم أخرى؛ فيتنبَّه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفنِّ، وجمع مسائله؛ فيفعل ذلك، ويظهر به فنٌّ ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم؛ كما وقع في علم البيان، فإنَّ عبدالقاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائل مستقربة في كتب النحو،

وجمع منها الجاحظ في البيان والتبيين مسائل كثيرة؛ تنبَّه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم، فكُتبت في توليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفنِّ البيان، ولقنها المتأخرون فاربوا فيها على كلِّ مقدِّم.

(وسابعها) أنْ يكون الشيء من التوليف التي هي أمهات للفنون مطوَّلاً مسهباً؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك؛ بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرِّر إنْ وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخلَّ بمقصد المؤلِّف الأول.

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها، وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجادة؛ التي يتعيَّن سلوكها في نظر العقلاء، مثل انتحال ما تقدَّم لغيره من التواليف، بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس؛ من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفنِّ، أو يأتي بما لا يحتاج إليه، او يبدِّل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه، فهذا شأن أهل الجهل والقحة، ولذا قال أرسطو لَمَّا عدَّد هذه المقاصد، وانتهى إلى آخرها، فقال: وما سوى ذلك ففضلٌ أو شرهٌ؛ يعني بذلك الجهل والقحة، نعوذ بالله من العلم فيما لا ينبغي للعاقل سلوكه، والله يهدي للتي هي أقوم.[1]

**٣٦- فصل في أنَّ كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل**

اعلم أنَّه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل. فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرّد لها، فيقع القصور ولا بد، دون رتبة التحصيل.

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً، وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل: كتاب ابن يونس، واللخمي، وابن بشير، والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العُتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب،

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٠٢-١١٠٧.

وما كتب عليه، ثم إنَّه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية، وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا. وهي كلها متكررة والمعنى واحد، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها، وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً، ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه، وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل ابن الحاجب وابن مالك، وجميع ما كتب في ذلك، كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يُعرف بابن هاشم، ظهر من كلامه فيها أنَّه استولى على غاية من مَلَكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما، لعظم ملكته، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه، ودل على أنَّ الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا نادر من نوادر الوجود، وإلا فالظاهر أنَّ المتعلم ولو قطع عُمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].[1]

### ٣٧- فصل في أنَّ كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٠٧-١١٠٨.

بالبلاغة وعِسراً على الفهم.

وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق، وأمثالهم، وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأَنَّ فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد؛ وهو من سوء التعليم كما سيأتي.

ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم، بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائلمن بينها؛ لأَنَّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت، ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة، وإذا اقتُصِر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.[1]

**٣٨- فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته**

اعلم أنَّ تلقين العلوم للمتعلمين إنَّما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً. يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبولما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم؛ إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف، ووجهه

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٠٩.

إلى أنْ ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدا، فلا يترك عويصاً ولا مبهماً، ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنَّما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه.

وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أنْ يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن، وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له، كلَّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلم أنْ يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره؛ لأَنَّ المتعلم إذا حصَّل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم. والله يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أنْ لا تُطوّل على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها؛ لأنه ذريعة إلى النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض،

فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة، مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً، وأحكم ارتباطاً، وأقرب صبغة؛ لأنَّ الملكات إنَّما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه. والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أنْ لا يُخلط على المتعلم علمان معاً؛ فإنَّه حينئذ قل أنْ يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كلِّ واحدٍ منهما إلى تفهّم الآخر، فيستغلقان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة، وإذا تفرّغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الموفق للصواب.[1]...

**٣٩- فصل في أنَّ العلوم الآلية لا تَوَسَّع فيها الأنظار ولا تفرَّع المسائل:**

اعلم أنَّ العلوم المتعارف بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة؛ وعلوم آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة، وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين. فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة، وأما العلوم التي هي آله لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أنْ ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرّع المسائل...؛ لأَنَّ المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها؛ فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرن بالمقاصد؟!...

فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليَرْقَ له ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً، وكلٌّ ميَسّرٌ لما خُلِق له.[2]

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١١٠-١١١١.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١١١٤-١١١٥.

**٤٠- فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه:**

اعلم أنَّ تعليم الوِلْدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليهما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أنَّ تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصلٌ لما بعده؛ لأَنَّ السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من ينبني عليه.

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات. فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه، ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أنْ يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة، وهذا مذهبُ أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم إلى يجاوزوا حدَّ البلوغ إلى الشبيبة، وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنَّه لما كان القرآن أصل ذلك وأسّه، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب، ولاتختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أنْ يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذيال العلم على الجملة، لو كان فيها سند لتعليم العلوم، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول، وفيه كفاية

لمن أرشده الله تعالىٰ، واستعداد إذا وجد المعلم.

وأما أهل إفْرِيقِيَةَ فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أنَّ عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم علىٰ اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبعٌ لذلك، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلىٰ طريقة أهل الأندلس؛ لأَنَّ سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارىٰ علىٰ شرق الأندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك علىٰ ما يبلغنا، ولا أدري بم عنايتهم منها، والذي ينقل لنا أنَّ عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له علىٰ انفراده، كما تتعلم سائر الصنائع، ويتداولونها في مكاتب الصبيان، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلىٰ قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه، ويبتغيه من أهل صنعته...

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلىٰ طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر علىٰ سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس، قال: لأَنَّ الشعر ديوان العرب، ويدعو علىٰ تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة، ثم يُنْتَقَل منه إلىٰ الحساب فيتمرن فيه حتىٰ يرىٰ القوانين، ثم ينتقل إلىٰ درس القرآن، فإن يتيسر عليك بهذه المقدمة. ثم قال: ويا غفلة أهل بلادنا في أنْ يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ مالا يفهم ويَنْصَبُ في أمرٍ غيرُه أهَمُّ عليه. ثم قال: يُنظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه. ونهىٰ مع ذلك أنْ يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط.

هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو لعمري مذهب حسن. إلا أنَّ العوائد لا تساعد عليه، وهي أملكُ بالأحوال، ووجه ما اختُصّت به العوائد من تقدم

دراسة القرآن إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن... ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولىٰ مما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء، لا معقّب لحكمه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.[1]

**٤١- فصل في أنَّ الشدة علىٰ المتعلمين مضرّة بهم:**

وذلك أنَّ إرهاف الحد بالتعليم مُضِرٌّ بالمتعلم، سيما في أصاغر الوُلد؛ لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلىٰ الكسل، وحُمل علىٰ الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخُلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً علىٰ غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدىٰ إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين.

وهكذا وقع لكلّ أُمَّة حصلت في قبضة القهر، ونال منها العسف، واعتبره في كل من يُمْلَكُ أمرُه عليه، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقراءَ. وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتىٰ إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه.

فينبغي للمعلم في مُتعلِّمه، والوالد في وُلده أنْ لا يستبدا عليهما في التأديب، وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أنْ يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه علىٰ ثلاثة أسواط شيئاً. ومنكلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله. حرصاً علىٰ صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع بذلك أملك له، فإنَّه أعلم بمصلحته.

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١١٧-١١١٨.

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين، فقال: يا أحمر! إنَّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرّفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرَّنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أنْ تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة. انتهى.[1]

**٤٢- فصل في أنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم:**

والسبب في ذلك أنَّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مُخَلِّطةٌ على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويَعْلَم أنَّها أنحاءُ تعليمٍ وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسَّر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النور: ٤٦].[2]

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١١٩-١١٢٠.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١١٢٠.

**٤٣- في أنَّ العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها:**

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري، والغوص على المعاني، وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة، ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة، ولا شخص، ولا جيل ولا أمة، ولا صنف من الناس، ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات، وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها، بما اعتادوه من القياس الفقهي، فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر، ولا تصير بالجملة إلى مطابقة، وإنما يتفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك، كالأحكام الشرعية، فإنها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة، فتطلب مطابقة ما في الخارج لها، عكس الأنظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية، لا يعرفون سواها.

والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفيةٌ، ولعل أنَّ يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكلي الذي يُحاول تطبيقه عليها، ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر؛ إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور.

فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط كثيراً، ولا يؤمن عليهم. ويلحق بهم أهل الذكاء والكَيْس من أهل العمران؛ لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط، والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك، وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدّي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثرنظره المواد المحسوسة، ولا يجاوزها في ذهنه.[1]...

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٢٠-١١٢١.

**٤٤- في أنَّ حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم:**

من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته، ومرباه ومشيخته، مع أنَّ الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي.

والسبب في ذلك أنَّ الـمِلَّة في أوَّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضىٰ أحوال السذاجة والبداوة، وإنَّما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دُفعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة، وجرىٰ الأمر علىٰ ذلك زمن الصحابة والتابعين، وكانوا يُسَمُّون المختصين بِحَمْل ذلك ونَقْله "القرَّاء"؛ أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين؛ لأَنَّ الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً، فقيل: لحملة القرآن يومئذ "قرّاء" إشارة إلىٰ هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسول الله؛ لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه، ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح، قال ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنتي."

فلما بعُدَ النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلىٰ وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم احتيج إلىٰ معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلىٰ وضع القوانين النحوية. وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت إلىٰ علوم أخرىٰ، وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس، والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة، لكثرة البدع والإلحاد، فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات، محتاجة إلىٰ التعليم فاندرجت في جملة الصنائع.

وقد كنا قدمنا أنَّ الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد عنها العرب وعن سوقها، والحضر لذلك العهد

هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي، وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس.

فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما، وكلهم عجمٌ في أنسابهم، وإنما رُبوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمَرْبَى ومخالطة العرب، وصيَّروه قوانين وفناً لمن بعدهم.

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمَرْبَى، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً، كما يُعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله ﷺ: "لو تعلّق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس."

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم، والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها، وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع، والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن، وما يجرّ إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين، وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنَّه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى إذا خرج الأمر من العرب جملةً وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك، بما هم عليه من البعد عن نسبتها، وامتهن حَمَلَتُها بما يرون أنهم بُعَداء عنهم، مشتغلون بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية.

فهذا الذي قررناه هو السبب في أنَّ حملة الشريعة أو عامَّتَهم من العجم. وأمَّا العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أنْ تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب، وانصرفوا عن انتحالها، فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً.

فلم يزل ذلك في الأمصار مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر، فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سرّ الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع.

وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر، وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد، وهو سعد الدين التفتازاني، وأما غيره من العجم فلم نرَ لهم من بعد الإمام ابن الخطيب، ونصير الدين الطوسي كلاماً يعوّل على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليقة، والله يخلق ما يشاء، لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله.[1]...

**٤٧- فصل في أنَّ اللغة ملكة صناعية:**

اعلم أنّ اللغات كلَّها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني. وجودتُها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأَنَّ الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة؛ أي صفة راسخة.

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٢٢-١١٢٤.

استعمال المفردات في معانيها، فيلقّنُها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فليقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أنْ يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها العجم والأطفال.[1]...

**٣١- فصل في تعليم اللسان المضري:**

اعلم أنّ ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر، التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمنا. إلا أنَّ اللغات لَمَّا كانت ملكات كما مرّ كان تعلُّمُها ممكناً شأن سائر الملكات. ووَجْه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة، ويروم تحصيلها أنْ يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلةَ من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتها رسوخاً وقوة.[2]...

**٥١- فصل في أنَّ ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعاليم:**

والسبب في ذلك، أنَّ صناعة العربية، إنَّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنَّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً...

وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه. وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإنَّ العلم بقوانين الإعراب، إنَّما هو علم بكيفية العمل،

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١١٤٦.

وليس هو نفس العمل. ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سُئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجِدْ تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجدي الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.[1]...

وقد كدنا أنْ نخرج على الغرض. ولذلك عزمنا أنْ نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران، وما يعرض فيه. وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية. ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص مسائله على أكثر مما كتبنا. فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله، ما يتكلم فيه. والمتأخرون يُلْحِقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أنْ يكمل، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقّحته بعد ذلك وهذّبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم.[2]

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٢١٣.

# (١٦)
# فِي أَدَبِ المُفِيدِ وَالمُسْتَفِيدِ

## زَيْنُ الدِّينِ بن نُور الدِّين عَلِيّ الْعَامِلِيّ (توفي: ٩٦٥هـ)

**مهمة المعلم ثقيلة:**

فإنَّ العالِمِ الصالح في هذا الزمان بمنزلة نبي من الأنبياء ... بل هم في هذا الزمان أعظم. ومتىٰ كان كذلك فليعلم أنه قد علق في عنقه أمانة عظيمة، وحمل أعباء من الدين ثقيلة. فليجتهد في الدين جهده، وليبذل في التعليم جدَّه، عسىٰ أن يكون من الفائزين. (١٥٧)

**علاقة العالم بتلميذه الذي تخرج عنده:**

إذا تكمَّل الطالب وتأهَّل للاستقلال بالتعليم، ... فينبغي أن يقوم المعلم بنظام أمره في ذلك، ويمدحه في المحافل، ويأمر الناس بالاشتغال عليه والأخذ عنه. ... فإنَّ ذلك سببٌ عظيم لانتظام العلم وصلاح الحال، كما أنه لو رأىٰ منه ميلاً إلىٰ الاستبداد والتدريس ويعلم قصوره عن المرتبة، واحتياجه إلىٰ التعلّم، ينبغي أن يقبِّح ذلك عنده، ويشدّد النكير عليه في الخلاء. (ص ١٧٣)

الفصل السادس عشر:

# كتاب "منية المريد في أدب المفيد والمستفيد" للعاملي

## أولاً: التعريف بـ"العاملي"

هو زين الدين بن نور الدين علي العاملي، وُلد في قرية جبع من قرىٰ جبل عامل في لبنان، عام ٩١١هـ، لأسرة اشتُهرت بالعلم علىٰ مدىٰ أجيال عديدة، أخذ علوم العربية والفقه علىٰ يد والده، ثم عن عدد كبير من علماء عصره منهم: الشيخ علي بن الحسين الكركي العاملي، المعروف بالمحقق الثاني، والشيخ علي بن عبد العالي الميسي، والسيد بدر الدين الحسيني العاملي الكركي، والشيخ شمس الدين محمد بن مكي الشامي، والشيخ جمال الدين أحمد بن محمد بن خاتون العاملي العيناتي، والشيخ أبو الحسن البكري من علماء مصر.

اشتهر بعلمه وتواضعه وصلاته الجيدة باتباع المذاهب المختلفة. سافر إلىٰ القسطنطينية وقابل قاضي القضاة في الدولة العثمانية، فأُعجب به وخيَّره أن يدرس في أيّ مكان يشاء، فاختار المدرسة النورية في بعلبك. ولم يقتصر في تدريسه علىٰ علوم المذهب الجعفري، بل كان يدرس الفقه المقارن والعقائد التطبيقية، نظراً لتضلّعه بفقه المذاهب الخمسة: الجعفرية، والحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية. لكنَّ أحد الحاقدين عليه قدّم به وشاية إلىٰ السلطان سليم في القسطنطينية، فأمر السلطان بإحضاره ليقابل العلماء، لكنَّ من كلّف بإحضارة قتله غِيلَة، وذلك عام ٩٦٥هـ، فلمّا علم السلطان بذلك أحضر القاتل وأمر بقتله. وعرف عند علماء الشيعة الإمامية بالشهيد الثاني.[1]

أمضىٰ قرابة ثلاثين عاماً من عمره في أسفار ورحلات، للعلم والعبادة والتعلم، رحل إلىٰ الشام، والعراق، ومصر، والحجاز، وتركيا. وعُرف بتضلعه بعلوم كثيرة

(١) أما الشهيد الأول فهو عالم إمامي عاملي آخر، هو: الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين مكي العاملي، قتل في دمشق عام (٧٨٦هـ)، بعد وشاية من جماعة صوفية متطرفة.

منها: الفقه، والأُصول، والحديث، وعلوم الهيئة، والفلَك، والطبّ، والرياضيّات، والأدب، والكلام.

**من تلاميذه:** الشيخ أحمد بن نعمة الله علي بن جمال الدين العيناتي العاملي، والشيخ حسين بن شرف العيناتي، والشيخ حسين بن عبدالصمد الحارثي، وأخوه الشيخ عبد النبي الجبعي العاملي، والسيّد علي بن الحسين بن أبي الحسن الموسوي العاملي، والشيخ محمّد بن علي بن الحسن العودي الجزيني العاملي المعروف بابن العودي الجزيني، وغيرهم.

**من مؤلفاته:** غُنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدِّثين، وجواهر الكلمات في صيغ العقود والإيقاعات، والتنبيهات العَلية على وظائف الصلاة القلبية، ونتائج الأفكار في حكم المقيمين في الأسفار، والروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: واللمعة الدمشقية هو كتاب للشهيد الأول محمد بن مكي العاملي، ومسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام، وهو كتاب فقهي للمحقق الحلي، وروض الجنان في شرح إرشاد الأذهان: وكتاب الإرشاد هو للعلامة الحلي، ومنار القاصدين في معرفة معالم الدين، ومُنية المريد في آداب المفيد والمستفيد، وهو كتابٌ في آداب المعلمين والمتعلمين والقضاة، وتمهيد القواعد الأُصولية والعربية.

## ثانياً: التعريف بـ"منية المريد في أدب المفيد والمستفيد"[1]

يُعد كتاب: "منية المريد في آداب المفيد والمستفيد" من كتب التراث التربوي الشيعي الجعفري، وهو كتابٌ تربوي أخلاقي، ويعد من أكبر كتب التراث التربوي الإسلامي حجماً، حيث تبلغ كلماته حوالي: ٥٦ ألف كلمة، في (٢٢٠ صفحة)، يحدد فيه المؤلف ما ينبغي أن يتحلَّى به العلماء، والقضاة، والمعلمون، والمتعلمون في مجالات العلوم الدينية.

وجاء الكتاب في مقدمة وأربعة أبواب، وخاتمة. تضمت المقدمة بيان فضل العلم وأهميته، وأصناف العلماء، موثقة بنصوص من القرآن والسنة، وآثار آل البيت وغيرهم

(١) العاملي، زين الدين بن نور الدين علي. **منية المريد في آداب المفيد والمستفيد**، دراسة وتحليل: عبد الأمير شمس الدين، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

من العلماء والحكماء. وجاء الباب الأول بعنوان آداب المعلم والمتعلم. والباب الثاني في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي. والباب الثالث في المناظرة وشروطها وآدابها، وضوابطها والتمثيل عليها بعدد من مناظرات الأئمة. أما الباب الرابع فكان في آداب الكتابة والكتب. وبيّنت الخاتمة أقسام العلوم الشرعية؛ الأصلية والفرعية، ومراتب العلم الشرعي، وترتيب العلوم بالنسبة للمتعلم.

يتشابه هذا الكتاب في مواضيعه مع غيره من كتب التراث التربوي، خاصة في مسألة آداب المعلم (المفيد) والمتعلم (المستفيد)، بل لعل من المناسب هنا التنبيه على أنَّ معظم مباحث ومصنفات التراث التربوي بصورة عامة تكاد تتفق وتتطابق في مضمونها، بل وفي بعض عباراتها، بغض النظر عن اتجاه مؤلفيها، أو المدرسة التي ينتمون إليها، سنياً كان أو شيعياً، فقيهاً أو محدثاً أو فيلسوفاً، ولو تتبعنا ما ورد في هذا الكتاب بالمقارنة مع كتاب الغزِّي مثلاً، لوجدنا أكثر نصوص الكتابين متطابقة إلى حد كبير، والاختلاف الوحيد ربَّما يكون إما في ترتيب الفقرات بين تقديم وتأخير، أو شيء يسير من الحذف أو الإضافة، ويمكن ملاحظة ذلك على وجه الخصوص في باب المناظرة وشروطها وآدابها، وهي الباب الثالث عند العاملي، والباب الخامس عند الغزِّي. والمفقود من هذا الباب هو الأمثلة على مناظرات العلماء التي أثبتها الغزِّي واستبعدها العاملي، وربما يكون السبب أنَّ معظم الأمثلة الذي ذكرها الغزِّي هي مناظرات علماء السنة ولا سيما الإمام الشافعي. وكذلك الأمر في باب آداب الكتابة والكتب التي هي آلة العلم، وهو الباب الرابع عند العاملي، والباب السادس عند الغزِّي.

ولكنَّ هذا الكتاب يتميز عن غيره من كتب التراث التربوي الإسلامي، بما يتضمنه من نصوص وإحالات إلى إئمة آل البيت، وعلماء الشيعة الإثني عشرية.

## ثالثاً: مختارات من "منية المريد في آداب المفيد والمستفيد"

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله على حبيبه وعبده ونبيه محمد أفضل من عَلِم وعلّم، وعلى آله وأصحابه المتأدبين بآدابه وسلّم.

أما بعد:

فإنَّ كمال الإنسان إنَّما هو بالعلم الذي يُضاهي به ملائكة السماء، ويستحق به رفيع الدرجات في العقبىٰ مع جميل الثناء في الدنيا، ويتفضّل مداده علىٰ دماء الشهداء، وتضع الملائكة أجنحتها تحت رجليه إذا مشىٰ، ويستغفر له الطيرُ في الهواء، والحيتان في الماء، ويفضل نومة ليلة من لياليه علىٰ عبادة العابدين سبعين سنة، وناهيك بذلك جلالة وعظماً.

لكن ليس جميع العلم يوجب الزلفىٰ، ولا تحصيله كيف اتفق يثمر الرضا، بل لتحصيله شرائط، ولترتيبه ضوابط، وللمتلبس به آداب ووظائف، ولطلبه أوضاع ومعارف، ولا بدَّ لمن أراد شيئاً منه الوقوف عليها والرجوع في مطلوبه إليها، لئلا يضيع سعْيُه ولا يحمد جِدُّه.[1]...

وقد رأينا في هذه الرسالة إفرادَ نبذة من شرائط العلم وآدابه، وما يتبع ذلك من وظائف نافعة إن شاء الله تعالىٰ لمن تدبّرها، موصلةٍ إلىٰ بُغْيَتِه إذا رعاها ونقشها علىٰ صحائف خاطره، وكرَّرها مستنبطاً من كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله، وأئمته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكلام أساطين الحكمة والدين، والعلماء الراسخين، وسمَّيْتُها: مُنْيَة الـمُرِيد في آدَاب الـمُفِيدِ والـمُسْتَفِيد.

وأنا أسأل الله تعالىٰ، من فضله العميم وجوده القديم، أن ينفع بها نفسي وخاصتي وأحبائي، ومن يوفق لها من المسلمين، وأن يجزل عليها أجري وثوابي، ويثبت لي بها قدم صدق يوم الدين، إنَّه جواد كريم. وهي مُرَتَّبَةٌ علىٰ مقدمة وأبواب وخاتمة.[2]

## الفصل الأول: شواهد نقليّة

### أولاً: من القرآن

أما المقدمة فتشتمل علىٰ جملة من التنبيه علىٰ فضله من الكتاب والسنة والأثر، ودليل العقل وفضل حامليه ومتعلميه، واهتمام الله تعالىٰ بشأنهم، وتميزهم عمن سواهم.

---

(١) المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩٠.

اعلم أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل العلم هو السبب الكلي لخلق هذا العالَـم العلوي والسفلي طراً، وكفىٰ بذلك جلالة وفخراً. قال الله تعالىٰ في محكم الكتاب تذكرة وتبصرة لأولي الألباب: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وكفىٰ بهذه الآية دليلاً علىٰ شرف العلم، لا سيما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم ومدار كل معرفة. وجعل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العلم أعلىٰ شرف، وأوَّل منّة امتنَّ بها علىٰ ابن آدم بعد خلقه وإبرازه من العدم إلىٰ ضياء الوجود، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أوَّل سورة أنزلها علىٰ نبيه محمد ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١ - ٤]. فتأمل كيف افتتح كتابه الكريم المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد بنعمة الإيجاد، ثم أردفها بنعمة العلم. فلو كان ثَـمَّة مِنّة أو يوجد نعمة بعد نعمة الإيجاد هي أعلىٰ من العلم، لما خصَّهُ الله تعالىٰ بذلك وصدر به نور الهداية، وطريق الدلالة علىٰ الصراط المستقيم، الآخذ بحجزة البراعة ودقائق المعاني وحقائق البلاغة.[1]...

وبنىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قبول الحق والأخذ به علىٰ التذكّر، والتذكّر علىٰ الخشية، وحصر الخشية في العلماء فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وسمَّىٰ الله تعالىٰ العلم بالحكمة. وعظّم أمر الحكمة، فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وحاصل ما فسروه في الحكمة مواعظ القرآن والعلم والفهم والنبوة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]. والكلُّ يرجع إلىٰ العلم. ورجّح العالمين علىٰ كل من سواهم، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. وقرن في كتابه العزيز بين سبعة: بين الخبيث والطيب: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وبين الأعمىٰ والبصير، والظلمة والنور، والجنة والنار، والظل والحرور. وإذا

(١) المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

تأملت تفسير ذلك وجدت مرجعه جميعاً إلى العلم.

وقرَن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أُولِي العلم بنفسه وملائكته، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وزاد في إكرامهم على ذلك مع الاقتران المذكور بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، وبقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].(١)...

وفضل العلماء على جميع الأصناف بدرجات، فوجب كون العلماء أفضل الناس. وقد خصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العلماء بخمس مناقب:

**الأول**: الإيمان، والراسخون في العلم يقولون آمنا.

**الثاني**: التوحيد، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

**الثالث**: البكاء والحزن، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

**الرابع**: الخشوع، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

**الخامس**: الخشية، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى مخاطباً لنبيِّه آمراً له مع ما آتاه من العلم والحكمة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

**ثانياً: من السُّنَّة**

**فصل**: وأمَّا السُّنَّة، فهي في ذلك كثيرة تنبو عن الحصر، فمنها قول النبي: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين." وقوله ﷺ: "من طلب علماً فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علماً لم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر." وقوله ﷺ: "من أحبَّ

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فوالذي نفسه بيده ما مَرَّ متعلم يختلف إلى باب العالِـم، إلا كتب الله بكل قدم عبادة سنة، وبنى الله له لكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض وهي تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له. وشهدت الملائكة أنَّـهم عُتقاء الله من النار."

وقوله ﷺ: "من طلب العلمَ فهو كالصائم نهاره، القائم ليله، وإنّ باباً من العلم يتعلّمه الرجل خيرٌ له من أن يكون أبو قبيس ذهباً فأنفقه في سبيل الله." وقوله ﷺ: (من جاءه الموتُ وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام؛ كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة). وقوله ﷺ: "فضلُ العالم على العابد سبعين درجة، بين كل درجتين حُضْر الفرس سبعين عاماً،" وقوله ﷺ: ذلك لأَنَّ الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد يقبل على عبادته. وقوله: "فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم، وإن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحْرها، وحتى الحوت في الماء ليصلُّون على معلِّم الناس الخيرَ."

وقوله ﷺ: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع." وقوله ﷺ: "من خرج يطلب باباً من العلم ليردَّ به باطلاً إلى حق، وضالاً إلى هدى؛ كان عمله كعبادة أربعين عاماً." وقوله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ من أن يكون لك حُمر النعم." وقوله ﷺ لمعاذ: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها."[1]...

وقوله ﷺ: "إنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضاً بما يصنع." وقوله ﷺ: "اطلبوا العلم ولو بالصين." وقوله ﷺ: "من غدا في طلب العلم أظلَّت عليه الملائكة، وبُورك له في معيشته، ولم يُنقص من رزقه." وقوله ﷺ: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة".[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٩٧-٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩.

**ثالثاً: عن الأئمة**

**فصل**: ومن طريق الخاصة ما رويناه بالإسناد الصحيح إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، عن آبائه عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، عن النبي ﷺ أنَّه قال: "طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم، فاطلبوا العلم في مظانّه واقتبسوه من أهله."[1]...

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: أيها الناس! اعلموا أنَّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإنَّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، إنَّ المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم وقد ضمنه وسيبقى لكم، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه.

وعنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: العالِـم أفضل من الصائم القائم المجتهد، وإذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثَلْمٌ لا يسده إلا خَلَفٌ منه. وعنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدَّعيه من لا يُحسنه، ويفرح إذا نسب إليه؛ وكفى بالجهل ذماً أن يبرأ منه من هو فيه.[2]...

وعنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: قيمة كل امرئ ما يعلمه، وفي لفظ آخر: ما يحسنه. وعن زين العابدين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه، ولو بسفك المهج، وخوض اللجج، إنَّ الله تعالى أوحى إلى دانيال: أنّ أمقت عبادي إليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإنَّ أحبَّ الناس عبيدي إليّ، التقيّ الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء، القابل عن الحكماء.

وعن الباقر عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: قال: من علّم بابَ هُدَىً فله مثل أجر من عمل به، ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به، ولا ينقص لأولئك من أوزارهم شيئاً. وعنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: عالمٌ يُنتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد. وعنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: أنَّ الذي يعلّم العلم منكم له مثل أجر المتعلم، وله الفضل عليه، فتعلّموا العلم من حملة العلم وعلموه إخوانكم كما علَّمَكُمُوه العلماء.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

**رابعاً: من الأحاديث والتفسيرات**

**فصل:** من تفسير العسكري في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]... وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلىٰ نور العلم الذي حبوناه به، جاء يوم القيامة علىٰ رأسه تاج من نور ينادي مناد: هذا عالم من بعض تلامذة آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.[1]...

وقال محمدُ بنُ عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: العالم كمن معه شمعة تضيء للناس، فكلُّ مَنْ أبصر شمعته دعا له بخير. كذلك العالِـم معه شمعة يزيل بها ظلمة الجهل والحيرة. فكلُّ من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل، فهو من عتقائه من النار، والله تعالىٰ يعوّضه عن ذلك بكل شعرة لمن أعتقه ما هو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار علىٰ غير الوجه الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، بل تلك الصدقة وبال علىٰ صاحبها، لكن يعطيه الله ما هو أفضل من مائة ألف ركعة بين يدي الكعبة.[2]...

**خامساً: من الحكمة القديمة**

ومن الحكمة القديمة. قال لقمان لابنه: يا بُنَـيَّ، اختر المجالس علىٰ عينك، فإنْ رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم، فإنْ تكن عالماً نفعك علمك، وإن تكن جاهلاً علّموك، ولعل الله أن يظلهم برحمته فتعُمَّك معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنْ تكن عالماً لم ينفعك علمك، وإن كنت جاهلاً يزيدوك جهلاً. ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فتعُمك معهم.

وفي التوراة، قال الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عظّم الحكمة، فإنِّي لا أجعل الحكمة في قلب واحد إلا وأردت أن أغفر له. فتعلَّمْها ثم اعمَلْ بها، ثم ابذلْـها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة.

وفي الزبور: قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم: حادثوا من الناس الأتقياء، فإنْ لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء، فإنْ لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء. فإنَّ التقىٰ والعلم

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٧.

والعقل ثلاث مراتب، ما جعلت واحدة منهن في خَلْقِي وأنا أريد هلاكه. قيل: وإنّما قدّم التقىٰ؛ لأَنَّ التقي لا يوجد بدون العلم، كما تقدم من أنَّ الخشية لا تحصل إلا بالعلم، ولذلك قدّم العلم علىٰ العقل؛ لأَنَّ العالم لا بد وأن يكون عاقلاً.

وفي الإنجيل: قال الله تعالىٰ في السورة السابعة عشرة منه: ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه، كيف يُحشر مع الجهال إلىٰ النار. اطلبوا العلم وتعلموه، فإنَّ العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم. ولا تقولوا: نخاف أن نعلم ولا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل. والعلم يشفع لصاحبه وحق علىٰ الله أن لا يخزيه. إنَّ الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء، ما ظنُّكم بربِّكم، فيقولون: ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا، فيقول تعالىٰ: فإنِّي قد فعلت، إنِّي استودعتكم حكمتي لا لشَرٍّ أردتُه بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلىٰ جنَّتي برحمتي.[1]...

**سادساً: من الآثار**

ومن الآثار عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً. وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: "إذا جاء الموت طالب العلم وهو علىٰ هذه الحال مات شهيداً."[2]...

علّم الله سبعة نفر سبعة أشياء: آدم الأسماء كلها، والخضر علم الفراسة، ويوسف علم التعبير، وداود صنعة الدروع، وسليمان منطق الطير، وعيسىٰ التوراة والإنجيل. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨]، ومحمداً ﷺ علم الشرع والتوحيد، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. فعلم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان سبباً في سجود الملائكة له والرفعة، وعلم الخضر كان سبباً لوجود موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تلميذاً له، ويوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ وتذللـه. كما يستفاد من الآيات الواردة في القصة، وعلم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة والاجتباء، وعلم داود كان سبباً للرياسة والدرجة،

---

(١) المرجع السابق، ص١١٠-١١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

وعلم سليمان كان سبب وجدان بلقيس والغلبة، وعلم عيسى كان سبباً لزوال التهمة عن أمه، وعلم محمد ﷺ كان سبباً في الشفاعة.[1]

**سابعاً: عن العلماء والحكماء**

قال بعض المحققين: العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله غير عالم بأمر الله، فهو عبدٌ استولت المعرفة الإلهية على قلبه، فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال والكبرياء، فلا يتفرغ لتعلم علم الأحكام إلا ما لا بد منه. وعالمٌ بأمر الله غير عالم بالله، وهو الذي عرف الحلال والحرام ودقائق الأحكام، لكنه لا يعرف أسرار جلال الله. وعالمٌ بالله وبأمر الله، فهو جالسٌ على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات، فهو تارة مع الله بالحب له، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة، فإذا رجع من ربه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم، كأنه لا يعرف الله، وإذا خلا بربه مشتغلاً بذكره وخدمته، فكأنه لا يعرف الخلق، وهذا سبيل المرسلين والصديقين، وهو المراد بقوله ﷺ: "سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء." فالمراد بقوله ﷺ: سائل العلماء، العلماء بأمر الله غير العالمين بالله، فأمر بمساءلتهم عند الحاجة إلى الاستفتاء. وأما الحكماء: فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله، فأمر بمخالطتهم. وأما الكبراء: فهم العالمون بهما، فأمر بمجالستهم؛ لأنَّ في مجالستهم خير الدنيا والآخرة.

ولكل واحد من الثلاثة ثلاث علامات: فللعالم بأمر الله: الذكر باللسان دون خوف، والخوف من الخلق دون الرب، والاستحياء من الناس في الظاهر ولا يستحيي من الله في السر. والعالم بالله ذاكرٌ خائفٌ مستحي: أما الذكر فذكر القلب لا اللسان، والخوف خوف الرجاء لا خوف المعصية، والحياء حياء ما يخطر على القلب لا حياء الظاهر. والعالم بالله وأمره، له ستة أشياء: الثلاثة المذكورة للعالم بالله فقط مع ثلاثة أخرى، كونه جالساً على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وكونه معلماً للمسلمين، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو مستغنٍ عنهما.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

فمثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس لا يزيد ولا ينقص، ومثل العالم بالله فقط كمثل القمر يكمل تارة وينقص أخرى، ومثل العالم بأمر الله كمثل السراج يحرق نفسه ويضيء لغيره.[1]

## الفصل الثاني: شواهد عقلية

وأما دليل العقل فنذكر منه وجهين:

**أحدهما**: إنَّ المعقولات تنقسم إلى موجودة ومعدومة، والعقول السليمة تشهد بأن الموجود أشرف من المعدوم، بل لا شرف للمعدوم أصلاً، ثم الوجود ينقسم إلى جماد ونام، والنامي أشرف من الجماد، ثم النامي ينقسم إلى حساس وغيره، والحساس أشرف من غيره، ثم الحساس ينقسم إلى عاقل وغير عاقل، ولا شك أنَّ العاقل أشرف من غيره، ثم العاقل ينقسم إلى عالم وجاهل، ولا شبهة في أنَّ العالم اشرف من الجاهل، فتبين بذلك أنَّ العالم أشرف المعقولات والموجودات، وهذا أمر يلحق بالواضحات.

**والثاني**: إنَّ الأمور على أربعة أقسام: قسم يرضاه العقل ولا ترضاه الشهوة، وقسم عكسه، وقسم يرضيانه، وقسم لا يرضيانه.

فالأول: كالأمراض والمكاره في الدنيا، والثاني: المعاصي أجمع، والثالث: العلم، والرابع: الجهل. فنزل العلم من الجهل بمنزلة الجنة من النار، فكما أنَّ العقل والشهوة لا يرضيان بالنار، كذا لا يرضيان بالجهل. وكما أنهما يرضيان بالجنة، كذا يرضيان بالعلم، فمن رضي بالعلم فقد خاض في جنة حاضرة، وبالجهل فقد رضي بنار حاضرة، ثم من اختار العلم يقال له بعد الموت: تعودت المقام في الجنة فادخلها، وللآخر تعودت النار فادخلها. والدليل على أنَّ العلم جنة والجهل نار، أنَّ كمال اللذة في إدراك المخفيات، وكمال الألم في البعد عن المحبوب، فالجراحة إنَّما تؤلم لأنها تبعد جزءاً من البدن عن جزء محبوب من تلك الأجزاء هو الاجتماع، والإحراق بالنار أشد إيلاماً من الجرح؛ لأَنَّ الجرح لا يقبل إلا تبعيد جزء معين، والنار تغوص في جميع

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣-١١٤.

الأجزاء، ويقتضي تبعيد بعض الأجزاء عن بعض. وإذا تقرر ذلك فكلما كان الإدراك أغوص وأشد، والمدرك أشرف وأكمل والمدرك أنقى وأتقى فاللذة أشرف. ولا شك أنَّ محل اللذة هو الروح وهو أشرف من البدن، وأن إدراك العقل أغوص وأشرف، وأما المعلوم فلا شك أنَّه أشرف؛ لأنَّه هو الله رب العالمين وجميع مخلوقاته من الملائكة وغيرهم، وجميع تكليفاته، وأي معلوم أشرف من ذلك؟

فإذن، قد تطابق العقل والنقل على شرف العلم، وارتفاع محله، وعظم جوهره، ونفاسة ذاته. ولنقتصر من المقدمة على هذا القدر.[1]

## الباب الأول

## في آداب المعلّم والمتعلّم

### القسم الأول: آدابهما في أنفسهما

#### الأمر الأول: في النية

**أ- من الكتاب والسنة:**

أول ما يجب عليهما إخلاص النية لله تعالى في طلبه وبذله، فإنَّ مدار الأعمال على النيات، وبسببها يكون العمل تارة خزفة لا قيمة لها، وتارة جوهرة لا يعلم قيمتها لعظم قدرها. وتارة وبالاً على صاحبه، مكتوب في ديوان السيئات وإن كان بصورة الواجبات.

فيجب على كل منهما أن يقصد بعمله وجه الله تعالى، وامتثال أمره وإصلاح نفسه، وإرشاد عباده إلى معالم دينه، ولا يقصد بذلك غرض الدنيا من تحصيل مال أو جاه أو شهرة، أو تمييز عن الأشباه أو المفاخرة للأقران. أو الترفع على الإخوان، أو نحو ذلك من الأغراض الفاسدة التي تثمر الخذلان من الله تعالى، ويوجب المقت، وتفوت الدار الآخرة والثواب الدائم، فيصير من الأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنَّـهم يحسنون صنعاً.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٥-١١٦.

والأمر الجامع للإخلاص تصفية السر عن ملاحظة ما سوىٰ الله تعالىٰ بالعبادة. قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. قيل: نزلت فيمن يعمل العمل ويحب أن يُحمد عليه. وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠]. وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوىٰ. فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها وامرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه."[1]...

وقال ﷺ: "نية المؤمن خير من عمله، وفي لفظ آخر أبلغ من عمله." وقال ﷺ: "إنما يُبعث الناسُ علىٰ نياتهم." وقال ﷺ مخبراً عن جبرائيل عن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه قال: "الإخلاص سرٌّ من أسراري استودعته قلبَ من أحببت من عبادي." وقال ﷺ: "أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل ذلك، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجه حتىٰ ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار."

وقال ﷺ: "من تعلَّم علماً مما يبتغي به وجه الله عَزَّوَجَلَّ لا يتعلُّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يقوم القيامة." وقال ﷺ: "من تعلم علماً لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار." وقال ﷺ: "من طلب العلم ليجادل به

---

(١) المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.

العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار." وفي رواية: "فليتبوأ مقعده من النار."[1]...

وقال ﷺ: "من طلب العلم لأربع دخل النار: ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس، أو يأخذ به من الأمراء." وقال ﷺ: "ما ازداد عبدٌ علماً فازداد في الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بُعداً." كل علم وبال على صاحبه يوم القيامة إلا من عمل به. وقال ﷺ: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه." وقال ﷺ: "مثل الذي يعلّم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها." وفي رواية: "كمثل السراج."[2]...

وقال ﷺ: "إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان." وقال ﷺ: "ألا إنَّ شرَّ الشرِّ شرار العلماء، وأن خيرَ الخير خيار العلماء."[3]...

**ب- من طريق الخاصة:**

روى الكُلَيْنِي بإسناده إلى عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: قال رسول الله ﷺ: "منهومان لا يشبعان: طالب دنيا وطالب علم، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحل الله له سَلِمَ، ومن تناولها من غير حِلِّها هلك، إلا أن يتوب ويتراجع، ومن أخذ العلم من أهله وعمل به نجا ومن أراد به الدنيا فهي حظُّه."

وبإسناده إلى الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: من طلب العلم، ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار، إنَّ الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها.

وبإسناده إلى أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة. وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٢-١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٣-١٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٤.

إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم، فإنَّ كل محب لشيء يحوط ما أحب. وقال: أوحى الله إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصُدَّك عن طريق محبتي، فإنَّ أولئك قُطَّاعُ طريقِ عبادي المريدين، إنَّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم.[1]...

**جـ- من أحاديث الأنبياء والرسل**

**فصل**: عن النبي ﷺ أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقي الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: أوصني، فقال الخضر: يا طالب العلم، إنَّ القائل أقل ملالة من المستمع فلا تملّ جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أنَّ قلبك وعاء فانظر ما تحشو به وعاءك، واعرف الدنيا وانبذها وراءك، فإنَّها ليست لك بدار، ولا لك فيها محل قرار، وإنَّها جُعلت بُلْغَةً للعباد ليتزودوا منها للمعاد. يا موسى، وطّن نفسك على الصبر تلقَ الحلم، واشعر قلبك التقوى تنل العلم، ورضّ نفسك على الصبر تَخْلُصْ من الإثم. يا موسى، تفرّغ للعلم إن كنت تريده، فإنَّما العلم لمن تفرغ له ولا تكوننّ مكثاراً بالمنطق، مهذاراً، إنَّ كثرة المنطق تشين العلماء، وتبدي مساوئ السخفاء، ولكن عليك بذي اقتصار فإنَّ ذلك من التوفيق والسداد، واعرض من الجهال، واحلم عن السفهاء، فإنَّ ذلك فضلُ الحلماء، وزين العلماء، إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه سلماً، وجانبه حزماً، فإنَّ ما بقي من جهله عليك، وشتمه إياك أكثر.

يا ابن عمران، لا تفتحنَّ باباً لا تدري ما غَلْقُه، ولا تُغْلِقَنَّ باباً لا تدري ما فتحه. يا ابن عمران: من لا تنتهي من الدنيا نهمته ولا تنقضي فيها رغبته كيف يكون عابداً، من يحقر حاله، ويتهم الله بما قضى له، كيف يكون زاهداً؟ يا موسى: تعلَّم ما تعلم لتعمل به، ولا تعلمه لتحدث به، فيكون عليك بوره، ويكون على غرك نوره.[2]...

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: من تعلم علماً من علم الآخرة ليريد به غرضاً من غرض الدنيا لم يجد ريح الجنة.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٨.

**د- في درجة الإخلاص**

**فصل**: هذه الدرجة هي درجة الإخلاص، عظيمة المقدار، كثيرة الأخطار، دقيقة المعنى، صعبة المرتقي، يحتاج طالبها إلى نظر دقيق، وفكر صحيح، ومجاهدة تامة، وكيف لا يكون كذلك وهو مدار القبول، وعليه يترتب الثواب، وبه تظهر ثمرة عبادة العابد، وتعب العالم، وجد المجاهد، ولو فكر الإنسان في نفسه، وفتش عن حقيقة عمله لوجد الإخلاص فيه قليلاً، وشوائب الفساد إليه متوجهة، والقواطع عليه متراكمة، سيما المتصف بالعلم وطالبه، فإنَّ الباعث الأكثرى سما في الابتداء لباغي العلم طلب الجاه والمال والشهرة، وانتشار الصيت ولذة الاستيلاء، والفرح بالاستتباع، واستثارة الحمد والثناء، وربَّما يلبّس عليهم الشيطان مع ذلك ويقول لهم: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ.[1]...

وربَّما لبّس الشيطان على بعض العالمين، ويقول: إنَّما غمُّك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس إلى غيرك؛ إذ لو رجعوا إليك، أو اتعظوا بقولك، وأخذوا عنك، لكنتَ أنتَ المثاب، واغتمامُك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أنَّ انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً، وأعود عليه في الآخرة من انفراده.[2]...

**الأمر الثاني: في العلم والعمل**

**أ- استعمال ما يعلمه:**

استعمال ما يعلمه كل منهما شيئاً فشيئاً، فإنَّ العاقل همُّه الرعاية، والجاهلَ همُّه الرواية. وقد روي عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: "العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإنَّ أهل النَّار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه. وإنَّ أشد أهل النَّار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فاستجاب له وقَبِلَ منه، فأطاع الله فأدخله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى

(١) المرجع السابق، ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٩.

وطول الأمل، أمَّا اتباع الهوىٰ فيصدُّ عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة."[1]...

وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما العلم؟ قال: "الإنصات،" قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: "الاستماع،" قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: "الحفظ،" قال ثم مه؟ قال: "العمل به،" قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: "نشره."

وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: كان لموسىٰ بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جليساً من أصحابه قد وعىٰ علماً كثيراً، فاستأذن موسىٰ في زيارة أقارب له فقال له موسىٰ: إنَّ لصلة القرابة لحقاً، ولكن إيَّاك أن تركن إلىٰ الدنيا، فإنَّ الله قد حملك علماً فلا تضيعه وتركن إلىٰ غيره.[2]...

**ب- منزلة العلم من العمل:**

**فصل**: اعلم أنَّ العلمَ بمنزلة الشجرة، والعملَ بمنزلة الثمرة. والغرضُ من الشجرة المثمرة ليس إلا ثمرتُها، أمَّا شجرتُها بدون الاستعمال فلا يتعلق بها غرضٌ أصلاً، فإنَّ الانتفاع بها في أيِّ وجهٍ كان ضربٌ من الثمرة بهذا المعنىٰ، وإنّما كان الغرض الذاتي من العلم مطلقاً العمل؛ لأَنَّ العلوم كلَّها ترجع إلىٰ أمرين: علم معاملة، وعلم معرفة. فعلمُ المعاملة هو معرفة الحلال والحرام ونظائرُهما من الأحكام، ومعرفةُ أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، وكيفية علاجها والفرار منها. وعلمُ المعرفة كالعلم بالله تعالىٰ وصفاته وأسمائه، وما عداها من العلوم، إمَّا آلات لهذه العلوم، أو يراد بها عمل من الأعمال في الجملة. كما لا يخفىٰ علىٰ من تتبعها.[3]...

**ج- في ضروب تقصير العالم**

**فصل**: وللعالِم في تقصيره في العمل، بعد أخذه بظواهر الشريعة، واستعمال ما دوّنه الفقهاء من الصلاة، والصيام، والدعاء، وتلاوة القرآن، وغيرها من العبادات، ضروب

---

(١) المرجع السابق، ص١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٣.

أخر. فإنَّ الأعمال الواجبة عليه فضلاً عن غير الواجبة منحصرة فيما ذكر، بل من الخارج عن الأبواب التي رتَّبها الفقهاء، ما هو أهمُّ. ومعرفته أوجب، والمطالبة به والمناقشة عليه أعظم، وهو تطهير النفس من الرذائل الخُلقية، من الكِبْر والرياء والحسد والحقد وغيرها من الرذائل المهلكات، مما هو مقرر في علوم تختص به، وحراسة اللسان عن الغيبة والنميمة، وكلام ذي اللسانين، وذكر عيوب المسلمين وغيرها.[1]...

**الأمر الثالث: التوكل على الله**

**فصل**: ولكلِّ واحد منهما شرائط متعددة ووظائف متبددة بعد هذين، إلا أنَّها بأسرها ترجع إلى الثاني، أعني استعمال العلم. فإنَّ العلم متناول لمكارم الأخلاق وحميدِ الأفعال والتَّنَزُّهِ عن مساوئها، فإذا استعمله على وجهه أوصله إلى كل خير يمكن طلبه، وأبعده عن كل دَنِيَّةٍ تُشِينُه.[2]...

**الأمر الرابع: في حسن الخُلق**

والرابع حُسن الخلق زيادة على غيرهما من الناس والتواضع، وتمام الرفق، وبذل الوسع في تكميل النفس. وروي عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطِلُكُم بِحَقِّكُم.[3]...

**الأمر الخامس: في عِفَّة النفس**

أن يكون عفيف النفس عالي الهمة، منقبضاً عن الملوك وأهل الدنيا، لا يدخل إليهم طمعاً، ما وجد إلى الفرار منهم سبيلاً، صيانة للعلم كما صانه السلف. فمن فعل ذلك فقد عرَّض نفسه وخان أمانته. وكثيراً ما يثمر عدم الوصول إلى البُغْيَة، وإن وصل إلى بعضها لم يكن حاله كحال المتعفِّف المنقبض، وشاهدُه مع النقل الوجدان.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٤٤.

**الأمر السادس: في المحافظة على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام**

السادس أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، كإقامة الصلوات في مساجد الجماعات، محافظاً على شريف الأوقات، وإفشاء السلام للخاص والعام مبتدئاً ومجيباً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى، بسبب ذلك، صادعاً بالحق، باذلاً نفسه لله، لا يخاف لومة لائم، متأسياً بذلك بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء، متذكراً ما نزل بهم من المحن عند القيام بأوامر الله تعالى. ولا يرضى من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز، بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها، فإنَّ العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع، وهم حجة الله تعالى على العوام. وقد يراقبهم للأخذ منهم من لا ينظرون إليه، ويقتدي بهم من لا يعلمون به، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه، فغيره أبعد عن الانتفاع به.[1]...

**القسم الثاني: آدابهما في درسهما واشتغالهما**

وهي أمور:

**الأمر الأول: استمرار التحصيل والاشتغال بالقراءة والمطالعة**

أن لا يزال كلٌّ منهما مجتهداً في الاشتغال قراءة ومطالعة، وتعليقاً ومباحثة، ومذاكرة وفكراً، وحفظاً وإقراء وغيرها، وأن تكون ملازمة الاشتغال بالعلم هي مطلوبه ورأس ماله، ولا يشتغل بغيره من الأمور الدنيوية مع الإمكان وبدونه، ويقتصر منه على قدر الضرورة.

وليكن بعد قضاء وظيفته من العلم، بحسب أوراده. ومن هنا قيل: أعط العِلْمَ كلَّكَ يعطِكَ بعضَه.[2]...

**الأمر الثاني: الابتعاد عن المماراة والجدل بغير الحق**

أن لا يسأل أحداً تَعَنُّتاً وتعجيزاً، بل سؤال متعلّمٍ لله أو معلِّمٍ له، مُنَبِّهٍ على الخير، قاصد للإرشاد أو الاسترشاد. فهناك تظهر زبدة التعليم والتعلّم، وتُثمرُ شجرتُه. فأمَّا

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

إذا قصد مجرد المراء والجدل، وأحب ظهور الفَلْج والغلبة، فإنَّ ذلك يثمر في النفس ملكة رَدِيَّةً وسَجِيَّةً خبيثة، ومع ذلك يستوجب المَقْتَ مِنَ الله تعالى.[1]...

**الأمر الثالث: لا حياء في طلب العلم**

أن لا يستنكف من التعلم والاستفادة ممن هو دونه: في منصبٍ أو سنٍّ أو شهرة، أو دين أو في علم آخر، بل يستفيد ممن يُـمكن الاستفادة منه، ولا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه فتَخْسَرُ صفْقَتُه، ويقلُّ علمُه، ويستحق المقت من الله تعالى. وقد قال النبي ﷺ: "الحكمة ضالَّةُ المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها."[2]...

**الأمر الرابع: الانقياد للحق**

وهو من أهمها: الانقياد للحق بالرجوع عن الهفوة، ولو ظهر على يد من هو أصغر منه. فإنَّه مع وجوبه من بركة العلم، والإصرار على تركه كبر مذموم عند الله تعالى، مُوجب للطرد والبعد.[3]...

**الأمر الخامس: التفكير قبل السؤال أو الجواب**

أن يتأمل ويهذّب ما يريد أن يورده أو يسأل عنه قبل إيراده، والتفوه به، ليأمن من صدور هفوة أو زلة أو وهم، أو انعكاس فهم، فيصير له بذلك ملكة صالحة. وخلاف ذلك إذا اعتاد الإسراع في السؤال والجواب، فيكثر سقطه ويعظم نقصه، ويظهر خطأه، فيعرف بذلك، سيما إذا كان هناك من قرناء السوء من يخشى أن يصيّر ذلك عليه وصمة، ويجعله له عند نظرائه وحسدته وسمة.[4]

**الأمر السادس: الطهارة والتطيب في مجلس الدرس**

أن لا يحضر مجلس الدرس إلا متطهراً من الحدث والخبث، متنظفاً متطيباً في بدنه وثوبه، لابساً أحسن ثيابه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وترويح الحاضرين من الجلساء

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٤.

والملائكة، سيما إن كان في مسجد. وجميع ما ورد من الترغيب في ذلك لمطلق الناس، فهو في حق العالم والمتعلم آكد.[1]

## النوع الثاني: آداب يختص بها المعلم

اعلم أنَّ التعليم هو الأصل الذي به قوام الدين، وبه يؤمن انمحاق العلم، فهو من أهم العبادات، وآكد فروض الكفايات. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ومن مشاهير الأخبار، قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، والأخبار بمعناه كثيرة، وقد مر جملة منها، وآدابه تنقسم ثلاثة أقسام: آدابه في نفسه، وآدابه مع طلبته، وآدابه في مجلس درسه.[2]

### أولاً: آدابه في نفسه:

آدابه في نفسه مضافاً إلىٰ ما تقدم، وهي أمور:

**الأمر الأول**: أن لا ينتصب للتدريس حتىٰ يكمل أهليته، ويظهر استحقاقه لذلك علىٰ صفحات وجهه، ونفحات لسانه، ويشهد له به صلحاء مشايخه.[3]...

**الأمر الثاني**: أن لا يذل العلم، فيبذله لغير أهله، ويذهب به إلىٰ مكان ينسب إلىٰ من يتعلمه منه، وإن كان المتعلم كبير القدر، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف. وأخبارهم في ذلك كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم.[4]...

**الأمر الثالث**: أن يكون عاملاً بعلمه، زيادة علىٰ ما تقدم في الأمر المشترك. قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وعن أبي عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قول

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٦.

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]: من صدق قوله فعله ومن لم يصدق قوله فعله. فليس بعالم وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم. والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.[١]...

**الأمر الرابع**: زيادة حسن الخلق فيه، والتواضع على الأمر المشترك، وتمام الرفق، وبذل الوسع في تكميل النفس. فإنَّ العالم الصالح في هذا الزمان بمنزلة نبي من الأنبياء كما قال النبي ﷺ: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل،" بل هم في هذا الزمان أعظم؛ لأَنَّ أنبياء بني إسرائيل كان يجتمع منهم في العصر الواحد ألوف، والآن لا يوجد من العلماء إلا الواحد بعد الواحد. ومتى كان كذلك فليعلم أنَّه قد علق في عنقه أمانة عظيمة، وحمل أعباء من الدين ثقيلة. فليجتهد في الدين جهده، وليبذل في التعليم جده، عسى أن يكون من الفائزين.[٢]...

**الأمر الخامس**: أن لا يمتنع من تعليم أحد، لكونه غير صحيح النية، فربَّما عسر على كثير من المبتدئين بالاشتغال تصحيح النية لضعف نفوسهم وانحطاطها عن إدراك السعادة الآجلة، وقلة أنسهم بموجبات تصحيحها. فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، مع أنَّه يُرجى ببركة العلم تصحيحها إذا أنس بالعلم. وقد قال بعضهم: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، صارت عاقبته أن صار لله.[٣]...

**الأمر السادس**: بذل العلم عند وجود المستحق، وعدم البخل به، فإنَّ الله تعالى أخذ على العلماء من العهود والمواثيق ما أخذه على الأنبياء، ليبيّنّه للناس ولا يكتمونه.[٤]

**الأمر السابع**: أن يحترز من مخالفة أفعاله لأقواله، وإن كانت على الوجه الشرعي، مثل أن يحرم شيئاً ويفعله، أو يوجب شيئاً ويتركه، أو يندب إلى فعل شيء ولا يفعله.[٥]

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٩.

(٥) المرجع السابق، ص١٥٩.

**الأمر الثامن**: إظهار الحق بحسب الطاعة من غير مجاملة لأحد من خلق الله تعالىٰ. فإذا رأىٰ من أحد ميلاً عن الحق، أو تقصيراً في الطاعة، وعظه باللطف ثم بالعنف، فإن لم يقبل هجره، فإن لم ينجح توصل إلىٰ نهيه ورده إلىٰ الحق بمراتب الأمر بالمعروف، وهذا حكم يختص بالعالم، فيه زيادة علىٰ التكليف عن غيره. وإن شاركه غيره من المكلفين في أصل الوجوب؛ لأَنَّ العالم بمنزلة الرئيس الذي إليه الأمر والنهي، ولقوله أثر في القلوب.[1]...

## ثانياً: آداب المعلم مع طلبته

ويجمعها أمور:

**الأمر الأول**: أن يؤديهم علىٰ التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية. ورياضة النفس بالآداب الدينية، والدقائق الخفية، ويعوّدهم الصيانة في جميع أمورهم الكامنة والجلية، سيما إذا آنس منهم رشداً.

وأول ذلك أن يحرض الطالب علىٰ الإخلاص لله تعالىٰ، في عمله وسعيه، ومراقبة الله تعالىٰ في جميع اللحظات. وأن يكون دائماً علىٰ ذلك حتىٰ الممات.[2]...

**الأمر الثاني**: أن يرغبهم في العمل، ويذكرهم بفضائله وفضائل العلماء، وأنهم ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنهم علىٰ منابر من نور، يغبطهم الأنبياء والشهداء ونحو ذلك مما ورد في فضائل العلم والعلماء من الآيات والأخبار، والآثار والأشعار والأمثال.[3]...

**الأمر الثالث**: أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر، فإنَّ ذلك من تمام الإيمان ومقتضىٰ المواساة. ففي صحيح الأخبار: لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ولا شك أنَّ المتعلم أفضل الإخوان، بل الأولاد كما سيأتي.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٦٣.

**الأمر الرابع**: أن يزجره عن سوء الأخلاق وارتكاب المحرمات والمكروهات أو ما يؤدي إلى فساد حال أو ترك اشتغال أو إساءة أدب، أو كثرة كلام لغير فائدة، أو معاشرة من لا تليق به عشرته، أو نحو ذلك بطريق التعريض ما أمكن، لا بطريق التصريح مع الغنى عنه، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ. فإنَّ التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار.[1]...

**الأمر الخامس**: أن لا يتعاظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع. قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. وقال ﷺ: إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، وقال ﷺ: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع احد لله إلا رفعه الله. وهذا في التواضع لمطلق الناس فكيف بهؤلاء الذين هم معه كالأولاد مع ما هم عليه من ملازمتهم له، واعتمادهم عليه في طلب العلم النافع، ومع ما هم عليه من حق الصحبة وحرمة التردد وشرف المحبة وصدق التودد.[2]...

**الأمر السادس**: وهو من جنس السابق، إذا غاب أحد منهم أو من ملازمي الحلقة زائداً على العادة، يسأل عنه وعن أحواله، وموجب انقطاعه. فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل، كما كان يفعل رسول الله ﷺ مع أصحابه. فإن كان مريضاً عاده، أو في غم خفض عنه، أو مسافراً تفقّد أهله ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوائجهم، ووصلهم بما أمكن. وإن لم يحتاجوا إليه في شيء تودد ودعا.

**الأمر السابع**: أن يستعمل أسماء طلبته وحاضري مجلسه، وأنسابهم وكناهم ومواطنهم وأحوالهم، ويكثر الدعاء لهم. وفي الحديث المسلسل، بالسؤال عن الاسم والكنية والبلد، وأين أنزل فنيه في ذلك.

**الأمر الثامن**: أن يكون سمحاً يبذل ما حصله من العلم، سهلاً بإلقائه إلى مبتغيه، متلطفاً في إفادة طالبيه مع رفق ونصيحة، وإرشاد إلى المهمات وتحريض على حفظ ما

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٤.

يبذله لهم من الفوائد النفيسات، ولا يدخر عنهم من أنواع العلم شيئاً يحتاجون إليه، ويسألون عنه إذا كان الطالب أهلاً لذلك. وليكتم عنهم ما لم يتأهلوا له من المعارف؛ لأَنَّ ذلك مما يفرّق الهمم ويفسد الحال. فإن سأله الطالب شيئاً من ذلك، ينبهه على أنَّ ذلك يضره، وأنه لم يمنعه منه شحاً، بل شفقة ولطفاً...

**الأمر التاسع**: صد المتعلم أن يشتغل بغير الواجب قبله، وبفرض الكفاية قبل فرض العين، ومن فرض العين إصلاح قلبه، وتطهير باطنه بالتقوى. ويقدم على ذلك مؤاخذته هو نفسه بذلك ليقتدي المتعلم أولاً بأعماله، ثم يستفيد ثانياً من أقواله. وكذلك يمنعه من علم الأدب قبل السنّة وهكذا.

**الأمر العاشر**: أن يكون حريصاً على تعليمهم، باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى إفهامهم وأذهانهم، ومهتماً بذلك، مؤثراً له على حوائجه ومصالحه ما لم يكن ضرورة إلى ما هو أرجح منه، ولا يدخر من نصحهم شيئاً، ويفهم كل واحد منهم بحسب فهمه وحفظه، ولا يعطيه ما لا يحتمله ذهنه، ولا يبسط الكلام بسطاً لا يضبطه حفظه، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة.[1]...

**الأمر الحادي عشر**: أن يذكر في تضاعيف الكلام ما يناسبه من قواعد الفن الكلية، التي لا تنخذم. أو يضبط مستثنياتها إن كانت، كقوله: كل ركن تبطل الصلاة بزيادته ونقصانه إلا مواضع مخصوصة، وبينها، وكلما اجتمع سبب ومباشرة قدمت المباشرة على السبب.[2]...

**الأمر الثاني عشر**: أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات والمباحث. فمن وجده حافظاً مراعياً أكرمه وأثنى عليه، وأشاع ذلك ما لم يخف فساد حاله بإعجاب ونحوه.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٥-١٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٧-١٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٨.

**الأمر الثالث عشر**: أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل الدقيقة والنكت الغربية، يختبر بذلك إفهامهم، ويظهر فضل الفاضل ليتدربوا بذلك ويعتادوه.[1]...

**الأمر الرابع عشر**: أن ينصفهم في البحث، فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً، فإنَّ ذلك من بركة العلم.[2]...

**الأمر الخامس عشر**: أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده، في مودة أو اعتناء، مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو ديانة. فإنَّ ذلك ربَّما يوحش الصدر وينفر القلب.

فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً، وأشد اجتهاداً، وأحسن أدباً، فأظهر إكرامه وتفضيله، وبيّن أنَّ زيادة إكرامه لتلك الأسباب. فلا بأس بذلك؛ لأنَّه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات المرجحة.[3]...

**الأمر العشرون**: إذا تكمل الطالب وتأهل للاستقلال بالتعليم، واستغنى عن التعليم فينبغي أن يقوم المعلم بنظام أمره في ذلك، ويمدحه في المحافل، ويأمر الناس بالاشتغال عليه والأخذ عنه. فإنَّ الجاهل بحاله قد لا يأنس ولا يطمئن به. وإن تصدى للتعليم بدون إرشاد من هو معلوم الحال، ولينبه على حاله مفصلاً. ومقدار معلوماته وتقواه وعدالته. ونحو ذلك مما له مدخل في إقبال الناس على التعلم منه. فإنَّ ذلك سبب عظيم لانتظام العلم وصلاح الحال، كما أنَّه لو رأى منه ميلاً إلى الاستبداد والتدريس ويعلم قصوره عن المرتبة واحتياجه إلى التعلم، ينبغي أن يقبح ذلك عنده، ويشدد النكير عليه في الخلاء.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٢-١٧٣.

**ثالثاً: آدابه في درسه**

وهي أمور:

**الأمر الأول**: أن لا يخرج إلى الدرس إلا كامل الأهبة، وما يوجب له الوقار والهيبة في اللباس، والهيئة والنظافة في الثوب والبدن. ويختار له البياض فإنَّه أفضل لباساً، ولا يعتني بفاخر الثياب، بل بما يوجب الوقار وإقبال القلوب عليه، كما ورد النص به في أئمة المحافل من الأعياد والجماعات وغيرهما.[1]...

**الأمر الثاني**: أن يدعو عند خروجه مريداً للدرس بالدعاء المرويّ عن النبي ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِل أو أُزَل، أو أَظْلِم أو أُظْلَم، أو أجهل أو يُجهل عليّ. عزّ جارك، وحلّ ثناؤك، ولا إله غيرك."[2]...

**الأمر الثالث**: أن يُسلّم على من حضر إذا وصل إلى المجلس، ويصلي ركعتين تحية إن كان مسجداً، وإلا نوى بهما الشكر لله تعالى على توفيقه وتأهيله لذلك، أو الحاجة إلى تسديده وتأييده وعصمته من الخطأ، أو مطلقتين، فإنَّ الصلاة خير موضوع. وأما استحبابهما لذلك بخصوصه فلم يثبت، وإن استحبه بعض العلماء. ثم يدعو بعدهما بالتوفيق والأمانة والعصمة.

**الأمر الرابع**: أن يجلس بسكينة ووقار وتواضع وخشوع وإطراق، ثانياً رجليه أو محتبياً غير متربع ولا مقعٍ ولا غير ذلك من الجلسات المكروهة مع الاختيار. ولا يمد رجليه ولا إحداهما من غير عذر، ولا يتكي إلى جنبه ولا وراء ظهره ونحو ذلك. كل ذلك في حال الدرس، أما في غيره فلا بأس؛ لأَنَّ الطلبة بمنزلة أولاده.

**الأمر الخامس**: قيل يجلس مستقبلاً القبلة؛ لأنَّه أشرف، ولقوله ﷺ: "خير المجالس ما استقبل بها،" ويمكن أن يقال باستحباب استدباره لها ليخص الطلبة بالاستقبال؛ لأنهم أكثر. وكذا من يجلس إليهم للاستماع. ومثله ورد في القاضي، إلا أنَّ

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٤.

لذاك مزية زائدة في ذلك، وهي كون الخصوم إلى القبلة تغليظاً عليهم في الحذر من الكلام الباطل، وفي حال الحلف ولا نص هنا على الخصوص.

**الأمر السادس**: أن ينوي قبل شروعه، بل حين خروجه من منزله، تعليم العلم ونشره وبث الفوائد الشرعية، وتبليغ الأحكام الدينية التي أؤتمن عليها، وأمر ببيانها، والازدياد في العلم بالمذاكرة وإظهار الصواب، والرجوع إلى الحق والاجتماع على ذكر الله تعالى. والدعاء للعلماء الماضين والسلف الصالحين، وغير ذلك مما يحضره من المقاصد، فإنَّ بإحضارها بالبال، وكثرتها يزيد ثواب العمل، فإنما الأعمال بالنيات.[1]...

**الأمر السابع**: أن يستقر على سمت واحد مع الإمكان، فيصون بدنه عن الرجف والتنقل عن مكانه، والتقلقل، ويديه عن العبث والتشبيك بهما، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة. ويتقي كثرة المزاح والضحك، فإنَّه يقلل الهيبة ويسقط الحرمة ويزيل الحشمة، ويذهب العزة من القلوب.[2]...

**الأمر الثامن**: أن يجلس في موضع يبرز وجهه فيه لجميع الحاضرين، ويلتفت إليهم التفاتاً خاصاً بحسب الحاجة للخطاب، ويفرق النظر عليهم، ويخص من يكلمه أو يسأله، أو يبحث معه على الوجه بمزيد التفات إليه، وإقبال عليه، وإن كان صغيراً أو وضيعاً. فإنَّ تخصيص المترفعين من أفعال المتجبرين والمرائين، والقارئ من الحاضرين في حكم الباحث، فيخصه بما يتعلق بدرسه، ويعطي غيره من الخطاب والنظر بحسب حاله وسؤاله.

**الأمر التاسع**: أن يحسن خلقه مع جلسائه زيادة على غيرهم، ويوفر فاضلهم بعلم أو سن أو صلاح، أو شرف ونحو ذلك. ويرفع مجالسهم على حسب تقديمهم في الإمامة. ويتلطف بالباقين، ويكرمهم بحسن السلام وطلاقة الوجه والبشاشة والابتسام، وبالقيام على سبيل الاحترام، ولا كراهية فيه بوجه. وإن كان في بعض

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٤-١٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٦.

الأخبار ما يوهمه، وتحقيقه في غير هذا المحل.

**الأمر العاشر**: أن يقدم على الشروع في البحث والتدريس تلاوة ما تيسر من القرآن العظيم، تيمناً وتبركاً. ويدعو عقيب القرآن لنفسه وللحاضرين، ولسائر المسلمين. ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسمي الله تعالى ويحمده ويصلي ويسلم على النبي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ثم يدعو للعلماء الماضين والسلف الصالحين، ولمشايخه خاصة، ولوالديه وللحاضرين. وإن كان في مدرسة ونحوها دعا لواقف المكان. وهذا، وإن لم يرد به نص على الخصوص، لكن فيه خير عظيم وبركة. والمحل موضع إجابة، وفيه اقتداء بالسلف من العلماء، فقد كانوا يستحبون ذلك.[1]...

**الأمر الرابع والعشرون**: أنَّه إذا اتفق له تقرير أو جواب توهمه صواباً، يبادر إلى التنبيه على فساده، وتبيين خطئه قبل تفرق الحاضرين. ولا يمنعه الحياء أو غيره من المبادرة، وتحمله النفس الأمارة على التأخير إلى وقت آخر خال، فإنَّه من خدع النفس وتلبيس إبليس لعنه الله، وفيه ضررٌ عظيم من وجوه كثيرة: منها استقرار الخطأ في قلوب الطلبة، ومنها تأخير بيان الحق مع الحاجة إليه.[2]...

**الأمر الخامس والعشرون**: التنبيه عند فراغ الدرس أو إرادته بما يدل عليه إن لم يعرفه القارئ. وقد جرت عادة السلف أن يقولوا حينئذٍ والله أعلم.

وقال بعض العلماء: أولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الدرس، كقوله: هذا آخره، أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك، ليكون قوله والله أعلم خالصاً لذكر الله ولقصد معناه. وينبغي أن يستفتح كل درس بسم الله الرحمن الرحيم، ليكون ذاكراً الله تعالى في بداءته وخاتمته، وإذا جعل الذكر دليلاً على الفراغ لم يتمخض له.

**الأمر السادس والعشرون**: أن يختم الدرس بذكر شيء من الرقائق والحكم والمواعظ وتطهير الباطن، ليتفرقوا على الخشوع والخضوع والإخلاص. فإنَّ البحث

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٣.

يُورث في القلب قوة ربَّما أعقب قسوة، فليحركه في كل وقت إلى الإقبال، ويلاحظه بالاستكمال. ولا شيء أصلح من تلك الحالة.

هذا كله إذا لم يكن بعد ذلك دروس حاضرة بحيث يكون الاشتغال بها أولى، فيؤخر ذلك إلى الآخر حسب ما يقتضيه الحال.

**الأمر السابع والعشرون**: أن يختم المجلس بالدعاء كما بدأ به، بل هو الآن أولى وأقرب إلى الإجابة لما قد غشيهم من الرحمة، وخصهم من المثوبة، وليتضمن دعاؤهم الأئمة الراشدين والعلماء السابقين، وتعميم جماعة المسلمين، وأن يجعل أعمالهم خالصة لوجهه مقربة إلى مرضاته. وقد ورد أنَّ النبي ﷺ كان يختم مجلسه بالدعاء، وفيه حديث مسلسل يختمه به مشهور، ومنه أنَّه ﷺ كان إذا فرغ من حديثه وأراد أن يقوم من مجلسه، يقول: "اللهم اغفر لنا ما أخطأنا وما تعمّدنا، وما أسررنا وما أنت أعلم به منا، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت"...

**الأمر الثلاثون**: أن يقول إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم، وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. رواه جماعة من فعل النبي ﷺ. وفي بعض الروايات أنَّ الثلاث آيات كفارة المجلس، وكما يستحب لكل قائم، لكنه في حقه آكد.[1]

## النوع الثالث: آداب يختص بها المتعلم

وهي تنقسم كما مر ثلاثة أقسام: آدابه في نفسه، وآدابه مع شيخه، وآدابه في مجلس درسه.

أولاً: آدابه في نفسه: وهي أمور:

**الأمر الأول**: أن يحسن نيته ويطهر قلبه من الأدناس، ليصلح لقبول العلم وحفظه واستمراره، وقد تقدم ما يدل عليه، لكن أعيد هنا لينبه على كونه من أسباب التحصيل، وهناك من أسباب القائد الأخروية.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٦.

**الأمر الثاني**: أن يغتنم التحصيل في الفراغ والنشاط، وحالة الشباب وقوة البدن، ونباهة الخاطر وسلامة الحواس، وقلة الشواغل وتراكم العوارض، سيما قبل ارتفاع المنزلة. والاتسام بالفضل والعلم، فإنَّه أعظم صادّ عن درك الكمال، بل سبب تام في النقصان والاختلال.[1]...

**الأمر الثالث**: أن يقطع ما يقدر عليه من العوائق الشاغلة، والعلائق المانعة عن تمام الطلب، وكمال الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل. ويرضي بما تيسر من القوت وإن كان يسيراً، وبما يستر مثله من اللباس وإن كان خلقاً. فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب عن مفترقات الآمال، لينفجر عنه ينابيع الحكمة والكمال.[2]...

**الأمر الرابع**: أن يترك التزويج حتى يقضي وطره من العلم، فإنَّه أكثر شاغل وأعظم مانع، بل هو المانع جملة، حتى قال بعضهم: ذبح العلم في فروج النساء.[3]...

**الأمر الخامس**: أن يترك العشرة مع من يشغله عن مطلوبه، فإنَّ تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم، ولا سيما لغير الجنس وخصوصاً لمن قلت فكرته وكثر تعبه وبطالته. فإنَّ الطبع سرّاق. وأعظم آفات العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب الغرض والدين إن كانت لغير أهل.[4]...

**الأمر السادس**: أن يكون حريصاً على التعلّم، مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً. ولا يذهب شيئاً من أوقاته في غير العلم، إلا بقدر الضرورة لما لا بد منه، من أكل ونوم واستراحة يسيرة لإزالة الملل، ومؤانسة زائر وتحصيل قوت وغيره مما يحتاج إليه، أو لألم وغيره، مما يتعذر معه الاشتغال.[5]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٨٩.

(٥) المرجع السابق، ص١٨٩.

**الأمر الثامن**: أن يأخذ في ترتيب التعلم بما هو الأولى، ويبدأ فيه بالأهم فالأهم، فلا يشتغل في النتائج قبل المقدمات، ولا في اختلاف العلماء في العقليات والسمعيات قبل إتقان الاعتقاديات. فإنَّ ذلك يحير الذهن ويدهش العقل، وإذا اشتغل في فن فلا ينتقل عنه حتى يتقن فيه كتاباً أو كتباً إن أمكن. وهذا القول في كلِّ فن.

واعلم أنَّ العمر لا يتسع لجميع العلوم، فالحزم أن يأخذ من كل علم أحسنه، ويصرف جمام قوته في العلم الذي هو أشرف العلوم، وهو العلم النافع في الآخرة، مما يوجب كمال النفس وتزكيتها بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، ومرجعه إلى معرفة الكتاب والسنة، وعلم مكارم الأخلاق وما ناسبه. والإنسان على نفسه بصيرة والله المستعان.[1]

**ثانياً: آدابه مع شيخه**

آدابه مع شيخه وقدوته، وما يجب عليه من تعظيم حرمته، فإنَّ الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تأخذ بثوبه. وإذا دخلت عليه وعنده قوم فسلّم عليهم وخصَّه بالتحية دونهم. واجلس بين يديه ولا تجلس خلفه، ولا تغمز بعينك ولا تشر بيدك. ولا تكثر من القول: قال فلان، وقال فلان خلافاً لقوله، ولا تضجر لطول صحبته. وإنّما مثل العالم مثل النخلة تنتظرها متى يسقط عليك منها شيء. والعالم أعظم أجراً من الصائم القائم، الغازي في سبيل الله.[2]...

فلنعد إلى ذكر الآداب المختصة بالمتعلم مع شيخه، حسب ما قرره العلماء تفريعاً على المنصوص منها. وهي أمور:

**الأمر الأول**: وهو أهمها، أن يقدم النظر فيمن يأخذ عنه العلم، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، فإنَّ تربية الشيخ لتلميذه ونسبة إخراجه لأخلاقه الذميمة، وجعل مكانها خلقاً حسناً، كفعل الفلاح الذي يقلع الشوك من الأرض، ويخرج منها

(١) المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٢.

النبتات الخبيثة من بين الزرع ليحسن نباته، ويكمل ريعه. وليس كل شيخ يتصف بهذا الوصف، بل ما أقل ذلك، فإنَّه في الحقيقة نائب عن الرسول ﷺ.[1]...

**الأمر الثاني**: أن يعتقد في شيخه أنَّه الأب الحقيقي، والوالد الروحاني، وهو أعظم من الوالد الجسماني، فيبالغ بعد الأب في حقه كما تقدم في رعاية حتىٰ أبوته ووفاء حق تربيته.[2]...

**الأمر الثالث**: أن يعتقد أنَّه مريض النفس؛ لأَنَّ المرض هو الانحراف عن المجرىٰ الطبيعي وطبع النفس بالعلم، وإنّما خرجت عن طبعها بسبب غلبة أخلاط القوىٰ البدنية. ويعتقد أنَّه شيخه طبيب مرضه؛ لأنَّه يرده إلىٰ المجرىٰ الطبيعي، فلا ينبغي أن يخالفه فيما يشير إليه، كأن يقول له: اقرأ الكتاب الفلاني، واكتفِ بهذا القدر من الدروس؛ لأنَّه إن خالفه كان بمنزلة المريض يرد علىٰ طبيبه في وجه علاجه...

**الأمر الرابع**: أن ينظره بعين الاحترام والإجلال والإكرام، ويضرب صفحاً عن عيوبه، فإنَّ ذلك أقرب إلىٰ انتفاعه به، ورسوخ ما يسمعه منه في ذهنه. ولقد كان بعض السلف إذا ذهب إلىٰ شيخه تصدق بشيء، وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب ببركة علمه مني. وقال آخر: كنت أصفح الورقة بين يدي شيخي صفحاً رقيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها. أو قال: رفعها.[3]...

**الأمر الخامس**: أن يتواضع له زيادة علىٰ ما أمر به من التواضع للعلماء وغيرهم، ويتواضع للعلم، فيتواضعه له يناله، وليعلم أنَّ ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة، وتعظيم حرمته مثوبة، والتشمر في خدمته شرف. وقد قال النبي ﷺ: "من علّم أحداً مسألة، ملك رقه. قيل أيبيعه ويشتريه؟ قال: يأمره وينهاه."

**الأمر السادس**: ألا ينكر عليه ولا يتأمر، ولا يشير عليه بخلاف رأيه، فيرىٰ أنَّه أعلم بالصواب منه، بل ينقاد له في أموره كلها، ويلقي إليه زمام أمره رأساً، ويذعن لنصحه

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٥-١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٨.

ويتحرىٰ رضاه. وإن خالف رأي نفسه، ولا يستبق معه رأياً ولا اختياراً، ويشاوره في أموره كلها، ويأتمر بأمره؛ ولا يخرج عن رأيه وتدبيره باللسان والقلب.[1]...

**الأمر السابع**: أن يبجّله في خطابه وجوابه في غيبته وحضوره، ولا يخاطبه بتاء الخطاب وكافه، ولا يناديه من بُعد، بل يقول: يا سيدي، ويا أستاذ، وما أشبه ذلك، ويخاطبه بصيغ الجمع تعظيماً نحو ما تقولون في كذا، وما رأيكم في كذا، وقلتم، رضي الله عنكم، أو يقبل الله منكم أو رحمكم الله، ولا يسميه في غيبته باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه، كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ، وقال شيخنا أو شيخ الإسلام ونحو ذلك.

**الأمر الثامن**: تعظيم حرمته في نفسه واقتداؤه به، ومراعاة هذه في غيبته وبعد موته، فلا يغفل عن الدعاء له مدة حياته، ويرد غيبته ويغضب لها، وزيادة عما يجب رعايته في غيره، فإنْ عجز عن ذلك، قام وفارق المجلس. ويرعىٰ ذُرّيته وأقاربه وأودّاءه ومحبيه في حياته وبعد موته، ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له، والترحّم عليه، والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدي مسلكه، ويراعي في العلم والدين عادته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عباداته وعاداته، ويتأدب بآدابه.[2]...

**الأمر الثالث والثلاثون**: إذا قال له الشيخ أفهمت؟ فلا يقول: نعم قبل أن يتضح له المقصود إيضاحاً جلياً، لئلا يكذب ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله: لم أفهم؛ لأَنَّ استثباته يحصل له مصالح عاجلة وآجلة. فمن العاجلة حفظ المسألة وسلامته من الكذب والنفاق، بإظهار فهم ما لم يكن فهمه، واعتقاد الشيخ اعتناؤه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكته لنفسه. ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائماً، واعتياده هذه الطريقة المرضية والأخلاق المرضية.[3]...

**ثالثاً: آدابه في درسه وقراءته وما يعتمده حينئذٍ مع شيخه ورفقته**

**الأمر الأول**: وهو أهمها، أن يبتدئ أولاً بحفظ كتاب الله تعالىٰ العزيز حفظاً متقناً،

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢١١.

فهو أصل العلوم وأهمها. وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بغيره اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان، بل يتعهّد دراسته وملازمة وِرْدٍ منه كل يوم ثم أيام، جمعه دائماً أبداً، ويجتهد بعد حفظه على إتقان تفسيره وسائر علومه ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه. ويقدم الأهم فالأهم على ما يأتي تفصيله إن شاء الله تعالى في الخاتمة.

ثم يشتغل باستشراح محفوظاته على المشايخ، وليعتمد في كل فن أكثرهم تحقيقاً فيه وتحصيلاً له. وإن أمكن شرح دروس في كل يوم فعل، وإلا اقتصر على الممكن من درس فأقل، وقد تقدمت الإشارة إليه.

**الأمر الثاني**: أن يقتصر من المطالعة على ما يحتمله فهمه وينساق إليه ذهنه ولا يمجه طبعه. وليحذر من الاشتغال بما يبدد الفكر ويحيّر الذهن من الكتب الكثيرة وتفاريق التصانيف. فإنَّه يضيع زمانه ويفرق ذهنه، وليعط الكتاب الذي يقرأه والفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه حذراً من الخبط، والانتقال المؤدي إلى التضييع وعدم الفلاح.[1]...

**الأمر الثالث**: أن يعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه قبل حفظه تصحيحاً متقناً على الشيخ أو على غيره ممن يعينه، ثم يحفظه محكماً ثم يكرره بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقات يقررها لمواضيه ليرسخ رسوخاً متأكداً، ويراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً، ولا يحفظ ابتداءً من الكتب استقلالاً من غير تصحيح، لأدائه إلى التصحيف والتحريف.[2]

**الأمر الرابع**: أن يحضر معه الدواة والقلم والسكين للتصحيح، ويضبط ما يصححه لغة وإعراباً، وإذا رد الشيخ عليه بلفظ فظن أو علم أنَّ رده خلاف للصواب؛ كرر اللفظة مع ما قابلها، ليتنبه لها الشيخ، أو يأتي بلفظ الصواب على وجه الاستفهام، فربَّما وقع ذلك سهواً، أو سبق لسان لغفلة، ولا يقل: بل هي كذا، فإنْ رجع الشيخ

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٦.

إلى الصواب فذاك، وإلا ترك تحقيقها إلى مجلس آخر بتلطف.[1]...

**الأمر الخامس**: بعد أن يرتب الأهم فالأهم في الحفظ والتصحيح والمطالعة يتقنها، فليذاكر بمحفوظاته، ويديم الفكر فيها ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد، ويذاكر بها بعض حاضري حلقة شيخه كما سيأتي تفصيله.

**الأمر السادس**: أن يقسم أوقات ليله ونهاره على ما يحصله، فإنَّ الأوراد يوجب الازدياد، ويغتنم ما بقي من عمره، فإنَّ بقية العمر لا قيمة لها. وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل وبقايا النهار.[2]...

**الأمر التاسع والعشرون**: على الطلبة مراعاة الأدب المتقدم أو قريباً منه مع كبيرهم ومعيدهم، فلا ينازعوه في ما يقوله لهم إذا وقع منهم فيه شك، بل يترفقوا في تحقيق الحال، ويتوصلوا إلى بيان الحق بحسب الإمكان.

فإذا بقي الحق مشتبهاً راجعوا الشيخ فيه بلطف من غير بيان من خالف ومن وافق، مقتصرين على إرادة بيان الصواب كيف كان.

**الأمر الثلاثون**: يجب على من علم منهم بنوع من العلم، وضربٍ من الكامل أن يرشد رفقته ويرغبهم في الاجتماع والتذاكر والتحصيل، ويهون عليهم مؤونته ويذكر لهم ما استفاده من الفوائد والقواعد والغرائب على جهة النصيحة والمذاكرة، فبإرشادهم يبارك الله له في عمله، ويستنير قلبه، وتتأكد المسائل عنده مع ما فيه من جزيل ثواب الله تعالى، وجميل نظره وعطفه.[3]...

## الباب الثاني: في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي

### مقدمة

ولنذكر من ذلك المهم، فإنَّه باب متسع. ولنقدم على ذلك مقدمة فنقول: اعلم أنَّ

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٤.

الإفتاء عظيم الخطر، كثير الأجر، كبير الفضل جليل الموقع؛ لأَنَّ المفتي وارث الأنبياء صلوات الله عليهم، وقائم بفرض الكفاية، لكنه معرض للخطأ والخطر. ولهذا قالوا: المفتي موقّع من الله تعالىٰ، فلينظر كيف يقول.

وقد ورد فيه وفي آدابه والتوقف فيه، والتحذر منه من الآيات والأخبار والآثار، أشياء كثيرة نورد جملة من عيونها: قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالىٰ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٦]. وقال تعالىٰ في التحذير: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] الآية.[١]...

وقال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق علماء اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فافتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا."[٢]...

ومن كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إن من أبغض الخلق إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لرجلين: رجل وكله الله إلىٰ نفسه فهو حائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة قد لهج بالصوم والصلاة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدىٰ من كان قبله، مضل لمن اقتدىٰ به في حياته وبعد موته، حمّال خطايا غيره.[٣]...

وسئل يوماً عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب. وقال: ليس من العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، فالعلم كله ثقيل.[٤]...

**النوع الأول: الأمور المعتبرة في كل مفتٍ:**

اعلم أنَّ شرط المفتي كونه مسلماً عدلاً فقيهاً، وإنّما يحصل له الفقه إذا كان قيماً

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٢.

بمعرفة الأحكام الشرعية، مستنبطاً لها من أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة والإجماع وأدلة العقل، وغيرها مما هو محقق في محله، ولا يتم معرفة ذلك إلا بمعرفة ما يتوقف عليه إثبات الصانع وصفاته التي يتم بها الإيمان والتصريف واللغة من العربية، وشرايط الحد والبرهان من علم المنطق، ومعرفة أصول الفقه، وما يتعلق بالأحكام الشرعية من آيات القرآن، ومعرفة الحديث المتعلق بها، وعلومه متناً وإسناداً، ولو بوجود أصل صحيح يرجع إليه عند الحاجة إلى شيء منه، ومعرفة مواضع الخلاف والوفاق، بمعنى أن يعرف المسألة التي يفتي بها أنَّ قوله فيها لا يخالف الإجماع، بل يعلم أنَّه وافق بعض المتقدمين، أو يغلب على ظنه أنَّ المسألة لم يتكلم فيها الأولون، بل تولدت في عصره أو ما قاربه.

وأن يكون له ملكة نفسانية وقوة قدسية يقتدر بها على اقتناص الفروع من أصولها ورد كل قضية إلى ما يناسبها من الأدلة.

وهذه شرايط المفتي المطلق المستقل أوردناها على طريق الإجمال، وتفصيلها موكول إلى أصول الفقه. فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في شخص، وجب عليه في كل مسألة فقهية فرعية يحتاج إليها أو يسأل عنها، استفراغ الوسع في تفصيل حكمها بالدليل التفصيلي. ولا يجوز له تقليد غيره في إفتاء غيره ولا لنفسه مع سعة وقت الفعل الذي يدخل فيه المسألة بحيث يمكنه في استنباطها، بحيث لا ينافي الفعل، ومع ضيقه يجوز له تقليد مجتهد حي. وفي الميت وجهان ومنهم من منع مطلقاً.[1]

**النوع الثاني: في أحكام المفتي وآدابه**

وفيه مسائل:

**الأولى**: الإفتاء فرض كفاية وكذا تحصيل مرتبته، فإذا سئل وليس هناك غيره تعين عليه الجواب. وإن كان ثم غيره وحضر، فالجواب في حقهما فرض كفاية، وإن لم يحضر إلا واحد مع عدم المشقة في السعي إلى الآخر، ففي تعين الجواب على الحاضر وجهان. وإذا لم

(١) المرجع السابق، ص٢٣٤.

يكن في الناحية مفتٍ وجب السعي على كل مكلف بها يمكنه تحصيل شرائطها كفاية.[1]...

**الثانية**: ينبغي أن لا يفتي في حال تغير خلقه وشغل قلبه، وحصول ما يمنعه من كمال التأمل، كغضب وجوع وعطش وحزن، وفرح غالب، ونعاس وملالة، ومرض مقلق، وحر مزعج، وبرد مؤلم، ومدافعة الأخبثين ونحو ذلك ما لم يتضيق وجوبه. فإنْ أفتى في بعض هذه الأحوال معتقداً أنَّه لم يمنعه ذلك من إدراك الصواب، صحت فتواه على كراهة لما فيه من المخاطرة.

**الثالثة**: إذا أفتى في واقعة، ثم تغير اجتهاده وعلم المقلد برجوعه من مستفتٍ أو غيره، عمل بقوله الثاني، فإنْ لم يكن عمل بالقول الأول لم يجز العمل به، وإن كان قد عمل به قبل علمه بالرجوع لم ينقص، ولو لم يعلم المستفتي برجوع المفتي فكأنه لم يرجع في حقه.

ويلزم المفتي إعلامه برجوعه قبل العمل وبعده، ليرجع عنه في عمل آخر.

**الرابعة**: إذا أفتى في حادثة، ثم حدث مثلها، فإنْ ذكر الفتوى الأولى ودليلها، أفتى بذلك ثانياً بلا نظر، وإن ذكرها ولم يذكر دليلها ولا طرأ ما يوجب رجوعه، ففي جواز إفتائه بالأولى، أو وجوب إعادة الاجتهاد قولان. ومثله تجديد الطالب في التيمم والاجتهاد في القبلة. والقاضي إذا حكم بالاجتهاد، ثم وقعت المسألة.

**الخامسة**: لا يجوز أنَّ يفتي بما يتعلق بألفاظ الإيمان والأقادير والوصايا ونحوها إلا من كان من أهل بلد اللافظ، أو خبيراً بمرادهم في العادة فتنبه له فإنَّه مهم.[2]

**النوع الثالث: في آداب الفتوى**

وفيه مسائل:

**الأول**: يلزم المفتي أن يبين الجواب بياناً يزيل الأشكال. ثم له الاقتصار على الجواب شفاهاً، فإنْ لم يعرف لسان المفتي كفاه ترجمة عدلين. وقيل يكفي الواحد؛ لأنَّه

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٥-٢٣٦.

خبر وله الجواب كتابة. وإن كانت على خطر وكان بعض السلف كثير الهرب من الفتوى في الرقاع لما يتطرق إليها من الاحتمالات، فإنَّ لكل حرف من لفظ السائل كزيه في الجواب.

وكثيراً ما شاهدنا سائلاً برقعة يكون لفظه مخالفاً لما في رقعته فنرجع إلى لفظه بعد أن نكون قد كتبنا الجواب ونخرق الرقعة.

**الثاني**: أن تكون عبارته واضحة صحيحة يفهمها العامة ولا يزدريها الخاصة. وليحترز من القلاقة والاستهجان فيها، وإعراب غريب أو ضعيف، وذكر غريب لغة ونحو ذلك.

**الثالث**: إذا كان في المسألة تفصيل لا يطلق الجواب، فإنَّه خطأ، ثم له أن يستفصل السائل إن حضر ويعيد السؤال في رقعة أخرى إن كان السؤال في رقعة، ثم يجيب وهذا أولى وأسلم. وله أن يقتصر على جواب أحد الأقسام إذا علم أنَّه الواقع للسائل، ثم يقول هذا إذا كان الأمر كذا، أو والحال ما ذكر ونحو ذلك. وله أن يفصل الأقسام في جوابه ويذكر حكم كل قسم. لكن هذا كرهه بعضهم، وقالوا: هذا تعلم الناس الفجور بسبب اطلاعهم على حكم ما يضر من الأقسام وينفع.

**الرابع**: إذا كان في الرقعة مسائل، فالأحسن ترتيب الجواب على ترتيب السؤال، ولو ترك الترتيب مع التنبيه على متعلق الجواب فلا بأس.[1]...

**الخامس والعشرون**: إذا لم يفهم المفتي السؤال أصلاً، ولم يحضر صاحب الواقعة، قيل: يكتب يزاد في الشرح ليجب عنه، أو لم أفهم ما فيها، وعلى تقدير أن يكتب فلتكن الكتابة في محل لا يضر بحال الرقعة. وإذا فهم من السؤال صورة وهو يحتمل غيرها فلينص عليها في أول جوابه فيقول: إن كان قال كذا أو فعل كذا وما أشبه ذلك، فالأمر كذا. وكذا، أو يزيد، وإلا فكذا وكذا.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢.

**النوع الرابع: في أحكام المستفتي وآدابه وصفته**

وفيه مسائل:

**الأولى**: في صفته: كل من لم يبلغ درجة المفتي الجامع للعلوم المتقدمة فيما يسأل عنه من الأحكام مستفت، ويعبر عنه بالعامي أيضاً. وإن كان من أفاضل عصره، بل ربَّما كان أعلم من المفتي في علوم أخر لا يتوقف عليها الإفتاء، فإنَّ العامية الاصطلاحية تقابل الخاصية بأي معنى اعتبرت.[1]...

**الثانية**: يلزم المقلد أن لا يستفتي إلا من عرف أو غلب على ظنه علمه بما يصير به أهلاً للإفتاء وعدالته. فإنْ جهل علمه لزمه البحث عما يحصل به أحد الأمرين: إما بالممارسة المطلقة له على حاله، أو بشهادة عدلين به، أو بشياع حاله بكونه متصفاً بذلك، أو بإذعان جماعة من العلماء العالمين بالطريق، وإن لم يكونوا عدولاً بحيث يثمر قولهم الظن. وإن جهلت عدالته رجع فيها إلى العشرة المفيدة لها، أو الشياع أو شهادة عدلين.

**الثالثة**: إذا اجتمع اثنان فأكثر ممن يجوز استفتاؤهم. فإنْ اتفقوا في الفتوى أخذ بها، وإن اختلفوا وجب عليه الرجوع إلى الأعلم الأتقى. فإنْ اختلفوا في الوصفين رجع إلى أعلم الورعين وأورع العالمين. فإنْ تعارض الأعلم والأورع قلد الأعلم. فإنْ جهل الحال أو تساووا في الوصف تخير، وإن بعد الفرض، وربما قيل بالتخيير مطلقاً لاشتراك الجميع في الأهلية، وهو قول أكثر العامة. ولا نعلم به قائلاً منا، بل المنصوص عندنا هو الأول.[2]...

## الباب الثالث

## في المناظرة وشروطها وآدابها

ومنه فصلان: الفصل الأول: في شروطها وآدابها، والفصل الثاني: في آفاتها ومزالقها

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٤-٢٤٥.

**الفصل الأول: في شروطها وآدابها**

اعلم أنَّ المناظرة في أحكام الدين من الدين، ولكن لها شروط ومحل ووقت؛ فمن اشتغل بها على وجهها، وقام بشروطها، فقد قام بحدودها، واقتدى بالسلف فيها. فإنهم تناظروا في المسائل، وما تناظروا إلا لله، ولطلب ما هو حق عند الله تعالى.

ولمن يناظر لله وفي الله علامات بها نتبين الشروط والآداب:

**الأولى**: أن يقصد بها إصابة الحق، وطلب ظهوره كيف اتفق.. لا ظهور صوابه، وغزارة علمه، وصحة نظره، فإنَّ ذلك مراء، قد عرفت ما فيه من القبائح والنهي الأكيد. ومن آيات هذا القصد أن لا يوقعها إلا مع رجاء التأثير. فأما إذا علم عدم قبول المناظر للحق، وأنه لا يرجع عن رأيه وأن يبين له أخطاءه فمناظرته غير جائزة لترتب الآفات الآتية، وعدم حصول الغاية المطلوبة منها.

الثانية: أن لا يكون ثم ما هو أهم من المناظرة، فإنَّ المناظرة إذا وقعت على وجهها الشرعي وكانت في واجب، فهي من فروض الكفايات. فإذا كان ثم واجب عيني أو كفائي هو أهم منه، لم يكن الاشتغال بها سائغاً.[1]...

**الفصل الثاني: في آفاتها ومزالقها**

**في آفات المناظرة وما يتولد عنها من مهلكات الأخلاق**

اعلم أنَّ المناظرة الموضوعية لقصد الغلبة والإفحام والمباهاة والتشوق، لإظهار الفضل هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى، المحمودة عند عدوه إبليس. ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر، والعجب، والرياء، والحسد، والمنافسة، وتزكية النفس، وحب الجاه وغيرها، نسبة الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا، والقتل، والقذف. وكما أنَّ من خيّر بين الشرب وبين سائر الفواحش فاختار الشرب استصغاراً له، فدعاه ذلك إلى ارتكاب سائر الفواحش، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة، دعاه ذلك إلى إظهار الخبائث كلها.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥١.

**فأولها**: الاستكبار عن الحق وكراهته.[١]...

**وثانيها**: الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم، وصرف وجوههم نحوه، ليصوبوا نظره وينصروه على خصمه.[٢]...

**وثالثها**: الغضب.[٣]...

**رابعها**: الحقد وهو نتيجة الغضب[٤]...

**وخامسها**: وهو نتيجة الحقد، والحقد نتيجة الغضب كما مر، والمناظر لا ينفك منه غالباً، فإنَّه تارة يغلب وتارة يُغلب وتارة يُحمد في كلامه وتارة يحمد كلام غيره. ومتى لم يكن الغلب والحمد لله تمناه لنفسه دون صاحبه وهو عين الحسد، فإنَّ العلم من أكبر النعم. فإذا تمنى أحد كون ذلك الغلب ولوازمه له فقد حسد صاحبه، وهذا أمر واقع بالمتناظرين إلا من عصمه الله تعالى. ولذلك قال ابن عباس: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا أقوال الفقهاء بعضهم في بعض، فإنهم يتغايرون كما يتغاير التيوس في الزريبة.[٥]...

**وسادسها**: الهجر والقطيعة.[٦]...

**وسابعها**: الكلام فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وغيرهما: وهو من لوازم الحقد، بل من نتيجة المناظرة.[٧]...

**وحادي عشرها**: النفس والثناء عليها.[٨]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٥) المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٦) المرجع السابق، ص٢٦٠.

(٧) المرجع السابق، ص٢٦١.

(٨) المرجع السابق، ص٢٦٥.

## الباب الرابع: في آداب الكتابة والكتب التي هي آلة العلم

وما يتعلق بتصحيحها، وضبطها، ووضعها، وحملها، وشرائها، وإعارتها وغير ذلك، وفيه مسائل:

**الأولى**: الكتابة من أجل المطالب الدينية: وأكبر أسبابها الملة الحنيفية من الكتاب والسنة وما يتبعهما من العلوم الشرعية، ويتوقفان عليه من المعارف العقلية، وهي منقسمة في الأحكام حسب العلم المكتوب. فإنْ كان واجباً على الأعيان فهي كذلك، حيث يتوقف عليها حفظه، وإن كان واجباً على الكفاية فهي كذلك، وإن كان مستحباً فكتابته مستحبة، وهي في زماننا هكذا.[1]...

**الثاني**: يجب على الكاتب إخلاص النية لله تعالى في كتابته، كما يجب إخلاصها في طلبه العلم؛ لأنها عبادة وضرب من تحصيل العلم وحفظه. والقصد بها لغير الله تعالى من حظوظ النفس والدنيا كالقصد والعلم. وقد تقدم من ذمه ووعيده ما فيه كفاية ويزيد عنه خيراً أو شراً، أنَّه موقع بيده ما يكون يوم القيامة حجة له أو عليه فلينظر ما يوقعه ويترتب على خطه من خير أو شر، ومن سنة أو بدعة يعمل بها في حياته وبعد موته دهراً طويلاً، فهو شريك في أجر من ينتفع به أو وزره، فلينظر ما يسببه.[2]...

**الثالث**: ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه، بكتابة أو شراء وإلا فبإجارة أو إعارة لأنها آلة التحصيل. وكثيراً ما تدرب بها الأفاضل في الأزمنة السابقة، وحصل لهم بواسطتها ترقّ زائد على من لم يتمكن منها. ولهم في ذلك أقاصيص يطول الأمر بشرحها، ولا ينبغي للطالب أن يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ونصيبه من الفهم، بل يحتاج مع ذلك إلى التعب والجد والجلوس بين يدي المشايخ، ولقد أحسن القائل:

إذا لم تكنْ حافِظاً وَاعِيَاً فجَمْعُكَ للكُتْبِ لا ينفعُ

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٢.

**الرابع**: أن لا يشتغل بنسخها إن أمكنه تحصيلها بشراء ونحوه؛ لأَنَّ الاشتغال بتحصيل العلم أهم. نعم لو تعذر الشراء لعدم الثمن أو لعزة الكتاب، فليكتب لنفسه ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تملكه، ومتى آل الحال إلى النسخ فليشمّر له، فإنَّ الله يعينه ولا يضيّع به حظه من العلم، ولا يفوت الحظ إلا بالكسل. ومن ضبط وقته حصل مطلبه. وقد تقدم جملة صالحة في ذلك.

**الخامس**: يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها استحباباً مؤكداً، لما فيه من الإعانة على العلم والمعاضدة على الخير والمساعدة على البر والتقوى مع ما في مطلق الإعارة من الفضل والأجر. وقد قال بعض السلف: بركة العلم إعارة الكتب. وقال آخر: من بخل بالعلم ابتلي بإحدى ثلاث: أن ينساه أو يموت فلا ينتفع به، أو يذهب كتبه. وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك، لإحسانه ويجزيه خيراً.[1]...

**العشرون**: إذا وقع في الكتاب زيادة أو كتب فيه شيء على غير وجهه، يخير فيه بين ثلاثة أمور: الأول: الكشط، وهو سلخ الورق بسكين ونحوها، ويعبر عنه بالبشر بالباء الموحدة. وبالحك، وسيأتي أنَّ غيره أولى منه، وهو أولى في إزالة نقطة أو شكلة أو نحو ذلك. الثاني: المحو وهو الإزالة بغير سلخ إن أمكن، بأن تكون الكتابة في ورق صقيل جداً في حال طراوة المكتوب وأمن نفوذ الحبر، وهو أولى من الكشط؛ لأنَّه أقرب زمناً وأسلم من فساد المحل غالباً. ومن الحيل الجيدة عليه لعقه رطباً بخفة ولطافة. ومن هنا قال بعض السلف: من المروءة أن يرى في ثوب الرجل وشفتيه. والثالث: الضرب عليه وهو أجود من الكشط والمحو، لا سيما في كتب الحديث؛ لأَنَّ كلاً منهما يضعف الكتاب، ويحرك تهمة وربما أفسد الورق.[2]...

**الرابع والعشرون**: لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على غلط، أو اختلاف رواية أو نسخة أو نحو ذلك على حواشي كتاب يملكه أو لا يملكه بالإذن،

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨١-٢٨٢.

ولا يكتب في آخر ذلك صح ويخرج لها بأعلى وسط كلمة المحل التي كتبت الحاشية لأجلها، لا بين الكلمتين. أو يجعل بدل التخريجة إشارة بالصدى. وكل ذلك ليتميز هذا عن تخريج الساقط في الأصل.[1]...

## الخاتمة

وأما الخاتمة فتشتمل على مطالب مهمة:

### المطلب الأول: في أقسام العلوم الشرعية

في أقسام العلوم الشرعية، وما يتوقف عليه من العلوم العقلية والأدبية وفيه فصلان:

الأول: في أقسام العلوم الشرعية الأصلية وهي أربعة: علم الكلام، وعلم الكتاب العزيز، وعلم الأحاديث النبوية، وعلم الأحكام الشرعية المعبر عنها بالفقه.[2]...

## تتمة الكتاب

اعلم وفَّقك الله تعالى أنّي قد أوضحت لك السبيل، وعلمتك كيفية المسير، وبينت لك كمال الآداب، وأحثثتك على دخول هذا الباب. فعليك بالجد والتشمير، واغتنام أيام عمرك القصير في اقتناء الفضائل النفسانية، والحصول على الملكات العلمية؛ فإنها سبب لسعادتك المؤبدة، وموجبة لكمال النعمة المخلدة،... فتقصيرك في تحصيل الكمال في أيام هذه المهلة القليلة موجب لدوام حسرتك الطويلة.[3]...

وعلى هذا القدر نختم الرسالة، حامدين لله تعالى، مصلين على خاتم الرسالة، وعلى أهل العصمة والعدالة، مسلمين مستغفرين من ذنوبنا أنَّه غفور رحيم.

وقد فرغ منها مؤلِّفُها المفتقر إلى عفو الله تعالى ورحمته زين الدين علي ابن أحمد الشامي العاملي ضحى يوم الخميس يوم العشرين من شهر ربيع الأول سنة أربع

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠٥.

وخمسين وتسعماية ٩٥٤، تقبلها الله برحمته وتلقاها بيد كرامته ورأفته، أنَّه أجود الأجودين، يا أرحم الراحمين.[١]

(١) المرجع السابق، ص٣٠٧.

## (١٧)

# تَحْرِيرُ المَقَالِ فِي آدَابٍ وأَحْكَام وفَوَائِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مُؤَدِّبُو الأَطْفَال

**أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المالكي (توفي: ٩٧٣هـ)**

**حكم أخذ الأجرة على التعليم:**

اعلم أنَّ العلماءَ رضوان الله عليهم أجمعين من السَّلَفِ والخَلَفِ اختلفوا في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وعلى الرُّقْية به؛ هل ذلك جائزٌ، أم حرام؟...

فالحقُّ الذي شهدت به القواعدُ الأصولية والحديثية، جوازُ أخذ الأُجرة على تعليم القرآن بعقدٍ صحيح، وإنَّ ذلك من الحلال الذي لا شُبهة فيه، ولا كراهة، وإنْ وقع الخلافُ فيه؛ لأَنَّ الخلافَ إنَّما يُراعى ويُحترم حيث لـم يخالف سنةً صحيحةً صريحة، وهذا الخلافُ ليس كذلك؛ لأنَّه خالف قولَه ﷺ في الحديث المتفق على صحته أيضاً: "كُلوا واضربوا لي معكُم بسهْمٍ." وقوله في الحديث المتفق على صحته: "زوَّجْتُكَهَا بما معك من القرآن." وأحاديث القوْس ونحوها السابقة، لا تعارض ذلك أصلاً؛ ولأن بعضها في هدية بعد الفعل، وأكثرها لا يحتج به لضعفه واعتلاله.

فتأمل ذلك حتى التأمل، فإنَّه من النفائس..." (ص ٥٧)

الفصل السابع عشر:

# كتاب "تحرير المقال في أدب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال" لابن حجر الهيتمي

## ثالثاً: التعريف بـ"ابن حجر الهيتمي"

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، الشافعي، ولد في رجب سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م) في محلة أبي الهيتم بمحافظة الغربية في مصر، وإليها نسبته، مات أبوه وهو صغير، فكفله الإمامان شمس الدين بن أبي الحمايل، وشمس الدين الشناوي، الذي نقله من محلة أبي الهيتم إلى مقام الشيخ أحمد البدوي، فقرأ هناك مبادئ العلوم، ثم نقله إلى الجامع الأزهر، فأخذ فيه عن علماء مصر في عصره، ومنهم: الشيخ زكريا الأنصاري، وعبد الحق السنباطي، والشمس المشهدي، والسمهودي، والأمين الغمري، والشهاب الرملي، وأبو الحسن البكري، والشمس اللقاني، والشهاب بن النجار الحنبلي، والشهاب بن الصائغ رئيس الأطباء، وأَذِنَ له بعضُهم بالإفتاء والتدريس وهو دون العشرين.

برع في علوم كثيرة، منها التفسير والحديث، والكلام، والفقه، والفرائض، والحساب، والنحو والصرف، والمعاني، والبيان والمنطق، والتصوف. توفي عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٧م) ودفن بالمعلاة في تربة الطبريين.[١]

أحصى له المؤرخون مائةً وسبعة عشر مؤلفاً، منها: مبلغ الأرب في فضائل العرب، والصواعق المحرقة على أهل البدع والضلال والزندقة، وتحفة المحتاج لشرح المنهاج، في فقه الشافعية، والخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان، والفتاوي الهيتمية أربع مجلدات، وشرح مشكاة المصابيح للتبريزي، والإيعاب في شرح العباب،

---

(١) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد. **الأعلام؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٣٤.

والإمداد في شرح الإرشاد للمقري، وشرح الأربعين النووية، ونصيحة الملوك، وتحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الاطفال، وأشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، وخلاصة الأئمة الأربعة، والمنح المكية في شرح همزية البوصيري، والمنهج القويم في مسائل التعليم، شرح لمقدمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن فضل الحضرمي، والدرر الزاهرة في كشف بيان الآخرة، وكف الرعاع عن استماع آلات السماع، والزواجر عن اقتراف الكبائر، وغيرها.

## ثالثاً: التعريف بـ"تحرير المقال في أدب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال"[1]

هو كتاب متوسط الحجم جمع فيه عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة التي تبين الأحكام الفقهية والآداب التوجيهية في عدد من موضوعات التعليم. يقع في حوالي (١٢٥٠٠) كلمة (٥٠ صفحة من القطع المتوسط) من غير هوامش التحقيق. ونسب كل حديث أورده إلى المصنف الذي ورد فيه الحديث، وحاول الجمع والترجيح بين الأحاديث التي يبدو فيها التعارض. واشتمل الكتاب على موضوعات: شرف أهل القرآن، وفضائل معلمي القرآن، والأحاديث الواردة في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والدالة على امتناع أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وبيان اختلاف العلماء في الأخذ بالأحاديث السابقة، وتحذير المعلم من النظر إلى الأمرد، والأحاديث التي تحث على الرحمة بالمتعلمين، وعن سبب تأليف هذا الكتاب، وعن الثواب والعقاب، وعن وقف المدارس، وعن أخذ الأجرة على التدريس، وعن أسماء بعض المدارس، وآداب السكنى.

ويغلب على الكتاب المدخل الفقهي الحديثي؛ إذ يستند المؤلف في بيان الأحكام الفقهية في كل موضوع بما ورد من أحاديث نبوية.

---

(١) ابن حجر الهيتمي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر المكي. **تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال**، تحقيق: محمد سهيل الدبس، إشراف: محمود الأرناؤوط، دمشق وبيروت: دار ابن كثير، ط٢، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

## ثالثاً: مختارات من "تحرير المقال في أدب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال"

الحمد لله الذي شرَّف حملة كتابه ومعلميه، بأن جعلهم خير خلقه وساداتهم، ونَظَمَهُم في سلك مُحِبِّيه، وأسبغ عليهم مزايا كمالاتهم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توصلنا لمعاليه، وأشهد أنَّ سيدنا محمداً عبدُه ورسولُه، الناشر لعبير سعادتهم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، الذين أفنوا نفوسهم في تعلم كتابه وتعليمه، إلى أن حقّت لهم جميع مطالبهم ومراداتهم، صلاةً وسلاماً دائمين بدوام تعظيمه لهم، وتكريمه لهم في دار رضوانه، ومشاهداتهم،

وبعد: فقد ورد عليَّ من بعض صلحاء مؤدبي الأطفال ثاني جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة، أسئلةٌ مُفحِمَة وتدقيقات الأجوبة عنها مُتَحَتِّمَة، فلما أردت الجواب عنها، طال الكلام وانتشر، واحتاج إلى مقدمات وأقيسة أنتجها واضح البيان، ودقيق النظر، فإنَّها تـمَّتْ مصونة عن سفساف المكثرين، مصحوبة بتحقيقات طبق تحقيقات المتقدمين والمتأخرين.

دعاني ذلك إلى جعلها تأليفاً لطيفاً، وأنموذجاً شريفا، تقرُّ به عيون المتقين، وتفزع إليه عند تحيُّر الأفهام أفئدة المؤمنين، فاستخرت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي ما خاب من استخاره، وضممت إليه تتمات تؤمِّنُ من لجأ إليه عِثَارَه، وسـمَّـيْتُها: تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال، ورتَّبْتُها على سبعة مقاصد، وخاتمة.[1]

### المقصد الأول

### في الأحاديث الدالة على شرف أهل القرآن

الحديث الأول: أخرج الخطيب في تاريخه بسند فيه مجهول، وقال الذهبي: باطل، أنَّه ﷺ قال: "آل القرآن آلُ الله." وفي رواية له فيه أيضاً: "إذا أحبَّ أحدُكم أن يحدِّث ربَّه فليقرأ القرآن."

---

(١) المرجع السابق، ص١٩-٢٠.

الثاني: أخرج أحمد والنسائي، وابن ماجه، والحاكم أنَّه ﷺ قال: "إن لله تعالىٰ أهلين من الناس، هم أهلُ الله وخاصته." وفي رواية الطيالسي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وابن الضريس، وابن العسكري، والحاكم، وابن حبان، وأبو نعيم: "إنَّ لله تعالىٰ أهلين من الناس، قيل: من هم؟ قال: أهل القرآن، هم أهلُ الله وخاصته." وفي رواية لأبي القاسم بن حيدر: "أهل القرآن أهلُ الله وخاصته." وفي أخرىٰ: "أشرف أمتي حملةُ القرآن وأصحاب القرآن."

الثالث: أخرج الديلمي أنَّه ﷺ قال: "إذا ختم العبدُ القرآن صلىٰ عليه عند ختمه ستون ألف ملك."

الرابع: أخرج أيضاً أنَّه ﷺ قال: "أعبدُ الناس أكثرهم تلاوةً للقرآن." وفي رواية لابن عساكر: "أغنىٰ حملة القرآن من جعله الله في جوفه." وفي رواية لأبي نعيم: "يا حملة القرآن! أهلُ السموات يذكرونكم عند الله، فتحببوا إلىٰ الله يُحبّبكم الله إلىٰ عباده."

الخامس: أخرج البيهقي أنَّه ﷺ قال: "أفضل عبادة أمتي تلاوةُ القرآن." وفي رواية لابن قانع: "أفضل العبادة قراءة القرآن." وفي رواية للترمذي الحكيم: "أفضل عبادةِ أمتي قراءةُ القرآن نظراً."

السادس: أخرج تمّام أنَّه ﷺ قال: "اقرؤوا القرآن، فإنَّ الله لا يعذّب قلباً وعىٰ القرآن."

السابع: أخرج البيهقي أنَّه ﷺ قال: "عددُ درج الجنة عدد آي القرآن، فمن دخل الجنة من أهل القرآن فليس فوقه درجة." وفي رواية لابن مردويه: "إن عدد درج الجنة عددُ آي القرآن، فمن دخل الجنة لم يكن فوقه أحدٌ." وفي رواية الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وأبي نصر السجزي: "القرآن ألفُ ألفٍ وسبعة وعشرون ألف حرفٍ، فمن قرأ محتسباً فله بكل حرفٍ زوجان من الحور العين." قال أبو نصر: غريب الإسناد والمتن، وفيه زيادة علىٰ ما في المصحف الآن، ويمكن حمله علىٰ ما نسخ منه تلاوة مع المثبت في المصحف اليوم.

الثامن: أخرج الديلمي أنَّه ﷺ قال: "أكرموا حملة القرآن، فمن أكرمهم فقد أكرم الله، ألا فلا تُنقصوا حملة القرآن حقوقهم فإنهم من الله بمكان، كاد حملةُ القرآن أن يكونوا أنبياء، إلا أنَّه لا يُوحىٰ إليهم"...

التاسع: أخرج الترمذي الحكيم أنَّه ﷺ قال: "أهل القرآن عرفاء أهل الجنة." وفي رواية للطبراني: "حملة القرآن عرفاءُ أهل الجنة يوم القيامة." وفي أخرىٰ للضياء وغيره: "القراء عرفاءُ أهل الجنة يوم القيامة."

العاشر: أخرج الديلمي وابن النجار، أنَّه ﷺ قال: "حملة القرآن أولياءُ الله، فمن عاداهم فقد عادىٰ الله، ومن والاهم فقد والىٰ الله،" وفي رواية: "حامل القرآن حاملُ راية الإسلام، فمن أكرمه فقد أكرم الله، ومن أهانه فعليه لعنة الله." وأخرج البخاري وغيره: "من قرأ القرآن، ثم مات قبل أن يستظهره أتاه ملكٌ يعلمه في قبره، ويلقىٰ الله تعالىٰ وقد استظهره."[1]

## المقصد الثاني

## في بعض الأحاديث الواردة في فضائل معلمي القرآن ومتعلميه

الحديث الأول: أخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه أنَّه ﷺ قال: "خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه." وفي رواية لابن عساكر: "أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه" وفي أخرىٰ له: "إن من خياركم وأفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه" وفي أخرىٰ للبيهقي وغيره: "خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه، وفضل القرآن علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ سائر خلقه، وذلك أنَّه منه."

الثاني: أخرج الطبراني أنَّه ﷺ قال: "خيركم من قرأ القرآن وأقرأه،" وفي رواية للبيهقي: "خيركم من قرأ القرآن وأقرأه، لحامل القرآن دعوةٌ مستجابة، يدعو بها فيستجاب له."

الثالث: أخرج الحاكم في تاريخه أنَّه ﷺ قال: "حملة القرآن هم المعلمون كلام الله تعالىٰ، والمتلبسون بنور الله، من والاهم فقد والىٰ الله، ومن عاداهم فقد عادىٰ الله."

---

(١) المرجع السابق، ص٢١-٢٨.

الرابع: أخرج أبو نصر السجزي وقال: هذا من حسن الحديث وأغربه، وليس في إسناده إلا مقبول ثقة، والترمذي الحكيم مرسلاً، والحاكم في تاريخه موصولاً، أنَّه ﷺ قال: "القرآن أفضل من كل شيء دون الله، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، فمن وقَّرَ القرآن فقد وقّرَ الله، ومن لم يوقّر القرآن فقد استخف بحقّ الله، وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده، القرآن شافعٌ مشفّعٌ وماحلٌ مصدّق، فمن شفع له القرآن شُفّع، ومن محل به القرآن صُدِّق، ومن جعل القرآن أمامَه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفَه ساقه إلى النار، حَمَلَةُ القرآن هم المحفوفون برحمة الله المتلبسون نور الله، المعلمون كلام الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، ومن والاهم فقد والى الله." ...

وفي رواية للبخاري في تاريخه، والطبراني والبيهقي: "القرآن شافعٌ مشفعٌ، وماحلٌ مصدّق، من جعله أمامَه قادَهُ إلى الله، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار." وفي رواية لابن عدي ومحمد بن نصر: القرآن غِنىً لا فقر بعده.

الخامس: أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم أنَّه ﷺ قال: "عليكم بتعليم القرآن، وكثرة تلاوته، وكثرة عجائبه، تنالون به الدرجات في الجنة."

السادس: أخرج الحاكم والبيهقي في سننه، أنَّه ﷺ قال: "تعلّموا القرآن وعلّموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلّموها الناس، فإني أمرؤ مقبوض، وإنّ العلم سيُقبض وتظهر الفتن، حتى يختلف الإثنان في فريضة لا يجدان من يقضي بها."

وفي رواية لأحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني، والبيهقي، وابن حبان: "تعلموا كتاب الله تعالى، وأفتوا به وتعاهدوه وتغنّوا به، فوالذي نفسُ محمد بيده لهو أشد تفصياً من صدور الرجال من المخاض في العقل"...

السابع: أخرج ابن عساكر أنَّه ﷺ قال: "ألا من تعلّم القرآن وعلمه، وعمل بما فيه، فإنَّه له سائق إلى الجنة"...

الثامن: أخرج أبو نعيم أنَّه ﷺ قال: "يا عليّ، تعلّم القرآن وعلّمه الناس، فلك بكلِّ حرف عشرُ حسنات، فإنْ مُتّ مُتَّ شهيداً. يا عليّ، تعلَّم القرآن وعلِّمه الناس فإنْ متّ حجّت الملائكة إلى قبرك، كحج الناس إلى بيت الله العتيق."

التاسع: أخرج أبو نصر والبيهقي أنَّه ﷺ قال: "تعلّموا القرآن وسلوا الله به الجنة، قبل أن يتعلَّمه قومٌ يسألون به الدنيا، فإنَّ القرآن يتعلّمه ثلاثة نفرٍ: رجلٌ يتباهى، ورجل يتآكل به، ورجلٌ يقرؤه لله."

العاشر: أخرج البخاري والحاكم في تاريخيهما، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن عدي، وابن النجار، أنَّه ﷺ قال: "من تعلَّم القرآن في شبيبته اختلط بلحمه ودمه، ومن تعلّمه في كِبَرِه فهو يتفلّت منه، وهو يعودُ فيه، فله أجره مرتين." وفي رواية للبيهقي: "من علّم رجلاً القرآن فهو مولاه، لا يخذله ولا يستأثر عليه."[1]...

## المقصد الثالث

## في الأحاديث الدالة على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية به ونحوهما

الأول: أخرج الشيخان، وأبو داود، والترمذي، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا مَنزلاً فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ؛ أي لديغ، ومن عاداتهم التعبير عنه بسليم تفاؤلاً، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَّبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ، فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ؛ أي نتهمه بها، وهو بموحدة بعد الهمزة مكسورة أو مضمومة، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ فَأَمَرَ لَهُ بِثَلاَثِينَ شَاةً وَسَقَانَا لَبَناً، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً؟ أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لاَ، مَا رَقَيْتُ إِلاَّ بِأُمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لاَ تُحْدِثُوا شَيْئاً حَتَّى نَأْتِيَ، أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ."

الثاني: أخرج الشيخان، وغيرهما عن أبي سعيد أيضاً: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، والله إِنِّي لأَرْقِي، وَلَكِنْ، والله لَقَدِ

(١) المرجع السابق، ص٢٩-٣٤.

اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضِيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً، فَصَالَحُوهُمْ عَلَىٰ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ؛ أي علة من العلات، وهو داء يأخذ البعير فيشكي منه قلبه فيموت ليومه، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمُ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَىٰ: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّىٰ نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمُ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً، فَضَحِكَ النبيّ ﷺ.

الثالث: أخرج الترمذي عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وذكر نحوه، وفيها أنَّ أبا سعيد هو الراقي، وأنه قرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبع مرات، وأنَّ الغَنَم كانت ثلاثين شاة.

الرابع: روىٰ البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ فِيهِمْ لَدِيغٌ، أَوْ سَلِيمٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الـمَاءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ إِنَّ فِي الْمَاءِ رَجُلاً لَدِيغاً، أَوْ سَلِيماً، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَىٰ شَيءٍ فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَىٰ كِتَابِ الله أَجْراً؟! حَتَّىٰ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! أَخَذَ عَلَىٰ كِتَابِ الله أَجْراً! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْراً كِتَابُ الله."

الخامس: روىٰ أبو داود عن خارجة بن الصلت التميمي قال: أَقْبَلْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَأَتَيْنَا عَلَىٰ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالُوا: إِنَّا أُنْبِئْنَا أَنَّكُمْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ بِخَيْرٍ، فَهَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رُقْيَةٍ؟ فَإِنَّ عِنْدَنَا مَعْتُوهاً فِي الْقُيُودِ، قَالَ: فَقُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: فَجَاءُوا بِمَعْتُوهٍ فِي الْقُيُودِ، قَالَ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً كُلَّمَا خَتَمْتُهَا أَجْمَعُ بُزَاقِي، ثُمَّ أَتْفُلُ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، قَالَ: فَأَعْطَوْنِي جُعْلاً، فَقُلْتُ: لاَ حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِّ ﷺ، فَقَالَ: "كُلْ فَلَعَمْرِي مَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ."

السادس: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عنه، عن عمه، أنَّه أَتَىٰ رَسُولَ اللهِّ ﷺ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَاجِعاً مِنْ عِنْدِهِ فَمَرَّ عَلَىٰ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ رَجُلٌ مَجْنُونٌ مُوثَقٌ

بِالْحَدِيدِ، فَقَالَ أَهْلُهُ: إِنَّا حُدِّثْنَا أَنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ جَاءَ بِخَيْرٍ فَهَلْ عِنْدَكَ شَيءٌ تُدَاوِيهِ؟ فَرَقَيْتُهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَبَرَأَ، فَأَعْطُونِي مِائَةَ شَاةٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: "هَلْ إِلاَّ هَذَا." وفي رواية: "هَلْ قُلْتَ غَيْرَ هَذَا؟" قُلْتُ: لاَ. قَالَ: "خُذْهَا، فَلَعَمْرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ، لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ."

السابع: أخرج الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلاَثِينَ رَاكِباً فِي سَرِيَّةٍ، فَنَزَلْنَا بِقَوْمٍ، فَسَأَلْنَاهُمْ أَنْ يَقْرُونَا فَأَبَوْا، فَلُدِغَ سَيِّدُهُمْ، فَأَتَوْنَا، فَقَالُوا: أَفِيكُمْ أَحَدٌ يَرْقِي مِنَ الْعَقْرَبِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا، وَلَكِنْ لاَ أَرْقِي حَتَّىٰ تُعْطُونَا غَنَماً، قَالُوا: فَإِنَّا نُعْطِيكُمْ ثَلاَثِينَ شَاةً، فَقَبِلْنَا، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَبَرِأ، وَقَبَضْنَا الْغَنَمَ، فَعَرَضَ فِي أَنْفُسِنَا مِنْهَا شَيْءٌ، فَقُلْنَا: لاَ تَعْجَلُوا حَتَّىٰ نَأْتِيَ رسولَ الله ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي صَنَعْتُ، فَقَالَ: أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْتَسِمُوهَا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً."

الثامن: أخرج الطبراني عن أبي سعيد نحو ذلك وفيه: أنَّ النبي ﷺ قال: "وما يدريك أنها رقية؟" فقال: يا رسول الله، شيء أُلقي في روعي، قال: "فكلوا وأطعمونا من الغنم."

التاسع: أخرج ابن نافع عن خارجة بن الصلت، عن عمه الحارث بن عمرو، قال: رَقَيْتُ رجلاً بأمِّ الكتاب فَبَرَأَ، فسألت النبي ﷺ فقال: "من أكَلَ برقية باطلٍ، لقد أكلْتَ برقية حقٍّ."

العاشر: أخرج الشيخان وغيرهما أنَّه ﷺ قال للرجل الذي خطب المرأة فلم يجد لها مهراً: "زوجتكها بما معك من القرآن."[1]

## المقصد الرابع

## في الأحاديث الدالة على امتناع أخذ الأجرة على تعليم القرآن

الأول: عن محمد بن جُحادة، أخبرني رجل يقال له أبان، عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه علَّم رجلاً سورة من القرآن فأهدى إليه ثوباً، أو قال: خميصة، قال: فذكر ذلك

(١) المرجع السابق، ص٣٩-٤٤.

للنبي ﷺ فقال: إنك آخذ أو قال: إن أنت أخذته أُلبست ثوباً من النار. رواه عبد بنُ حُميد، ورواته ثقات، والبيقهي في سننه الكبرىٰ.

الثاني: روىٰ ابن ماجه عن أُبي بن كعب قال: علَّمت رجلاً القرآن؛ أي وهو الطفيل بن عمرو الدوسي، فأهدىٰ إليَّ قوساً، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: "إن أخذتها أخذت قوساً من نار" فرددتها. ورواه ابن عدي قال: أنَّه مرسل جيد، بلفظ: كان عند أُبي بن كعب ناسٌ من أهل اليمن يقرئهم فجاءت رجلاً منهم قوسٌ من أهله، فنظرها؛ أي أعجبته، فأقسم عليه الرجل بالله أن يأخذها، فقال: لا حتىٰ أسأل رسول الله ﷺ، فسأله فقال: "أتحبُّ أن تأتي بها الله في عنقك يوم القيامة ناراً."

الثالث: روىٰ أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن منيع، وعبدُ بنُ حميد، والطبراني، والحاكم وسعيد بن منصور، والبيهقي وأبو يعلىٰ عن عبادة بن الصلت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، رجلٌ أهدىٰ إليَّ قوساً ممن كنت أعلّمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، فأرمي عليها في سبيل الله، قال: "إن كنت تحبُّ أن تطوّق بها طوقاً من نار فاقبلها."

الرابع: روىٰ الإمام أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن شبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به" الحديث. وأخرجه البزار من حديث ابن عوف، وقال: الصواب ابن شبل. وأخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الخامس: روىٰ عبدالهادي من طريق عثمان بن سعيد الدارمي عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: "من أخذ قوساً علىٰ تعليم القرآن، قلَّده الله قوساً من نار." قال: ليس فيه إلا عبد الرحمن بن يحيىٰ، قال أبو حاتم: صدوق ما بحديثه بأس، وقال البيهقي: ضعيف، وبقية سنده ثقات، والله أعلم.

السادس: أخرج أبو نعيم والبيهقي عن أبي الدرداء أنَّ النبي ﷺ قال: "من أخذ علىٰ تعليم القرآن قوساً قلَّده الله مكانَها قوساً من نار جهنم."

السابع: أخرج أبو نعيم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "من أخذ على القرآن أجراً فذاك حظه من القرآن." وفي رواية قلت: يا رسول الله، ما تقول في المعلمين؟ قال: درهمهم حرام.

الثامن: أخرج البيهقي عن بريدة، أنَّ النبي ﷺ قال: "من قرأ القرآن يتآكل به الناس جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم." وفي رواية ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه ﷺ قال: "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به."

التاسع: أخرج أبو نعيم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه ﷺ قال: "من أخذ على القرآن أجراً فقد عجّل الله حسناته في الدنيا، والقرآن يحاجّه يوم القيامة."

العاشر: أخرج الطبراني عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه ﷺ قال: "من يأخذ على تعليم القرآن قوساً، قلَّده الله قوساً من نار."

**تنبيه**

لم أرَ من جمع هذه الأحاديث في هذه المقصدين واستوفاهما كما فعلتُ، فاعتن بحفظها، وبما يأتي من اختلاف العلماء فيها؛ تصحيحاً وتضعيفاً، وأخذاً وتركاً، فإنَّ ذلك أمرٌ مهمٌ لا ينبغي إغفاله.(١)

## المقصد الخامس

## في بيان اختلاف العلماء في الأخذ بالأحاديث السابقة

اعلم أنَّ العلماء رضوان الله عليهم أجمعين من السلف والخلف اختلفوا في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وعلى الرقية به؛ هل ذلك جائزٌ، أم حرام؟

فقال جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم: إن ذلك جائزٌ لا كراهة فيه، وعليه الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كعطاء وأبي قلابة، ومالك، وأحمد، وأبي ثور، وقال الحاكم -من أكابر السلف-: لم أسمع أحداً كره أُجرة المعلم، وجرى على ذلك الحسن البصري، وابن سيرين، والشعبي، لكنهم قيدوه بما لم يُشترط، وأُعطي الحسن البصري -من

(١) المرجع السابق، ص٤٥-٥٠.

أكابر التابعين-، بل كان يفتي في زمن الصحابة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عشرة دراهم فقبلها.

واستدل القائلون بالجواز مطلقاً بالأحاديث السابقة، على صحة أكثرها، وهي صريحة صراحةً لا تقبل تأويلاً في الدلالة على حِلّ أخذ الأجرة والعوَض، بشرط وغيره، على تعليم القرآن، وعلى الرقية به، وعلى الطب ووصف الدواء ونحوه مما فيه مشقة تقابل الأجرة، وعلى أنَّ ذلك من الحلال الذي لا شبهة فيه، فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري وهو الخامس من المقصد الثالث: "إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى" رداً على من كرهوا أخذ الأجرة على كتاب الله، وشكوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا عمن أخذ الأجرة على الرقية به: يا رسول الله! أخذ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: "إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله،" فبان واتضح اتضاحاً لا خفاء معه أنَّ هذا الحديث صريح لا يقبل التأويل، على حل أخذ الأجرة، على تعليم القرآن والرقية به، ونحوهما.

ومنها قوله ﷺ في القصة السابقة في أكثر أحاديث المقصد "اقسموا واضربوا لي بسهم."

وقوله: "قد أصَبْتُم، اقْسِمُوا لي واضْرِبُوا لي معكم بسَهْم." وقوله: "اقسموها واضربوا لي سهماً." وقوله: "فكُلوا وأطْعِمُونا من الغنم."

ثم قوله ﷺ ذلك يحتمل أن يريد به حقيقته، لعلمه برضى الراقي، وهو أبو سعيد الخدري بذلك، وأن يريد به تطييب قلوبهم لشكهم في حلِّ أخذ مقابل للرقية بكتاب الله، فطيَّب ﷺ بذلك قلوبهم وبالغ به في تعريفهم أنَّه حلالٌ لا شُبهة فيه ولا كراهة، وقد وقع له ﷺ نظير ذلك في حديث العنبر؛ أي السمكة الكبيرة المجاوزة للحد، لما أكلوا منها، ثم قدموا المدينة، وسألوه ﷺ عنها، وفي حديث أبي قتادة في حمار الوحش لما اصطادوه، وهم حُرُم، فشكّوا في حلِّ أكْلِهم له، وأمَّا أمره ﷺ بقسمة الشاة بينه وبين أصحابه مع أنها جميعها ملك له ومختصة به، لا حق لأحد منهم معه فيها، فهو من باب الأمر بمحاسن الأخلاق، والمروءات والتبرعات ومواساة الأصحاب والرفاق، فقاسمهم تبرعاً وجوداً ومروءة.

وفي هذه القصة جواز المشاحة لمن ترك المعروف والمروءة، وإن كانت مسامحته أولىٰ لقول الصحابة لهم: استضفناكم فلم تضيفونا، فمنعوهم معروفهم في الرقية إلا بأجرة مكافأة علىٰ سيء أخلاقهم وامتناعهم من الإضافة، من أصلها، فضلاً عن إكرام الضيف.

قال النووي: قوله: "ما يدريك أنَّها رقية" فيه التصريح بأنَّها رقية؛ أيّ جميعها، إلا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] فقط، خلافاً لمن زعمه لاشتمالها إجمالاً علىٰ جميع ما في القرآن، وأنَّه يستحب أنْ يقرأ بها علىٰ اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات، وعلىٰ أنَّ الرُّقَىٰ والطبَّ من الأمور الجائزة، وهو قول الأئمة الأربعة وأصحابِهم، وإسحاق وأبي ثور، وأكثر السلف والخلف.

ومنها قوله ﷺ: "زوجتُكَها بما معك من القرآن" عوضاً ومعوضاً لما يقابل بمال، لمقابلته التعليم بالبضع المستفاد حلُّه، والمقتضي لوجوب المهر، وإذا جاز ذلك جاز جعله مقابلاً بأجرة؛ لأَنَّ هذا من جملة المعاوضة، فهو داخل في الحديث بقياس المساواة، وذهب أبو حنيفة، وإسحاق بن راهويه إلىٰ ظاهر الأحاديث المذكورة في المقصد الرابع، ورأوا أنَّ أخذ الأجرة والعوض علىٰ تعليم القرآن غير جائز، واختلف النقل عن الزهريِّ، وظاهر كلام الخطابي أنَّه حرّمه، وصرَّح غيره عنه بكراهته، وقد يقال: لا اختلاف؛ لأَنَّ الأئمة كثيراً ما يطلقون الكراهة علىٰ كراهة التحريم، ثم ما استدلوا به من تلك الأحاديث علىٰ امتناع ذلك، لا نزاع في دلالتها علىٰ ذلك، وإنّما النزاع في أسانيدها، فقال ابن بطال وغيره: إنها كلها ضعيفة، لحديث: "اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به،" وحديث: "درهمهم حرام؛" لأَنَّ في سنده مجهولاً، وحديث القوس عن عبادة بن الصامت؛ لأَنَّ فيه المغيرة بن زياد، وهو ضعيف.

قال ابن بطال: ومحال أنَّ هذه الأحاديث الضعيفة تعارض حديث ابن عباس: "إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله،" وحديث أبي سعيد الخدري في قصته السابقة؛ أي للاتفاق علىٰ صحة هذين الحديثين وغيرهما مما مرّ في المقصد الثالث، قال: وإنّما تعارض الأحاديث إذا تساوت طرقها في النقل والعدالة، وأما إن كان بعضها ضعيفاً فالصحيح منها يُسقِط الضعيف. انتهىٰ.

وفي حكمه على تلك الأحاديث كلها بالضعف نظر ظاهر، فقد مرّ في بعضها أنَّه صحيح، وممن صحّح حديث عبادة: الحاكم وصحح حديث أُبي، ومع ذلك فلا حجة فيهما على امتناع أخذ الأُجرة على تعليم القرآن. أما أولاً، فلأن أحاديث الصحيحين السابقة صريحة في الجواز وهي أصح، فوجب تقديمها، وأما ثانياً فهذان لا دلالة فيهما على الدعي أصلاً، وإنّما الذي فيهما امتناع قبول الهدية من المتعلِّم، وهذا شيء أجنبي عما نحن فيه، من أخذ أُجرة معقود عليها قبل التعليم، إذا حصل على أنَّهم أوّلوا هذا الامتناع من قبول الهدية المذكورة على أنَّه أمرٌ، كان تبرّع به المعلم ونوى الاحتساب فيه، ولم يكن قصده حال التعليم طلب عوض ونفع، فحذره النبي ﷺ إبطال أجره وتوعده عليه؛ إذ سبيل أُبي، وعبادة في هذا، سبيل من رد ضالة رجل أو استخرج له متاعاً من بحر تبرعاً واحتسبه ليس له أن يأخذ عليه عوضاً، ولو أنَّه طلب لذلك أجرة قبل أن يفعله، حسبة كان ذلك جائزاً له.

وأيضاً فأهل الصفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كان الغالب عليهم الفقر والأخذ من صدقة الناس، فأخذ شيء مهم ربَّما أضرَّ بهم، وبتسليم أنَّ أحاديث المقصد الرابع كلها صحيحة، وأنها مكافئة لأحاديث المقصد الثالث في الصحة، وفي الدلالة على امتناع أخذ الأجرة على تعليم القرآن، أو بعضه، فالجمع بينهما حينئذ واجب ما أمكن، جرياً على القاعدة الأصولية، إنَّ الجمع بين الأحاديث واجب ما أمكن، وإنه متى أمكن الجمع لم يجز دعوى نسخ ولا غيره، فيحمل المنع على أخذ أُجرة التعليم لعقد فاسد، لإغفال ركن أو شرط مفسد، والجواز على أخذها عليه بعقد صحيح، وهذا هو مدعانا، وقد علمت أنَّه الموافق للقواعد الأصولية، فكيف يجوز العدول عنه؟ هذا مع أنَّ بين المانع وبين إثبات كل مقدمة من تلك المقدمات الثلاث المسلمة خرط القتاد، وتجويز المحال.

فالحق الذي شهدت به القواعد الأصولية والحديثية، جواز أخذ الأُجرة على تعليم القرآن بعقد صحيح، وإن ذلك من الحلال الذي لا شبهة فيه، ولا كراهة، وإن وقع الخلاف فيه؛ لأَنَّ الخلاف إنَّما يُراعى ويحترم حيث لم يخالف سنة صحيحة صريحة، وهذا الخلاف ليس كذلك؛ لأنَّه خالف قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته أيضاً: "كلوا واضربوا لي معكم بسهم،" وقوله في الحديث المتفق على صحته: "زوجتكها بما

معك من القرآن،" وأحاديث القوس ونحوها السابقة، لا تعارض ذلك أصلاً؛ ولأن بعضها في هدية بعد الفعل، وأكثرها لا يحتج به لضعفه واعتلاله.

فتأمل ذلك حتىٰ التأمل، فإنَّه من النفائس التي لم نر من بسط الكلام فيها لذلك.

وقال بعض أهل العلم: أخذ الأُجرة علىٰ تعليم القرآن له حالان: أحدهما أن يتعين عليه لكونه بمحل ليس فيه غيره، فلا يجوز له أخذ الأجرة حينئذ. وثانيهما أن لا يتعين عليه، لوجود غيره ممن يقوم به، فله أخذ الأجرة عليه. انتهىٰ.

وهو مبني علىٰ أنَّ فرض العين لا يجوز أخذ الأجرة عليه، وإن كان متعباً، وهو قولٌ لجماعة من العلماء من أئمتنا وغيرهم.

والصحيح في مذهبنا، أنَّه يجوز أخذ الأُجرة علىٰ الأمر المشق وإن كان فرض عين، وعُلم مما مر أنَّه يجوز الإهداء إلىٰ معلمي القرآن، ويجوز له القبول، بل إن أُهدي إليه تودداً وتحبباً لعلمه أو صلاحه أو إحسانه إليه، وتعليمه له، ولم يكن في مال المهدي شبهة قوية، ولا أخلّ به إعطاء تلك الهدية، وكان المهدي ينكسر خاطره بالرد، فالأولىٰ للمهدي إليه القبول، وهذه هي هدايا السلف التي كانوا يفعلونها ويستحبون قبولها، وعليه حملوا قوله ﷺ: "تهادوا تحابوا." ومتىٰ اختلّ شرطٌ من ذلك، فالأولىٰ عدم القبول، قال الإمام السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يلحق بالقاضي في تحريم الهدية عليه بشروطها، المفتي والواعظ ومعلم القرآن والعلم، بل لهؤلاء قبول الهدية مطلقاً، والفرق أنَّ هؤلاء ليسوا متهمين، أو ليس فيهم أهلية الإلزام والحكم حتىٰ يُحابوا لأجله، ويخشىٰ منهم الميل فيه، بخلاف القاضي.

نعم إن كان الإهداء لأولئك لأجل المكافآت علىٰ ما يحمل منهم من الفتوىٰ والوعظ والتعليم، فالأولىٰ عدم القبول بهذا القصد، أن يكون علمهم خالصاً لوجه الله تعالىٰ.[1]

**تنبيه**

لا بد في الإجارة لتعليم القرآن ونحوه، من جواز تعلّمه، لا نحو شعر محرم. وأن

(١) المرجع السابق، ص٥٢-٥٩.

يكون فيه كلفة، لا نحو كالشهادتين لغير بليد. وتعيين المؤجّر عليه، وعلم المعلم والمتعلم، أو وليّه -إن كان غير رشيد- بعين المستأجر عليه، وسهولته أو صعوبته. فإنْ لم يعرف ذلك وجب أن يوكّل من يعرفه، ولا يكفي التقدير بالإشارة إلى المكتوب، كأن يقول: تعلِّمُه ما في هذه الورقة، لاختلافه صعوبةً وسهولة. هذا كله إن لم يعين الزمن، وإلا كقوله: استأجرتك لتعلّمه شهراً، أو جمعة أو نحوها، صحّ ما لم يجمع بينهما. وإلا كأن يقول: سورة في شهر بطل، ولا يشترط تعيين قراءة نافع ولا غيره، فيعلّمه المؤدب بأي قراءة شاء. وقيل -ورجَّحه بعض المتأخرين- يعلمه قراءة أهل البلد الغالبة، ويتعين ما عُيِّن، فإنْ عَلّمَ غيره فمتبرع، ويُلزمه تعيين المعين.[1]

## المقصد السادس

## في تحذير المعلم من نظر المرد الذين يعلمهم، وفي بيان حل نظر المعلم إلى الأمرد المتعلم لحاجة التعليم من غير شهوة، ولا خوف فتنة

أخرج الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما أنَّه ﷺ قال: "العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجلان زناهما الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه." وفي رواية لمسلم: "واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه التقبيل."

وفي الطبراني أنَّه ﷺ قال: "لتغضنَّ أبصاركم، ولتحفظنّ فروجكم، أو ليكشفنَّ الله وجوهكم." والترمذي وقال: حسن غريب، أنَّه ﷺ قال: "لا تتبع النظرة بالنظرة، فإنما لك الأولى؛ أي التي من غير قصد واختيار، وليست لك الآخرة" والطبراني والحاكم، وصححه، واعترض أنَّه ﷺ يعني عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ: "النظر سهمٌ من سهام إبليس، من تركه من مخافتي، أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه"...

ومسلم وغيره عن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة؟ فقال: "اصرف بصرَك."

---

(١) المرجع السابق، ص٦٠.

وقال بعض العلماء من المتأخرين: والنظر بشهوة إلى المرأة والأمرد زنا، لما صح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: "زنا العين النظر،" ولأجل ذلك بالغ الصالحون في الإعراض عن المرد، وعن النظر إليهم، وعن مخالطتهم ومجالستهم.

قال الحسن بن ذكوان من أكابر السلف: لا تجالسوا أولاد الأغنياء، فإنَّ لهم صوراً كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء.

قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف من الشاب الناسك من سبع ضار من الغلام الأمرد يقصد إليه. وكان يقول: لا يتبين رجل مع أمرد في مكان واحد.

وحرَّم العلماء الخلوة في بيت، أو حانوت، أو حمام قياساً على المرأة؛ لأَنَّ النبي ﷺ قال: "ما خلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما،" وفي المرد من يفوق النساء لحسنه، والفتنة به أعظم؛ ولأنَّه يمكن معه من الشر والفتنة والقبائح مما لا يمكن مع النساء، ويسهل في حقه من طرق الريبة ما لا يسهل في حق النساء، فكان بالتحريم أولى وأليق، والزجر عن مخالطته والنظر إليه أحق...

إذا علمت ذلك؛ فاعلم أنَّـي ذكرت لك في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر، الذي استقصيت فيه من الكبائر وأدلتها، والكلام عليها ما لم يوجد مثله في كتاب؛ أنَّ من الكبائر: أن ينظر الإنسان إلى امرأة أجنبية، أو أمرد حسن كذلك، مع الشهوة وخوف الفتنة، أو أن يلمس أحدهما كذلك، وأن يختلي بأحدهما كذلك، ولم يكن بحضرة محرم لأحدهما يحتشمه، ولا امرأة كذلك مع المرأة، ولا زوج للمرأة، وإنّـما قُيدت هنا فيما مرّ بالشهوة وخوف الفتنة، ليقرب عد ذلك كبيرة، لا لكون أصل الحرمة مقيداً بذلك، فإنَّ الأصحَّ من مذهبنا ونصَّ عليه الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجرى عليه النَّـوَوِي وغيره، حرمة هذه كلها مع المرأة والأمرد الحسن؛ أي باعتبار طبع الناظر؛ إذ الأصح أنَّ الـجَمال يختلف باختلاف الطباع...

والحاصل أنَّه يتأكد على المعلم صون نظره عن الأمرد الحسن ما أمكن، وإن جاز له بأن كان لمحض التعليم من غير شهوة، ولا خوف فتنة؛ لأنَّه ربَّـما أداه إلى ريبة أو فتنة، فيتعين فطم النفس عنه ما أمكن، على أنَّ جماعة من أئمتنا قالوا: لا يجوز النظر

للتعليم إلا إن كان فرضاً عيناً كالفاتحة، بخلاف غير تعين الفرض العيني، فلا يجوز النظر إليه وتبعتهم في "شرح الإرشاد".[1]...

## المقصد السابع

## في الأسئلة والأجوبة التي هي السبب في هذا التأليف

اعلم أنَّ بعض أصحابنا الصالحين نفع الله به وبسلفه، كان قد ولي القضاء، فجلس فيه مدة على عادته، من الصيانة والأمانة والعدل في أحكامه، والرجوع إلى الله تعالى خشية من عظائم آثامه، ومع ذلك بادر إلى سرعة التنصل منه، مع تشديد مستنيبه عليه في بقائه، فلم يرجع بقوله، ولا التفت إلى تشديده عليه في عزله لنفسه، بل بادر وعزل نفسه، وفرَّ بدينه وأمانته إلى الله تعالى، وإلى بيته وحرمه، مع ضيق الحال، وعدم وجدانه لما يكفي به الأهل والعيال، فيسّر الله له مكتباً بالصفات الآتية في السؤال، فآثر الجلوس فيه لقراءة الأطفال على وظيفة القضاء، ورضي بالأسلم لدينه، خشية من جمر القضاء الذي احترق فيه كل من تولى الآن تلك الوظيفة، وانحط بها عن المعالي المنيفة، إلى سفساف الدنيا وفتيلها، والاشتغال بها وبمحنها عن معالم الخيرات، بل مبادئ السعادات، أولئك هم الأخسرون أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤].

ولما جلس فيه وأقرأ الأطفال المقررين فيه، وقعت له وقائع أحبّ أن تتجلى عنده أحكامها، وأن يبرأ من خطرها وآثامها، فدوَّنها ورفعها إليّ، فكشفَتْ عنها كتب الأئمة، وأجبْتُه عنها نصَّاً تارة واستنباطاً فوطَّأْتُ لها المقاصد السابقة، ليكون مجموع ذلك نافعاً للمعلمين، مرشداً للمسترشدين، وزاجراً للمعتدين، ومعيناً للصالحين، ومنقذاً للمرتكبين في ورطة التعليم، التي لا يخلص منها إلا من منحه توفيق الرحمن الرحيم، الفتاح العليم.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٦١-٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.

## (١٨)
# الدُّرُّ النَّضِيدُ فِي أَدَبِ المُفِيدِ وَالمُسْتَفِيد

**بدر الدين محمد بن محمد الغَزِّي الشافعي (توفي: ٩٨٤هـ)**

**أهمية التأليف ومتطلباته:**

ينبغي لمن كَمُلت أهليتُه وتـمَّـتْ فضيلتُه أن يعتنيَ بالتصنيف، ويجدَّ في الجمع والتأليف، محققاً كلَّ ما يذكره، متثبتاً في نقله واستنباطه، متحرِّياً إيضاح العبارة وإيجازَها، ولا يُوضِح إيضاحاً ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازاً ينتهي إلى المحق والاستغلاق، ولا يطوّل تطويلاً يؤدي إلى الـمَلَالَة، مُـجْتَنِبَاً الأدلَّة الضعيفة والتعليلات الواهية، ...، مستوعباً معظم أحكام ذلك الفن، غير مخلّ بشيءٍ من أصوله، ... فبذلك تظهر له حقائق العلم ودقائقُه، وتنكشف له المشكلات، ويطلع على إيضاح الغوامض وحلّ المعضلات، ويثبت عنده العلمُ، ويرسخ معه؛ لأَنَّ ذلك يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتنقيب والمراجعة، والاطلاع على مذاهب العلماء، ومختلف كلام الأئمة ... وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التصنيف يثبت الحفظ، ويزكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويُكسِب جميل الذكر، وجزيل الأجر، ويخلِّدُه إلى آخر الدهر... وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يُسبق إليه أكثر..." (ص٢٨٣-٢٨٥)

الفصل الثامن عشر:

# كتاب "الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد" للغزّي

## أولاً: التعريف بـ"الغزّي"

هو أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغَزِّي العامري الشافعي، ولد في دمشق عام (٩٠٤هـ). فقيه، ومفسر، ومحدث، وشاعر، شيخه المهم هو والده رضِيُّ الدين الذي أخذ عنه الفقه والعربية والمنطق، لكنه أخذ العلم عن كثيرين آخرين، فقد أخذ الفقه عن تقي الدين أبي بكر بن قاضي عجلون، وأخذ الحديث عن الإمام بدر الدين حسن بن الشويخ المقدسي، وقرأ القرآن، على محمد بن السبكي، والبدر السنهوري، وغيرهم. كما أمضى في القاهرة خمس سنوات أخذ فيها العلم عن علماء القاهرة في ذلك العهد.

بدأ التدريس في دمشق وعمره سبع عشرة سنة، وأصبح شيخ القراء بالجامع الأموي، ودرَّس في عدد من المدارس، واشتهر بالكرم والسخاء، والإنفاق على طلبة العلم، ثم اعتزل واشتغل بالعبادة.

زاد عدد مؤلفاته عن مائة كتاب، في علوم مختلفة فيها المنثور والمنظوم. منها ثلاثة كتب في التفسير، ومنها فتح المغلق في تصحيح ما في الروضة من الخلاف المطلق، وكتاب آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة، واللمحة في اختصار الملحة، والعقد الجامع في الدرر اللوامع.

وبدر الدين الغزي الدمشقي هو والد المؤرخ نجم الدين الغزي، صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. توفي عام (٩٨٤هـ) ودفن في دمشق.

## ثانياً: التعريف بـ"الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد"[1]

(١) الغزّي، أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد العامري. **الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد**، تحقيق: أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، القاهرة: مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

نص كتاب الدر النضيد من أطول نصوص التراث التربوي الإسلامي يقع في حوالي (٢٢٠ صفحة=٥٦٠٠٠ كلمة). يقول المؤلف: إنَّ كتابه هو رسالة مختصرة جمعها من فضيلة الاشتغال بالعلم وآدابه، وأقسام العلم الشرعي، وآداب المعلم والمتعلم والفتوىٰ والمناظرة ونحو ذلك وما يتعلق به، ملخِّصاً لها من مقدمة شرح المهذب للشيخ الإمام شيخ الإسلام محيي الدين النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن غيرها من الكتب المعتبرة، ومما أفادنا إياه شيوخنا.[1]

ونقل المؤلف نصوصاً من عدد من الكتب السابقة: منها كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، وكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، وكتاب أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح، وغيرها من كتب المذهب الشافعي علىٰ وجه التحديد.

وقد جاء الكتاب في مقدمة وستة أبواب، وخاتمة. وشأنه شأن معظم المؤلفين، فقد كان منهجه هو البدء بما ورد حول الموضوع من القرآن الكريم، ثم من الحديث الشريف، ويستطرد في ذكر معظم الآيات والأحاديث ذات الصلة، ونظراً لأَنَّ مصنفات الحديث من الصحيحين والسنن والمستدرك، كانت قد عرفت في عصره فإنَّه كان يعزو الحديث لصاحب المصنف. ولا يتردد في إضافة بعض الأحاديث الضعيفة، شأنه في ذلك شأن العلماء الذين يتساهلون في رواية الضعيف في مسائل الأخلاق والمكارم، وفضائل الأعمال، والترغيب والترهيب. ثم يعقب بأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، ويضيف ما يستحسنه من الشعر الملائم للموضوع.

وتكمن أهمية الكتاب في أنَّه جمع فيه كثيراً مما جاء في كتب غيره في موضوع الكتاب، ولا سيما الخطيب البغدادي، وابن عبد البر، والنووي، والغزالي، وغيرهم، وأضاف إلىٰ ذلك موضوعات وأمثلة ونصوص أخرىٰ لم ترد في الكتاب السابقة.

وممن لخّص الكتاب شيخ دمشق وكبير فقهائها، عبد الباسط العلموي (توفي: ٩٨١هـ)، وذلك في كتابه المعيد في أدب المفيد والمستفيد ومع هذا لم يشر العلموي في

(١) المرجع السابق، ص٣٤.

ثنايا كتابه إلى الأصل الذي أخذ عنه إلا قليلاً.

## ثالثاً: مختارات من "الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد"

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونسأله الخيرَ كله، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته، وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فهذه رسالة مختصرة جمعتها في فضيلة الاشتغال بالعلم وآدابه، وأقسام العلم الشرعي، وآداب المعلم والمتعلم، والفتوى والمناظرة ونحو ذلك، وما يتعلق به ملخصاً لها من مقدمة شرح المهذب للشيخ الإمام شيخ الإسلام محيي الدين النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن غيرها من الكتب المعتبرة، ومما أفادنا إياه شيوخنا، تقبل الله تعالى منهم صالح أعمالهم، وراجياً من الله تعالى القبول والنفع بها دائماً، إنَّه خير مأمول. وسميتها بـ"الدرر النضيد في أدب المفيد والمستفيد". ورتبتها على مقدمة وستة أبواب وخاتمة.

المقدمة: في الأمر بالإخلاص والصدق وإحضار النية.

الباب الأول: في فضيلة الاشتغال بالعلم، وتعلمه، وتعليمه، ونشره، وحضور مجالسه، والحث على ذلك، وتحذير من أراد بتعلّمه غير الله تعالى، وتحذير من آذى عالماً. وفيه ثلاثة فصول:

الباب الثاني: أقسام العلم الشرعي، وهي ثلاثةٌ، ومراتبه وهي: ثلاثة.

الباب الثالث: في آداب المعلم والمتعلم، وهو ثلاثة أنواع.

الباب الرابع: في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، وهو أربعة أنواع.

الباب الخامس: في شُروط المناظرة وآدابها وآفاتها، وفيه فصلان.

الباب السادس: في الأدب مع الكتب وما يتعلق بها تصحيحاً وضبطاً ووضعاً

وحملاً وشراءً واستعارة ونسخاً، وفيه فصلان.

الخاتمة: في رقائق لطيفة مناسبة.[1]...

## المقدمة

## في الأمر بالإخلاص والصدق وإحضار النية

قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢-٣]...

وقال ﷺ: إنَّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه. متفق عليه.

وهذا الخبر من أصول الإسلام، وأحد قواعده وأول دعائمه وآكد الأركان. قال الشافعي: يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه، وقال هو وأحمد وغيرهما: يدخل في هذا الحديث ثلث العلم. قال البيهقي: معناه أنَّ كسب العبد إنَّما يكون بقلبه ولسانه وبنانه، فالنية أحد أقسام كسبه الثلاثة، وهي أرجحها؛ لأنَّه يكون عبادة بانفراده، بخلاف القسمين الآخرين؛ ولأن القول والعمل يدخلهما الفساد والرياء، ولا يدخل النية. وقال غيرهم: هو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد وصلها الإمام محيي الدين النووي إلى أربعين حديثاً، وجمعها في أربعينه.

وكان السلف وتابعوهم من الخلف رحمهم يستحبون استفتاح المصنفات ونحوها بهذا الحديث، ومن جملتهم إمام أهل الحديث أبو عبد الله البخاري في صحيحه، تنبيهاً للمُطالع على حسن النية وتصحيحها، واهتمامه بذلك واعتنائه به.[2]...

وقال ﷺ: "نية المؤمن أبلغ من عمله" رواه البيهقي في الشعب، وقال ﷺ: "إنما يُبعث الناس على نياتهم." رواه ابن ماجه بإسناد حسن...

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦-٣٩.

وقال رسول الله ﷺ مخبراً عن جبريل، عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنَّه قال: "الإخلاص سرٌّ من أسراري استودعْتُه قلب من أحببتُ من عبادي" رواه جماعة منهم الإمام أبو القاسم القشيري في الرسالة متصلاً مسلسلاً.

وعرّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته الإخلاص بأنه: إفرادُ الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الطاعة بالقصد؛ وهو أن يريد بطاعته التقرب إلىٰ الله تعالىٰ دون شيء آخر، من تصنع لمخلوق أو كتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنىً من المعاني سوىٰ التقرب إلىٰ الله تعالىٰ.[1]...

## الباب الأول

## في فضيلة الاشتغال بالعلم، وتصنيفه، وتعلمه، وتعليمه، ونشره، وحضور مجالسه، والحث علىٰ ذلك، وتحذير من أراد بعلمه غير الله تعالىٰ وتحذير من آذىٰ عالماً

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في فضيلة الاشتغال بالعلم وتصنيفه وتعلّمه وتعليمه، ونشره وحضور مجالسه والحث علىٰ ذلك وترجيح الاشتغال به علىٰ الصلاة والصيام ونحوهما من العبادات القاصرة علىٰ فاعلها.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]... وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البنية: ٧-٨] وقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]...

وقال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. والحكمة هي العلم، إلىٰ غير ذلك من الآيات.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠-٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠.

وقال رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين." وقال ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فوالله لَأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم."... روىٰ هذه الأخبار الشيخان...

وقال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صلح يدعو له." رواه مسلم...

وقال ﷺ: "اطلبو العلم ولو بالصين" رواه البيهقي والمرهبي في فضل العلم. وقال ﷺ: "طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم" رواه ابن ماجه...

وخرج رسول الله ﷺ، فإذا في المسجد مجلسان: مجلس يتفقهون ومجلسٌ يدعون الله تعالىٰ ويسألونه، فقال: كلا المجلسين إلىٰ خير، أما هؤلاء فيدعون الله تعالىٰ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل، هؤلاء أفضل، بالتعليم أرسلتُ ثم قعد معهم. رواه ابن ماجه.[1]...

والأحاديث في ذلك لا تنحصر، وكذلك الآثار عن السلف.

ومنها ما روي عن عِلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العالِم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلم لا يسدّه إلىٰ خلف منه. وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كفىٰ بالعلم شرفاً أن يدَّعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفىٰ بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه.[2]...

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ الرجُل لَيَخرج من منزله، وعليه من الذنوب مثل جبل تِهَامة، فإذا سمع العلم فخاف واسترجع عن ذنوبه انصرف إلىٰ منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء، فإنَّ الله تعالىٰ لم يخرج تربةً علىٰ وجه الأرض أكرمَ من مجالس العلماء. وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الناس: عليكم بالعلم، فإنَّ لله رداء محبة، فمن طلب باباً من العلم رداه الله بردائه، فإذا أذنب ذنباً اسْتَعْتَبَهُ، فإذا أذنب ذنباً

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

اسْتَعْتَبَهُ، فإذا أذنب ذنباً اسْتَعْتَبَهُ، لئلا يسلُبَه رداءَه ذلك، وإنْ تطاول به ذلك الذنبُ حتىٰ يموتَ. ومعنىٰ اسْتَعْتَبَهُ: طلب عودَه إلىٰ الطاعة، يقال استَعْتَبْتُه فأعتَبني؛ أي استرضيته فأرضاني، وأعتبني فلان إذا عاد إلىٰ مسرتي راجعاً عن الإساءة...[1]

وعن الشافعي وأبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي.

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وقال: من طلب الدنيا فعليه بالعلم، ومن طلب الآخرة فعليه بالعلم،...

وقال: من تعلّم القرآن عظُمَتْ قيمتُه، ومن نظر في الفقه نبُل قدرُه، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعه، ومن نظر في الحساب جزُل رأيُه، ومن كتب الحديث قويت حجتُه، ومن لم يصُن نفسه لم ينفعه علمه.[2]...

وقيل للإسكندر: ما بال تعظيمك لمؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟ فقال: لأَنَّ أبي سببُ حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية.

ولهم في فضل العلم أشعار كثيرة حسنة، من عيونها ما جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنَّهم ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم ولا تجهل به أبداً ... فالناس موتىٰ وأهل العلم أحياء[3]

وما جاء عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

حسبي بعلمي إن نفع ... ما الذل إلا في الطمع
من راقب الله رجع ... عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع ...

(١) المرجع السابق، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) المرجع السابق، ص٦٥-٦٧.

وللمتنبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولم أر في عيـــوب النـــاس عيبـــاً كـــنقص القـــادرين عـــلىٰ الـــتمام[1]

وقد حذفت كثيراً من الأحاديث وأسانيدها، فارجعها إنْ افتقرت إليها؛ وإلا ففي ما رَقَمْتُه كفاية.[2]...

**الفصل الثاني: في تحذير من أراد بعلمه غير الله تعالىٰ، نسأل الله العافية**

اعلم أنَّ ما ذُكر من الفضل في طلب العلم إنَّما هو فيمن طلبه مريداً به وجه الله، لا لغرض من الدنيا، وإلا فهو مذموم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: ٥] وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورىٰ: ٢٠]...

وقال ﷺ: "إنَّ أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه: رجل استُشهد، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استُشهدتُّ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه، حتىٰ أُلقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما علمت بها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ القرآن فيك. قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار." [رواه مسلم][3]...

وقال ﷺ: "من تعلم علماً لغير الله، أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعدَه من النار." رواه الترمذي وغيره وحسَّنه. وقال: "من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليُماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار." [رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم][4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦١-٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٧٣-٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص٧٥.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا حملة العلم اعملوا به، فإنَّما العالِم من عمل بما علم، ووافق علمُه عملَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العلمَ لا يجاوز تراقيهم، يُخالف علمُهم عملَهم، وتخالف سريرتُهم علانيتَهم، يجلسون حِلقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إنَّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تعلَّموا العلم وعلِّموه الناس، وتعلَّموا الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم، وتواضعوا لمن علمتموه العلم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم.(١)...

وعن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يطلب هذا العلم أحدٌ بالتملك وعز النفس فيفلحُ، ولكن من طلبه بذلَّة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح... وعن علي بن خشرم: شكوت إلى وكيع قلة الحفظ فقال: استعن على الحفظ بقلة الذنوب، ونظم بعضهم ذلك فقال:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونُورُ الله لا يُهدى لعاصي(٢)

**الفصل الثالث: في تحذير من آذى أو انتقص عالماً، والحث على إكرام العلماء وتعظيم حرماتهم**

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب" [رواه البخاري]...

وقال ﷺ: "ليس من أمتي من لم يجلَّ كبيرَنا، ويرحم صغيرنا، ويوفِّ لعالمنا." رواه أحمد، والحاكم، والطبراني. وقال ﷺ: "ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق، ذو الشيبة في

(١) المرجع السابق، ص٨٢-٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط." [رواه الطبراني].

وعن الإمام أحمد: "لحوم العلماء مسمومة، من شمها مرض، ومن أكلها مات." وقال الحافظ ابن عساكر: اعلم أنَّ لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وإن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].(١)

## الباب الثاني

## في أقسام العلم الشرعي وفيه فصلان

### الفصل الأول: في أقسام العلم الشرعي، وهي ثلاثة: تفسير، وحديث، وفقه

أمَّا التفسير فهو معرفة معاني كتاب الله العزيز، وما أريد به، وهو قسمان: مالا يُعرف إلا بتوقيف، وما يُدرك من دلالة الألفاظ بواسطة علوم أخر، كلغةٍ وغيرها. وقد جاء في فضله وآدابه أخبار وآثار، منها ما روي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً في قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال: الحكمة القرآنُ. قال ابن عباس: يعني تفسيرَه، فإنَّه قد قرأه البَرُّ والفاجر. وعن أبي الدرداء في قول تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾: قال: قراءة القرآن والفكرةُ فيه.(٢)...

وقال رسول الله ﷺ: "أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه" رواه البيهقي. وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَأَنْ أعرب آيةً من القرآن الكريم أحبّ إليَّ من أن أحفظ آية. وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد.

وعن رجل من الصحابة قال: لو أعلم أنَّي إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلت. وعن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: حدثنا من كان يقرِؤنا من الصحابة أنَّهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون العشر الأخرىٰ، حتىٰ يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. رواه أحمد(٣)...

---

(١) المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩١.

(٣) المرجع السابق، ص٩٢.

**وأما الحديث**: فهو من أجلِّ العلوم بعد القرآن، وهو -ويرادِفُه الخبَرُ على الصحيح- ما أضيفَ إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً، أو صفة، حتى الحركات والسكنات، واليقظة والنوم. قيل: أو أُضيف إلى صحابي أو مَنْ دونَه. والمشهور بين جماعة من الفقهاء: أنَّ ذلك أثرٌ لا خَبَرَ.

ثم علم الحديث ضربان: أحدهما عِلْمُهُ روايةً، ويُـحَدّ بأنَّه علمٌ يشتمل على نقلِ ما ذُكر، وموضُوعه ذاتُ النبي ﷺ من حيثُ أنَّه نبيٌّ، وغايته الفوزُ بسعادة الدارين.

الثاني: علمُ الحديث دِرَايةً وهو المرادُ على الإطلاق، والذي كلامُنا هنا فيه. ويُـحَدّ بأنَّه علمٌ يُعرف به معاني ما ذُكِرَ ومَتْنُه، ورجالُه وطُرُقُه، وصحيحُه وسقيمُه، وعِلَلُه، وما يحتاجُ إليه فيه، ليُعرفَ المقبولُ منه والمردود. وموضوعه: الرَّاوِي والمَرْوي من حيث ذلك. وغايتُه، معرفةُ ما يُقبل من ذلك ليعمل به، وما يراد منه ليُجتنب. ومسائله ما يذكر في كتُبِه من المقاصد.

ومما جاء في فضله وآدابه من الأخبار والآثار قوله ﷺ: "ليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فإنَّ الشاهد عسى أن يبلِّغ من هو أوعى له منه." وقوله: "نضّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلِّغَه غيرَه، فرُبَّ حامل فِقْهٍ إلى من هو أفْقَهُ منه، ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه." رواه الترمذي وحسنه، وابنُ ماجه.[1]...

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: إذا حدَّثْتُك عن رسول الله ﷺ حديثاً فلا تضرب له الأمثال. رواه ابن ماجه. وقال أبو ذرّ: "أمَرَنا رسول الله ﷺ أن لا نُغْلَب على أن نَأْمُرَ بالمعروف وننهى عن المنكر، ونعلّمَ النَّاسَ السُّنَن." رواه البيهقي والدارمي. وقال أبو سعيد الخدري: مذاكرة الحديث أفضل من قراءة القرآن. وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تذاكروا الحديث، فإنكم إن لا تفعلوا ينْدَرِسْ. وقال ابن مسعود: تذاكروا الحديث، فإنَّ ذكر الحديث حياتُه...[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨-٩٩.

**وأما الفقه**: فأصْلُه في اللغة الفهم، وقيل: فهم الأشياء الدقيقة، وقيل: التوصل إلى علمٍ غائب بعلم مشاهد، وقيل غير ذلك. وهو في الاصطلاح المقصود: علمٌ بحكم شرعي فرعي مكتسب من دليل تفصيلي؛ سواء كان من نصِّه أو استنباطاً منه، وهذا أحسن ما قيل في حَدِّه، وهو ما مشى عليه شيخنا شيخُ الإسلام زكريا في "لبّ الأصول"، ومشى عليه شيخُ الإسلام الوالدُ في منظومته المسماة بـ"الدرر اللوامع" لكن بدون ذكر قيد "التفصيلي" وبيَّنْتُه أحسن بيان في شرحها.

وموضوع الفقه: أفعالُ المكلفين، من حيثُ عروض الأحكام المذكورة لها. واستمداده من الكتاب والسنة، والإجماع، والقياس، وسائر الأدلة المعروفة.

وفائدته: امتثال أوامر الله تعالى واجتنابُ نواهيه المحصلان للفوائد الدنيوية والآخروية...

ومما ورد في فضله وآدابه، خبر: من يُرد الله به خَيراً، وخبر: فقيهٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد، وقوله ﷺ: "خَصْلتان لا تجتمعان في منافق: حُسن سَمْتٍ ولا فقهٌ في الدين." [رواه الترمذي].

وقوله ﷺ: "أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع" [رواه الطبراني]. وخبر أبي سعيد: كان النبي ﷺ وأصحابه إذا جلسوا كان حديثهم الفقه، إلا أن يقرأ رجل سورة، أو يأمرَ رجلاً بقراءَةِ سورة. رواه الحاكم.

إذا علمت ذلك فاعلم أنَّ القسمين الأوَّلَيْنِ هما أصلانِ للثالث؛ لأنَّه منهما استُمِدَّ، ومن مضمونهما استُنْبِط واستُخْرِج، ولكنَّه فُضِّل عليهما؛ لأنَّه النتيجةُ والمقصود منهما غالباً...

وأمَّا علم أصول الفقه فلا يُنفى عن الشرعي، بل هو أُسُّ الفِقْه، والمعمول عليه فيه.

وأمَّا علمُ أصول الدين فهو أهَمُّ العلوم وأعظمُها. والمقصود هو ما يتعلق بمعرفة الله تعالى وصفاته، وما يجب له، ويمتنِعُ عليه، وما يُرَدُّ به على المبتدعة؛ بخلاف الخوض في الكلام والجدل، وإقامة الشُّبَهِ، ونحو ذلك، فهو مذموم حرامٌ، بل هو

بالجهل أشبه منه بالعلم، بل الجهل خيرٌ منه وأسلَمُ، وعليه يُحمَلُ التحذير منه الواردُ عن السلف.[1]

## الفصل الثاني: في مراتب أحكام العلم الشرعي، وما أُلحق به

وهي ثلاثة: فرض عين، وفرض كفاية، وسُنَّة.

الأولىٰ: فرض العين، وهو أن يَعْلمَ المكلفُ ما لا يتأدَّىٰ الواجب الذي تعيَّن عليه فعلُه إلا به، وعليه حَمَلَ جماعاتٌ حديثَ: "طلب العلم فريضةٌ علىٰ كل مسلم،" وحمله آخرون علىٰ فرض الكفاية.

واعْلم أنَّ المكلف به كلُّ عبد عاقل بالغ ثلاثة أقسام: اعتقادٌ، وفعلٌ، وترك.

**فأما الاعتقاد** الذي هو أوَّلُها وأهمُّها، فاعلم أنَّ أولّ واجب علىٰ من ذُكر تعلُّمُ كلمتي الشهادة، وفهمُ معناهُما، وهما قولُه: "لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله،" واعتقاد ما يجبُ لله، وما يستحيل عليه، وما يجوز له، وغير ذلك مما يتعلق بواجب الإسلام والعقائد، ويكفي في ذلك بعد النطق بكلمتي الشهادة، وفهمِ معناهما: التصديقُ بكلِّ ما جاء به رسول الله ﷺ، واعتقادُه اعتقاداً جازماً سليماً من كل شك، واختلاج ريْب واضطراب نفْس.[2]...

وقد بالغ إمامنا الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشدَّ مبالغة، وأطنب في تحريمه وتغليظ العقوبة لمتعاطيه، إلىٰ أن قال: لَأنْ يلقَىٰ اللهَ العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك، خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الكلام. ونُقل نحوه عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وألفاظُهم بنحو هذا المعنىٰ كثيرة مشهورة.

وقد صنَّف الإمام الغزالي في آخر أمره كتابه المشهور، الذي سماه "إلجام العوام عن علم الكلام". وذكر أنَّ الناس كلَّهم عوامٌ في هذا الفنِّ، من الفقهاء وغيرهم إلا الشاذَّ النادرَ، الذي لا تكاد الأعصار تسمح بواحد منهم، فإذا اعتقد من ذُكِر ما ذُكِر

(١) المرجع السابق، ص٩٩-١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

كما ذُكِر فقد أدَّىٰ واجب الوقت، وليس يلزمه -كما قال الغَزَّالي- أمرٌ وراء هذا في الوقت؛ بدليل أنَّه لو مات عقب ذلك مات مطيعاً غَير عاص.

قال: فإنْ خطر له شكٌّ في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة أو غيرها من أصول العقائد مما لا بد من اعتقاده ولم يَزُلْ شكُّه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب عليه تعلُّم ما يُتوصل به إلىٰ إزالة الشك، ولو مات من لم يخطر له ذلك قبل أن يعتقد أنَّ كلام الله قديم وأنَّه مرئي، وأنَّه ليس محلاً للحوادث، ونحو ذلك مما يُذكَر في المعتقدات فقد مات علىٰ الإسلام إجماعاً؛ إذ ليس له معارض لذلك لِيَضِلَّ.[1]...

**وأما الفعل**؛ فنقول: إذا أقر من ذُكِرَ بالشهادتين، وقلنا: إنَّه أدىٰ واجب الوقت وصار مطيعاً، ثم وجب عليه صلاةٌ مثلاً تجدَّد عليه بدخول وقتها تعلُّمُ الطهارة والصلاة، أو كان له مالٌ يُزكّي وجب بتمام النصاب إن اعتُبِر ومُضيِّ الحولِ إن اشتُرط تعلمُ ما يجبُ في الزكاة الحاضرة، أو دخل عليه رمضانُ تجدَّد بسببه وجوبُ تعلُّمِ الصوم، وما يجب وما يحرم فيه، ولا يلزمه تعلم ذلك قبل وجوب ذلك الشيء.

نعم لو كان بحيث لو صبر إلىٰ دخول الوقت مثلاً لم يتمكن من تمام تعلّمها مع الفعل في الوقت، فهل يلزمه التعلم قبل الوقت؟ تردّد فيه الغزّالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورجّح بعضُهم عدم اللزوم لعدم وجود السبب المقتضي للوجوب، وبعدَه هو معذور. والصحيح ما جزم به غيره، كما قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه يلزمه كما يلزم السعي إلىٰ الجمعة لمن بعد منزله قبل الوقت، وتعلُّمُ كيفية الواجب بعد الوجوب علىٰ الفور، إن كان علىٰ الفور، وعلىٰ التراخي إن كان علىٰ التراخي، كالحج.[2]...

**وأما الترك**: فيجب علىٰ من ذُكِرَ عِلْمُ ذلك بحسب ما يتجدد في الحال، وقد يختلف بحال الشخص؛ إذ لا يجب علىٰ الأبكم تعلُّم ما يحرم من الكلام، ولا علىٰ الأعمىٰ تعلم ما يحرم من النظر، ولا علىٰ البدوي تعلّم ما يحل الجلوس فيه من المساكن، فلذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٥-١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨

ومما يلحق بالتُّروك أو الأفعال، بل هو المهمُّ من ذلك: تفقُّدُ القلب بعد العِلْمِ بما مرّ، فهو أيضاً كما قال إمام المحققين وحجة الإسلام: فرض عين، فيلزم من ذُكِرَ أن يتعلم ما يرىٰ نفسه محتاجةً إليه، من تطهير القلب من المهلكات، ومعالجةِ الرَّدِيَّات كالرياء والحسد، والعُجب وشِبْهِها.[1]...

**فرع**

قال الشافعي والأصحاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: علىٰ الآباء والأمهات -أي ونحوهم كالقيّم والوصي- تعليمُ من تحت نظرهم من الصغار: ما سيتعين عليهم بعد البلوغ، فيعلِّمُونَهم الطهارة والصلاة والصيام ونحوها، ويعرّفونهم تحريم الربا، والزنا، واللواط، والسرقة، وشرب المسكر، والكذب، والغيبة وشبهها، ويعرفونهم أنَّ بالبلوغ يدخلون في التكليف، ويعرّفونَهم ما يبْلُغُونَ به.

وقيل: هذا التعليم مستحبٌّ لا واجب، والصحيح وجوبُه، وهو ظاهرُ نصِّه، وكما يجب النظر في مالِـهم، بل هذا أوْلىٰ، وإنّـما المستحب ما زاد علىٰ هذا، من تعليم قرآن وفقه وآداب ونحوها. ويعرّفونهم ما يصلح به معاشُهم، ودليل وجوب تعليم الولد الصغير ونحوه: قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] وقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكرّم وجْهَه، ومجاهد وقتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا معناه: علّموهم ما ينجون به من النار وهذا ظاهر. وقال ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته." رواه الشيخان.

ثم أجرةٌ تعليم الواجب، ومثلُهُ أجرةُ تعليم المستحبِّ من قرآن، وما ذُكر في مالِـهم معه، فإنْ لم يكن فعلىٰ من تلزمه نفقتُهم، من نحو أبٍ وإن علا، ثم أمٍّ وإن عَلَتْ، هذا في النوع الأول.

وأما الثاني فذَكر البغوي فيه وجهيْن: وحكاهما غيرُه: أصحُّهما في مالِـهم لكونِه مصلحةً لهم، والثاني في مال الولي لعدم الضرورة إليه.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٩-١١٠.

واعلمْ أنَّ الشافعي والأصحاب رَحِمَهُمُ اللَّهُ إنَّما جعلوا للأم مدخلاً في وجوب التعليم، لكونه من التربية، وهي واجبة عليها، إذا وجبت عليها النفقة.[1]

**المرتبة الثانية: فرض الكفاية**، وهو قسمان:

ما لا بدَّ للنَّاس منه، في إقامة دينهم من العلوم الشرعية، كحفظ القرآن، والأحاديث وعلومها، والأصول والفقه، والنحو والتصريف واللغة، ومعرفة رواة الحديث وأحوالهم، والإجماع والخلاف.

وما ليس علماً شرعياً، ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب، والحساب وما في معناهما؛ إذ ذاك ضروري في صحة الأبدان، والآخر في المعاملات، وقَسْمِ التركات ونحو ذلك. وإذا قام بها واحدٌ سقط الفَرْضُ عن الباقين.[2]...

ولو اشتغل بالفقه ونحوه، وظهرت نجابته فيه، ورُجيَ فلاحه وتبريزه، فوجهان:

أحدهما: يتعين عليه الاستمرار لقلة من تحصلُ له هذه المرتبة، فينبغي أن لا يضيِّع ما حصله وما هو بصدد تحصيله. وأصحُّهُما لا يتعين؛ لأَنَّ الشروع لا يعيِّن المشروعَ فيه عندنا، إلا في الحج والعمرة، والجهاد وصلاة الجنازة. ولو خلت البلدة من مُفتٍ فقيل: يحرم الـمُـقَامُ بها، والأصح لا يحرم، إن أمكن الذهاب إلى مفتٍ، وإذا قام بالفتوى إنسان في مكان سقط به فرض الكفاية إلى مسافة القصر من كل جانب.

واعلم أنَّ للقائم بفرض الكفاية مَزِيَّةٌ على القائم بفَرْضِ العَيْن؛ لأَنَّه أسقط الحرج عن الأمة. حتى قال إمامُ الحرمين ووالدُه وغيرُهما: إنَّه أفضل من فرض العين؛ لأَنَّه يصان لقيام البعض به: جميع المكلفين عن إثمهم المترتب على تركهم له، وفرض العين إنَّما يُصان بالقيام به عن الإثم القائم بتركه: الفاعلُ فقط.

---

(١) المرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١١٢-١١٤.

**المرتبة الثالثة: النَّفْل**، الذي هو من الفضائل لا الفرائض، وهو كالتبَحُّر في أصول الأدلة والإمعان فيها، وراء القدْر الذي يحصل به فرض الكفاية، وكالتعمُّق في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وكتعلُّم العامي نوافل العبادات، لغرض العمل، لا ما يقوم به العلماء من تمييز الفَرْضِ عن النَّفْل، فإنَّ ذلك فرضُ كفاية في حقهم.[1]...

## الباب الثالث

## في آداب المعلم والمتعلم

وهي ثلاثة أنواع

**النوع الأول: آداب اشتركا فيها:**

وهي منقسمة إلى قسمين: آدابهما في نفسهما، وأدابهما في مجلس الدرس.

**القسم الأول: آدابهما في نفسهما**

فمنها، وهو أوَّلُ ما يجب على كلٍّ منهما أن يقصد بالاشتغال وجه الله تعالى، لا التوصل إلى غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاهٍ، أو شهوة أو سُمعة، أو تمييز عن الأشباه، أو تكثُّرٍ بالمشتغلين عليه، والمختلفين إليه إنْ كان شيخاً، أو بالمشايخ الذين أخذ عنهم، ولا يشينُ علمَه أو تعليمه إن كان معلِّماً ونحو ذلك بشيء من الطمع في رفقٍ يحصل من مشتغل عليه من خدمة أو مال أو نحوهما، وإن قلّ، ولو على صورة الهدية، التي لولا اشتغالُه لما أهداها إليه، كما أنَّ المتعلم لا يشين طلبَه بطمع في شيء يعطيه له الشيخ، أو يُنزل اسمَه في طلبة العلم لينال شيئاً من معلوم أو غيره.[2]...

وقد صحّ عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: ودِدْت أنَّ الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نُسِب إليّ منه شيءٌ... وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كلَّمْتُ أحداً قط إلا ووَدِدْت أن يوفَّق ويسدَّد ويعان، ويكونَ عليه رعاية من الله تعال وحفظٌ ... وقال الغزّالي رَحِمَهُ اللَّهُ بعدما ذكر أقوالَ الشافعي: ولهذا قال أبو ثور رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيت ولا رأى الراؤون مثل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: ما صليتُ صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو

---

(١) المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) المرجع السابق، ص١١٧.

فيها للشافعي. ولكثرة دعائه له قال له ابنُه: أيُّ رجل كان الشافعي حتىٰ تدعو له كل هذا الدعاء! فقال: يا بُني كان الشافعي كالشمس في الدنيا، والعافية للناس، فهل لهذين من خَلَف؟...

قال الغزّالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فانظر إلىٰ إنصاف الداعي وإلىٰ درجة المدعو له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء، لتعلم تقصيرهم في دعوىٰ الاقتداء بهولاء.[1]...

**ومنها** أن يكون أي كلٌّ منهما شديدَ القيام بتقوية اليقين، فإنَّ اليقين هو رأس مال الدِّين. قال ﷺ: اليقين الإيمان كله. وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: تعلموا اليقين.

**ومنها** أن يحافظ علىٰ القيام بشعائر الإسلام، وظواهر الأحكام، كإقامة الصلوات في مساجد الجماعات، وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر علىٰ الأذىٰ بسبب ذلك، صادعاً بالحق عند السلاطين، باذلاً نفسه لله تعالىٰ، لا يخاف فيه لومة لائم، ذاكراً قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]...

وكذلك القيام بإظهار السنن وإخمال البدع، والقيام لله في أمور الدين، وما فيه من مصالح المسلمين علىٰ الطريق المشروع، والمسلك المطبوع، ولا يرضىٰ من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منهما، بل يأخذ نفسَه بأحسنها وأكملها، فإنَّ العلماء هم القدوة وإليهم المرجعُ في الأحكام، وهم حُجَّةُ الله علىٰ العوامِّ، وقد يراقبهم للأخذ منهم من لا ينظرون، ويقتدي بهديهم من لا يعلمون، وإذا لم يَنتفِع العالمُ بعلمه فغيره أبعدُ عن الانتفاع به، كما قال الشافعي: ليس العلم ما حُفظ، العلمُ ما نفع. ولهذا عظُمَت زلّة العالِـم، لما يترتب عليها من المفاسد لاقتداء الناس به.[2]...

**القسم الثاني: آدابهما في درسهما واشتغالهما**

**فمنها**: أن لا يزال كلٌّ منهما مجتهداً في الاشتغال قراءةً، ومطالعةً، وتعليقاً، ومباحثة، ومذاكرةً، وفكراً، وحفظاً، وإقراء، وتصنيفاً إن تأهل لهما، ووظائف الأوراد

---

(١) المرجع السابق، ص١١٩-١٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢٢.

في كلِّ الأحوال. وأن تكون ملازَمةُ الاشتغال بالعلم هي مطلوبُهُ ورأسُ ماله، فلا يشتغل بغيره، فإنْ اضطر إلى غيره في وقت فعله بعد تحصيله وظيفته من العلم.

**ومنها**: أن لا يخلّ بوظيفة من حضور درس ومذاكرة وقراءة ونحوها، لعروض مرض خفيف، أو ألَـم لطيف، ونحو ذلك مما يمكن معه الاشتغال، وليستَشْفِ بالعلم، وليشتغل بقدر الإمكان، كما قيل:

إذا مرضـــنا تـــداويْنا بـــذكركُمُ ونـــترك الـــذكر إخـــلالاً فننْـــتكِسُ

**ومنها**: أنْ يجتهد أن لا يحضر مجلس الدرس إلا متطهراً من الحَدَثِ والخَبَثِ، منظِّفاً ومطيباً بدنَه وثوبه، لابساً أحسن ثيابِه ونحو ذلك مما مرَّ بعضُه، ويأتي باقيه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة،... وإن كان في مسجد نَوَى في ابتداء جلوسه الاعتكاف،...

**ومنها**: أنْ لا يسأل أحداً تعنُّتاً وتعجزاً، فإنَّه لا يستحق جواباً. وفي الحديث النهيُ عن الأغلوطات...

**ومنها**: أنْ يتصوَّرَ ويتأمَّل ويهذِّب ما يريد أن يورِدَه أو يقرِّرَه، أو يسأل عنه قبل إبرازه والتفوّه به، ليأمن من صدور هفوة، أو زلّةٍ أو وهْم، أو انعكاس فَهْم، لا سيَّما إن كان هناك من يُخشى منه أن يصير ذلك عليه وَصْمَةً، ويجعلَه عند نظرائه ومن يحسده وَسْمَةً، والله هو اللطيف الحفيظ.

**ومنها**: أنْ لا يستنكف من التعلّم والاستفادة ممن هو دونه، في منصب أو سن أو نسب، أو شهرة، أو دين، أو في علم آخر، بل يحرص على الفائدة، ممن كانت عنده، وإنْ كان دونَه في جميع هذا، ولا يمنعُه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه، فقد كان كثيرٌ من السلف يستفيدون من تلاميذهم ما ليس عندهم.[1]...

**النوع الثاني: آداب يختص بها المعلم، وقد يشاركه في بعضها المتعلم:**

واعلم أنَّ التعليم هو الأصل الذي به يقوم قوام الدين، وبه يُؤْمَن انْمِحاقُ العلم،

---

(١) المرجع السابق، ص١٦١-١٦٣.

فهو من أهم أمور الدين، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] وفي الصحيح من طرقٍ خَبَرُ: (ليبلغ الشاهد منكم الغائب)... والإجماع منعقد علىٰ مطلوبيته.

واعلم أنَّه يتعين علىٰ طالب العلم أن لا ينتصب للتدريس حتىٰ تكمل أهليتُه، ويجب أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالىٰ والتقرب إليه، وأن لا يجعله وسيلة إلىٰ غرض دنيوي.

إذا علمت ذلك، اعلم أنَّ آدابه تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: آدابه في نفسه، وآدابه مع طلبته، وآدابه في درسه.[1]

**القسم الأول: آدابه في نفسه:**

فمنها وهو أوَّلُها: أنَّه يتعين علىٰ طالب العلم أن لا ينتصب للتدريس حتىٰ تكتمل أهليته، ويشهد له به صُلحاء مشايخه، ففي الخبر الصحيح: "المتشبع بما لم يُعط كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ." وقال الشبلي: من تصدر قبل أوانه فقد تصدىٰ لِـهَوَانِه. وعن أبي حنيفة: من طلب الرئاسة في غير حينه لم يَزَلْ في ذُلٍّ ما بقي. واللبيب من صان نفسَه عن تعرّضها لما يُعدُّ فيه ناقصاً وبتعاطيه ظالماً.

ولبعضهم:

تـصدَّر للتـدريس كـلُّ مهَـوَّس ... جَهُـولٍ تـسَـمَّىٰ بالفَقِيـهِ المـدَرِّسِ
فحُـقَّ لأهـل العلـم أن يتمثلـوا ... بِبَيْـتٍ قـديم شـاع في كـل مجلـس
لقـد هزُلَـتْ حتـىٰ بـدا مـن هزالهـا ... كُلاها[2] وحتىٰ اسْتَامَها كلُّ مُفْلِسِ

ومنها: أن لا يطلُبَ علىٰ تعليمه أجراً، ولا يقصدَ به جزاءً ولا شكوراً. قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومنها: أن لا يُذِلَّ العلمَ ولا يذهبَ به إلىٰ مكان ينسب إلىٰ من يتَعَلَّمه منه، وإن

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٨.

(٢) الكُلىٰ جمع كُلية عضو من أعضاء الجسد.

كان المتعلِّمُ كبيرَ القدر، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف، وأخبارُهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم. قال الزهري: هوانٌ بالعلم أن يحملَه العالِمُ إلى بيت المتعلِّم، فإنْ دعت ضرورة أو اقتضته مصلحة دينية راجحة على مفسدة ابتذاله، وحسُنت فيه نية صالحة رجونا أنَّه لا بأس به ما دامت الحالة هذه، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من ذلك.[1]...

**القسم الثاني: آداب المعلم مع طلبته:**

فمن ذلك ينبغي له إذا لمح المتعلم الخير، وأنس فيه الرُشد، أن يؤدّبه على التدريج بالآداب السَّنِيَّة، والشَّيَمِ الـمَرْضِيَّة، ورياضة نفسه بالآداب والدقائق الخفية، ويعوّده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية.

وأوَّلُ ذلك أن يحرّضه بأقواله وأفعاله المتكررات على الإخلاص والصدق وحُسن النيات، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات، وأن يكون دائماً على ذلك حتى الممات، ويعرفه أنَّ بذلك تنفتح عليه أبواب المعارف وينشرح صدره، وتنفجر من قلبه ينابيع الحكمة واللطائف، ويبارك في حاله وعلمه، ويوفق للإصابة في قوله وفعله وحكمِه...

**ومنها**: أن يرغِّبه في العلم، ويذكِّره بفضائله وفضائل العلماء، وأنَّهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأنَّهم على منابر من نور، يغبطُهم الأنبياء والشهداء، ونحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار، والآثار والأشعار، ويرغِّبه مع ذلك بتدريج على ما يُعين على تحصيله من الاقتصار على الميسور، وقدر الكفاية من الدنيا، والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعلُّق بها، وتفريق الهمِّ بسببها.

**ومنها**: أنَّه يحبّ له ما يحبّ لنفسه، ويكره ما يكره لنفسه من الشرِّ، ففي الصحيحين: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه." وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أكرم الناس عليَّ جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إليّ، لو استطعت أن لا يقع الذباب عليه لفعلتُ...

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٠-١٧١.

وأن يحنو عليه ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح نفسه وولده، ويجريه مَجْرَى ولدِه في الشفقة عليه والاهتمام بمصالحه، والصبرِ على جفاءٍ ربَّما وقع منه، ونقصٍ لا يكاد يخلو الإنسان عنه، وسوءِ أدب في بعض الأحيان، فيبسط له عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسُّف، قاصداً بذلك حسن تربيته، وتحسين خلقه، وإصلاح شأنه.

ومنها، وهو أهمّ مما قبله: أن يزجره عن سوء الأخلاق، وارتكاب المحرمات والمكروهات، أو ما يؤدي إلى فساد حال، أو ترك اشتغال، أو إساءة أدب، أو كثرة كلام بغير توجيه ولا فائدة، أو معاشرة من لا يليق به عشرته، أو نحو ذلك بطريق التعريض ما أمكن، لا بطريق التصريح، وبطريق الرحمة، لا بطريق التوبيخ، فإنَّ التصريح يرفع الهيبة، ويُورِث الجرأةَ على الهجوم بالخلاف، ويهيِّجُ الحرصَ على الإصرار.[1]...

ومنها أن لا يتعاظم على المتعلمين، بل يلين لهم، ويتواضع. قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء ٢١٥]. وقال ﷺ: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا،" وقال ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد إلا رفعه الله." رواهما مسلم.

وهذا في التواضع لمطلق الناس، فكيف بهؤلاء الذين هم كالأولاد مع ما هم عليه له من ملازمتهم واعتمادهم عليه في طلب العلم، ومع ما لهم عليه من حق الصحبة، وحرمة التردد، وشرف الصحبة، وصدق التودد. وفي الخبر عنه ﷺ: "علّموا ولا تعنفوا، فإنَّ المعلم خير من المعنِّف." رواه البيهقي في الشعب وابن عدي...

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تعلَّموا العلم وعلِّموه الناس، وتعلَّموا الوقار والسكنية، وتواضعوا لمن تعلّمْتُم منه العلم، وتواضعوا لمن علمْتُمُوه العلم، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمُكم بجهلِكم." رواه البيهقي في الشعب.

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٥-١٧٧.

ومنها: أن يوقِّرهم ويعظّمَهم، ويحسِّن خُلقَه معهم، ويتلطَّفَ بهم، ويرحّبَ بهم إذا لقيهم، وعند إقبالهم عليه ويعاملهم بالبشاشة، وطلاقة الوجه، وظهور البِشْر، وحُسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة، ويُحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه بحسب التيسير.[1]...

ومنها: ينبغي له أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل، ويختبر بذلك أفهامهم، ويظهر فضل الفاضل، ويُثني عليه بذلك، ترغيباً له وللباقين في الاشتغال والفكر في العلم، وليتدربوا بذلك ويعتادوه، ولا يعنِّف من غَلَطَ منهم في ذلك، إلا أن يرى في تغليطه مصلحة...

ومنها: إذا فرغ من شرح درسٍ، فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة، وإعادة ذكر ما أُشْكِل منه، ليمتحن بذلك فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شكَرَه، ومن لم يفهمه تلطّف في إعادته له.[2]...

وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدرس، وإعادة ما وقع من التقرير بعد فراغه ليثبت في أذهانهم...

ومنها أن ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم، وإن كان صغيراً، فإنَّ ذلك من بركة العلم...

ومنها: أن لا يُظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو اعتناء، مع تساويهم في الصفات من سن، أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة، فإنَّ ذلك يُوحِش الصدر ويُنَفِّر القلب.[3]...

**القسم الثالث: آدابه في درسه:**

**فمنها:** إذا عزم على مجلس التدريس أن يتطهر من الحدث والخبث، فلا يُلقي الدرسَ إلا على طهارة، وأن ينظف ويطيِّب بدنه وثوبه، ويختار له لبس البياض، ولا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٨.

يعتني بفاخر الثياب، ولا يقتصر على خَلِق ينتسب صاحبه إلى قلة مروءة.

وقال ابن جماعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يلبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم، وتبجيل الشريعة، انتهى.

وأن يتطيَّب ويسرِّح لحيته، ويزيل كلَّ ما يشينُه.[1]...

ومنها: إذا خرج من بيته مُرِيداً مجلسَ الدرس أن يدعو بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ، فيقول: اللهم إنِّي أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَل، أو أزِلَّ أو أُزَل، أو أظلِم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهَل عليّ، عز جارك وجل ثناؤك، ولا إله غيرك. ثم يقول: بسم الله وبالله، حسبي الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. اللهم ثبت جناني، وأدر على الحق لساني. ويديم ذكر الله تعالى إلى أن يصل إلى المجلس.[2]...

ومنها أن يُحسِّن خُلُقَه مع جلسائه، ويوقِّر فاضلهم بعلم أو سنٍّ أو صلاح أو شرف، ونحو ذلك. ويرفعهم في المجلس على حسب تقديمهم في الإمامة، ويتلطّف بالباقين، ويكرمهم بحسن السلام، وطلاقة الوجه، والبشاشة والابتسام، وبالقيام لهم على سبيل الاحترام. ولشيخ الإسلام محيي الدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الترخيص فيه كتاب مستقل شفى فيه العليل، وأتى فيه بواضح الدليل، وأجاب عما يوهم كراهته، فجزاه الله خيراً.[3]...

## النوع الثالث: آداب يختص بها المتعلم وقد شاركه في بعضها المعلم

كما يظهر للمتأمل، وكما يعلم مما مر، وتقدم توجيه ذلك، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: آدابه في نفسه، وآدابه مع شيخه، وآدابه في مجلس درسه.

### القسم الأول: آدابه في نفسه:

منها: وهو أوَّلُها وأهمّها وتقدّم ما يؤخذ منه: أن يطهّر قلبه من الأدناس؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه واستمراره، ويحسِّن نيَّته في طلبه، بأن يقصد به وجه الله تعالى

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٣- ١٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٦.

والعمل، وإحياء الشريعة. وقد مرّ أدلة النية وغيرها مما ذُكر، ونذكر هنا زيادة على ذلك. قال ﷺ: "إن في الجسد مضغةً إذا صلَحَت صلَحَ الجسد كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب" رواه الشيخان.

وقالوا: تطييب القلب للعلم، كتطييب الأرض للزراعة؛ أي فبذلك ينمو وتظهر بركته، وإلا فلا ينمو ولا يزكو كالزرع في أرض بور غير مطيبة...

**ومنها**: أن يغتنم التحصيلَ في وقت الفراغ والنشاط، وحال الشباب وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة، وارتفاع المنزلة، فقد رُوِّينا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا؛ أي تصيروا سادة فتستحْيُوا من التعلُّم.

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تفقّهْ قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه. وجاء في الخبر: مَثَلُ الذي يتعلَّم العلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلَّم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء. رواه الطبراني.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما أوتي عالمٌ علماً إلا وهو شاب.

وهذا باعتبار الغالب، وإلا فمن كبِرَ لا ينبغي له أن يحجم عن الطلب، فإنَّ الفضل واسع، والكرم وافر، وقد قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، وقال تعالى حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] إلى غير ذلك.

وقصة القفَّال واشتغاله في كبره مشهورة، فبالله يا أخي، أحذر التسويف في شبابك، والكسل، وسُدّ باب الرجاء في كبرك، واغتنم ما يقي من عُمُرك، فإنَّ بقية العمر لا قيمة لها. وما أحسن قول من قال:

بقية العمر عندي ما له ثمن ... وإن مضى غير محمود من الزمن
يستدرك المرءُ فيها ما أفات ويحـ ... ـيي ما أمات ويمحو السوء بالحسن

**ومنها**: أن يقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وكمال الاجتهاد، وقوة الجِدِّ في التحصيل، ويرضى بما تيسر من القوت، وإن

كان يسيراً، وبما ستر مثلَه من اللباس وإن كان خَلِقاً، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، وبجمع شمل القلب عن مفترِقات الآمال تتفجر فيه ينابيع الحكمة.[1]...

**القسم الثاني: آدابه مع شيخه وقدوته، وما يجب عليه من تعظيم حرمته**

فمنها وهو أوَّلها: أنَّه ينبغي للطالب أن يقدِّم النظر ويستخير الله فيمن يأخذُ العلمَ عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه. وليكن -إن أمكن- ممن كمُلَت أهليته، وظهرت ديانتُه، وتحققت معرفته، وعرفت عفّته، واشتهرت صيانتُه وسيادته، وظهرت مروءته، وحَسُن تعليمُه، وجاد تفهيمه. ولا يرغب الطالب في من زاد علمه مع نقصٍ في ورَعِه أو دينه أو خُلُق جميل، فعن جماعة من السلف: هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم.

ولا يكفي في أهليّة التعليم أن يكون متبحراً في العلم المقصود فقط، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونُه له معرفةٌ في الجملة بغيره من الفنون الشرعية، فإنها مرتبطة، ويكون له دِرْبةٌ، وتقوى، وخُلقٌ جميل، وذهن صحيح، واطلاعٌ تام، وله مع من يوثَق به من مشايخ عصره كثرة بحث، وطول اجتماع.

قالوا: ولا يأخذ العلم ممن كان أَخْذُه له من بطون الكتب، من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق، خوفاً من وقوعه في التصحيف والغلط والتحريق. قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من تفقه من بطون الكتب ضيّع الأحكام.[2]...

**ومنها**: أن ينظر إلى معلِّمِه بعين الاحترام والإجلال والإكرام، ويعتقد فيه كمال أهليته ورجحانَه على كثير من أهل طبقته، فإنَّ ذلك أقربُ إلى انتفاعه به ورسوخ ما يسمعه منه في ذهنه. وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء، وقال: اللهم استر عيب معلمي عنّي، ولا تُذهب بركة علمه مني.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٦.

ومنها أن يعرف للمعلّم حقّه، ولا ينسى له فضله، ويتواضع للعلم، فبتواضعه له ينالُه، وقد أُمرنا بالتواضع مطلقاً، فهنا أولى...

وقد قال ﷺ: "تعلموا العلم وتعلّموا للعلم السكينة والوقار، وتوضعوا لمن تعلمون منه." رواه الطبراني في الأوسط...

**ومنها**: أن لا يُنكر عليه، ولا يتأمَّر عليه، ولا يشيرَ عليه بخلاف رأيه، فيرى أنَّه أعلم بالصواب منه، بل ينقاد إليه في أموره كلِّها، ويُلقي إليه زمام أمره بالكلية، ويتحرّى رضاه ويُذعن لنصحه، وإن خالف رأي نفسه، ولا يستبق معه رأياً ولا اختياراً، ويشاوره في أموره كلها، ويأتمر بأمره، ولا يخرج عن رأيه، وتدبيره.[1]

قال الغزّالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومهما أشار عليه شيخه بطريق في العلم فليقلدْه، وليدَعْ رأيَه، فخطأ مرشده أنفعُ له من صوابه في نفسه، وفي قصة موسى والخضر، صلى الله عليهما وآله تنبيه على ذلك. وبالجملة فيكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر الناصح، بل هذا أوْلى لتفاوت ثمرتِهما.

ومنها أن يبجّله في خطابه وجوابه في غيبته وحضوره، ولا يخاطبه بتاء الخطاب وكافِه، ولا يناديه من بُعد، بل يقول: يا سيدي، أو يا أستاذ. وقال الخطيب: يقول: أيَّها العالم، أيها الحافظ، ونحو ذلك. ويخاطبه بصيغة الجمع تعظيماً، نحو: ما تقولون في كذا، وما رأيكم في كذا، وقلتم رضي الله عنكم، أو تقبل الله منكم، أو رحمكم الله، ولا يسميه في غيبته باسمه إلا مقروناً بما يُشعر بتعظيمه، كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ كذا، أو قال شيخنا، أو قال شيخ الإسلام، أو حجة الإسلام، ونحو ذلك.[2]...

ومنها أن لا يستحيي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهُه رقّ علمه، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال. وقال ابن شهاب: العلم خزائن وتفتحه المسألة.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٠-٢٤١.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٧.

**القسم الثالث: في آدابه في درسه وقراءته، وما يعتمده حينئذ مع شيخه، ورفقته**

فمنها وهو أوَّلُها: أن يبتدئ أولاً مَن وفّقه الله تعالىٰ وفتح عين بصيرته بحفظ كتاب الله العزيز، حفظاً مُتْقَناً فهو أصل العلوم وأهمها، وكان السلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بغيره من العلوم، كالحديث والفقه اشتغالاً يؤدي إلىٰ نسيان شيءٍ منه، أو تعريضه للنسيان، بل يتعهَّدُ دراستَه وملازمة وِرْدٍ كل يوم أو أيام، أو جمعة دائماً أبداً، كما تقدم. قال ابن جماعة: ويجتهد بعد حفظه علىٰ إتقان تفسيره وسائر علومه، انتهىٰ.

ثم يحفظ في كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه، ويقدم الأهم فالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو والتصريف، ثم الحديث وعلومه والأصول، ثم الباقي علىٰ ما تيسَّر، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته علىٰ المشايخ. وليحذر من الاعتماد علىٰ الكتب ابتداء، وقد مرَّ التحذير من ذلك، بل يعتمد من الشيوخ في كلِّ فَنٍّ أكثرَهُم تحقيقاً فيه، وتحصيلاً منه، وأخبرَهم بالكتاب الذي قرأه، وأحسنَهم تعليماً، وأكملَهم في الصفات السابقة، فإنْ أمكن شرحُ دروس في كل يوم فَعَلَ، وإلا اقتصر علىٰ الممكن من درسين وثلاثة، وغير ذلك.

وإذا اعتمد شيخاً في فن، وكان لا يتأذىٰ بقراءة ذلك الفن علىٰ غيره، فليقرأ أيضاً علىٰ ثان وثالث وأكثر، ما لم يتأذّوا، فإنْ تأذىٰ المعتَمَد عليه اقتصر عليه، وراعىٰ قلبه فهو أقرب إلىٰ انتفاعه.[1]...

**ومنها**: أن يذاكر بمحفوظاته ويديم الفكر فيها، ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد، وسيأتي ذكر مرافقته لبعض حاضري حلقة شيخه في مذاكرة الدروس الواقعة.

**ومنها**: أن يقسَّم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عُمُره، فإنَّ بقية العمر لا قيمة له. وأجودُ الأوقات للحفظِ الأسحارُ، وللبحثِ الإبكارُ، وللكتابةِ وسطُ النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليلُ.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٦-٢٦٧.

ولا يحتقر فائدةً يراها أو يسمعها في أي فنٍّ كانت، بل يبادر إلى كتابتها وحفظها، لما روى الحاكم والطبراني في الأوسط عن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: "قيدوا العلم" قلت: وما تقييده؟. قال: "كتابته." وروى الترمذي والبيهقي في المدخل عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه كان رجلٌ من الأنصار يجلس إلى النبيّ ﷺ، فيسمع من النبيّ ﷺ الحديث، فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "استعن بيمينك" وأومأ بيده؛ أي خُط. وروى الدارمي والحاكم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "قيدوا العلم بالكتاب."[1]...

ومنها: ينبغي أن يذاكر من يرافِقُهُ من مواظبي مجلس الشيخ بما وَقَعَ فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، ويعيدوا كلامَ الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرة نفعاً عظيماً قُدِّم على نفع الحفظ، وينبغي الإسراع بها بعد القيام من المجلس قبل تفرُّقِ أذهانهم، وتشتُّتِ خواطرهم، وشذوذِ بعض ما سمعوه عن أفهامهم، ثم يتذاكرونه في بعض الأوقات... قال بعض الحكماء: مَنْ أكْثَرَ المذاكرةَ بالعلم، لم ينْسَ ما علِمَه واستفاد ما لم يعلم.

وقال الشاعر:

إذا لم يُـذَاكِر ذو العُـلوم بعلمِـه ... ولَـمْ يستفدْ عِلـماً نَسِي مـا تعلّمـا
فكمْ جامع للكُتْـبِ في كـلِّ مـذهبٍ ... يزيد مـع الأيـام في جمعـه عَمـى[2]

**فصل في التصنيف**

ينبغي لمن كَمُلت أهليتُه وتمّت فضيلته أن يعتني بالتصنيف، ويجدَّ في الجمع والتأليف محققاً كل ما يذكره، متثبتاً في نقله واستنباطه، متحرياً إيضاحَ العبارة وإيجازَها، ولا يُوضِحُ إيضاحاً ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازاً ينتهي إلى الـمَحْقِ والاستغلاق، ولا يطوِّل تطويلاً يؤدي إلى الملالة، مجتنباً الأدلَّةَ الضعيفة والتعليلاتِ الواهيةَ، مبيناً للمشكلات، مجيباً عن التعَقُّبات، مستوعِباً معظمَ أحكام ذلك الفنِّ،

(١) المرجع السابق، ص٢٧٠-٢٧١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٠-٢٨١.

غير مخلّ بشيء من أصوله، منبِّهاً على القواعد والنوادر. فبذلك تظهر له حقائق العلم ودقائقُه، وتنكشفُ له المشكلات ويطلع على إيضاح الغوامض وحلِّ المعضلات، ويَثْبُتُ عنده العلم، ويرسخ معه؛ لأَنَّ ذلك يضطَرُّه إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتنقيب والمراجعة، والاطلاع على مذاهب العلماء، ومختلِفِ كلام الأئمة ومتَفَقِّهِه وواضحِه من مُشْكِله، وصحيحه من ضعيفه، وراجحه من مرجوحه، وجَزْلِه من ركيكه، وما لا اعتراضَ عليه من غَيرِه، وبه يتّصف المحقق بصفة المجتهدين، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد.

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التصنيف يُثَبِّتُ الحفظ، ويزكِّي القلب، ويَشحَذُ الطبع، ويجيدُ البيان، ويُكسِب جميل الذكر، وجزيل الأجر، ويخلِّدُه إلى آخر الدهر...

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر، والمرادُ بهذا: أن لا يكون هناك مصنَّف يُغْنِـي عن مصنَّفِه في جميع أساليبه، فإنْ أغنى عن بعضها فليصنِّف من جنسه ما يزيدُ زياداتٍ يختلف بها مع ضمِّ ما فاتَه من الأساليب.[1]...

وقد جرت عادة جماعة من المصنفين من أئمتنا بعقد مجلس أو عمل وليمة عند ختم كتاب معتبر يؤلّفونه، أو يحفظونه، أو نحو ذلك. لما روى القرطبي في تفسيره والخطيب: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تعلم البقرة في بضع عشرة سنة، وفي رواية اثني عشرة سنة، فلما ختمها نَـحَرَ جزوراً؛ شكراً لله.

ولغير ذلك من الأدِلَّة.

وقد اتُّفِقَ ذلك للحَبْر الإمام شيخ الإسلام، ضياء الدين عبدالملك إمام الحرمين، عند ختم كتابه الحفيل الجليل المسمّى بـ"نهاية المطلب"، فإنَّه عقد مجلساً لتتمته حضره الأئمة الكبار، وختم الكتاب على رأس الإملاء والاستملاء، وتَبَجَّح الحاضرون لذلك، ودَعَوْا له، وشكر هو الله تعالى على إتمامه، وحَمِده حمداً كثيراً.

حكاه جماعة منهم ابن السبكي في طبقاته، ورأيت في بعض التواريخ أنَّه صنع مع

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٣-٢٨٥.

ذلك وليمة لحاضري مجلسه.[1]...

## الباب الرابع

## في آداب المفتي، والفتوى، والمستفتي

وهذا الباب واسعٌ جداً، ولنذكر من مهمِّه هنا ما تيسر، وبالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوفيق، وفيه أربعة أنواع، ولنقدم على المقصود مقدمة، فنقول:

اعلم أنّ الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل؛ لأَنَّ المفتي وارثُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائمٌ بفرض الكفاية، لكنه معرَّضٌ للخطأ والخطر، ولهذا قالوا: المفتي موقِّعٌ عن الله تعالى.

وقد ورد فيه وفي آدابه، والتوقُّف فيه، والتحذير منه من الآيات والأخبار والآثار أشياء كثيرةٌ، نورد هنا جملة من عيونها.

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٦]. وقال في التحذير: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رُءوساً جُهالاً، فسُئلوا، فأفتَوْا بغير علمٍ، فضَلُّوا وأضلُّوا." رواه الشيخان.

وقال ﷺ: "من أُفْتِيَ بفُتيا من غير ثَبْتٍ،" وفي لفظ: بغير علمٍ، "فإنّما إثمه على من أفتاه." رواه ابن ماجه والدارميُّ والحاكم والبيهقيُّ في المدخل وبمعناه أحمد وأبو داود. وقال ﷺ: "أجرؤكم على الفُتيا أجرؤكم على النار" رواه الدارمي.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٥-٢٩٧.

وعن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه ربَّما كان يُسأل عن خمسين مسألة فلا يجيبُ في واحدة منها. وكان يقول: من أجاب في مسألةٍ فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف خلاصه، ثم يجيب.

وسُئل عن مسألة، فقال: لا أدري. فقيل: هي مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ. فغضب، وقال: ليس من العلم شيءٌ خفيفٌ، أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] فالعلم كله ثقيلٌ.

وقال الهيثم بن جميل رَحِمَهُ اللَّهُ: شهدتُ مالكاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري، وذلك فيما عَرَفَ الأقاويلَ فيه. وعن أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه سُئل عن تسع مسائل؛ فقال فيها: لا أدري.[1]...

## النوع الأول: في الأمور المعتبرة في كل مفتٍ، وفي تقسيم المفتين، وما انفرد به كل واحد من الأحكام

### الفصل الأول: في الأمور المعتبَرة في كلِّ مفتٍ

اعلمْ أنّ شرط المفتي كونُه مسلماً مكلفاً عدلاً ثقة مأموناً، متنزِّهاً عن أسباب الفسق وخوارم المروءة، فقيهَ النَّفس، سليمَ الذّهن، رصينَ الفكر، صحيحَ التصرف والاستنباط، قويَّ الضبط، متيقِّظاً، سواءٌ فيه الحرُّ والعبدُ، والمرأة، والأعمى، والأخرس إذا كتب أو فُهمت إشارته...[2]

### فرع

قال الخطيب: ينبغي للإمام أن يتصفَّح أحوال المفتين، فمن صلُح أقرّه، وإلا منعه وأمره أن لا يعود، وتواعَده بالعقوبة على العود، وطريق الإمام إلى معرفة من يصلح للفتوى: أن يسأل علماء وقته، ويعتمد أخبار الموثوق بهم.

ثم روى بإسناده عن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ما أفتيتُ حتى شهد لي سبعون أنّي أهلٌ لذلك.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٤-٣٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠٩.

وفي رواية: ما أفتيتُ حتىٰ سألتُ من هو أعلم منّي؛ هل يراني موضعاً لذلك.

وقال أيضاً: لا ينبغي لرجلٍ يرىٰ نفسه أهلاً لشيء حتىٰ يسأل من هو أعلم منه، وما أفتيتُ حتىٰ سألتُ ربيعة ويحيىٰ بن سعيدٍ، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيتُ.[1]

**الفصل الثاني: في تقسيم المفتين**

قال أبو عمرو: المفتون قسمان: مستقلٌّ، وغيره.

فالمستقلُّ: شرطه مع ما ذكرناه أن يكون قيِّماً بمعرفة أدلّة الأحكام الشرعية من الكتاب، والسنَّة، والإجماع، والقياس، وما التحق بها علىٰ التَّفصيل، وقد فُصِّلت في كتب الفقه فتيسَّرت، ولله الحمد.

وأن يكون عالماً بما يُشترط في الأدلة ووجوه دلالتها، وبكيفيّة اقتباس الأحكام منها، وهذا يستفاد من أصول الفقه، عارفاً من علوم القرآن والحديث النّاسخ والمنسوخ، والنحو والتَّصريف، واللُّغة، واختلاف العلماء، واتِّفاقهم: بالقدر الذي يتمكّن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس بها، ذا دِربةٍ وارتياضٍ في استعمال ذلك عالماً بالفقه ضابطاً لأمّهات مسائله وتفاريعه، حافظاً لها، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المفتي المُطلق المستقلُّ، الذي يتأدَّىٰ به فرض الكفاية؛ لأنَّه يستقلُّ بالأدلة بغير تقليدٍ وتقييدٍ بمذهب أحد.[2]...

**القسم الثاني المفتي الذي ليس بمستقلٍّ:**

ومن دهرٍ طويلٍ عُدم المفتي المستقلُّ، وصارت الفتوىٰ إلىٰ المنتسبين إلىٰ أئمة المذاهب المتبوعة، والآن قد اقتصروا علىٰ الأربعة المذاهب في هذه البلاد.

وللمفتي المنتسِب أربعة أحوال:

**الحالة الأولىٰ**: أن لا يكون مقلِّداً لإمامه لا في المذهب ولا في دليله؛ لاتِّصافه بصفة المستقلِّ، وإنّما يُنسب إليه لسلوكه طريقه في الاجتهاد، وادّعىٰ الأستاذ أبو إسحاق

---

(١) المرجع السابق، ص٣١٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٣.

هذه الصفة لأصحابنا، فحكى أنّ أصحاب مالكٍ وأحمد وداود وأكثر الحنفيَّة أنّهم صاروا إلى مذاهب أئمتهم تقليداً.[1]...

**الحالة الثانية**: أن يكون مجتهداً مُقيَّداً في مذهب إمامه، مستقلّاً بتقرير أصوله بالدّليل، غير أنَّه لا يتجاوز في أدلته أصولَ إمامه، وقواعده.

وشرطُه كونه عالماً بالفقه وأصوله وأدلَّة الأحكام تفصيلاً، بصيراً بمسالك الأقيسة والمعاني، تامَّ الارتياض في التَّخريج والاستنباط، قيِّماً بإلحاق ما ليس منصوصاً عليه لإمامه بأصوله، ولا يَعْرَى عن شوب[2] تقليدٍ له لإخلاله ببعض أدوات المستقلِّ، بأن يُخِلَّ بالحديث أو العربيَّة، وكثيراً ما أخلّ بهما المقيَّد، ثمَّ يتخذ أصول إمامه أصولاً لا يستنبط منها كفعل المستقلِّ بنصوص الشَّرع، وربَّما اكتفى في الحكم بدليل إمامه، ولا يبحث عن معارضٍ كفعل المستقلِّ في النصوص، وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه، وعليها كان الأئمّة من أصحابنا أو أكثرهم، والعامل بفتوى هذا مقلِّدٌ لإمامه لا له؛ لأَنَّ مُعوَّلَه على صحة إضافة ما يقول إلى إمامِه؛ لعدم استقلاله بتصحيح نسبته إلى الشّارع بلا واسطة إمامه.[3]...

**الحالة الثالثة**: أن لا يبلغ رتبة أصحاب الوجوه لكنّه فقيه النَّفس، حافظٌ مذهب إمامه، عارفٌ بأدلَّته، قائمٌ بتقريرها يصوِّر، ويحرِّر، ويقرِّر، ويمهِّد، ويزيِّف، ويرجِّح، لكنه قصر عن أولئك لقصوره عنهم في حفظ المذهب، والارتياض في الاستنباط، أو معرفة الأصول ونحوها، من أدواتهم، وهذه صفة كثيرٍ من المتأخرين إلى أواخر المائة الرابعة، المصنفين الَّذين رتَّبوا المذهب، وحرَّروه، وصنَّفوا فيه تصانيف فيها معظم اشتغال الناس اليوم، ولم يلحقوا الذين قبلهم في التَّخريج.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٣١٥.

(٢) أي: لا يخلو من شائبة تقليد.

(٣) المرجع السابق، ص٣١٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣١٩.

**الحالة الرابعة**: أن يقوم بحفظ المذهب ونقله وفهمه في الواضحات والمشكلات، ولكن عنده ضعفٌ في تقرير أدلَّته وتحرير أقيسته، فهذا يُعتمد نقلُهُ وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه من نصوص إمامه، وتفريع المجتهدين في مذهبه، وتخريجهم.

وله فيما لا يجده منقولاً -إذا وجد في المنقول ما هو في معناه بحيث يُدرك بغير كثير فكرٍ وتأمُّلٍ أنَّه لا فرق بينهما- أن يُلحقه به ويفتي به. وكذا ما يعلم اندراجه تحت ضابطٍ ممهَّدٍ في المذهب، وما ليس كذلك يجب إمساكه عن الفتوىٰ فيه.[1]

**النوع الثاني: في أحكام المفتي، وآدابه**

**وفيه مسائل:**

**إحداها**: الإفتاء في أصله فرضُ كفاية، فإذا سُئل وليس في الناحية غيرُه، تعيَّن عليه الجواب، وإلا فإنْ كان فيها غيره وحضرا؛ فالجواب في حقِّهما فرضُ كفاية، وإن لم يحضر إلا واحدٌ؛ فوجهان:

أصحُّهما لا يتعيَّن؛ لما سبق عن ابنِ أبي ليلىٰ وغيره. والثاني: يتعيَّن، وهما كالوجهين في مثله في الشَّهادة.

ولو سأل عاميٌّ عمّا لم يقع لم يجب جوابُه، وقد تقدَّم التحذير من ذلك.

**الثانية**: إذا تغيَّر اجتهاده، وعلم المقلِّد من مستفتٍ وغيره برجوعه؛ عمل بقوله الثاني، فإنْ لم يكن عمل بالأوَّل، لم يجُز العمل به، وإن كان عمل قبل رجوعه؛ وجب نقضُه، إن خالف دليلاً قاطعاً، وإن كان في محلِّ اجتهادٍ لم يلزمه نقضه؛ لأَنَّ الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد.[2]...

**الثالثة**: إذا أفتىٰ في حادثةٍ ثم حدثت مثلُها، فإنْ ذَكَر الفتوىٰ الأولىٰ ودليلها بالنسبة إلىٰ أصل الشرع إن كان مستقلَّاً، أو إلىٰ مذهبه إن كان منتسباً أفتىٰ بذلك بلا نظر، وإن ذكرها ولم يذكر دليلها، ولا طرأ ما يوجب رجوعَه؛ فقيل: له أن يفتي

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٨.

بذلك. والأصحُّ: وجوب تجديد النَّظر.[1]...

**الرابعة**: يحرم أن يتساهل في الفتوىٰ؛ كأن يُسرع ولا يتثبَّت، قبل استيفاء الفكر والنَّظر فيها، أو تحمِلُه أغراضٌ فاسدةٌ علىٰ تتبُّع الحيل المحرّمة أو المكروهة، والتمسُّك بالشُّبَه؛ طلباً للترخيص لمن يروم نفعه، أو التَّغليظ علىٰ من يروم ضُرَّه.[2]...

**الخامسة**: ينبغي أن لا يُفتي في حالٍ يُغيّر خُلُقه؛ ويشغل قلبه ويمنعه التأمُّل؛ كغضبٍ، وجوعٍ، وعطشٍ، وحُزنٍ، وفرحٍ غالبٍ، ونعاسٍ، وملالةٍ، ومرضٍ مقلقٍ، وحرٍّ مزعجٍ، وبردٍ مؤلمٍ، ومدافعة الأخبثيْن، ونحو ذلك.

فإن أفتىٰ في بعض هذه الأحوال معتقداً أنَّه لم يمنعه من درك الصَّواب؛ صحَّت فتواه مع الكراهة لما فيه من المخاطرة فإنّه قد يعتقد أنَّه حقَّق المسألة، ويكون بخلاف ذلك.

**السادسة**: الأولىٰ للمتصدِّي للفتوىٰ أن يتبرَّع بذلك، ويجوز أن يأخذ عليه رزقاً من بيت المال، إلا أن يتعيَّن عليه، وله كفايةٌ، فيحرم علىٰ الصَّحيح، ثم إن كان له رزقٌ لم يجز أخذُ أجرةٍ أصلاً، وإلا فليس له الأخذ من أعيان المستفْتين علىٰ الأصحّ، كالحاكم.[3]...

**السابعة**: لا يجوز أن يُفتي فيما يتعلق بالألفاظ؛ كالأيْمان والإقرار والوصايا ونحوها، إلا من كان من أهل بلد اللافظ أو خبيراً بمرادهم في العادة. فتنبَّه له فإنَّه مهمٌّ.

**الثامنة**: لا يجوز لمن كانت فتواه نقلاً لمذهب إمام إذا اعتمد الكتب؛ أن يعتمد إلىٰ علىٰ كتابٍ موثوقٍ بصحَّته، وبأنَّه مذهب ذلك الإمام، فإنْ وثق بأنَّ أصل التَّصنيف بهذه الصِّفة ولكن لم تكن تلك النُّسخة معتمدة، فليستظهر بنسخٍ منه متفقةٍ، وقد تحصل له الثِّقة من نسخةٍ غير موثوقٍ بها في بعض المسائل؛ إذا رأىٰ الكلام منتظَماً، وهو خبيرٌ فطِنٌ لا يخفىٰ عليه -لدربته- موضع الإسقاط والتغيير.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص٣٣٣- ٣٣٤.

**التاسعة**: سيأتي أنّ من قواعد الشافعي التي انفرد بها، وفاق بها غيره، قوله: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي وقوله: إذا صحَّ الحديث عن النبي ﷺ، وقلتُ قولاً فأنا راجعٌ عن قولي قائلٌ بذلك الحديث، وفي لفظٍ: فاضرِبوا بقولي الحائط، وهو صريحٌ في أنّ مذهبه ما دلَّ عليه الحديث، لا قوله المخالف له، فيجوز الفُتيا بالحديث على أنَّه مذهبه.[1]...

**العاشرة**: يجوز للمفتي المنتسِب إلى مذهبٍ؛ أن يُفتيَ بمذهبٍ آخر في مسألةٍ إن كان مجتهداً، فأداه اجتهاده إلى المذهب الآخر فيها، فإنْ كان اجتهاده مقيَّداً مما علم مشوباً بشيءٍ من التقليد، نُقل جواز الشَّوْب من التقليد إلى ذلك الإمام؛ ثم إذا أفتى بيَّن ذلك في فتواه.[2]...

**الحادية عشر**: ليس للمفتيِّ والعامل على مذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسألةٍ ذات قولَيْن أو وجهيْن؛ أن يُفتيَ أو يعمل بما شاء منهما من غير نظَرٍ، بل عليه في القولَيْن أن يعمل بالمتأخِّر منهما، إن علمه، وإلا فبالذي رجَّحه الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلا لزمه البحث عن أرجحهما، فإنْ كان أهلاً للترجيح؛ استقلَّ به، متعرِّفاً ذلك من نصوص الشافعيّ، ومآخذه وقواعده، وإلا فلينقلْه عن الأصحاب الموصوفين بهذه الصِّفة وإلا توقَّف.[3]...

**الثانية عشر**: يُكره للمفتي أن يقتصر في جوابه على ذكر الخلاف؛ كقوله: في المسألة قولان، أو: وجهان، أو: روايتان، أو: خلافٌ، أو يقول: يُرجعُ إلى رأي القاضي، ونحو ذلك، فإنه ليس بجوابٍ، ومقصود المستفتي بيان ما يعمل به، فينبغي أن يجزم بما هو الراجح، فإنْ لم يظهر له انتظر ظهوره، أو امتنع من الإفتاء في ذلك.[4]

**الثالثة عشر**: يجوز له أن يفتي، وهناك أفضل منه، إذا كملت أهليته. فقد كانت جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يُفتون على عهد رسول الله ﷺ، منهم الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجماعة من التابعين يُفتون على عهد الصحابة منهم سعيد بن المسيِّب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.[5]...

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣٣٨.

(٥) المرجع السابق، ص٣٣٨.

**النوع الثالث: في آداب الفتوى**

وفيه ثمان وعشرون مسألة

**إحداها**: يلزم المفتي أن يبين الجواب بياناً يزيل الإشكال، ثم له الاقتصار على الجواب شفاهاً، فإنْ لم يعرف لسان المستفتي؛ كفاه ترجمة ثقة واحد؛ لأنَّه خبرٌ، وله الجوابُ كتابةً، وإن كانت على خطرٍ...

**الثانية**: أن تكون عبارته واضحةً صحيحةً يفهمها العامة، ولا تزدريها الخاصة، وليحترز عن القلاقة والاستهجان فيها، وإعراب غريب أو ضعيف، وذكر غريب لغة، ونحو ذلك.

**الثالثة**: إذا كان في المسألة تفصيلٌ، لا يطلق الجواب فإنَّه خطأ، ثم له أن يستفصل السائل إن حضر، ويعيد السؤال في رقعة أخرى، إن كان السؤال في رقعةٍ، ثم يجيب، وهذا أولى وأسلم...

**الرابعة**: إذا كان في الرُّقعة مسائل، فالأحسن ترتيب الجواب على ترتيب السؤال، ولو ترك الترتيب فلا بأس به...

**الخامسة**: قال الصَّيمريُّ: وليس من الأدب كون السؤال بخطِّ المفتي؛ فأما بإملائه وتهذيبه؛ فواسعٌ.[1]...

**النوع الرابع: آداب المستفتي، وصفته، وأحكامه**

وفيه خمس عشرة مسألة

**إحداها في صفة المستفتي:**

كلّ من لم يبلغ درجة المفتي؛ فهو فيما يُسأل عنه من الأحكام الشرعية مستفتٍ مقلِّدُ من يفتيه، والمختار في التقليد أنَّه قبول قول من يجوز عليه الإصرار على الخطأ بغير حجّةٍ على عين ما قبل قوله فيه.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤٠-٣٤١.

ويجب عليه الاستفتاء إذا نزلت به حادثةٌ يجب عليه علم حكمها؛ فإنْ لم يجد ببلده من يستفتيه وجب عليه الرّحيل إلى من يفتيه، وإن بعدت داره، وقد رحل خلائق من السّلف في المسألة الواحدة الليالي والأيام.

**الثانية**: يلزم المستفتي أن لا يستفتي إلا من عرف علمه الذي يتأهّل به للإفتاء وعدالته، فإنْ جُهلت عدالته فالأصحُّ الاكتفاء بستارته، فلا يجب البحث عنها أو جهل علمَهُ لزمَهُ البحث عنه.[1]...

## الباب الخامس

## في شروط المناظرة، وآدابها، وآفاتها

ملخصاً من كتاب فاتحة العلوم لحجة الإسلام الغزّالي، وهو مشتمل على فصلين، ولنقدم على ذكرهما

### مقدمة في بيان سبب إقبال الخلق على المناظرة

اعلم أنّ الأعصار قد اختلفت في إقبال الخلق على أنواع العلوم، فالخلافة بعد رسول الله ﷺ، تولّاها الخلفاء الراشدون وهم أئمةٌ، مستقلّون بالفتوى، كانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا في وقائع نادرة، وكان الإسلام في زمانهم على طراوته، فلم يكن لهم رغبةٌ في العلم إلا لله تعالى، فلا جرم كان اشتغالهم بمهمات الدّين، ومراقبة القلب، وملازمة التّقوى، وطلب علم القرآن، والحديث للعمل والهداية، لا للرِّياء والرواية، فأقبلوا على الله تعالى بكُنه همتهم.

فلمّا انقضى عصرهم تولّى الخلافة أقوامٌ لا استقلال لهم بعلم الفتوى، واتَّسعت الولاية فاحتاجوا إلى القضاة، والفقهاء المستقلِّين بالفتاوى والأقضية. وكان قد بقي من علماء التَّابعين؛ من هو على الطِّراز الأول في ملازمة صفو الدِّين، فكانوا إذا طُلبوا هربوا، فاضطرَّ الخلفاء إلى إكرامهم والإلحاح في طلبهم، فرأى أهل تلك الأعصار عزّ العلماء بذلك، فأكبّوا على طلب علم الفتاوى، توصُّلاً إلى نيل العزّ والجاه، وكثرت

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦٢.

الرغبة في علم المذهب، واتَّسع، وأكبَّ الناس عليه، ثم عرضوا أنفسهم على الولاة، وتعرّفوا إليهم، وطلبوا الولايات والصِّلات منهم، فمنهم من حُرم، ومنهم من أنجح، ولم يخلُ المنجح عن ذلّ الطّلب، فأصبح المطلوب طالباً، والهارب الراهب راغباً إلا من وفَّقه الله تعالى في كلّ عصرٍ من علماء دينه، المعرضين عن السَّلاطين وولايتهم وأموالهم، ومن فضل الله تعالى أنَّه لم يخلُ عصرٌ منهم، وقد كان أكثر الإقبال في ذلك العصر على علم الفتاوى والأقضية، وهو المسمّى الآن بعلم المذهب.

ثم نبغت طائفة المتكلّمين من المعتزلة وغيرهم، وظهر من الصّدور والخلفاء من مال إلى البحث عن العقائد، وإلى التعصّب فيه، وأقبلوا على من اشتغل بذلك العلم، فأكبّ الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التّصانيف، ورتّبوا فيه طرق المجادلات والمناقضات، وزعموا أنَّ غرضنا الذّبُّ عن الدين، والنّضال عن السّنة، كما زعم من قبلهم، أنّ غرضنا الاستقلال بالفتوى؛ ليتميز الحلال من الحرام.

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في أصول العقائد؛ لما فيه من الفتنة، وأقبل على من يناظر في الفقه، وبيان الأوْلى من مذهب أبي حنيفة والشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خاصة، فترك الناس الكلام، وانثالوا على المسائل الخلافية بين أبي حنيفة والشّافعي خاصة، وزعموا أنَّـهم إنَّما يفعلون ذلك لله تعالى، وغرضهم استنباط دقائق الشّرع، وبيان مآخذ الأحكام، وأكثروا فيه التّصانيف، ورتّبوا طرق المجادلات، وأعرضوا عن الخلاف مع مالكٍ وأحمد بن حنبل وسفيان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -مع أنَّـهم أيضاً يخالفون في جملةٍ من الأحاديث- والبحث عن معاني الأحاديث، وما لا يصحّ منها وما يصحّ أهمُّ في مآخذ الأحكام، ولكن كانت رغبتهم بحسب ميل الصدور، وللتوسُّل إلى الصّلات والولايات، فلم يشتغلوا إلا بما يروج عندهم، ثم لم يسكتوا عن قولهم أنَّ لا باعث لهم إلا الدّين وإحياء الشّرع، ولو مالت نفوس أرباب الولايات إلى الخلاف. مع أحمد بن حنبل، ومع مالكٍ، وغيرهما، اشتغلوا بالبحث عن مذاهبهم ومناقضاتهم. قال: فهكذا كان ترتيب الأعصار إلى الآن، ولا يُدرى ما قدّره الله تعالى فيما بعد من الأعصار، فهذا فهو الباعث على الإكباب على الخلافيات، والمناظرة لا غير. انتهى.

هذا ما كان في زمن الغزّالي، وأما في عصرنا هذا؛ فقد قصرت الهمم، وراج الجهل وذووه، فلا إكباب لمن ينتسب للعلم على شيءٍ مما تقدّم، ولكن ربَّما وقع بينهما مناظراتٌ ومناقضاتٌ لائقةٌ بحالهم، ونحن إنَّما تبعنا الإمام الغزّالي في ذكر أمرها، تنبيهاً على شروطها، وآفاتها؛ لاحتمال وقوعها، فليُعلم.

قال الغزّالي بعد ذكره الباعث على الإكباب على الخلاف والمناظرة المذكور: فقلَّ ما ترى رجلاً يتعلّم الخلاف خوفاً من أن يقال له يوم القيامة: لِمَ لمْ تتعلَّم الخلاف، وما من أحدٍ إلا ويخاف أن يقال له يوم القيامة: لِمَ لمْ تخلص في علمك وعملك، ولِمَ راءيت الناس بطاعتك، يا فاجر، ويا غاوي، يا فاسق، يا مرائي، كما ورد في الخبر أنَّ المرائي ينادى بهذه الألقاب، ومع ذلك لا يتعلّم علم الإخلاص، وطريق الحذر من الرّياء، وما يجري هذا المجرى من صفات القلب، فانظر الآن من يتعلّم لخوف الآخرة، ما أهمّ ما يشتغل به؟! انتهى.[1]

**الفصل الأول: في بيان شروط المناظرة**

اعلم أنّ المناظرة في أحكام الشرع من الدّين أيضاً، ولكن لها شروطٌ ومحلٌّ ووقتٌ، فمن اشتغل بذلك في وقته ومحلّه، وقام بشروطه فقد اقتدى بالصّحابة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، -فإنّهم تشاوروا في مسائل- وبالسَّلف الصّالحين كالشّافعي، ومحمد بن الحسن، وغيرهما؛ فإنّهم تناظروا في مسائل، وما تناظروا إلا لله تعالى، ولطلب ما هو حقٌّ عند الله تعالى...

**ولمنْ يناظر لله وفي الله علاماتٌ:**

**الأولى**: أن لا يشتغل به من لم يتفرّغ عن فرض العين؛ لأَنَّ غايته أنَّه فرضُ كفايةٍ فيكون ذلك كمن ترك الصلاة المفروضة، واشتغل بنسج الثِّياب، ويقول: غرضي بذلك ستر عورة من يصلّي، فيقال له: كذبتَ، لو أردت ذلك لصلّيتَ أوّلاً لنفسك، ثم نظرتَ لصلاة غيرك.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨١-٣٨٣.

**الثانية**: أن لا يرىٰ فرض كفايةٍ آخر أهمَّ من المناظرة ويتركه، فإنّ غرض المناظر طلب مآخذ الشّرع؛ لينال رتبة الاجتهاد، وهذا من فروض الكفايات، فإنْ رأىٰ فرض كفايةٍ معطّلاً لا قائمَ به؛ فلا يشتغل بما قام به جماعةٌ.[1]...

**الثامنة**: أن يناظر مع منْ هو مستقلٌّ بالعلم، ليستفيد منه إن كان يطلب الحقّ، والغالب أنَّـهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر؛ خوفاً من ظهور الحقّ علىٰ لسانهم، ويرغبون فيمن دونهم؛ طمعاً في ترويج الباطل عليهم.

ووراء هذه الشروط والآداب: شروطٌ وآدابٌ دقيقةٌ، ولكن في هذه الشروط الثّمانية ما يهديك إلىٰ منْ يناظر لله تعالىٰ، وإلىٰ منْ يناظر لعلّةٍ.[2]...

**الفصل الثاني: في آفات المناظرة، وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق**

اعلم أنّ المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام والمباهاة والتّشوّف لإظهار الفضل هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالىٰ، المحمودة عند عدوِّه إبليس، ونسبتها إلىٰ الفواحش الباطنة من الكِبر والعُجب والرّياء والحسد والمنافسة وتزكية النّفس، وحبّ الجاه وغيرها، نسبة الخمر إلىٰ الفواحش الظاهرة من الزّنا والقتل والقذف، وكما أنّ من خُيّر بين الشّرب وبين سائر الفواحش، اختار الشُّرب؛ استصغاراً له؛ فدعاه ذلك إلىٰ ارتكاب سائر الفواحش، فكذلك من غلب عليه حبّ الإفحام، والغلبة في المناظرة، وطلب الجاه والمباهاة، دعاه ذلك إلىٰ إظهار الخبائث كلّها.[3]...

ولا يخلو المناظر عن طلب عثرات الأقران والخصوم، ليدّخره ذخيرة لنفسِه، ليتمكن من إفضاحه في مناظرته، وتخجيله، حتىٰ إنَّه ليتفحص عن أحوال صباه، وعن عيوب بدنه، ثم إنَّه قد يشافهه بذلك أو يعرِّض به، إن كان متماسكاً، ثم يتبجّح به، ويقول: كيف أخجلته، وكيف أخزيته، ويَستحسن ذلك، وما أبعد هذا عن سيرة أهل الدين؟![4]...

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨٤-٣٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣٩١.

(٤) المرجع السابق، ص٣٩٤.

والمناظرون يتفاوتون فيها على حسْب درجاتهم، ولهم درجاتٌ شتى، ولا ينفكّ أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من موادّ هذه الأخلاق، وإنّما غايتهم إخفاؤها، ومجاهدة النّفس عن ظهورها...

فإنْ قلت: في المناظرة فائدتان: إحداهما ترغيب الناس في العلم إذ لولا حبّ الرّياسة، لاندرست العلوم، وفي سدّ بابها ما يفتّر هذه الرغبة، والأخرى أنّ فيه تشحيذ الخاطر، وتقوية النّفس لدرك مآخذ الشّرع.

فنقول: صدقت، ولم نذكر ما ذكرناه لسدّ باب المناظرة، بل ذكرنا لها ثمانية شروط وعشر آفاتٍ، ليرعى المناظر شروطها ويحترز عن آفاتها، ثم يستدرّ فوائدها من الرغبة في العلم، وتشحيذ الخاطر.[1]...

ولنختم الكلام في هذا الباب بذكر مناظرات نفيسة من عيون مناظرات السلف، تكملة للفائدة، وتبركاً بأنفاسهم، حشرنا الله تعالى في زمرتهم، آمين.[2]

**مناظرة بين الشافعي ومالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**

وهي سبب إذن مالك له بالإفتاء، وسنه أربع عشرة سنة.

نقل الدميري في حياة الحيوان وغيرُه أنَّ الشافعي كان جالساً بين يديّ مالك، فجاء رجل فقال لمالك: إني رجل أبيع القِمْرِيَّ، وإني بعت في يومي هذا قمرياً فردّه عليّ المشتري، وقال: قمريُّك ما يصيح، فحلفت له بالطلاق أنَّه لا يهدَأ من الصياح.

فقال له مالك: طلَقَت امرأتك، ولا سبيل لك عليها. وكان الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يومئذ ابن أربعَ عشرة سنة، فقال لذلك الرجل: أيُّما أكثرُ صياحُ قُمرِيك أو سكوته؟ فقال: لا بل صياحه. فقال: لا طلاق عليك.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠٠.

**مناظرة بين الشافعي وأحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**

حكي أنَّ أحمد ناظر الشافعي في تارك الصلاة: فقال له الشافعي: يا أحمد! تقول: إنَّه يكفر؟ قال: نعم، قال: إذا كان كافراً فبم يسلمُ؟ قال: يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. قال الشافعي: فالرجل مستديمٌ لهذا القول لم يتركه. قال: يُسلم بأن يصلِّي. قال: صلاة الكافر لا تصح، ولا يُحكَمُ بإسلامه بها، فانقطع أحمد وسكت.(١)

## الباب السادس:

## في الأدب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها، وضبطها، ووضعها، وحملها، وشرائها، وعاريتها، ونسخها وغير ذلك

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النّافعة الظّاهرة ما أمكنه شراءً، وإلا فإجارةً أو عاريةً؛ لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظّه من العلم، ونصيبه من الفهم، فقد أحسنَ القائل:

إذا لم تكـــن حافظـــاً واعيـــاً فجمعـــكَ للكتـــبِ لا ينفـــعُ

**الثانية:** أن لا يشتغل بنسخها إن أمكن تحصيلها شراءً؛ لأَنَّ الاشتغال أهمُّ، إلا أن يتعذّر الشراء لعدم الثمن، أو عزّة الكتاب مع نفاسته؛ فيستنسخه إن أمكن، وإلا فينسخه، ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تحصيله مِلكاً أو إجارة.

**الثالثة:** يستحبُّ إعارةُ الكتب لمن لا ضَرر عليه فيها؛ ممّن لا ضَرَر منه بها، وكرهَ عاريتها قومٌ، والأول هو الأصحّ المختار لما فيه من الإعانة على العلم، مع ما في مطلق العاريّة من الفضل والأجر...

**الرابعة:** إذا استعار كتاباً، فلا يبطئ به، ولا يطلْ مقامه عنده من غير حاجةٍ، بل يردُّه إذا قضى حاجته، ولا يحبسه إذا استغنى عنه، لئلا يُفوّت الانتفاع به على صاحبه، ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولئلا يمتنع صاحبه من إعارته غيره، وأما إذا

(١) المرجع السابق، ص٤١٠ - ٤١١.

طلبه المالكُ، فيحرُم عليه حبسه، ويصيرُ غاضباً له.[1]...

**الرابعة والعشرون**: لا بأس بكتابة الأبواب والتّراجم والفصول، ونحو ذلك بالحمرة، فإنَّه أظهرُ في البيان وفي فواصل الكلام، وله في كتابة شرح ممزوجٍ بالمتن أن يميز المتن بكتابته بالحمرة أو يخطُّ عليه خطّاً منفصلاً عنه ممتدّاً عليه.[2]...

## الخاتمة

## في شيء من الرقائق المستظرفات، والأشعار الرائقة والحكايات نختم بها الكتاب على عادة الأئمة والحفّاظ كما قال شيخ الإسلام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واقتداءً به في بعض مؤلفاته

أخبرنا شيخنا شيخُ الإسلام زين الدين الأنصاري إجازة، أخبرني العزُّ أبو محمدٍ عبدالرحيم بن محمد بن الفرات الحنفي إذناً بإجازته من قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب ابن الإمام تقيّ الدين أبي الحسن السُّبكي بجميع مؤلّفاته، ومنها الطبقات الكبرىٰ، وفيها قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بقراءتي عليه، أخبرنا محمد بن قايماز الدمشقي وفاطمة بنت إبراهيم البطائحي -قال ابن قايماز: أنا أبو المنجّىٰ عبد الله بن عمر اللّتّي والحسين بن المبارك الزَّبيدي وقالت فاطمة: أنا ابن الزَّبيدي فقط- قالا: أنا أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي -قال ابن اللّتّي سماعاً، وقال ابن الزّبيدي: إجازة- أنشدنا تاج الإسلام أبو بكر محمد بن منصور السمعانيُّ: أنشدنا أبو غالب، أنشدنا أبو القاسم بن بِشران أنشدنا أبو بكر الآجري قال:

كان ابنُ المبارك كثيراً يتمثل بهذه الأبيات:

اغتنمْ ركعتينِ زُلْفىٰ إلىٰ الله ... إذا كنتَ فارغاً مستريحا
وإذا ما هَمَمْتَ بالنُّطقِ بالبَا ... طِلِ فاجْعَلْ مكَانَهُ تَسْبيحا
فاغْتِنامُ السُّكوتِ أفضَلُ من خَوْ ... ضٍ وإنْ كنْتَ بالكَلامِ فَصِيحا[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢١-٤٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٦٧-٤٦٩.

...

عن المزني قال: دخلت على الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارِقاً، ولسوء أفعالي مُلاقياً وبكأس المنية شارباً، فوالله ما أدري أروحي إلى الجنّة تصير فأُهنّيها، أو إلى النّار فأُعزّيها، وأنشد:

ولّما قَسَا قلْبي وضاقَتْ مَذَاهِبي ... جَعَلْتُ رَجَائي نحوَ عَفْوِكَ سُلَّما
تَعَاظَمَني ذنْبي فلمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبّي كانَ عَفْوُكَ أَعْظَما
فَمَا زِلْتَ ذا عَفْوٍ عنِ الذَّنْبِ لم تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا[1]

...

ومما سمعناه من لفظ شيخ الإسلام الوالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه مراراً من نظمِهِ، أبياتٌ في معنىً، سأل في نظمِهِ تلميذُه الشيخُ العلامة شمس المسلمين أمين الدين ابن النَّجار، وهي نحو المائة بيتٍ، نذكر منها هنا ما كتب إليه منها قال:

إلَهِي سَيدِي ربِّي أغِثْنِي ... وَخُذْ بِيدِي وَمِنْ بَعْدُ أجِرْني
إلَهِي قَدْ جَنَيتُ وأي عبدٍ ... ضعيفِ الخَلْقِ مِثْلي لَيسَ يَجْنِي
إلَهِي ليسَ أجْدُر بالخَطَايا ... وبالتَّقْصِيرِ والزَّلَّاتِ منّي
إلَهِي لَوْ أتيتُ بكلِّ ذنبٍ ... فَلا أوْلَى بِعَفْوٍ مِنْكَ عنِّي[2]

...

وعن شيخ الإسلام الوالد، عن الحافظ البرهان البقاعيّ، عن شيخ الإقراء ابن الجزري، قالا: أنبأنا المسند الصالح محمدُ بنُ إسماعيل الأنصاري الشهير بابن الخباز، سمعتُ أبا عبد الله محمد بن مسلم بن وارَهْ الرّازيّ يقول: حضرتُ مع أبي حاتمٍ محمد بن إدريس الرازيّ عند أبي زُرعة الرّازيّ، وهو في النَّزْع، فقلتُ لأبي حاتم: تعالَ حتى

(١) المرجع السابق، ص٤٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨١.

نلقِّنه الشهادة. فقال أبو حاتم: إنّي لأستحيي من أبي زُرعة أن ألقِّنه الشهادة، ولكن تعالَ حتىٰ نتذاكرَ الحديث، فلعلَّه إذا سمعه يقول.

فبدأتُ فقلتُ: حدثنا أبو عاصمٍ النبيل، ثنا عبد الحميد بن جعفر، فأُرْتجَ عليّ الحديثُ حتىٰ كأني ما سمعتُهُ ولا قرأتُهُ.

فبدأ أبو حاتم فقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم النبيل، عن عبد الحميد بن جعفر، فأُرْتِجَ عليه حتىٰ كأنه ما قرأه ولا سمعَه.

فبدأ أبو زُرعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصمٍ، ثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مُرّة، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله،" وخرجَتْ روحُهُ مع الهاءِ، قبل أن يقولَ: دخلَ الجنَّة.[1]...

أخبرنا شيخ الإسلام قاضي القضاة زينُ الدين أبو يحيىٰ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري تغمّده الله تعالىٰ برحمته إجازة، قال: اخبرنا العزّ أبو محمد الحنفي إذناً، عن الصلاح بن أبي عمر وغيره، عن الفخر بن البخاري، عن فضل الله بن أبي سعيد النَّوْفاني، عن الإمام أبي محمد البغوي، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشُّرَيحي، أنبأ أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنْجويه، ثنا أحمد بن جعفر بن حِمدان، ثنا إبراهيمُ بن سَهْلَوَيْهِ، ثنا عليُّ بن محمد الطنافسي، ثنا وكيعٌ، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصبَغِ بن نباتة:

عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: من أحبَّ أن يكتال بالمكيالِ الأوفىٰ من الأجر يوم القيامة، فليكُنْ آخرُ كلامه من مجلسه: سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمّا يصفون، وسلامٌ علىٰ المرسَلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

هذا آخرُ ما تيسّر تعليقُه من هذا الكتاب، نفع الله تعالىٰ به المسلمين، ببركة الكريم الوهاب والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٨٦ - ٤٨٧.

اللهمّ صلِّ وسلّم على سيّدنا محمد عبدك ورسولك النبيّ الأميّ، وعلى آل محمدٍ وأزواجه وذريته كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على سيدنا محمدٍ النبيّ الأمّيّ، وعلى آل محمدٍ وأزواجه وذريته كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيمَ، في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ. واختِم لنا منك بخيرٍ، وأصلِحْ لنا شأنَنا كلّه، وافعل ذلك بإخواننا وأحبابِنا وسائر المسلمين.

وكان الفراغ من تأليفه عشيةَ الجمعةِ ختامَ شهرِ رجبٍ الفردِ الحرامِ، سنَة اثنتينِ وثلاثينَ وتسعمائةٍ من الهجرة النبوية.[1]

(١) المرجع السابق، ص٤٩٧.

# (١٩)
# كتابُ آدَابِ العُلَمَاءِ والمُعَلِّمِين

## الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد الزيدي (توفي: ١٠٥٠هـ)

**تقويم تعلم التلاميذ في نهاية الدرس:**

إذا فرَغَ الشيخُ من شرح درسٍ، فلا بأس بطرح مسائلَ تتعلق به على الطلبة، يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهرَ استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شَكَرَه، ومن لم يفهمه تلطّف في إعادته له، والمعنى بطرح المسائل أنَّ الطالب ربَّما استحيا من قوله: لم أفهمْ، إمَّا لرفع كُلفةِ الإعادة عن الشيخ، أو لضيق الوقت، أو حياءً من الحاضرين، أو كيلا تتأخر قراءتهم بسببه... وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس، ... وبإعادة الشرح بعد فراغه في بيتهم، ليثبت في أذهانهم، ويرسخ في أفهامهم، ولأنَّه يحثّهم على استعمال الفكر، ومؤاخذة النفس بطلب التحقيق. (ص ٥٢)...

**أهمية مراجعة الطلبة لمادة الدرس في نهايته:**

وينبغي أن يتذاكر مواظبو مجلس الشيخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرة نفعاً عظيماً، وينبغي المذاكرة في ذلك عند القيام من مجلسه قبل تفرق أذهانهم، وتشتت خواطرهم، وشذوذ بعض ما سمعوه عن أفهامهم،... فإن لم يجد الطالب من يذاكره، ذاكر نفسه بنفسه. (ص ٩٤) ...

الفصل التاسع عشر:

# كتاب "آداب العلماء والمعلمين" للمنصور بالله الحسين الزيدي

## أولاً: التعريف بـ"الحسين الزيدي"

اشتهر بأنه عالم زيدي علوي معتزلي، ينتسب إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد عام ٩٩٩هـ في "شرف" باليمن، وتوفي ودفن في "ذمار" باليمن، عام ١٠٥٠هـ.

أخذ عن كثير من علماء عصره علوم القرآن والقراءات، والنحو، والحديث، والفقه والأصول، والكلام، وعلوم اللغة، حتى أصبح إماماً في المنقول والمعقول. ومن مؤلفاته: "رسالة في المنطق"، و"رسالة في عدم اشتراط الإمام الأعظم في صلاة الجمعة"، و"رسالة في نهي من أنكر التأمين على الشافعية في الصلاة"، وعرف من كتبه حواشيه على كتاب والده كتاب: "الأساس لعقائد الأكياس"، و"كتاب الإرشاد إلى سبيل الرشاد"، وله "غاية السول في علم الأصول"، و"شرح هداية العقول"، و"كتاب آداب العلماء والمتعلمين".

وكان يرى أنَّ الخلاف فيما بين العلماء في أصول الدين خلاف لفظي، وأنَّه لا يجوز التكفير والتفسيق.

وكغيره من أئمة الزيدية الذين كانوا يثورون على حكام زمانهم، فقد ثار الإمام الحسين المنصور بالله ضدَّ السلطة العثمانية؛ وشملت ثورته مناطق يمنية واسعة، وكان يقود المعارك بشجاعة ويقاتل بنفسه، فإذا هدأ القتال لجأ إلى التعلم من العلماء الذين يرافقونه. ويقال إنَّه ألَّف كتبَه وهو ينتقل من ميدان إلى آخر من ميادين القتال.

## ثانياً: التعريف بـ"آداب العلماء والمعلمين"[1]

جاءت مادة الكتاب في حوالي ١٤٠٠٠ كلمة (حوالي ٥٠ صفحة)، مقسّمة إلى سبعة فصول: آداب العالم في نفسه، وفي درسه، ومع طلبته، وآداب المتعلم في نفسه ومع شيخه وقدوته، وما يجب عليه من عظيم حرمته، وآداب المتعلم في درسه وقراءته في الحلقة ما يعتمد فيها الشيخ والرفقة، وفي الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها وضبطها. وللكتاب خاتمة في ذكر ما ينبغي لأهل البيت النبوي من الآداب والتزكية والأخلاق السنية.

والفصول الستة الأولى هي الفصول الواردة في كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للإمام بَدْر الدين محمَّد بن أبي إسحاق ابن جَمَاعة الكِنَانِيّ. ويكاد نص هذا الكتاب هو نص ابن جماعة كلمة كلمة.

الفرق الأساسي في الكتاب هو أنَّ الفصل الأخير في كتاب ابن جَمَاعَة جاء بعنوان آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب لأنَّها مساكنهم في الغالب بينما كان الفصل الأخير في كتاب الحسين المنصور بالله القاسم بعنوان: خاتمة: في ذكر ما ينبغي لأهل البيت النبوي من الآداب الزكية والأخلاق السَّنِيَّة.

وثمة فروق أخرى تتمثل في إضافة الآل في الصلاة على رسول الله، فابن جماعة يكتفي بعبارة ﷺ، والحسين القاسم يكتبها ﷺ .

وربما يختصر بعض النصوص أو يستبدل بعض الألفاظ بغيرها، أو يضيف إليها، ومعظم الإضافات تختص بالتنويه بآل البيت، أو ينقل نصوصاً عنهم، مثل النص الذي ينقله عن زين العابدين علي بن الحسين عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، أو يضيف للفضائل الممكنة لشخص ما، كونه ينتسب لأهل البيت النبوي، وتفسير سبب إضافة الآل إلى الصلاة على النبي ﷺ.

---

(١) الزيدي، الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد. **كتاب آداب العلماء والمعلمين**، راجعه وعلّق عليه: راشد بن مصطفى الخليلي، بيروت وصيدا : المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٩م.

## ثالثاً: مختارات من "آداب العلماء والمعلمين"

### الفصل الأول: آداب العالم في علمه

وفيه اثنا عشر نوعاً

**النوع الأول**: أن يقصد العالم بعلمه وجه الله تعالىٰ، ولا يقصد به توصلاً إلىٰ غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة أو تميز عن الأقران، ونحو ذلك، ولا يشين علمه وتعليمه بشيء من الطمع في رفق يحصل له من مشتغل عليه بمال أو خدمة أو نحوها، وإن قلَّ، وإن كان علىٰ صورة الهدية، التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها إليه، وكان منصور لا يستعين بأحد يختلف إليه في حاجة، وقال سفيان بن عُيينة: كنت قد أوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة من أبي جعفر سُلبته نسأل الله المسامحة، وينبغي له أن يصحح نيته عند الشروع في كل ما يفيده...

وقد صح عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: وَدِدْتُ أَنَّ الخِلْقَ تَعَلَّمُوا هذا العِلْمَ عَلَىٰ أَنْ لا يُنْسَبَ إلَيَّ حَرْفٌ مِنه ... وعن أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يا قوم أَرِيدُوا بِعِلْمكم اللهَ، فإنِّي لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوَهم، إلا لم أقمْ حتىٰ أفتضح.[1]

**الثاني**: دوام مراقبة الله تعالىٰ في السر والعلانية، والمحافظة علىٰ خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإنَّه أمين علىٰ ما أودع من العلوم، وما مُنح من الحواس والفهوم...

قال الشافعي: ليس العلم ما حُفظ، العلم ما نَفع، وعليه بدوام السكينة والوقار، والخشوع، والورع، والتواضع، والخضوع. ومما كتب مالك إلىٰ الرشيد: إذا علمت علماً فلْيُرَ عليك أثرُه، وسكينتُه وسمْتُه، ووَقَاره، وحِلمه. لقوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء."

وقال عمر: تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوَقار، وعن أبي هريرة مرفوعاً: "تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة، وتواضعوا لمن تعلمون منه." رواه الطبراني في الأوسط. وعن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: حقٌّ علىٰ العالِـم أن يتواضع لله، في سرّه وعلانيته

---

(١) المرجع السابق، ص٩-١٠.

ويحترسَ من نفسه ويقفَ عما أشْكل عليه.[1]

**الثالث:** أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالىٰ له من العزة والشرف، فلا يدنسه بالأطماع، ولا يذله بذهابه ومشيه إلىٰ غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة أكيدة، ولا إلىٰ من يتعلّمه منه منهم، وإنْ عَظُمَ شأنُه وكَبُر قدرُه وسلطانُه.[2]...

**الرابع:** أن يتخلَّق بما حثّ الشرع عليه من الزهد في الدنيا والتقلّل منها بقدر الإمكان، فإنَّ ما يحتاج إليه منها علىٰ الوجه المعتدل من القناعة لا يعد من الدنيا، وأقلّ درجات العالم أن يستقذر التعلّق بالدنيا ولا يبالي بفواتها؛ لأنَّه أعلم الناس بخسّتها، وفتنتها، وسرعة زوالها، وكثرة عَنائِها، وقلَّة غَنَائها.[3]

**الخامس**: أن يتنزَّه عن دنيء المكاسب ورذيلها طبْعاً، وعن مكروهها عادَةً وشرعاً، كالحجامة والدباغة والصرف والصياغة، ويتجنب مواضع التُّهم وإن بَعُدَتْ، ولا يقبل شيئاً يتضمن نقص مروءة، وما يُستَنْكرُ ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً، فإنَّه يعرِّض نفسه للتُّهمة، وعِرضَه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، وثم الوقيعة.[4]...

**السادس**: أن يحافظ علىٰ القيام بشعائر الإسلام، وظواهر الأحكام، كإقامة الصلوات ومساجد الجماعات، وإنشاء السلام، للخواص والعوام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر علىٰ الأذىٰ بسبب ذلك صادعاً بالحق عند السلاطين، باذلاً نفسه لله لا يخاف فيه لومة لائم، ذاكراً قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].[5]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠-١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١.

(٣) المرجع السابق، ص١٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٦.

(٥) المرجع السابق، ص١٧.

**السابع**: أن يحافظ على المندوبات الشرعية؛ القولية والفعلية، ويبالغ في ما يتضمن إجلال صاحب الشريعة النبوية، وتعظيمه واتباعه ﷺ، فيلازم تلاوة القرآن، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وكذلك ما ورد من الدعوات والأذكار في آناء الليل والنهار، ومن نوافل العبادات من الصلاة، والصيام، وحج البيت الحرام، والصلاة على النبي ﷺ، فإنَّ محبته وإجلاله وتعظيمه واجب، والأدب عند سماع اسمه وذكر سنّته مطلوب وسنة. وكان الصادق بن محمد الباقر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إذا ذُكر النبيُّ ﷺ عنده اصفرّ لَوْنُه، وكان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا ذُكر النبيُّ ﷺ يتغيّر لونه وينحني. وكان ابن القاسم إذا ذُكر النبيُّ ﷺ يجفّ لسانه في فيه؛ هيبةً لرسول الله ﷺ. وينبغي له إذا تلا القرآن أن يتفكّر في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده. وليحذر من نسيانه بعد حفظه فقد ورد في الأخبار النبوية ما يزجر عن ذلك.[1]...

**الثامن**: معاملة الناس بمكارم الأخلاق، من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكفّ الأذى عن الناس، والاحتمال منهم والإيثار وترك الاستيثار، والإنصاف، وترك الاستنصاف، وشكر الفضل، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطّف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والرفق بالطلبة وإعانتهم وبِرِّهم.[2]...

**التاسع:** أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الردِيَّة، ويعمرَه بالأخلاق الـمَرْضِيَّة... فالحذرَ الحذرَ، من هذه الصفات الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فإنَّها باب كلِّ شرّ، بل هي الشرّ كلّه. وقد بلي بعض فقهاء الزمان بكثير من هذه الصفات، إلا من عصم الله تعالى، ولا سيما الحسد، والعُجب والرياء واحتقار الناس.[3]...

**العاشر:** دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد، والمواظبة على وظائف الأوراد عبادة، وقراءة وافرة، ومطالعة وفكراً، وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً

---

(١) المرجع السابق، ص١٨-١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠.

وبحثاً، ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من أكل، أو شرب، أو نوم، أو استراحة لِـمَلَلٍ، أو أداءِ حقِّ زوجة، أو زائر، أو تحصيل قوتٍ، وغيره مما يحتاج إليه أولاده، أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال، فإنَّ بقية عمر المؤمن لا قيمة لها. ومن استوىٰ يوْمَاه فهو مغبون.[1]...

**الحادي عشر**: أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه مـمـَّن دونه منصباً، أو نسباً، أو سناً، بل يكون حريصاً علىٰ الفائدة حيث كانت. الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها. قال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلّم، فإذا ترك التعلُّم وظنَّ أنَّه قد استغنىٰ واكتفىٰ بما عنده فهو أجْهَلُ ما يكون. وأنشد بعضُ العرب:

وليس العَمَىٰ طولُ السؤالِ وإنَّما ... تَمَامُ العَمَىٰ طولُ السُّكُوتِ علىٰ الجهل[2]

...

**الثاني عشر**: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، ولكن مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية، فإنَّه يطلع علىٰ حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلىٰ كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة... الأوْلىٰ أن يعتنيَ بما يعمُّ نفعُه وتكثرُ الحاجةُ إليه، ولْيَكُن اعتناؤه بما لم يُسبَق إلىٰ تصنيفه.[3]...

## الفصل الثاني: في آداب العالم في درسه

وفيه اثنا عشر نوعاً

**الأول**: إذا عزم علىٰ مجلس التدريس تطهّر من الحَدَث، والجُنُب، وتنظّف، وتطيّب، ولبِسَ من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة. كان مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاءه الناس لطلب الحديث، اغتسل، وتطيّب، ولبس ثياباً جدداً، ووضع رداءه علىٰ رأسه، ثم يجلس علىٰ منصبته، ولا يزال يبخر

(١) المرجع السابق، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

(٣) المرجع السابق ص٢٦-٢٧.

بالعود حتى يفرغ؛ وقال: أحب أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ.[1]...

**الثاني:** إذا خرج من بيته دعا بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ، وهو: "اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ أو أُزَلّ، أو أظلِمَ أو أُظلَم، أو أجهَلَ أو يُجْهَل عليَّ، عزّ جارُك وجلّ ثناؤك، ولا إِلَهَ غيرُك." ثم يقول: "بسم الله وبالله، حسبي الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم ثبّت جَنَاني وأدِرْ الحقَّ على لساني،" ويديم ذكر اللهّ تعالى إلى أن يصل إلى مجلس التدريس.[2]...

**الثالث**: أن يجلس بارزاً لجميع الحاضرين موقراً فاضِلَهم بالعلم والسنِّ، والصلاح والشرف. ويرفَعُهم على حسب تقدُّمِهم، في الإمامة، ويتلطّف بالباقين، ويُكرمُهم بحسن السلام، وطلاقة الوجه ومزيد الاحترام، ولا يُكره القيامُ لأكابر أهل الإسلام على سبيل الإكرام، وقد ورد إكرام العلماء وطلبة العلم في نصوص كثيرة، ويلتفت إلى الحاضرين التفاتاً قِسْطاً بحسب الحاجة، ويخصُّ من يكلِّمُه أو يسأله، أو يبحث معه على الوجه عند ذلك بمزيد الْتِفَاتٍ إليه وإقبال عليه، وإن كان صغيراً وضعيفاً، فإنَّ تَرْكَ ذلك من أفعال المتجبِّرين المتكبرين.[3]

**الرابع:** أن يقدِّم على الشروع في البحث والتدريس قراءةَ شيءٍ من كتاب الله تعالى تَـبَـرَّكاً وتَيمُّناً، وكما هي العادة، فإنْ كان في مدرسة شُرِطَ فيها ذلك اتَّبع الشرط، ويدعو عقيب القراءة لنفسه، وللحاضرين، وسائر المسلمين، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسمى الله تعالى ويحمده، ويصلي على النبي ﷺ، ويترضّى عن أئمة المسلمين ومشايخه، ويدعو لنفسه وللحاضرين ووالديهم أجمعين.[4]...

**الخامس**: إذا تعددت الدروس قدَّم الأشرفَ فالأشرفَ، والأهمَّ فالأهم: فيُقدِّم تفسيرَ القرآن، ثم الحديثَ، ثم أصولَ الدين، ثم أصولَ الفقه، ثم المذهبَ، ثم

---

(١) المرجع السابق ص٣١.

(٢) المرجع السابق ص٣٤.

(٣) المرجع السابق ص٣٥.

(٤) المرجع السابق ص٣٥-٣٦.

الخلافَ، أو النحو، أو الجدل، ويصلُ في دَرْسِه ما ينبغي وَصْلُه، ويقف في مواضع الوقف، ومنقطع الكلام. ولا يذكرُ شُبْهة في الدين في درسٍ ويؤخِّرُ الجواب عنها إلى درس آخر، بل يذكُرُهما جميعاً أو يدَعُهما جميعاً. وينبغي أن لا يطيل الدرس تطويلاً يُـمَلّ ولا يقصر تقصيراً يُـخِلّ، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين، ولا يبحث في مقام أو يتكلّم في فائدة إلا في موضع ذلك، فلا يقدمه عليه، ولا يؤخّره إلا لمصلحة تقتضي ذلك وترجّحه.[1]

**السادس**: أن لا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.[2]...

**السابع**: أن يصون مجلسه عن اللَّغَط، فإنَّ الغَلَطَ تحتَه، وعن رفع الأصوات، واختلاف وجهات البحث. قال الربيع: كان الشافعي إذا ناظره إنسانٌ في مسألة فغدا إلى غيرها يقول: نفرَغُ من هذه المسألة، ثم نَصِيرُ إلى ما تُرِيدُ، ويتلطَّفُ في دفع ذلك في مبادِيه قبل انتشاره وثَوَرَان النفوس.[3]...

**الثامن**: أن يزجر من تعدّى في بحثه، أو ظهر منه لَدَدٌ وسوءُ أدَبٍ، أو تَرْكُ إنْصَاف بعد ظهور الحق، أو أكْثَرَ الصياحَ بغير فائدة، أو أساءَ أدَبَه على غيره من الحاضرين أو الغائبين، أو ترفَّعَ في المجلس على من هو أوْلى منه، أو نامَ أو تحدث مع غيره أو ضحك، أو استهزأ بأحد من الحاضرين، أو فعل ما يُخِلُّ بأدب الطلب في الحلْقة.[4]...

**التاسع**: أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه، ويسمع السؤال من مَوْرِده على وجْهِه وإن كان صغيراً. ولا يترفَّعُ عن سماعه فيحرم الفائدة، وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده أو تحرير العبارة فيه لحياء أو قصور، ووقع على المعنى عبَّر عن مراده،

---

(١) المرجع السابق ص٣٦.

(٢) المرجع السابق ص٣٧.

(٣) المرجع السابق ص٣٧-٣٨.

(٤) المرجع السابق ص٣٨.

وبيّن وجْهَ إيرادِه وردَّ على من رد عليه، ثم يجيب بما عنده أو يطلب ذلك من غيره.[1]...

**العاشر:** أن يتودَّد لغريب حضر عنده ويبسطَ له لينشرح صدرُه، فإنَّ للقادم دهشةً، ولا يُكثِرَ الالتفاتَ والنظر إليه استغراباً له، فإنَّ ذلك يُخْجِلُه. وإذا أقبل بعضُ الفضلاء وقد شرَعَ في مسألة أمسكَ عنها حتى يجلسَ، وإنْ جاء وهو يبحثُ في مسألة أعادَها له أو مقصودَها، وإذا أقبل فقيه وقد بقي لفراغه وقيام الجماعة بقدر ما يصل الفقيه إلى المجلس، فليؤخّر تلك البقية ويشتغل عنها ببحث أو غيره إلى أن يجلس الفقيه، ثم يعيدها أو يتم تلك البقية كيلا يخجل المقبل بقيامهم عند جلوسه.[2]

**الحادي عشر:** جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس: والله أعلم، كذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب، لكنَّ الأوْلى أن يقال قبل ذلك كلامٌ يُشعر بختم الدرس كقوله: وهذا آخره، أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى ونحو ذلك، ليكون قوله: والله أعلم خالصاً لذكر الله تعالى ولقصد معناه.[3]...

**الثاني عشر:** أن لا ينتصب للدرس إذا لم يكن أهلاً له، ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه، فإنَّ ذلك لعباً في الدين وازدراءً بين الناس. قال النبي ﷺ: المتشبع بما لم يُعْطَ، كلابسِ ثوبِ زُور.[4]...

## الفصل الثالث: في آداب العَالِم مع طَلَبَتِه

وهو أربعة عشر نوعاً:

**الأول:** أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وَجْهَ الله تعالى، ونشرَ العلم، وإحياءَ الشرع، ودوامَ ظهور الحق، وخمولَ الباطل، ودوامَ خيرِ الأمة بكثرة علمائها واغتنام ثوابهم، وتحصيلَ ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم وبركة دعائهم له، وترحّمهم عليه،

---

(١) المرجع السابق ص٣٩.

(٢) المرجع السابق ص٤٠-٤١.

(٣) المرجع السابق ص٤١.

(٤) المرجع السابق ص٤٢.

ودخوله في سلسلة العلم، بين رسول الله ﷺ وبينهم، وعداده في جملة مبلغي وحي الله وأحكامه، فإنَّ تعليمه العلم من أهم أمور الدين، وأعلى درجات المؤمنين.[1]...

**الثاني**: أن لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته، فإنَّه يُرجى له حسنُ النية، وربَّما عسُر في كثير من المبتدين، تصحيحُ النية لضعف نفوسهم، وقلة أنسهم بموجبات تصحيح النية. والامتناعُ من تعليمهم، يؤدِّي إلى تفويت كثير من العلم، مع أنَّه يرجى ببركة العلم تصحيحُها إذا أَنِسَ بالعلم. وقد قالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، معناه كانت عاقبته أن صار لله.[2]...

**الثالث**: أن يرغبه في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بذكر ما أعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات، وأنهم ورثة الأنبياء، وعلى منابر من نور، ونحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار، والآثار، والأشعار.[3]...

**الرابع**: أن يحبَّ لطالبه ما يحبُّ لنفسه، كما جاء في الحديث، ويكره له ما يكره لنفسه. وينبغي أن يعتني بمصالح الطالب ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربَّما وقع منه، ونقصٍ لا يكاد الإنسان يخلو عنه، وسوءِ أدبٍ في بعض الأحيان. ويبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما يصدر منه، بنصح وتلطّف، لا بتعنيف وتعسّف، قاصداً بذلك حسنَ تربيته، وتحسينَ خُلُقه، وإصلاحَ شأنه، فإنْ عَرَفَ ذلك لذكائه بالإشارة، فلا حاجة إلى صريح العبارة، وإنْ لم يفهم ذلك إلا بصريحها أتي به وراعى التدريج في التلطّف، ويؤدِّبُه بالآداب السَّنِيَّة ويحرِّضُه على الأخلاق الـمَرْضية، ويوصيه بالأمور العُرْفِيَّة الموافقة للأوضاع الشرعية.[4]

---

(١) المرجع السابق ص٤٧.

(٢) المرجع السابق ص٤٧ - ٤٨.

(٣) المرجع السابق ص٥٠.

(٤) المرجع السابق ص٥١.

**الخامس**: أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه، وحسن التلطّف في تفهيمه، لا سيما إذا كان أهلاً لذلك بحسن أدبه وجودة طلبه. ويحرِّضُه على ضبط الفوائد وحفظ النوادر والفرائد، ولا يدَّخرُ عنه من أنواع العلوم وما يسأله عنه وهو أهل له؛ لأَنَّ ذلك ربَّما يوحش الصدرَ، وينَفِّرُ القلب، ويورِثُ الوَحْشة. وكذلك لا يُلقي إليه ما لم يتأهل له؛ لأَنَّ ذلك يبدد ذهنه ويعوّق فهمه، فإنْ سأله الطالب شيئاً من ذلك لم يُـجِبْه، ويعرِّفه أنَّ ذلك يضره ولا ينفعه، وأنَّ منعَه إياه شفقةً عليه ولطفاً به، لا يُخِلُّ عليه، ثم يرغبه عند ذلك في الاجتهاد والتحصيل، ليتأهَّل لذلك وغيره.[1]

**السادس**: أن يحرّض على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثارٍ لا يحتملُه ذِهْنُه، أو بسطٍ لا يضبِطُه حفظُه، ويوضِّحَ لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسبَ إعادة الشرح له، وتكرارَه، ويبدأ بتصوير المسائل وتوضيحِها بالأمثلة وذكر الدلائل، ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها.[2]...

**السابع**: إذا فرغ الشيخ من شرح درس، فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة، يمتحن بها فهمَهم وضبطَهم لما شُرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمِه له بتكرار الإصابة في جوابه شَكَرَهُ، ومَنْ لَـمْ يفهمْهُ تلطَّف في إعادَتِه له، والمعنى بطرح المسائل أنَّ الطالب ربَّما استحيا من قوله: لم أفهم، إمَّا لرفع كلفة الإعادة عن الشيخ، أو لضيق الوقت، أو حياءً من الحاضرين، أو كيلا تتأخر قراءتهم بسببه... وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس كما سيأتي إن شاء الله، وبإعادة الشرح بعد فراغه في بيتهم لِيَثْبُتَ في أذهانهم، ويَرْسخَ في أفهامهم، ولأنَّه يحثُّهم على استعمال الفِكْر، ومؤاخذة النفس بطلب التحقيق.[3]...

**الثامن**: أن يطالب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات، ويمتحنَ ضبطَهم لما قدَّم لهم من القواعد المهمة، والمسائل الغريبة، ويختبرَهم بمسائل تُبْنَى على

---

(١) المرجع السابق ص٥٠.

(٢) المرجع السابق ص٥٠.

(٣) المرجع السابق ص٥٢.

أصلٍ قرّره أو دليلٍ ذكرَه، فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يَخَفْ عليه شدة الإعجاب، شَكَرَه وأثْنَىٰ عليه بين أصحابه، ليبعَثَهُ وإيَّاهم علىٰ الاجتهاد في طلب الازدياد. ومن رآه مقصراً ولم يَخَفْ نُفُورَه، عَنَّفَه علىٰ قصوره، وحرّضه علىٰ علوِّ الهمة، ونيل المنزلة في طلب العلم، لا سيما إذا كان ممن يزيده التعنيفُ نشاطاً، والشكرُ انبساطاً، ويعيد ما يقتضي الحال إعادته ليفهَمَه الطالبُ فهماً راسخاً.[1]

**التاسع**: إذا سلك الطالب فوق ما يقتضيه حالُه، أو تحملَتْهُ طاقتُه، وخاف الشيخ ضجره، أوصاه بالرفق بنفسه، وذكَّره بقول النبيِ ﷺ: إنَّ المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ، ونحو ذلك مما يحمله علىٰ الأناة والاقتصار في الاجتهاد، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سآمة، أو ضجر، أو مبادئ ذلك، أمَرَه بالراحة وتخفيف الاشتغال، ولا يشير علىٰ الطالب بتعلم ما لا يحتمله فهمه أو سنِّه، ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه، فإنْ استشار الشيخ من لا يعرف حالَه في الفهم والحفظ في قراءة فن أو كتاب، لم يُشِرْ عليه بشيء حتىٰ يجرِّب ذهنه، ويعلَم حالَه، فإنْ لم يحتمل الحالُ التأخيرَ أشار عليه بكتاب سهل من الفن المطلوب.[2]...

**العاشر**: أن يذكر للطلبة قواعد الفن التي لا تنخرم، إمَّا مطلقاً كتقديم المباشرة علىٰ السبب في الضمان، أو غالباً كاليمين علىٰ المدعىٰ عليه، إذا لم تكن بَيِّنة، ونحو ذلك من القواعد، وكذلك كلُّ أصل وما ينبني عليه من كلِّ فنٍّ يحتاج إليه من علمي التفسير والحديث، وأبواب أصول الدين والفقه، والنحو والتصريف واللغة، ونحو ذلك إما بقراءة كتاب من الفن أو بتدريج.[3]...

**الحادي عشر**: أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم علىٰ بعض... فإنَّ ذلك ربَّما يوحش الصدور وينفِّر القلوب، فإنْ كان لأحدهم فضيلةٌ، فأظهر إكرامَه لأجْلِها فلا بأس بذلك؛ لأنَّه يُنَشِّط ويبعثُ علىٰ الاتصاف بتلك الصفات... وينبغي أن يتودّد

---

(١) المرجع السابق ص٥٢-٥٣.

(٢) المرجع السابق ص٥٣.

(٣) المرجع السابق ص٥٤.

لحاضرهم، ويذكر غائبهم بخير وحسنِ ثناء. وينبغي أن يستَعْلِمَ عن أسمائهم، وأنسابهم، ومواطنهم، وأحوالهم، ويُكْثِرَ الدعاء لهم.[1]...

**الثاني عشر**: أن يرقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً، فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه، أو ما يؤدي إلى فساد حال، أو تَرْكِ اشتغال، أو إساءة أدب في حق الشيخ أو غيره، أو كثرة كلام بغير توجيه ولا فائدة، ومعاشرة من لا تليق معاشرته،...، عرَّض الشيخ بالنَّهْي عن ذلك بحضور من صدَرَ منه ذلك، غيرَ معرّضٍ به، ولا معين له، فإنْ لم يَنْتَهِ نَهَاهُ عن ذلك سراً، ويكتفي بالإشارة مع من يكتفي بها، فإنْ لم ينته نهاه عن ذلك جهراً، ويُغَلِّظُ القولَ عليه إن اقتضاه الحال، ليُزْجَرَ هو وغيرُه، ويتأدَّبَ به كلُّ سامع، فإنْ لم ينته فلا بأس بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع.[2]...

**الثالث عشر**: أن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم، ومساعدتهم بما تيسَّر من جاه أو مال عند قدرته على ذلك، وسلامة دينه وعدم ضرره،... وإذا غاب بعض الطلبة، أو ملازمي الحلقة زائداً على العادة، سأل عنه فإنْ لم يخبر عنه بشيء، أرسل إليه وقصد منزله بنفسه، وهو أفضل، فإنْ كان مريضاً عاده، وإن كان في غمّ خفض عليه، أو في أمر يحتاج إليه فيه أعَانَهُ، وإن كان مسافراً يفقد أهلَه ومن يتعلق به، وسأل عنهم ويعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن لم يكن في شيء من ذلك تودَّد إليه ودعا له. واعلم أنَّ الطالب الصالح أعودُ على العالِـم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه، واقرب أهله إليه.[3]

**الرابع عشر**: أن يتواضع مع الطالب وكل مسترشد، إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله وحقوقه، ويخفض له جناحه، ويلين له جانبه، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥] ...

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) المرجع السابق ص٥٥-٥٦.

(٣) المرجع السابق ص٥٦.

وفي الحديث: "لِينُوا لمن تعلِّمون ولمن تتعلَّمون منه." وعن الفضل: "أنَّ الله يحبّ العالم المتواضع ويبغض الجبار، ومن تواضع لله ورّثه الله الحكمة." ويخاطب كلًّا منهم بِكُنْيَتِه ونحوها، من أحب الأسماء إليه وما فيه تعظيم له وتوَقير.[1]...

## الفصل الرابع: في آداب المتعلم في نفسه

وهي عشرة أنواع:

**الأول**: أن يطهِّر قلبَه من كل غش، ودنس، وغل، وحسد، وسوء عقيدة وخُلُق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه، والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإنَّ العلم كما قال بعضهم: صلاة السرّ، وعبادة القلب، وقربة الباطن، فكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورذِيِّها. وقالوا: يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزرع، فإذا طيب العلمُ ظهرت بركته، ونما كما ينمو زرعها، ويزكو إذا طيبت.[2]...

**الثاني**: حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم لقائه...

والعلم عبادة من العبادات وقربة من القرب، فإنْ خلُصت فيه النية قُبِلَ وزكا ونمت بركته، وإن قُصد به غيرُ وجهِ الله حَبِطَ وضاع وخسرت صفقتُه، وربَّما كان ذلك سبباً في فوات تلك المقاصد فلا ينالُها فيخيب قصدُه، ويضيع سعيُه.[3]

**الثالث**: أن يبادر شبابَه وأوقاتَ عُمُره فيصرفها إلى التحصيل، ولا يغتر بِخُدَعِ التسويف والتأمل، فإنَّ كل ساعة تمضي من عمره لا بدلَ لها ولا عِوَضَ عنها. ويقطع ما يقدر على قطعه من العلايق الشاغلة والعوايق المانعة عن تمام الطلب، وبذل

---

(١) المرجع السابق ص٥٧-٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

(٣) المرجع السابق، ص٦٢.

الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فإنَّها كقواطع الطريق. ولذلك استحبَّ السلف التغرّب عن الأهل والبعد عن الوطن تقليلاً للشواغل؛ لأَنَّ الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولذلك يقال: العلم لا يعطيك بعضَه حتىٰ تعطيه كلَّك.[1]

**الرابع**: أن يقنع من القوت بما تيسّر، وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما ستر مثله، وإن كان خَلَقَاً. بالصبر علىٰ ضيق العيش، ينال سعة العلم ويجمع شمل القلب عن متفرقات الآمال، فتفجر فيه ينابيع الحكم. وعن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يطلب أحدٌ هذا العلم بالملك وعزّ النفس فيفلِحُ، ولكنَّ من طلبه بذُلِّ النفس وضِيق العيش وخدمة العلماء أفْلَحَ.[2]...

**الخامس**: أن يقسِّم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عُمُره، فإنَّ بقية العمر لا قيمة لها، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات؛ لأنها تمنع من خلو القلب غالباً.[3]

**السادس**: من أعظم الأسباب المعينة علىٰ الاشتغال والفهم وعدم الملال، أكل القدر اليسير من الحلال. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، وسبب ذلك، أنَّ كثرة الأكل جالبةٌ لكثرة الشرب، وكثرتُه جالبة للنوم، والبلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكسل الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهة الشرعية، والتعرّض لخطر الأسقام البدنية، كما قال:

فـــإنَّ الـــداء أكثـــر مـــا تـــراه  يكـــون مـــن الطعـــام أو الـــشراب

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢-٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البغية منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم، فقد رام مستحيلاً في العادة. والأوْلىٰ أن يكون أكثر ما يؤخذ من الطعام، ما ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: "ما ملأ ابن آدم وِعاءً شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيماتٍ يُقِمْنَ صلْبَه، فإنْ كان لا محالة فثلُثٌ لطعامه، وثلُثٌ لشرابه، وثلُث لنَفَسِه،" رواه الترمذي، فإنْ زاد فهو إسراف. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]. قال بعض العلماء: جمع الله الطِّبَّ كلَّه بهذه الكلمة.[١]

**السابع**: أن يأخذ نفسَه بالورع في جميع شأنه ويتحرّىٰ الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعيالُه ليستثير قلبه، ويصلُحَ لقبول العلم ونوره، والنفع به، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحِلِّ شرعاً، مهما أمكنه التورّع، ولم تُلْجِه حاجة، بل يطلب الرتبة العالية، ويقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين في التورّع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه.[٢]...

**الثامن**: أن يقلل استعمال المطاعم التي هي من أسباب البلادة، كالتفاح الحامض، والباقلا، وشرب الخل، وكذلك ما يكثر استعماله البلغم المبعد للذهن، ككثرة الألبان والسمك ونحو ذلك، ويجتنب ما يُورث النسيان بالخاصة، كأَكْلِ أثَرِ سَوْرِ الفأر، وقراءة ألواح القبور، والدخول بين جملين مقطورين، وإلقاء القمل حية، ونحو ذلك من المجريات.[٣]

**التاسع**: أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة عِلىٰ ثمان ساعات، وهي ثلث الزمان، فإنْ احتمل حالُه أقل من ذلك فعل، ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كلّ شيئاً من ذلك، أو ضعف، بتنزُّه وتفرُّجٍ في المستنْزَهات، بحيث يعود إلىٰ حالِه ولا يضيع عليه زمانُه، وكان بعضُ أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزُّه في بعض أيام السنة، ويتمازحون بما لا يضرهم في

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص٦٦.

دين ولا عِرض. ويتجنب ما يعاب من الهزل والبسط بالفعل وفرط التمطي، والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة.[1]

**العاشر**: أن يترك العِشرة، فإنَّ تَرْكَها من أهم ما ينبغي لطلب العلم، ولا سيما لغير الجنس، وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلَّت فكرته، فإنَّ الطباع شرُّ آفة، وآفةُ العشرة ضياع العُمُر بغير فائدة، وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل، وذهاب الدين إن كانت لغير أهله. والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، كما روي عن النبي ﷺ: "أغدُ عالماً أو متعلماً، ولا تكن الثالث فتهلك." فإنْ شرَعَ أو تَعَرَّضَ لصحبةِ من يضيع عمرُه معه، فليتلطَّفْ في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإنَّ الأمور إذا تمكّنت عسُرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء "الدّفْعُ أسهلُ من الرَّفْع،" فإنْ احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحاً، ديّناً، تقياً، ورعاً، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، فإنْ نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبَّره.[2]

## الفصل الخامس: في آداب المتعلم مع شيخه، وقدوته، وما يجب عليه من عظيم حرمته

وذلك ثلاثة عشر نوعاً:

**الأول**: ينبغي للطالب أن يقدِّم النظر، ويستخيرَ الله فيمن يأخذ عنه العلم، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، ويتحرّى في كونه ممن كملت أهليتُه وتحقّقت شفقته، وطهُرت مروءتُه وعُرِفَتْ عِفَّتُه، واشتهرت صيالته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص وَرَع أو دِين أو عدم خُلُق جميل، وعن السلف: هذا العلم دِينٌ فانظروا عمَّنْ تأخذون دينكم، وليحذر من التقيد بالمشهورين وترك الأخذ عن الخاملين، فقد عدَّه الغزالي وغيره من الكِبْر في العلم؛ لأَنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن يلتقطها حيث وجدها، ويغتنمُها حيث ظَفِر بها، ويتقلّد المِنَّة

(١) المرجع السابق، ص٦٦-٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

لمن ساقها إليه، فإنَّه يهرب من مخافة الجهل كما يهرب من الأسد، والهارب من الأسد لا يأنف من دلالة من يدله على الخلاص، كائناً من كان.

وذكر أبو نعيم في الحلية أنَّ زينَ العابدين علي بن الحسين عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ كان يذهب إلى زيد بن أسلم، فيجلس إليه، فقيل له: أنت سيد الناس وأفضلُهم تذهب إلى هذا العبد فتجلس إليه، فقال: العلم يُتَبع حيث كان ومن كان...

وليجتهد على أن يكون الشيخ مـمَّن له في العلوم الشرعية تمام اطِّلاع، وله مِـمَّنْ يوثق به من مشايخ عصره كثرةُ بحثٍ وطولُ اجتماع، لا ممن أخذ من بطون الأوراق. لما قال الشافعي: من تفقّه من بطون الكتب ضيّع الأحكام، وكان بعضهم يقول: من أعظم البلية مشيخة الصحيفة؛ أي الذين يتعلمون من الصحف.(١)

**الثاني**: أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده، ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته ويتقرب إلى الله بخدمته، ويعلم أنَّ ذُلَّه لشيخه عِزٌّ، وخضوعَه فخرٌ، وتواضَعه له رِفْعَةٌ.(٢)...

**الثالث**: أن ينظره بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال، ويُوَقِّرَه ويُعظِّمَه، فإنَّ ذلك أقربَ إلى نفعه به، قال بعضهم: حُسن الأدب ترجمان العقل، ومراعاة الأدب فيما بين المحققين مقدم على غيره، ألا ترى كيف مدح الله أهله وشرف محلهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣]. وينبغي أن لا يخاطِب شيخَه بتاء الخطاب وكافِه، ولا يناديه من بُعد، بل يقول: يا سيدنا، ويا مولانا، ونحو ذلك، وما تقولون في كذا، وما رأيكم في كذا، وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه، نحوَ قال الشيخ الأستاذ، أو قال شيخنا، أو قال مولانا ونحو ذلك.(٣)

---

(١) المرجع السابق، ص٧١-٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص٧٢.

(٣) المرجع السابق، ص٧٣ - ٧٤.

**الرابع**: أن يعرف له حقّه ولا ينسىٰ له فضله، فعن أبي أُمامة الباهلي مرفوعاً: "من علّم عبداً آيةً من كتاب الله فهو مولاه." ومن ذلك: أن يعظم حضرته ويرد غيبته ويغضب لها، فإنْ عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس، وينبغي أن يدعو له مدة حياته، ويرعىٰ ذريته وأقاربه وأولاده بعد وفاته، ويتعاهد زيارة قبره، والاستغفار والصدقة عنه، ويسلك في الهدىٰ والسمت مسلكه، ويتأدب بآدابه، ولا يدع الاقتداء به.[1]

**الخامس**: أن يصبر علىٰ جفوة تصدر من شيخه، أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأوَّلَ أفعالَه التي يظهر أنَّ الصواب خلافُها علىٰ أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار، والتوبة مما وقع والاستغفار، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب فيه إليه، فإنَّ ذلك أبقىٰ لمودة شيخه وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته.[2]...

**السادس**: أن يشكر الشيخ علىٰ توفيقه علىٰ ما فيه فضيلة، وعلىٰ توبيخه علىٰ ما فيه نقيصة، أو علىٰ كسل يعتريه، أو قصور يعانيه، أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه وإرشاده وإصلاحه، ويعدَّ ذلك من الشيخ من نعم الله تعالىٰ عليه، باعتناء الشيخ به ونظره إليه، فإنَّ ذلك أميلَ لقلب الشيخ وأبعثَ علىٰ الاعتناء بمصالحه. وإذا أوقفه الشيخ علىٰ دقيقة من أدب، أو نقيصة صدرت منه، وكان يعرفه من قبل، فلا يظهر أنَّه كان له في ذلك عذر وكان إعلام الشيخ به أصلح فلا بأس به، وإلا تركه.[3]

**السابع**: أن لا يدخل علىٰ الشيخ في غير المجلس العام إلا بالاستئذان، سواء كان الشيخ وحده أو كان معه غيرته. ولا يكرر الاستئذان، وإن شكَّ في علم الشيخ به، فلا يزيد في الاستئذان فوق ثلاث مرات أو ثلاث طرقات بالباب أو الحلْقة، وليكن طرقُ الباب خفيفاً بآداب، بأظفار الأصابع، ثم بالأصابع، ثم بالحلقة قليلاً، قليلاً، فإنْ كان الموضع بعيداً عن الباب أو الحلقة، فلا بأس برفع ذلك بقدر ما يسمع لا غير، وإذا أذن

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٧٤ - ٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص٧٥ - ٧٦.

وكانوا جماعة يقدم أفضلهم وأسنّهم بالدخول والسلام عليه، ثم يسلم عليه الأفضل فالأفضل. وينبغي أن يدخل على الشيخ كامل الهيئة، متطهر البدن والثياب، نظيفهما، بعدما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر، وقطع رائحة كريهة، لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم، فإنَّه مجلس ذكر واجتماع في عبادة.[1]...

**الثامن**: أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعاً بتواضع وخضوع وسكون، وخشوع، ويصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ويقبل بكليته عليه، متعقلاً لقوله، بحيث لا يُحْوِجُه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا ينفض كمَّه ولا يَحْسُر عن ذراعيه، ولا يعبث بيديه أو رجليه، ولا يضع يده على لحيته أو فمه، أو يعبث بها في أنفه، أو يستخرج بها منه شيئاً، ولا يفتح فاه ولا يقرع سنه، ولا يضرب الأرض براحته، أو يخط عليها بأصابعه، ولا يشبك يديه أو يعبث بإزاره. ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط، أو مخدة أو يجعل يده عليها أو نحو ذلك، ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره، ولا يُكثر كلامه من غير حاجة، ولا يحكي ما يضحك منه وما فيه بذاءة، أو يتضمن سوء مخاطبة أو سوء أدب، ولا يضحك لغير عجب ولا لعجب دون الشيخ، فإنْ غلبه تبسم، تبسم من غير صوت، ولا يُكثر التنحنح من غير حاجة ولا يبصق ولا يتنخع ما أمكنه...

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: من حق العالم عليك أن تُسلِّمَ على القوم عامة، وتخصَّه بالتحية وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنَّ بيدك، ولا تغمزنَّ بعينك عنده، ولا تقولَنَّ: قال فلان خلاف قولك، ولا تغتابَنَّ عنده أحداً ولا تطلبنَّ عَثْرَتَه، وإنْ زلّ قَبِلْت معذرته، وعليك أن توَقِّره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.[2]...

**التاسع**: أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان، ولا يقولَ له: لِـمَ، ولا نُسَلِّمُ، ولا مَنْ يقولُ هذا، ولا أين موضعه؟ وشبه ذلك، فإنْ أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك في مجلس آخر على سبيل الاستفادة، وإذا ذكرت شيئاً لا تقل هكذا

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٧ - ٧٩.

قلت، أو خطر لي أو سمعت، أو هكذا قال فلان. وهكذا لا تقول: قال فلان خلاف هذا، أو روىٰ فلان خلافه، أو: هذا غير صحيح، أو نحو ذلك. وإذا أصرَّ الشيخُ علىٰ قول أو دليل، ولم يظهر له أو علىٰ خلاف صواب سهواً، فلا يغير وجهه أو عينيه، أو يشير إلىٰ غيره، كالمنكِر عليه، لما قاله، بل يأخذه ببشر ظاهر، وإن لم يكن الشيخ مصيباً لغفلة أو سهو، أو قصور نظر في تلك الحال، فليس بمعصوم وليتَحَفَّظْ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه، ولا يليق خطابه به، مثل: إيش بك، وفهمت، وسمعت، وتدري، ويا إنسان ونحو ذلك.[1]...

**العاشر**: إذا سمع الشيخَ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية، أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك، أصغىٰ إليه إصغاء مستفيد له في الحال كأنَّه لم يسمعه قط،... فإنْ سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه له، فلا يجيب بنعم، لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه، ولا يقل: لا، لما فيه من الكذب، بل يقول: أحب أن أستفيده من الشيخ، أو: أن أسمعه منه، أو هو من جهتكم أصح.[2]...

**الحادي عشر**: أن لا يسبق الشيخ إلىٰ شرح مسألة أو جواب سؤال منه، أو من غيره ولا يساوقه فيه ولا يظهر معرفته به، أو إدراكه قبل الشيخ، وينبغي أن لا يقطع علىٰ الشيخ كلامه؛ أي كلامٍ كان، ولا يسابقه فيه ولا يساوقه، بل يصبر حتىٰ يفرغ الشيخ من كلامه، ثم يتكلم ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه، أو مع جماعة المجلس.

وفي حديث هند بن أبي هالة، في وصفه للنبيِّ ﷺ: أنَّ النبي ﷺ كان إذا تكلَّم أطرق جلساؤه، كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا.[3]

**الثاني عشر**: إذا ناوله الشيخُ شيئاً تناولَه باليمين، وإن ناوله شيئاً ناولَه باليمين، فإنْ كان ورقة يقرؤها كَفُتْيَا، أو قصةً، أو مكتوباً شرعياً، ونحو ذلك، نشرها ثم دفعها إليه. ولا يدفعها مطوية إلا إذا علم أو ظنَّ إيثار الشيخ لذلك، وإذا ناول الشيخ كتاباً

---

(١) المرجع السابق، ص٧٩ - ٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨١.

(٣) المرجع السابق، ص٨٢.

ناوله إيَّاه مهيئاً لفتحه والقراءة فيه من غير احتياج إلى إدارته،... وإذا جلس بين يديه فلا يقرَبُ منه قرباً كثيراً ينسب فيه إلى سوء أدب، ولا يضع رجله أو يده، أو شيئاً من بدنه أو ثيابه على ثياب الشيخ أو وسادته أو سجادته،... وإن ناوله سكيناً كانت عرْضاً وحدَّ شفرتِها إلى جهته، قابضاً على طرَف النَّصاب مما يلي النَّصْل، جاعلاً نصابَها على يمين الآخذ، ولا يأنَفُ من خدمته. وقد قيل: أربعة لا يأنف الشريف منهم، وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلمه، وخدمته للضيف.[1]

**الثالث عشر**: إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل، ووراءه بالنهار، إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك، ويتقدم عليه في المواطن المجهولة الحال لِوَحْلٍ أو نحوه، ويعرف الشيخ بمن قرب منه أو قصده من الأعيان إن لم يعلم الشيخ به، وإذا صادف الشيخَ بدأه بالسلام، ويقصده إن كان بعيداً ولا يناديه، ولا يسلّم عليه من بعيد ولا من ورائه، بل يقرب ويتقدم ثم يسلم عليه.[2]...

## الفصل السادس:في آداب المتعلم في درسه وقراءته في الحلقة، وما يعتمد فيها الشيخ والرفقة

وهو ثلاثة عشر نوعاً:

**الأول**: أن يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز، فيُتْقِنه حفظاً ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنَّه أصل العلوم وأمُّها وأهَـمُّها. ثم يحفظ في كلِّ فنٍّ مختصراً، يجمع فيه بين طرفيه من الفقه، والحديث وعلومه، والأصوليين، والنحو والتصريف. ولا يشتغل بذلك كلِّه عن دراسة القرآن وتعهّده وملازمة وِرْدٍ منه كلَّ يوم أو أيام أو جمعة. وليحذر من نسيانه بعد حفظه، فقد ورد حديث يزجر عنه، ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ، وليحذر من الاعتماد في ذلك على الكتب ابتداء، بل يعتمد في كلِّ فَنٍّ ما هو أحسن تعليماً له، وأكثر تحقيقاً فيه، وتحصيلاً منه، وأخْبَرهم بالكتاب

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص٨٤.

الذي قرأه،... وليأخذ من الحفظ ما يمكنه ويطيقه حاله، من غير إكثار يُـمِلُّ ولا تقصير يُـخَلُّ بجودة التحصيل.[1]

**الثاني**: أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء، وبين الناس مطلقاً في العقليات والسمعيات، فإنَّه يحيِّرُ الذهن ويُدْهِش العقل، بل يتقن أولاً كتاباً واحداً في فن واحد، أو كتباً في فنون إن احتمل ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه، فإنْ كانت طريقة شيخه نقل المذاهب والاختلاف، ولم يكن له رأي واحد. قال الغزالي: فليحذر منه فإنَّ ضررَه أكثرُ من النفع به، وكذلك يحذر في ابتداء طلبه من المطالعات في تفاريق المصنفات، فإنه يضيع زمانه ويفرق ذهنه، بل يعطي الكتاب الذي يقرأه أو الفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه، وكذلك يحذر من النقل من كتاب إلى كتاب، من غير موجب، فإنَّه علامة الضجر وعدم الفلاح.[2]...

**الثالث**: أن يصحح ما يقرأه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إمَّا على الشيخ وإما على غيره ممن يعينه، ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً محكماً ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده بعد ذلك، ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه؛ لأنَّه يقع في التحريف والتصحيف، وقد تقدم أنَّ العلم لا يؤخذ من الكتب، فإنَّه من أضر المفاسد، وينبغي أن يحضر معه الدواة والقلم والسكين للتصحيح؛ أي في مجلس التصحيح، وأما التصحيح حال الدرس، فكان بعضهم يمنع منه لما فيه من الاشتغال عن تقرير الشيخ، وإنّـما يجعل عليه علامةً بظفره أو نحوه ليصلحه بعد فراغه، وبضبط ما يصحّحه لغةً وإعراباً. وإذا رد الشيخ عليه لفظة، وظن أنَّ ردّه خلاف الصواب أو علمه، كرر اللفظة مع ما قبلها لينتبه لها الشيخ، أو يأتي بلفظ الصواب على سبيل الاستفهام، فربَّـما وقع ذلك سهواً أو سبق لسان لغفلة، ولا يقل: بل هي كذا، بل يتلطف في تنبيه الشيخ له، فإنْ لم ينتبه قال: فهل يجوز فيها كذا؟ فإنْ رجع الشيخ إلى الصواب فلا كلام، وإلا ترك تحقيقها إلى مجلس آخر يتلطف لاحتمال أن يكون الصواب مع الشيخ.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

**الرابع**: أن يبكّر بسماع الحديث، ولا يهمل الاشتغال به وبعلومه، والنظر في إسناده، ورجاله، ومعانيه، وأحكامه، وفوائده، ولغته، وتواريخه، ويعتني بمعرفة أنواعه صحيحها وحسنها وغيرها، فإنَّ الحديث أحد جناحي العلم بالشريعة، والمبين لكثير من الجناح الآخر وهو القرآن، ولا يقنع بمجرد السماع كغالب محدثي هذا الزمان، بل يعتني بالدراية أشد من اعتنائه بالرواية؛ لأَنَّ الدراية هي المقصود بنقل الحديث وتبليغه.[1]

**الخامس**: إذا شرح محفوظاته المختصرات وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات، انتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفيسة، والمسائل الدقيقة، والفروع الغريبة، وحل المشكلات والفروق بين أحكام المتشابهات من جميع أنواع العلوم، ولا يستقل فائدة يسمعها أو يتهاون بقاعدة يضبطها، بل يبادر إلى تعليقها وحفظها، ولتكن همته في طلب العلم عالية، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيره، ولا يقنع من إرث الأنبياء بيسيره، ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها أو يشغله الأمل والتسويف عنها، فإنَّ للتأخير آفات؛ ولأنه إذا حصلها في الزمن الحاضر، حصل في الزمن الثاني غيرها ويغتنم وقت فراغه ونشاطه، وزمن عافيته وشرخ شبابه، ونباهة خاطره، وقلة شواغله، قبل عوارض البطالة، أو موانع الرياسة ...

وإذا كملت أهليته وظهرت فضيلته، ومرّ على أكثر كتب الفن، أو المشهورة منها، بحثاً ومراجعة ومطالعة، اشتغل بالتصنيف وبالنظر في مذاهب العلماء، سالكاً طريق الإِنصاف فيما يقع له من الخلاف؛ كما تقدم في آداب العالم.[2]

**السادس**: أن يلزم حلقة شيخه في التدريس والإقراء، وجميع مجالسه، إذا أمكن؛ فإنَّه لا يزيده إلا خيراً وتحصيلاً وأدباً وتفضيلاً، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه المتقدم: ولا تشبع من طول صُحبته، فإنَّما هو كالنخلة ينتظر متى يسقط عليك منها شيء.

---

(١) المرجع السابق، ص٩٠ - ٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٩١ - ٩٢.

ويحضر موضع الدرس قبل حضور الشيخ، ولا يتأخر إلى بعد جلوسه وجلوس الجماعة، فيكلفهم المعتاد من القيام وردّ السلام...

ويجتهد على مواظبة خدمته والمسارعة إليها، فإنَّ ذلك يُكسبه شرفاً وتجليلاً ...

وينبغي أن يتذاكر مواظبو مجلس الشيخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرة نفعاً عظيماً، وينبغي المذاكرة في ذلك عند القيام من مجلسه قبل تفرق أذهانهم، وتشتت خواطرهم، وشذوذ بعض ما سمعوه عن أفهامهم،... فإنْ لم يجد الطالب من يذاكره، ذاكر نفسه بنفسه، وكرّر معنى ما سمعه ولفظه على قلبه ليعلق ذلك على خاطره، فإنَّ تكرار المعنى على القلب كتكرار اللفظ على اللسان سواء سواء، وقلّ أن يفلح من اقتصر على الفكر والنقل بحضرة الشيخ خاصة، ثم يتركه ويقوم ولا يعاوده.[1]

**السابع**: إذا حضر مجلس الشيخ سلَّم على الحاضرين بصوت يُسمع جميعهم، وخصَّ الشيخ بزيادة تحية وإكرام، وكذلك يُسلِّم إذا انصرف، وإذا سلَّم فلا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قُرب الشيخ، من لم يكن منزلته كذلك، بل يجلس حيث انتهى به المجلس، كما ورد في الحديث، فإنْ صرَّح له الشيخ والحاضرون بالتقدم أو كانت منزلته، أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك فلا بأس،... ولا ينبغي لأحد أن يؤثر بقربه من الشيخ إلا لمن هو أولى بذلك، لسن أو علم أو صلاح أو نسب أهل البيت النبوي...

وينبغي للرفقاء في درس واحد، أو دروس، أن يجتمعوا إلى جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعاً عند الشرح، ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض.[2]

**الثامن**: أن يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ، فإنَّه أدب معه واحترام لمجلسه، وهم رفقاؤه فيوقّر أصحابه ويحترم كبراءه وأقرانه، ولا يجلس وسط الحلقة، ولا قدَّام أحد، إلا لضرورة، كما في مجلس التحديث. ولا يفرّق بين رفيقين، ولا بين متصاحبين،

---

(١) المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص٩٤-٩٥.

إلا برضاهما معاً، فقد جاء النهي عن الجلوس بين الرجلين إلا بإذنهما، فإذا وسعوا جلس وجمع نفسه، ولا يجلس فوق من هو أولى منه.

قال أبو محمد اليزيدي: أتيت الخليل بن أحمد في حاجة، فقال لي: ههنا يا أبا محمد، فقلت: أضيق عليك، فقال: إنَّ الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباغضين، وإن شبراً في شبر لا يضيق على متحابين...

ويحذر المماراة في البحث والمغالبة فيه، فإنْ ثارت نفسه ألجمها بلجام الصمت والصبر، واقتداء بحديث: "من ترك المراء وهو محق، بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة،" فإنَّ ذلك أقطع لانتشار الغضب وأبعد عن منافرة القلوب.[1]...

**التاسع**: أن لا يستحي من سؤال ما أشكل عليه، ويفهم ما لم يتعقله بتلطّف وحُسن خطاب، وأدب وسؤال، قالت عائشة: رحم الله نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين...

وكما لا ينبغي للطالب أن يستحي من السؤال، فكذلك لا يستحي من قوله: لم أفهم إذا سأله الشيخ؛ لأَنَّ ذلك يفوت عليه مصلحته العاجلة والآجلة، أما العاجلة فحفظ المسألة ومعرفتها، واعتماد الشيخ فيه الصدق والورع والرغبة، والآجلة سلامته من الكذب والنفاق واعتياده التحقيق[2]

**العاشر**: مراعاة نوبته فلا يتقدم عليها بغير رضى من هي له. روي أنَّ أنصارياً جاء إلى النبي ﷺ يسأله، وجاء رجل من ثقيف، فقال النبي ﷺ: "يا أخا ثقيف إنَّ الأنصاري قد سبقك بالمسألة، فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك" [3]...

**الحادي عشر**: أن يكون جلوسه بين يدي الشيخ على ما تقدم تفصيله وهيئته في آدابه مع شيخه، ويحضر كتابه الذي يقرأ منه معه ويحمله بنفسه، ولا يضعه حال

---

(١) المرجع السابق، ص٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص٩٨.

القراءة على الأرض مفتوحاً، بل يحمله بيديه ويقرأ منه، ولا يقرأ حتى يستأذن الشيخ، ولا يقرأ عند شغل قلب الشيخ بملل، أو غضب، أو جوع، أو عطش، أو غير ذلك.[1]

**الثاني عشر**: إذا حضرت نوبته استأذن الشيخ، كما ذكرناه، فإنْ أذن له استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يسمّي الله تعالى ويحمده ويصلّي على النبي ﷺ، ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه ولنفسه ولسائر المسلمين، وكذلك يفعل كلما شرع في قراءه درس، أو تكراره، أو مطالعته، أو مقابلته، في حضور الشيخ وفي غيبته.[2]...

**الثالث عشر**: أن يُرغِّب بقية الطلبة في التحصيل ويدلهم على مكانه، ويصرف عنهم الهموم الشاغلة عنه، ويهوّن عليهم مؤونته، ويذاكرهم بما حصل له من الفوائد والقواعد والغرائب، وينصحهم في الدين، فبذلك يستنير قلبه، ويزكو عمله، ولا يفخر عليهم، يعجب بجودة ذهنه، بل يحمد الله على ذلك ويستزيد منه بدوام شكره.[3]

## الفصل السابع: في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها أو ضبطها، وحملها، ووضعها، وشرائها، وعاريتها، ونسخها... وغير ذلك

وفيه أحد عشر نوعاً:

**الأول**: ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراءً، وإلا فإجارة أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حظه من العلم، وجمعها نصيبه من الفهم، كما يفعله كثير من المنتحلين الفقه والحديث، وقد أحسن القائل: إذا لم تكن حافظاً واعياً، فجمعك للكتب لا ينفع، وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ، إلا فيما يتعذّر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه، ولا يهتم المشتغل بالمبالغة في تحسين الخط، وإنّما يهتم

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص٩٩ - ١٠٠.

بتصحيحه وبضبطه ولا يستعير كتاباً مع إمكان شرائه أو إجارته.[1]

**الثاني**: يُستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها، لما فيه من الإعانة على العلم، مع ما في مطلق العارية من الفضل والأجر. قال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أنَّ المكارم موصولة بالمكاره، فأعاره...

وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً، ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة، ولا يحشيه ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه وخواتمه.[2]...

**الثالث**: إذا نسخ من الكتاب أو طالعه، فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين شيئين أو كرسي الكتاب المعروف كيلا يسرع بقطع حبكه... والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلواً كيلا تندى أو تبلى... ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفيها أو جلالتهم، فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدريج، فإنْ كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل.[3]...

**الرابع**: إذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقّده عند إرادة أخذه وردّه، وإذا اشترى كتاباً تعهّد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفّح أوراقه واعتبر صحته، ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه، ما قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح، فاشهد له بالصحة، وقال بعضهم: لا يضيء الكتاب حتى يظلم، يريد إصلاحه.[4]

**الخامس**: إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية، فينبغي أن يكون على طهارة مستقبلاً القبلة، طاهر البدن والثياب، بحبر طاهر، ويبتدئ كل كتاب بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم، فإنْ كان الكتاب مبدوءاً فيه بخطبة، يتضمن حمد الله تعالى والصلاة

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٢) المرجع السابق ص١٠٤.

(٣) المرجع السابق ص١٠٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٦.

على رسوله، كتبها بعد البسملة وإلا كتب هو ذلك بعدها، ثم كتب باقي الكتاب، وكذلك يفعل في ختم الكتاب وآخر جزء منه بعدما يكتب آخر الجزء الأول والثاني (مثلاً) ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن كمل الكتاب، ويكتب إذا كمل: تم الكتاب الفلاني، ففي ذلك فوائد كثيرة وكلما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتعظيم مثل: تعالى، أو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو عَزَّوَجَلَّ، أو تقدّس، ونحو ذلك، وكلما كتب اسم النبي ﷺ كتب بعده: الصلاة والسلام عليه وعلى آله، ويصلي هو عليه وعليهم بلسانه أيضاً. وجرت عادة السلف والخلف بكتابة ﷺ لموافقة الأمر في قوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وذكر الآل لما روي عنه ﷺ، أنَّه قال: "لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء." قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: "تقولون اللهم صلِّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد." ولما روي عنه ﷺ أنَّه قال: "من صلى صلاة لم يصلِّ فيها على أهل بيتي لم تقبل منه."

وجاء في الحديث عن عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرفوعاً: الدعاء محجوب حتى يصلى على النبي وأهل بيته وغير ذلك من الأحاديث، ولا يختصر الصلاة في الكتابة، ولو وقعت في السطر مراراً كما يفعل بعض، فيكتب صلع، أو صلم، أو صلعم، وكل ذلك غير لائق بحقه ﷺ.[1]...

**السادس**: ينبغي أن يتجنب الكتابة الدقيقة في النسخ. قال بعض السلف: اكتب ما ينفعك وقت حاجتك، ولا تكتب ما لا ينتفع به وقت الحاجة، والمراد: وقت الكبر وضعف البصر، وقد يقصد كثير السفر بالكتابة الدقيقة خفة المحمل، وهذا وإن كان قصداً صحيحاً، إلا أنَّ المصلحة الفائتة به في آخر الأمر أعظم.[2]

**السابع**: إذا صحّح الكتاب بالمقابلة على أصله الصحيح، أو على شيخ فينبغي له أن يَشْكُل المُشْكِل، ويُعجم المستعجم، ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيف...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٧ - ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٩.

وينبغي أن يكتب على ما صححه وضبطه في الكتاب، وهو محل شك عند مطالعته أو تطرّق احتمال، صحح صغيرة، ويكتب فوق ما وقع في التصحيف أو في النسخ وهو خطأ كذا، صغيرة، ويكتب في الحاشية، صوابه كذا، إن تحققه، وإلا فيعلم عليه صورة رأس صاد، تكتب فوق الكتاب غير متصلة بها، فإذا تحقّقه بعد ذلك وكان المكتوب صواباً زاد تلك الصاد حاء فيصير صح، وإلا كتب الصواب في الحاشية كما تقدم، وإذا وقع في النسخة زيادة، فإنْ كانت كلمة واحدة فله أن يكتب عِليها لا وإن يضرب عليها.[1]...

**الثامن**: إذا أراد أن يخرج شيئاً في الحاشية ويسمى اللَّحَق بفتح الحاء، علَّم له في موضعه بخط منعطف قليلاً إلى جهة التخريج، وجهة اليمين أولى إن أمكن، ثم يكتب التخريج في محاذاة العلامة صاعداً إلى أعلى الورقة، لا نازلاً إلى أسفلها، لاحتمال تخريج آخر بعده، ويجعل رأس الحروف إلى جهة اليمين، سواء كان في جهة يمين الكتابة أو يسارها، وينبغي أن يحسب الساقط وما يجيء منه من الأسطر قبل أن يكتبها، فإنْ كان سطرين أو أكثر جعل آخر سطر منها يلي الكتابة إن كان التخريج عن يمينها، وإن كان التخريج عن يسارها جعل أول الأسطر مما يليها، ولا يوصل الكتابة والأسطر بحاشية الورقة، بل يدع مقداراً يحتمل الحك عند حاجته مرات، ثم يكتب في آخر التخريج صح، وبعضهم يكتب بعد صح الكلمة التي تلي آخر التخريج في متن الكتاب علامة على اتصال الكلام.[2]

**التاسع**: لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على حواشي كتاب يملكه ولا يكتب في آخره صح فرقاً بينه وبين التخريج، وبعضهم يكتب عليه حاشية أو فائدة، وبعضهم يكتب في آخرها دارة كذا. ولا ينبغي أن يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل تنبيه على إشكال أو احتراز، أو رمز، أو خطأ، أو نحو ذلك.[3]...

---

(١) المرجع السابق ١٠٩-١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١١.

**العاشر**: لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بالحمرة، فإنَّه أظهر في البيان وفي فواصل الكلام، وكذلك لا بأس بالرمز به على أسماء أو مذاهب، أو أقوال أو طرق، أو أنواع، أو لغات، أو أعداد ونحو ذلك، ومتى فعل ذلك بيَّن اصطلاحه في فاتحة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها. وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين من الفقهاء وغيرهم لقصد الاختصار، فإنْ لم يكن ما ذكرناه من الأبواب والفصول والتراجم بالحمرة، أتى بما يميزه من تغليظ القلم وطول المشق واتحاده في السطر، ونحو ذلك، ليسهل الوقوف عليه عند قصده، وينبغي أن يفصل بين كل كلامين بدارة أو ترجمة أو قلم غليظ، ولا يوصل الكتابة كلها على طريقة واحدة، لما فيه من عسر استخراج المقصود، وتضييع الزمان فيه، ولا يفعل ذلك إلا غبي جداً.(١)

**الحادي عشر**: قالوا: الضرب أولى من الحك، لا سيما في كتب الحديث؛ لِأَنَّ فيه تهمة وجهالة؛ ولأن زمانه أكثر فيضيع وفعله خطر، فربَّما نقب الورقة، وأفسد ما ينفذ إليه فأضعفها، فإنْ كان إزالة نقطة أو شكله ونحو ذلك فالحك أولى، وإذا صحح الكتاب على الشيخ أو في المقابلة علم على موضع وقوفه، بلغ أو بلغت أو بلغ العرض، أو غير ذلك مما يفيد معناه.(٢)

## خاتمة

## في ذكر ما ينبغي لأهل البيت النبوي من الآداب الزكية، والأخلاق السنية، والهمم العلية

وذلك خمسة أنواع:

**الأول**: بذل الهمة في تحصيل العلوم الشرعية خصوصاً الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ لأَنَّ أَوْلى الناس بذلك أهل البيت النبوي، ولم يزل سلفهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ذلك، فإنَّ العلوم الشرعية ما طهرت وانتشرت إلا من عنصر بيتهم الشريف فكيف لا يهتفون بهذا؟ ...

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١١٣.

وقال محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كنت أطلب العلم في دور الأنصار حتى أني لأتوسد عتبة أحدهم فيوقظني الإنسان فيقول: أنَّ سيدك قد خرج إلى الصلاة وما يحسبني إلا عبده.[1]

**الثاني**: تطهير القلب من كل دنس، وغلٍّ، وحسد، وخلق ذميم، وسوء عقيدة، فإنها من خبايات القلب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]. وأيضاً فبذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقائقه...

وإيَّاك أنْ تقصد بالعلم الأغراض الدنيوية من تحصيل الرئاسة والجاه والمال، والتصدر في المجالس، فيَحْبَطَ عملُك، ويُكْسَفَ نورُ علمك ويضيعَ تعبُك، وتكونَ ممن لم ينفعه الله بعلمه، وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع. والتوسّل بالعلم الذي هو أعظم العبادات من أعظم الصوارف عنها.[2]

**الثالث**: اجتناب كلِّ ما يُستقبَح شرعاً، فإنَّ القبيح من أهل هذا البيت أقبح منه من غيرهم... وقال الحسن المثنى عَلَيْهِ السَّلَامُ: وإنِّي أخاف أن يضاعف للعاصي منَّا العذاب ضعفين، ووالله إنِّي لأرجو أن يؤتى المحسن أجرَه منَّا مرتين... وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّما بعثت لأتـمِّم محاسن الأخلاق." وأوْلى الخلق بذلك أهل البيت النبوي، لمضاهاة ذلك تكريم مَـحْتَدِهم وتشريف نسبهم، ولتكون حشمتُهم في النفوس موفورةً، وحرمة الرسول ﷺ فيه محفوظةً، حتى لا ينطق بذمِّهم لسان ولا يشنؤهم إنسان، وأوْلى الناس مروءة من كانت له نبوة النبوءة.[3]

**الرابع**: ترك الفخر بالآباء وعدم التعويل عليهم من غير اكتساب للفضائل الدينية، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]... وروى العسكري والقضاعِي وغيرهما عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي

(١) المرجع السابق، ١٢٠.

(٢) المرجع السابق ص١٢١-١٢٢.

(٣) المرجع السابق ص١٢٣.

ﷺ قال: "من أبطأ به عملُه لم يُسرع به نسبه." وهو في صحيح مسلم في جملة حديث. وجاء عنه ﷺ في الإشارة إلى سلوك التواضع، واطِّراح المفاخر، قوله: "أنا ابن امرأةٍ كانت تأكل القديد،" وقال: "إنَّما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد، هوِّن عليك فلسْتُ بِـمَلِكٍ، إنَّما أنا عبد."

وأخرج الدارمي وغيرُه...، عن النبي ﷺ قال: "إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أوْحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر بعضكم على بعض." وقد جاء في أحاديث كثيرةٍ حثُّه ﷺ لأهل بيته على خشية الله واتقائه وطاعته، وتحذيرهم ألا يكون أحد أقرب إليه منهم بالتقوى يوم القيامة، وأن لا يؤثروا الدنيا على الآخرة اغتراراً بنسبهم.[1]...

**الخامس**: سلوك طريق سلفهم في التواضع والحلم والصبر على الأذى ذاكرين قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧] وما كان عليه نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصبر على الأذى، وما كانوا يتحمّلونه في الله تعالى حتى كانت لهم العقبى. فينبغي لأهل البيت النبوي اتباع سلفهم في اقتفاء آثارهم، والاهتداء بهديهم وأنوارهم، والاقتداء بأقوالهم وأفعالهم وزهدهم وورعهم، وتحققهم لمعرفة ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، فإنَّهم أوْلى الناس بذلك. ...

وحِكَمُهم وأوصافُهم الشريفة، لا تكاد تنحصر، ومنها معاملتهم لأمَّةِ مُشَرِّفِهم ﷺ بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام ومزيد الإكرام، ورفقُهم بهم في الكلام، وتركُ التعاظمِ على آحادهم وإحسان الظن بهم، وتخصيصهم بمزيد الإكرام للعلماء المتمسكين بسنة نبيهم، ﷺ، فإنَّهم ورثة الأنبياء، فينبغي أن يكون المنتسبون إليهم متخلّقين بمحاسن أخلاقهم وآدابهم ونزاهتهم، متأملين لسِيَرِهم وطرائقهم، سالكين سُبلَهم في ذلك، حتى يكونوا خيْرَ الناس أسلافاً، وأخلاقاً، وأعمالاً. ويدخلون السرور على مشرِّفِهم ﷺ والماضين من سلفهم عند عرض أعمالهم.

---

(١) المرجع السابق ص١٢٤.

هذا آخر ما تيسر جمعُه بحمد الله وإعانته، فنسأل الله أن ينفع به، وأنْ يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأنْ يهدِيَنا إلىٰ الصراط المستقيم، إنَّه سميع عليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلىٰ الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد وآله الطاهرين. آمين اللهم، آمين.[1]

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٣٢.

# (٢٠)
# أَدَبُ الطَّلَبِ ومُنْتَهَىٰ الأَرَب
## مُـحَمَّد بن عَلِيّ الشَّوْكَانِـيّ (توفي: ١٢٥٠هـ)

**الخطاب الشرعي موجه للمجتهد في كل وقت:**

وبالجملة فالمجتهدُ على التحقيق: هو من يأخُذُ الأدلةَ الشرعية مِنْ مواطنها على الوجه الذي قدمناه، ويفْرِضُ نفسَه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي، وإنْ كان في آخر الزمان، وكأنَّه لم يسْبِقْه عالِـم ولا تقدمه مجتهد. فإنَّ الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق. وحينئذ يهون الخطب وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور، وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين. (ص ٢٠٦)

**على العلماء أن يقبلوا المناصب الدينية عند الحكام:**

ولا أقول: إنّ أهلَ العلم العارفين به المطلعين على أسراره يـَمْنَعُون أنفسَهم من المناصب الدينية، وكيف أقول بهذا وهذه المناصب إذا لم تُربط بهم ضاعت، وإذا لم يدخل فيها الأخيارُ تتابع فيها الأشرار، وإذا لم يقم بها أهلُ العلم قام بها أهلُ الجهل، وإذا أدبر عنها أهلُ الورع أقبل إليها أهلُ الجور! وكيف أقول هذا، وأهلُ العلم هم المأمورون بالحُكم بين الناس بالحق والعدل والقسط، وما أنزل الله وما أراهم الله القيام بين الناس بحججه والتبليغ لأحكامه! (ص ٢١٩)

الفصل العشرون:

# كتاب "أدب الطلب ومنتهى الأرب" للشوكاني

## أولاً: التعريف بـ"الشوكاني"

هو الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ولد عام (١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م) في بلده هجرة شوكان باليمن. قرأ العلم على والده، وعلى علماء عصره في مجالات الفقه، واللغة، والحديث، والقرآن، والمنطق، ولازم في كثير من العلوم، عدداً من العلماء المجتهدين الذين كان لهم دور كبير في توجهات الشوكاني في التجديد والاجتهاد، ومن هؤلاء مجدد زمانه عبد القادر بن أحمد الحسني الكوكباني، وعلي بن إبراهيم عامر، والقاسم بن يحيى الخولاني، والحسن إسماعيل المغربي.

عاش الشوكاني في كنف والده الذي يسَّر له التفرّغ الكامل للعلم ومجالسة العلماء والأدباء، فاستكمل التأهيل العلمي في ميادين عديدة، وأنجز كثيراً من المصنفات قبل أن يصل إلى سن الثلاثين سنة، ثم عُين في القضاء وهو في سن السادسة والثلاثين، ومع القضاء كان تحال إليه مسؤليات في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للدولة.

عرّف به المؤرخون من خلال إنتاجه العلمي الغزير، في ميادين مختلفة، هو عالم موسوعي مجتهد ومجدّد، ومفسِّر، ومحدِّث، وفقيه، وأصولي، ومؤرخ، وأديب، وشاعر، ومحقق، وناقد، وفيلسوف.

نهض الشوكاني بقوة وعزم ملحوظين للقيام بمهمة تجديد الفكر الإسلامي، من خلال الدعوة إلى الاجتهاد، وتحرير العقل من التقليد والتعصب، وإطلاق قدرته على التفكير والإبداع، فكانت هذه المهمة هي الفكرة المحورية في كتاباته ودروسه. وعلى الرغم من أنَّه نشأ في بلاد الزيدية وتعلم على علماء المذهب الزيدي، إلا أنَّ أعماله لا تكشف عن مذهبية محددة، بل إنَّه ربَّما أسرف في نقد العلماء الذين يتعصبون للمذهب، وتكلم على وجه الخصوص عمن سماهم الرافضة الذي يزعمون الولاء

لأهل البيت، فسفّه أحلامهم، وأنكر عليهم انحرافاتهم وتكلّم عن فئات من الزيدية بالكلام نفسه كذلك. لذلك نرى أنَّه يعد مجتهداً غير مذهبي؛ لأنَّه يعتمد الدليل الأصلي من الكتاب والسنة لا ما قاله عالم، كائناً من كان.

من أشهر تلاميذه محمد بن الحسن الشجني، ولطف الله بن أحمد حجاف، وكل منهما كتب ترجمة لحياة الشوكاني، وشيوخه، وتلاميذه.

عُرف من مؤلفاته من يزيد على ٢٤٠ من الكتب والرسائل، منها:

تفسيره "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير". وفي الفقه وأصوله: "نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار"، و"الدرر البهية في المسائل الفقهية"، ورسالة في حد السفر الذي يجب معه قصر الصلاة، و"إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول"، و"السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار"، و"القول المفيد في حكم التقليد"، و"بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد"، و"مطلع البدرين ومجمع البحرين"، و"الدواء العاجل لدفع العدو الصائل"، ورسالة في رفع المظالم والمآثم. وله في العقائد: "إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات"، و"القول الصادق في حكم الإمام الفاسق"، ورسالة "البغية في مسألة الرؤية"، و"إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي"، و"الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد".

وله "در السحابة في مناقب القرابة والصحابة"، و"البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" و"إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر"، ورسالة: "إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع"، و"عقود الجمان في بيان حدود البلدان"، و"التشكيك على التفكيك"، و"جواب السائل في جواب: والقمر قدرناه منازل"، و"أمنية المتشوق إلى معرفة حكم المنطق"، وله رسالة: في الاتصال بالسلاطين، وله كتاب "آداب الطلب ومنتهى الأدب"، وغيرها. وتوفي (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).

## ثانياً: التعريف بـ"أدب الطلب ومنتهى الأرب"[1]

كتاب "أدب الطلب ومنتهى الأرب" كتابٌ فريد، من عدة جوانب، فهو يعبر أصدق تعبير عن شخصية الشوكاني العلمية والإصلاحية، وينطلق من تجربته الفكرية والعلمية الثرية، طالباً ومدرساً وقاضياً ومجتهداً. وبصفته آخر مصنفات التراث التي نَعْرِضُ لها في هذا الكتاب، فهو أقرب شيء لواقعنا المعاصر. وقد أتي فيه المؤلف بما لا نجده في كتب التراث التربوي السابقة، من حيث اعتماده على الكتاب والسنة، ومحاربتُه الشديدة للتقليد والتعصب المذهبي، ونزعتُه الإصلاحية في الخروج بالأمة، مما وصلت إليه في عصره من التخلف والتجزئة والاحتراب.

ويصدق على الكتاب أن يكون عملاً تربوياً متخصصاً يتميز عن غيره من المصنفات التي عُدَّتْ من التراث التربوي، بل إنَّه "صنعة تربوية" كما يقول إبراهيم السامرائي، الذي كتب تمهيداً لغوياً وتأريخياً عن مصطلح أدب الطلب في النسخة المحررة من الكتاب.[2] وبين أنَّ الأدب عند الشوكاني هو ما يلزم الطالب من مواد يتعلمها وطرائق يستعملها، ليصل إلى مراده من العلم. والطلب هنا هو التعلَّم الذي يقوم به الطالب، وهو يتلقى العلم من الشيخ المعلم.

ويقع نص الكتاب -مجرداً من الشرح والتحقيق- فيما يقرب من ١٧٠ صفحة (حوالي: ٤٢٥٠٠ كلمة). وقد حُقق الكتاب وطُبع أكثر من مرة. وقد جاءت مادة الكتاب في مقدمة وثلاثة فصول.

تحدث في المقدمة عن شَرْطَيْ طلب العلم، إخلاص النية لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتوطين النفس على التحرر من التقليد والتعصب للأفكار والمذاهب والأشخاص.

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي. **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، تحقيق ودراسة: عبد الله يحيى السريحي، بيروت وصنعاء: دار ابن حزم ومكتبة الإرشاد، ١٩٩٨م.

(٢) السامرائي، إبراهيم. "تمهيد لغوي وتأريخي عن مصطلح «أدب الطلب»" تقديم لكتاب:
- الشوكاني، **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، مرجع سابق، ص ١٠.

الفصل الأول: الأسباب المؤدية إلى التعصب والخروج من دائرة الإنصاف.

الفصل الثاني: طبقات المتعلمين، وما ينبغي أن يتعلمه طلاب كل فئة من العلوم.

الفصل الثالث: مباحث عامة تتعلق بالقواعد الأصولية.

يكشف هذا الكتاب عن تجربة غنية للشوكاني في ممارسة عملية الإحياء والتجديد التي انشغل بها، ولذلك فقد اهتم بتشخيص مظاهر الخلل التي يعاني منها المجتمع، وسبل معالجتها، وربَّما كانت هذه ميزة الكتاب التي أكد الشوكاني عليها، ورأي أنَّها لا توجد في غير كتابه.

## ثالثاً: نصوص مختارة من "أَدَبُ الطَّلَبِ ومُنْتَهَى الأَرَبِ"

**من مقدمة المؤلف:**

أَحْمَدُك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أَثْنَيْت على نفسك، وأصلّي وأسلّم على رسولك وآله، وأسألك التثبيت والهداية، وأعوذ بك من الخذلان والغواية.

وبعد، فإنِّي قد عزمتُ، عزم الله لي على الخير، على أن أجمع في هذه الورقات ما ينبغي لطالب العلم اعتمادُه في طلبه والتحلّي به في إيرادِه وإصداره وابتدائه وانتهائه، وما يشرع فيه ويتدرج إليه حتى يبلغ مراده على وجه يكون به فائزاً بما هو الثمرة والعلة الغائية التي هي أوَّلُ الفِكْرِ وآخرُ العمل. وسمّيته أدب الطلب ومنتهى الأرب.[1]

وإنِّي أتصوَّرُ الآنَ أنَّ الكلام بمعونة الله ومشيئته لا بد أنْ يتعدّى إلى فوائدَ ومطالبَ ينتفع بها المنتهي كما ينتفع بها المبتدئ، ويحتاج إليها الكامل كما يحتاج إليها المقصّر، ويَعُدُّها المتحقِّقون بالعرفان من أعظم الهدايا.

فأوَّل ما على طالب العلم أنْ يحسن نِيَّتَه ويُصلحَ طويّتَه، ويتصورَ أنَّ هذا العمل الذي قصد له والأمر الذي أراده هو الشريعة التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، وبعث بها رسلَه، وأنزل بها كتبَه، ويُجرّد نفسَه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

الدنيا، أو يخلِطَه بما يكدِّرُه من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظفر بشيء من المال، أو الوصول إلى نوع من الشرف، أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا، أو جاه يحصّله به، فإنَّ العلم طيبٌ لا يقبل غيرَه، ولا يحتمل الشركة، ...

فإنَّ من أراد أن يجمع -في طلبه العلم- بين قصد الدنيا والآخرة فقد أراد الشطط، وغَلِط أقبح الغَلَط، فإنَّ طلبَ العلمِ مِن أشرف أنواع العبادة وأجلِّها وأعلاها، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥]، فقيّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحُها، وصحَّ عن رسول الله ﷺ حديث: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى" وهو ثابت في دواوين الإسلام كلها، وقد تلقته الأمة بالقبول، وإن كان أحادياً أجمع جميع أهل الإسلام على ثبوته وصحته.[1]...

ومن أهم ما يجب على طالب العلم تصوّره عند الشروع واستحضاره عند المباشرة، بل وفي كل وقت من أوقات طلبه مبتدياً أو منتهياً، متعلماً وعالماً أن يقرّ في نفسه أنَّ هذا العمل الذي هو بصدده هو تحصيل العلم كما شرعه الله لعباده، والمعرفة لما تعبّدهم في محكم كتابه، وعلى لسان رسوله، والوقوف على أسرار كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ. وإنَّ هذا المطلب الذي هو بسبب تحصيله ليس هو من المطالب التي يقصدها من هو طالبٌ للجاه والمال والرئاسة، بل هو مطلب يُتاجِر به الربّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وتكون غايتُه العلمَ بما بعث الله به رسلَه، وأنزل فيه كتبَه، وذلك سبب الظفر بما عند الله من خير.[2]...

وليس لك أن تعتقد أنَّ صوابَه صوابٌ لك، أو خطأه خطأ عليك، بل عليك أن توطِّن نفسَك على الجدّ والاجتهاد والبحث بما يدخل تحت طوقك، وتحيط به قدرتُك حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذي لا معدن سواه، والموطن الذي هو أوَّلُ الفِكْرِ وآخِرُ العَمَلِ، فإنْ ظفرت به فقد تدرجت من هذه البداية إلى تلك النهاية، وإن قصرت عنه لم تكن ملوماً بعد أن قررت عند نفسك،

---

(١) المرجع السابق، ص٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣-٨٤.

وأثبت في تصورك أنَّه لا حجة إلا لله، ولا حكم إلا منه، ولا شرع إلا ما شرعه، وإن اجتهادات المجتهدين ليست بحجة على أحد، ولا هي من الشريعة في شيء، بل هي مختصة بمن صدرت عنه، لا تتعداه إلى غيره، ولا يجوز له أن يَـحْمِل عليه أحداً من عباد الله، ولا يحل لغيره أن يقبلَها عنه، ويجعلَها حجة عليه يدين الله بها، فإنَّ هذا شيء لم يأذن الله به، وأمرٌ لم يسوغه لأحد من عباده، ولا يغرّك ما استدل به القائلون بجواز التقليد، فإنَّه لا دلالة في شيء مما جاءوا به على محل النزاع، وقد أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل، وهو القول المفيد في حكم التقليد فارجع إليه إن بقي في صدرك حرجٌ، فإنِّك تقف فيه على ما يريحك وينثلج به صدرك، ويفرح عنده روعك.

فإنْ قلت: وكيف يقتدر على تصوّر ما أرشدت إلى تصوره، ويتمكن من توطين نفسه على ما دللت عليه من أراد الشروع في العلم بادئ بدء، وهو إذْ ذاك لا يدري ما الشرع، ولا يتعقل الحجة، ولا يعرف الإنصاف، ولا يهتدي إلى ما هديته إليه إلا بعد أن يتمرّن ويمارس، ويكون له من العلم ما يفهم به ما تريد منه، قلت: ما أرشدتُ إليه يُعرف بمجرد العقل وسلامة الفطرة، وعدم ورود ما يرد عليها مما يغيرها وعلى فرض ورود شيء من المغيرات عليها كاعتقاد حقية التقليد ونحوه، فارتفاع ذلك يحصل بأدنى تنبيه، فإنَّ هذا أمر يقبله الطبع بأول وهلة لمطابقته للواقع وحقيته، وكل ما كان كذلك فهو مقبول، والطبائع تنفعل له انفعالاً بأيسر عمل وأقل إرشاد، وهذا أمرٌ يعلمه كل أحد، ويشترك في معرفته أفراد الناس على اختلاف طبقاتهم، ولهذا نبّه عليه الشارع فقال: (كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه، وهو ثابت في الصحيح.[1]

وإني أخبرك أيها الطالب عن نفسي تحدثاً بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم تقريباً لما ذكرتُ لك، من أنَّ هذا الأمر كامن في طبائع الناس، ثابت في غرائزهم، وإنَّه من الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها: إنِّـي لما أردت الشروع في طلب العلم، ولم أكن إذ ذاك قد عرفت شيئاً منه، حتى ما يتعلق بالطهارة والصلاة، إلا مجرّد ما يتلقّاه الصغير من تعليم الكبير

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

لكيفية الصلاة والطهارة ونحوهما، فكان أوَّلَ بحث طالعته بحثُ كون الفرجين من أعضاء الوضوء في الأزهار وشرحه؛ لأَنَّ الشيخ الذي أردت القراءة عليه والأخذ عنه كان قد بلغ في تدريس تلامذته إلى هذا البحث، فلما طالعت هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ، رأيت اختلاف الأقوال فيه، فسألت والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تلك الأقوال: أيها يكون العمل عليه؟ فقال: يكون العمل على ما في الأزهار، فقلت: هل صاحب الأزهار أكثر علماً من هؤلاء؟ قال: لا، قلت: فكيف كان اتّباع قولِه دون أقوالِـهم لازماً. فقال: اصنع كما يصنع الناس، فإذا فتح الله عليك، فستعرف ما يأخذ به وما يترك. فسألت الله عند ذلك أن يفتح عليّ من معارفه ما يتميز لي به الراجح من المرجوح، وكان هذا في أول بحث نظرتُه، وأوَّلِ موضوعٍ درستُه، وقعدت فيه بين يديِّ العلم، فاعتبرْ بهذا ولا تستبعد ما أرشدْتُك إليه، فتحرمَ بركةَ العلم، وتمحق فائدته.

ثم ما زلت بعد ذلك كما وصفت لك، أنظر في مسائل الخلاف وأدرسها على الشيوخ، ولا أعتقد ما يعتقده أهل التقليد من حقية بعضها بمجرد الإلف والعادة والاعتقاد الفاسد، والاقتداء بمن لا يُقتدىٰ به، بل أسائل من عنده علم بالأدلة عن الراجح، وأبحث في كتب الأدلة عن كلِّ ما له تعلُّقٌ بذلك، وأسترَوْح إليه، وأتعلَّل به من الجد في الطلب واستغراق الأوقات في التعلّم، خصوصاً علوم الاجتهاد وما يلتحق بها، حتىٰ فتح الله بما فتح، ومنح ما منح، فله الحمد كثيراً، حمداً لا يحاط به، ولا يمكن الوقوف عن كنهه.

فإنْ وطَّنْتَ نفسك أيَّها الطالب على الإنصاف، وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء، بل جعلتَ الناس جميعاً بمنزلة واحدة في كونهم منتمين إلى الشريعة محكوماً عليهم بما لا يجدوا لأنفسهم عنها مخرجاً ولا يستطيعون متحولاً، فضلاً عن أن يرتقوا إلى ما هو فوق ذلك من كونه يجب على أحد من الأمة العمل على رأي واحد منهم، أو يلزمه تقليده وقبول قوله، فقد فزت بأعظم فوائد العلم، وربحت بأنفس فرائده. ولأمر ما جعل رسول الله ﷺ المنصفَ أعلم الناس، وإن كان مقصراً. فإنَّه أخرج الحاكم في المستدرك وصححه مرفوعاً: "أعرف الناس أبصرهم بالحق إذا

اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل، وإن كان يزحف على إسته" هكذا في حفظي، فليراجع المستدرك فانظر كيف جعل ﷺ المنصف أعلم الناس، وجعل ذلك هو الخصلة الموجبة للأعلمية، ولم يعتبر غيرها، وإنّما كان أبصر الناس بالحق إذا اختلف الناس؛ لأنَّه لم يكن لديه هوىٰ ولا حميّة ولا عصبية لمذهب من المذاهب، أو عالم من العلماء، فصفت غريزته عن أن تتكدر بشيء من ذلك.[1]...

## الفصل الأول

## الأسباب المؤدية إلىٰ التعصب، وإلىٰ الخروج عن دائرة الإنصاف

واعلم أنَّ أسباب الخروج عن دائرة الإنصاف، والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جداً.

### أولاً: أثر البيئة، والتنشئة الاجتماعية، وقصور العلماء عن أداء رسالتهم

فمنها وهو أكثرها وقوعاً وأشدها بلاءً: أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلُها بمذهب معين، واقتدوا بعالم مخصوص، وهذا الداء قد طبّق في بلاد الإسلام وعمَّ أهلَها، ولم يخرج عنه إلا أفراد قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة، وقد لا يوجد؛ لأَنَّ هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنَّها هي الشريعة، وأنَّ ما خرج عنها خارجٌ عن الدين مباينٌ لسبيل المؤمنين، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٢]، فأهل هذا المذهب يعتقدون أنَّ الحقَّ بأيديهم، وأنَّ غيرهم علىٰ الخطأ والضلال والبدعة، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك.

والسبب أنَّهم نشأوا فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم علىٰ ذلك ورِثَهُ الخلفُ عن السلف، والآخِرُ عن الأوَّلِ، وانضم إلىٰ ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق، بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم. وإذا وُجد فيهم من يعرف الحق والمحقين فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه، وأقرب قرابته، فضلاً عن غيره؛ لما يخافه علىٰ نفسه، أو علىٰ ماله، أو علىٰ جاهه، بحسب اختلاف المقاصد، وتباين العزائم الدينية، فيحصل من قصور هؤلاء مع تغيّر فطرهم بمن أرشدهم إلىٰ البقاء علىٰ ما هم

---

(١) المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

عليه، وأنَّه الحق وخلافه الباطل، وسكوت من له فطنة، ولدينه عرفان، وعنده إنصاف عن تعليمهم معالم الإنصاف، وهدايتهم إلى طرق الحق، ما يوجب جمودهم على ما هم عليه، واعتقادهم أنَّ الحقَّ مقصور عليه، منحصر فيه، وأنَّ غيره ليس من الدين، ولا هو من الحق.[1]...

وإنِّي أخبرك أيها الطالب عن نفسي، وعن الحوادث الجارية بيني وبين أهل عصري، ليزداد يقينك وتكون على بصيرة فيما أرشدتك إليه: اعلم أنِّي كنت عند شروعي في الطلب على الصفة التي ذكرتها لك سابقاً، ثم كنت بعد التمكن من البحث عن الدليل والنظر في مجاميعه أذكر في مجالس شيوخي ومواقف تدريسهم، وعند الاجتماع بأهل العلم ما قد عرفته من ذلك، لا سيما عند الكلام في شيء من الرأي مخالف الدليل، أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف، وترك الدليل القوي، أو أخذ بدليل عام وبعمل خاص، أو بمطلق وطرح المقيد، أو بمجمل ولم يعرف المبيّن، أو بمنسوخ ولم ينتبه للناسخ، أو بأول ولم يعرف بآخر، أو بمحض رأي ولم يبلغه أنَّ في تلك المسألة دليلاً يتعين عليه العمل به، فكنت إذا سمعت بشيء من هذا لا سيما في مواقف المتعصبين ومجامع الجامدين، تكلّمت بما بلغَتْ إليه مقدرتي، وأقل الأحول أن أقول: استدلَّ هذا بكذا، وفلان المخالف له بكذا، ودليل فلان أرجح لكذا، فما زال أسْرَىٰ التقليدِ يستنكرون ذلك ويستعظمونه لعدم الفهم به، وقبول طبائعهم له حتىٰ ولّد ذلك في قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم.[2]

ثم كنت إذا فرغت من أخذ فنٍّ من الفنون أو مصنف من المصنفات على شيوخي أقْبَلَ جماعةٌ من الطلبة إليَّ وعوّلوا عليّ في تدريسهم في ذلك، فكان يأخذ أترابي شيئاً من الحسد الذي لا يخلو عنه إلا القليل. ثم تكاثر الطلبة عليَّ في علوم الاجتهاد وغيرها، وأخذوا عَنِّي أخذاً خالياً عن التعصّب، سالماً من الاعتساف، فكنتُ أقرر لهم دليل كل مسألة، وأوضح لهم الراجح فيها، وأصرّح لهم بوجوب المصير إلى ذلك.

---

(١) المرجع السابق، ص٩١-٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨.

وكانوا قد تمرّنوا وعرفوا علوم الاجتهاد، وذهب عنهم ما تكدرت به فطرهم من المغيّرات، فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسداً وبُغضاً، وأطلقوا ألسنتهم بذلك، وكان مع ذلك ترد إليَّ أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين بصنعاء، وغيرهم من أهل البلاد البعيدة والمدائن النائية، فأحرر الجوابات عليهم في رسائل مستقلة، ويرغب تلامذتي لتحصيل ذلك، وتنتشر في الناس، فإذا وقف عليه المتعصبون ورأوه يخالف ما يعتقدون، استشاطوا غضباً، وعرضوا ذلك على مَن يرجون منه الموافقة والمساعدة، فمِنْ ثالبٍ بِلِسَانِه، ومُعْتَرِضٍ بقلمه، وأنا مصمّم على ما أنا فيه، لا أنثني عنه، ولا أميل عن الطريقة التي أنا فيها. وكثيراً ما يرفعون ذلك إلى من لا علم عنده من رؤساء الدولة، الذين لهم في الناس شهرةٌ وصولة، فكان في كل حين يبلغني من ذلك العجب، ويناصحني من يُظهر ليَ المودةَ ومن لا تخفى عليه حقيقة ما أقولُه وحقيَّتُه، مع اعترافهم بأنَّ ما أسلكه هو ما أخذه الله على الذين حملوا الحجة، لكنهم يتعللون بأن الواجب يسقط بدون ذلك. ويذكرون أحوال أهل الزمان وما هم عليه وما يخشونه من العواقب، فلا أرفع لذلك رأساً، ولا أعوّل عليه.

وكنت أتصور في نفسي أنَّ هؤلاء الذين يتعصبون عليّ ويشغلون أنفسهم بذكري والحطِّ عليَّ، هم أحد رجلين: إمَّا جاهلٌ لا يدري أنَّه جاهل ولا يهتدي بالهداية ولا يعرف الصواب، وهذا لا يعبأ الله به، أو رجلٌ متميز له حظ من علم، وحصة من فهم، لكنَّه قد أعمى بصيرتَه الحسدُ، وذهب بإنصافه حبُّ الجاه، وهذا لا ينجع فيه الدواء ولا تنفع عنده المحاسنة، ولا يؤثر فيه شيء، فما زلت على ذلك وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرة والمصلحة العائدة على ما أنا فيه، بما هم فيه أكثر من المفسدة[1]..

**ثانياً: تزلّف بعض العلماء للسلطة، وإخضاع الدين لهواها طمعاً في المال والمناصب**

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف، ويصدر عنها البعد عن الحق وكتم الحجة، وعدم ما أوجبه الله من البيان: حب الشرف والمال اللذين هما

(١) المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠.

أعدىٰ علىٰ الإنسان من ذئبين ضاريين، كما وصف ذلك رسول الله ﷺ.[1] فإنَّ هذا هو السبب الذي حرّف به أهل الكتاب كُتب الله المنزلة علىٰ رسله، وكتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدىٰ، كما وقع من أحبار اليهود. وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز، وأخبرنا به رسول الله ﷺ، في الثابت عنه في الصحيح. وبهذا السبب بقي من بقي علىٰ الكفر من العرب وغيرهم، بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحقّ لهم. وبه نافق من نافق. ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ، وكم من عالم قد مال إلىٰ هوىٰ ملك من الملوك، فوافقه علىٰ ما يريد، وحسَّن له ما يخالف الشرع، وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب، بل قد وضع بعض المحدثين للملوك أحاديث عن رسول الله ﷺ، كما وقع من وهب بن وهب البختري مع الرشيد، ووقع من آخر في حديث لا سبق إلا في خفّ أو حافر أو نصل، فزاد في الحديث أو جناح، موافقة للملك الذي رآه يلعب بالحمام ويسابق بينها. ووضع جماعة مناقب لقوم وآخرون مثالب لآخرين، لا حامل لهم علىٰ ذلك إلا حبُّ الدنيا والطمع في الحطام، والتقرب إلىٰ أهل الرئاسة، بما يَنْفُقُ لديهم، ويروج عليهم. نسأل الله الهداية والحماية من الغواية.[2]...

ومن غريب ما أحكيه لك من تأثر هوىٰ الملوك والميل إلىٰ ما يوافق ما يَنْفُق عندهم: واقعةٌ معي مشاهدة لي، وإنْ كانت الوقائع في هذا الباب لا يأتي عليها الحصر،

---

(١) لعل الشوكاني يشير إلىٰ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث: "ما ذئبان ضاريان (وفي رواية جائعان) باتا في غنم بأفسد لها من حب ابن آدم الشرف والمال." وقد شرح هذا الحديث ابن رجب الحنبلي في رسالة خاصة. انظر:

- الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة. **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م، ج٤، ص١٦٦، حديث رقم: (٢٣٧٦).
- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ج١، ص٧١١، حديث رقم: (١٢٨٩).
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد. **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، دراسة وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، رسالة: "شرح حديث: ما ذئبان جائعان"، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ج١، ص٦١-٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٦-١٠٧.

وهي مودعةٌ بطون الدفاتر، معروفةٌ عند من له خبرة بأحوال من تقدّم. وذلك أنَّه عقد خليفةُ العصر حفظه الله مجلساً جمع فيه وزراءه وأكابر أولاده وكثيراً من خواصه، وحضر هذا المجلس من أهل العلم ثلاثةٌ، أنا أحدهم، وكان عقد هذا المجلس لطلب المشورة في فتنة حدثت، بسبب بعض الملوك، ووصول جيوشه إلى بعض الأقطار الإمامية،[1] وتخاذل كثير من الرعايا واضطرابهم وارتجاف اليمن بأسره بذلك السبب، فأشرت على الخليفة بأنَّ أعظمَ ما يُتوصل به إلى دفع هذه النازلة هو العدل في الرعية، والاقتصار في المأخوذ منهم على ما ورد به الشرع، وعدم مجاوزته في شيء، وإخلاص النية في ذلك، وإشعار الرعية في جميع الأقطار والعزم عليه على الاستمرار، فإنَّ ذلك من الأسباب التي تدفع كل الدفع وتنجع أبلغ النجع، فإنَّ اضطراب الرعايا ورفع رؤوسهم إلى الواصلين ليس إلا لما يبلغهم من اقتصارهم على الحقوق الواجبة، وليس ذلك لرغبة في شيء آخر. فلما فرغت من أداء النصيحة، انبرى أحد الرجلين الآخرين، وهو ممن حظي من العلم بنصيب وافر، ومن الشرف بمرتبة عليّة، ومن السن بنحو ثمانين سنة، وقال: إنّ الدولة لا تقوم بذلك، ولا تتم إلا بما جرت به العادة من الجبايات ونحوها، ثم أطال في هذا بما يتحير عنده السامع، ويشترك في العلم بمخالفته للشريعة العالم والجاهل، والمقصر والكامل،... فانْظرْ أرشدك الله ما مقدار ما قاله هذا القائل في ذلك الجمع الحافل الذي شمل الإمام وجميع المباشرين للأعمال الدولية والناظرين في أمر الرعية، ولم ينتفع هذا القائل بمقالته، لا بزيادة جاه ولا مال، بل غاية ما استفاده ونهاية ما وصل إليه اجتماع الألسن على ذمّه، واستعظام الناس لما صدر منه.

وهكذا جرت عادة الله في عباده، فإنَّه لا ينال من أراد الدنيا بالدين، إلا وبالاً وخسراناً، عاجلاً وآجلاً، خصوصاً من كان من الحاملين لحجة الله المأمورين بإبلاغها إلى العباد. فإنَّ خيره في الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه على حدود الشريعة، فإنْ زاغ عنها زاغ عنه. وقد صرّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يفيد هذا في غير موضع من كتابه العزيز.

---

(١) هو جيش ابن سعود الذي استولت قواته على عسير عام (١٢١٧هـ)، وتمكنت من التوغل إلى تهامة فاستولت على الحديدة وزبيد وحيس، واستمرت سيطرتها على هذه المناطق حتى عام (١٢٣٤هـ) عندما أخرجتها قوات محمد علي باشا، وقد وثق ذلك الشوكاني في البدر الطالع.

فأنت أيها الحامل للعلم، لا تزال بخير ما دمت قائماً بالحجة، مرشداً إليها، ناشراً لها، غير مستبدل بها عرضاً من أعراض الدنيا أو مرضاةً من أهلها.[1]

**ثالثاً: الجدل والمراء وحب الظهور والغلب:**

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف وكتم الحق وغمط الصواب ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء. فإنَّ الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك، ومعرفة بالحق ورغوب إليه، فيخطئ في المناظرة، ويحمله الهوىٰ ومحبة الغلب وطلب الظهور علىٰ التصميم علىٰ مقاله، وتصحيح خطئه، وتقويم معوجّه بالجدال والمراء. وهذه الذريعة الإبليسية والدسيسة الشيطانية قد وقع بها من وقع في مهاو من التعصبات، ومزالق من التعسفات، عظيمة الخطر مخوفة العاقبة. وقد شاهدنا من هذا الجنس ما يقضىٰ منه العجب، فإنَّ بعض من يسلك هذا المسلك، قد يجاوز ذلك إلىٰ الحلف بالإيمان علىٰ حقيقة ما قاله، وصواب ما ذهب إليه. وكثيرٌ منهم يعترف بعد أن تذهب عنه سَوْرَةُ الغضب وتزول عنه نَزْوَة الشيطان، بأنَّه فعل ذلك تعمداً مع علمه بأنَّ الذي قاله غير صواب. وقد وقع مع جماعة من السلف من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر، وصار ذلك مذاهب تُروىٰ وأقوال تُحكىٰ، كما يعرف ذلك من يعرفه.[2]

**رابعاً: التعصب للآباء والأجداد**

ومن الأسباب المقتضية للتعصب: أنْ يكون بعضُ سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول، ومال إلىٰ رأي، فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمِلُه حبُّ القرابة علىٰ الذهاب إلىٰ ذلك المذهب، والقول بذلك القول، وإنْ كان يعلم أنَّه خطأ. وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه إنَّه صحيح، ويتطلب له الحجج ويبحث عما يقوّيه، وإنْ كان بمكان من الضعف ومحل من السقوط، وليس له في هذا حظ ولا معه فائدة، إلا مجرّد المباهاة لمن يعرفه، والتزيُّن لأصحابه بأنَّه في العلم معرِق، وأنَّ بيتَه قديم فيه.[3]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٩- ١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١١.

ولقد رأيت من أهل عصري في هذا عجباً، فإنَّ بعض من جمعني وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد يتعصّب لبعض المصنفين من قرابته تعصباً مفرطاً؛ حتى إنَّه إذا سمع من يعترض عليه أو يستبعد شيئاً قاله اضطرب وتزبَّد وجْهُه، وتغيّرت أخلاقه، سواء عليه من اعترض بحق أو بباطل، فإنَّه لا يقبل سمعه في هذا كلاماً، ولا يسمع من نصيح ملاماً. ومع هذا فهو بمحل من الإنصاف ومكان من العرفان قد تحصلت له علوم الاجتهاد تحصلاً قوياً، ونظر في الأدلة نظراً مشبعاً، وكان صدور مثل هذا منه يحملني في سن الحداثة وشرخ الشباب على تحرير مباحث أنقض بها رسائل ومسائل من كلامِ قَرِيبِهِ، قاصداً بذلك إيقاظَه، وردَّه إلى صوب الصواب. وكنت إذا أردتُ إغضابَه أو الانتصاف منه ذكرت بحثاً من تلك الأبحاث أو مسألة من تلك المسائل التي اعترضتها.[1]...

**خامساً: أثر الدولة في فرض المذهب الذي يخدم مصلحتها ويدعم شرعيتها**

فالناشيء في دولة ينشأ على ما يتظهّر به أهلها ويجدُ عليه سلَفَه، فيظنُّه الدينَ الحقَّ والمذهب العدل، ثم لا يجدُ من يُرشدُه إلى خِلافَه إن كان قد تظهّر أهْلُه بشيء من البدع، وعملوا على خلاف الحق؛ لأَنَّ الناس إمَّا عامَّةٌ، وهم يعتقدون في تلك البدع التي نشأوا عليها ووجدوها بين ظهرانيهم، أنَّها هي الدين الحق والسنة القويمة والنحلة الصحيحة، وإمَّا خاصةٌ، ومنهم من يترك التكلّم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلِها، بل وعامَّتِها، فإنَّه لو تكلم بشيء خلاف ما قد عملوا عليه ونشروه في الناس لخشي على نفسه وأهله وماله وعرضه. ومنهم من يترك التكلُّم بالحق محافظة على حظٍ قد ظفر به من تلك الدولة، من مال أو جاه. وقد يترك التكلّم بالحقِّ الذي هو خلاف ما عليه الناس استجلاباً لخواطر العوام، ومخافة من نفورهم عنه. وقد يترك التكلّم بالحق لطمعٍ يَظُــنُّه، ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس في مستقبل الزمان، كمن يطمع في نيلِ رئاسةٍ من الرئاسات ومنصبٍ من المناصب، كائناً ما كان، ويرجو حصول رزق من السلطان أو أية فائدة، فإنَّه يخاف أن

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

تفوت عليه هذه الفائدة المظنونة والرئاسة المطموع فها، فيتظَهَّرُ بما يوافق الناس ويَنْفُق عندهم، ويميلون إليه ليكون له ذلك ذخيرة، ويداً عندهم ينال بها عرض الدنيا الذي يرجوه.[1]...

ولقد جاءت هذه الأزمنة في ديارنا هذه بما لم يكن في حساب، ولا خطر ببال إبليس أن يكون له مثل هذه البطانة، ولا ظن أنَّه ينجح كيده فيهم إلى هذا الحد، ويبلغون في طاعته هذا المبلغ، فإنَّ غالبَهم قد ضمّ إلى ما قدمنا من أوصافه وصفاً أشدَّ منها وأشنعَ وأقبح، وهو أنَّه إذا سمع قائلاً يقول: قال رسول الله، أو يملي سنداً فيقول: حدثنا فلان عن فلان، قامت قيامته، وثار شيطانه، واعتقد أنَّ هذا صنع أعداء أهل البيت المناصبين لهم العداوة المخالفين لهديهم.[2]...

فانظر ما صنع هذا الشيطان، فإنَّ في نسبته للمشتغلين بالسنة المطهرة إلى مخالفة أهل البيت طعناً عظيماً على أهل البيت؛ لأنَّه جعلهم في جانب والسنة في جانب آخر، وجعل بينهما عناداً وتخالفاً، فانظر هذا الشيعي المحب لأهل البيت، القائم في نشر مناقبهم، كان أول ما قرره من مناقبهم النداء في الناس بأن من عمل بالسنة المطهرة أو رواها أو أحبها فهو مخالف لأهل البيت، وحاشى لأهل البيت أنْ يكونوا كما قال، فهم أحقُّ الأمَّة باتِّباع سنة رسول الله ﷺ، والاهتداء بهديه، والاقتداء بكلامه...

فقبح الله أهل البدع وقلّل عددهم وأراح منهم، فإنَّهم أضرّ على الشريعة من كلِّ شيء، قد شغلوا أنفسهم بمسائل معروفة هي رأس مذهبهم وأساسه، وتركوا ما عدا ذلك، وعابوه، وعادوا أهله. انظر الرافضة فإنَّك تجد أكثر ما لديهم وأعظم ما يشتغلون به ويكتبونه ويحفظونه مثالب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المكذوبة عليهم، ليتوصلوا بذلك إلى ما هو غاية ما لديهم من السبّ والثلب لهم، صانَهم اللهُ وكبت مُبْغِضِيهم، ثم يعتبرون الناس جميعاً بهذه المسألة، فمن وافقهم فيها فهو المسلم حقاً، المحق وإن فعل ما فعل، ومن خالفهم في هذه المسألة فهو المبطل المبتدع، وإن كان على جانب من

---

(١) المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٥.

الورع وحظ من التقوى لا يقادر قدرهما، وقد يضمّون إلى هذه المسألة بجمع الصلوات، وترك الجُمَع، كما قلته في أبيات:

تشيُّعُ الأقوام في عصرنا ... منحصر في بدع تبتدعْ
عداوةُ السنة والثَّلْب للأ ... سلاف والجَمع وترك الجُمَعْ

وأما معيار التشيّع في ديارنا هذه عند جماعة من الزيدية، لا عند جميعِهم، فيزيدون على هذه الأربع خامسة، وهي التظهر بترك بعض من سنن الصلاة بالرفع والضم، فإنَّ أهل الطبقة التي ذكرنا لك أنَّها أصل الشر إذا رأوا من يفعل الرفع والضم ونحوهما كالتوجه في الصلاة بعد التكبيرة والتورّك في التشهد الأخير والدعاء في الصلاة بغير ما قد عرفوه، عادُوه عداوةً أشدَّ من عداوتهم لليهود والنصارى، وظنُّوا أنَّه على شريعة آخرة، وعلى دين غير دين الإسلام، وأوقعوا في أذهان العوام أنَّه ناصِبِيّ، فانتقلوا من فعله لهذه السنن أو أحدها إلى النصب الذي هو بُغض عليّ، وحكموا عليه حكماً جازماً، فانظر هذا الصنع الشنيع، الذي هو شبيه بلعب الصبيان.[1]...

**سادساً: إصرار البعض على التمسك بالخطأ، وعدم التراجع عنه بعد معرفتهم للحق والصواب**

ومن آفات التعصب الماحقة لبركة العلم أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة كما يصدر ممن يفتي أو يصنّف أو يناظر غيره، ويشتهر ذلك القول عنه، فإنَّه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه، وإنْ علم أنَّه الحق، وتبيَّن له فساد ما قاله. ويرجع ذلك لعدة أسباب:

**أ- الخوف على سمعته، ومكانته العلمية**

ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين، فإنَّه قد يسوّل له الشيطان أو النفس الأمارة أنَّ ذلك ينقصه ويحط من رتبته ويخدش في تحقيقه، ويغضّ من رئاسته، وهو تخيُّلٌ مُـخْتَلٌّ، وتسويل باطل، فإنَّ الرجوع إلى الحق هو يوجب له من

(١) المرجع السابق، ص١٣٧.

الجلالة والنَّبَالَة، وحُسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محضُ النقص له، والازدراء عليه، والاستصغار لشأنه.[1]...

**ب- بدافع الكبر إذا كان صاحب الرأي الصواب أصغرَ منه سناً أو أقلَّ شهرة**

ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السن بالنسبة إلى من يناظره أو قليل العلم أو الشهرة في الناس، والآخر بعكس ذلك، فإنَّه قد تحمِلُه حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أَنَفَةً منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً، أو أقل منه علماً، أو أخفى شهرة، ظناً منه أنَّ في ذلك عليه ما يحط منه وينقص ما هو فيه. وهذا الظن فاسد، فإنَّ الحطَّ والنقص إنَّما هو في التصميم على الباطل، والعلو والشرف في الرجوع إلى الحق بيد من كان، وعلى أي وجه حصل.

**ج- ما يقع في مجالس العلم من الطلاب أو الشيوخ من المجاملة**

ومن الآفات ما يقع تارةً من الشيوخ وأخرى من تلامذتهم، فإنَّ الشيخ قد يريد التظهُّر لمن يأخذ عنه بأنَّه بمحَلٍ من التحقيق وبمكان من الإتقان، فيحمله ذلك على دفع الحق، إذا سبق فهمه إلى الباطل، لئلا يظن من يأخذ عنه أنَّه يخطئ ويغلط، وهو لو عرف ما عند ذلك الذي يأخذ عنه العلم أنَّ رجوعه عن الخطأ إلى الصواب أعظم في عينه وأجلّ عنده، وزاده ذلك رغبة فيه ومحبة له، وإذا استمر على الغلط وصمّم على الخطأ كان عنده دون منزلة الرجوع إلى الحق بمنازل. وهكذا التلميذ قد يخطر بباله التزيُّنُ لشيخه والتجمُّل عنده بأنَّه قوي الفهم سريع الإدراك صادق التصور، فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ والتشبث بما وقع له من الغلط...

وهكذا علة التعصب فإنَّه إذا عرف سببه أمكن الخروج منه باجتنابه، وإنْ لم يَعْرِف سأل أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب، فإنَّه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفا، وأقرب نفعاً، وأنجع برءاً مما يجده العليل عند الأطباء.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٢-١٤٣.

**سابعاً: رد المصنفين المتمسكين بالمذاهب لكل ما يخالف قواعد مذهبهم من الأدلة**

ومن جملة أسباب التعصب التي لا يشعر بها كثير من المشتغلين بالعلوم ما يذكره كثير من المصنفين من أنَّه يرد ما خالف القواعد المقررة. فإنَّ من لا عناية له بالبحث يسمع هذه المقالة ويرىٰ ما صنعه كثير من المصنفين من رد الأدلة من الكتاب والسنة إذا خالفت تلك القاعدة، فيظن أنها في اللوح المحفوظ، فإذا كشفها وجدها في الغالب كلمة تكلم بها بعض من يعتقده الناس من أهل العلم، الذين قد صاروا تحت أطباق الثرىٰ لا مستند لها إلا محض الرأي، وبحت ما يُدَّعىٰ من دلالة العقل.

وكثيراً ما تجد في علم الكلام الذي يسمونه أصول الدين قاعدة قد تقرّرت بينهم واشتهرت، وتلقنها الآخر من الأول وجعلوها جسراً يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإذا كشفت عنها وجدتها في الأصل كلمة قالها بعض حكماء الكلام، زاعماً أنَّه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه، وليس إلا مجرد الدعوىٰ علىٰ العقل وهو عنه برئ، فإنَّه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده، بل قضىٰ به عقل قد تدنّس بالبدع وتكدر بالتعصُّب وابتلي بالجهل بما جاء به الشرع، وجاء بعده من هو أشد بلاء منه وأسخف عقلاً، وأقلّ علماً وأبعد عن الشرع، فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية، فدفع بها جميع ما جاء عن الشارع. عرف هذا من عرفه وجهله من جهله، ومن لم يعرف هذا فليتهم نفسه!

فيا لله العجب من فرية يفتريها علىٰ العقل بعض من حُرم علم الشرع، ثم يأتي من بعده فيجعلَها أصولاً مقررة وقواعد محررة، ويؤثرُها علىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ، وقول أنبيائه.

وهكذا تجد في علم أصول الفقه قاعدة قد أخذها الآخر عن الأول، وتلقنها الخلف عن السلف، وبنوا عليها القناطر، وجعلوها إماما لأدلة الكتاب والسنة، يجيزون ما أجازته ويردون ما ردته، وليست من قواعد اللغة الكلية ولا من القوانين الشرعية، بل لا يستند لها إلا الخيال المختل والظن الفاسد والرأي البحت، ومع هذا فهم يزعمون أنَّ هذا العلم لا تقبل فيه إلا الأدلة القطعية دعوىٰ ظاهرة البطلان

واضحة الفساد، فإنَّ غالبها لا يوجد عليه دليل من الآحاد صحيح ولا حسن، بل لا يوجد أحادي ضعيف وغالب ما يوجد الموضوعات التي لا يمترئ من له حظ من العلم في كذبها؛ كاستدلالهم بمثل: "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة"، وبمثل: "نحن نحكم بالظاهر"، ونحو هذه الأكاذيب، فالمغرور من اغتر بهذه الدَّلَسْ، والمخدوع من خدع بها، وترقى بها من كونها موضوعة إلى كونها صحيحة، ثم من كونها صحيحة إلى كونها قطعية فيا لله العجب من نَفَاقِ مثل هذه الأمور على كثير من أهل العلم، وانقراض القرن بعد القرن والعصر بعد العصر، وهي عندهم مسائل قطعية وقواعد مقررة. والذنب لمن تكلم بها وذكرها في مؤلفاته، ولم يقف حيث أوقفه الله من جهله بما جاء في الشريعة.

وهكذا ما وقع في كثير من أبواب الفقه من ذكر قواعد يطْرُدُونَها في جميع المسائل، ويظنون أنَّها من قواعد الشرع الثابتة بقطعيات الشريعة ومن كشف عن ذلك وجد أكثرها مبْنِيَّاً عل محض الرأي الذي ليس عليه إثارة من علم ولا يرجع إلى شيء من الشرع، ومن خفى عليه هذا فليعلم أنَّ قصوره وعدم اشتغاله بالعلم هو الذي جَنَى عليه وغرّه بما لا يغتر به من عضَّ على العلم بناجذه وكشف عن الأمور كما ينبغي.[1]...

**ثامناً: الاعتماد على الأدلة التي يحتج به المتعصبون لأنفسهم أو ضد خصومهم، وعدم الرجوع إلى المصادر الأصلية**

ومن أسباب الوقوع في غير الإنصاف، والتمسك بذيل من الاعتساف أنَّ يأخذ طالب الحق أدلة المسائل من مجاميع الفقه التي يعتزي[2] مؤلِّفُها إلى مذهب من المذاهب. فإنَّ من كان كذلك يبالغ في إيراد أدلة مذهبه، ويطيل ذيل الكلام عليها، ويصرح تارة بأنَّها أدلة، وتارة بأنَّها حجج، وتارة بأنَّها صحيحة، ثم يطفف لخصمه المخالف فيورد أدلته بصيغة التمريض، ويعنونها بلفظ الشُّبَهِ، وما يؤذي هذا المعنى.

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٨.

(٢) ينتسب أو يعزو نفسه.

فإذا اقتصر طالب الحق على النظر في مثل هذه المؤلفات وقع في الباطل وهو يظنه الحق، وخالف الحق وهو يظنه الباطل، والذي أوقعه في ذلك اقتصاره في البحث والنظر على ذلك الكتاب الذي ألفه ذلك المتعصب، وإحسان الظن به، وغفوله عن أنَّ مواطن الأدلة هي مجاميع الحديث كالأمهات، وما يلتحق بها وأنَّ هؤلاء هم أهل العلم وأربابه الذين يعرفون صحيحة من فاسده كما قدمنا الإشارة إلى هذا.

ولا بأس بأنْ ينظر طالب الحق في كتب العلماء المشهورين بالإنصاف الذين لم يتعصبوا لمذهب من المذاهب، ولا انتسبوا إلى عالم من العلماء، فإنَّه يستفيد بمطالعة مؤلفات المصنفين كيفية العمل عند التعارض، ويهتدي إلى مواقع الترجيح ومواطن ما يحق من الاجتهاد على الوجه المطابق.

وهكذا كتب الكلام وأصول الفقه، فإنَّ كل طائفة تصنع هذا الصنع في الغالب فتصف ما يوافق مذهبها بالحجج القواطع والأدلة الراجحة، وتطفِّفُ للمخالف فتورد له ما لا يعجزون عن جوابه ودفعه، ويتركون ما لا يتمكنون من دفعه، وقد يذكرونه على وجه فيه مدخل للدفع ويلصقون به ما يفتح فيه أبواب المقال، فليحذر المصنف من الركون على ما يورده المتمذهبون لأنفسهم ولخصومهم من الحجج، فإنَّه قد علق بكل طائفة من العداوة للأخرى ما يوجب عدم القبول من بعضهم في بعض.

وبالجملة فليْس المتعصبُ بأهلٍ لأَنَّ يُؤْخَذَ الحق من مؤلفاته، فإنَّه إذا لم ينتفع بالعلم ويهتدي بما عرف منه فكيف يهتدي به غيره أو يتوصل بما جمعه إلى ما هو الحق؟ فالمصاب بالعمى لا يقود الأعمى، فإنْ فعل كانت ظلمات بعضها فوق بعضه والمريض لا يداوي من هو مصاب بمثل مرضه، ولو كان صادقاً فيما يزعمه من اقتداره على المداواة كانت نفسه التي بين جنبيه أحق بذاك منه.[1]

**تاسعاً: التقليد في علم الجرح والتعديل**

ومن جملة الأسباب المانعة من الإنصاف التقليد في علم الجرح والتعديل لمن فيه عصبية من المصنفين فيه كما يجده اللبيب كثيراً. فإنَّه إذا تصدّى لذلك بعض المصابين

(١) المرجع السابق، ص١٦٨-١٦٩.

بالتقليد كان العدل عنده من يوافقه في مذهبه الذي يعتقده، والمجروح من خالفه كائناً من كان، ومن خفي عليه فلينظر ما في مصنفات الحفاظ بعد انتشار المذاهب وتقيد الناس بها.

وكذلك ما في كتب المؤرخين، فإنَّ الموافقة في المذهب حاملةٌ على تَرْكِ التعرُّضِ لموجبات الجرح وكتم الأسباب المقتضية لذلك، فإنْ وقع التعرّض لشيء منها نادراً أكثر المصنف من التأويلات والمراوغات والتعسفات الموجبة لدفع كون ذلك الخارج خارجاً، وإنْ كان الكلام على أحوال المخالف كان الأمر بالعكس من ذلك، فالفضائل مغموطة، والرذائل منشورة، من غير تأويل ولا إحسان ظنٍّ.

وبالجملة، فالاهتمام في الموافق بذكر المناقب دون المثالب، وفي المخالف بالعكس من ذلك. ولا أقول إنَّهم يتعمدون الكذب ويكتمون الحق، فهم أعلى قدراً وأشدُّ تورعاً من ذلك، ولكن رسخ في قلوبهم حبُّ مذاهبهم فأحسنوا الظنَّ بأهلها، ونفرت أنفسهم عن مذاهب غيرهم، فأساؤوا الظنَّ بأهلها، فتسبَّب عن ذلك ما ذكرنا، ولم يشعروا بأنَّ هذا الصنيع من أشد التعصب وأقبح الظلم، بل ظنّوا أنَّ ذلك من نصرة الدين ورفع منار المحقين، ووَضْعِ أمر المبطلين؛ غفلةً منهم وتقليداً. وقد يقع ذلك بين أهل المذهب الواحد مع اتفاقهم في التقليد لإمام واحد، واعتقادِهم بمعتقد واحد، فإذا تصدّى أحدُهم لتراجم أهل مذهبه أطال ذيل الكلام عند ذكر شيوخه وتلامذته بكل ما يقدر عليه، وكذلك يوسع نطاق المقام عند ترجمته لمن له عليه أي يد كانت، فإذا ترجم غير شيوخه وتلامذته وأهل مودته طفف لهم تطفيفاً، وأوسعهم ظلماً وحيفاً، وإذا كان هذا مع الاتفاق في المذهب والمعتقد فما ظنك بما يكون مع الاختلاف في المذهب والاتفاق في التسمي باسم واحد إما باعتبار الاعتقاد، أو باعتبار أمر آخر، كأهل المذاهب الأربعة، فإنهم اختلفوا في المذاهب مع اتفاقهم على أنَّـهم أهل السنة، واشتراك غالبهم في اعتقاد قول الأشعري، فإنَّ دائرة الأهوية، حينئذ تتسع ومحبة العصبية تكثر، كما تراه كثيراً في تراجم بعضهم لبعض خصوصاً فيما بين الحنابلة ومن عداهم من أهل المذاهب الأربعة، وكذلك فيما بين الحنفية ومن عداهم، ومن نظر في ذلك بعين الإنصاف علم بالصواب.[1]...

(١) المرجع السابق، ص١٧٠-١٧٢.

**عاشراً: الحسد والمنافسة بين الأقران.**

ومن الأسباب المانعة من الإنصاف ما يقع من المنافسة بين المتقاربين في الفضائل أو في الرئاسة الدينية أو الدنيوية، فإنَّه إذا نفخ الشيطان في أنفهما، وترقت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك، وإن كان صحيحاً جارياً على منهج الصواب.

وقد رأينا وسمعنا من هذا القبيل عجائب صنع فيها جماعة من أهل العلم صنيع أهل الطاغوت، وردوا ما جاء به بعضهم من الحق وقابلوه بالجدال الباطل والمراء القاتل.

وإني لأذكر أيام اشتغال الطلبة بالدرس عليَّ في كثير من العلوم، وكنت أجيب عن مسائل ترد عليَّ يحررها الطلبة، ويحررها غيرهم من أهل العلم من أمكنة قريبة وبعيدة، فكان يتعصّب على تلك الأجوبة جماعةٌ من المشاركين لي في تدريس الطلبة في علوم الاجتهاد وغيرها. وقد يسلكون مسلكاً غير هذا فيقع منهم الإيهام على العوام بمخالفة ذلك الكلام لما يقوله من يعتقدون قوله من الأموات، فينشأ عن ذلك فتن عظيمة وحوادث جسيمة...

فإذا كان هذا في المشتركين في التدريس والإفتاء وهما خارجان عن مناصب الدنيا؛ لأنَّهما في ديارنا لا يقابلان بشيء من الدنيا، لا من سلطان ولا من غيره، من نوع الإنسان، فما بالك بالرئاسات التي لها مدخل في الدين والدنيا، أو التي هي خاصة بالدنيا متمحضة لها؟! فإنَّه لا شك أنَّ التنافس بين أهلها أهم من الرئاسات الدينية المحضة التي لم تشب بشيء من شوائب الدنيا، فينبغي للمنصف أن لا يغفل عن هذا السبب، فإنَّ النفس قد تنقبض عن كلام من كان منافساً في رتبة، معارضاً في فضيلة وإنْ كان حقاً، وقد يحصل مع الناظر فيه زيادة على مجرد الانقباض، فيتكلم بلسانه أو يحرّر بقلمه ما فيه معارضة للحق ودفع للصواب، فيكون مؤْثراً لحمِيَّة الجاهلية وعصبية الطاغوت على الشريعة المطهرة، وكفى بهذا فإنَّه من الخذلان البين، نسأل الله الهداية إلى سبيل الرشاد.[1]

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٣-١٧٤.

**أحد عشر: اختلاف قواعد ومناهج البحث في أصول الفقه والتباسها بما ليس فيها**

ومن أسباب التعصب الحائلة بين من أصيب بها وبين المتمسك بالإنصاف التباس ما هو من الرأي البَحْت بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد. وكثيراً ما يقع ذلك في أصول الفقه، فإنَّه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر، والصحيح بالفاسد والجيد بالرديء، فربَّما يتكلم أهل هذا العلم على مسائل من مسائل الرأي ويحررونها ويقررونها، وليست منه في شيء، ولا تعلُّق لها به بوجه، فيأتي الطالب لهذا العلم إلى تلك المسائل، فيعتقد أنها منه فيرد إليها المسائل الفروعية، ويرجع إليها عند تعارض الأدلة، ويعمل بها في كثير من المباحث، زاعماً أنَّها من أصول الفقه، ذاهلاً عن كونِها من علم الرأي، ولو علم بذلك لم يقع فيه ولا ركن إليه، فيكون هذا وأمثاله قد وقعوا في التعصب، وفارقوا مسلك الإنصاف، ورجعوا إلى علم الرأي وهم لا يشعرون بشيء من ذلك، ولا يفطنون به، بل يعتقدون أنَّهم متشبثون بالحق متمسكون بالدليل واقفون على الإنصاف، خارجون عن التعصب، وقلّ من يسلم من هذه الدقيقة وينجو من غبار هذه الأعاصير، بل هم أقل من القليل، وما أخطر ذلك وأعظم ضرره وأشد تأثيره وأكثر وقوعه وأسرع نفاقه على أهل الإنصاف وأرباب الاجتهاد![1]...

## الفصل الثاني

**طبقات/ فئات المتعلمين، وما ينبغي أن يتعلمه طلاب كل فئة من العلوم**

وإذْ قد انتهى بنا الكلام في بيان الأسباب المانعة من الإنصاف إلى هذه الغاية، وتغلغل بنا البحث إلى ذكر ما ذكرناه من تلك الدقائق التي ينبغي لكل عالم ومتعلم أن تكون نصب عينيه في إقدامه وإحجامه، وأن تكون ثابتة في تصوره في جميع أحواله، وما أحقها بذلك، وأولاها بالحرص على ما هنالك! فإنها فوائد لا توجد في كتاب، وفرائد لا يخلو أكثرها من قوة كثير من المرشدين المحققين، وإن حالَ بينهم وبين إبرازها إلى الفعل حجاب.

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٤-١٧٥.

فلنتكلم الآن على ما ينبغي لطالب العلم أن يتعلّمه من العلوم:[1]

فأقول: إنها لما كانت تتفاوت المطالب في هذا الشأن، وتتباين المقاصد بتفاوت همم الطالبين وأغراض القاصدين، فقد ترتفع همة البعض منهم فيقصد البلوغ إلى مرتبة في الطلب لعلم الشرع ومقدماته، يكون عند تحصيلها إماماً مرجوعاً إليه، مستفاداً منه، مأخوذاً بقوله، مدرساً، مفتياً، مصنفاً. وقد تقصر همته عن هذه الغاية، فتكون غاية مقصده ومعظم مطلبه ونهاية رغبته أن يعرف ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف والوضع، على وجه يستقل فيه بنفسه، ولا يحتاج إلى غيره، من دون أن يتصور البلوغ إلى ما تصوره أهل الطبقة الأولى من تعدّي فوائد معارفهم إلى غيرهم، والقيام في مقام أكابر الأئمة ونحارير هذه الأمة. وقد يكون نهاية ما يريده وغاية ما يطلبه أمراً دون أهل الطبقة الثانية، وذلك كما يكون من جماعة يرغبون إلى إصلاح ألسنتهم وتقويم أفهامهم بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون إليه من الشرع، وعدم تحريفه وتصحيفه وتغيير إعرابه، من دون قصد منهم إلى الاستقلال، بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض، والاحتياج إلى الترجيح.

فهذه ثلاث طبقات للطلبة من المتشرعين الطالبين للاطلاع على ما جاء في الكتاب والسنة، إما كلاً أو بعضاً، بحسب اختلاف المقاصد وتفاوت المطالب.

وثم طبقة رابعة: يقصدون الوصول إلى علم من العلوم، أو علمين، أو أكثر، لغرض من الأغراض الدينية والدنيوية، من دون تصور الوصول إلى علم الشرع. فكانت الطبقات أربع.[2]...

فأكرم بنفس تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب! وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة، فليس بعد ما يتصوره أهل الطبقة الأولى متصور، فإنْ نالوه على الوجه الذي تصوروه فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة، وشرف الدنيا والآخرة، بما لا يظفر به إلا من صنع صنيعهم

(١) المرجع السابق، ص١٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٩-١٨٠.

ونال نيلهم، وبلغ مبالغهم، وإنْ اخترمهم دونه مخترِم، وحال بينهم وبينه حائل، فقد أعذروا، وليس على من طلب جسيماً ورام أمراً عظيماً أن مَنَعَتْهُ عنه الموانع، وصرفتْهُ عنه الصوارف من بأس.[1]...

فاحرص أيها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الأولى، فإنَّك إذا ترقيت من البداية التصورية، إلى العلة الغائية، التي هي أول الفكر وآخر العمل كُنْتَ فردَ العالَم، وواحدَ الدهر، وقريعَ الناس، وفخرَ العصر، ورئيسَ القرن. وأي شرف يسامي شرفَك، أو فخرٍ يداني فَخْرَك، وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله، لا تقلد في ذلك أحداً ولا تقتدي بقول رجل، ولا تقف عند رأي، ولا تخضع لغير الدليل ولا تعوِّل على غير النقد. هذه والله رتبة تسمو على السماء ومنزلة تتقاصر عندها النجوم، فكيف بك، إذا كنت مع هذه المزية مرجعاً في دين الله ملجأ لعباد الله مترجماً لكتاب الله وسنة رسول الله، يدوم لك الأجر ويستمر لك النفع ويعود لك الخير، وأنت بين أطباق الثرى وفي عداد الموتى، بعد مئين من السنين![2]...

**الطبقة الأولى من حملة العلم**

أمَّا أهل الطبقة الأولى التي هي في أرفع مكان وأعزّ محل، يرتقي إليه علماء الشريعة على حسب ما قدمنا بيانه، فينبغي لمن تصور الوصول إليها وقصد الإدراك لها أن يشرع بعلم النحو مبتدئاً بالمختصرات كمنظومة الحريري المسماه بالملحة، وشروحها، فإذا فهم ذلك وأتقنه انتقل إلى كافية ابن الحاجب وشروحها، ومغنى اللبيب وشروحه. هذا باعتبار هذه الديار اليمنية إذا كان طالب العلم فيها؛ لأنَّه يجد شيوخ هذه المصنفات ولا يجد شيوخ غيرها من مصنفات النحو إلا باعتبار الوجادة،[3] لا باعتبار السماع. فإذا كان ناشئاً في أرض يشتغلون فيها بغير هذه المصنفات فعليه الاشتغال بما اشتغل به مشائخ تلك الأرض، مبتدئاً بما هو أقربها

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٣ - ١٨٤.

(٣) ما أُخِذَ من العلم من صحيفة من غير سَمَاعٍ ولا إجازة ولا مُنَاوَلة.

تناولاً، منتهياً إلى ما هو النهاية للمشتغلين بذلك الفن وذلك القطر...

وأعلم أنَّه لا يستغني طالب العلم المتصور المتبحر في علم الشريعة العازم على أن يكون من أهل الطبقة الأولى عن إتقان ما اشتمل عليه "شرح الرَّضَيِّ على الكافية"، من المباحث اللطيفة، والفوائد الشريفة، وكذلك ما في "مغنى اللبيب" من المسائل الغريبة، ويكون اشتغاله بسماع شروح المختصرات بعد أن تكون هذه المختصرات محفوظة له حفظاً يمليه عن ظهر قلبه، ويبديه من طرف لسانه. وأقلُّ الأحوال أنْ يحفظ مختصراً منها هو أكثرها مسائل وأنفعها فوائد، ولا يفوته النظر في مثل: "الألفية لابن مالك" وشروحها، و"التسهيل" وشرحه، و"المفصل" للزمخشري، و"الكتاب" لسيبويه، فإنَّه يجد في هذه الكتب من لطائف المسائل النحوية ودقائق المباحث العربية ما لم يكن قد وجده في تلك.

وينبغي للطالب المذكور أن يطَّلع على مختصر من مختصرات المنطق ويأخذه عن شيوخه ويفهم معانيه، بعد أن يفهم النحو بفهم ما يبتدئ به من كتبه، ليستعين بذلك على فهم ما يورده المصنفون في مطولات كتب النحو ومتوسطاتها من المباحث النحوية، ويكفيه في ذلك مثل المختصر المعروف بـ"إيساغوجي"، أو "تهذيب السعد" وشرح من شروحهما. وسيأتي بيان ما ينبغي الاشتغال به، من فن المنطق إن شاء الله، وليس المراد هنا إلا الاستعانة بمعرفة مباحث التصورات والتصديقات إجمالاً، لئلا يعثر على بحث من مباحث العربية من نحو أو صرف أو بيان، قد سلك فيه صاحب الكتاب مسلكاً على النمط الذي سلكه أهل المنطق، فلا يفهمه كما يقع كثيراً من الحدود والرسوم.[1]...

ثم ينبغي له بعد ثبوت الملكة له نحواً وصرفاً، وإن لم يكن قد فرغ من سماع كتب الفَنَّيْن، أن يشرع في علم المعاني والبيان، فيبتدئ بحفظ مختصر من مختصرات الفن يشتمل على مهمَّاتِ مسائله كـ"التلخيص"، و"شرح السعد" المختصر، وما عليه من الحواشي، وشرحه المطول وحواشيه، فإنَّه إذا حفظ هذا المختصر وحقق الشرحين

(١) المرجع السابق، ص١٩٠-١٩٢.

المذكورين وحواشيهما، بلغ إلى مكان من الفن مَكِينٍ، فقد أحاطت هذه الجملة بما في مؤلفات المتقدمين من شُراح المفتاح ونحوه. وإذا ظفر بشيء من مؤلفات عبد القاهر الجُرْجَاني والسَّكَّاكي في هذا الفن فليُمْعِن النظر فيه، فإنَّه يقف في تلك المؤلفات على فوائد. وينبغي له حال الاشتغال بهذا الفن أن يشتغل بفنون مختصرة قريبة المأخذ قليلة المباحث كفن الوضع، وفن المناظرة، ويكفيه في الأول رسالة الوضع وشرح من شروحها، وفي الثاني آداب البحث العضديه وشرح من شروحها.[1]..

وكما تشعبت مباحث علم المناظرة فقد تشعبت أيضاً عند المتأخرين مباحث علم البديع، فإنَّ الموجود في كتب المتقدمين من أنواعه اللفظية والمعنوية دون أربعين نوعاً، وعند أهل البديعيات زيادة على مائة وخمسين نوعاً.[2]...

ثم ينبغي له أن يكبّ على مؤلفات اللغة المشتملة على بيان مفرداتها كـ"الصحاح"، و"القاموس"، و"شمس العلوم" و"ضياء الحلوم"، و"ديوان الأدب"، ونحو ذلك من المؤلفات المشتملة على بيان اللغة العربية عموماً أو خصوصاً كالمؤلفات المختصة بغريب القرآن والحديث.

ثم يشتغل بعد هذا بعلم المنطق فيحفظ مختصراً من مختصراته، كالتهذيب أو الشمسية، ثم يأخذ في سماع شروحهما على أهل الفن، فإنَّ العلم بهذا الفن على الوجه الذي ينبغي يستفيد به الطالب مَزِيدَ إدراك، وكمالَ استعدادٍ عند ورود الحجج العقلية عليه، وأقلُّ الأحوال أن يكون على بصيرة عند وقوفه على المباحث التي يوردها المؤلفون في علوم الاجتهاد من المباحث المنطقية كما يفعله كثير من المؤلفين في الأصول والبيان والنحو.

ثم يشتغل بفن أصول الفقه بعد أن يحفظ مختصراً من مختصراته المشتملة على مهمات مسائله كـ"مختصر المنتهى" أو "جمع الجوامع" أو "الغاية". ثم يشتغل بسماع شروح هذه المختصرات كـ"شرح العضد على المختصر"، و"شرح المحلى على الجوامع"،

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٤.

وشرح ابن الإمام على الغاية المسمى بـ"الهداية". وينبغي له أن يطول الباع في هذا الفن ويطّلع على مؤلفات أهل المذاهب المختلفة كـ"التنقيح"، و"التوضيح"، و"التلويح"، و"المنار"، و"تحرير ابن الهمام". وليس في هذه المؤلفات مثل التحرير المذكور وشرحه. ومن أنفع ما يستعان به على بلوغ درجة التحقيق في هذا الفن الإكباب على الحواشي التي ألفها المحققون على الشرح العضدي وعلى شرح الجمع.[1]

ثم ينبغي له بعد إتقان فن أصول الفقه، وإن لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته، أن يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب، ومن المؤلفات الماتريدية بنصيب، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب، فإنَّه إذا فعل كل هذا عرف الاعتقادات كما ينبغي، وأنصف كل فرقة بالترجيح أو التجريح على بصيرة، وقابلَ كلَّ قَوْلٍ بالقبول أو الرد على حقيقة. ومن أحسن مؤلفات المعتزلة "المجتبي"، ومن أحسن مؤلفات متأخري الأشعرية "المواقف العضدية" وشرحها للشريف، و"المقاصد السعدية" وشرحها له.[2]...

وإنِّي أقول بعد هذا: إنَّه لا ينبغي لعالم أن يَدِين بغير ما دَانَ به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدِلَّة الكتاب والسنة، وإبراز الصفات كما جاءت، ورد علم المتشابه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدونة في هذا العلم، المبنية على شفا جرف هار من أدلة العقل، التي لا تعقل، ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى. ولا سيما إذا كانت مخالفةً لأدلة الشرع الثابتة في الكتاب والسنة، فإنَّها حينئذ حديثُ خرافة، ولعبةُ لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصلون به إلى معرفة ما يتعلق بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالوعد والوعيد، والجنة والنار، والمبدأ والمعاد، إلا ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وليس للمعقول وصول إلى تلك الأمور. ومن زعم ذلك فقد كلَّف

(١) المرجع السابق، ص١٩٥-١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٧.

العقولَ ما أراحها الله منه، ولم يتَعَبَّدْها به، بل غايةُ ما تدركه وجلُّ ما تصل إليه هو ثبوت الخالق الباري، وأنَّ هذه المصنوعات لها صانع، وهذه الموجودات لها مُوجد، وما عدا ذلك من التفاصيل التي جاءتنا في كتب الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى ألسن رسله فلا يستفاد من العقل، بل من ذلك النقل الذي منه جاءت، وإلينا به وصلت.

واعلم أنَّي عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزدد بها إلا حَيْرة، ولا استفدت منها إلا العلم بأنَّ تلك المقالات خُزَعبلات، فقلت إذْ ذاك مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم:

وغايَـةُ مـا حـصَّـلْتُه مِـنْ مَبَـاحِثي ... ومِنْ نظـري مِـنْ بَعْـدِ طـول التـدَبُّرِ
هو الوقْفُ مـا بـين الطـريقين حَـيْرةً ... فـما عِلْـم مَـنْ لم يلْـقَ غـير التحَـيُّرِ
عـلى أنَّنِـي قـد خُـضْتُ منـه غـمارَهُ ... ومـا قَنَعَـتْ نفـسي بـدون التبَحُّـر

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالِقٍ، وطرحْتُها خلف الحائط، ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنة، المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يَعتمد عليه عباد الله، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم، السالكين مسالكهم، فطاحت الحيْرة، وانجابَت ظُلمة العَماية، وانقشعت سحابة الجهالة، وانكشفت ستور الغِواية، ولله الحمد.

على أني، ولله الشكر، لم أشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة. فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله، مَبْنِيَّةٌ على غير أساس رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع، ويدمغ زائفَها من أنوار الكتاب والسنة.

ولكنني كنت أقدّر في نفسي أنَّه لو لم يكن لدي إلا تلك القواعد والمقالات، فلا أجد حينئذ إلا حيرة، ولا أمشي إلا في ظلمة. ثم إذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة، وفي دعة من تلك الخزعبلات. والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان، في كل زمان.

ثم بعد إحراز هذه العلوم يشتغل بعلم التفسير فيأخذ عن الشيوخ ما يحتاج مثله إلى الأخذ، كـ"الكشاف". ويكبُّ على كتب التفسير على اختلاف أنواعها وتباين مقاديرها، ويعتمد في تفسير كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما ثبت عن رسول الله ﷺ، ثم عن الصحابة، فإنَّهم مع كونهم أعلم من غيرهم بمقاصد الشارع هم أيضاً من أهل اللسان العربي، فما وجده من تفاسير رسول الله ﷺ في الكتب المعتبرة كالأمهات، وما يلتحق بها قدَّمه على غيره، بل يتعيّن عليه الأخذ به، ولا يحل له مخالفته. وأجمعُ مؤلَّف في ذلك وأنفعه وأكثره فائدة: "الدر المنثور" للسيوطي. وما ذكرنا من تقديم ما ورد عن الصحابة مقيد بما إذا لم يخالف ما يُعلم من لغة العرب، ولم تكن تلك المخالفة لأجل معنى شرعي، فإنْ كانت لمعنى شرعي، فقد تقرر أنَّ الحقائق الشرعية مقدمة على اللغوية.[1]...

إذا عرفت ما ينبغي لمن أراد أن يكون من أهل الطبقة الأولى، فاعلم أنَّ أعظم العلوم فائدة وأكثرها نفعاً وأوسعها قدراً وأجلها خطراً علم السنة المطهرة، فإنَّه الذي تكفل ببيان الكتاب العزيز، ثم استقلَّ بما لا ينحصر من الأحكام. ولست أقول إنَّ الطالب يشتغل به في وقت معين، ولا أقول إنَّه يقدِّمه على هذه العلوم المتقدمة، أو يؤخّره عنها، بل أقول إنَّه ينبغي لطالب العلم بعد أن يُقيم لسانه بما يحتاج إليه من النحو أن يُقبِل على سماع الكتب التي جمع فيها أهل العلم متون الأحاديث، مقطوعة الأسانيد، كـ"جامع الأصول" و"المشارق"، و"كنز العمال"، و"المنتقى" لابن تيمية، و"بلوغ المرام" لابن حجر، و"العمدة". ثم يسمع الكتب التي فيها الأسانيد كالأمهات الست، و"مسند أحمد"، و"صحيح ابن خزيمة"، و"ابن حبان"، و"ابن الجارود"، و"سنن الدارقطني"، و"البيهقي".

وبالجملة فما بلغت إليه قدرته ووجد في أهل عصره شيوخه من كتب السنة جد في سماعه، واجتهد بحسب ما يمكنه، ويكون هذا الاشتغال بهذا العلم الجليل مصاحباً لاشتغاله بجميع العلوم المتقدمة من البداية إلى النهاية.

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٨-٢٠٠.

فإذا قضى وطَرَه من سماع كتب المتن والإسناد اشتغل بشروح هذه المؤلفات، فيسمع منها ما تيسر له سماعه، ويطالع ما لم يتيسر له سماعه، ويستكثر من النظر في المؤلفات في علم الجرح والتعديل، ولا تقتصر على المختصرات فقد يكتفي مؤلفوها بقول فرد من أفراد أئمة الجرح والتعديل، بل يتوسع في هذا العلم بكل ممكن، وأنفع ما ينتفع به مثل: "النبلاء"، و"تاريخ الإسلام"، و"تذكرة الحفاظ"، و"الميزان"، فإنَّه يجد في هذه المؤلفات من الاختلاف في المترجم له وذكر أسباب الجرح والتعديل ما لا يجده في غيرها، كـ"تهذيب الكمال" وفروعه.

وهذا بعد أن يشتغل بشيء من علم اصطلاح أهل الحديث كمؤلفات ابن الصلاح، و"الألفية" للعراقي وشروحها، ولا يستغني عن المطولات بالمختصرات، لا سيما إذا بالغ مؤلفوها في الاختصار كـ"النخبة" وما هو مشابه لها.

وينبغي له أن يشتغل بمطالعة الكتب المصنفة في تاريخ الدول وحوادث العالم في كل سنة كما فعله الطبري في تاريخه، وابن الأثير في كامله، وكما فعله كثير من المؤرخين على اختلاف مسالكهم في تخصيص التصنيف بدولة من الدول، أو طائفة من طوائف أهل العلم والأدب، أو فرقة من فرق أهل الرئاسات، أو غير ذلك. فإنَّ للاطلاع على ذلك فائدةً جليلة لا يعرفها إلا من عرف أحوال العالم، وأتقن أهل كل عصر منهم وعلم بأوقات موالدهم ووفياتهم.

فإذا أحاط الطالب بما ذكرناه من العلوم فقد صار حينئذ في الطبقة العالية من طبقات المجتهدين، وكملت له جميع أنواع علوم الدين، وصار قادراً على استخراج الأحكام من الأدلة متى شاء وكيف شاء.

ولكنه ينبغي له أن يطّلع على علوم أخرى، ليكمل له ما قد حازه من الشرف، ويتم له ما قد ظفر به من بلوغ الغاية.[1]...

وبالجملة فالمجتهد على التحقيق: هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه، ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي، وإنْ

(١) المرجع السابق، ص٢٠١-٢٠٤.

كان في آخر الزمان، وكأنَّه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد. فإنَّ الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق. وحينئذ يهون الخطب وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور، وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين.

ومما يزيد من أراد هذه الطبقة العلية علواً، ويفيده قوة إدراك وصحة فهم، وسيلان ذهن الاطلاع على أشعار فحول الشعراء ومجيديهم والمشهورين منهم، باستخراج لطائف المعنى ومطربات النكات، مع ما تحصل له بذلك من الاقتدار على النظم والتصرف في فنونه، فقد يحتاج العالم إلى النظم لجواب ما يرد عليه من الأسئلة المنظومة، أو المطارحات الواردة إليه من أهل العلم. وربما ينظم في فنٍّ من الفنون لغرض من الأغراض الصحيحة، فإنَّ من كان بهذه المنزلة الرفيعة من العلم إذا كان لا يقتدر على النظم كان ذلك خدشة في وجه محاسنه ونقصا في كماله.[1]...

وبالجملة فالعلم بكل فن خير من الجهل به بكثير، ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة. ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات، فإنَّها كما قدمنا لك شعبة من التقليد وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكمٌ عليه بما لديك من العلم، غير محكوم عليك. واختَرْ لنفسك ما يحلو، وليس يُخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء، وإنّما يُخشى على من كان غير ثابت القدم في علوم الكتاب والسنة، فإنَّه ربَّما يتزلزل وتخور قوته، فإذا قدَّمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية فاشتغل بما شئت، واستكثر من الفنون ما أردت، وتبحر في الدقائق ما استطعت، وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل:

أتانا أن سهلاً ذم جهلاً ... علوماً ليس يعرفهن سهل
علوماً لو دراها ما قلاها ... ولكنَّ الرضا بالجهل سهل

وإنِّي لأعجب من رجل يدّعي الإنصاف والمحبة للعلم، ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم، لا يدري به ولا يعرفه، ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٥.

وقد رأينا كثيراً ممن عاصرنا ورأيناه يشتغل بالعلم ويصنّف في مسائل الشرع ويقتدي به بالدليل، فإنَّه سمع مسألة من فن من الفنون التي لا يعرفها كعلم المنطق والكلام والهيئة، ونحو ذلك، نفر منه طبعه، ونفَّر عنه غيره، وهو لا يدري ما تلك المسألة ولا يعقلها قط، ولا يفهم شيئاً منها. فما أحق مِنْ كان هكذا بالسكوت والاعتراف بالقصور، والوقوف حيث أوقفه الله، والتمسك في الجواب إذا سئل عن ذلك بقوله لا أدري، فإنْ كان ولا بد متكلماً ومادحاً أو قادحاً، فلا يكون متكلماً بالجهل، وعائباً لما لا يفهمه، بل يقدم بين يدي ذلك الاشتغال بذلك الفن حتى يعرفه حقَّ المعرفة، ثم يقول بعد ذلك ما شاء.

ولقد وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاً عظيماً وفائدة جليلة في دفع المبطلين والمتعصبين وأهل الرأي البحت، ومن لا اشتغال له بالدليل، فإنَّه إذا اشتغل من يشتغل منهم بفن من الفنون، كالمشتغلين بعلم المنطق جعلوا كلامهم ومذاكراتهم في قواعد فَنِّهِم، ويعتقدون لعدم اشتغالهم بغيره أن من لا يجاريهم في مباحثه ليس من أهل العلم، ولا هو معدود منهم، وإنْ كان بالمحل العالي من علوم الشرع، فحينئذ لا يبالون بمقاله ويوردون عليه ما لا يدري ما هو، ويسخرون منه، فيكون في ذلك من المهانة على علماء الشريعة ما لا يقادر قدره. وأما إذا كان العالم المتشرع المتصدر للهداية إلى المسالك الشرعية والمناهج الإنصافية عالماً بذلك، فإنَّه يجري معهم في فنهم فيكبُر في عيونِهم، ثم يعطفُ عليهم، فيبيِّن لهم بطلان ما يعتقدونه بمسلك من المسالك التي يعرفونها، فإنَّ ذلك لا يصعب على مثله، ثم بعد ذلك يوضح لهم أدلة الشرع فيقبلون منه أحسن قبول، ويقتدون به أتم قدوة. وأما العالم الذي لا يعرف ما يقولون فغاية ما يجري بينه وبينهم خصام وسباب ومشاتمة، هو يرميهم بالاشتغال بالعلوم الكفرية ولا يدري ما هي تلك العلوم، وهم يرمونه بالبلادة وعدم الفهم والجهل بعلم العقل، ولا يدرون ما لديه من علم الشرع.[1]...

(١) المرجع السابق، ص٢٠٧-٢٠٩.

ولا أقول: إنَّ أهل العلم العارفين به المطلعين على أسراره يمنعون أنفسهم من المناصب الدينية، وكيف أقول بهذا وهذه المناصب إذا لم تُربط بهم ضاعت، وإذا لم يدخل فيها الأخيار تتابع فيها الأشرار، وإذا لم يقم بها أهل العلم قام بها أهل الجهل، وإذا أدبر عنها أهل الورع أقبل إليها أهل الجور، وكيف أقول هذا، وأهل العلم هم المأمورون بالحكم بين الناس بالحق والعدل والقسط، وما أنزل الله وما أراهم الله القيام بين الناس بحججه والتبليغ لأحكامه، وتذكيرهم بما أمر الله بالتذكير به، وإرشادهم إلى ما أرشدهم الله إليه، ولأهل القضاء والإفتاء ونحوهما من هذه الأمور أوفر نصيب وأكبر حظ.

ولكنِّي أقول إنَّه ينبغي لطالب العلم أن يطلبه كما ينبغي، ويتعلَّمَه على الوجه الذي يريده الله منه، معتقداً أنَّه أعلى أمور الدين والدنيا راجياً أن ينفع به عباد الله بعد الوصول إلى الفائدة منه، ومن جملة النفع إذا احتاج إليه الملوك وأهل الدنيا أن يلي منصباً من المناصب، فطلبوا منه ذلك، وعوّلوا عليه في الإجابة معترفين بحق العلم، منقادين إلى ما يوجبه الشرع، مُعَظِّمين لما أوجب الله تعظيمَه، وكان قد بلغ إلى منزلة في العلم تصلح لذلك المنصب، وشهد له أهل العلم بكمال التأهيل وإحراز عدته، فهذا إذا كان الحال هكذا لا يحِلُّ له أن يمتنع من الإجابة، أو يأبى من قبول ذلك، فإنَّه إذا فعل ذلك كان تاركاً لما أوجبه الله عليه من القيام بحجته، ونشر أحكامه، وإرشاد عباده إلى معالمه ونهيهم عن تجاوز حدوده.[1]

**الطبقة الثانية من حملة أهل العلم**

وإذا عرفت ما ينبغي لأهل الطبقة الأولى من العلوم، فلنتكلم الآن في بيان ما ينبغي لأهل الطبقة الثانية من الطبقات المذكورة سابقاً، وهي طبقة من يريد أن يعرف ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه، ولا يحتاج إلى غيره، من دون أن يتصور البلوغ إلى ما تصوره أهل الطبقة الأولى من تعدي فوائد معارفهم إلى غيرهم، والقيام في مقام أكابر الأئمة المرجوع إليهم، كما يتصوره أهل الطبقة الأولى.

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٩-٢٢٠.

فنقول: صاحب هذه الطبقة الثانية هو من يطلب ما يصدق عليه مسمّى الاجتهاد، ويسوّغ به العمل بأدلة الشرع. وهو يكتفي بأن يأخذ من كل فنٍّ من فنون الاجتهاد بنصيب، يعلم به ذلك الفن علماً يستغني به عن الحاجة إليه، أو يهتدي به إلى المكان الذي فيه ذلك البحث، على وجه يفهم به ما يقف عليه منه.

فيشرع بتعلُّم علم النحو حتى تثبت له فيه ملكة يقتدر بها على معرفة أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء، وأقل ما يحصل له ذلك بحفظ مختصر من المختصرات المشتملة على مهمات مسائل النحو والمتضمنة لتقرير مباحثه على الوجه المعتبر، كالكافية لابن الحاجب، وقراءة شرح من شروحها المختصرة، وأحسنها بالنسبة إلى الشروح المختصرة "شرح الجامي"، فإنَّه ينتفع به الطالب انتفاعاً لا يجده في غيره من مختصرات الشروح. ثم يحفظ مختصراً في الصرف كـ"الشافية لابن الحاجب"، وقراءة شرح من شروحها المختصرة، وأحسنها "شرح الجاربردي". ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات علم المعاني والبيان كـ"التلخيص" للقزويني، وقراءة شرح من شروحه المختصرة كـ"شرح السعد المختصر".

ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات الأصول وقراءة شرح من شروحه، وأنفع ما ينتفع به الطالب "الغاية" للحسين بن القاسم وشرحها له، فإنهما مع المبالغة في الاختصار قد اشتملا على ما حوته غالب المطولات الكبار.

ثم يشتغل بقراءة تفسير من التفاسير المختصرة كـ"تفسير القاضي البيضاوي"، مع مراجعة ما يمكنه مراجعته من التفاسير.

ثم يشتغل بسماع ما لا بد من سماعه من كتب الحديث، وهي الست الأمهات، فإنْ عجز عن ذلك اشتغل بسماع ما هو مشتمل على ما فيها من المتون، كـ"جامع الأصول"، ثم لا يدع البحث عن ما هو موجود من أحاديث الأحكام في غيرها، بحسب ما تبلغ إليه طاقته، ويبحث عن الأحاديث الخارجة عن الصحيح في المواطن التي هي مظنة للكلام عليها من الشروح والتخريجات. ويكون مع هذا عند ممارسته لعلم اللغة على وجه يهتدي به في البحث عن الألفاظ العربية واستخراجها من مواطنها، وعنده من

علم اصطلاح الحديث وعلم الجرح والتعديل ما يهتدي به إلى معرفة ما يتكلّم به الحفاظ على أسانيد الأحاديث ومتونها.

فمن علم بهذه العلوم علماً متوسطاً يوجب ثبوت مطلق الملكة في كل واحد منها، صار مجتهداً مستغنياً عن غيره، ممنوعاً من العمل بغير الدليل. وعليه أن يبحث عند كل حادثة يحتاج إليها في دينه عن أقوال أهل العلم، وكيفية استدلالهم في تلك الحادثة، وما قالوه وما رُدَّ عليهم به، فإنَّه ينتفع بذلك انتفاعا كاملاً. ويضم إلى علمه علوماً وإلى فهمه فهوماً، وهو وإن قصَّر عن أهل الطبقة الأولى فليس بمحتاج فيما يتعلق به من أمر الدين إلى زيادة على هذا المقدار. ويختلف الانتفاع بالعلوم باختلاف القرائح والفهوم، فقد ينتفع من هو كامل الذكاء، صادق الفهم، قوي الإدراك بالقليل ما لا يقتدر على الانتفاع بما هو أكثر منه كثير من جامدي الفهم، راكدي الفطنة.[1]

**الطبقة الثالثة من حملة العلم**

وأما أهل الطبقة الثالثة وهم الذين يرغبون في إصلاح ألسنتهم وتقويم أفهامهم بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون إليه من الشرع، وعدم تحريفه وتصحيفه، وتغيير إعرابه، من دون قصد منهم إلى الاستقلال، بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج إلى الترجيح.

فينبغي تعلُّم شيء من علم الإعراب حتى يعرف به إعراب أواخر الكلمة، ويكفيه في مثل ذلك حفظ منظومة الحريري المسماة "الملحة" وقراءة شروحها على أهل الفن، وتدرّبه في إعراب ما يطلع عليه من الكلام المنظوم والمنثور. ويكفي السؤال عن إعراب ما أشكل عليه حتى تثبت له بمجموع ذلك ملكة يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء، وإن لم يعلم بوجوده العلل النحوية ولا عرف الحجج العربية.

ثم يتعلم اصطلاح علم الحديث، ويكفيه في مثل ذلك مثل "النخبة" وشرحها، ثم بعد هذا يكبّ على سماع المختصرات في الحديث مثل "بلوغ المرام"، و"العمدة"، و"المنتقى"، وإن تمكّن من سماع "جامع الأصول" أو شيء من مختصراته فعل، فإذا

(١) المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢٢.

أشكل عليه معنىٰ حديث نظر في الشروح أو كتب اللغة، وإن أشكل عليه الراجح من المتعارضات أو التبس عليه هل الحديث مما يجوز العمل به أم لا؟ سأل علماء هذا الشأن الموثوق بعرفانهم وإنصافهم، ويعمل علىٰ ما يرشدونه إليه، استفتاءً وعملاً بالدليل، لا تقليداً وعملاً بالرأي.

ويشتغل بسماع تفسير من التفاسير التي لا يحتاج إلىٰ تحقيق وتدقيق كـ"تفسير البغوي"، وتفسير السيوطي المسمىٰ "الدر المنثور". وإذا أشكل عليه بحث من المباحث، أو تعارضت عليه التفاسير ولا يهتد إلىٰ الراجح، أو التبس عليه أمرٌ يرجع إلىٰ تصحيح شيء مما يجده في كتب التفسير رجع إلىٰ أهل العلم بذلك الفن سائلاً لهم عن الرواية لا عن الرأي.

وقد كان من هذه الطبقة غالب الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين يقول فيهم النبي ﷺ: "خير القرون قرني، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم الذين يلونهم." فإنَّهم كانوا يسألون أهل العلم منهم عن حكم ما يعرض لهم مما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، فيروون لهم في ذلك ما جاء عن الله تعالىٰ، أو عن رسوله ﷺ، فيعملون بروايتهم لا برأيهم، من دون تقليد ولا التزام رأي، كما يعرف ذلك من يعرفه. وقد أوضحت هذا إيضاحاً كثيراً في كتابي الذي سميته "القول المفيد في حكم التقليد"، فليرجع إليه.[1]

**الطبقة الرابعة من حملة العلم**

وأما الطبقة الرابعة الذين يقصدون الوصول إلىٰ علم من العلوم، أو علميْن أو أكثر، لغرض من الأغراض الدينية أو الدنيوية، من دون تصوّر الوصول إلىٰ علم الشرع، كما يفعله من يريد أن يكون مدركاً لصناعة من الصناعات التي لها تعلق بالعلم، وذلك كمن يريد أن يكون شاعراً ومنشئاً أو حاسباً، فإنَّه ينبغي له أن يتعلَّم ما يتوصل به إلىٰ ذلك المطلب.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٢-٢٢٤.

فمن أراد أن يكون شاعراً تعلَّم من علم النحو والمعاني والبيان ما يفهم به مقاصد أهل هذه العلوم، ويستكثر من الاطلاع على علم البديع، والإحاطة بأنواعه، والبحث عن نكته وأسراره، وعلم العروض والقوافي، ويمارس أشعار العرب، ويحفظ ما يمكنه حفظه منها، ثم أشعار أهل الطبقة الأولى من أهل الإسلام، كجرير (توفي: ١١٠هـ) والفرزدق (توفي: ١١٠هـ) وطبقتهما، ثم أشعار مثل بشار بن برد (توفي: ١٦٧هـ)، وأبي نواس (توفي: ١٩٨هـ)، ومسلم بن الوليد، وأعيان من جاء بعدهم كأبي تمام (توفي: ٢٣١هـ)، والبحتري (توفي: ٢٨٤هـ)، والمتنبي (توفي: ٣٥٤هـ)، ثم أشعار المشهورين بالجودة من أهل العصور المتأخرة، ويستعين على فهم ما استصعب عليه بكتب اللغة.

ويكبّ على الكتب المشتملة على تراجم أهل الأدب كـ"يتيمة الدهر" وذيولها، و"قلائد العقيان"، وما هو على نمطه من مؤلفات أهل الأدب، كـ"الريحانة"، و"النفحة".

وكما يحتاج إلى ما ذكرناه من أراد أن يكون شاعراً فهو يحتاج إليه أيضاً من أراد أن يكون منشئاً مع احتياجه إلى الإطلاع على "المثل السائر" لابن الأثير، و"الكامل" للمبرد، و"الأمالي" للقالي، ومجاميع خطب البلغاء ورسائلهم، خصوصاً مثل ما هو مدوّن من بلاغات الجاحظ، والفاضل، والعماد، وأمثالهم، فإنَّه ينتفع بذلك أتم انتفاع.

ومن أراد أن يكون حاسباً اشتغل بعلم الحساب، ومؤلفاتُه معروفةٌ. وهكذا من أراد أن يطلع على علم الفلسفة فإنَّه يحتاج إلى معرفة العلم الرياضي، وهو علم يُعرف به أحوال الكمّ المتصل والمنفصل. والعلم الطبيعي، وهو العلم الباحث عن أحوال عالم الكون والفساد. والعلم الإلهي، وهو العلم الباحث عن أحوال الموجود بما هو موجود، مع ما يتعلق بذلك من أحوال المبدأ والمعاد. وهكذا علم الهندسة، وهو العلم الباحث عن مقادير الأشياء كمّاً وكيفاً، ومبادئ الأشكال. فمن جمع هذه العلوم الأربعة؛ أعني: الرياضي، والطبيعي، والإلهي، والهندسي صار فيلسوفاً. والعلم بالعلوم الفلسفية لا يُنافي علم الشرع، بل يزيد المتشرع الذي قد رسخت قدمه في علم الشرع غبطة بعلم الشرع ومحبةً له؛ لأنَّه يعلم أنَّه لا سبيل للوقوف على ما حاول الفلاسفة الوقوف عليه إلا من جهة الشرع، وأن كل باب غير هذا الباب لا ينتهي بمن

دخل إليه إلى غاية وفائدة.

ومن كان مُريداً لعلم الطب فعليه بمطالعة كتب جالينوس، فإنَّها أنفع شيء في هذا الفن باتفاق من جاء بعده من المشتغلين بهذه الصناعة، إلا النادر القليل. وقد انتقى منها جماعة من المتأخرين ستة عشر كتاباً، وشرحوها شروحاً مفيدة، فإنْ تعذَّر عليه ذلك فأكْمَلُ ما وقَفْتُ عليه من الكتب الجامعة بين المفردات والمركبات والعلاجات "كتاب القانون" لابن سينا، وكامل الصناعة المشهور بـ"الملكي" لعلي بن العباس. ومن أنفع المختصرات في هذا الفن "الذخيرة" لثابت بن قرّة، فإنها قد تضمنت من العلاجات النافعة والأدوية المجربة، مع اختصارها ما هو قائم مقام كثير من المطولات. ومن أنفع ما في هذا الفن باعتبار خواص الأدوية المفردة وبعض المركبات "تذكرة" الشيخ داود الأنطاكي، ولو كمل بالمعالجات لكان مغنياً عن غيره، ولكنه انقطع بعد أن شرع في الكلام على معالجات العلل على حروف أبجد، فوصل إلى حرف الطاء، ثم انقطع الكتاب. ومن أنفع الكتب في هذا الفن الموجز وشروحه.

وبالجملة فمن كان قاصداً إلى علم من العلوم، كان عليه أن يتوصل إليه بالمؤلفات المشهورة بنفع من اشتغل بها، المحررة أحسن تحرير، المهذبة أبلغ تهذيب. وقد قدَّمنا في كل فن ما فيه إرشاد إلى أحسن المؤلفات فيه. وكثيراً ما يقصد الطالب الذي لم يتدرب بأخلاق المنصفين ويتهذّب بإرشاد المحققين الاطلاع على مذهب من المذاهب المشهورة، ولم تكن له في غيره رغبة ولا عنده لما سواه نشاط، فأقرب الطرق إلى إدراك مقصده ونيل مأربه أن يبتدئ بحفظ مختصر من مختصرات أهل ذلك المذهب، كـ"الكنز" في مذهب الحنفية، و"المنهاج" في مذهب الشافعية. فإذا صار ذلك المختصر محفوظاً له متقناً على وجه يستغني به عن حمل الكتاب، شرع في تفهم معانيه، وتدبّر مسائله على شيخ من شيوخ ذلك الفن، حتى يكون جامعاً بين حفظ ذلك المختصر، وفهم معانيه، مع كونه مكرراً لدرسه، متدبراً لمعانيه، الوقت بعد الوقت، حتى يرسخ حفظه رسوخاً، يأمن معه من التفلت.[1]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٤-٢٢٧.

## الفصل الثالث

## مباحث عامة تتضمن إرشاد الباحث إلى بعض القواعد الكلية، ليستغني بها عن كثير من الجزئيات

وإذا عرفت ما ينبغي لكل طبقة من تلك الطبقات من المعارف العلمية، فلنكمل لك الفائدة بذكر مباحث ينتفع بها طالب الحق ومريد الإنصاف انتفاعاً عاماً، ويرتقي بها إلى مكان يستغني به عن كثير من الجزئيات.

### بناء الشريعة على جلب المصالح ودفع المفاسد

فمنها أنْ يعلم أنَّ هذه الشريعة المطهرة السمحة مبنيةٌ على جلب المصالح ودفع المفاسد، ومَنْ تتبع الوقائع الكائنة من الأنبياء والقصص المحكية في كتب الله المنزلة، عَلِمَ ذلك علماً لا يشوبه شك، ولا تخالطه شُبهة. وقد وقع ذلك من نبينا ﷺ وقوعاً لا ينكره من له أدنى علم بالشريعة المطهرة. فإنَّه ﷺ لما تبين له نِفَاق بعض المنافقين واستحقاقُه للقتل بحكم الشريعة قال: "لا يتحدث الناس بأنَّ محمداً يقتل أصحابه،" فترك قتله لجلب مصلحة هي أتم نفعاً للإسلام، وأكثر عائدة على أهله، ودفع مفسدة هي أعظم من المفسدة الكائنة بترك قتله. وبيان ذلك أنَّه إذا تحدّث الناس بمثل هذا الحديث، وشاع بينهم شيوعاً لا يتبين عنده السبب كان ذلك من أعظم المنفرات لأهل الشرك عن الدخول في الدين؛ لأنَّه يصك أسماعهم ذلك الحديث فيظنون عنده أنَّ ما يعتقدونه من السلامة من القتل بالدخول في الإسلام غير صحيح، فيهربون منه هرباً شديداً، ويبعدون عنه بُعداً عظيماً.

وهكذا وقع منه ﷺ التأثير لجماعة ممن لم تثبت قدمه في الإسلام بغنائم حنين، كأبي سفيان، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فكان يُعطي الواحد من هؤلاء وأمثالهم المائة من الإبل، وما يقوم مقام ذلك، والمهاجرون والأنصار الذين هم المقاتلة المستحقون للغنيمة ينظرون إلى ذلك التأثير، ووقع في أنفسهم ما وقع، حتى قال قائلهم: يرحم الله رسول الله يُعطي هؤلاء وسيوفنا تقطر من الدماء، فلما علموا بما أراده النبي ﷺ من المصلحة العائدة على الإسلام وأهله بتأليف مثل هؤلاء وتأثيرهم

بالغنيمة قبلوه أتم قبول، وطابت أنفسهم أكمل طيبة.[1]...

وبالجملة فكل ما وقع من النسخ والتخصيص والتقييد في هذه الشريعة المطهرة، فسببه جلب المصالح أو دفع المفاسد. فإنَّ كل عالم بعلم أنَّ نسخ الحكم بحكم آخر يخالفه لم يكن إلا لما في الناسخ من جلب مصلحة أو دفع مفسدة، زائدة على ما في الأولى من النفع والدفع. وهكذا إخراج بعض ما يتناوله العام بالتخصيص، أو ما يصح إطلاق المطلق عليه بالتقييد، كما وقع في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ونحو ذلك كثير جداً. وقد كان دينه ﷺ وهجيره الإرشاد إلى التيسير دون التعسير، وإلى التبشير دون التنفير، فكان يقول: "يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا." وكان ﷺ يرشد إلى الألفة واجتماع الأمر وينفّر عن الفرقة والاختلاف، لما في الألفة والاجتماع من الجلب للمصالح والدفع للمفاسد، وفي الفرقة والاختلاف من عكس ذلك.

فالعالم المرتاض بما جاءنا عن الشارع، الذي بعثه الله تعالى متمماً لمكارم الأخلاق، إذا أخذ نفسه في تعليم العباد وإرشادهم إلى الحق وجذبهم عن الباطل ودفعهم عن البدع، والأخذ بحُجَزِهم عن كلِّ مَزْلَقَةٍ من المزالق ومَدْحَضَةٍ من المداحض، بالأخلاق النبوية والشمائل المصطفوية الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فيسَّر ولم يعسِّر، وبشَّر ولم ينفِّر، وأرشد إلى ائتلاف القلوب واجتماعها، ونهى عن التفرق والاختلاف، وجعل غاية همه وأقصى رغبته جلب المصالح الدينية للعباد، ودفع المفاسد عنهم، كان من أنفع دعاة المسلمين، وأنجع الحاملين لحجج رب العالمين، وانجذبت له القلوب، ومالت إليه الأنفس، وتذلل له الصعب، وتسهَّل عليه الوعر، وانقلب له المتعصب منصفاً، والمبتدع متسنناً، ورغب في الخير من لم يكن يرغب فيه، ومال إلى الكتاب والسنة من كان يميل عنهما، وتردّى[2] بأثواب الرواية من كان متجلبباً بالرأي، ومشى في رياض الاجتهاد واقتطف من طيب ثمراته، واستنشق من عابق رياحينه، ما كان

(١) المرجع السابق، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) لبس رداءً.

معتقَلاً في سجن التقليد، مكبَّلاً بالقيل والقال، مكتوفاً بآراء الرجال.

فإنْ قلتَ: ما ذكرته من انبناء الشريعة المطهرة على جلب المصالح ودفع المفاسد ماذا تريد به؟ هل يلاحظ ذلك النفع والدفع مطلقاً أو في حالة من الحالات؟

قلتُ: لا أريد ما قدمته إلا أنَّ ما لم يرد فيه نص يخصه ولا اشتمل عليه عموم، ولا تناوله إطلاق فحقٌّ على العالم المرشد للعباد الطالب للحق أن يستحضر ذلك ويرشد إليه، ويهتم به ويدعو إليه.[1]...

**وجوب تدبُّر ومعرفة الكليات الشرعية، وإلحاق الجزئيات بها**

ومما يستعين به طالب الحق ومريد الإنصاف على ما يريده من ربط المسائل بالدلائل والخروج من آراء الرجال المتلاعبة بأهلها من يمين إلى شمال، أن يتدبر الدلائل العامة، ويتفكّر فيما يندرج تحتها من المسائل بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة. فإنَّه إذا تمرَّن في ذلك وتدرّب، صار مستحضراً لدليل كلِّ ما يُسأل عنه من الأحكام الشرعية، كائناً ما كان، وعرف معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ومن أمعن النظر فيما وقع منه ﷺ من استخراج الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى زادَه ذلك بصيرة، كما ثبت عنه أنَّه لما سُئل عن زكاة الحُمُر الأهلية، فقال: لم أجد فيها إلا هذه الآية القائلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] فإنَّ في هذا وأمثاله أعظمَ عبرة للمعتبرين، وأجلَّ بصيرة للمتبصرين، وأوضحَ قدوة للمقتدين من العلماء المجتهدين. وثبت أنَّه ﷺ قال لعمرو بن العاص: "صلَّيْت بأصحابك وأنت جُنُبٌ يا عمرو،" فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. فأقرَّه النبيُّ ﷺ وضحك ولم يقل شيئاً، وهذا بابٌ واسعٌ يطول تعداده.

وهكذا التفكر في الكليات الصادرة عمن أُعطي جوامع الكلم، وأفصح من نطق بالضاد، كقوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"، فإنَّ هذا اللفظ الموجز والعبارة المختصرة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣١-٢٣٢.

صالحة للاستدلال بها على كل جزء من جزئيات الشرع، فتدخل ما حصلت فيه النية في عداد الأعمال المقبولة، ويخرج ما لم تحصل فيه النية إلى حيز الأعمال المردودة، وتصير بها المباحات قربات وعبادات، أقل أحوالها الاندراج تحت حقائق المندوبات، ويبطل كثير من الصور الحاكية لما هو من العبادات بفقد النية وعدم وجودها، أو وجودها لا على الوجه المعتبر. وكقوله ﷺ: "كل بدعة ضلالة،" و"من غشنا فليس منا،" و"الحلال بيّن والحرام بين،" و"كل أمر ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ." فإنَّ كل فرد من أفراد هذه العبارات وأمثالها صالح لجعله قضية كبرى للشكل الأول، فلا يبقى فرد من الأفراد إلا وأمكن إدراجه تحت هذه الكلية، باجتلاب قضية صغرى سهلة الحصول. تقول مثلاً هذا أمر ليس عليه أمر النبي ﷺ وكل أمر ليس عليه أمره رد، فهذا رد، فلا يبقى فعل ولا قول ولا اعتقاد لم يأت به الشرع إلا وأمكن الاستدلال على ردّه بهذا الحديث الصحيح.[1]

**وجوب الالتزام بالمدلول الحقيقي للألفاظ، وعدم الانتقال عنه إلى المجاز إلا بمسوِّغ شرعي وعقلي:**

ومن جملة ما ينبغي تصوره ويعينه استحضاره أن يعلم أن هذه الشريعة المباركة هي ما اشتمل عليه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي والترغيبات والتنفيرات، وسائر ما له مدخل في التكليف، من غير قصد إلى التَّعْمِية والألغاز، ولا إرادة لغير ما يفيده الظاهر، ويدل عليه التركيب، ويفهمه أهل اللسان العربي. فمن زعم أنَّ حرفاً من حروف الكتاب والسنة لا يراد به المعنى الحقيقي والمدلول الواضح فقد زعم على الله ورسوله زعماً يخالف اللفظ الذي جاءنا عنهما، فإنْ كان ذلك لمسوّغ شرعي تتوقف عليه الصحة الشرعية أو العقلية التي يتفق العقلاء عليها، لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنِّحل على العقل، مطابقاً لما قد حبَّبه إليهم التعصب، وأدناه من عقولهم البعدُ عن الإنصاف، فلا بأس بذلك، وإلا فدعوى التجوُّزِ مردودة، مضروب بها في وجه صاحبها.[2]...

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٥-٢٣٦.

**ضرورة تيقظ الباحث لحيل الفقهاء، فلا يغترَّ بها**

ومن جملة ما يستعين به على الحق ويأمن معه من الدخول في الباطل، وهو لا يشعر، أن يقرر عند نفسه أنَّ هذه الشريعة لما كانت من عند عالم الغيب والشهادة، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويعلم ما تكنّ الصدور وتخفيه الضمائر، ويحول بين المرء وقلبه، كانت المخادعة بالحيل الباطلة، والتخلص مما طلبه بالوسائل الفاسدة، من أعظم المعاصي له، وأقبح التجاري عليه، وجميع هذه الحيل التي دوَّنَها أهل الرأي هي ضد لما شرعه، وعناد له، ومراوغة لأحكامه، ومجادلة باطلة لما جاء في كتابه وسنة رسوله.[1]...

فتدبر هذا وتأمله، لتكون على حذر من نَفَاق ما جاءوا به من الحيل الباطلة عندك، وإلا كنت كالبهيمة التي لا تمنع ظهرها من راكب ولا تستعصي على مستعمل. وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على هذا، وكفاك بما قصة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا من حيلة أهل السبت. وقد أورد البخاري في كتاب الحيل من صحيحه ما يشفي ويكفي. ولبعض المتأخرين في هذا مصنّف حافل استوعب فيه جميع الأدلة، وهي معلومة لعلماء الكتاب والسنة. ولكننا اقتصرنا ههنا على بيان الأسباب التي تنشأ عنها الحيل والمفاسد التي تتأثر عنها، ليكون ذلك أدفع للمنصف، وأوقع في نفسه، كما هو دأبنا في هذا المختصر ... وقد ينفع القليل نفعاً لا يبلغه الكثير.[2]...

ومن جملة ما ينبغي له استحضاره أن لا يغترَّ بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها، فقد يُسمَّى الشيءُ باسْمٍ شرعي وهو ليس من الشرع في شيء، بل هو طاغوتٌ بَـحْتٌ. وذلك كما يقع من بعض من نزعه عرق إلى ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث الإناث، فإنَّهم يخرجون أموالهم أو أكثرها أو أحسنها إلى الذكور من أولادهم بصورة الهبة والنذر، والوصية أو الوقف، فيأتي من لا يبحث عن الحقائق فينزل ذلك منزلة التصرفات الشرعية، اغتراراً منه بأنَّ الشارع سوّغ للناس الهبة

(١) المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٩.

والنذر والوصية، غير ملتفت إلى أنَّ هذا لم يكن له من ذلك إلا مجرد الاسم الذي أحدثه فاعله، ولا اعتبار بالأسماء، بل الاعتبار بالمسميات. فالهبة الشرعية هي التي أرشد إليها النبي ﷺ لما سأله بشير والد النعمان عن تخصيص ولده النعمان بشيء من مال، وطلب منه أن يشهد على ذلك فقال: "لا أشهد على جور." ووقع منه الأمر بالتسوية بين الأولاد، وهو حديث صحيح له طرق متعددة. فالهبة المشتملة على التفصيل المخالف لفرائض الله ليست بهبة شرعية، بل هي جور مضاد لما شرعه الله، فإطلاق اسم الهبة عليها مخادعة لله ولعباده، فلا ينفذ من ذلك شيء، بل هو باطل رده لكونه ليس على أمر النبي ﷺ.

وهكذا من خصّص بعض ورثته بنذر يخالف ما شرعه الله من الفرائض، فهذا ليس هو النذر الذي شرعه الله، بل هو نذر طاغوتي، فإنَّ النذر الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يقول فيه النبي ﷺ: "النذر ما ابتغي به وجه الله". ويقول: "لا نذر في معصية الله"، كما هو ثابت في الصحيح...

وهكذا من أخرج بعض ماله على تلك الصفة بالوصية، فإنَّ هذه الوصية المتضمنة للمفاضلة بين الورثة ليست الوصية التي شرعها الله تعالى لعباده، بل وصية طاغوتية.[1]...

**تشكيك المؤلف في حجية الإجماع، والقياس، والاجتهاد، والاستحسان**

ومن جملة ما ينبغي لطالب الحق أن يتصوره ويحذر من قبوله بدون كشف عنه ما يجعله كثير من أهل العلم دليلاً يستدلون به على إثبات الأحكام الشرعية على العباد، وهو الإجماع والقياس والاجتهاد والاستحسان.

فأما الإجماع فقد أوضحت في كثير من مؤلفاتي أنَّه ليس بدليل شرعي، على فرض إمكانه، لعدم ورود دليل يدل على حجيته، وأوضحت أنَّه ليس بممكن لاتساع البلاد الإسلامية، وكثرة الحاملين للعلم، وخمول كثير منهم في كل عصر من الأعصار منذ قام

(١) المرجع السابق، ص٢٤٠-٢٤١.

الإسلام إلى هذه الغاية، وتعذّر الاستقراء التام لما عند كل واحد منهم، وأن الأعمار الطويلة لا تتسع لذلك فضلاً عن الأعمار القصيرة، فإنَّ المدينة الواسعة قد يعجز من هو من أهلها أن يعرف ما عند كل فرد من أفراد علمائها، بل قد يعجز عن معرفة كل عالم فيها، كما هو مشاهد محسوس معلوم لكل فرد، فكيف بالمدائن المتباينة! فكيف بجميع الأقطار الإسلامية، بَدْوِها وحضَرِها، ومداينها وقراها، فقد يوجد في زاوية من الزوايا التي لا يُؤْبَه لها ولا يُرفعُ الرأسُ إليها، من يقل نظيره من المشاهير في الأمصار الواسعة.[1]...

وأما القياس فاعلم أنَّه قد رسمه أهل الأصول بأنَّه مساواة أصل للفرع في علة حكمه، ثم شرطوه بشروط وقيدوه بقيود هي معلومة عند من يعرف الفن، لكنهم توسعوا في هذه المساواة وأثبتوها بأمور هي مجرد خيال، ليس على ثبوته أثارة من علم.

وبيانه أنَّـهم جعلوا مسالك العلة أنواعاً، فأكثر ما قيل إنها عشرة، ثم جميع هذه المسالك إلا القليل هي بَـحْتُ الرأي ومُـحَصِّل الدعاوي المجردة، فعليك أن تضع قدمك موضع المنع، وتقوم في مقام الإنكار، حتى يوجب عليك المصير إلى شيء منها ما لا يقدر على دفعه ولا يشك في صحته، كمسلك النص على العلة، ومسلك القطع بانتفاء الفارق، ومثل هذا فحوى الخطاب، وما شابه هذه الأمور. وإياك أن تثبت أحكام الله بخيالات تقع لك، أو لعالِـم مثلِك، من سابق الأمة، أو لاحقها، فإنَّ عليك من الوزر والوبال ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب.[2]...

وأما فحوى الخطاب ولَحْنِه، فهذان هما راجعان إلى المفهوم والمنطوق، وإن سماهما بعض أهل العلم بقياس الفحوى. وبحث العمل بالمفهوم خارج عما نحن بصدده. وقد جاءت لغة العرب الحاكية لما كانوا يفهمونه ويتحاورون به، ويعملون عليه أنَّ مثل هذا المفهوم كان معتبراً لديهم مأخوذاً به عندهم، ولهذا قال من قال من العلماء: إنَّه منطوق لا مفهوم.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٠.

ولقد تلاعب كثير من أهل الرأي بالكتاب والسنة تلاعباً لا يخفى إلا على من لا يعرف الإنصاف بهذه الذريعة القياسية، وعولوا على ما هو منه أوهن من بيت العنكبوت، وقدموه على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وما هذه بأول فاقرة[1] جاء بها الشيطان، وحسّنها لنوع الإنسان، وذاد بها عباد الله عن شرائعه، ومن أنكر هذا فلينظر المصنفات في الفقه، ويتتبع مسائلها المبنية على مجرد القياس، المبني على غير أساس، مع وجود أدلة نَيِّرة وبراهين مَرْضِيَّة. ومن هذا الباب دخل أهل الرأي، وإليه خرجوا من أبواب الأدلة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

وكل من له فهم لا يَعْزُب عنه أنَّ الله تعالى لم يتعبّد عباده بمجرد قول عالم من العلماء، أنَّه قد أفاده مسلك تخريج المناط، أو تنقيح المناط، أو الشبه، أو الدوران، أو نحو هذا الهذيان. هذا على فرض أنَّه لم يوجد في الكتاب والسنة ما يخالف هذا المسلك الذي لا يسلكه المتورعون، ولا يمشي عليه المتدينون، فكيف إذا كان الدليل المخالف له واضحَ المنار، ظاهرَ الاشتهار، قريبَ الديار لمن سافر إليه من أهل الاعتبار.[2]...

وأما الاستحسان فاعلم أنَّهم رسموه بأنَّه دليل ينقدح في نفس المجتهد ويعسر عليه التعبير عنه. وأنت لا يخفى عليك، إن بقي لك نصيب من فهم وحظ من إنصاف، أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يتعبّد أحداً من عباده بدليل يستدل به أحد من علماء الأمة، ويمكنه التعبير عنه وإبرازه من القوة إلى الفعل، إلا إذا كان صحيحاً تقوم به الحجة، فكيف يتعبّدهم بما انقدح في نفس فرد من أفرادهم على وجه لا يمكنه التعبير عنه، ولا إبرازه إلى الخارج؟! فإنَّ هذا الذي انقدح في نفسه لا ندري ما هو، ولا كيف هو، فكيف يكون حجة على أحد من الناس وقد عجز صاحبه عن بيانه، وعسرت عليه ترجمته؟! فيا لله العجب من هذا الهذيان وكيف استجاز قائله أن يحكم عليه وأنه دليل شرعي،

---

(١) مصيبة تكسر فَقَار الظهر.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥١.

ويفترئ على الشرع ما ليس منه، وعلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما لم يَقُلْهُ.[1]...

وأما الاجتهاد فقد رسموه بأنَّه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظنٍّ بحكم شرعي. ولا شك أنَّ هذا الظن الكائن بعد الاستفراغ وإن تعبّد الله به ذلك المستفرغ لكونه فرضه عند فقد الدليل، كما تقدم البحث عن هذا والاستدلال عليه، لكن الشأن في كون هذا الظن حجة على أحد من عباد الله ممن لم يقع له هذا الظن، ولا تقدم له استفراغ الوسع، فإنَّ الحجة الشرعية ليست ظنون بعض المكلفين بالشرع، المتعبدين به، على البعض الآخر، ولا جاء في الشريعة حرفٌ واحد مما يفيد هذا ويدل عليه، بل صرح الكتاب العزيز بالنهي عن اتباع الظن، وأنَّه لا يغني من الحق شيئاً، وأنَّ بعضه إثم. وهذه الأدلة الكلية توجب على الإنسان أن لا يعمل بظنه في شيء، كائناً ما كان، إلا ما خصصه الشرع. فكيف بظنٍّ غيره؟!

فيا معشر المقلدة، اسمعوا وعوا، فإنَّكم إنَّما تتَّبعون ظنوناً خطَرَت لقوم، الحجة من الله بما في كتابه وسنة نبيه قائمة عليهم كما هي قائمة عليكم، وهم متعبَّدون بها كتعبدكم بها، فما لكم ولهم! وماذا عليكم من ظنونهم! فقد أسفر الصبح لذي عينين، وارتفع ما على قلوب قوم من الرَّيْن، إنْ بقي للهداية مجال، ولاستماع الصواب احتمال.[2]

**ابتلاء الإسلام بالمذاهب وتقديس الأموات**

واعلم أنَّ المفاسد الماحقة لبركة العلم والمفرقة لكلمة المسلمين كثيرة جداً، والإحاطة بها تتعسر. وقد ذكرنا هنا ما حضر عند التحرير. وأعظم ما أصيب به دين الإسلام من الدواهي الكبار والمفاسد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار، أمران:

**أحدهما**: هذه المذاهب التي ذهبت ببهجة الإسلام، وغيرت رونقه، وجهَّمت وجهَه. وقد قدمنا في هذا ما يستغني عن الزيادة إن بقي له فهم يرجع به إلى الحق، ويخرج به من الباطل.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٣.

**والأمر الثاني**: هذه الاعتقادات التي حدثت لهذه الأمة في صالحي الأموات حتى صار الرجل يقرن من يعتقده من الأموات بمن يقلده منهم. فيقول إمامه في المذهب فلان، وشيخه في الاعتقاد والمحبة فلان. وهذا يقوله ظاهراً، وهو لو كوشف ونطق بما في ضميره لقال: وشيخه الذي يعوّل عليه في زعمه عند الشدائد في قضاء حاجاته ونيل مطالبه فلان، فصمِّي صَمَام،[1] من خَلْفٍ وأمام! فإنَّ هذه الداهية الدهياء والمصيبة الصماء العمياء، فقد كان أوائل المقلدة يعتمدون على أئمتهم في المسائل الشرعية، ويعولون على آرائهم، ويقفون عند اختياراتهم، ويدَعُون نصوص الكتاب والسنة، ولكنَّهم لا يُنزلون حوائجهم بغير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يناجون سواه ولا يرجون غيره، ولا يعوّلون إلا عليه، ولا يطلبون إلا منه، فهم وإن خلطوا صومهم وصلاتهم وحجهم وزكاتهم وسائر عباداتهم ومعاملاتهم بآراء الرجال، وقلَّدوا في كثير من تفاصيلها ما لم يأذن الله بتقليده، وأخذوا دينهم على الوجه الذي لم يأمر الله به، ولا ارتضاه لهم، لكنَّهم لم يخلطوا في معنى لا إله إلا الله، ولا تلاعبوا بالتوحيد، ولا دخلوا في أبواب الشرك ومضايق الجحود، وبلايا الجاهلية وما كانوا عليه.[2]...

ويلتحق بالأمرين المذكورين أمرٌ ثالث: وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما، ولا شموله كشمولهما، وهو ما صارت عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة. فقد كان أوَّلَ هذا الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها. ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقاً إلى الدنيا، ومدرجاً إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكاً إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخاً يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحاً وطريقته حسنة، فيلَقِّن أتباعه كلماتٍ تباعدهم من الدنيا، وتقرّبهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة، على أعراف يتعارفوها، ولكنَّه لا يخلو

---

(١) صمِّي صَمَام: مَثَلٌ يُضرب عند مواجهة داهية شديدة يحقُّ للإنسان أن يَصَمَّ ولا يسمع بها. استعملها أبو العلاء المعَرِّي في رثاء أمِّه: فقال:

سمعتُ نَعِيَّها صَمِّي صَمَامِ ... وإنْ قال العواذل لا هَمَام

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٣-٢٥٤.

غالب ذلك من مخالفة للشرع، وخروج عن كثير من آدابه. والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإنْ جاءنا أزهدُ الناس في الدنيا وأرغبُهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالىٰ، وأخشاهم له في الظاهر، فإنَّه لا زهد لمن لم يمش علىٰ الهدىٰ النبوي ولا تقوَىٰ ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإنَّ الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب، وإيقاعِها علىٰ أبلغ الوجوه، بل إنَّما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة لموافقة الشرع، والمشي علىٰ الطريقة المحمدية.[1]...

ولا أنكر أنَّ في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والأصنام المستورة عن الناس، كالحسد، والكبر، والعجب، والرياء، ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه، مبلغاً عظيماً، وارتقىٰ مرتقاً جسيماً، ولكنِّي أكره له أن يتداوىٰ بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبَّب بغير الطبِّ الذي اختاره الله لعباده. فإنَّ في القوارع القرآنية، والزواجر المصطفوية ما يغسل كل قَذَرٍ، ويدحض كل دَرَنٍ، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء...

فإنَّه إذا تداوىٰ بهذا الدواء، ولاحظته العناية الربانية وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير مع ما له من الأجر الكثير، والثواب الكبير، في مباشرة هذه الأسباب.[2]...

وبعد هذا كله، فلست أجهل أنَّ في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة، والمشي علىٰ الطريقة المحمدية، والصراط الإسلامي، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكِبْر، والعُجْب، والحسد، والرياء، ونحوها بمحَلٍّ يتقاصر عنه غيره، ويعجز عنه سواه. ولكنِّي في هذا المصنف بسبب الإرشاد إلىٰ العمل بالكتاب والسنة، والتنفير عما عداهما، كائناً ما كان، فلستُ أحبُّ لمن أراد القرب إلىٰ الله والفوز بما لديه، والظفر بما عنده، أنْ يتسبَّب إلىٰ ذلك بسبب خارج عنهما، من رياضة، أو مجاهدة، أو خلوة، أو مراقبة، أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئاً من الاصطلاحات الموصلة إلىٰ الله عندهم، بل يطلب

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٩-٢٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦١-٢٦٢.

علم الكتاب والسنة، ويأخذُهما عن العلماء المتقنين لهما، المؤثِرين لهما على غيرهما، الـمُتَجَنِّبين لعلم الرأي، وما يوصل إليه، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه، فإنَّه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة، وظفر بهدي الصحابة، وسلِمَ من البدع كائنة ما كانت، فعند ذلك يُحمد مَسرَاه، ويُشكر مَسعَاه، ويفوز بخير أُولاه وأُخْرَاه.[1]

إلى هنا انتهى الكتاب بقلم مؤلِّفِه محمد بن علي الشوكاني غفر الله لهما.

(١) المرجع السابق، ص٢٦٣.

# الخاتمة

انْتَهيْتَ عزيزي القارئ من قراءة هذه النصوص المختارة من عدد من كتب التراث التربوي الإسلامي. ونرجو أن تتذكر ما أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب، من أنَّ الكتب العشرين التي اخترنا منها هذه النصوص، ليست هي جميع كتب التراث التربوي. وقد لاحظت أنَّ النصوص المختارة من كل كتاب ليست هي جميع مادة الكتب التي اخترنا النصوص منها. فقد اكتفينا من النصوص الكاملة ما يكفي للاطلاع على موضوعات كل كتاب برُوحِهِ، ولُغَتِه، ومَنْهَجِه، وتكون جميع هذه النصوص المختارة بين دفتي مُجلِّد واحد.

والآن ما الذي وجدته في هذه النصوص؟ وما المشترك وما المختلف فيها؟ ولماذا ظهر هذا المشترك وذاك المختلف فيها؟ وما النتائج التي يمكنك استخلاصها منها؟ وكيف يمكنك توظيف هذه النصوص في التوصل إلى نتائج أخرى؟ وكيف يمكن الربط بين دلالات هذه النصوص في إطارها الزماني والمكاني، وفي صلتها بسعينا الدؤوب لإصلاح واقعنا التربوي والتعليمي؟

لا شك في أنَّ هذه الأسئلة وكثيراً غيرها، يمكن أن تكون موضوعات للبحث العلمي التفصيلي، وذلك بالتفكّر في هذه النصوص والتأمل في موضوعاتها، وإجراء التحليل المناسب لها للوصول إلى الإجابات الثاوية فيها، واستخلاص كثير من النتائج التي تقود إليها هذه الإجابات. ونأمُل أن يسهم جمع هذا العدد من النصوص في تيسير عمل الباحثين سواءً في صياغة أسئلتهم أو في البحث عن إجاباتها.

وقد حاولنا الإجابة عن بعض هذه الأسئلة في الكتاب الأول من هذه السلسلة: "**التراث التربوي الإسلامي: حالةُ البحث فيه، ولمحاتٌ من تطوُّره، وقطوفٌ من نُصوصِه ومَدَارِسِه**"، ولاحظنا هناك أنَّ معظم البحوث التي أجريت في مجال التراث التربوي الإسلامي كان البحث فيها يتناول في الغالب كتاباً واحداً من كتب التراث،

أو عَلَماً واحداً من أعلام التراث. ولاحظنا كذلك أنَّ البحوث التي كانت تتناول قضية تربوية أو تعليمية محددة، كانت تخلط بين حضور هذه القضية التراث التربوي من جهة وأحكام هذه القضية في القرآن والسنة، من جهة أخرىٰ، بطريقة لا تسمح لنا بالتقويم الموضوعي للتراث في شأن هذه القضية. وهذه الملاحظات تجعلنا نجتهد في اقتراح مشروعات بحثية تضيف بُعداً آخر، ربما يكون ضرورياً للنظر في التراث التربوي بمجمله، فنرىٰ فيه المشترك والمختلف، وخط التطور عبر القرون، والتنوع عبر المدارس الفكرية والأقاليم الجغرافية، والطريقة التي اجتهد علماء التراث فيها، لتنزيل أحكام الإسلام ومقاصده في سياق الزمان والمكان والأحوال، وهو ما سوف يجده القارئ في الكتاب الثالث من هذه السلسة الذي يعرض نماذج من مشروعات بحثية تقدم إجابات لبعض الأسئلة المشار إليه، وتفتح المجال لبحوث أكثر عمقاً وتفصيلاً.

والأهم من ذلك كله خبرة التراث التي نستحضرها في زماننا هذا في ضوء الخبرة التربوية المعاصرة، والتحديات والفرص المتاحة في هذا الزمان، وما يقدّمه ذلك كله لنا اليوم في فهم مقاصد الإسلام وأحكامه التربوية، وتنزيلها علىٰ ظروف زماننا وتحدياته القائمة وفرصه المتاحة. وهو ما نأمل أن يتحقق شيء منه في كتاب لاحق يتحدث عن الفكر التربوي الإسلامي وعندها سوف نجد موقع التراث في هذا الفكر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الموفق لكل خير، والهادي إلىٰ سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

# المراجـع

**أولاً: المراجع العربية:**


- إبراهيم، عبد الأمير إبراهيم شمس الدين. **الفكر التربوي عند ابن جماعة؛ دراسة وتحليل،** نص كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٩٠م.
- إخوان الصفا. **رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا،** بيروت: دار صادر، ط٣، ٢٠١١م.
- الأصبحي، مالك بن أنس. **الموطأ،** تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م.
- الأهواني، أحمد فؤاد. **التربية في الإسلام** (ملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي، وآداب المعلمين لابن سحنون)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري،** الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة. **الجامع الكبير «سنن الترمذي»،** تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. **رسائل الجاحظ،** تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩١م.
- ابن الجزار القيرواني، أبو جَعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد. **سياسة الصبيان وتدبيرهم،** تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٤م.
- الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسى النفوسي. **قناطر الخيرات،** مسقط: دار النهضة للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
- حجازي، عبد الرحمن عثمان. **المذهب التربوي عند ابن سحنون: رائد التأليف التربوي الإسلامي،** بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٦م.

- ابن حجر الهيتمي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر المكي. **تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال**، تحقيق: محمد سهيل الدبس، إشراف: محمود الأرناؤوط، دمشق وبيروت: دار ابن كثير، ط٢، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أربعة أجزاء، ١٩٨٧م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. **مقدمة ابن خلدون**، دراسة وتحقيق وتعليق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م.
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد. **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، دراسة وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، رسالة: "شرح حديث: ما ذئبان جائعان"، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد. **الأعلام؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- الزرنوجي، برهان الدين إبراهيم. **تعليم المتعلم طريق التعلم**، الخرطوم: الدار السودانية للكتب، ط١، ٢٠٠٤م.
- الزيدي، الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد. **كتاب آداب العلماء والمعلمين**، راجعه وعلّق عليه: راشد بن مصطفىٰ الخليلي، بيروت وصيدا : المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٩م.
- السُّبْكِيّ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي. **طبقات الشافعية الكبرىٰ**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي، القاهرة: دار أحياء الكتب العربية للبابي الحلبي، (د. ت.).
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. **كتاب السياسة**، تقديم وضبط وتعليق: علي محمد إسبر، دمشق: بدايات للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م.
- الشوكاني، محمد بن علي. **أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب**، تحقيق ودراسة: عبد الله يحيىٰ السريحي، بيروت وصنعاء: دار ابن حزم ومكتبة الإرشاد، ١٩٩٨م.
- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

- العاملي، زين الدين بن نور الدين علي. **منية المريد في آداب المفيد والمستفيد**، دراسة وتحليل: عبد الأمير شمس الدين، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، بحاشية المصحف الشريف، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **منهاج المتعلم**، حققه وعلق عليه: طه ياسين، دمشق: دار طيبه ودار النهضة، ط١، ٢٠٠٧م.
- الغزّي، أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد العامري. **الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد**، تحقيق: أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، القاهرة: مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- القابسي، أبو الحسن علي بن خلف. **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، دراسة وتحقيق وترجمة فرنسية: أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.
- القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دمشق: دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي. **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، جدة ومكة المكرمة: مجمع الفقه الإسلامي ودار عالم الفوائد، (د. ت.).
- المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **رسالة المسترشدين**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب والقاهرة: مكتب المطبوعات الإسلامية ودار السلام، ط٥، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. **تهذيب الأخلاق**، دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، بغداد وبيروت: منشورات الجمل، ط١، ٢٠١١م.
- النجار، إبراهيم. والزريبي، البشير. **الفكر التربوي عند العرب**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م.
- نشابة، هشام (جمع وتحقيق وتقديم). **التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

- النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، (د. ت.).

**ثانياً: المراجع الأجنبية:**

- Goldziher, Ignaz. *Encyclopedia of Religion and Ethics*, Edited by James Hastings and John a. Selbie, Edinburgh: Charles Scribner's Sons, I912.
- Malkawi, Fathi and Cook, Bradley. *Classical Foundations of Islamic Educational Thought*. Provo, Utah: Brigham Young University Press, 2010.
- Roper, Geoffrey (Editor). *World Survery of Islamic Manuscripts,* London: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation, 1992.

**ثالثاً: المواقع الإلكترونية:**

- https://archive.org/stream/encyclopaediaofr05hastuoft/encyclopaediaofr05hastuoft-djvu.txt

# الكشاف


أ

آثار: ٢٩، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٥٥، ٥٧، ١٠٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٧٦، ٣١١، ٣١٢، ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٣، ٤١١، ٤١٢، ٤١٥، ٤٥٠، ٤٥٨، ٤٧٢، ٤٨٦، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٩، ٥٤٩، ٥٧٨، ٦٠١، ٦٢٣، ٦٥٠.

آثار علمية: ٤١٤.

آخرة: ٣٤، ٣٥، ٨٦، ٨٨، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٩٠، ٣١٠، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٩١، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٥٢٥، ٥٨١، ٦٠١، ٦٠٩، ٦١٦.

آداب العالم والمتعلم: ١٨.

آداب العلماء والمعلمين (كتاب): ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١.

آداب الفتوى: ٤٥١، ٤٨٥، ٤٨٨، ٥٢١، ٥٥٦.

آداب المتعلم: ٣٢٧، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥٧، ٥٧٠، ٥٨٢، ٥٨٥، ٥٩٠.

آداب المجالسة: ٢١٢.

آداب المطاعم: ١٨٢.

آداب المعلمين (كتاب): ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨٠، ١٣٤، ٤٥٠.

آداب المؤاكلة: ٢١٢.

آداب عامة: ١٩.

آفات العلم: ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٦٢.

آفات النفوس: ٣٥٣، ٣٦٥.

آل البيت: ٤٥٠، ٤٥١، ٥٧٠.

آلة العلم: ٣١٦، ٣٣٣، ٤٥١، ٤٩٣، ٥٦٢، ٥٧٠، ٥٩٥.

إباضي (فقه): ٣٤١.

إباضية: ٢٢، ٣٤١، ٣٤٢.

أبلمسيا (مرض): ١١٤، ١١٨، ١٢٠.

إتّباع الأبالسة: ١٧٨.

اتصال السند: ٤١٤.

اثنا عشرية: ٢٢، ٤٥١.

اجتماع (علم): ٤٠٩.

اجتهاد: ١١، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٤٣، ٧٥، ٨٩، ١٠١، ١٢٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٧، ٢٠١، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٧١، ٤٧٥، ٤٨٠، ٤٨٨، ٥٤٣، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٥، ٥٦٠، ٥٧٣، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨٣، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٨، ٦٢٤، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٩، ٦٤٥، ٦٤٩، ٦٥٢.

أحبار بني إسرائيل: ٤٥٧.

أحكام التكليف: ٦٢٨، ٦٣٨.

ابن أحمد، الخليل: ٦٣، ٣٠٤، ٥٩٤.

إحياء علوم الدين (كتاب): ٣٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٢.

اختلاف العلماء: ٧٩، ٤٨١، ٥٠٠، ٥٠٩، ٥٥١.

إخلاص: ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٢٨١، ٢٨٨، ٣٥٣، ٣٥٥، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٢، ٤٧٨، ٤٩٣، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٣٩، ٥٥٩، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٩، ٦١٦.

الإخلاص (علم): ٥٥٩.

أخلاق: ١٢، ١٤، ٣٢، ٣٦، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٥٤، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٤، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٧٩، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٧٧، ٣٩٠، ٣٩٩، ٤٣٩، ٤٥٠، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٣، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٩١، ٥١٠، ٥١١، ٥٢٠، ٥٤٠، ٥٤٤، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٥، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦١٨، ٦٤٣، ٦٤٥.

أخلاق الجاهلية: ٣٧٧.
أخلاق الملوك: ٢١٢.
أخلاق نبوية: ٦٤٥.
أدب: ١٢، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٦، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٩، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٠٩، ١٢٨، ١٤٨، ١٥١، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢١٨، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٨، ٣٨٨، ٤٠٧، ٤١٣، ٤٢٤، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٥، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٤٠، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨١، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٦، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٣١، ٦٣٥، ٦٣٨، ٦٤٢.
أدب الشريعة: ١٧٦.
أدب الطلب ومنتهى الأرب (كتاب): ٦٠٥، ٦٠٧، ٦٠٨.
أدب المجالس: ١٨٤.
أدب المفيد والمستفيد (كتاب): ٤٤٩، ٤٥٠، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١.
أدب الملابس: ١٨٤.
أدلة عقلية: ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣.
أدلة كلية: ٦٥٢.
آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٦٠، ٣٩٨، ٤٥٨.
أديان مقارنة: ٢١٨.
أرثماطيقي: ٩١، ٩٤، ٢٠٦، ٢٢٦.
الأرسابندي، فخر الدين: ٣٠٠.
أرسطاطاليس: ٩٥.
أرواح سارية: ٩٩.
أزهر (الجامع): ٤٩٩.
الأساس لعقائد الأكياس (كتاب): ٥٦٩.
استحسان: ١٧٦، ٦٤٩، ٦٥١.
استسقاء: ١٤٨.
استقراء تام: ٣٩٥، ٦٥٠.
استكبار: ٤٩٢.
أسطرنوميا: ٩٤.
إسفيداج: ١٢٧.
اسكندرية (مكتبة): ١٣.
إسماعيلية: ٨٣، ١٣٤، ٢٠٥.
الأصبحي، مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ١٦، ٧٠، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢، ٣٣٢، ٣٧٩، ٤١٨، ٤٣٠، ٥٠٩، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٧٤.
أصحاب الرأي: ٣٧٩.
أصفهان: ١٧٠، ٢٠٥.
إصلاح أخلاقي: ٥٤.
أصول الدين: ٢٠٥، ٣٢٤، ٣٤١، ٤٣٧، ٥٣٠، ٥٦٩، ٥٧٥، ٥٨٠، ٦٢٢، ٦٣٢.
أصول الفقه: ١٩، ٣٠٥، ٣٢٤، ٣٦٧، ٤١٩، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٨٧، ٥٣٠، ٥٥١، ٥٧٥، ٦٢٢، ٦٢٤، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٢.
أطروحات جامعية: ٢٩٤.
إعارة الكتب: ٣٣٣، ٤٩٤، ٥٦٢، ٥٩٦.
إعراب القرآن: ٧٥، ١٤٨.
أغراض دنيوية: ٣٢١، ٦٠٠.
إفريقية: ٦٩، ٤٣٧.
أفعال المكلفين: ٤١٧، ٥٣٠.
أفعال عارضة: ٨٦.
أفق إنساني: ١٨٧.
أفلاطون: ١٣، ١٦٩، ١٧٩، ٢٤٧، ٤٢٧.
أقاقيا (علاج): ١٢٣.
أقاليم جغرافية: ٢٥٨.
أقيسة عقلية: ٣٧١.
إلهامات: ١٨٨.
إلهيات: ٨٥، ٩٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٤٢٥، ٤٣٥.
ألواح تعليمية: ١٤.
أماكن التعليم: ١٣، ١٧، ١٨.
إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله: ٢٥٥،

٥٣٤، ٥٤٨.
أمر بالمعروف ونهي عن المنكر: ٣٧، ٤٩، ٩٩، ٢٨١، ٢٩٧، ٣٢٢، ٣٤٢، ٤٦٨، ٤٧٢، ٥٢٩، ٥٣٦، ٥٧٢.
أمراض القلوب: ٢٥٦.
أموية: ٢١٨.
إنجيل: ٤٨، ٢٨٢، ٤٥٨.
أندلس: ١٤٧، ٢١٧، ٢١٨، ٢٤٥، ٢٤٧، ٤٠٨، ٤١٨، ٤١٦، ٤٣٢، ٤٣٦، ٤٣٧.
انولوطيقا: ٩٥، ٩٦.
أهل البدع: ١٩٩، ٤٩٩، ٦١٩.
أهل البيت النبوي: ٥٧٠، ٥٩٣، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١.
أهل السبت: ٦٤٨.
أهل السّفه: ١٦٤، ٢٢٦.
أهل السنَّة: ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٦٢٥.
أهل الصُّفَّة: ٥١٢.
أهل الطاغوت: ٦٢٦.
أهل العمران: ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٠.
أهل المشرق: ٤١٤، ٤١٥، ٤٣٧.
أوثان: ٢٣١، ٤٠٣.
أيام النحر: ١٥٤.
إيساغوجي (كتاب): ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٢٠٥، ٦٣٠.
أئمة المسلمين: ١٤٥، ١٤٦، ١٦٥، ٥٧٥.

## ب

باطنية: ٨٣، ٢٥٦.
الباقر، أبو جعفر محمد: ٤٥٦، ٤٦٣، ٥٧٣.
البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: ١٦، ٢٠٥، ٣٠١، ٣٣٢، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٧، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥١٠، ٥١٤، ٥٢٢، ٦٤٨.
بدعة: ٣٩، ٢٥٧، ٢٨٢، ٤٢٢، ٤٥٥، ٤٨٦، ٤٩٣، ٦١٢، ٦٤٧.
بديع (علم): ٦٣١، ٦٤٢.
بر الوالدين: ٢١٢.
براهمة: ٢٣١.
براهين الحساب: ٤٢٦.
بربر: ٤٠٨، ٤٦٣.
برهان: ٤٦، ٩٥، ٩٦، ١٠٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٣٦، ١٧٦، ١٨٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٨٠، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٥، ٣٧١، ٣٧٢، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٣٠، ٤٨٧.
بروج: ٩٤، ٢٢٧.
بزرجمهر (الفارسي): ٢٤٧، ٢٤٨.
بطالة: ٧٣، ١٥١، ١٥٤، ١٨٠، ١٩٥، ٢٣٩، ٣٩١، ٥٤٣، ٥٩٢.
أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٣٣، ٧٦، ٢٦٨، ٢٧٩، ٥٢٨.
بويهيون: ١٧٠، ٢٠٥.
البيان والتبيين (كتاب): ٢٣، ٥٣، ٤٣١.
بيمارستانات: ١٩.

## ت

تابعون: ١٦، ٣١، ٣٧٤، ٣٧٩، ٤١٧، ٤٢٣، ٤٤١، ٥١٠، ٥١٥، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٥٥، ٥٥٧، ٦٣٢، ٦٤١.
تأديب: ١٧، ١٨، ٢٢، ٥٦، ٦٦، ١١٠، ١١٢، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٦، ١٦٠، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٧٥، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٩، ٤٣٨.
تاريخ: ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٧٠، ١٠٩، ١٤٦، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٣٦، ٣١٥، ٣٧١، ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٠١، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٦٠٧، ٦١٥، ٦٣٥.
تاريخ التعليم الإسلامي: ٢٤.
تاريخ الطبري (كتاب): ١٦٩.
تأنيب: ١٦٠، ٢٠٨.
تأهيل: ٤٧٦، ٦٠٥، ٦٣٨.
تأويل: ٢٩، ٣٦، ٤٣، ٦١، ٩٣، ٩٤، ١٣٣، ٢٧٨، ٣٣٠، ٣٤٦، ٥١٠، ٥٨٧، ٦٢٥.
تتار: ٢٩٣.
تثليث: ١٧٣، ٣٩٥.
تجديد: ٢١، ٤٠٩، ٤٨٨، ٥٥٤، ٦٠٥، ٦٠٨.

تحرير العقل: ٦٠٥.
تحرير المقال (كتاب): ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١.
تحصيل العلم: ٢٥٥، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٥، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٠، ٤٣١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٦٠٩.
تحفة المودود بأحكام المولود (كتاب): ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤.
تخلية: ٧٤، ١٥٤، ١٥٥.
تدوين: ١٦، ١٧، ٢٢، ٤٢٢، ٤٤١، ٤٤٢.
تذكرة السامع والمتكلم (كتاب): ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٥٢٠، ٥٧٠.
تراث إسلامي: ١٠، ١٢، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٨٣، ١١٠، ١٧١، ٢٥٦.
تراث تربوي: ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٢، ١١١، ١٧٠، ٢١٩، ٢٩٤، ٣١٦، ٣١٧، ٤٠٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٥٢٠، ٦٠٧، ٦٥٧، ٦٥٨.
تراث صوفي: ١٧، ٣١، ٢٥٦.
تراث فلسفي: ١٣، ١٧، ٤٠٨.
تراجم: ٣٣٥، ٥٦٣، ٥٩٩، ٦٢٥، ٦٤٢.
تربية نفسية: ٢٥٦.
ترتيب السعادات ومنازل العلوم (كتاب): ١٦٧، ١٧٠، ١٧٦، ١٩٠.
ترجيح: ٢٣، ٣٧٢، ٤١٧، ٥٠٠، ٥٢٣، ٥٥٥، ٦٢٤، ٦٢٨، ٦٣٢، ٦٤٠.
تُرْك: ١٨٧، ٢٣٦.
التزكية: ٣١، ٢٥٧، ٥٧٠.
تزكية القلوب (كتاب): ٣١.
تسهير، جولد: ١٤.
تصديقات: ٤١١، ٤٢٧، ٦٣٠.
تصورات: ١٨٨، ٤١١، ٤٢٠، ٦٣٠.
تصوف: ١٢، ١٧، ١٨، ٢٩، ٣٠، ٨٤، ٩٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٤٢، ٣٥٣، ٤٠٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٩٩، ٦٥٣.
تطهير القلب: ٥٣٣، ٦٠٠.
تعصب: ٨٤، ١٠٣، ٥٥٨، ٦٠٥، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٣٧، ٦٤٥، ٦٤٧.
تعليم المتعلم طريق التعلم (كتاب): ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥.
تعنيف: ١٦٠، ٢٠٨، ٥٤٠، ٥٧٨، ٥٨٠.
تفاح حامض: ٢٨٦، ٥٨٤.
التفتازاني، سعد الدين: ٤٤٣.
تفكير ناقد: ٤٠٧.
تلاوة القرآن: ١٥٩، ٣٢٢، ٤٦٦، ٥٠٢، ٥٧٣.
تنزيل (علم): ٩٣.
تنشئة اجتماعية: ٦١٢.
تهافت الفلاسفة (كتاب): ٢٥٦.
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (كتاب): ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.
تواضع: ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٥، ٦٩، ٧٠، ١٠٣، ١٨٤، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٨، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٦١، ٤٤٩، ٤٦٧، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٦، ٤٨٢، ٥٢٧، ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٧١، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٦، ٥٨٨، ٦٠١.
توحيد: ٤٧، ٢٠٦، ٢٩٧، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٨، ٣٩٩، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٨، ٦٠٦، ٦٥٣.
توراة: ١٨، ٤٨، ٢٢٨، ٢٣٢، ٤٥٧، ٤٥٨.

## ث

ثبوت الحكم: ٤١٥.
ثقافة تربوية: ٢٥.

## ج

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: ٢٩، ٥٣، ٥٤، ٤٣١، ٦٤٢.
جالينوس: ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٦٩، ٣٠٣، ٣٧٢، ٣٩٠، ٦٤٣.
جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٦٢، ٢٧٦، ٤٦٢.
الجرح والتعديل (علم): ٦٢٤، ٦٣٥، ٦٤٠.
ابن الجزار، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم: ١٠٩، ١١٠، ١١١.
جعفرية: ٤٤٩.
جلب المصلحة: ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦.

ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم: ١٢، ١٧، ٣١٥، ٥٢٠، ٥٤٢، ٥٤٦، ٥٧٠.
ابن جني، أبو الفتح عثمان: ٤٣٢.
الجنيد (أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز): ٢٩، ٤٢٣.
جواهر بسيطة: ٩٩.
الجوزجاني، أبو علي الحسن بن علي: ٢٠٥.
جومطريا: ٩٤.
جوهر: ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١١١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧، ٢٢١، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٧١، ٤٦١.
جيطال: ٣٤١.
الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسىٰ: ٣٤١، ٣٤٢.

**ح**

الحال (علم): ٢٩٥.
حجامة: ٢٨٦، ٣٢١، ٣٥٤، ٥٧٢.
حديث (علم): ٢١٧، ٢٣٥، ٣٠١، ٥٢٩، ٦٤٠.
حركات الكواكب: ٩٦، ٣٩٥، ٤٢٥، ٤٢٧.
ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: ١٦، ١٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٥.
حسن النية: ٤٦، ٢٩٦، ٣٢٥، ٣٢٨، ٥٢٢، ٥٣٩، ٥٧٨، ٥٨٢.
حضرموت: ٤٠٧.
حق المعلم: ٢٧٧، ٢٩٩.
حقد البعير: ٥٨.
حكماء: ٣١، ٤٠، ٤٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٥، ٨٣، ٩٠، ٩٥، ١٠١، ١٢٩، ١٧٩، ١٩٣، ٢١١، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٩٨، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣، ٤٢٦، ٤٥١، ٤٥٦، ٤٥٩، ٥٤٧، ٦٢٢.
حكمة: ١٤، ٢١، ٤٤، ٤٥، ٨٩، ١٠٤، ١٠٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٧٩، ٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٢١، ٤٢٥، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٩، ٤٨٠، ٥٢٣، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٤٤، ٥٧٤، ٥٨٢، ٥٨٥.
حكمية: ١٨٨، ١٩٠، ٢٢٧، ٣٧٤، ٤٠٧، ٤١٥.
حلم: ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٦٩، ٨٧، ١١٣، ١٣٥، ٢٤٨، ٢٦٣، ٢٧٩، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٦٤، ٤٦٧، ٥٧١، ٦٠١.
حملة القرآن: ٧١، ٤٣٦، ٤٤١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤.
حمورابي: ١٣.
حمية الجاهلية: ٦٢١، ٦٢٦.
حنابلة: ٨٤، ٣٧١، ٦٢٥.
حنفية: ٢٩٣، ٤٣٠، ٤٤٩، ٥٥٢، ٦٢٥، ٦٤٣.
أبو حنيفة، النعمان بن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٢٧٢، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٨، ٥١١.
حواس: ٣٩، ١٠٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ٢٥٥، ٣٢١، ٣٤٦، ٤١٠، ٤٢٧، ٤٨٠، ٥٧١، ٥٨٣.
حواشي: ٣٣٥، ٤٩٤، ٥٦٩، ٥٩٨، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢.
حور عين: ٤٠، ٥٠٢.
ابن حيان، جابر: ١٦٩.
حيل محرمة: ٥٥٤.

**خ**

ختان: ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦.
خزعبلات: ٦٣٣.
خسوف: ١٤٨.
ابن الخطاب، عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ٣٣، ٣٥، ٤٢، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ١٥٣، ١٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٥١، ٣٦٥، ٣٨٥، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٤٠، ٥٤٣، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٧١.
الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد: ٥١١.
خطاطون: ٥٧، ٦٠.
خلفاء راشدون: ٣٢، ٥٥٧.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ١٢، ٢٣، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩.
خلوة: ٣٦، ٤١، ٤٤، ٤٧، ٢٦٥، ٣٥٠، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥١٥، ٦٥٤.
الخوارزمي، أبو بكر: ١٦٩.
خوارم المروءة: ٥٥٠.
الخونجي، أفضل الدين: ٤٣٣.

**د**

دار البقاء: ١٨٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٤٠٢.
دار الخلود: ٣٨، ٢٢٣.

دار الغرور: ٣٨.
دانيال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٤٥٦.
دائرة حضارية: ٢٢.
دباغة: ٣٢١، ٥٧٢.
الدر النضيد في أدب المفيد (كتاب): ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٦٠٦.
دراسات نفسية: ٢٩٤.
دفع مفسدة: ٦٤٤، ٦٤٥.
دقائق العلوم: ٣٠٥، ٣٢٣، ٥٧٤.
دلالات وضعية: ٤١٩.
الدهاقين: ١٠٠.
دهن البنفسج: ١٢١.
دهن الزعفران: ١٢١.
دهن الشبت: ١٢١.
دواوين: ٥١، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٠٩.

**ذ**

ذريعة: ٣٤٩، ٤٣٤، ٦١٧، ٦٥١.

**ر**

الرازي، أبو إسحق إبراهيم بن موسىٰ: ٢٦٠.
الرازي، محمد بن زكريا: ١٦٩.
رحلات: ١٧، ١٨، ٢٤، ٢٩٣، ٤٠٨، ٤٤٩.
رسالة المسترشدين (كتاب): ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢.
رسالة المعلمين (كتاب): ٥٣، ٥٤، ٥٥.
الرسالة المفصلة (كتاب): ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦.
رسالة الهيولىٰ (كتاب): ٩٠، ٩١، ٩٢.
رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (كتاب): ١٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦.
الرعاية لحقوق الله (كتاب): ٣١.
رفق: ٣٥، ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٩٨، ١١٣، ١١٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٣، ٢١٠، ٢٧٣، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٦٠، ٤٦٧، ٤٧١، ٤٧٣، ٥٣٥، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٨٠.
رُقْيَة: ٤٩٧، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١.
رمَّان: ١٢٣، ١٢٥، ٢٤٩، ٣٠٣، ٣١٠، ٣٦٢.
روايات وأخبار (علم): ٩٣.
روحانيون: ٨٩، ٩١، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٤١٢، ٤٨٢.
روغان الثعلب: ٤٢، ٥٨.
رياضيات: ١٣، ٨٤، ٨٥، ٩٤، ١٠٥، ٢٠٦، ٤٥٠.

**ز**

زرادشتيون: ٨٣.
الزرعي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: ٣٠، ٣٧١، ٣٧٢.
الزرنوجي، برهان الإسلام: ١٢، ١٧، ٧١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٠.
زعفران: ١٢١، ١٢٢.
زوايا: ١٨، ٢٠، ٦٥٠.
زيدي، زيدية: ٢٢، ٥٦٩، ٥٩٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٢٠، ٦٣٢.
الزيدي، الحسين بن القاسم: ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠.

**س**

سبعة أحرف: ٧٢، ١٣٦، ١٦٤.
السبكي، تاج الدين: ٣٠، ٣١٥، ٣٧١، ٥١٣، ٥٤٨، ٥٦٣.
ابن سحنون، أبو عبد الله محمد: ١٢، ١٧، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٢.
سرمدي: ١٧٩، ١٨٥، ١٩٣، ٢٤١.
سرياني: ٢٢٨، ٣٧١.
سعادة: ٤٦، ٨٤، ٨٥، ١٠٠، ١٢٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٦، ٢٤٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٨٩، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٢١، ٤٧١، ٥٢٩.
سَفَر التعلم: ٣٠٦.
سفسطة: ٢٥٥.
سكنجبين: ٩٠، ١١٨.
سلاجقة: ٢٠٥.
سلاطين: ٢١٨، ٣٢٢، ٣٥٢، ٤٠٨، ٥٣٦، ٥٥٨، ٥٧٢، ٦٠٦.
ابن سلام، أبو عبيد القاسم: ٢٩.
سلف: ١٤٣، ٣٠٠، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٥١، ٣٦٥، ٣٧٨، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٤٤،

٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٤، ٤٨٩،
٤٩١، ٤٩٤، ٥٠٩، ٥١١، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦،
٥٢٢، ٥٢٤، ٥٣١، ٥٣٧، ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٤٦،
٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦١، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٨٣، ٥٨٤،
٥٨٥، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠١، ٦١٢، ٦١٧، ٦١٨،
٦٢٢، ٦٣٢.
سلوك (علم): ٣٠.
سليم (السلطان): ٤٤٩.
سماعي: ٢٦٥.
سمعيات: ٣٣١، ٤٨١، ٥٩١.
سنة (علماء): ٤٥١.
سنة نبوية: ٢١، ١٧١، ٣٧٢، ٥٩٩.
السنهوري، البدر: ٥١٩.
سهام إبليس: ٤٠، ٥١٤.
السهروردي، أبو الفتوح يحيى بن حبش: ٤٢٤.
سوء (علماء): ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٦.
سوء السريرة: ٣٠٨.
سوفسطيقا: ٩٥.
سوق الآخرة: ١٥٧، ٢٦٨.
سوق الدنيا: ١٥٧.
سياسة: ٥٤، ٦٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١١٠، ١١١،
١١٥، ١١٦، ١٤٩، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٥، ٢٠٦،
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٤، ٢٤١،
٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٤٠٩، ٤٤٠، ٤٤٢.
سياسة الخلفاء: ٣٥٢.
سياسية الرعية: ٢٠٨.
سياسة الصبيان و تدبيرهم (كتاب): ١٠٩، ١١٠،
١١١.
سيبويه، عمرو بن عثمان: ٢٢٤، ٤٣٢، ٤٤٢، ٦٣٠.
سير: ١٧، ١٨، ٢٣، ٦٣، ٧٠، ٩٣، ١٦١، ١٨٥،
١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٤٧،
٢٤٨، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩.
سيرة الحكمة: ١٩٢.
سيرة الكرامة: ١٩٢.
سيرة اللذة: ١٩١، ١٩٢.
ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: ١٢، ١٧، ١٦٩،
٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٦٤٣.

## ش

الشافعي، محمد بن إدريس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٢٩، ٨٤، ٢١٧،
٢٨٢، ٢٩٦، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤،
٣٢٩، ٣٣٢، ٣٧٩، ٤١٨، ٤٣٠، ٤٤٩، ٤٥١،
٤٩٩، ٥٠٩، ٥١٥، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٥، ٥٢٧،
٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٤٣، ٥٤٤،
٥٥٥، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٧١،
٥٧٦، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٩٦.
شافعية: ٨٤، ٣١٥، ٤٤٩، ٤٩٩، ٥٦٩، ٦٤٣.
شرح هداية العقول (كتاب): ٥٦٩.
شرعي (علم): ٤٥١، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٨، ٥٣١.
شرعية (علوم): ٨٥، ٩٣، ٣١٧، ٢٨٢، ٣٢٩، ٣٣٤،
٣٥٤، ٣٦٤، ٣٦٥، ٤١٩، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٥١،
٤٩٣، ٤٩٥، ٤٣٤، ٤٨٦، ٥٩٦، ٥٩٩، ٦٣٦.
شرف العلم: ١٠٢، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٨٩، ٣٤٨،
٤٥٣، ٤٦١.
شروط المناظرة: ٥٢١، ٥٥٧، ٥٥٩.
شرير: ٩٩، ١٩٥.
شريعة (علم): ٦٩، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤،
٢٤٥، ٦٣٠.
شريعة مطهرة: ٦٢٦، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٥٣، ٦٥٤.
شطرنج: ٥٨، ٢٤٦.
شعائر الإسلام: ٣٢٢، ٤٦٨، ٥٣٦، ٥٧٢.
شعوذة: ٣٥٤.
شفقة: ٦٥، ٢٥٩، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٩٥، ٣٠٧، ٣٦٠،
٤٥٩، ٤٧٤، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٧٨، ٥٧٩.
شكّ: ٣٣، ٣٤، ١٤٧، ١٧٨، ٢٠٠، ٢٢٥، ٢٢٧،
٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٥،
٣٠٨، ٣٤٧، ٤٢٣، ٤٣٠، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٧٢،
٤٨٥، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٨٧، ٥٩٨، ٦٢٦، ٦٤٤،
٦٥٠، ٦٥٢، ٦٥٧.
الشمال الإفريقي: ٦٩، ٣٤١.
شمائل: ٥٠٠، ٦٤٥.
الشوكاني، محمد بن علي: ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨،
٦٥٥.
الشيباني، أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٢٩، ٢٥٥، ٣٢٣،
٣٨١، ٤١٨، ٥٣٥، ٥٥٨، ٥٦٢.

شيعة: ٨٣، ٤١٨، ٤٤٩، ٤٥١.

**ص**

صابئة: ٨٣.
صحة المودة: ٢٤٨.
صدقة جارية: ٢٦٧، ٢٧٦، ٣٧٦، ٥٢٤.
صريح العقل: ٣٩٦.
صفاء الضمائر: ٢٤٨.
صفات الباري: ٢٤٧.
صفات معنوية: ٤٢٢.
صلاة الجنازة: ٥٣٤.
صلاة العيدين: ١٤٨.
صلاة الليل: ٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٩.
صلاة بتراء: ٥٩٧.
صلب الرجل: ٣٩٧.
صلة الرحم: ٣١١.
صليبي: ٢٩٣، ٣٤١.
صناعة الهندسة: ٩٤.
صنائع: ٤٣، ٨٥، ٨٦، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ٢١٣، ٣٤٩، ٣٩٢، ٣٩٩، ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤٢٢، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤.
صنعة تربوية: ٦٠٧.
صهيون: ٢٣٢.
صور مجردة: ٩٩.
الصوري، فرفوريوس: ٩٥.
صيارفة: ٦٤، ٦٦.
صياغة: ٥٨، ٣٢١، ٥٧٢، ٦٥٧.
الصين: ٢٢٨، ٢٥٨، ٣٥٠، ٤٥٥، ٥٢٤.

**ض**

ضرب: ٧٤، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٦٢، ٢٠٠، ٢١١، ٢٢٥، ٢٢٦، ٣٣٥، ٤٩٤، ٥٩٩.
ضرورية (علوم): ٢٣٠.

**ط**

طاعة: ٣٧، ٤٨، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٥، ١٩٤، ٢٧٧، ٢٩٩، ٣٢٠، ٣٨٨، ٤٧٢، ٥٢٣، ٥٢٥.
ابن أبي طالب، علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٤٩، ٥٦، ٧٢، ٧٦، ٨٣، ١٥٣، ٢٩٩، ٣٦٢، ٣٨٦، ٥٣٣، ٥٦٥، ٥٦٩.
طب: ١٩، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٥٨، ٨٤، ٩٣، ٩٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٢، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦٦، ٣٧٢، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٥٠، ٤٩٩، ٥١٠، ٥١١، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٨٤، ٥٨٦، ٦٢١، ٦٤٣، ٦٥٤.
طبائعيون: ٣٩٤، ٣٩٧.
طبقات: ١٧، ١٨، ٢٣، ٦١، ٧٠، ١٠٠، ٢١٣، ٢٣٥، ٥٤٨، ٥٦٣، ٦٠٨، ٦١٠، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٥، ٦٣٨، ٦٤٤.
طبيعة: ١٨، ٥٦، ٦٢، ٨٥، ٩٢، ١١٥، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٤٨، ٢٧١، ٣٠٤، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٥، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٢، ٤٤٥.
طبيعيات: ٨٥، ٩٨، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٢٩، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٥.
طرق التعليم: ١٨، ٤١٠، ٤٣٤.
طريقة: ١٠، ٢٢، ٢٤، ١٠١، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٧، ٢٠٧، ٢١٩، ٣٣١، ٣٥٨، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٨٣، ٥٩١، ٥٩٩، ٦١٤، ٦٣٣، ٦٥٤، ٦٥٨.
طلب الرئاسة: ٥٣٨.
طلسمات: ٢٢٠، ٢٢١، ٣٥٤، ٣٦٤.
طهارة: ٨٤، ١٩٠، ٢٠٢، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٣١١، ٣٣٤، ٣٥٨، ٤٦٩، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٤١، ٥٨٢، ٥٩٦، ٦١٠، ٦١١.
طهران: ١٦٩.
طواغيت، طاغوت: ٦٢٦، ٦٤٨، ٦٥٤.
الطوسي، نصير الدين: ٤٤٣.

**ظ**

ظاهرية: ٢٢.
ظواهر الأحكام: ٣٢٢، ٤٦٨، ٥٣٦، ٥٧٢.

**ع**

عالم الأرواح: ٤١٢.
عالم الحس: ٤١١، ٤١٢.
عالم العقل: ٤١٢.
عالم الكون والفساد: ٨٩، ٦٤٢.
العاملي، زين الدين: ٣٢٠، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٩٥.
عبادة الجوارح: ٥٨٢.
عبارة (علم): ٢٣٦، ٢٣٧.
عبرية: ١١٠، ٣٧١.
ابن عبد العزيز، عمر: ١٦، ٤١، ١٥١.
ابن عبد القدوس، صالح: ٢٢٥.
العُتْبِيَّة (كتاب): ٤٣٠، ٤٣١.
عثمانية: ٤٤٩، ٥٦٩.
عدد (علم): ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٤٢٥، ٤٢٦.
العراق: ٤١٨، ٤٤٣، ٤٤٩.
عرب: ١٤، ٢٣، ٢٩، ٥٣، ٦٤، ٧٥، ١١١، ١٤٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٨٢، ٢٩٤، ٣٤٩، ٣٦٧، ٣٨٩، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٨٧، ٤٩٩، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥١٩، ٥٥٢، ٥٧٤، ٦١٥، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٤٧، ٦٥٠.
ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله: ٢٥٥، ٤٣٧.
عروضيون: ٥٧، ٩٥.
ابن عفان، عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٩، ١٣٩، ١٥٣.
عقائد إيمانية: ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٤١.
عقل تجريبي: ٤١١.
عقل تمييزي: ٤١١.
عقل غريزي: ١٨٧، ٣٤٦.
عقل مكتسب: ٣٤٦.
عقل نظري: ٤١١.
عقلية (علوم): ٤٢٥، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٩٥.
عقليات: ٣٣١، ٤١٣، ٤٨١، ٥٩١.
عقوق الوالدين: ١٦٣، ١٦٤، ٣٨٩.
عقيقة: ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢.
علاج طبي: ١٢٠.
علائق دنيوية: ٣٠٦.
علة: ٦٤، ٦٥، ٩٢، ٩٦، ٩٨، ١٠٥، ١٢٥، ١٧٣، ٣٤٥، ٣٦١، ٥٠٦، ٥٦٠، ٦٠٨، ٦٢١، ٦٢٩، ٦٥٠.
علم البشر: ٤١٢.
علماء الإسماعيلية: ١٣٤.
علماء الأمة: ٦٣٣، ٦٥١.
علماء التراث: ٩، ٦٥٨.
علماء الحجاز: ٧٨.
علماء السلف: ٣١٧، ٣٢١، ٥٧٢.
العلموي، عبد الباسط بن موسىٰ: ١٧، ٢٥٠.
عمران: ٨٤، ٣٥٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٠، ٤٤٥.
عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٤٧، ٢٨٢، ٤٥٨، ٤٥٩.

**غ**

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: ١٧، ٣٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٣، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤٢٤، ٥٢٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٦، ٥٤٥، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٨٥، ٥٩١.
الغزي، بدر الدين محمد بن محمد: ٤٥١، ٥١٩.
غفلة: ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٨٧، ٨٨، ١٠٤، ٢٦٣، ٣٠٩، ٤١٢، ٤٣٧، ٤٨٤، ٥٨٩، ٥٩١، ٦٢٥.
غنيمة: ٣٥، ٣٨، ٦٤٤، ٦٤٥.

**ف**

فاطمي: ١٠٩، ١٣٤، ٢٠٥.
فانيذ: ١٢٤.
فحوىٰ الخطاب: ٦٥٠.
فراسة: ٥٤، ٣٦٠، ٤٥٨.
فرائض: ٥٧، ٥٩، ١٤٧، ٢٤٢، ٢٦٧، ٣٠٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٨٨، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٣٥، ٦٤٩.
فُرْس: ٢٩، ٨٤، ١٧٠، ١٨٦، ٢٢٨، ٤٤٢، ٤٥٥.
فرض عين: ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٧٤، ٥١٣، ٥١٦، ٥٣١، ٥٣٤، ٥٥٩.
فروسية: ٥٧، ٣٩٢.

فضائل: ٢٩، ٥٤، ٨٥، ٩٨، ١٠٣، ١٣٩، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٧، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٤٤، ٣٥٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٧٢، ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٣، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٧٠، ٦٠٠، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٨.
فطنة: ٦٠، ١١٦، ٢١٠، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٥٩، ٦١٣، ٦٤٠.
فقه (علم): ٩٣، ١٤٧، ٢٣٥، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٥٣، ٣٥٥، ٤١٧.
الفكر التربوي الإسلامي: ٢٤، ٦٥٨.
فكر تعليمي إسلامي: ٢٥٧.
فكر مدني حر: ١٧١.
فلاحة: ٥٨، ٢٣٧، ٣٥٤، ٤٢٩.
فلاسفة: ٨٣، ٨٤، ٩٦، ١٦٩، ١٧١، ٢٠٦، ٢٥٦، ٣٠٠، ٣٧١، ٦٤٢.
فلسفة: ١٢، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٠٤، ١٦٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٢١٩، ٢٣٥، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٤٣، ٣٥٤، ٤٠٨، ٤٢٥، ٤٣٥، ٦٤٢.
فلسفة عالية: ١٨٥.
فلك: ١٩، ٨٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٤، ٢٠٦، ٢١٩، ٢٦٤، ٤١٣، ٤٢٥، ٤٥٠، ٥٠٤.
فهم القرآن (كتاب): ٣١.
فيض إلهي: ١٨٧.

## ق

القابسي، أبو الحسن علي: ١٢، ١٧، ٧١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦.
قبط: ٢٢٨.
قرآن: ١٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٢١، ٣١، ٣٥، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٨٩، ١٠٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٦، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٥٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٨٦، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٧٨، ٤٨٤، ٤٨٧، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٤٦، ٥٥١، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٣، ٦٠٥، ٦٢٢، ٦٢٦، ٦٣١، ٦٥١، ٦٥٤، ٦٥٨.
قراءة: ١٠، ١٣، ١٤، ١٩، ٢٠، ٢١، ٥٣، ٧٠، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٨٥، ٩٣، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٤، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٣١، ٤١٦، ٤٦٨، ٥٠٢، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٨٠، ٥٨٤، ٥٩٠، ٥٩٥، ٦١، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٥٧.
قِرىٰ الضيف: ٢١٢.
القسطنطينية: ٤٤٩.
قصاص: ١٦٣.
قضاة: ٥٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٥٥٧، ٥٦٣، ٥٦٥.
قناطر الخيرات (كتاب): ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣.
قناعة: ٤١، ٤٣، ٦٤، ١٤٣، ١٦٤، ٢٣٣، ٣٢١، ٣٥٥، ٥٣٩، ٥٧٢.
قنوت: ٧٦، ١٤٨.
قواعد أصولية: ٤٥٠، ٥١٢، ٦٠٨.
قواعد حديثية: ٥١٢.
قواعد منهجية: ٢٠.
قوة البدن: ٤٨٠، ٥٤٣.
قوة قدسية: ٤٨٧.
قوت القلوب (كتاب): ٣٠.
القيروان: ٦٩، ١٠٩، ١٣٣، ١٣٦، ٤١٣، ٤٣٢.

## ك

كتاب وسنّة: ٣٦، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٦٧، ٤١٥، ٤١٧،

٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٢، ٤٦١، ٤٨١، ٤٨٧، ٤٩٣،
٥٣٠، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٢٢، ٦٢٨، ٦٣٢، ٦٣٣،
٦٣٦، ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٥١، ٦٥٣، ٦٥٤،
٦٥٥.
كتابات تعليمية: ٢٢.
كُتَّاب (كتاتيب): ١٤، ١٨، ٥٤، ١٣١، ١٤٥.
كتب التاريخ والرجال والسير: ٢٣.
كتب التراث الإسلامي: ١٠، ١٧، ٣١.
كتب التفسير: ٦٣٤، ٦٤١.
كسبي: ٢٦٥.
كظم الغيظ: ٢٢٢، ٥٧٣.
كف الأذىٰ: ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٨، ٤٩، ٣٢٢، ٥٧٣.
كلام (علم): ١٩، ٢٩، ٣٠، ٢٣٥، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧،
٢٨٢، ٣٥٣، ٣٦٧، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٥،
٤٤٢، ٤٩٥، ٥٣١، ٥٥٨، ٦٢٢، ٦٣٣.
كلام السلف: ٤٤٤.
ابن كلدة، الحارث (الطبيب): ٤٢٩.
الكليني، محمد بن يعقوب: ٤٦٣.
الكناني، أبو القاسم حمزة: ١٣٣.
الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحق: ١٦٩.
كوكب درِّي: ٣٥٦.
كيموس: ١١٣، ١٢٦.
كيمياء: ٩٣، ١٦٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٢٢١.

## ل

لامذهبي (فقه): ٢٢.
اللمعة الدمشقية (كتاب): ٤٥٠.
اللوح المحفوظ: ٦٢٢.
لوقْيُون: ١٣.
لِيسيُوم: ١٣.

## م

مالكي (فقه): ٦٩، ١٣٤، ٤٣١.
ماهية العقل (كتاب): ٣١.
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: ١٧، ٣٤٥، ٣٤٦.
مبتدع: ٤١، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٥٣٠، ٦١٩، ٦٤٥.
مجالسة العلماء: ٢٨٨، ٦٠٥.
المجسطي: ٢٠٥، ٢٢٧.
مجلس التصحيح: ٥٩١.
مجوس: ٢٣١.
المحاسبي، الحارث بن أسد: ١٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤٥،
٤٢٤.
محبة: ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٨٣، ١٢٨، ١٧١، ١٨٠،
١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧،
١٩٩، ٢٢٠، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٨٩، ٣٣٥،
٤٧٣، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٤١، ٦١٧، ٦٢١، ٦٢٥،
٦٣٦، ٦٤٢، ٦٥٣، ٦٥٤.
محرمات: ٢٥٩، ٤٧٣، ٥٤٠.
محسوسات: ١٠٥، ١٧٣، ١٨٧، ٤١٠، ٤٢١، ٤٢٥،
٤٢٧، ٤٤٠، ٤٥٩.
محمودة (علوم): ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٦٥.
مختصرات: ٣٣٢، ٤٣٣، ٥٩٢، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١،
٦٣٥، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤٣.
مدارس: ٩، ١٠، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦،
٨٥، ١٠٣، ٢٦٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٣٥، ٣٣٦،
٣٥٠، ٣٧١، ٤١٣، ٤٣٦، ٤٣٧، ٥٠٠، ٥١٩،
٥٧٠، ٦٥٧، ٦٥٨.
مدارس التراث التربوي الإسلامي: ١٧.
مدارس فكرية: ٢٥، ٦٥٨.
مذموم: ٦٢، ١١٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٨٣، ٢٣٣، ٢٤٠،
٢٥١، ٢٧٩، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠٨، ٣٤٢، ٣٤٤،
٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٤،
٣٦٥، ٣٦٦، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٩١، ٥٢٦، ٥٣٠،
٥٦٠.
مداواة النفوس (كتاب): ٩٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩،
٢٢٣.
مدخل فقهي حديثي: ٥٠٠.
مدرسة حديثية: ١٧.
مدركات ضرورية: ٣٤٦.
مذاكرة: ٥٦، ١٠١، ١٨٢، ٢٨٧، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٢٨،
٤٦٨، ٤٧٧، ٤٨٥، ٥٢٩، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٤٦،
٥٤٧، ٥٨٣، ٥٩٣.
مذهبية إسلامية: ١٧١.
مراتب العلوم (كتاب): ١٧٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠،
٢٤٥.
مراصد: ١٩.

مراهق: ١٢٠، ٣٩٩، ٤٠١.
مرجعية إسلامية: ١٧١.
مرحلة الطفولة: ٢٢.
مروءة: ١٠٩، ١٥٣، ١٦٤، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٥، ٣٢١، ٤٩٤، ٥١٠، ٥١١، ٥٤٢، ٥٥٠، ٥٧٢، ٦٠٠.
مساجد الجماعات: ٤٦٨، ٥٣٦، ٥٧٢.
مسالك شرعية: ٦٣٧.
مستعير: ٤٩٤، ٥٩٦.
مستفتي: ٣٢، ٤٥١، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٤٩، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧.
المسجد الأقصىٰ: ٣١٥.
ابن مسروق، أبو العباس أحمد بن محمد: ٢٩.
ابن مسعود، عبد الله: ٣٤، ٤٠، ٤٨، ٧٢، ١٤٧، ٢١٧، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٨٢، ٥٠٩، ٥٢٩.
مسكويه، أبو علي أحمد محمد بن يعقوب: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.
مسوِّغ شرعي: ٦٤٧.
مسوِّغ عقلي: ٦٤٧.
ابن المسيب، سعيد: ٣٥١، ٥٥٥.
مشاهرة: ١٦١.
مشاورة: ٥٤، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣٠٤.
مشايخ الخلف: ٣١٧.
مصادر التراث: ١٢.
مضري: ٤٤٤.
مطارحة: ٢٨٧، ٣٠٤، ٣٠٥.
مطالعة: ١٨٨، ٢٢٩، ٢٤٥، ٣٠٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٣٢، ٤٦٨، ٤٨٤، ٤٨٥، ٥٣٦، ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٨٣، ٥٩٢، ٦٢٤، ٦٣٥، ٦٤٣.
مطوَّلات: ٦٣٠، ٦٣٢، ٦٣٥، ٦٣٩، ٦٤٣.
معابد فرعونية: ١٣.
معاد: ٣٩، ٥٣، ٨٨، ٩٩، ١٠٠، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٨١، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٤٦٤، ٦٠٦، ٦٣٢، ٦٤١، ٦٤٢.
المعاني والبيان: ٦٣٠، ٦٤٢.
معاوضات: ٣٥٧.
معتزلة: ٢٩، ٣٠، ٥٣، ٨٣، ٤٢٢، ٥٥٨، ٦٣٢.
ابن المعتمر، بشر: ٥٣.
معدوم: ٢٢١، ٢٣١، ٤٦٠.
معرفة الصانع: ٢٨١، ٣٩٩.
معلم: ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٣، ٣١، ٤٤، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ١٠٢، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٧٠، ١٨٥، ١٩٣، ٢٠٧، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٧، ٣١٦، ٣١٧، ٣٤٢، ٣٥١، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٤١٣، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٩، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٦٠٧.
مقاصد الإسلام: ٢١، ٤٠٧، ٤٠٩، ٦٥٨.
مقاصد الدنيا: ٦٠٩.
مقاصد الفلاسفة (كتاب): ٢٥٦.
مقدمة ابن خلدون (كتاب): ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩.
ابن المقفع، عبد الله: ٦٣.
مقلد: ٥٦، ٢٤٢، ٢٩٧، ٣٩٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٦، ٦٥٢، ٦٥٣.
مكتبة: ١٣.
مكروهات: ٤٧٣، ٥٤٠.
المكي، أبو طالب محمد بن علي: ٣٠.
بنت ملحان، أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ١٤، ٣٩٦.
ملّة إسلامية: ٢٣٥، ٤١٦، ١٤١.
ملّة حنيفية: ٤٩٣.
ملكات علمية: ٤٩٥.
ممارسات تربوية: ٢١.
مماليك: ١٠٠، ١٨٥، ٤٣٨.

مناصب: ٣١٥، ٣٦٥، ٦١٤، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٦، ٦٣٨.
مناظرة: ٩٥، ٢٨٧، ٣٠٤، ٤١٣، ٤٢٢، ٤٥١، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٦١٧، ٦٣١.
مناهج: ١٢، ١٧، ١٩، ٦٢٧، ٦٣٧.
المنصور، أبو جعفر: ٤٢٧.
منطق: ١٩، ٤٣، ٥٨، ٨٥، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠٥، ١٦٩، ١٨٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٩١، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٨٧، ٤٩٩، ٥١٩، ٥٦٩، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٧.
منظومة الحريري (كتاب): ٦٢٩، ٦٤٠.
المنقذ من الضلال (كتاب): ٣٠، ٢٥٥، ٢٥٦.
منهاج المتعلم (كتاب): ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧.
مواريث: ٦٥، ٢٣٨، ٢٤٢، ٣٥٤.
مؤدبون: ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٧٢، ٧٧، ١٤٦، ١٥٣، ١٨٥، ١٨٩، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٣٢، ٤٣٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥١٤، ٥٢٥.
مؤرخون: ١٣، ١٨، ٢٠، ٢٤، ٨٣، ١٠٩، ١١٠، ١٣٣، ١٦٩، ٢١٧، ٢١٨، ٤٠٨، ٤٩٩، ٥١٩، ٦٠٥، ٦٢٥، ٦٣٥.
مؤسسة: ١٣.
موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٣٠٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٦٦، ٥٤٣، ٥٤٥.
موسيقىٰ: ٨٤، ٩٤، ٢٠٦، ٢٢٠، ٢٢١، ٤٢٥.
موضوعات: ٩، ١٠، ١١، ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٥٣، ٧٠، ٨٥، ١١٩، ١٣٥، ١٧٠، ٢٠٧، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٩٤، ٤٠٩، ٤١٥، ٤٣٣، ٥٠٠، ٥٢٠، ٦٢٣، ٦٥٧.
الموطأ (كتاب): ١٦، ١٣٣، ٣٨٣.
ميتافيزيقيا: ٨٥.

**ن**

نارنجات: ٢٥٩.
النائلي، أبو عبد الله: ٢٠٥.
نبوّات: ١٣، ٢٣١، ٦٠٦.
نجوم: ٥٧، ٥٩، ٩٤، ١٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٩٦، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤٢٦، ٦٢٩.
نحو (علم): ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٨٢، ٦٢٩، ٦٣٩، ٦٤٢.
نحويون: ٥٧، ٨٤، ٤٤١، ٦٣٠، ٦٤٠.
نساء البوادي: ٣٨٩.
نسخ: ١٨، ٢٢، ٥٤، ٢٤٤، ٣٣٣، ٣٣٤، ٤١٧، ٤٩٤، ٥٠٢، ٥١٢، ٥٢٢، ٥٥٤، ٥٦٢، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٦٠٧، ٦٤٥.
نصارىٰ: ٨٣، ١٣٥، ٢٣١، ٢٨٢، ٣٧١، ٤٣٧، ٦٢٠.
نصحاء: ٢٠٠.
نصوص التراث: ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٥٢٠.
نصيحة: ٣٠، ٣٤، ٣٨، ٨٤، ١٤٨، ١٧٦، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٢٠، ٢٣٣، ٢٩٥، ٣٠٧، ٣٦٠، ٤٧٣، ٤٨٥، ٥٠٠، ٦١٦.
النّظام، إبراهيم بن سيار: ٥٣.
نظم القرآن: ٥٣.
نفس إنسانية: ١٨، ٢٩، ٣١، ١٧٢، ٤١١، ٤٢٩.
نفس بهيمية: ١٧٨، ١٧٩.
نفس عاقلة: ١٧٩.
نفس غضبيّة: ١٧٨، ١٧٩.
نفس فاجرة: ٤٠٢.
نفل: ٤٧، ٥٣٥.
نقلية: ٤١٠، ٤١٥، ٤١٦، ٤٥٢.
نمو الجنين: ٣٧٢.

**هـ**

ابن هارون، سهل: ٢٩.
هجرة: ٢٨٧، ٤١٨، ٥٦٦، ٦٠٥.
هدي إلهي: ٢٠.
همة عالية: ٢٨٥، ٣٠٢.
الهمداني، بديع الزمان: ١٦٩.
همذان: ٢٠٥، ٢٠٧.
الهند: ٢٩، ٥٣، ٦٠، ٨٤، ٩١، ٢٢٨، ٢٤٧.
هندسة: ٥٨، ٦٠، ٨٤، ٩١، ٩٤، ١٧٦، ٢٠٥، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٤٣، ٤٢٥، ٤٢٧، ٦٤٢.
هندسية: ٤٢٦، ٤٢٧.

هيئة (علم): ٢٣٦، ٢٤٣، ٤٢٥، ٤٢٧.
الهيتمي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر: ٤٩٩.

**و**

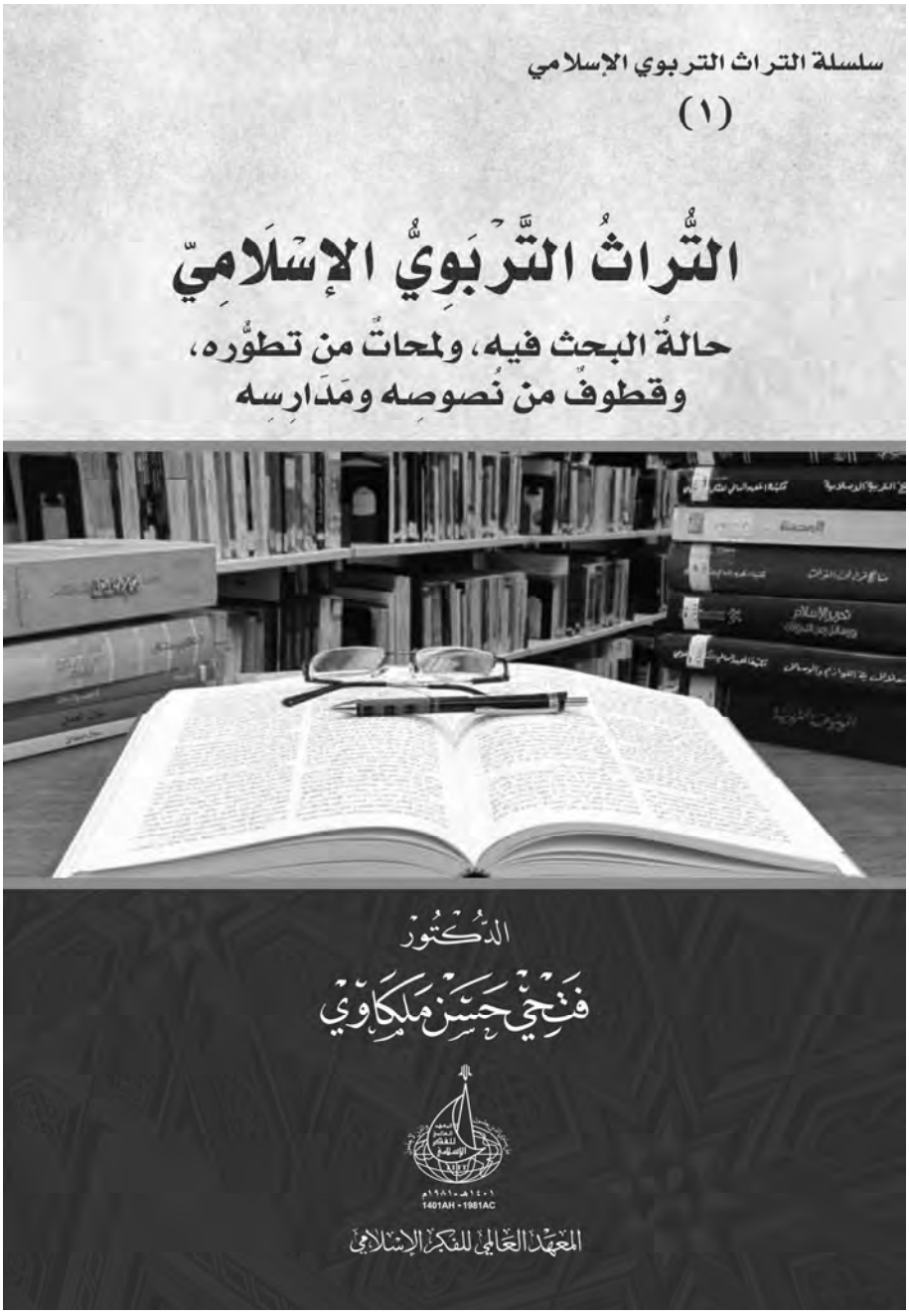
واجبات: ١٣٤، ١٤٢، ٢٢٥، ٢٧١، ٢٧٧، ٣١١، ٤٦١.
والد جسماني: ٤٨٢.
والد روحاني: ٤٨٢.
وحدة الوجود: ٣٧١.
وحي: ١٣، ٣٢، ٨٥، ١٨٨، ٢٣١، ٣٢٥، ٣٥٦، ٣٧٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٢٩، ٥٧٨، ٦٣٥.
وراء الحس: ٤١١، ٤٢١.
وراثة الأنبياء: ٣١٧.
وزراء: ٥٧، ١٧٠، ٢٠٩، ٢١٧، ٦١٦.
وضيمة: ٣٨١.
وكيرة: ٣٨١.

**ي**

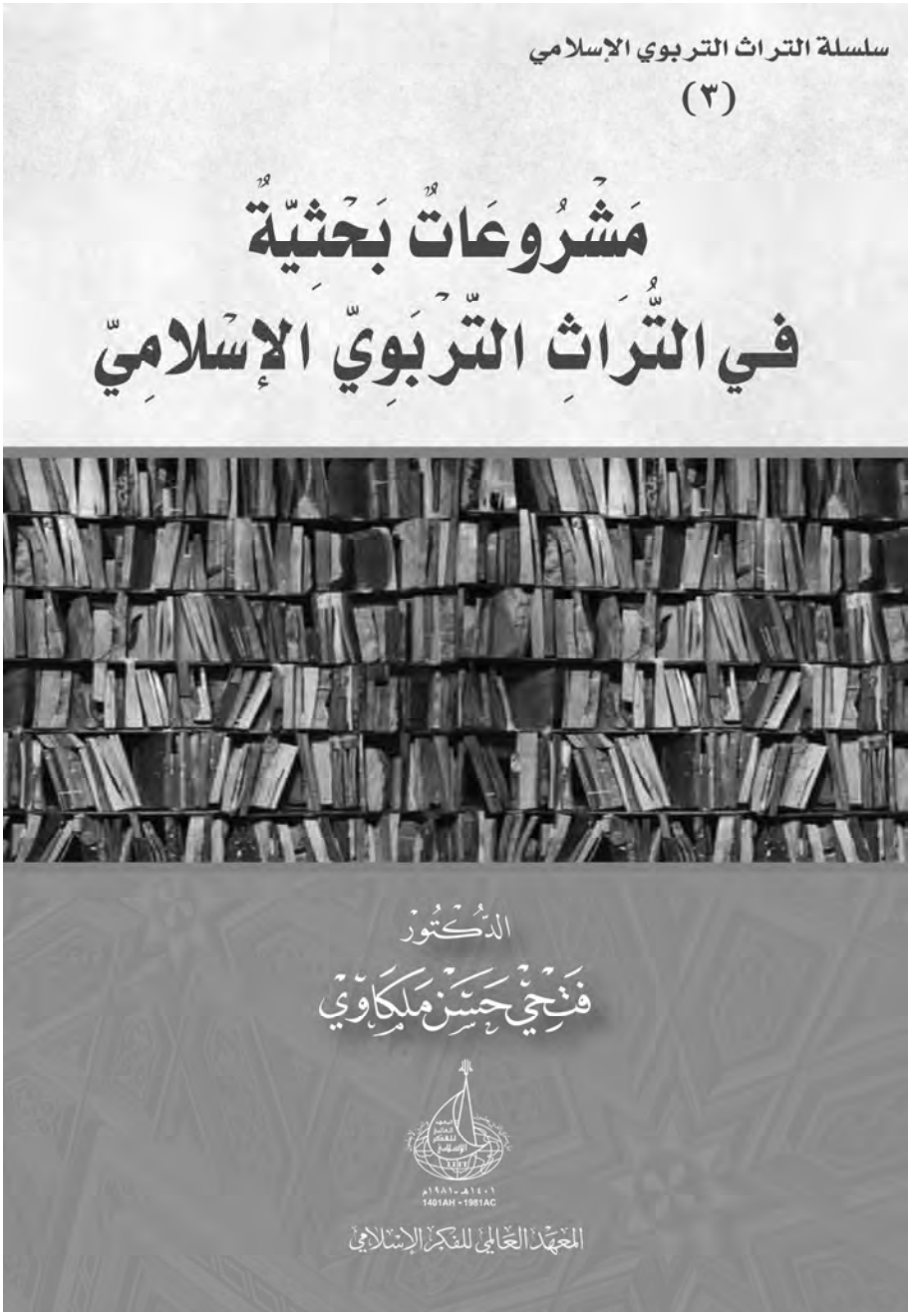
يافع: ٤٠١.
يقين: ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٥٥، ٣٦١، ٤٢٣، ٤٣٨، ٥٣٦، ٦١٣.
ينابيع الحكمة: ٤٨٠، ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٨٣.
يهود: ٨٣، ١٤٣، ٢٣٢، ٢٧٥، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٣٨، ٦١٠، ٦١٥، ٦٢٠.
أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: ٢٧٠، ٢٧٢.
يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٤٥٨.
يونان، يوناني، يونانية: ١٣، ٢٩، ٥٣، ٨٤، ١٠٩، ١١٠، ١٦٩، ٢٠٧، ٤٢٧.



صدر حديثاً للمؤلف



**صدر حديثاً للمؤلف**



**صدر حديثاً للمؤلف**




المعهد
العالمي
للفكر
الإسلامي

## هذا الكتاب




هو الثاني في سلسلة كتب التراث التربوي الإسلامي، سبقه كتاب "التُّراثُ التَّربَويُّ الإسْلاميّ: حالةُ البحثِ فيه، ولمحاتٌ من تطوُّره، وقطوفٌ من نُصوصِه ومَدَارِسِه"، ويليه الكتاب الثالث في السلسة بعنوان: "مشروعاتٌ بحثيّةٌ في التُّراثِ التَّربويِّ الإسلاميّ."

مادة التراث التربوي الإسلامي كبيرة الحجم، ممتدّة في الزمان والمكان، وهي نتاج مدارس فكرية تُعبِّر عن تنوّعٍ واسع في المذاهب والفِرَق والتخصصات العلمية. وتتوزع نصوصها في كتب متخصصة في مسائل التعليم وأمكنته ومستوياته، وفي كتب أخرى في الفقه والحديث والأدب والتاريخ والفلسفة. ويكشفُ هذا الكتاب عن بعض تجليات هذا التنوُّع والتعدُّد، في تخصّصات المصنِّفين واهتماماتهم، ومدارسهم الفكرية. وفي الكتاب نصوص مختارة من مصنفات التراث، مع تعريف موجز بالمصنَّف، وتعريف آخر بمؤلِّفه.

وتمثّل النصوص المختارة المذاهبَ الفقهية السُّنّية الأربعة، ومذاهب الاثنى عشرية والزيدية والإباضية والظاهرية، ومثال على الفقه اللامذهبي، إضافة إلى المدارس والتوجهات الفكرية والعلمية: الحديثية، والفقهية، والفلسفية، والتاريخية، والأدبية، والطبية. وحتى يتحقق هذا التمثيل وصل عددُ النصوص المختارة إلى عشرين نصاً لعشرين عالِماً.

## فتحي حسن ملكاوي



تربوي وأستاذ جامعي أردني، دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميشجان الأمريكية، ماجستير في علم النفس التربوي، وبكالوريوس في الكيمياء والجيولوجيا. مدير إقليمي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عضو مجمع اللغة العربية الأردني. من آخر إنتاجه العلمي: "منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية"، و"البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه"، و"منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، و"مقالات في إسلامية المعرفة"، و"الفكر التربوي الإسلامي".

ISBN 978-1-56564-804-3
9 781565 648043

1401هـ - 1981م
1981AC - 1401AH
المعهد العالمي للفكر الإسلامي